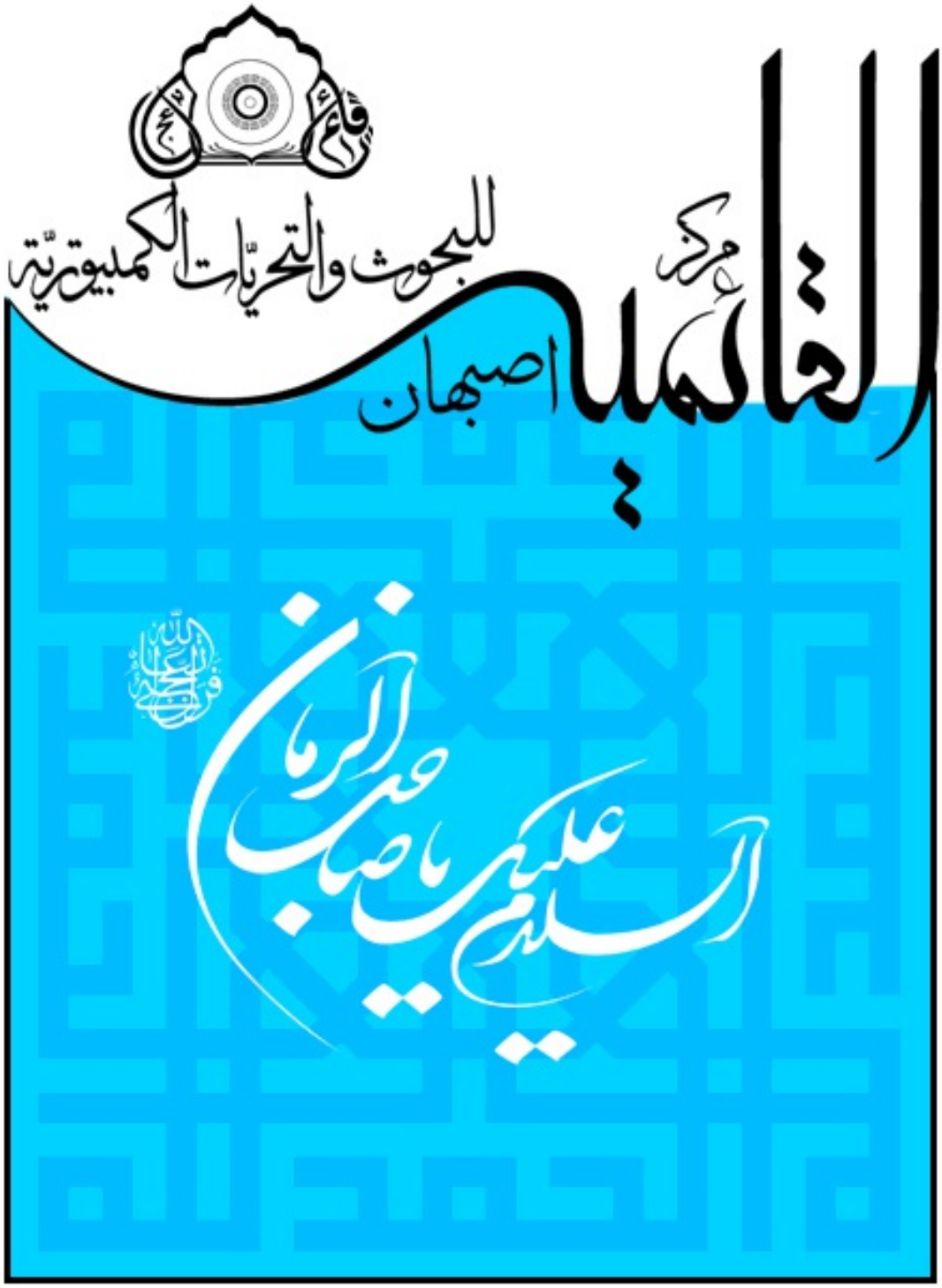

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

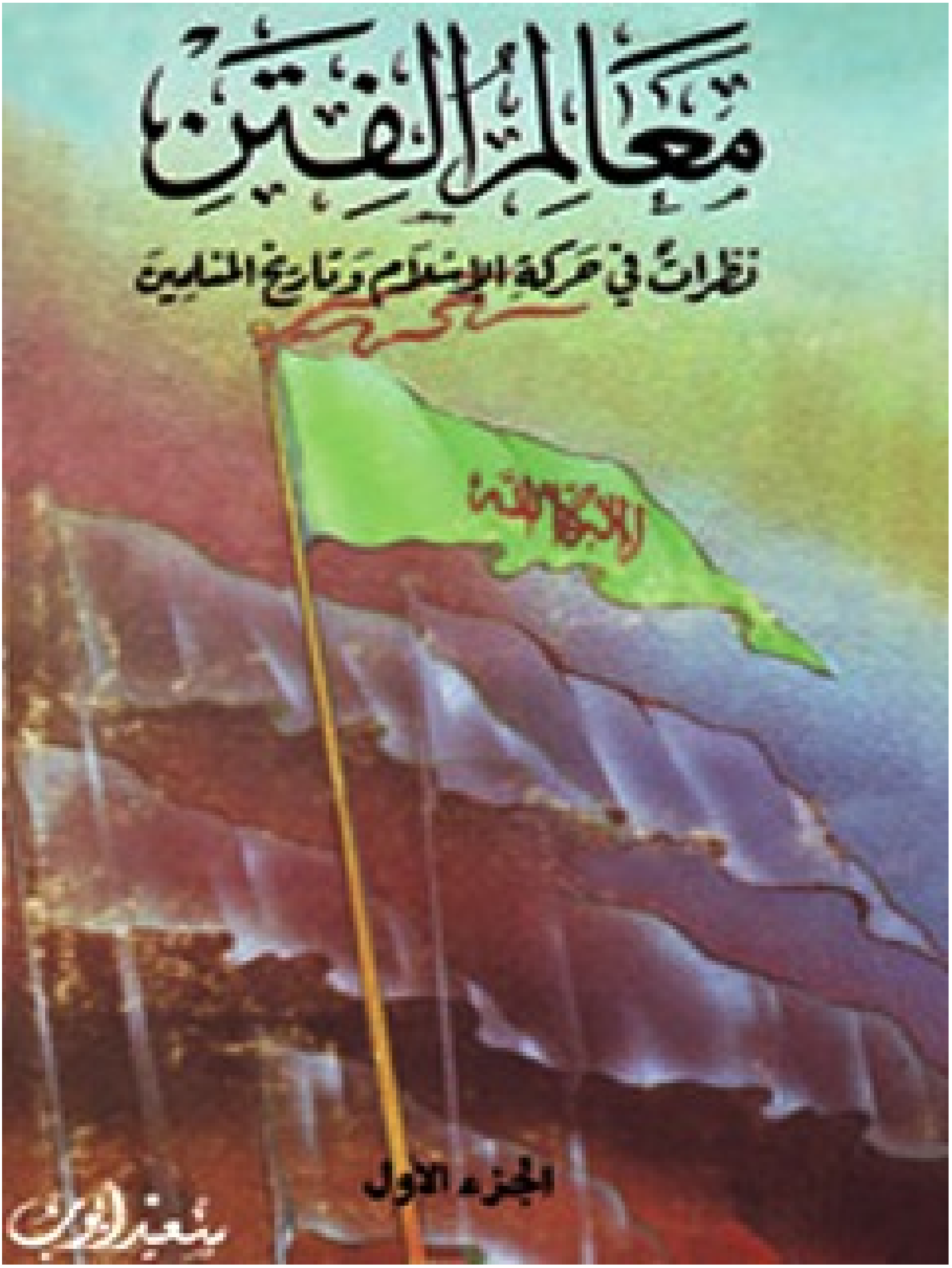
معالم في الطريق
نظرات في حركة الإسلام وتاريخ المسلمين
الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

معالم الفتن: نظرات فی حرکه الاسلام و تاریخ المسلمین

کاتب:

سعید ایوب

نشرت فی الطباعة:

مجمع احیاء الثقافه الاسلامیه

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
معالم الفتن: نظرات فی حرکه الاسلام و تاریخ المسلمین المجلد۱ ----- ۱۰
اشارة ----- ۱۰
فهرست مطالب کتاب: معالم الفتن (المجلد ۱) ----- ۱۰
تصدیر ----- ۱۴
الاهداء ----- ۱۵
المقدمة ----- ۱۵
النور الذی أضاء ----- ۱۷
نور فی أعماق الوجود ----- ۱۷
المنابع ----- ۱۷
نظرات علی طریق الابتلاء ----- ۱۹
برنامج الشیطان ----- ۲۰
قطع الطریق علی الأنبیاء والرسل ----- ۲۱
قطع الطریق علی الفطرة ----- ۲۳
قطع الطریق علی الدعوة ----- ۲۴
حصار برنامج الشیطان ----- ۲۷
النور والسحب الداکنة ----- ۲۹
من مداخل الدعوة الخاتمة ----- ۳۱
عواصف الصد عن سبیل الله ----- ۳۲
دائرة النجس ----- ۳۳
حصار دائرة النجس ----- ۳۵
دائرة الرجس ----- ۳۶
تیار الذین فی قلوبهم مرض ----- ۴۰

جهاز الرجس التخریبی ----- ۴۵
استهداف النبی ----- ۴۵
استهداف الدعوة ----- ۴۷
استهداف القوة العسکریة ----- ۴۸
جهاد الرسول لتیارات الصد الداخلیة ----- ۵۲
النور و حصار دائرة الرجس ----- ۵۵
من الذی یدعو و یختار ----- ۵۵
دائرة الطهر ----- ۵۹
من هم المطهرون ----- ۶۰
اعلان الناس بمن هم المطهرون ----- ۶۱
القرآن والمطهرون والحوض ----- ۶۵
من حقوق المطهرین ----- ۶۷
من مناقب أهل البیت ----- ۷۳
من مناقب علی بن أبی طالب ----- ۷۴
من مناقب فاطمة ----- ۷۴
من مناقب الحسن والحسین ----- ۷۵
النور والولایة ----- ۷۸
تعریف من هو الصحابی ----- ۸۱
ولایة الله عزوجل ----- ۸۴
ولایة رسول الله ----- ۸۶
ولایة علی بن أبی طالب ----- ۸۹
علی بن أبی طالب والعلم ----- ۸۹
اضواء علی اختیار الله لعلی ----- ۹۰
اضواء علی قیادة علی ----- ۹۳

حجة الوداع و إعلان الولاية ----- ۱۰۰
حجة الوداع ----- ۱۰۲
يوم غدير خم ----- ۱۰۴
الحجة على من لم يشهد الغدير ----- ۱۱۰
النور بين التحذير والتبشير ----- ۱۱۴
النبى يحذر من أصول الفتن ----- ۱۱۵
الرسول و نظرات على واقع بعيد ----- ۱۱۷
النبى يحذر من رموز الفتن ----- ۱۲۰
الرسول و إقامة الحجة على القريب والبعيد ----- ۱۲۷
خاتمة المطاف عند الحوض يوم القيامة ----- ۱۳۲
غروب الشمس والقمر ----- ۱۳۶
من معالم الغروب ----- ۱۳۸
ذعر على أعتاب الغروب ----- ۱۴۴
القرارات الأخيرة للنبى ----- ۱۴۸
الامر الواقى من الضلال ----- ۱۴۹
الامر العسكرى الأخير ----- ۱۵۳
الامر الطبى الأخير ----- ۱۵۴
الوصايا ----- ۱۵۵
الطريق إلى الفتن ----- ۱۵۷
الاختيار أضواء على سقيفة بنى ساعدة ----- ۱۵۷
الطريق إلى السقيفة ----- ۱۵۸
اضواء على الأنصار ----- ۱۶۱
صراع داخل السقيفة ----- ۱۶۲
صراع خارج السقيفة ----- ۱۶۵

هتاف الأنصار ----- ۱۶۶
الخلافة فی قریش ----- ۱۷۱
دائرة الرأی ----- ۱۷۵
من معالم الرأی ----- ۱۷۶
نظرات علی فدک ----- ۱۷۷
تساؤلات علی الطریق ----- ۱۸۲
التعتیم والظهور ----- ۱۸۳
التضیق علی روایة الحدیث الشریف ----- ۱۸۴
من آثار عدم روایة الحدیث ----- ۱۸۷
القص فی المساجد ----- ۱۸۷
الاقتحام بالشعر ----- ۱۹۲
الغاء سهم المؤلفة قلوبهم ----- ۱۹۶
نظرات علی الطریق ----- ۱۹۸
الامراء والفتن ----- ۲۰۱
امراء علی الطریق ----- ۲۰۲
الامراء والفتوحات ----- ۲۰۹
رحلة الخراج ----- ۲۱۱
نهایة الطریق ----- ۲۱۵
مشهود فی أول الطریق ----- ۲۱۷
و جاء بنو أمیة ----- ۲۲۰
یوم الشوری ----- ۲۲۱
ریاح بنی أمیة ----- ۲۲۵
ظهور النفاق ----- ۲۲۷
الاحتجاج السلمی ----- ۲۲۹

الرد على الاحتجاج السلمى ----- ۲۳۳
البطانة السوء ----- ۲۳۶
العاصفة والبحث عن الذات ----- ۲۳۸
من الذى قتل عثمان ----- ۲۴۲
و ظهر القمر ----- ۲۵۱
من معالم الحكومة الدينية ----- ۲۵۱
النداء الحق ----- ۲۵۵
الظهور ----- ۲۵۶
اصلاحات علوية ----- ۲۵۸
قرار عزل أمراء الفتن ----- ۲۵۸
قرار التسوية فى الأموال ----- ۲۵۹
قرارات قيادية ----- ۲۶۳
قرار رواية العلم و منع القص ----- ۲۷۱
العالم العامل الزاهد ----- ۲۷۵
البغاة والقمر ----- ۲۷۷
ضجيج فى أعماق الحجة ----- ۲۸۱
الناكثون فى أعماق الحجة ----- ۲۸۴
لقاء فى مكة ----- ۲۸۷
نظرات على طريق البغى ----- ۲۸۹
اصداء يوم غدير خم ----- ۲۹۲
على هامش أصداء يوم خم ----- ۲۹۵
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ----- ۲۹۸

معالم الفتن: نظرات فی حرکه الاسلام و تاریخ المسلمین المجلد۱

اشارة

سرشناسه : ایوب، سعید

Ayyub, Said

عنوان و نام پدیدآور : معالم الفتن: نظرات فی حرکه الاسلام و تاریخ المسلمین/ سعید ایوب

مشخصات نشر : قم: مجمع احیاآ الثقافه الاسلامیه، ۱۴۱۶ق. = - ۱۳۷۴.

شابک : بها:۷۵۰۰ریال(ج.۱و۲) ؛ بها:۷۵۰۰ریال(ج.۱و۲) ؛ بها:۷۵۰۰ریال(ج.۱و۲) ؛ بها:۷۵۰۰ریال(ج.۱و۲)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : کتابنامه

عنوان دیگر : نظرات فی حرکه الاسلام و تاریخ المسلمین

موضوع : اسلام -- تاریخ

موضوع : جنبشهای اسلامی

رده بندی کنگره : BP۱۴/الف۹۵م۶

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۹۱۲

شماره کتابشناسی ملی : م۷۶-۵۶۱۴

فهرست مطالب کتاب: معالم الفتن (المجلد ۱)

معالم الفتن (المجلد ۱)

تصدیر

الاهداء

المقدمة

النور الذی أضاء

نور فی أعماق الوجود

المنابع

نظرات علی طریق الابتلاء

برنامج الشیطان

قطع الطریق علی الأنبیاء والرسل

قطع الطریق علی الفطرة

قطع الطریق علی الدعوة

حصار برنامج الشیطان

النور والسحب الداکنة

من مداخل الدعوة الخاتمة

عواصف الصد عن سبیل الله

دائرة النجس

حصار دائرة النجس

دائرة الرجس

تیار الذین فی قلوبهم مرض

جهاز الرجس التخریبی

استهداف النبی

استهداف الدعوة

استهداف القوة العسکریة

جهاد الرسول لتیارات الصد الداخلیة

النور و حصار دائرة الرجس

من الذی یدعو و یختار

دائرة الطهر

من هم المطهرون

اعلان الناس بمن هم المطهرون

القرآن والمطهرون والحوض

من حقوق المطهرین

من مناقب أهل البیت

من مناقب علی بن أبی طالب

من مناقب فاطمة

من مناقب الحسن والحسین

النور والولایة

تعریف من هو الصحابی

ولایة الله عزوجل

ولایة رسول الله

ولایة علی بن أبی طالب

علی بن أبی طالب والعلم

اضواء علی اختیار الله لعلی

اضواء علی قیادة علی

حجة الوداع و إعلان الولایة

حجة الوداع

یوم غدیر خم

الحجة على من لم يشهد الغدير

النور بين التحذير والتبشير

النبى يحذر من أصول الفتن

الرسول و نظرات على واقع بعيد

النبى يحذر من رموز الفتن

الرسول و إقامة الحجة على القريب والبعيد

خاتمة المطاف عند الحوض يوم القيامة

غروب الشمس والقمر

من معالم الغروب

ذعر على أعتاب الغروب

القرارات الأخيرة للنبى

الامر الواقى من الضلال

الامر العسكرى الأخير

الامر الطبى الأخير

الوصايا

الطريق إلى الفتن

الاختيار أضواء على سقيفة بنى ساعدة

الطريق إلى السقيفة

اضواء على الأنصار

صراع داخل السقيفة

صراع خارج السقيفة

هتاف الأنصار

الخلافة فى قريش

دائرة الرأى

من معالم الرأى

نظرات على فدك

تساؤلات على الطريق

التعتيم والظهور

التضيق على رواية الحديث الشريف

من آثار عدم رواية الحديث

القص فى المساجد

الاقتحام بالشعر

الغاء سهم المؤلفة قلوبهم

نظرات علی الطریق

الامراء والفتن

امراء علی الطریق

الامراء والفتوحات

رحلة الخراج

نهایة الطریق

مشهود فی أول الطریق

و جاء بنو أمیة

یوم الشوری

ریاح بنی أمیة

ظهور النفاق

الاحتجاج السلمی

الرد علی الاحتجاج السلمی

البطانة السوء

العاصفة والبحث عن الذات

من الذی قتل عثمان

و ظهر القمر

من معالم الحکومة الدینیة

النداء الحق

الظهور

اصلاحات علویة

قرار عزل أمراء الفتن

قرار التسویة فی الأموال

قرارات قیادیة

قرار روایة العلم و منع القص

العالم العامل الزاهد

البغاة والقمر

ضجیج فی أعماق الحجة

الناکثون فی أعماق الحجة

لقاء فی مکة

نظرات علی طریق البغی

اصداء یوم غدیر خم

علی هامش أصداء یوم خم

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

بقلم الدكتور عاطف سلام الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الأطهار الطيبين، وصحابته المنتجبين. أما بعد فإن الكتاب الذى بين أيدينا يتناول تلك الحقبة التاريخية التى تلت وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وامتدت بعد ذلك إلى عدة عقود، وعلى الرغم من الأهمية البالغة التى تتميز بها تلك الحقبة الحساسة، حيث قد تشكلت فيها الجذور السياسية والاجتماعية والثقافية للمسلمين إلا أنها لم تحظ بالاهتمام المرجو من قبل الباحثين والمفكرين، وأصبح الكثير من المثقفين لا يعرف سوى النزر اليسير عنها، وبالنسبة لبعض الدراسات القليلة المتناثرة التى دارت حولها فإن أساليب تناول تلك الحقبة قد تعددت واختلفت على نحو لا- يروى ظمأ طلاب العلم والحقيقة، ولا يعينهم على استيعابها وإدراك أثارها، فهناك الاتجاه الأدبى الذى تناول تلك الحقبة بشكل ضيق محدود، وسار على منهج مميع لا يفضى إلى نتائج محددة أو مفاهيم واضحة عنها، وكان يفتقر إلى ميزان ثابت منبثق عن الدعوة الإسلامية ذاتها يمكن أن يقاس عليه وقائع تلك الحقبة، ولعل هذا الاتجاه كان

[صفحه ۶]

يرمى إلى الناحية الأدبية اللغوية فحسب بعيدا عن الرؤى العقائدية، وهناك الاتجاه الصامت المنغلق الذى يرى عدم تناول تلك الحقبة بالبحث والدراسة مطلقا، بل وصل الأمر إلى حد التحذير من محاولة فحص وقائعها وأحداثها بحجة أن ذلك قد يقود إلى إساءة الظن ببعض الشخصيات والتجمعات البارزة التى تنتمى إليها، وهناك الاتجاه المماليء المتملق الذى دأب على مجرد المدح والإطراء، ولم يدخر وسعا فى قلب الأمور رأسا على عقب وبتر الحقائق من أجل تصويب وقائع تلك الحقبة ومواقف أصحابها على نحو يصعب تصديقه أو التسليم به بالنسبة للقارئ العادى... إلى غير ذلك من الأساليب والاتجاهات التى كانت غالبا ما تقصر عن الوفاء بأمانة البحث العلمى المحض الذى يؤدى فى النهاية إلى توعية القارئ بطبيعة تلك الحقبة، وتوضيح الرؤية حولها، والخلوص بتقييم موضوعى لها، وتحديد علاقتها - ولو إجمالا - بالواقع الحالى. إن تناول تلك الحقبة بالبحث والدراسة يقودنا - لا محالة - إلى طرح التساؤل الآتى: هل كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يفكر جديا بمستقبل الأمة من بعده، وما الإجراءات التى اتخذها فى هذه السبيل؟ إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يمثل القلب النابض والعقل المفكر لتلك الدولة الناهضة، فهل أعد منهجا واضحا لتشكيل القيادة من بعده، بحيث يكفل ذلك الاستمرارية والاستقرار على النحو الذى ينشده للمسيرة التى بدأها؟ وعلى فرض وجود منهج واضح حول القيادة قد حدده الرسول (صلى الله عليه وسلم) فهل قام بتوعية الأمة به؟ وعلى فرض قيامه بذلك، فهل خرج هذا المنهج من بعده إلى حيز التنفيذ بشكل كامل، أم خرج بشكل جزئى، أم لم يخرج قط نتيجة الظروف والمتغيرات التى طرأت على واقع الأمة إبان وفاته؟ من ناحية أخرى فإن أهمية البحث فى تلك الجذور التاريخية وفحص وقائعها البارزة تمكن فى انعكاسها بشكل أو بآخر على الواقع السياسى والاجتماعى والثقافى الذى امتد من خلالها عبر القرون التالية إلى اليوم.

[صفحه ۷]

إن الدعوة القائلة بأن نغض الطرف عن وقائع تلك الحقبة الهامة، وأن نجعل بيننا وبينها حجابا مستورا لا تخدم الحقيقة، بل لا تخدم الإسلام ذاته، حيث إن تراكمات الماضى وتداعياته لا يمكن أن تنفصل عن الواقع الحالى، إن لم تكن قد ساهمت فى صياغته إلى حد بعيد. إننا بحاجة ماسة إلى إلقاء الضوء على تلك الجذور التاريخية من أجل التوصل إلى فهم سليم وموضوعى مبنى على أساس علمى لها، واستخلاص العبر والدروس منها، وتحديد نقاط الضعف والقوة فيها بالقدر الذى يعيننا على فهم الحاضر المحيط بنا، ويجعلنا قادرين على رؤية المستقبل بوعى وواقعية، وتحديد ملامحه بعين باصرة غير قاصرة. إن الكتاب الذى بين أيدينا هو محاولة جادة من المؤلف لتسليط الضوء على تلك الحقبة التاريخية الهامة، ملتزما بقواعد البحث العلمى المتفق عليها، ومتوخيا ذات المقاصد التى أومأنا

إليها آنفا، والذى لفت نظرى فى منهجه أنه اعتمد فى دراسته على مصادر الحديث والتاريخ والتراجم المعتبرة التى تحظى بثقة أهل العلم والمعرفة قاطبة، كما أنه قام بالربط بين الأحاديث النبوية من جهة والأحداث التاريخية من جهة أخرى، بحيث يصدق بعضها بعضا، وكأن الكتاب قد جاء يحمل بين دفتيه تفسيرا نبويا للتاريخ، ولا جرم أن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) قد تركنا على المحجة البيضاء التى ليلها كنهارها، والتى لا يضل عنها إلا هالك، وفى اعتقادى أن ذلك لا يتحقق بوجه كامل إلا من خلال الأحاديث التى تكشف المستقبل، وترصد حركته بعين الوحى فضلا عن الوعى. ومما يستلفت النظر - أيضا - قيام المؤلف بالفصل بين " تاريخ الإسلام " و " تاريخ المسلمين، " حيث يرى أن " تاريخ الإسلام " هو تاريخ الفطرة الأزلية التى تمثل إرادة الله فى الكون، وبالنسبة للبشر فقد بدأ مطلعه بقوله تعالى: (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا..). وفوق الأرض قام بصنعه الأنبياء والمرسلون من لدن آدم إلى الخاتم،

[صفحه ۸]

والمقصود من ذلك هو أن " التاريخ الإسلامى " يقتصر على مجموعة الأقوال والأفعال والمواقف والأحداث التى يمكن أن تحسب على الإسلام ذاته لكونها تمثل واقعه وحقيقته، ولا يقوم بصنعه سوى الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو من ينوب عنه بتفويض مباشر عنه. أما بالنسبة ل " تاريخ المسلمين " فهو تدوين لمجموعة الأقوال والأفعال والمواقف والأحداث التى قام بصنعها أولئك الأفراد والتجمعات التى أعلنت انتماءها لهذا الدين تعبيرا عن أنفسهم وواقع حالهم فحسب، ولا يمكن أن تحسب على الإسلام ذاته كمقياس له. هذه رؤية المؤلف، وهى وجهة نظر جديرة بالبحث والملاحظة، وتدعونا إلى التأمل وإعادة النظر فى مدلول كلمة " التاريخ " الذى بين أيدينا، فهل هو " تاريخ إسلامى " يعبر عن واقع الإسلام وحقيقته وأهدافه، أم هو " تاريخ المسلمين " الذى يمثل نوازعهم الذاتية ومواقفهم وأهدافهم الخاصة بهم؟ هذا وبالله التوفيق. د. عاطف سلام

[صفحه ۹]

الاهداء

إلى مصابيح الهدى الذين يقودون الناس إلى صراط العزيز الحميد

إلى الذين صبروا صبر الأحرار وينتظرون يوم العدل على الظالم إلى هؤلاء أهدى هذا الكتاب.... أيوب

[صفحه ۱۱]

المقدمة

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على النبى الأكرم المبعوث

بالشريعة الخاتمة وعلى آله ومن تبع هداه إلى يوم الدين وبعد: على امتداد المسيرة البشرية دار الصراع بين الخير الذى تمثله أعلام ومشاعل المثل الأعلى المرتفع وبين الشر الذى يمثله الدخان الكثيف للمثل الأعلى المنخفض. وعلى امتداد هذه المسيرة كانت أعلام الأنبياء والرسل عليهم السلام تقيم الحجة على الجميع، وتدون تاريخ الإسلام الذى لم يحمل هزيمة واحدة منذ ذرأ الله ذرية آدم عليه السلام. وكان هذه التاريخ زاد للفطرة فى كل زمان ومكان ففيه ترى العلم والهدى والرحمة والسعادة وبه تعبر الحياة الدنيا بسلام إلى الآخرة فتاريخ الإسلام هو تاريخ الحجة ودعوة الناس إلى صراط العزيز الحميد. وهذا التاريخ يمكن أن نرصد بدايته عندما أخذ الله الميثاق من ذرية آدم وأشهدهم على أنفسهم - (ألست بربكم قالوا بلى) - ويمكن أن نرى امتداده وشواهده من خلال مسيرة الأنبياء. وعلى امتداد المسيرة البشرية أيضا كان الناس يدونون تاريخهم، وهذا التاريخ يمكن أن ترى امتداده وشواهده من خلال حركة الناس على امتداد تاريخهم. فمن توافقت حركته مع حركة الوجود فهو عضو فى تاريخ الإسلام الذى تمثله أعلام المثل الأعلى المرتفع. أما

من توافقت حرکته مع حرکهٔ فقه الاغواء والتزیین والاحتناک والفحشاء والمنکر إلی آخر هذا الشوط الذی تأنف منه الفطرهٔ فلا یمکن بحال أن یکون عضوا فی تاریخ الإسلام وإنما هو عضو فی تاریخ الناس

[صفحه ۱۲]

الذی یدثره هذا الدخان الکثیف للمثل الأعلی المنخفض. ولا یمکن بحال أن تری بصمات کفار قوم نوح وهود وصالح ولوط وأصحاب الأیکهٔ علی تاریخ السلام وإنما تراها علی صفحات تاریخ الناس. ویمکن أن تری هذه البصمات بوضوح عندما یحدثک تاریخ الإسلام بما حدث لأتباع المثل الأعلی المنخفض علی امتداد تاریخهم الأسود وکیف ضربهم الطوفان والصیحهٔ وکیف نالوا جزاءهم فی الدنیا تحت ضربات الماء والهواء والحجارهٔ، ولعذاب الآخرهٔ أشد. وعلی هذا فالحجهٔ والدعوهٔ أعلام ظاهرهٔ فی تاریخ الإسلام، والتدمیر أثر ظاهر فی تاریخ الناس، وفی هذا وذاک زاد للفطرهٔ علی امتداد المسیرهٔ. فأصحاب الفطرهٔ السلیمهٔ إذا نظروا إلی حرکهٔ المسیرهٔ البشریهٔ وشاهدوا علامات التاریخ المهزوم کانت هذه المشاهدهٔ حجهٔ بذاتها ودعوهٔ فی الوقت نفسه إلی ترتیب الأوراق فی اتجاه تاریخ السلام الذی تظهر علیه معالم الطهر والنقاء، وهذه المعالم حجهٔ بذاتها علی کل إنسان. وسیتبین کل إنسان حقیقهٔ هذا عندما یقف عاری المشاعر وعاری التاریخ أمام الله الواحد الحق یوم القیامهٔ. وعلی امتداد التاریخ الإنسانی عمل الشیطان من أجل أن یعلم الخلق أن تاریخ الإسلام وتاریخ الناس تاریخ واحد. لأنه تحت هذا القالب تختلط الأمور وعلی امتداده یحقق الشیطان أهداف خطته لإضلال أکثر الناس. وما فقه الاغواء والتزیین إلا خلط علی امتداده یکون الضلال والارتیاب والحیرهٔ. وفی عصرنا الحدیث تعالت الأصوات التی ترفع إعلام " لا سیاسهٔ فی الدین ولا دین فی السیاسهٔ " وقامت أجهزهٔ ومؤسسات الصد عن سبیل الله بترقیع التاریخ لیعطی فی النهایهٔ صورهٔ أن الناس أدری بمصالحهم. وهذا القول فی حد ذاته مصادرهٔ لتاریخ الإسلام لحساب تاریخ الناس. وفی عصرنا الحدیث أیضا تعالت أصوات ناس من المسلمین وقالوا: إن الدین منفصل عن الدولهٔ بالفعل علی امتداد التاریخ السلامی. وهنا خلط واضح وتحمیل تاریخ السلام ما لیس منه. وتعالیت أصواتهم أکثر فأکثر وقالوا: إن الخلافهٔ علی امتداد التاریخ الإسلامی لم تکن أصلا إسلامیا.

[صفحه ۱۳]

وإنما مجرد اجتهاد وتطبیق ارتضاه المسلمون الأوائل. وهذا أیضا خلط یهدف إلی إعلاء کلمهٔ المثل الأعلی المنخفض. والذی یدقق النظر فی تاریخ السلام عند اللبنهٔ الأولی یری أن الخالفهٔ أصل أصیل فی البناء الفطری، قال تعالی: - (وإذ قال ربک للملائکهٔ إنی جاعل فی الأرض خلیفهٔ) - [۱] .

وعلی امتداد تاریخ الإسلام خاطب الله تعالی أنبیاءه ورسله فقال لإبراهیم علیه السلام: - (إنی جاعلک للناس إماما) - [۲] .

بل إن نظام الخلافهٔ یری أیضا علی المساحات الواسعهٔ، یری علی وجه الماضی والحاضر. قال تعالی: - (واذکروا إ ذ جعلکم خلفاء من بعد قوم نوح) - [۳] .

وقال: - (وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذین کذبوا بآیاتنا) - [۴] .

وقال - (هو الذی جعلکم خلائف فی الأرض فمن کفر فعلیه کفره) - [۵] .

فالخلافهٔ فی البناء الفطری تری عند القمهٔ وعند القاعدهٔ. وعلی هذا فإن القول بأن الخلافهٔ لیست أصلا إسلامیا قول فیه نظر. وهذا القول روج له أعداء الفطرهٔ فی عصرنا الحدیث عندما بدأت الروح الإسلامیهٔ تدب وترج أجساد وعقول المسلمین وتدعوهم إلی أعلام المثل الأعلی المرتفع. وأشعل أعداء الفطرهٔ النار فی کل طیب، وزینوا کل خبیث لیصدوا عن سبیل الله. وتوج الوغد الهندی سلمان رشدی وغیره هذه الأعمال بروایات وأقوال الهدف منها النیل من أعلام تاریخ الإسلام لحساب الأطروحهٔ الغربیهٔ التی تعمل من أجل توثیق الفطرهٔ.

[صفحه ۱۴]

ونحن فى كتابنا هذا سنعرض أطروحات الإسلام التى جاء بها النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم فى ما يتعلق بمستقبل الأمة ودورها الرسالى الذى عهد به إليها وموقف الأمة من تلك الأطروحات النبوية. وسنعرض تجربة الأمة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وما تمخض عنها من نتائج امتدت عبر القرون إلى اليوم. وسنبين مدى ملائمة ذلك مع أطروحات الرسول صلى الله عليه وسلم التى تمثل المنهج الإسلامى الأصيل. وسنقيم تلك التجربة التى تحرك فيها لا مسلمون بشكل موضوعى للخروج منا بالعبر والدروس التى تعيننا على تمييز الحق من الباطل والعودة تارة أخرى إلى ذات المنهج الإسلامى الذى رسمه النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم. ومنهجنا فى البحث يقوم على تحديد المشكلات واستبعاد الزائف منها بعد قراءة نقدية ومتفحصة وتقييمية. مع الوضع فى الاعتبار أن جانب كبير من التراث صنعه أفراد، وهذا الجانب تداخل مع تاريخ السلام كما ذكرنا. وعلى هذا فتاريخ المسلمين عندى قابل للنقد كما أنه معرض أحيانا للرفض إذا تعارض مع القرآن والسنة الصحيحة. وقراءتى للأحداث كان الهدف منها تقديم تاريخ شامل. بمعنى تاريخ تجتمع فيه جميع الخيوط، وهذه القراءة التى تمارس النقد وفقا للكتاب والسنة تنظر إلى التراث على أنه نقطة بداية. فالبدايات دائما ترى عليه وجه النهايات. وعلى هذا فإن الأمور إذا اشتبهت اعتبر بآخرها أولها. أى يقاس آخرها على أولها فحسب البدايات تكون النهايات. هذا ولقد آثرت فى هذا البحث الطريقة السردية التى تعتمد على آيات القرآن الكريم والحديث الشريف والرواية التاريخية. هذا وبالله التوفيق.

[صفحه ۱۷]

[۱] سورة البقرة: الآية ۳۰.

[۲] سورة البقرة: الآية ۱۲۴.

[۳] سورة الأعراف: الآية ۶۹.

[۴] سورة يونس: الآية ۷۳.

[۵] سورة فاطر: الآية ۳۹.

النور الذى أضاء

نور فى أعماق الوجود

المنابع

إن جميع موجودات العالم ما نر وما لا نرى ما نعلم وما لا نعلم، تنتهى

فى وجودها وآثارها إلى الله الواحد الأحد عز وجل، ولأنها منها وإليه، فلا يمكن لأى موجود فى الوجود من الفراد من ملكه جل أنه، ولأن جميع الموجودات فى هذا العالم حياتها وقدرتها وعلمها متصل بالله تعالى، فلا يمكن لموجود مهما كان قدره وعلمه من الفرار من الله الذى يملك كل شئ، فقد خلق سبحان الخلق لهدف من ورائه حكمة، وأوجب سبحانه على نفسه فتح الطريق لعبادة وهداية عباده إليه قبل أن يخطوا فيه خطوة واحدة. فكما أن حبة القمح توضع فى الأرض فتنشق للنمو قاصدة فى نموها اتجاها واحدة لتكون شجرة كاملة عليها سنابلها، وكما أن نطفة الحيوان تعرف طريقها فتتوجه إلى اتجاه واحد ينتهى بها إلى إيجاد النوع، فكذلك الإنسان من أول بداية التكوين يتجه فى طريق نحو غاية واحدة على امتدادها يكدح حتى يلاقى ربه، والعبودية هى الغرض الإلهى من خلق الإنسان، وحقيقة العبادة أن يضع الإنسان نفسه فى مقام الذلة والعبودية، ويوجه وجهه إلى مقام ربه، طاهر النفس عن الكفر بمراتبه، وعن الاتصاف بالفسق كما قال تعالى: (ولا يرضى لعباده الكفر) [۱] .

وقوله تعالى: (فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) [۲] .

[صفحه ۱۸]

والعبودیة إذا تمکنت من نفس العبد رأی ما یقع علیه بصره وتبلغه بصیرته مملوکا لله، خاضعا لأمره، ووجد أن کل ما آتاه الله فهو من فضله سبحانه، وما منعه فإنما منعه عن حکمة، وعلم أن هناک غایة مقصودة من خلق العالم ستظهر بعد فناء العالم. وطریق العبودیة فتحه الله وهدی عباده إلیه، واللبنة الأولی فی هذا الطریق هی الفطرة، أودع فیها سبحانه میثاق الربوبیة الذی شهد به الإنسان عند العتبة الأولی فی طریق العبودیة، قال تعالی: (وإذ أخذ ربک من بنی آدم من ظهورهم ذریتهم وأشهدهم علی أنفسهم ألست بربکم قالوا بلی شهدنا أن تقولوا یوم القیامة إنا کنا عن هذا غافلین) [۳] .

لقد أخذ جل شأنه المیثاق - ف موطن قبل الدنیا - من عباده فی عالم الذر (ألست بربکم؟) خطاب حقیقی وتکلیم إلهی، (قالوا بلی شهدنا) إنهم یفهمون مما یشاهدون، إن الله سبحانه یرید منهم الاعتراف وإعطاء الموثق، فشهد کل إنسان علی نفسه، ولم یعد لأحد منهم حجة علی الله یوم القیامة، لیقول أنه کان غافلا- فی الدنیا عن ربوبیته تعالی، ولا- تکلیف علی غافل ولا مؤاخذة. وکما هدی الفطرة إلی معرفته تعالی، ألهم النفس الإنسانیة التجنب عن الفجور والورع عن محارم الله، فجعل نهیه سبحانه عن فعل حجاب مضروب، فإذا اقترب الإنسان المنهی عنه یکون قد شق الستر المضروب وخرق الحجاب. قال تعالی: (ونفس وما سواها - فألهمها فجورها وتقواها - قد أفلح من زکاها - وقد خاب من دساها) [۴] .

إن النفس ملهمة کی تمیز بین الفجور والتقوی. ووضع لبنة التقوی فیها. تزکیة وإنماء وتزوید لها بما یمدها فی بقائها علی طریق غایتها، قال تعالی (وتزودوا فإن خیر الزاد التقوی واتقون یا

[صفحه ۱۹]

أولی الألباب) [۵] .

وکما أقام سبحانه الحجة علی الإنسان فی عجینته الداخلیة أقام علیه الحجة فی عالم الحیاة الدنیا، عالم المشاهدة المنظور، فجهز بدن الإنسان بما یبصر به، وما یستعین به علی الکلام. فإذا نظر، أو تکلم واستقام نظره وکلامه مع المخزون الفطری، ومخزون التقوی، تقدم فی طریق الخیر. قال تعالی: (ألم نجعل له عینین - ولسانا وشفتین - وهدیناه النجدین) [۶] .

والمراد بالنجدین طریقا الخیر والشر. أی علمناه طریق الخیر وطریق الشر بإلهام منا. فهو یعرف الخیر من الشر. والإنسان مخیر فی أی الطریقین یسلک. قال تعالی: (إنا هدیناه السبیل إما شاکرا وإما کفورا - إنا اعتدنا للکافرین سلاسل وأغلالا وسعیرا) [۷] .

لقد زود تعالی الإنسان داخلیا وخارجیا بالوقود الذی یؤدی إلی الفوز. وأراه السبیل المؤدی إلی الغایة المطلوبة. وعلمه بواسطة الأنبیاء والرسل علیهم السلام أن سلوک هذا السبیل ینتهی بالإنسان إلی سعادته فی الدنیا والآخرة. وأخیره أن الشکر لهذه الهدایة الإلهیة إنما یکون بوضع النعمة فی محلها، واستعمال هذه النعمة علی أساس أنها من المنعم الحق. لقد أقام سبحانه الحجة علی جمیع خلقه، وقد قضی الله أن الإنسان راجع إلیه. وسیسأل الإنسان عن عمله، أشکر النعمة أم کفر بها؟ والنعم تبدأ من الفطرة ولا تنتهی لأنها لا تحصی ولا تعد. وأمام الله قاصم الجبارین سیق الإنسان عاریا من کل شئ. عاری النفس، عاری المشاعر، عاری التاریخ (وأن لیس للإنسان إلا ما سعی - وأن سعیه

[صفحه ۲۰]

سوف یری) - [۸] وأمام الله قاصم المستکبرین سیقف الإنسان المحاصر بحجج الله، لتشهد کل حجة علیه، فلا یجد ملجأ یذهب إلیه - (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علینا قالوا أنطقنا الله الذی أنطق کل شئ وهو خلقکم أول مرة وإلیه ترجعون) - [۹] .

إن ینبوع دین الله فطرة الإنسان نفسه. والفطرة تصرح أن الإنسان لم یکن له إلا- أن یخضع لله تعالی خضوع عبادة، خضوع الضعیف للقوی، ومطاوعة العاجز للقادر، وتسلیم الصغیر الحقیر للعظیم الکبیر الذی لا یماثله شئ فی وجوده، العزیز الذی لا یغلبه شئ وغیره ذلیل.

[۱] سورة الزمر: الآیة ۷.

[۲] سورة التوبة: الآیة ۹۸.

[۳] سورة الأعراف: الآیة ۱۷۲.

[۴] سورة الشمس: الآیة ۷ – ۱۰.

[۵] سورة البقرة: الآیة ۱۹۷.

[۶] سورة البلد: الآیة ۸ – ۱۰.

[۷] سورة الإنسان: الآیة ۳ – ۴.

[۸] سورة النجم: الآیة ۳۹ و ۴۰.

[۹] سورة فصلت: الآیة ۲۱.

نظرات علی طریق الابتلاء

إن عبور الحیاة الدنیا إلی الآخرة تعلو جسوره مظلات الابتلاء والفتن.

فالامتحان ناموس إلهی علی امتداد هذه الجسور، وهذا الامتحان لا یستثنی منه المؤمن والکافر والمحسن والمسیء. وامتحان الله یکون لإظهار صلاحیة الإنسان الباطنیة من حیث استحقاق الثواب والعقاب. ویکشف به تعالی للمؤمنین حال المنافقین وهم یعبرون جسر الحیاة إلی الآخرة. کما إنه یقوی الإنسان المؤمن لاجتیاز هذا الجسر. وکما یمتحن الله الفرد یمتحن سبحانه الأمة قال تعالی (ولو شاء الله لجعلکم أمة واحدة ولکن لیبلوکم فی ما آتاکم) [۱] .

إن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة لها شریعة واحدة. ولکنه تعالی جعل للناس شرائع مختلفة، لیمتحنهم فیما آتاه من النعم المختلفة التی لا تحصی ولا تعد. فاختلاف النعم یستدعی اختلاف الامتحان [۲] وعلی امتداد هذا الامتحان

الذی هو فی الوقت نفسه امتداد الحیاة الدنیا، یموت الفرد ویأتی الآخر، وتموت

[صفحه ۲۱]

الأمة وتأتی الأخری قال تعالی: (لکل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا یستأخرون ساعة ولا یستقدمون) [۳] .

إن الأجل فی هذه الآیة أضیف إلی الأمة، إلی الوجود المجموعی للناس، لا إلی هذا الفرد بالذات. إن هناک أجل آخر وموقات آخر للوجود الاجتماعی لهؤلاء الأفراد، للأمة بوصفها مجتمعا ینشئ ما بین أفراده العلاقات والصلات القائمة علی أساس مجموعة من الأفکار والمبادئ. هذا المجتمع الذی یعبر عنه القرآن بالأمة له أجل، وله موت، له حیاة، له حرکة، وکما أن الفرد یتحرک فیکون حیا ثم یموت، کذلک الأمة تکون حیة ثم تموت. وکما أن موت الفرد یخضع لأجل ولقانون ولناموس کذلک الأمم أیضا، لها آجالها المضبوطة [۴] (وما أهلکنا من قریة إلا ولها کتاب معلوم – ما تسبق من أمة أجلها وما یستأخرون) [۵] .

إن الأمم تموت، وتأتی أمم أخری. أعلام تسقط وأعلام ترفع. وعلی امتداد الرحلة یکون فی السلف عبرة للخلف، ویکون فی الماضی زاد للحاضر یبصر به الطریق الواضح إلی المستقبل. والقرآن الکریم حث الإنسان کی ینظر إلی الخلف حیث ساحة الاعتبار. لیکون الاعتبار له زاد، قال تعالی: (ألم یروا کم أهلکنا من قبلهم من قرن مکناهم فی الأرض ما لم نمکن لکم وأرسلنا السماء علیهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجری من تحتهم فأهلکناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرین) – [۶] .

لقد أهلکوا وسبب الهلاک الذنوب، وفی هذا دلالة علی أن للسیئات والذنوب دخلا فی البلایا والمحن العامة، کما أن الحسنات والطاعات لها دخل فی إفاضة النعم ونزول البرکات. وقال تعالی: (وکم أهلکنا من قریة بطرت

[صفحه ۲۲]

معیشتها) - [۷] أی طغت فی معیشتها وقال تعالی: - (وما کنا مهلکی القری إلا وأهلها ظالمون) - [۸] .

إن الماضی حجة علی الحاضر والحاضر حجة علی المستقبل. ولا یسمع الصم الدعاء. إن الأمة تأتی لینظر إلیهم کیف یعملون. ورسل الله علیهم السلام حثوا أقوامهم وذکروهم بمن سبق کی یبصروا وقع أقدامهم وهم یعبرون الجسر إلی الآخرة. فهذا هود علیه السلام یقول لقومه: (واذکروا إذا جعلکم خلفاء من بعد قوم نوح) [۹] .

وهذا صالح علیه السلام یقول لقومه: (واذکروا إذا جعلکم خلفاء من بعد عاد) [۱۰] .

والنظر إلی الخلف لا- یعنی التغنی بوثنیة من سبقونا، إنما البحث فی عوامل انهیارهم کی یتجنب الحاضر ما وقع فیه الماضی. فلعل الماضی یکون قد أرکس فی فتنة. فإذ لم یتبین الحاضر خیوطها وسار علی منوالهم، کان فی حقیقة الأمر امتدادا للفتنة وإن لم یشارک فیها. وکما أن فی الماضی زادا للحاضر یعبر به جسور الحیاة. فإن الحاضر وهو تحت الامتحان عبرة للمستقبل. فهذا موسی علیه السلام یقول لقومه: (عسی ربکم أن یهلک عدوکم ویستخلفکم فی الأرض فینظر کیف تعملون) [۱۱] لقد ذهبت أمة، وجاءت أخری لیجری علیها الاختبار الذی یکون

زادا للمستقبل. وأمة محمد صلی الله علیه وسلم آخر الأمم. یخاطبها سبحانه فیقول: (ولقد أهلکنا القرون من قبلکم لما ظلموا وجاءت رسلهم بالبینات وما کانوا لیؤمنوا کذلک نجزی القوم المجرمین - ثم جعلناکم خلائف فی الأرض من

[صفحه ۲۳]

بعدهم لننظر کیف تعملون) [۱۲] .

إن المسیرة سائرة، تدثرها الحجة من کل مکان. وکل خطوة وکل همسة محسوبة ومکتوبة. یقول تعالی: (إنا نحن نحیی الموتی ونکتب ما قدموا وآثارهم وکل شئ أحصیناه فی إمام مبین) [۱۳] .

[۱] سورة المائدة: الآیة ۴۸.

[۲] المیزان: ۳۵۳:۵.

[۳] سورة یونس: الآیة ۴۹.

[۴] المدرسة القرآنیة / باقر الصدر: ۵۶.

[۵] سورة الحجر: الآیة ۴ - ۵.

[۶] سورة الأنعام: الآیة ۶.

[۷] سورة القصص: الآیة ۵۸.

[۸] سورة القصص: الآیة ۵۹.

[۹] سورة الأعراف: الآیة ۶۹.

[۱۰] سورة الأعراف: الآیة ۷۴.

[۱۱] سورة الأعراف: الآیة ۱۲۹.

[۱۲] سورة یونس: الآیة ۱۳ - ۱۴.

[۱۳] سورة یاسین: الآیة ۱۲.

برنامج الشیطان

ذکرنا أن الامتحان سنة إلهی. ولقد سمی الله تعالی هذا الامتحان فی کتابه:

بلاء وابتلاء وفتنة. فقال جل شأنه: (إنا جعلنا ما علی الأرض زینة لها لنبلوهم أیهم أحسن عملا) [۱] ، وقال: (ونبلوکم بالشر والخیر

فتنهٔ) [۲] ، وقال: (ولنبلونکم حتی نعلم المجاهدین منکم والصابرین ونبلوا أخبارکم) [۳] ، وقال: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنهٔ ولما یعلم الله الذین جاهدوا منکم ویعلم الصابرین) [۴] إن الأرض مساحهٔ للامتحان. والإنسان علیها یمتحن بکل جزء من أجزاء العالم، وکل حالهٔ من حالاته التی لها صلهٔ به. والشیطان الرجیم، لما لعنه الله وطرده نظیر معصیته. أخذ علی عاتقه إغواء أکثر الناس، فتسلل بإغوائه إلی کل مجال یختبر فیه الإنسان من الله، فإذا کان سبحانه قد جعل ما علی الأرض زینهٔ، فإن الشیطان التف حول هذه الزینهٔ بزینهٔ أخری کاذبهٔ. وإذا کان الله تعالی قد ابتلی عباده بالشر والخیر، فإن الشیطان التف حول الشر لیزینه، وحول الخیر لیزهد الناس فیه، وإذا کان مجال الاختبار لیعلم سبحانه المجاهدین والصابرین، تسلل الشیطان إلی هذه المساحهٔ، لیکون أکثر

[صفحه ۲۴]

الناس فی ضلال مبین. وهکذا تسلل الطریق إلی مائدهٔ الامتحان. مهمته أن یدعو فقط إلی الضلال وقد زینه، وهو یدعو فقط لأنه لا یستطیع أن یجبر الناس علی معصیته، ولما کانت حرکهٔ الشیطان علی الأرض هکذا، فإن تسلیط بعض من الضوء علی البدایهٔ، قد یفید لمعرفهٔ منهجه فی الاغواء والتزیین. خلق الله تعالی آدم علیه السلام، وأمر بالسجود له، فسجد الملائکهٔ، وکان إبلیس من الجن وداخل فیهم، فأبی أن یسجد فخاطبه تعالی: (قال یا إبلیس ما منعک أن تسجد لما خلقت بیدی استکبرت أم کنت من العالین) [۵] فجاء الرد الذی تحتوی کلماته علی منهج الشیطان الکامل (قال أنا خیر منه خلقتنی من نار وخلقته من طین) [۶] ، لقد أکله الحسد وهو الذی شاهد المقدمهٔ حیث التراب والطین والصلصال. وعندما عاین العلم والحرکهٔ والحیاهٔ کنتیجهٔ للمقدمهٔ، دفعه الحسد إلی المقدمهٔ حیث الحمأ المسنون متعامیا عن النتیجهٔ استکبارا علیها. إنه الصغار والجمود بعینه، ودعوهٔ أولی لرفض النظر فی آیات الله. وفی اعتراض الشیطان تلویح، بأن الأمر الإلهی إنما یطاع إذا کان حقا والأمر بالسجود لآدم لیس حقا. والمتدبر فی آیات الله، یجد أن الشیطان قبل رفضه السجود لآدم، کانت حجهٔ الله قد دثرته. وهذه الحجهٔ أن الله تعالی أمره فیمن أمر بالسجود، فالأمر حجهٔ بذاته. وخروج الشیطان عنه هو خروج باختیار ولیس عن جبر. کما یجد المتدبر أیضا أن فی ردود الشیطان علی الله تعالی، لم تکن ردودا جوفاء، وإنما تحمل منهجا کاملا فی الضلال وهذا المنهج له مهمهٔ واحدهٔ، هی الصد عن العبادهٔ الحق. ومن أجل هذا اعتمد المنهج علی عمود یفصل أنبیاء الله ورسله علیهم السلام عن أبناء آدم فلا یصل إلیهم الهدی. وعمود یعمل علی الصراط المستقیم من أجل إعاقهٔ الطریق أمام الفطرهٔ حتی لا تصل إلی غایتها الحق. وعمود یعمل علی إرساء قواعد الشذوذ ومهمته تصفیهٔ کل ما هو طاهر علی امتداد المسیرهٔ البشریهٔ بعد رحیل

[صفحه ۲۵]

الأنبیاء والرسل. ودق أوتاد الشذوذ واعتبار الخارج عنها خارج علی القانون. باختصار یعتبر برنامج الشیطان قاعدهٔ أساسیهٔ ینطلق منها قطاع الطرق علی امتداد التاریخ.

[۱] سورهٔ الکهف: الآیهٔ ۷.

[۲] سورهٔ الأنبیاء: الآیهٔ ۳۵.

[۳] سورهٔ محمد: الآیهٔ ۳۱.

[۴] سورهٔ آل عمران: الآیهٔ ۱۴۲.

[۵] سورهٔ ص: الآیهٔ ۷۵.

[۶] سورهٔ ص: الآیهٔ ۷۶.

قطع الطریق علی الأنبیاء والرسل

أخبر الله تعالی بأنه عندما أمر الملائکهٔ بالسجود قال إبلیس

(أنا خير منه) [۱] وقال (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال..) [۲] فالرفض يحمل فی أعماقه الحسد والكبر. وفی نفس الوقت يحتوی علی أطروحة كاملة لتحقير الجنس البشری. وهذا الرفض وهذه الأطروحة، شكلا فی الحقيقة فقها كاملا للشيطان نسميه " فقه التحقير " وهذا الفقه مارس عمله ضد الأنبياء والرسل من آدم إلی محمد عليهما السلام. وإذا كان مؤسس الفقه، رفض أمر الله بالسجود لآدم فی بداية الخلق، فإنه علی امتداد المسيرة البشرية وضع العقبات أمام أمر الله الذی يحمله الأنبياء والرسل للسجود لله تعالی. والعقبات التی وضعها الشيطان من أجل الوصول إلی هدفه، كان عمودها الفقری تحقير الأنبياء والرسل، علی اعتبار أنهم بشر وليسوا ملائكة. وإذا كان الشيطان فی البداية قد قال: (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال) [۳] فإن حملة فقهه علی امتداد التاريخ الإنسانی وقفوا من دعوة الأنبياء فی خنادق الحسد والكبر، رافعين راية التحقير للبشر الذی خلقه الله من طين، نسوا الله فأنساهم أنفسهم. - (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن علی من يشاء من عباده) - [۴] فماذا كان رد جحافل الظلام علی

امتداد التاريخ الإنسانی. يقول تعالی: - (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله علی بشر من شئ) - [۵] وقال تعالی: (قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن

[صفحه ۲۶]

من شئ) - [۶] ، وقال تعالی: (فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنی الله والله غنی حميد) [۷] ، وقالوا: (ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) [۸] ، ولأنهم يرفعون لافتة التحقير الشيطانية التی ينفذون بنودها بدون تعقل قالوا: (لو شاء ربنا لأنزل ملائكة) [۹] وقالوا: (لولا أنزل عليه ملك) [۱۰] ، لقد رفضوا

البشر الذی خلقه الله من طين. وكان هذا الرفض مقدمة كبری للصد عن سبيل الله، قال تعالی: - (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدی إلا أن قالوا ابعث الله بشرا رسولا) - [۱۱] وعلی هذا الرفض دق الشيطان وتدا شع ثقافة جاء عليها الفراعنة

والقياطرة والأباطرة، الذين ادعوا أن دماء الآلهة تجری فی عروقهم. ووفقا لهذا الادعاء الذی سانده كهنة الاغواء والتزيين، هرول الناس إلی عبادتهم من دون الله، وعلی هذه العبادة شيدت الأصنام، وهتكت الأعراض، وجلدت الشعوب، ورفعت رايات الجبرية والطاغوت واعتبر الخارج عنها خارج علی القانون. ولم يقف فقه التحقير عند الأنبياء والرسل عليهم السلام، وإنما مارس هذا الفقه عمله علی امتداد المسيرة بعد رحيل كل نبی وكل رسول. فلقد اعتمد الجبابرة علی حملات التشكيك والتشويش المنظم لوقف مسيرة الذين يأمرون بالقسط من الناس. فإذ لم تأت الحملات بالثمار المطلوبة، اعتمدوا لهم أسلوب اليد الغليظة بالحجر تارة وبالسيف تارة وبقطع الرؤوس والطواف بها تارة أخری.

[۱] سورة الأعراف: الآية ۱۲.

[۲] سورة الحجر: الآية ۳۳.

[۳] سورة الحجر: الآية ۳۳.

[۴] سورة إبراهيم: الآية ۱۱.

[۵] سورة الأنعام: ۹۱.

[۶] سورة يس: الآية ۱۵.

[۷] سورة التغابن: الآية ۶.

[۸] سورة المؤمنون: الآية ۳۴.

[۹] سورة فصلت: الآية ۱۴.

[۱۰] سورة الأنعام: الآية ۸.

[۱۱] سورة الإسراء: الآية ۹۴.

قطع الطريق على الفطرة

عندما قال الشيطان أنا خير منه، شمله عقاب الله تعالى: قال تعالى: - (فاهبط
منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين) - [۱] لقد نزل إلى منزلة
[صفحه ۲۷]
الهبوط، ليكون من الصاغرين أهل الهوان. ولم يترك الشيطان منزلة الهبوط دون استغلالها فقال: - (رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون) [۲] لم يقل: رب انظرنى إلى يوم يموت آدم، بل ذكر آدم وبنيه. فقال له سبحانه: - (إنك من المنظرين) - [۳] وفى
هذا النص دلالة على أن هناك منظرين غيره، منهم ملائكة ومنهم بشر، أخبرت عنهم السنة النبوية الشريفة [۴] .
وفى منزلة الهبوط صاغ الشيطان فقه الاغواء والتزيين، الذى به يخترق الكيان الإنسانى وعليه تتعدد الأهواء - (قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين. - إلا عبادك منهم المخلصين) [۵] ، لقد اختار مساحة الزينة والزينة الحق جعلها الله لعباده كى يسوقهم التفكير فيها إلى العبادة الحق. قال تعالى: - (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) - [۶] ، فأقام الشيطان له خيمة فى اتجاه هذه الزينة، وهذه الخيمة بثت ثقافة ألوهية الكواكب والنجوم. تلك الألوهية التى اعترض عليها هد هد كان يحتفظ بفطرته التى فطره الله عليها. فعند ما ذهب هذا الطائر إلى مملكة سبأ، وجدهم يعبدون الشمس من دون الله، فعلم وهو الطائر أن هناك زينة أخرى غريبة، قد أدخلت على الزينة الحق التى تدعو إلى العبادة الحق. فقال سليمان عليه السلام وهو يتحدث عن ملكة سبأ - (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) [۷] لقد وقعوا على الزينة المحرمة، وهم المجهزون بالفطرة، والفطرة نعمة والاختيار الخطأ يترتب على امتداده كفران النعمة. والسنة الإلهية عند كفران النعمة، تسلب نعمة الهداية. وفى عالم اللاهداية تعشق الأسماع والأبصار
[صفحه ۲۸]
والقلوب كل زينة تنتهى بصاحبها إلى الهلاك. تعشق زينة الشهوات والأموال والبنين والمكر والصد عن السبيل. ومع هذا العشق تتحرك جحافل الليل أصحاب فقه الشيطان، ليدافعوا عن زينتهم أمام الذين يتعاملون مع الزينة الحق. على أنها للتفكر وللابتلاء فى عالم الإنسان. وفى الزينة الحق قال تعالى: - (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) - [۸] قال المفسرون: إن المال والبنين
وإن تعلقت بها القلوب، وتاقت إليها النفوس تتوقع منها الانتفاع وتحق بها الآمال. إلا أنها زينة سريعة الزوال، لا تنفع الإنسان فى كل ما أراده وما يأمله وما يتمناه منها. ولأنها كذلك فلا بد للتعامل معها وفقا لما شرعه الله تعالى، وإذا كانت هذه الزينة زائلة، فإن الأعمال الصالحة هى الباقية. وهى عند الله خيرا ثوابا، لأن الله يجازى الإنسان الذى جاء بها خير الجزاء، وخيرا أملا. لأن ما يؤمل بها من رحمة الله وكرامته ميسور للإنسان، فهى أصدق أملا من زينات الدنيا وزخارفها التى لا تفى للإنسان فى أكثر ما تعده. وكما أقام الشيطان له خيمة فى اتجاه زينة الكواكب، أقام خيمة فى اتجاه زينة الأموال والأولاد، وعلى هذه الزينة قسمت القلوب ووجه أصحابها سهامهم فى اتجاه طائفة الأعمال الصالحة التى تدعو إلى الخير والثواب. وجاء طابور طويل يصد بالمال عن سبيل الله كما فعل قارون - (فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) - [۹] ، واستمر هذا الطابور يتدفق على صفحة الوجه الإنسانى آخذا صورا عديدة فى عالم الرشوة وبيوت المال للصد عن سبيل الله. وفى عالم زينة الأولاد قالوا فيما أخبر سبحانه - (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) - [۱۰] وعلى قاعدة الأبناء، جاء
الآباء بالأبناء ليركبوا على رقبة الشعوب، ليصبح بذلك المستقبل ابنا لشذوذ
[صفحه ۲۹]

الحاضر والحاضر ابنا لشذوذ الماضی، والجمیع یحافظون علی سنهٔ الآباء القومیهٔ التی أقام الشیطان خیامها، ورفع علیها قانونه الخالد الشاذ الذی وقف حجر عثرهٔ علی امتداد دعوهٔ الأنبیاء والرسل. لقد قالوا کما أخبر الله تعالی: (قالوا بل نتبع ما ألفینا علیه آباءنا) - [۱۱] ، و - (قالوا حسبنا ما وجدنا علیه آباءنا) - [۱۲] ، و - (قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا علیه آباءنا) - [۱۳] ، وقالوا: - (إنا وجدنا آباءنا علی أمهٔ وإنا علی آثارهم مهتدون) - [۱۴] .

إن زینهٔ المال والأولاد التی أضفی علیها الشیطان زخرفه لیتلقفه الغاوون، هذه الزینهٔ المزخرفهٔ أقامت جدرا من الأموال واللحوم للصد عن سبیل الله. وهذا الانحراف وغیره، ما زال حجر عثرهٔ علی طریق الدعوهٔ الحق. فالفطرهٔ التی تحمل کلیات الدین، زخرف لصاحبها طریق الانجراف، وزین لهم الباطل والمعاصی، فنسوا الله. ومن ینسی الله ینسیه الله نفسه وتنتهی به خطاه إلی الهلاک. إن حامل الفطرهٔ هداه الله إلی السبیل الحق، وعرفه طریق الحق وطریق الباطل، وله أن یختار. فمن اختار طریق الباطل، أضله الله. ومعنی إضلال الله له، إن الله یقطع عنه الرحمهٔ لانحرافه فی الاختیار. ولا یدخل فی الرحمهٔ إلا إذا أخذ الخطوهٔ الأولی فی اتجاه الاختیار الحق. وجحافل فقه الشیطان، لا- ییأسوا من طرح ثقافات وعقائد من شأنها أن تفسد الدین الفطری، لأنه علی فساد الدین الفطری یترتب علیه فساد القوهٔ الحسیهٔ الداخلیهٔ للإنسان، ولا تتعادل فیما بینها. وعلی فساد القوی الحسیهٔ، یکون الإنسان مستعدا لتلقی أی إغواء أو تزیین، یشبع أی ملکهٔ من ملکات النفس الجائعهٔ. وعلی أعتاب الکثرهٔ من الذئاب الآدمیهٔ، یأتی طغیان هذه الکثرهٔ التی لا تتعظ بموقف، ولا تتفاعل مع وجدان. ویترتب علی طغیانهم ضعف القوهٔ المخالفهٔ، لذلک کان طریق الدعوهٔ طریقا شاقا علی امتداد المسیرهٔ البشریهٔ.

[صفحه ۳۰]

[۱] سورهٔ الأعراف: الآیهٔ ۱۳.

[۲] سورهٔ الحجر: الآیهٔ ۳۶.

[۳] سورهٔ الأعراف: الآیهٔ ۱۵.

[۴] أخبر النبی صلی الله علیه وآله وسلم. بظهور المهدی ونزول عیسی علیهما السلام. وبخروج الدجال والسفیانی آخر الزمان ومن أراد المزید فعلیه ببحوثنا فی المسیح الدجال.

[۵] سورهٔ الحجر: الآیهٔ ۳۹ - ۴۰.

[۶] سورهٔ الصافات: الآیهٔ ۶.

[۷] سورهٔ النمل: الآیهٔ ۲۴.

[۸] سورهٔ الکهف: الآیهٔ ۴۶.

[۹] سورهٔ القصص: الآیهٔ ۷۹.

[۱۰] سورهٔ سبأ: الآیهٔ ۳۵.

[۱۱] سورهٔ البقرهٔ: الآیهٔ ۱۷۰.

[۱۲] سورهٔ المائدهٔ: الآیهٔ ۱۰۴.

[۱۳] سورهٔ یونس: الآیهٔ ۷۸.

[۱۴] سورهٔ الزخرف: الآیهٔ ۲۲.

قطع الطریق علی الدعوهٔ

بعد أن مارس قطاع الطرق عملهم للصد عن سبیل الله. انقطع الطریق علی

الرسل والأنبیاء والفطرهٔ وفقا لمنهج الشیطان. نری أن هذا المنهج قد قطع الطریق علی الدعوهٔ، بمعنی إنه استعمل أدوات یستطیع أن

يعرقل بها الطريق أمام السائرين فى اتجاه العبادة الحق إلى يوم الوقت المعلوم. وأدوات الشيطان التى استعملها فى هذا المجال قام بها المنافقون والذين فى قلوبهم مرض وغيرهم من الذين يلبسون ملابس الأديان. أى أنه عمل على ضرب الدعوة من داخلها حتى تسير فى اتجاه غير اتجاه العبادة الحق. وهذا المخطط أخبرنا الله تعالى به، فبعد أن أنظره الله ليوم يبعثون قال لله جل شأنه - (فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم - ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) - [۱] ، قال المفسرون: لما أنظر إبليس واستوثق بذلك أخذ فى المعاندة والتمرد. قال: لأقعدن لعبادك الذين تخلفهم من ذرية هذا على طريق الحق وسبيل النجاة ولأضلنهم عنها لئلا يعبدون ولا يوحدوك [۲] وقعود الشيطان على الصراط المستقيم، كناية عن التزامه والترصد لعابريه ليخرجهم منه. والجلوس على الصراط المستقيم لا يتحقق الغرض منه إلا برمز من رموز هذا الصراط، بمعنى أنه لكى يصد عن سبيل الله فلا بد من ثقافة يصيد بها الذين يسيرون على الصراط المستقيم. وهذه الثقافة لكى يتحقق الغرض منها لا بد أن يحملها طائفة من السائرين على الصراط المستقيم، فمعهم يكون الضلال أشد. ويسيرون فى الحياة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، بينما هم فى الواقع يغوصون فى أوحال الذين من قبلهم من الذين غضب الله عليهم ولعنهم. إن قطع الطريق على الدعوة، يتحقق إذا حملها أصحاب اللا دعوة واللا هدف، بشرط أن يكون على أصحاب اللا دعوة

[صفحه ۳۱]

واللا هدف ملابس الدعوة والهدف. وبعد أن أعلن الشيطان الخط العريض، بأنه سيجلس على الصراط المستقيم. ذلك الصراط الذى يوصل الناس إلى ربهم الحق وينتهى بهم إلى سعادتهم فى الدنيا والآخرة، أخبر سبحانه بأنه قال: - (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) - وفى هذا إيضاح للخط العريض. قال المفسرون: عن مجاهد قال - (من بين أيديهم) - يعنى من حيث يبصرون، وقيل: من بين أيديهم أى الدنيا [۳] وقيل: أى ما يستقبلهم من الحوادث أيام حياتهم،

من الأمور التى تهواها النفوس، وتستلذه الطباع. وكل ما يتعلق بالآمال والأمانى. فيأتيهم ليخوفهم من الفقر إذا هموا لينفقوا فى سبيل الله. أو يخوفهم من ذم الناس أو لومهم إذا أمروا بمعروف أو إذا سلكوا سبيل من سبل الخير وعلى هذا جاء فقه التقوقع والترقيع والانسحاب، غلافه غلاف الدين ومحتواه لا علاقة له بالدين. والمراد من خلفهم، قال المفسرون: أى أرغبهم فى دنياهم [۴] ، وقيل: أى آتيهم من ناحية الأولاد والأعقاب وذلك لأن الإنسان له فيمن يخلفه من أولاد، آمال وأمانى ومخاوف ومكاره. ويخيل للمرء أنه يبقى ببقاء أولاده، ويسره ما يسرهم ويسوؤه ما يسوؤهم، فيجمع لهم المال من حلاله وحرامه، ويفسح لهم الطريق إذا كان ذا جاه وملك ليكونوا امتدادا له بعد وفاته.. وعلى قاعدة الأبناء جاء فقه السلطة الذى يمدح المستقبل لأنه ينتمى إلى حاضر القاضى والجلاد ويمدح الحاضر لأنه ينتمى إلى ماضى القاضى والجلاد إنه عالم - (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) - [۵] ، عالم ينظر إلى المستقبل بعيون الماضى وإن كان آباؤهم فى الماضى لا يعقلون شيئا، إنه عالم غلاف فقهه غلاف دينى أما محتواه فهو أقرب إلى المحافظة على الشذوذ.

[صفحه ۳۲]

والمراد بعن أيمانهم وعن شمائلهم، قال المفسرون: عن أيمانهم: أى أشبه عليهم أمر دينهم [۶] وقيل: اليمين هو الجانب القوى الميمون من

الإنسان، أى الدين. وإتيانه من جانب الدين، أن يزين لهم المبالغة فى بعض الأمور الدينية والتكاليف بما لم يأمرهم الله.. وعلى هذا جاء فقه المبالغة والتنطع والمنفرين، الذين يدعون أنهم يعلمون كل شئ وهم لا يعلمون أى شئ. وعلى أكتافهم تتآكل الشرائع ويتراجع الدين، إن غلاف فقه المنفرين والمتنطعين والذين يتخذون الزهد والرهبنة طريقا ليأكلوا به أموال الناس بالباطل، غلاف يحمل ملامح دينية. أما محتواه فقد خطه أصحاب القضايا الرديئة، التى لا تصلح إلا لعالم اللا دعوة واللا هدف - (وعن شمائلهم)، قال المفسرون: اشتهى لهم السيئات والمعاصى. وقيل: عن شمائلهم أى تأصيل الفحشاء والمنكر والدفاع عن اقتراف الذنوب بجعل

الأهواء قانونا لهم.. وأمام هـذا الفقه تقهقر اليمين وتقـدم الشـمال تحت لافتـة تنادى بحقوق الإنسان، فالعنوان له ملامـح طيبة " حقوق الإنسان " أما المحتوى فلا وجود فيه لإنسان الفطرة، إلا من رحم الله. والمنهج الشيطانى لم يكتف بمحاصرة الإنسان من جهاته الأربع، وإنما خطط من أجل أن يجمع أتباعه تحت ثقافة واحدة، هى ثقافة الأهواء رغم تفرق سبلهم، وهذه الثقافة يعزفها الشيطان الرجيم على الجميع. أخبر الله تعـالى بـأنه قـال: - (أرأيتك هـذا الـذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامـة لأحتنكن ذريته إلا قليلا) - [٧] قال المفسرون: يقال، حنك الدابة بحبلها، إذا جعل فى حنكها

الأسـفل حبلا- يقودهـا به. والمعنى: أقسم لئن أخرتنى إلى يوم القيامـة، وهو مـدة مكث بنى آدم فى الأـرض، لأـلجمن ذريته إلا قليلا، أتسلط عليهم تسلط راكب الدابة الملجم لها عليها، يطيعوننى فيما آمرهم، ويتوجهون إلى حيث أشير لهم، من غير أى عصيان وجماح. إن الاحتناك فقه لتلجيم العقول وتكميم الأفواه

[صفحه ۳۳]

وتعصـيب العيون، عن كل حق أو حقيقـة. إن الاحتناك قانون يضـرب بسـياطه الغوغاء والرعاع والـديهماء. وفى عالم الاحتناك تتلقى الـدواب أوامر الضـلال والأمـانى وتغيير خلق الله، بـدون اعتراض وبلا أدنى تفكير. قال تعالى وهو يخبر فى كتابه عن خطـة الشـيطان - (وقال لاتخذن من عبادك نصـيبا مفروضا - ولأضـلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) - [٨] قال المفسرون: - (ولأضلنهم) - أى

عن طريـق الحـق، - (ولأـمنينهم) - أى أزين لهم ترك التوبـة - (ولآـمرنهم فليبتكن آذان الأنعـام) - يعنى بشـق آذانهـا، - (ولآـمرنهم فليغيرن خلق الله) - يعنى دين الله [٩] .

والمعنى: أى لأضـلنهم بالاشـتغال بعبادة غير الله، واقتراف المعاصـى، ولأغرينهم بالأمانى التى تصرفهم عن الاشتغال بواجب شأنهم وما يهمهم من أمرهم، ولآـمرنهم بشق آذان الأنعـام وتحريم مـا أحـل الله، ولآمرنهم بتغيير خلق الله. وينطبق على مثل الإخصاء وأنواع المثلة واللواط والسـحاق. وقيـل: المراد بتغيير خلق الله، الخروج عن حكم الفطرة، وترك الـدين الحنيف. قـال تعالى: - (فأقم وجهك للـدين حنيفـا فطرة الله التى فطر النـاس عليهـا لا تبـديل لخلق الله ذلك الـدين القيم) - [١٠] والخروج على حكـم الفطرة، غير تبـديل الفطرة. فالفطرة لا تبدل

لأنها حجـة بـذاتها على الإنسان. وهكـذا قطع البرنامـج الشـيطانى الطريق على الرسل والفطرة والدعوة، والله غالب على أمره. لقد طلب الشـيطان الامهال إلى يوم الوقت المعلوم، فأعطاه الله ذلك، وتوعد ذرية آدم بالإغواء والتزيين والاحتناك وغير ذلك. ولأن برنامجه لا يقصـده إلاـ شـر الـدواب عنه الله، زاده الله فقـال له تعـالى: - (اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا - واسـتفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان

[صفحه ۳۴]

إلا غرورا - إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا) [١١] قال

المفسـرون: أى اسـتنهض للمعصـية من اسـتطعت أن تسـتنهضه من ذريـة آدم بصوتك، وصـح عليهم لتسوقهم إلى المعصـية بأعوانك وجيوشـك، فرسـانهم ورجالتهم. وشاركهم فى الأموال فيجمعونها من خبيث وينفقونها فى حرام، وشاركهم فى الأولاد أى يمجسونهم ويهودونهم وينصرونهم ويصبغونهم غير صبغة الإسلام. (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) أخبر سبحانه، بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قال (وكفى بربك وكيلا) أى حافظا ومؤيدا ونصيرا [١٢] .

إن برنامج الشـيطان تنسـفه العبادة الحق نسـفا. فالشـيطان لا يسـتطيع أن يجبر إنسان على معصـية، إنه يزين ويغوى وينادى فقط، والذى يلبى نداءه يكون فى الحقيقة قد اختار، ومن اختار طريق الشـيطان فهو بعيد عن الله، وبرنامج الشـيطان يسـير اتباعه عكس اتجاه الفطرة، ولا يقصدوا إلا ما خلفوه وراء ظهورهم. والإنسان الذى يسير فى غير اتجاه الفطرة، كلما توجه إلى ما يراه خيرا لنفسه وصلاحا لدينه أو

لدنیاه، لم ینل إلا شرا أو فسادا، وکلما بالغ فی التقدم زاد فی التأخر، ولیس بفالح أبدا. وذلک لأنه مطارد من الله ولا بقاء لشئ یطارده الله إن أتباع برنامج الشیطان لن یهدیهم الله، ما داموا یتزودون من زاد برنامج الضلال. (والله لا یهدی القوم الظالمین) [۱۳] (والله لا یهدی القوم الفاسقین) [۱۴] (والله لا یهدی القوم الکافرین) [۱۵] (إن الله لا یهدی من یضل) [۱۶] (إن الله لا یهدی من هو مسرف کذاب) [۱۷] (إن الله لا یهدی من هو

[صفحه ۳۵]

کاذب کفار) - [۱۸] فهؤلاء جمیعا دخلوا باختیارهم إلی دائرة مقفولة علی الغاوون. فمن لم یأخذ بالأسباب وخرج من هذه الدائرة، هلک وخسر الدنیا والآخرة، إن العودة إلی سبیل الفطرة، لا یکون إلا بالاتجاه أولا نحو الفطرة، ثم السیر علی سبیلها وفقا لما جاء به خاتم الأنبیاء والمرسلین صلی الله علیه وآله وسلم. وعلی الخطوة الأولی یأتی مدد الله العزیز الحکیم، قال تعالی: - (إن تنصروا الله ینصرکم ویثبت أقدامکم) - [۱۹] .

[۱] سورة الأعراف: الآیة ۱۶ - ۱۷.

[۲] تفسیر ابن کثیر: ۲۰۴:۲.

[۳] تفسیر ابن کثیر: ۲۰۴:۲.

[۴] تفسیر ابن کثیر: ۲۰۴:۲.

[۵] سورة الزخرف: الآیة ۲۲.

[۶] تفسیر ابن کثیر: ۲۰۴:۲.

[۷] سورة الإسراء: الآیة ۶۲.

[۸] سورة النساء: الآیة ۱۱۸ - ۱۱۹.

[۹] تفسیر ابن کثیر: ۵۵۶:۱.

[۱۰] سورة الروم: الآیة ۳۰.

[۱۱] سورة الإسراء: الآیة ۶۳ - ۶۴ - ۶۵.

[۱۲] تفسیر ابن کثیر: ۵۰:۳.

[۱۳] سورة التوبة: الآیة ۱۹.

[۱۴] سورة المائدة: الآیة ۱۰۸.

[۱۵] سورة البقرة: الآیة ۲۶۴.

[۱۶] سورة النحل: الآیة ۳۷.

[۱۷] سورة غافر: الآیة ۲۸.

[۱۸] سورة الزمر: الآیة ۳.

[۱۹] سورة محمد: الآیة ۷.

حصار برنامج الشیطان

لقد عمل الشیطان وقطاع الطرق علی امتداد التاریخ الإنسانی، من أجل

التشکیک فی کل رسول ونبی، رافعین فی وجوههم أعلام الاستکبار والتحقیر. وعلی امتداد التاریخ لم ینقل إلینا أن هناک نبیا أو رسولا قد هزم وإنما نقل إلینا أن الاستکبار هزم فی کل مکان وکل زمان، هزم تحت طین الطوفان أیام نوح علیه السلام. وهزم تحت

الرياح العاصفة أيام هود عليه السلام. وهزم تحت صاعقة من السماء أيام صالح عليه السلام وهزم تحت قصف الحجارة من السماء أيام لوط عليه السلام. وهزم تحت أمواج البحر المتلاطمة أيام موسى عليه السلام. وما زال يهزم حتى يومنا هذا تحت شهادة الدعوة الخاتمة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم. - (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) - [۱].

إن الباطل هو الذى يهزم وفى هزيمته آية لكل من له سمع وبصر وعبرة لمن أراد الاعتبار - (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) - [۲].

ولقد عمل الشيطان وقطاع الطرق من أجل تدمير الدعوة، ولكن هيهات،

[صفحه ۳۶]

منذ آدم عليه السلام وحتى محمد صلى الله عليه وسلم والتوحيد يسرى فى الوجود. لقد ذهب الجبابرة وأبناء الجبابرة الذين ادعوا أن دماء الآلهة تجرى فى عروقهم، ذهبوا، وذهب من بعدهم الجلادون الذين أرادوا أن تكون للشذوذ قداسة. ذهبوا وما زالوا يذهبون، ودعوة الحق راسخة فى النفوس رسوخ الجبال - (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون - هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) - [۳].

ولقد عمل الشيطان وقطاع الطرق من أجل تدمير الفطرة. والفطرة التى استهدفوها يقدروا على تبديلها وفى هذا انتكاس لهم. أما تغيير الطريق الفطرى، فإن الشيطان لم يمكن من إجبار الناس على المعاصى، هو يدعو إليها فقط. وهذا الباب أغلقته حجج الله على عباده فى عالم الذر والخلق، وفى عالم المشاهدة المنظور. ولقد جاء رسل الله عليهم السلام بالدين الحق، وللدين طريقة خاصة فى الحياة، وبه يميز الناس أى الطرق يسلكون إلى حياة طيبة فى الدنيا والآخرة، والدين الصحيح لا يكون إلا بحفظ الصلة بالله تعالى وإخلاص العبادة له. فمن أخلص العبادة لله تكون له حياة طيبة والله تعالى يحيى فى الدنيا الذين آمنوا حياة غير الحياة التى يعطيها للآخرين، فحياة المؤمنين والمجرمين وموتهما لا يتساويان. قال تعالى: - (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) - [۴].

ومن أعظم الحجج على الإنسان، أن الله ما ترك دعوة جاء بها رسول من رسله، إلا وأخبر فيها عن مكائد الشيطان، كى يحذر الجنس البشرى من عمليات الاغواء والتزيين وغير ذلك. أليس فى هذا تعرية لبرنامج الشيطان، والرسالة الخاتمة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، أفاض فيها سبحانه فى هذا الجانب، وكشف كل مكر يقوم به الشيطان وأتباعه حتى يوم الوقت المعلوم.

[صفحه ۳۷]

أليس فى هذا حجة إضافية على ما عند الإنسان من حجج. إن الأخبار بما مضى حجة دامغة - (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين - وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) - [۵].

لقد أخبر سبحانه عن أمره ونهيه تعالى فقال: - (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) - [۶]، وبين سبحانه أن الشيطان سيعمل على طريق ما نهى الله عنه، فقال إنه (يأمر بالفحشاء والمنكر) - [۷] ولأنه كذلك جاء التحذير من الحركة الشيطانية فقال سبحانه للنبى صلى الله عليه وسلم - (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق) - [۸] وقال: - (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) - [۹] إنه الحصار المضروب على برنامج الشيطان، حصار هدفه تحرير الإنسان ووضعه على طريق الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة. والحياة الدنيا لا تساوى ساعة واحدة أمام الحياة الآخرة. وكما حاصر كتاب الله أعمدة البرنامج الشيطانى، الفحشاء والمنكر، حاصر قطاع الطرق الذين وجدوا فى الطاغوت ضالتهم. فقال تعالى: - (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) - [۱۰] وفى مقابل هذه الولاية قال سبحانه: - (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى) - [۱۱].

وقال تعالى: - (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) [۱۲]، ثم حذر سبحانه فقال: - (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد

خسر خسرانا

[صفحه ۳۸]

مبینا) - [۱۳] ، وقال - (إنه لیس له سلطان علی الذین آمنوا وعلی ربهم یتوکلون) [۱۴] .

وآیات القرآن التی تحاصر الشیطان وحزبه، وتبشر المؤمنین بالفوز، آیات کثیرة. أما من ناحیة تمکین الشیطان کی یزین للناس المعاصی، فإن الله تعالی زین الإیمان فی قلوب الذین آمنوا. قال تعالی: - (ولکن الله حبب إلیکم الإیمان وزینه فی قلوبکم) - [۱۵] وجعل سبحانه لمن آمن نورا یمشی به فی الناس، قال تعالی: - (أو من کان میتا فأحییناه وجعلنا له نورا یمشی به فی الناس) [۱۶] وإذا کان الشیطان قد أمهل حتی یوم الوقت المعلوم، فإن الله أید الإنسان بتتابع الأنبیاء والرسل والأئمة المهدین والملائکة الباقین ببقاء الدنیا. وهکذا، زینة فی مواجهة زینة، وحیاة فی مواجهة حیاة، ومنهج فی مواجهة منهج. منهج الله حیث التوحید، وإعانة الله لعباده، والتسبیح، والتطهیر، والحریة، والحلال، والحکمة، والخشوع، والعبادة الحق، والشکر، والشهادة، والخلود. ومنهج الشیطان حیث الاختلاف، والأزلام، والاستبداد، والاستعباد، والتفاخر، والتکذیب، والجهل، والجریمة، والفحشاء والمنکر، والخرافات، والطاغوت، والضلال، والفسق، والظلم والکفر، والنار.

[صفحه ۳۹]

[۱] سورة غافر: الآیة ۵۱.

[۲] سورة الأنبیاء: الآیة ۱۸.

[۳] سورة الصف: الآیة ۸ - ۹.

[۴] سورة الجبائیة: الآیة ۲۱.

[۵] سورة یس: الآیة ۶۰ - ۶۱.

[۶] سورة النحل: الآیة ۹۰.

[۷] سورة النور: الآیة ۲۱.

[۸] سورة الأعراف: الآیة ۳۳.

[۹] سورة الأنعام: الآیة ۱۵۱.

[۱۰] سورة البقرة: الآیة ۲۵۷.

[۱۱] سورة الزمر: الآیة ۱۷.

[۱۲] سورة الأعراف: الآیة: ۲۷.

[۱۳] سورة النساء: الآیة ۱۱۹.

[۱۴] سورة النحل: الآیة ۹۹.

[۱۵] سورة الحجرات: الآیة ۷.

[۱۶] سورة الأنعام: الآیة ۱۲۲.

النور والسحب الداکنة

علی امتداد المسیرة الإنسانیة، أقام الله تعالی حجته علی خلقه بإرسال

الأنبیاء والرسل ومعهم الهدی. وعلی امتداد نفس المسیرة والشیطان وأولیاؤه یعملون من أجل الضلال والنار، وبعد رحیل النبی المؤید بالوحی، ینشط الشیطان وتلامیذه فی العمل علی أرضیة الصدر الأول فی کل رسالة، وذلک لأن هذه التربة تعتبر مخزنا هاما تستمد منه

الأجيال وقودها الذى تنطلق به إلى المستقبل، فالشيطان إذا دق شذوذا فى الأرضية الأولى، ضمن لهذا الشذوذ قداسة على امتداد المسيرة البشرية. ومن أجل هذا تنشط حركته على امتداد هذه المساحة، وبالرغم من أن هذه المساحة تكون مشبعة بالعلم، إلا أن الشيطان يواجه هذا العلم دائما بالبغى، وما يلبث الذين يفى قلوبهم مرض أن يهيمنوا ببغيهم الذى يغذيه الزخرف والتزيين والإغواء، فبهذه التغذية يتراجع العلم ويعبر البغى إلى عالم الفتن. ولقد أخبرنا الله فى كتابه أن الاختلاف بعد الرسل ما جاء إلا بعد أن أقيمت عليهم الحجة بالعلم، وهذا الاختلاف ما ترعرع إلا على تربة البغى التى يترتب عليها العقاب - (وما اختلف أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب) - [۱] .

قال المفسرون: أى بغى بعضهم مع بعض، فاختلفوا فى الحق لتحاسدهم

[صفحه ۴۰]

وتباغضهم وتدابرهم. فحمل بعضهم بغض البعض الآخر، على مخالفته فى جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقا [۲] وقيل: اختلاف أهل الكتاب فى الدين

مع نزول الكتاب الإلهى عليهم، لم يكن عن جهل منهم بحقيقة الأمر، بل كانوا عالمين بذلك. وإنما حملهم على ذلك بغيهم وظلمهم من غير عذر، وذلك كفر منهم بآيات الله المبينة لهم حق الأمر وحقيقته. لا بالله، فإنهم يعترفون به، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب، يحاسبه سريعا فى دنياه وآخرته أما فى الدنيا فبالخزى وسلب سعادة الحياة عنه. وأما فى الآخرة فبأليم عذاب النار، والدليل على عموم سرعة الحساب للدنيا والآخرة قوله تعالى بعد آيتين: (أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين) [۳] .

وإذا كان البغى قد أثمر شجرة الاختلاف. فإنه أثمر أيضا شجرة الافتراق، قال تعالى: (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) [۴] قال

المفسرون: أى وما تفرق الناس الذين شرعت لهم الشريعة باختلافهم وتركهم الاتفاق، إلا حال كون تفرقهم آخذا أو ناشئا من بعد ما جاءهم العلم بما هو الحق ظلما أو حسدا تداولوه بينهم [۵] وقال ابن كثير: أى إنما كان مخالفتهم

للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم. وما حملهم على ذلك إلا البغى والعناد [۶] .

إن الشيطان ينشط فى تربة العلم، حيث القافلة الأولى. فإن استطاع أن يدق له وتدا أو ينصب له خيمة، ضمن البغى والاختلاف والفرقة. ومن هذه الأشجار سيأكل كل قادم ملجم العقل من بنى الإنسان تحت لافتات عدة تزينها سنة الآباء الأوائل، التى يدافعون عنها حتى ولو خرجت منها رائحة الفواحش.

[صفحه ۴۱]

والنبى الخاتم صلى الله عليه وسلم، عندما بعث كانت سنة الآباء الضالين لها أعلام فى كل مكان من عالم الفرقة والاختلاف. لقد دعاهم إلى الحق، فواجهوه بالباطل (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) [۷] (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) [۸] جاء

الرسول الخاتم ليواجه شريحة من الكفار فى رسالته الخاتمة تحمل نفس الملامح التى حملها كفار قوم نوح عليه السلام فى صدر الإنسانية، فقديما شكا نوح عليه السلام قومه لله تعالى وقال: (وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) [۹] فى الرسالة الخاتمة قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم: (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون) [۱۰] (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا) [۱۱] .

لقد جاء النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم فى وقت كانت سياسة الاغواء والتزيين والاحتناك قد وصلت بأصحابها إلى دركات هوة عميقة.

[۱] سورة آل عمران: الآية ۱۹.

[۲] تفسير ابن كثير: ۱:۳۵۴.

[۳] تفسير الميزان: ۳:۱۲۱.

[۴] سورة الشورى: الآية ۱۴.

[۵] الميزان: ۱۸:۳۱.

[۶] تفسير ابن كثير: ۴:۱۰۹.

[۷] سورة المائدة: الآية ۱۰۴.

[۸] سورة الأعراف: الآية ۲۸.

[۹] سورة نوح: الآية ۷.

[۱۰] سورة فصلت: الآية ۵.

[۱۱] سورة الفرقان: الآية ۶۰.

من مداخل الدعوة الخاتمة

إن الداعى إلى الله تعالى صلى الله عليه وسلم، جاء ليذكر ويغذى الإرادة.

ويعمق الإخلاص ويشيع الأخلاق الفاضلة، ويبشر بما عند الله للذين آمنوا فى الحياة الدنيا والآخرة. ويحذر دوائر الانحراف والاختلاف والفرقة والضلال من عذاب يوم عظيم. وكانت أصول دعوته تستند إلى أهم الأمور الفطرية، ألا وهو لا إكراه فى الدين. فنوح عليه السلام قال فى صدر البشرية

[صفحه ۴۲]

لقومه (أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) [۱] قال المفسرون: أى إذا كنت على بينة من

ربى، على يقين ونبوة صادقة، وخفيت عليكم فلم تهدوا إليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلى تكذيبها وردها (أنلزمكموها) أى: أنغصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون [۲] وقال فى الميزان: معناه عندى ما يحتاج إليه رسول الله فى رسالته،

وقد أوقفتكم عليه، لكنكم لا تؤمنون به طغيانا واستكبارا، وليس على أن أجبركم عليها، إذ لا إجبار فى دين الله سبحانه. والآية من جملة الآيات النافية للإكراه فى الدين، وتدل على أن ذلك من الأحكام الدينية المشرعة فى أقدم الشرائع، وهى شريعة نوح عليه السلام. وهذا الحكم باق على اعتباره حتى اليوم من غير نسخ [۳] .

كان هذا فى شريعة صدر البشرية الأول، وفى عصر الرسالة الخاتمة. قال تعالى: (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) [۴] قال المفسرون: نفى

الدين الإجبارى.. فالاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التى لا يحكم فيها الاكراه والإجبار. فإن الاكراه إنما يؤثر فى الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية، أما الاعتقاد القلبى فله علل وأسباب أخرى قلبية [۵] .

فالدعوة تقف على أرضية لا إكراه فى الدين، والداعية يقف على أرضية الخلق العظيم، قال تعالى لرسوله (وإنك لعلى خلق عظيم) [۶] ومحاورة صاحب الخلق العظيم لخصومه تشع بالحكمة والموعظة الحسنة قال تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) [۷] .

[صفحه ۴۳]

ومن أرضیة لا إکراه فی الدین حاور صاحب الخلق العظیم خصومه وأخبرهم بما أمر به الله. (قل إننی هدانی ربی إلی صراط مستقیم دینا قیما ملة إبراهیم حنیفا وما کان من المشرکین) [۸] قال المفسرون: أمره تعالی أن یخبرهم بأن ربه

الذی یدعو إلیه، هداه بهدایة إلهیة إلی صراط مستقیم، وسبیل واضح لا تخلف فیه ولا اختلاف. دینا قائما علی مصالح الدنیا والآخرة أحسن القیام. لکونه مبنیا علی الفطرة ملة إبراهیم حنیفا، مائلا عن التطرف بالشرک. إلی اعتدال التوحید [۹] ، وأمره الله تعالی أن یخبرهم بأن طریقه هو طریق العبادة الحق. (قل إن صلاتی ونسکی ومحیای ومماتی لله رب العالمین - لا شریک له وبذلک أمرت وأنا أول المسلمین) [۱۰] قال المفسرون: أمره تعالی أن یخبرهم بأنه عامل بما

هداه الله إلیه، وسائر به. کما أنه مأمور بذلک، وأمره أن یقول لهم: إننی جعلت صلاتی ومطلق عبادتی ومحیای بجمیع ما له من الشؤون.. ومماتی بجمیع ما یعود إلی من أموره، جعلتها کلها لله رب العالمین. من غیر أن أشرک به فیها أحد، فأنا فی جمیع شئونی فی حیاتی ومماتی لله وحده. وجهت وجهی إلیه، لا أقصد شیئا ولا أترکه إلا له ولا أسیر فی سیر حیاتی ولا أرد مماتی إلا له. فإنه رب العالمین، یملک الکل ویدبر أمرهم، وقد أمرت بهذا النحو من العبودیة، وأنا أول المسلمین لله فیما أراده من العبودیة التامة فی کل باب وجهة [۱۱] .

کان هذا مدخل من مداخل دعوة الإسلام العظیم، ولکن جحافل اللیل وخفافیش الظلام خرجوا من عالم الاحتناک حیث خیام تلجیم العقول وتعصیب العیون للصد عن سبیل الله بفرسانهم ورجالاتهم وأموالهم.

[۱] سورة هود: الآیة ۲۸.

[۲] تفسیر ابن کثیر ۴۳:۲.

[۳] المیزان ۲۰۷:۱۰.

[۴] سورة البقرة: الآیة ۲۵۶.

[۵] المیزان: ۳۴۵:۲.

[۶] سورة القلم: الآیة ۴.

[۷] سورة النحل: الآیة ۱۲۵.

[۸] سورة الأنعام: الآیة ۱۶۱.

[۹] المیزان: ۳۹۴:۷.

[۱۰] سورة الأنعام: الآیة ۱۶۲ - ۱۶۳.

[۱۱] المیزان: ۳۹۴:۷.

عواصف الصد عن سبیل الله

وقفت الدعوة الإسلامیة فی مواجهة أصحاب السبیل والاختلاف، رافعة

[صفحه ۴۴]

هامتها. وقام النبی الأعظم صلی الله علیه وسلم بإنذار خصوم العبادة الحق وإخبارهم أن عبادتهم اتباع للهوی، واتباع الهوی ینافی صفة الاهتداء فی نفس الإنسان، ویمانع إشراق نور التوحید علی قلبه إشراقا ثابتا ینتفع به. (قل إنی نهیت أن أعبد الذین تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءکم) [۱] وذکرهم بما حرم الله علیهم ووصاهم به. ومما وصاهم به، أن لا یتبعوا السبل التی دون هذا الصراط المستقیم الذی لا یقبل التخلف والاختلاف، فإن اتباع السبل یفرقهم عن سبیل الله. فیتخلفون فیه فیخرجون من الصراط المستقیم. والصراط المستقیم، لا اختلاف بین أجزائه ولا بین سالکیه. (وإن هذا صراطی مستقیما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بکم عن سبیله ذلک

وصاکم به لعلکم تتقون) [۲] .

ووجد الساهرین علی برنامج الشیطان أن برنامجهم فی مهب الریح، فکان لا بد من توجیه ضربات إلی الداعی إلی الله وإلی منهج الدعوة وإلی الذین آمنوا. فهذه المحطات الثلاث اتخذها الشیطان هدفا له منذ أن طرده الله ولعنه، ودوائر الصد عن سبیل الله التی سنسلط علیها الضوء فی بحثنا هذا هی (دائرة النجس) و (دائرة الرجس) وبالإضافة إلی هاتین الدائرتین یوجد تیار کان من نسیج الذین آمنوا. لکنه نسیج عبئ علیهم، وهذا الصنف وضعته تحت عنوان (تیار الذین فی قلوبهم مرض).

[۱] سورة الأنعام: الآیة ۵۶.

[۲] سورة الأنعام: الآیة ۱۵۳.

دائرة النجس

وفی هذه الدائرة یجلس طابور الشرک کله، قال تعالی: (إنما المشرکون

نجس) [۱] قال فی المجمع: کل مستقذر نجس. یقال: رجل نجس وامرأة

[صفحه ۴۵]

نجس وقوم نجس لأنه مصدر. وأدخلت فی دائرة النجس الکفار نظرا لأنهم جمیعا حزمة واحدة لها هدف واحد حدده برنامج واحد. وإذا کان القرآن قد ضرب علی المشرکین بالنجس فإنه شبه الکفار بالأنعام لأنهم لم یکونوا أهلا لسماع الحق وتعقله. وأهل هذه الحزمة الواحدة استهدفوا الرسل فرموه بالسحر (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الکافرون هذا ساحر کذاب) [۲] ورموه بالجنون (وقالوا یا أیها الذی نزل علیه الذکر إنک لمجنون) [۳] ، ورفضوا بشریة الرسول فقالوا (لولا أنزل إلیه ملک فیکون معه نذیرا) [۴] .

ووفقا لبرنامج الشیطان استهدفوا الدعوة فقالوا عن القرآن الکریم: (وقالوا أساطیر الأولین اکتتبها فهی تملی علیه بکرة وأصیلا) [۵] وخرج الذین تقلبوا فی

نعیم الترف والزینة وتعلقت قلوبهم بحب الدنیا فرأوا السعادة فیها والعذاب فی فقدها. خرجوا لیجلدوا الذین آمنوا، علی اعتبار أنهم خرجوا عن سنة الآباء القومیة التی تحمل شذوذ المسیرة الإنسانیة من عهد نوح علیه السلام. وتحت السیاط واللهیب سارت الدعوة الحق تضرب بحججها وجوه الجاحدین والظالمین أعداء العبادة الحق. ولم یجد هؤلاء فی جعبتهم من الحجج إلا ما تلقیه الشیاطین علی عقولهم الفارغة. قال تعالی: (وجعلوا الملائکة الذین هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم سنکتب شهادتهم ویسألون – وقالوا له شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلک من علم إن هم إلا یخرصون – أم آتیناهم کتابا من قبله فهم به مستمسکون – بل قالوا إنا وجدنا آباءنا علی أمة وإنا علی آثارهم مهتدون) [۶] إن سلتهم قد طفحت بأشواک زینت بلون الورود، لقد جاءهم

الشیطان من جهاتهم الأربعة ونصب خیامه علی دروب الآمال والأمانی وتغییر خلق الله، وزین لهم الفواحش، قال تعالی: (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا

[صفحه ۴۶]

علیها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا یأمر بالفحشاء أتقولون علی الله ما لا تعلمون) [۷] .

لقد عبدوا الملائکة، وساروا بلجام الاحتناک وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم. إنه فقه الصم البکم العمی، لأن عبادتهم للملائکة لو کانت بمشیئة الله وبرضاه، ما جاءهم رسول من الله یدعوهم إلی عبادة الله وحده وأن یوحدوه ولا یعبدوا الشرکاء. ثم إنهم لا حجة لهم علی عبادة الملائکة، لا- من طریق العقل ولا من طریق النقل فلم یأذن الله فیها. ولا دلیل لهم علی حقیة عبادتهم سوی أنهم متشبثون بتقلید آبائهم وفی درب آخر من دروبهم فعلوا الفواحش وقالوا وجدنا علیها الآباء والله أمرنا بها. وذلک افتراء علی الله وقول بغیر علم لعدم انتهائه إلی وحی. إن الله تعالی أعدل من أن یجبر عبدا علی فعل ثم یعذبه علیه، والله جل شأنه لو کان مجبرا لعبده علی فعل ما

برأ من أفعال المشركين قال سبحانه: (أن الله برئ من المشركين) [۸] فهو سبحانه لم يتبرأ من خلق أبدانهم وإنما تبرأ من شركهم وقبائحهم. قال تعالى: (فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون) [۹] ، وقال: (قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون) [۱۰] .

إن طابور الشرك والكفر والاحتناك لا علم عنده، لأن المعارف الحقة والعلوم المفيدة لا تكون فى متناول البشر إلا عندما يصلح أخلاقه. والطريق الوحيد لإصلاح الأخلاق والحصول على الملكات الفاضلة هو التوحيد الحق فى العبادة الحق. وإذا كان للمشركين والكفار فى مكة عمود فى دائرة النجس. فإن للمشركين والكفار من أهل الكتاب عمود عتيق فى هذه الدائرة. لأنهم حملوا

[صفحه ۴۷]

برنامج الشيطان وصدوا به عن سبيل الله. ولكن على طريقتهم، فاستهدفوا الرسول والدعوة والذين آمنوا، قال تعالى: (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) [۱۱] ، فسؤالهم تنزيل الكتاب من السماء بعدما كانوا يشاهدونه من أمر القرآن. لم يكن إلا سؤالا جزافيا لا يصدر إلا ممن لا يخضع للحق ولا ينقاد للحقيقة. وإنما يلغوا ويهذوا بما قدمت له أيدى الأهواء من غير أن يتقيد أو يثبت على أساس [۱۲] إن هدفه الصد عن السبيل بالتشكيك فى الرسول، أما الدعوة فقد

استهدفوها من جذورها. فالنبى صلى الله عليه وسلم أعلن على أسماع الجميع أن دعوته مبنية على الفطرة ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، فقام المشركين من أهل الكتاب بالمتاجرة على حساب أنهم أولى الناس بإبراهيم. يريدون من وراء ذلك إبعاد الناس عن الدعوة، فنزل قول الله تعالى: (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون) [۱۳] قال المفسرون: ضمت كل طائفة منهم إبراهيم إلى نفسها، فتدعى

اليهود أنه كان يهوديا، وتدعى النصارى أن كان نصرانيا. ومن المعلوم أن اليهودية والنصرانية، إنما نشأتا جميعا بعد نزول التوراة والإنجيل، وقد نزلا جميعا بعد إبراهيم عليه السلام. فكيف يمكن أن يكون عليه السلام يهوديا أو نصرانيا. فلو قيل فى إبراهيم شئ لوجب أن يقال: إنه كان على الحق حنيفا من الباطل إلى الحق مسلما لله سبحانه. والإسلام الذى وصف به إبراهيم، هو أصل التسليم لله سبحانه والخضوع لمقام ربوبيته (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين - إنه أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين) [۱۴] .

وكما استهدفوا الرسول والدعوة استهدفوا أيضا القوة الإسلامية بعد

[صفحه ۴۸]

الهجرة، فقام اليهود بتغذية الساحة بالمكائد وإشعال الحرب وكان الغرض من هذه الحروب كسر شوكة المسلمين وتجريدهم من قوتهم لحساب المنافقين ولحساب أهل مكة ومن حولهم الذين أخبر تعالى أنهم لا يهتدون ويستوى عليهم الانذار أو عدم الانذار [۱۵] .

[۱] سورة التوبة: الآية ۲۸.

[۲] سورة ص: الآية ۴.

[۳] سورة الحجر: الآية ۶.

[۴] سورة الفرقان: الآية ۷.

[۵] سورة الفرقان: الآية ۵.

[۶] سورة الزخرف: الآية ۱۹ - ۲۲.

[۷] سورة الأعراف: الآية ۲۸.

[۸] سورة التوبة: الآية ۳.

[۹] سورة الشعراء: الآية ۲۱۶.

[۱۰] سورة هود: الآية ۵۴.

[۱۱] سورة النساء: الآية ۱۵۳.

[۱۲] الميزان: ۵: ۱۳۰.

[۱۳] سورة آل عمران: الآية ۶۵.

[۱۴] سورة آل عمران: الآية ۶۷ - ۶۸.

[۱۵] راجع سورة ياسين: الآية ۱۰.

حصار دائرة النجس

لقد استهدف الكفار والمشركين الداعى إلى الله صلى الله عليه وسلم
ودعوته والمؤمنين بها. فأما الداعى إلى الله فلم يصل كيدهم إليه لأن الله ينصر رسله ولو كره الكافرون. وأما كتاب الدعوة وهو القرآن الكريم فقد تولى الله حفظه فقال جل شأنه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون) [۱] وأما أتباع
الدين فإن حفظهم يكون بمقدار اقترابهم من الداعى إلى الله صلى الله عليه وسلم وكتابه. فكلما كانوا أقرب عمهم الأمن والأمان ودخلوا فى رحاب النصر والحفظ وكلما ابتعدوا عمهم البغى والاختلاف والافتراق، ودخلوا فى خيام برنامج الشيطان. وآيات الكتاب الحكيم التى تحفظ أتباع الدين الحق، آيات كثيرة تحفظهم من وساوس الشيطان وخطواته وتحفظهم من حركة أتباع منهج الشيطان ودسائسهم. لقد حثتهم آيات الله على الاتحاد والأمانة والتقوى والجهاد والدعاء والذكر والصدقة والعلم والفكر والفهم. إلى غير ذلك من الأمور التى تجعل منهم قوة لا تنفذ إليها سهام دائرة النجس. والأكثر من هذا أن آيات الكتاب الحكيم كشفت برنامج الكفار والمشركين الذى يستمد قوته من برنامج الشيطان. وكشف هذا البرنامج للمؤمنين هو فى نفس الوقت حجة عليهم يوم القيامة. وأهم الأعمدة التى يقوم عليها برنامج المشركين من أهل الكتاب قوله تعالى: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا
[صفحه ۴۹]
نصير) [۲] قال المفسرون: إن هؤلاء ليسوا براضين عنك، حتى تتبع ملتهم
التى ابتدعوها بأهوائهم، ونظموها بآرائهم. ثم أمره تعالى بالرد عليهم بقوله: قل إن هدى الله هو الهدى. أى إن الاتباع إنما هو لغرض الهدى. ولا هدى إلا هدى الله. وهو الحق الذى يجب أن يتبع وغيره - وهو ملتكم - ليس بالهدى. فهى أهوائكم، ألبستموها لباس الدين. وسميتموها باسم الملة. ففى قوله (قل إن هدى الله).. جعل الهدى كناية عن القرآن، ثم أضيف إلى الله، فأفاد صحة الحصر فى قوله (إن هدى الله هو الهدى)، وأفاد ذلك خلو ملتهم عن الهدى. وأفاد ذلك كونها أهواءا لهم. واستلزم ذلك كون ما عند النبى علما، وكون ما عندهم جهلا. واتسع المكان لتعقيب الكلام بقوله: (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم - ما لك من الله من ولى ولا نصير) فانظر إلى ما فى هذا الكلام من أصول البرهان العريقة ووجود البلاغة على إيجازه. وسلاسة البيان وصفائه [۳] .
إن الدخول فى مساحة هؤلاء يترتب عليها أمور على رأسها (ما لك من الله من ولى ولا نصير) إن مساحتهم بها الزخرف والإغواء والأهواء. والآخذ منهم شيئا لن يأخذه إلا إذا كان حذاؤه قد حمل غبار طريقهم وعقله قد حمل بصمة احتناكهم. وإذا كان القرآن الكريم قد حذر من هذه المساحة العريضة التى يتربع فيها المشركين من أهل الكتاب. إلا أنه فى الوقت نفسه حذر من مساحة أخرى يتربع فيها المتخصصون من هؤلاء. يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم

كافرين - وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) [۴] إنه الفريق الناعم الذى يجيد الاختراق، ويمهد الطريق لمساحته

الواسعة كى تفرض سياسات التخويف والتجويع على الأمة، من أجل تنفيذ

[صفحه ۵۰]

برنامج النجس والعار. وكتاب الله وهو يكشف هذه الأهداف بين أن مخططات هؤلاء ستتحطم إذا اعتصمت الأمة بكتاب الله (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) قال المفسرون: أمر سبحانه بالاعتصام بالحق والإنصات إلى آيات الله، والتدبر فيها وإرجاع ما خفى منها إلى الرسول وسنته. فالآيات وبخت طريق الكفر وسالكيه. وأثبتت أن الكتاب والسنة كافيان فى الدلالة على كل حق يمكن أن يضل فيه.. فقوله تعالى: (وفيكم رسوله) يشمل أيضا وفيكم سنته التى بين لكم ما خفى عنكم من تأويل آيات الكتاب. وكما حذر كتاب الله من المخططات الكبرى لأهل الكتاب، حث المؤمنين على حفظ ثقافتهم الإسلامية فى أى مكان تواجدوا فيه. فحذر من ثقافة الآباء والأقارب إن استحبوا الكفر. ونهى عن موادة من حاد الله ورسوله ولو قارن أى سبب من أسباب المودة كالأبوة والنبوة والأخوة وسائر أقسام القرابة، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هو الظالمون) [۵] ، وقال تعالى: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) [۶] إن حفظ الثقافة والعقيدة فى الدائرة

الأضيق مطلب إسلامى. كما أن حفظها فى الدائرة الأوسع فيه دفاع عن الفطرة أمام الشهوات والأهواء المتعددة. يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض. ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين) [۷] قال المفسرون: المراد هو النهى عن موادتهم

الموجبة لتجاذب الأرواح والنفوس. فإن ذلك يقلب حال المجتمع من السيرة الدينية المبنية على اتباع الحق. إلى سيرة الكفر المبنية على اتباع الهوى وعبادة

[صفحه ۵۱]

الشيطان، والخروج عن صراط الحياة الفطرة [۸] .

لقد أقام الله حجته على حركة المسلمين على امتداد التاريخ، وقام القرآن الكريم بإظهار الداء وتشخيص الدواء. كى لا تختلط الثقافات وتنتج فى النهاية صنفا لا علاقة له بالإسلام أو بأهل الكتاب. صنفا لا من هؤلاء ولا من هؤلاء مهمته الوحيدة الوقوف فى دائرة الاحتناك يقدم خدماته لمن يلقف رغيفا أو شهوة تافهة.

[۱] سورة الحجر: الآية ۹.

[۲] سورة البقرة: الآية ۱۲۰.

[۳] الميزان: ۱:۲۶۵.

[۴] سورة آل عمران: الآية ۱۰۰ - ۱۰۱.

[۵] سورة التوبة: الآية ۲۳.

[۶] سورة المجادلة: الآية ۲۲.

[۷] سورة المائدة: الآية ۵۱.

[۸] الميزان: ۵:۳۷۳.

دائرة الرجس

قال تعالى وهو يذم المنافقين (فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم
جهنم) [۱] ، وقال سبحانه: (وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) [۲] والرجس هو كل قذر وقد يعبر به عن الحرام
والفعل القبيح واللعنة والكفر. قال الزجاج: الرجس فى اللغة اسم لكل ما استقذر من عمل [۳] والقرآن الكريم اهتم بالمنافقين، فذكرهم نظرا لخطورة العمل الذى عزموا عليه. فذكر مساوئ أخلاقهم، وأكاذيبهم وخدائعهم ودسائسهم. والفتن التى أقاموها على النبى صلى الله عليه وآله وسلم. وعلى المسلمين وقد تكرر ذكرهم فى السور القرآنية كسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والعنكبوت والأحزاب والفتح والحديد والحشر والمنافقون والتحريم وقد وعدهم الله أشد الوعيد. ففى الدنيا بالطبع على قلوبهم وجعل الغشاوة على سمعهم وعلى أبصارهم وإذهاب نورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون. وفى الآخرة يجعلهم فى الدرك الأسفل من النار. وليس ذلك إلا لشدة المصائب التى أصابت الإسلام والمسلمين من كيدهم ومكرهم وأنواع دسائسهم. فلم ينل المشركون واليهود والنصارى من دين الله ما نالوه. ويكفيك
[صفحه ۵۲]
فيهم قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله (هم العدو فاحذرهم) [۴] .
والنفاق له مدرسة على مساحة أهل الكتاب قال تعالى عن المنافقين منهم: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون) [۵] وقال
تعالى: (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) [۶] .
فالنفاق تمتد عروقه إلى الماضى السحيق. وهو أول تيار سرى على صفحة الجنس البشرى. عمل من أجل إعاقة الطريق أمام العبادة الحق لحساب الأهواء المتعددة، وهذا التيار يحتوى بين دفتيه على جميع الأنماط البشرية من الذين استذلهم الشيطان. يحتوى على الرعاع والغوغاء والدهيماء. وفى نفس الوقت يضم أصحاب الملابس النظيفة والياقات البيضاء، أصحاب الأموال والأولاد وفصاحة اللسان. يقول تعالى: (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) [۷] فهم أصحاب أزياء حسنة، وصباحة فى
المنظر، وتناسب فى الأعضاء. إذا رآهم الرائى أعجبته أجسامهم، وإذا سمع السامع كلامهم مال إلى الاصغاء إلى قولهم. لحلاوة ظاهره وحسن نظمه، ورغم كل هذا إلا أن الحقيقة، أن هؤلاء كالخشب المسندة. أشباح بلا أرواح، لا خير فيها ولا فائدة، لأنهم لا يفقهون. وكيف يفقه من صد عن سبيل الله بكل ما يملك من الأموال وأولاد. قال تعالى: (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم - إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) [۸] أخبر
سبحانه بأن أموالهم وأولادهم ليس من النعمة التى تهتف لهم بالسعادة، بل من النقمة التى تجرهم إلى الشقاء. وأبواب الشقاء مفتوحة لجميع من أعرض عن ذكر الله، قال تعالى: (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم
[صفحه ۵۳]
القيامة أعمى - قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا - قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) [۹] .
والمنافقين هرولوا فى اتجاه الإسلام لإنجاز برنامج لا علاقة له بالإسلام. قال تعالى: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون - اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون) [۱۰] لقد هرولوا إلى الإسلام وهم معرضين عن سبيل الله!! أظهروا الإيمان ليقتربوا من المؤمنين ويحضرون فى محاضرهم ومشاهدهم. فيسهل عليهم وضع العراقيل المناسبة فى طريق كل حركة للدعوة. ولأن مساحة النفاق تحتوى على الأصناف العديدة من أصحاب العقد النفسية الذين فسدت فطرتهم وعلى أصحاب المصالح والمطامع. فإن القرآن الكريم فضح هذه المساحة التى ظهر أصحابها فى

صدر العهد النبوى. فمنهم من لا يعرفه إلا الله وحده، قال تعالى: (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) [۱۱] قال المفسرون: وممن

فى حولكم، أو حول المدينة من الأعراب الساكنين فى البوادى. منافقون مردوا على النفاق، ومن أهل المدينة أيضا منافقون معتادون على النفاق. لا تعلمه أنت يا محمد نحن نعلمهم [۱۲].

ومنهم من كان الله تعالى يكشفه للنبى، ومنهم من كان النبى لا يكشفه إلا لخاصة أصحابه. ومن الخاصة حذيفة وعمار رضى الله عنهما. وعن حذيفة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إن فى أصحابى اثنى عشر منافقا منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط [" ۱۳] وهؤلاء الاثنى

[صفحه ۵۴]

عشر ليسوا من العامة والغوغاء. فأمثال هؤلاء كان النبى يكشفهم للخاص والعام. أما حزمة الاثنى عشر الذين لا يدخلون الجنة، فهم من أصحاب برامج الخشب المسندة. برامج الأشباح التى بلا أرواح والتى لا خير فيها ولا فائدة. لذا يقول حذيفة ": وأشهد الله أن الاثنى عشر حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد [" ۱۴] واثنى عشر فيهم كفاية لتدمير أمة. كما أن اثنى عشر

فيهم كفاية لنجاة الأمة [۱۵] ألم ترى أن بنى إسرائيل كان يكفيهم عشرة فقط من الأحبار يؤمنون برسالة النبى وعلى إيمانهم يدخلون دائرة الأمن. قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لو آمن بى عشرة من اليهود لآمن بى اليهود [" ۱۶] أما الذين

كشفهم النبى صلى الله عليه وسلم للخاصة والعامة. فعن جبير بن مطعم قال: أصغى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - أى مال رأسه إلى - وقال ": إن فى أصحابى منافقين [" ۱۷] وعن إياس عن أبيه أنهم عادوا مريضا مع رسول الله صلى

الله عليه وسلم وكان المريض مرتفع الحرارة. وعندما قالوا أمام النبى أن المريض أشد حرا، قال لهم ": ألا أخبركم بأشد حرا منه يوم القيامة - وأشار لرجلين من أصحابه مولين أقفيتهما منصرفين - هذينك الراكبين المقفيين [" ۱۸] قال النووى:

سماهما من أصحابه لإظهارهما الإسلام والصحبة. وأخرج البيهقى عن ابن مسعود قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيها الناس إن فيكم منافقين. فمن سميت فليقم، قم يا فلن، ثم يا فلان. حتى عد ستا وثلاثين [۱۹] وعن ابن عباس قال: قام رسول الله صلى الله

عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة، فقال ": أخرج يا فلان إنك منافق. وأخرج يا فلان فإنك منافق، فأخرج ناسا منهم فضحهم. فجاء عمر بن الخطاب وهم

[صفحه ۵۵]

يخرجون من المسجد. فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة فظن أن الناس قد انصرفوا. واختبئوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم... الحديث [۲۰] فكشف تيارات النفاق على امتداد العهد النبوى كان يخضع لوحى الله تعالى. فالوحى كان يخبر بالبعض، ويخبر بالبعض الآخر ضمن خط عريض وهو يتحدث عن النفاق، نظرا لأن الأمة ممتحنة ومبتلية شأنها كشأن الأمم السابقة ليعلم الله كيف تعمل وكيف تختار ويعلم سبحانه الصابرين. إن الله تعالى أخبر عباده عن الشيطان وأهدافه، وكثير من العباد لم يروا الشيطان، وأخبر سبحانه عن المنافقين وصفاتهم وبرامجهم وكثير من الناس لم يعرفوا أسماء المنافقين. والحجة ليست فى الملابس والأموال والأولاد. وإنما هى فى الحركة والبرامج التى بينها الله تعالى فى كتابه. يقول تعالى: (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام - وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد - وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد) [۲۱] وقد يقول قائل فيمن أنزلت هذه

الآية؟ والجواب عن ابن كثير يقول: إن الآية تنزل فى الرجل ثم تكون عامة بعد ذلك [۲۲] ومعنى الآية: إنه يتكلم بما يعجبك كلامه، مما يشير به إلى رعايته

جانب الحق. والعنایة بصلاح الخلق وتقدم الدین والأمة. وهو أشد الخصماء للحق خصومة (وإذا تولی سعی فی الأرض لیفسد فیها.. الآیة) التولی هو القیادة والسلطان ویؤید هذا قوله تعالی فی الآیة التالیة: (أخذته العزة بالإثم)... وهذا یدل علی أن له عزة مکتسبة بالإثم الذی یأثم به قلبه غیر الموافق للسانه. والسعی هو العمل والإسراع فی المشی، فالمعنی: وإذا تمکن هذا المنافق الشدید الخصومة من العمل، وأوتی سلطانا وتولی أمر الناس. سعی فی الأرض لیفسد فیها - ویمکن أن یکون التولی - بمعنی الإعراض عن المخاطبة والمواجنة، أی: إذا خرج من عندک کانت غیبته مخالفة لحضوره. وتبدل ما کان یظهره من

[صفحه ۵۶]

طلب الصلاح والخیر إلی السعی فی الأرض لأجل الفساد والإفساد [۲۳] .

فهذا الذی یخالف ظاهر قوله، باطن قلبه. إذا سعی فی الأرض بالفساد، فإنما یفسد بما ظاهره الاصلاح بتحریف الکلمة عن موضعها، وتغییر حکم الله عما هو علیه، والتصرف فی التعالیم الدینیة. بما یؤدی إلی فساد الأخلاق واختلاف الکلمة. وفی ذلک موت الدین وفساد الدنیا. وقد صدق هذه الآیات ما جری علیه التاریخ من ولایة رجال ورکوبهم أکتاف هذه الأمة الإسلامیة. وتصرفهم فی أمر الدین والدنیا بما لم یستعقب للدین إلا وبالا. وللمسلمین إلا انحطاطا. وللأمة إلا اختلافا فلم یلبث الدین حتی صار لعبة لکل لاعب. ولا الإنسانیة إلا خطفة لکل خاطف. وقیل: (وإذا تولی سعی فی الأرض لیفسد..) السعی هنا هو القصد کما قال أخبارا عن فرعون (ثم أدبر یسعی فحشر فنادی أنا ربکم الأعلی).. فهذا المنافق لیس له همه إلا الفساد فی الأرض وإهلاک الحرث.. (وإذا قیل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) أی إذا وعظ هذا الفاجر، وقیل له اتق الله، امتنع وأبی وأخذته الحمیة والغضب بالإثم. وهذه الآیة شبیهة بقوله تعالی: (وإذا تتلی علیهم آیاتنا بینات تعرف فی وجوه الذین کفروا المنکر، یکادون یسطون بالذین یتلون علیهم آیاتنا، قل أفأنبئکم بشر من ذلکم. النار وعدها الله الذین کفروا وبئس المصیر. " ولهذا قال فی هذه الآیة: (فحسبه جهنم ولبئس المهاد) أی هی کافیته عقوبة هی ذلک [۲۴] .

إن أطروحة النفاق تری بوضوح إذا سقطت علیها أشعة منهج العبادة الحق. لأن المنافقین علی امتداد التاریخ الإنسانی بعضهم من بعض، یحکم علیهم نوح من الوحدة النفسیة. وهذه الوحدة تضعهم فی قالب ذی أوصاف واحدة. ومهمة هذه الطروحات علی امتداد التاریخ وضع البشریة علی أعتاب الکوارث، لأن بنیانها أسس من ماء الکذب ووضع علی شفا جرف هار. لا خیر فیه ولا فائدة.

[صفحه ۵۷]

[۱] سورة التوبة: الآیة ۹۵.

[۲] سورة التوبة: الآیة ۱۲۵.

[۳] لسان العرب: ۱۵۹:۱۸.

[۴] سورة المنافقون: الآیة ۴.

[۵] سورة البقرة: الآیة ۷۶.

[۶] سورة آل عمران: الآیة ۱۱۹.

[۷] سورة المنافقون: الآیة ۴.

[۸] سورة التوبة: الآیة ۵۵.

[۹] سورة طه: الآیة ۱۲۴ - ۱۲۵ - ۱۲۶.

[۱۰] سورة المنافقون: الآیة ۱ - ۲.

[۱۱] سورة التوبة: الآیة ۱۰۱.

[۱۲] المیزان ۳۷۶:۹.

[۱۳] رواه الإمامان أحمد ومسلم (کنز العمال ۱۶۹:۱).

[۱۴] رواه الإمام مسلم کتاب صفات المنافقین (صحیح مسلم: ۱۲۵:۱۷).

[۱۵] حدیث الاثنی عشر الذین من قریش سیأتی فی موضعه.

[۱۶] رواه الإمام البخاری کتاب الهجرة (صحیح البخاری: ۳۴۱:۲).

[۱۷] رواه الإمام أحمد (الفخ الربانی: ۲۳۲:۱۹).

[۱۸] رواه الإمام مسلم (صحیح مسلم: ۱۲۸:۱۷) کتاب صفات المنافقین.

[۱۹] السیوطی (الخصائص الکبری: ۱۷۴:۲).

[۲۰] أورده ابن کثیر عن السدی عن أبی مالک (التفسیر: ۳۸۴:۲).

[۲۱] سورة البقرة: الآیة ۲۰۴ – ۲۰۵ – ۲۰۶.

[۲۲] تفسیر ابن کثیر: ۲۴۶:۱.

[۲۳] المیزان: ۹۶:۲.

[۲۴] تفسیر ابن کثیر: ۲۴۷:۱.

تیار الذین فی قلوبهم مرض

لقد خلطوا بین هذا التیار وبین المنافقین. وقالوا إنهما نوع واحد من
الأنماط الإنسانیة. والحقیقة غیر هذا ولا تلائم سیاق بعض الآیات التی ذکر فیها الذین فی قلوبهم مرض. وذلک لأن المنافقین یشارکونهم فی آیات أخری، والعدید من المفسرین قالوا: المنافقون هم الذین آمنوا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم والذین فی قلوبهم مرض هم ضعاف الإیمان. ومرض القلب فی عرف القرآن، هو الشک والریب علی إدراک الإنسان، فیما یتعلق بالله وآیاته. وعدم تمکن القلب من العقد علی عقیدة دینیة، نظرا لخلط الإیمان بالشرک عند مرض القلوب. ومن الآیات التی ذکرت الذین فی قلوبهم مرض قوله تعالی: (إذ یقول المنافقون والذین فی قلوبهم مرض غر هؤلاء دینهم..) [۱] ولا معنی للقول
بأن الذین فی قلوبهم مرض فی هذه الآیة هم من المشرکین، لأن القرآن لم یطلق علی المشرکین اسم الذین فی قلوبهم مرض ولم یطلق علیهم اسم المنافقین. ولا معنی للقول بأنهم هم الکفار، لأن الکفر هو موت للقلب لا مرض فیه، قال تعالی: (أو من کان میتا فأحییناه وجعلنا له نورا یمشی به فی النس کمن مثله فی الظلمات لیس بخارج منها کذلک زین للکافرین ما کانوا یعملون) [۲] .
والذی یستحق التسجیل هنا أن هذه الآیة نزلت فی غزوة بدر. وفیها دلیل علی حضور جمع من المنافقین وضعفاء الإیمان ببدر حین تلاقی الفئتین. وذکر أن ضعاف الإیمان کانوا فئة من قریش أسلموا بمکة، واحتبسهم آباؤهم. واضطروا إلی الخروج مع المشرکین إلی بدر، حتی إذا حضروها وشاهدوا ما علیه المسلمون من القلة قالوا: مساکین غر هؤلاء دینهم حین قدموا علی ما قدموا علیه من قلة عددهم وکثرة عدوهم [۳] فإذا کان تعریف المنافقین بأنهم الذین
أظهروا الإسلام وأبطنوا الکفر، فإن ذلک لا ینطبق علی الفئة التی اضطرت إلی
[صفحه ۵۸]
الخروج مع المشرکین. لأن هذه الفئة لم یظهروا الإسلام، لأنهم لو کانوا قد أظهروه ما کانوا خرجوا من مکة أصلا. ومن الدلیل علی أن المنافق غیر الذی فی قلبه مرض قوله تعالی فی موطن آخر من مواطن القتال: (هنالک ابتلی المؤمنون وزلزلوا زلزالا شدیدا – وإذ یقول المنافقون والذین فی قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) [۴] قال ابن کثیر: حین نزلت الأحزاب حول
المدینة والمسلمون محصورون فی غایة الجهد والضیق، ورسول الله صلی الله علیه وسلم بین أظهرهم.. فحینئذ ظهر النفاق. وتکلم

الـذين فى قلوبهم مرض بما فى أنفسـهم. (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض... الآيۀ) أما المنافق فنجم نفاقه، والذى فى قلبه شبهـۀ أو حسـكۀ لضـعف حاله فتنفس بما يجـده من الوساوس فى نفسه لضـعف إيمانه وشـدۀ ما هو فيه من ضـيق الحال [۵] وقال فى الميزان: الـذين فى قلوبهم مرض هم ضـعاف الإيمان من المؤمنين. وهم غير المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر) [۶] وفى موطن آخر

يقول تعـالى: (ويقول الـذين آمنوا لولا نزلت سورۀ فإذا أنزلت سورۀ محكمـۀ وذكر فيها القتال رأيت الـذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) [۷] إن هذه الآيۀ صريحۀ فى أن الذين أظهروا الرغبۀ فى نزولها هم

الـذين آمنوا. ومن يقول إن المنافقين داخلون فيهم. فهو بقوله هـذا يتساهل تساهل غير لائق بكلام الله عزول. فالآيۀ فى مثل قوله تعالى فى فريـق من مـؤمنين (ألم تر إلى الـذين قيـل لهم كفـوا أيـديكم وأقيموا الصـلاۀ وأتوا الزكـاۀ فلمـا كتب عليهم القتـال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشيۀ الله أو أشد خشيۀ) [۸] فالمؤمنين هم الذين سألوا رسول الله: هلا أنزلت سورۀ. فإذا

أنزلت سورۀ محكمۀ لا تشابه فيها. وأمروا فيها بالقتال. رأيت الضعفاء الإيمان

[صفحه ۵۹]

ينظرون إليك من شدۀ الخشيۀ نظر المحتضر [۹] وقال ابن كثير فى تفسير الآيۀ:

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين. إنهم تمنوا شـرعيۀ الجهاد. فلما فرضه الله عز وجل. وأمر به، نكل عنه كثير من الناس.. ولهذا قال: (فإذا أنزلت سورۀ محكمۀ وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض... الآيۀ) أى من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء العدو [۱۰] .

فالمنافق لا يمكن أن يطلب آيـۀ كى يقاتل ويقتل. وإنما الذى طلب هم المؤمنون. وعندما نزلت الآيۀ ظهر ضـعاف الإيمان منهم. ومن الـدليل أيضا على أن تيار الـذين فى قلوبهم مرض، تيار منفصل وإن كان يعمل بطريقته الخاصـۀ لعرقلـۀ الطريق سواء كان يدرى أو لا يـدرى. قوله تعـالى: (لئن لم ينته المنـافقون والـذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينـۀ لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا – ملعونين أينما ثقفوا..) [۱۱] .

فالآيـۀ الكريمـۀ ذكرت فئات ثلاث. المنافقون، والـذين فى قلوبهم مرض، والمرجفون. وعلى رؤوسـهم لعنـۀ من الله تعالى إذا اسـتمروا على مـا هم عليه. فالمنـافق هو الـذى أظهر الإيمـان وأبطن الكفر، والـذى فى قلبه مرض هو الضـعيف الإيمـان، والمرجفون هم الـذين يعملون على إشاعۀ الباطل لإلقاء الاضـطراب والمعنى: أقسم لئن لم يكف المنافقون والذين فى قلوبهم مرض عن الافساد. والمرجفون الذين يشـيعون الأخبار الكاذبۀ فى المدنيۀ لإلقاء الاضـطراب بين المسـلمين، لنحرضـنك عليهم، ثم لا يجاورونك فى المدنيۀ. بسـبب نفيهم عنها (سـنۀ الله فى الـذين خلوا من قبل. ولن تجد لسـنۀ الله تبديلا) [۱۲] فهـذه العقوبۀ، من النفى أو القتل سـنۀ الله التى جرت فى الماضـين. فكلما بالغ قوم فى الافساد وإلقاء الاضـطراب بين الناس، وتمادوا وطغوا فى ذلك، أخـذهم الله كـذلك. ولن تجد لسـنۀ الله تبديلا، فتجرى فيكم كما جرت فى الأمم من

[صفحه ۶۰]

قبلكم [۱۳] .

وإذا سـبقنا الأحـداث فإننى أسـجل هنا أن قرار النفى واللعن نفـذه النبى صـلى الله عليه وسـلم وفقا لما جاء فى هذه الآيۀ الكريمۀ، على الحكم بن العاص [۱۴] وظل الحكم فى المنفى حتى رده عثمان بن عفان وكانت عودته

عمود أصيل فيما جرى من أحداث سنبينها فى حينه. وتيار الذين فى قلوبهم مرض، نواته الأولى كانت بمكۀ قبل الهجرۀ. وجاء ذكرهم فى سورۀ المـدثر وهى سورۀ مكيـۀ، تعالى: (وما جعلنا أصـحاب النار إلا ملائكـۀ وما جعلنا عدتهم إلا فتنۀ للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الـذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا..) [۱۵] فإذا كان النفاق قد

ظهر فى المدنيـة وهو رأى الغـالب الأـعم من المفسـرين. فإنه لا معنى للقول إن الـذين فى قلوبهم مرض فى هـذه الآيـة هم المنافقون، وذلك لأن السورة مكية. وقال المفسـرون فى معنى الآيات: أى ما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة، يقدرون على ما أمروا به. فليسوا من البشـر حتى يرجوا المجرمون أن يقـاوموهم، وما ذكرنا عـددهم وهو قوله تعالى (عليها تسـعة عشـر) إلا فتنـة للـذين كفروا، ليوقن أهل الكتـاب، بـأن القرآن النـازل عليـك حق. حيث يجـدون مـا أخبرنا به من عـدة أصـحاب النار موافقا لما ذكر فيما عنـدهم من الكتاب، ويزداد الـذين آمنوا إيمانا بسـبب ما يجـدون من تصـديق أهل الكتاب ذلك (وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون. ماذا أراد الله بهذا مثلا) أى ما الذى يعنيه من وصف الخزنة بأنهم تسعة عشر. فهذه العدة القليلة، كيف تقوى على تعذيب أكثر الثقلين من

[صفحه ۶۱]

الجن والإنس [۱۶] وقال ابن كثير قولهم (ماذا أراد بهذا مثلا) أى يقولون ما

الحكمة فى ذكر هذا ههنا؟ قال تعالى: (كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) أى من مثل هذا - القول - وأشباهه يتأكد الإيمان فى قلوب أقوام ويتزلزل عنـد آخرين. وله الحكمـة البالغـة والحجـة الدافعـة، وقوله تعـالى: (ومـا يعلم جنود ربـك إلاـ هو) أى ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط [۱۷] .

ومن المعروف أن أهل الكتاب قبل البعثـة كانوا يضـعون أعينهم على مكـة، لعلمهم من كتبهم أن النبى سـيبعث من هناك. وبعد نزول الوحى فى مكة كان لصـفات النبى صـلى الله عليه وآله عند أهل الكتاب أثر كبير عند المسـلمين. وكذلك الإخبار بعدد ملائكة النار، وهـذا الإخبار وإن كان زاد الـذين آمنوا إيمانا. إلا أن حكمة الله البالغة كشـفت من خلاله تيارا كان الارتياب مادته فى مكة. والمتدبر فى حركـة الواقع المكى عنـد مبعث النـبى صـلى الله عليه وآله يجـد أنه مجتمع إنسـانى. والمجتمع الإنسـانى لاـ يخلـو من أصـحاب المصالـح، وقـد يكون النفـاق جلبابـا مهما لهؤلاء. وحلل النفاق لا تنحصـر فى المخافـة والاتقاء، أو الطمع من خير معجل، فإن من علله أيضا الطمع ولو فى نفع مؤجل. ومنها أيضا العصبيـة والحميـة، ولا دليل على انتفاء جميع هـذه العلل عن أهل مكـة أو عن الـذين آمنوا بالـدعوة قبل الهجرة. فما بين أيدينا من كتب التاريخ والتراجم يذكر فيها أن فيهم من آمن ثم رجع، أو ارتاب ثم صـلح. ومن الممكن أن يكون هنـاك من يرتـاب فى دينه فيرتـد ويكتم ارتـداده، كما فى قول الله تعالى: (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون) [۱۸] فلا يبعد أن

يكـون فى هؤلاـء من آمن حقيقـة ثم ارتـد وكتم ارتـداده، فطبع الله على قلبه بحيث لاـ يقبـل الحق ولاـ يتبعه ويتبع هواه وفقـا لبرنـامج الشيطان. ويكون بخاتم الطبع قد

[صفحه ۶۲]

دخل تحت الآيـة الكريمـة التى نزلت فى مكة وفى المدينة (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون - ختم الله على قلوبهم وعلى سـمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عـذاب عظيم - ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين - يخـادعون الله والـذين آمنوا ومـا يخـدعون إلاـ أنفسـهم وما يشـعرون - فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عـذاب أليم بما كانوا يكذبون) [۱۹] ومن الممكن أيضا أن يكون بعض من آمن فى مكة، قد آمن طمعا

فى بلوغ أمنيته التى قد تكون التقدم والاستعلاء. وخصوصا أن النبى صـلى الله عليه وسـلم كان يذكر فى دعوته لقومه أنهم لو آمنوا به واتبعوه كـانوا قـادة الأـرض. وكان الرهبان يخبرون بـذلك وفقا لما بين أيـديهم من أوصاف الـدعوة الخاتمـة، فوفقا لهـذا الاعلان أن يكـون هنـاك من آمن غير عابئـا بقـوة المشـركين الطاحنـة ويعيش على خطر، رجـاء أن يوفـق يومـا لإـدارة رحى المجتمـع والعلو فى الأرض. ومن الممكن أن يكون فى المجتمع بعض المغمورين الطموحين إلى سـعة الصـيت وجـذب الأنظار إليهم. فآمنوا بالدعوة التى وجـدوا فيهـا اتجاهـا جديـدا يضـيق الفوارق بين الطبقـات يمكن لهم أن يعالجوا مشاعر النقص التى يعانونها ويحقق لهم البروز وسـعة الصـيت والمكانـة عن طريق تحـدى مواقع النفوذ والسـيطرة داخل المجتمع. ومن الممكن أن يكون هؤلاء المغمورين ضـمن الذين لم

يتعرضوا إلى أى أذى نتيجة معرفة قريش بهم فى جاهليتهم، وفهمها لنواياهم الحقيقية فى الانضمام للدعوة. بحيث أن الصدق والإخلاص والتفانى أمور مستبعدة بالنسبة لهؤلاء لذلك لم يتعرضوا لهم. وقد يكون ضعاف الإيمان قد هاجروا بعد ذلك من مكة إلى المدينة. ولكن الهجرة لها شروط، ومن أهم شروطها أن تكون فى سبيل الله وليس فى سبيل هدف آخر، قال تعالى: (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم) [۲۰] وقال جل شأنه (والذين هاجروا فى

[صفحه ۶۳]

الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر) [۲۱] فالهجرة

الصحيحة هى ما عقد عليه القلب لقول النبى صلى الله عليه وسلم ": إنما الأعمال بالنيات. وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله. فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه [" ۲۲] وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أنه قال ": إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه [" ۲۳] ، والقرآن الكريم لم يضع الذين هاجروا مع الأنبياء فى دائرة الحصانة، لأنهم بشر جاءوا ليختبرهم الله فى الحياة الدنيا من يومهم الأول إلى يومهم الأخير. ألم يهاجر السامرى من مصر مع موسى عليه السلام؟ ألم يكن على مقدمة موسى عند عبور البحر وأمامه ملك يرشدهم. فماذا فعل السامرى ذلك المهاجر؟ ألم يأخذ قبضة من أثر هذا الملك. وكانت هذه القبضة وبالا على بنى إسرائيل. لقد ساهم السامرى بهذه القبضة فى صناعة عجل من ذهب عبده المنحرفين من بنى إسرائيل وأشربوا فى قلوبهم حب هذا العجل. وكان هذا الحب وبالا فيما بعد على الجنس البشرى. إن السامرى هاجر وبعد الهجرة ظهر ما فى نفسه. قال تعالى لموسى عليه السلام عندما ذهب للقاء (إنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى) [۲۴] ، والفتنة هى الامتحان والاختبار. وعندما عاد موسى عليه السلام وعلم بما حدث. أخبر عنه الله تعالى: (قال فما خطبك يا سامرى – قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى) [۲۵] .

أنظر إلى قوله (سولت لى نفسى) فالنفس طريق الإنسان إلى ربه. ولقد أقام الله على الإنسان الحجة فيها، فألهمه طريق الفجور وطريق التقوى. فمن انغمس فى

[صفحه ۶۴]

الشهوات غشى عمله على قوة النفس الهائلة، فيفتح العمل طريق الفجور على اتساعه. أما من التزم فى عمله بما أمر به الله وما نهى عنه، تكون نفسه حظا سعيدا ينتهى إلى ثواب الله، والإنسان لا يطأ موطأ فى سيره إلا بأعمال قلبية، هى الاعتقادات ونحوها. وأعمال جوارحية صالحة أو طالحة. وما أنتجه عمله يوما، كان هو زاده غدا. والسامرى سولت له نفسه، فما أغنت عنه هجرته (قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه..) [۲۶] .

إن الذى فى قلبه مرض، فى قلبه شهوة. فى سبيلها يركب الصعب كما ركب السامرى الصعب وأسس فى نهاية الأمر عقيدة شاذة. وكما ذكر القرآن قصة السامرى، لم يستبعد الفكر الحكيم أن يطمع الذى فى قلبه مرض فى أى أثر محرم عليه حتى ولو كان ضد الأثر زوجات النبى صلى الله عليه وسلم. على الرغم من أنه يعلم بنص القرآن إنهن أمهات المؤمنين، فمقتضى هذا النص لا يجوز لصاحب قلب سليم أن يقترب نحو مطمع فى أمهات المؤمنين. ولكن عالم مرضى القلوب، عالم متخصص فى نهش أى قبضة من أثر أى رسول. ليتاجر بها لحساب عالمه الخاص [۲۷] قال تعالى: (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن

اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا) [۲۸] ، قال المفسرون: نهاهن عن الخضوع فى القول وهو ترقيق الكلام مع الرجال. بحيث يدعو إلى الريبة. ويثير الشهوة فيطمع الذى فى قلبه مرض. وهو فقدانه قوة الإيمان التى تردعه عن الميل إلى الفحشاء [۲۹] ، وقال ابن كثير: فى قلبه مرض. أى دغل [۳۰] والدغل بالتحريك: الفساد. والدغل هو أيضا: دخل فى

[صفحه ۶۵]

الأمر مفسد. وأدغل فی الأمر أی: أدخل فیه ما یفسده ویخالفه، ورجل مدغل أی: مخاب مفسد [۳۱] .

وبالجملة نقول: إن الذی فی قلبه مرض، لا یدخل فی دائرة النفاق، لأنه محسوب علی دائرة الذین آمنوا. وکل منافق فی قلبه مرض، بمعنی فی قلبه هدف لا علاقة له بأی هدف من أهداف الذین آمنوا. لأن الإیمان لم یدخل قلبه بصورة من الصورة. وما فی قلبه فهو للصد عن سبیل الله ولا غیر ذلک، لذلک نقول والله تعالی أعلم إن حدیث الارتداد الذی رواه أصحاب الصحاح ینطبق علی من کان یجلس فی دائرة الذین آمنوا ثم ارتد عنها. ولا ینطبق علی المنافق الذی لم یؤمن أصلا حتی یرتد. وفی الحدیث عن أبی هریرة قال، قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": یرد علی یوم القیامة، رهط من أصحابی، فیحولون عن الحوض. فأقول: یا رب أصحابی، فیقول: إنک لا علم لک بما أحدثوا بعدک إنهم ارتدوا علی أدبارهم القهقری [" ۳۲] فالمنافق لم یؤمن حتی یرتد. إلا إذا کان قد آمن بعد ذلک ثم ارتد. ومن الدلیل علی بطلان قول من قولوا، إن الحدیث یختص بالمنافقین. الحدیث الذی رواه ابن عساکر وابن النجار عن أبی الدرداء أنه لما بلغه الحدیث قال: قلت یا رسول بلغنی أنک قلت لیکفرن أقوام بعد إیمانهم. قال: نعم ولست منهم [۳۳] وفی روایة عند البیهقی قال: فأتیت رسول الله فذکرت له ذلک فقال: إنک لست منهم [۳۴] .

إن دائرة النفاق وتیار الذین فی قلوبهم مرض. بذرتان فی تربة واحدة یسقیان من ماء واحد، ولکل شجرة منهما ثمار وأزهار، لا طعم فیهما ولا رائحة. أنبتهما الله من الأرض لحکمة ومن وراء الحکمة هدفا. (أحسب الناس أن یترکوا أن یقولوا آمنا وهم لا یفتنون – ولقد فتنا الذین من قبلهم – فلیعلمن

[صفحه ۶۶]

الله الذین صدقوا ولیعلمن الکاذبین – أم حسب الذین یعملون السیئات أن یسبقونا – ساء ما یحکمون) [۳۵] .

[۱] سورة الأنفال: الآیة ۴۹.

[۲] سورة الأنعام: الآیة ۱۲۲.

[۳] تفسیر ابن کثیر: ۳۱۹:۲.

[۴] سورة الأحزاب: الآیة ۱۱ – ۱۲.

[۵] تفسیر ابن کثیر: ۴۷۳:۳.

[۶] المیزان: ۲۸۶:۱۶.

[۷] سورة محمد: الآیة ۲۰.

[۸] سورة النساء: الآیة ۷۷.

[۹] المیزان: ۲۳۹:۱۸.

[۱۰] تفسیر ابن کثیر: ۱۷۸:۴.

[۱۱] سورة الأحزاب: الآیة ۶۰ – ۶۱.

[۱۲] سورة الأحزاب: الآیة ۶۲.

[۱۳] المیزان: ۳۴۰:۱۶.

[۱۴] ذکر ابن کثیر فی البدایة والنهایة ۱۸۲:۶ أن الحکم کان من ألد أعداء النبی صلی الله علیه وسلم.

[۱۵] سورة المدثر: الآیة ۳۱.

[۱۶] المیزان: ۹۰:۲۰.

[۱۷] المیزان: ۹۱:۲۰، ابن کثیر: ۴۴۴:۴.

[۱۸] سورة المنافقون: الآیة ۳.

[۱۹] سورة البقرة: الآیة ۶ – ۱۰، سورة یس: الآیة ۱۰.

[۲۰] سورة آل عمران: الآیة ۱۹۵.

[۲۱] سورة النحل: الآیة ۴۱.

[۲۲] رواه البخاری ومسلم وأبو داوود والترمذی والنسائی (الترغیب والترهیب: ۱۸۱:۲).

[۲۳] رواه أبو داوود والنسائی (الترغیب: ۱۸۱:۲).

[۲۴] سورة طه: الآیة ۸۵.

[۲۵] سورة طه: الآیة ۹۵ – ۹۶.

[۲۶] سورة طه: الآیة ۹۷.

[۲۷] کان بعضهم یرید هذا ویفهم من قوله تعالی: (ما کان لکم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنکحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلکم کان عند الله عظیما – إن تبدوا شیئا أو تخفوه فإن الله بکل شئ علیما). الأحزاب ۵۳ – ۵۴.

[۲۸] سورة الأحزاب: الآیة ۳۲.

[۲۹] المیزان: ۳۰۹:۱۶.

[۳۰] تفسیر ابن کثیر: ۴۸۲:۳.

[۳۱] لسان العرب.

[۳۲] رواه البخاری کتاب الدعوات (الصحیح: ۱۴۲:۴).

[۳۳] کنز العمال (۲۶۱:۱۱).

[۳۴] رواه البیهقی قاله ابن کثیر فی البدایة: ۲۰۸:۶.

[۳۵] سورة العنکبوت: الآیة ۲ – ۳ – ۴.

جهاز الرجس التخریبی

إذا کان الشیطان فی برنامجه قد استهدف أنبیاء الله ورسله والدعوة إلی الله والناس. وإذا کان الکفار والمشرکون والمنحرفون من أهل الکتاب قد استهدفوا ببرنامجهم النبی الخاتم صلی الله علیه وسلم ودعوته. فإن دائرة الرجس سارت فی نفس الاتجاه. فلقد استهدفوا الرسول فحاولوا اغتیاله مرات عدیدة واستهدفوا الدعوة بالتشکیک فیها وفی الداعی إلیها واستهدفوا القوة الإسلامیة المسلحة بتعریضها للهزیمة حتی تتآکل.

استهداف النبی

محاولات أصحاب برنامج الشیطان، استهدفوا النبی صلی الله علیه وسلم منذ بدایة الدعوة. لقد شککوا فیه واتهموه اتهامات شتی وتصدی لهم القرآن ورد کیدهم إلی نحورهم. ثم حاولوا استعمال سیاسة القبضة الغلیظة، فاستهدفوا الرسول بإلقاء حجارتهم علیه، ثم محاولة قتله أکثر من مرة فی مکة. وبعد هجرته صلی الله علیه وسلم تکررت محاولات قتله بواسطة الیهود ثم بالترکیز علیه أثناء المعارک الحربیة کی ینالوا منه صلی الله علیه وسلم ولکن رد الله کیدهم فی کل مرة. وبلغت الذروة عندما همت مجموعة تخریبیة من المنافقین بمحاولة اغتیاله فی أیامه الأخیرة. وهذه المحاولة لاغتیال الرسول صلی الله علیه وسلم، مدونة فی کتب التاریخ والتفسیر والصحاح والمسانید [۱] وطابور النفاق والذین فی قلوبهم مرض، هم الذین قاموا بهذه المحاولة، وکانوا اثنی عشر رجلا [۲] وکانت خطتهم أن یقطعوا أتساع راحلته،

[صفحه ۶۷]

ثم يلقوا تحت أرجلها بالحجارة كى تقفز به، ثم ينخسوها لتندفع إلى الأمام نحو المنزلق فتلقى رسول صلى الله عليه وسلم من المرتفع إلى المنخفض. فيجهزوا عليه، واختاروا لجريمتهم وقتا قصيرا قبل الظلام. فإذا تمت الجريمة طواهم الليل ولا يراهم أحد. ثم يعودون ليتوضئوا وليصلوا صلاة المغرب ويصلون فيها على محمد وآل محمد، وروى أن عمار بن ياسر وحذيفة رضى الله عنهما كانا مع النبى أحدهما يقود الناقة والآخر يسوقها. وبينما كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى اتجاه العقبة، وهو المكان المخطط له أن تقع الجريمة فيه، أخبر جبرائيل عليه السلام النبى بما يدبر له. وفى المكان المحدد، ثم الهجوم وألقيت الحجارة تحت أرجل الناقة، ولكن الناقة لم تتحرك وثبتت على الأرض ثبوت الجبال. فقال النبى صلى الله عليه وسلم لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم، فضربها حتى نحاهم. فلما نزل النبى من المرتفع، قال لحذيفة: من عرفت من القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحدا، إن ظلمة الليل غشيتهم وهم متلثمون. فقال النبى: هل عرفت ما شأنهم وما يريدون؟ قال حذيفة: لا يا رسول الله. قال النبى: فإنهم فكروا أن يسيروا معى حتى إذا صرت فى العقبة طرحونى فيها. فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال النبى: أكره أن يتحدث الناس ويقولون: إن محمدا يقتل أصحابه، وسماهم واحدا واحدا [۳] وهذه المجموعة التخريبية التى أقدمت على تنفيذ برنامجها الذى يستمد قوته من برنامج الشيطان أشار إليها الإمام مسلم فى صحيحه. فعن حذيفة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن فى أصحابى اثنى عشر منافقا، منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط [" ۴] وروى أن حذيفة قال: أشهد أن الاثنى عشر حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد [" ۵] وروى عن عمار بن ياسر قال: أشهد أن الاثنى عشر حربا لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم

[صفحه ۶۸]

الأشهاد [" ۶] إنها شهادة واحدة، لصحابى قاد الناقة وآخر ساقها. شهادة

مسطورة فى الصحاح والمسانيد. تقول إن من الصحابة من لا يدخل الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط. وإذا أردنا أن نعرف دوافع الجريمة عند المجموعة التخريبية، فلنقف عند العقوبة ونسلط عليها الضوء القرآنى. قال تعالى: - (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين) - [۷] .

إن المجموعة التخريبية كذبت بآيات الله، واستكبروا عنها، فضربتهم العقوبة التى شهد بها عمار وحذيفة رضى الله عنهما، فى كتب الصحاح. وهذه العقوبة ستصيب كل من كذب بآيات الله واستكبر عنها حتى يرث الله تعالى الأرض لقوله جل وعلا: - (وكذلك نجزى المجرمين) - إن التكذيب بآيات الله جريمة تخترق المستقبل من الماضى. - (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون) - [۸] ، والاستكبار جريمة ترى آثارها على امتداد الليل. والاستكبار والتكبر من الإنسان، أن يعد نفسه كبيرا ويضع نفسه موضع الكبر وليس به ولذلك يعد فى الرذائل. وفى لسان العرب: الاستكبار، الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبرا [۹] .

[۱] الميزان: ۲۷۸:۹.

[۲] وفى رواية كانوا خمسة عشر. منهم ثلاثة لم يعرفوا بالخطة.

[۳] قصة تبوك فى صحيح مسلم كتاب المنافقين: ۸:۱۲۳، وسند أحمد ۵:۳۹۰.

[۴] رواه الإمام أحمد والإمام مسلم (كنز العمال: ۱۶۹:۱).

[۵] رواه الإمام مسلم فى صفات المنافقين (صحيح مسلم: ۱۲۵:۱۷).

[۶] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانى: ۲۰۲:۲۱).

[۷] سورة الأعراف: الآية ۴۰.

[۸] سورة الأنعام: الآية ۱۵۸.

[۹] لسان العرب: ص ۳۸۰۸.

استهداف الدعوة

استهدف كتاب الدعوة منذ يوم الانذار الأول، فقالوا أساطير الأولين.

وغير ذلك من أقوالهم التى تصدى لها القرآن ونسفها نسفا ورد كيدهم إلى نحورهم. وعندما لم يستطيعوا النيل من كتاب الله، استهدفوا الدعوة من خلال

[صفحه ۶۹]

حركتها وشعائرها بواسطة المنافقين، لضربها وضرب قوتها فى وقت واحد. كان الجهاز التخريبى يدخل للصلاة وهدفه لا يعرف طريق الاهتداء، وبلغت ذروة الاستهداف للدعوة فى آخر أيام النبى صلى الله عليه وسلم. وذلك عندما قاموا ببناء مسجد مهمته تخريب الصف الإسلامى وبث ثقافة معادية للدعوة، ووضع بذور بواسطتها تظهر الأحزاب والمذاهب بين المؤمنين.. فكل هذا تحت سقف مسجد يرفع عليه الآذان، وهذا العمل اشترك فيه جميع أتباع برنامج الشيطان، من مشركين وأهل كتاب وعلى رأس الجميع قيصر الروم. وقد كان مقدرا أن يعمل مسجدهم هذا فى الفترة الزمنية التى حدثت فيها غزوة تبوك. لقد فرغوا من البناء قبل الغزوة، ثم وجهوا الدعوة إلى النبى صلى الله عليه وسلم كى يفتتح المسجد بالصلاة فيه. لكن الله عصمه، وبعد العودة من تبوك حدثت محاولة الاغتيال. باختصار كانت هذه الفترة الزمنية، فترة عصيبة لا يرى حجم الخطورة فيها إلا بتجميع أحداثها. لقد أقاموا مسجدا، وهم الذين قال فيهم الله تعالى: - (قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين) - [۱] فالإنفاق منهم لغو لا يترتب

عليه أثر. وهم فاسقون والله لا يقبل عمل الفاسقين، قال تعالى: - (إنما يتقبل الله من المتقين) [۲] ، والتقبل أبلغ من القبول. وقال فيهم أيضا: - (يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) - [۳] وقال

تعالى: - (يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) - [۴] لقد كانوا يحاربون معركة سرية غايتها أن ينالوا رضى المؤمنين،

وتحت هذه اللافتة يتم المخطط الإجرامى. ولكن آيات الله وقفت لهم بالمرصاد، وأخبرت أن الواجب على كل مؤمن أن يرضى الله ورسوله. ولا يحاد الله ورسوله، لأن فى هذا خزيا عظيما. وأخبر سبحانه أن حلفهم هذا كان من أجل

[صفحه ۷۰]

صرف المؤمنين عنهم ليأمنوا الذم، فأمر جل شأنه بالإعراض عنهم لأنهم رجس ولا ينبغى لنزاهة الإيمان وطهارته، أن يتعرض لرجس النفاق والكذب، وقذارة الكفر والفسق. وأخبر تعالى، إنكم إن رضيتم عنهم، فقد رضيتم عمن لم يرض الله عنه. أى رضيتم بخلاف رضا الله، ولا ينبغى لمؤمن أن يرضى عما يسخط ربه. فهؤلاء الذين لم يرض عنهم الله بنوا مسجدا لهدف، قال تعالى: - (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون) - [۵] .

قال المفسرون: بين الله تعالى أهداف هذه الطائفة من المنافقين فى اتخاذ هذا المسجد وهو: - الإضرار بغيرهم - والكفر - والتفريق بين المؤمنين - والإرصاد لمن حارب الله ورسوله. والقصة التى اتفق عليها أهل النقل: إن رجلا يقال له أبو عامر الراهب كان يعيش بالمدينة. وبعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة فارا إلى كفار مكة، يمالئهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان ذلك بعد غزوة بدر، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا يوم أحد. وقام أبو عامر بحفر حفر بين الصفين، وقع فى إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأصيب ذلك اليوم. فجرح وجهه الشريف. وشج رأسه صلى الله عليه وسلم. ولما فرغ الناس من أحد، ولم ينل المجرمون من النبى ودعوته شيئا، ذهب أبو عامر إلى هرقل ملك الروم، يستنصره على النبى صلى الله عليه

وسلم. فوعده ومناه، فكتب إلى جماعة من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم إنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ويغلبه ويرده عما هو فيه. وأمرهم أن يبنوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده، ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك. فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

[صفحه ۷۱]

تبوك. وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته. فعصم الله رسوله من الصلاة فيه فقال لهم " إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله " فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك نزل عليه جبريل يخبر بالمسجد الضرار [۶] كما أخبره بمحاولة الاغتيال. فأمر النبى بهدم المسجد وحرقه، وحرق الرمز كى يتدبر المتدبرون فى أحداثه ورماده ودخانه. ويبقى سؤال، هل انتهى المسجد؟ والإجابة فى كتاب الله. قال تعالى: - (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) - [۷] قال المفسرون: روى أن مكان المسجد

الضرار كانت توجد حفرة بها حجر يخرج منه دخان [۸] والمسجد اليوم مزبلة.

وقال ابن كثير فى تفسير الآية: - (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم) - أى شكا ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقا فى قلوبهم. كما أشرب عابدو العجل حبه. وقوله - (إلا أن تقطع قلوبهم) - أى بموتهم [۹] .

وقال البيضاوى فى تفسير: رسخ ذلك فى قلوبهم وازداد بحيث لا يزول وسمه من قلوبهم. فأتباع السامرى قال فيهم تعالى: - (واشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) - [۱۰] وأتباع المسجد الضرار قال فيهم الله - (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم) - إن البصمة هنا وهناك على القلوب.

[۱] سورة التوبة: الآية ۵۳.

[۲] سورة المائدة: الآية ۲۷.

[۳] سورة التوبة: الآية ۹۶.

[۴] سورة التوبة: الآية ۶۲.

[۵] سورة التوبة: الآية ۱۰۷.

[۶] تفسير ابن كثير: ۳۸۷:۲.

[۷] سورة التوبة: الآية ۱۱۰.

[۸] تفسير ابن كثير: ۳۹۱:۲.

[۹] المصدر السابق: ۳۹۱:۲.

[۱۰] سورة البقرة: ۹۳.

استهداف القوة العسكرية

القتال فى الإسلام، عموده الفقرى الدفاع عن الفطرة. ولأنه على طريق

[صفحه ۷۲]

الفطرة فإنه يكره الاعتداء، قال تعالى: - (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) - [۱] وقال: - (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم

والعدوان) - [۲] القتال فى الإسلام له قانون، وهذا القانون للفطرة ومن أجلها.

ولقد دأب أعداء الفطرة فى وضع العراقيل أمام القوة الإسلامية حتى لا يشتد ساعدها. فى مكة استهدفوا الأجساد التى لم يكتب عليها

القتال بعد، أرادوا لها أن تخاف وأن تتقوقع. وفى المدينة حشدوا الحشود وتعاونوا مع أعداء الدعوة فى كل مكان للقضاء على القوة العسكرية الناهضة، ورد الله كيدهم. وبدأ أصحاب برنامج الشيطان، يعتمدون على ورقة النفاق تلك الورقة التى اخترق أصحابها الصف الإسلامى. واستطاعوا أن يبثوا ثقافتهم بين المسلمين. وكان فى الصف الإسلامى سماعون لهم، وهؤلاء السماعون استطاعوا أن يجعلوا من القوة الواحدة فئتين فئة تعطى أصواتها للمنافقين والأخرى ترفض الانصات وتطالب بقتال المنافقين الذين انسحبوا من أرض المعركة. باختصار كان للمنافقين أثرا بالغا فى تعريض القوة المسلحة الإسلامية للعديد من الضربات. وبإلقاء نظرات على عمليات التخريب الكبرى التى قام بها المنافقون، نجد أنهم كانوا أسرع الناس فى التخلف والقعود عن الجهاد، واستئذان الجنود فى التخلف والقعود من غير عذر، جريمة فى حق الفطرة. يقول تعالى: - (لا- يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين) - [۳] ، فالمؤمن يقف على أرضية العبادة الحق، التى تجعله على بصيرة من وجوب الجهاد فى سبيل الله بماله ونفسه. ولما كانت معارك الإسلام يتقدمها عمليات للاستطلاع وعليها يتم تقدير الموقف وعليه يتم تنظيم التعاون بين القوات المشتركة. فإن الاستئذان بعد هذه الإجراءات أو أثناء المعركة نفسها، يترتب عليه إعادة التنظيم وبهذا يكون ضياع الوقت فى صالح العدو. أو إتاحة

[صفحه ۷۳]

الفرصة للقوات المعادية للتقدم وإجراء عمليات الالتفاف والتطويق فى المناطق التى أخليت عن طريق الذين استأذنوا أو انسحبوا. وحركة النفاق كان الاستئذان والانسحاب أصل أصيل فيهم، قال تعالى: - (إنما تستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) - [۴] فالمنافق لعدم إيمانه

بالله واليوم الآخر يكون فاقدا لصفة التقوى، فخروجه مع المؤمنين يكون من باب النفاق. وعلى امتداد خروجه يتردد فى دائرة عريضة مادتها التذبذب والارتياب. فهو يريد مغنما ما، وفى نفس الوقت لا يريد أن يموت، ثم يأخذ القرار المناسب فى الوقت المناسب بما يحقق أمن الفرد وأمن الدائرة. وفى غزوة أحد، كان مؤسس المسجد الضرار يطوف على جابرة قريش فى مكة لتعبئتهم ضد النبى صلى الله عليه وسلم. وعندما تم حشد القوة الإسلامية وبدأ التوجه إلى أحد، انسحب المنافقون وكانت قواتهم تقدر بثلث الجيش [۵] ولم يؤثر فيهم أى موعظة وإلحاح. ويقول تعالى فى اعتذارهم يومئذ: - (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) - [۶] قال المفسرون: رجع

المنافقون أثناء توجه المسلمون إلى أرض المعركة فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإتيان والقتال والمساعدة. فإن لم يكن فى سبيل الله فليدفعوا عن أولادهم وحريمهم وأنفسهم. فتعللوا قائلين: لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم. ولكن لا تقاتلون قتالا. وقولهم هذا جعلهم من الكفر الصريح أقرب [۷] وهذا العمل الذى يلتقى مع عمليات حشد مؤسسى المسجد الضرار

فى نقطة واحدة، كان أحد الأسباب العاملة لانهزام المسلمين يومئذ. وإذا كانت دائرة النجس قد نسقت بصورة أو بأخرى مع الأطراف فى مكة يوم أحد فإنهم نسقوا أيضا مع يهود بنى النضير بالمدينة. روى أن بنى النضير تآمروا على قتل

[صفحه ۷۴]

النبى صلى الله عليه وسلم. فأخبر الوحى النبى ما هم به يهود بنى النضير. فبعث إليهم النبى أن أخرجوا من المدينة ولا تساكنونى بها. فبدأوا يتجهزون للخروج، فأرسل إليهم عبد الله بن أبى زعيم المنافقين، أن لا- تخرجوا فإن معى ألفين يدخلون معكم حصنكم ويموتون دونكم، وسينصركم بنو قريظة وحلفاؤكم من غطفان. ولم يتركهم حتى أقنعهم وأرضاهم فبعث اليهود إلى النبى صلى الله عليه سلم: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك. فكبر النبى صلى الله عليه وسلم وكبر أصحابه. وساروا إليهم وأحاطوا بديارهم [۸] قال تعالى ": ألم تر

إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم

لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون) - [۹] .

لقد ربط القرآن بينهم بأخوة واحدة لاشتراكهم فى اعتقاد أو صداقة. ولم يف المنافقون بما وعدوا به إخوانهم من أهل الكتاب، لقد ساندوهم فقط بالقول نظرا لأن عدوهما واحد. وكل منهما وقف خلف جدار الآخر، كل طرف يتمنى أن يبادر صاحبه بإتمام المهمة التى عليه بصمات الشيطان. ولما كانت حركة النفاق مهمتها التخريب والتأليب وتعريض الصف الإسلامى القتالى للخطر. فإن الله تعالى زهدهم فى الخروج، يقول تعالى: - (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين) - [۱۰] قال المفسرون:

لو أرادوا الخروج لأعدوا له العدة. ومن الإعداد الاعتقاد الصحيح والإيمان الحق. ولأنهم لم يعدوا العدة ولم يتأهبوا لها، كره الله خروجهم فزهدهم فيه لئلا يفسدوا جمع المؤمنين [۱۱] .

لقد زهدهم الله فى الخروج لأن فى خروجهم كارثة، ولم يقتصر خروجهم

[صفحه ۷۵]

على الانسحاب والاستئذان. وإنما كانوا يلقون بالفتن ليفرقوا كلمة المسلمين. وذلك عن طريق الذين كانوا يسمعون لهم، قال تعالى: - (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين) - [۱۲] قال المفسرون: وفيكم سماعون لهم: أى مطيعون لهم

ومستجيبون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم. فيؤدى إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير [۱۳] وقيل: - (وفيكم سماعون

لهم) - السماع: أى السريع الإجابة والقبول [۱۴] وإذا كان القرآن قد أشار إلى

جماعة أو أفراد يسمعون للمنافقين. فإنه فى موضع آخر يبين أن المؤمنين فى وقت ما انقسموا إلى فئتين لكل فئة رأى فى المنافقين، قال تعالى مخاطبا المؤمنين: - (فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا تريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) - [۱۵] قال المفسرين: خرج

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه. فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين. فرقة تقول: نقتلهم. وفرقة تقول: لا. وهم المؤمنون فأنزل الله - (فما لكم فى المنافقين فئتين) - [۱۶] وقال

تعالى منكرا على المؤمنين فى اختلافهم فى المنافقين، أنه سبحانه أركسهم بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل. أتريدون أن تهدوا من لا طريق له إلى الهدى، وهم يودون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم [۱۷] .

فالمنافقون وضعوا العراقيل العديدة، ولكن الذين آمنوا استطاعوا بإيمانهم الراسخ أن يعبروا هذه العقبات نظرا لتمسكهم بتعليمات النبى صلى الله عليه

[صفحه ۷۶]

وسلم. ولم يؤثر كيد النفاق، كما لو يؤثر كيد المشركين من قبل. ولقد حاول النفاق أن يبث ثقافة القعود عن الجهاد، بعد أن نال المسلمين من أعدائهم كل نيل ولكن هذه المحاولة هى الأخرى باءت بالفشل. وبث ثقافة القعود وصلت إلى ذروتها عند التحضير لغزوة تبوك. تلك الغزوة التى حاولوا فيها قتل النبى صلى الله عليه وآله وانتهوا قبلها من تشييد المسجد الضرار. ولقد هدد القرآن الكريم الذين تثاقلوا عن الجهاد وقتئذ بالعذاب الأليم إذ لم ينفروا إلى الله. قال تعالى: - (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل - ألا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا) - [۱۸] .

قال المفسرون: هذا شروع فی عتاب من تخلف عن رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم فی غزوة تبوک حین طابت الثمار والظلال فی شدة الحر [۱۹] ومعنی

الآیة: یا أیها الذین آمنوا ما لکم إذا قال لکم رسول الله صلی الله علیه وسلم - لم یصرح باسمه صونا وتعظیما - اخرجوا إلی الجهاد أبطأتم. کأنکم لا تریدون الخروج، أقنعتم بالحیاة الدنیا راضین بها من الآخرة. فما متاع الحیاة الدنیا بالنسبة إلی الحیاة الآخرة إلا قلیل [۲۰] ثم هددهم الله تعالی بالعذاب

والاستبدال. ولا یضروه شیئا بتولیهم عن الجهاد. وإذا کانت ملامح النفاق تبدو واضحة علی طریق أحد وتبوک، فإن آخر جولاتهم کانت والنبی صلی الله علیه وسلم علی فراش المرض. فلقد أمر علیه الصلاة والسلام بأن ینتظم الجیش تحت قیادة أسامة لإنجاز مهمة قتالیة، ووضع النبی أکابر الصحابة تحت قیادة أسامة، وأمرهم بالخروج [۲۱] ولکن النفاق

مارس مهمته المعتادة یقول ابن حجر فی فتح الباری [۲۲] طعن المنافقون

[صفحه ۷۷]

فی إمارة أسامة. وعندما علم النبی صلی الله علیه وسلم بما قالوا، جلس علی المنبر وقال ": إن تطعنوا فی إمارته فقد طعنتم فی إمارة أبیه فی قبل.. وحثهم علی الخروج. ولم یخرج البعث إلا بعد وفاة النبی صلی الله علیه وسلم.

[۱] سورة البقرة: الآیة ۱۹۰.

[۲] سورة المائدة: الآیة ۲.

[۳] سورة التوبة: الآیة ۴۴.

[۴] سورة التوبة: الآیة ۴۵.

[۵] تفسیر ابن کثیر: ۵۳۲:۱.

[۶] سورة آل عمران: الآیة ۱۶۷.

[۷] المیزان: ۶۰:۴.

[۸] المیزان: ۲۰۸:۱۹.

[۹] سورة الحشر: الآیة ۱۱.

[۱۰] سورة التوبة: الآیة ۴۶.

[۱۱] المیزان: ۲۹۰:۹.

[۱۲] سورة التوبة: الآیة ۴۷.

[۱۳] تفسیر ابن کثیر: ۳۶۱:۲.

[۱۴] المیزان: ۲۹۰:۹.

[۱۵] سورة النساء: الآیة ۸۸.

[۱۶] تفسیر ابن کثیر: ۵۳۲:۱.

[۱۷] تفسیر ابن کثیر: ۵۳۳:۱.

[۱۸] سورة التوبة: الآیة ۳۸ - ۳۹.

[۱۹] تفسیر ابن کثیر: ۳۵۷:۲.

[۲۰] المیزان: ۲۷۸:۹.

[۲۱] بعث أسامة فی البخاری (۳۰۳:۲)، ومسند أحمد (الفتح الربانی: ۲۲۲:۲۱).

[۲۲] فتح البارى: ۱۳:۱۸۰.

جهاد الرسول لتيارات الصد الداخلية

بعد أن هرول أعداء الدعوة إلى أرض الدعوة، ينطقون بألسنتهم شعارات

الدعوة وتختزن قلوبهم أوجال الصد عن سبيل الله. بعد أن تدثروا بجلباب الإسلام سواء كان مصنوعا من قماش الخوف أو قماش المنفعة، بعد هذا أصبح التصدى لما يرتكبوه من جرائم غرض يتخذونه لتشويه الدعوة، تحت شعار أن محمدا يقتل أصحابه. فشعار مثل هذا وسط قبائل وعصبيات ودوائر عديدة للصد داخلية وخارجية، سيضع بلا أدنى شك عقبات أمام الدعوة يجد فيها برنامج الشيطان متسعا للانطلاق. ولهذه الأسباب وغيرها كان النبى صلى الله عليه وسلم يسير بالدعوة بين نفوس من صخر وبين نفوس نقية تقية. والدعوة فى الأساس أخروية الثواب، ويقف تحت سقفها كل من قبلها وأدى شعائرها. والدعوة تتحرك وفقا لوحى يحركها. وإذا نظرنا إلى حركة الدعوة فى مواجهة المنافقين والذين فى قلوبهم مرض وغيرهم. نجد أن القرآن الكريم قد حدد هذه الحركة بما يتلائم مع النفس الإنسانية عموما ليصل بها فى النهاية إلى المخزون الفطرى. قال تعالى: - (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) - [۱].

فالدعوة تحركت على محاور فيها الرحمة والعفو والاستغفار والمشورة التى تنتهى فى نهاية الأمر إلى قرار رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال فى الميزان: - (فبما رحمة من الله لنت لهم) -، أصل المعنى: فقد لان لكم رسولنا

[صفحه ۷۸]

برحمة منا. لذلك أمرناه أن يعفو عنكم ويستغفر لكم ويشاوركم فى الأمر. وأن يتوكل علينا إذا عزم [۲].

وعلى هذا الأساس شقت الدعوة طريقها وسط الصخور، فقد كان صلى الله عليه وسلم يعفو عن بعض أفعالهم غير أن هذا العفو لا يشمل موارد الحدود الشرعية وما يناظرها وإلا لغى التشريع. وكان يشاورهم فى الأمر، قال ابن كثير: كان يشاور أصحابه فى الأمر إذا حدث، تطيبا لقلوبهم، ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه [۳] ولقد شاورهم يوم بدر وفى مواطن كثيرة على امتداد سيرته صلى الله

عليه وسلم. ولا يجب أن يفهم من مشاورتهم فى الأمر أن هذه المشاورة فى أمور عقائدية أو أمور حسمها الوحى. وإنما المشاورة كما نصت الآية - (فى الأمر) - أى الأمر الذى يعزمون عليه. والذى يدخل فى إطار الأمور العامة التى تجوز فيها المشاورة. وبعد المشاورة إذا عزم الرسول صلى الله عليه وسلم. فإن من أحبه كان وليا وناصرا له غير خاذله. وكان صلى الله عليه وسلم يشعرهم على امتداد المسيرة، بأنه إنما يفعل ما يؤمر. والله سبحانه عن فعله راض، وهو متوكل على الله. وعليهم أن يتوكلوا عليه لأن الله يحب المتوكلين. وهكذا ضربت الدعوة وجهة الجحود بالرحمة، وحاصرت جميع الدوائر بالمشورة. وساقت الجميع إلى التوكل على الله. وأمام هذا العطاء كان أصحاب الرقاب الغليظة يعضون على أناملهم من الغيظ لأنهم عجزوا عن اختراق حاجز الرحمة وحاجز المشورة اللذين ينتهيان إلى الله قاصم الجبارين. كانت دوائر الصد تموج بأصحاب المخالب ويرتد فيها صدى قرقعة أنياب الحيتان. وأمام العوائق والمخالب أمر الله تعالى بجهادهم. قال تعالى: - (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم) - [۴] أما جهاد الكفار الذين تجاهروا

بالكفر وخرجوا للصد عن سبيل الله، ففى قتالهم آيات كثيرة ولهذه الآيات تفسير

[صفحه ۷۹]

يبين لماذا ومتى وكيف. فمن أراد فليراجعها فى مواضعها، أما قتال المنافقين الذين يرتدون جلباب الإسلام ويدخلون مساجده ويرتلون كتابه، فله شأن آخر. قال ابن كثير فى جهاد المنافقين: عن ابن مسعود قال: بيده فإن لم يستطع فليكفهر فى وجهه. وعن ابن عباس قال:

باللسان. وعن الحسن وقتادة ومجاهد: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم [۵] وقال فى الميزان عن جهادهم:

المجاهدة بذل غاية الجهد فى مقاومتهم، والجهاد يكون باللسان وباليد حتى ينتهى إلى القتال. وشاع استعمال الجهاد فى القرآن فى قتال الكفار، لكونهم متجاهرين بالخلاف والشقاق. فأما المنافقون، فهم الذين لا يتظاهرون بكفر ولا يتجاهرون بخلاف. وإنما يبطنون الكفر ويقلبون الأمور كيدا ومكرا. ولا معنى للجهاد معهم بمعنى قتالهم ومحاربتهم.. والمراد بجهادهم - فى الآية - مطلق ما تقتضيه المصلحة من بذل الجهد فى مقاومتهم. فإن اقتضت المصلحة هجروا ولم يخالطوا ولم يعاشروا وإن اقتضت وعظوا باللسان. وإن اقتضت أخرجوا وشردوا أو قتلوا إذا أخذ عليهم الردة أو غير ذلك. ويشهد لهذا المعنى عن كون المراد بالجهاد فى الآية هو: مطلق بذل الجهد. تعقيب قوله تعالى: - (جاهد الكفار والمنافقين) - بقوله: - (واغلظ عليهم) - أى شدد عليهم وعاملهم بالخشونة [۶] .

وقد تعامل النبى صلى الله عليه وسلم على امتداد مسيرته بين دوائر الصد فى الداخل، وفقا لمصلحة الدعوة. وقول الله تعالى لرسوله فى شأن المنافقين: - (لا تصلى على أحد منهم مات أبدا) - [۷] يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يعرفهم بأعيانهم وأنه كان يتصرف التصرف الذى يمنع المنافقين من قطع الشوط الكبير فى إفساد الأمر. فكان صلى الله عليه وسلم يخرج بعض المنافقين من المسجد على سمع ومرأى من الجميع تارة، وكان يسر بأسماء بعضهم إلى أصحابه تارة. وكان يسر بأسماء البعض الآخر إلى خاصة

[صفحه ۸۰]

الخاصة من أصحابه تارة أخرى. كل ذلك وفقا لحركة الدعوة وحركة القبائل وثقافتها. وكان فى موضع آخر يقول فى بعضهم وقد جاءوا به - (دعه. لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه) - [۸] ويقول: - (معاذ الله. أتتسامع الأمم أن

محمدا يقتل أصحابه) - [۹] لقد كان صلى الله عليه وآله يصفح إذا اقتضت

المصلحة ذلك أو كما ذكر البخارى، كان يترك قتال المعارضين للتآلف وألا ينفر الناس عنه [۱۰] .

وإذا كانت الغلظة أى معاملتهم بخشونة تقتضيه مصلحة الدعوة فى صدرها الأول. فإنهم إذا أظهروا النفاق، بمعنى إذا حشدوا حشودهم للدفاع عن ثقافتهم التى يعبرون عنها بألسنتهم، ووقودها فى قلوبهم، فإذا كانت المصلحة فى قتالهم قوتلوا. ولكن، تحت راية إمام حق، عالم بالتأويل. لأن قتال المسلمين يختلف عن قتال غيرهم، فالقتال أى قتال، فيه دماء، وسبى، وجرحى، وأرامل، إلى غير ذلك. وهذا كله إذا دار تحت سقف واحد احتاج إلى فقه طويل عريض عال. يقول الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه فيما ذكر ابن كثير: بعث النبى صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف. سيف للمشركين - (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فقاتلوا المشركين) - وسيف للكفار من أهل الكتاب - (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) -، وسيف للمنافقين - (جاهدوا الكفار والمنافقين) -، وسيف للبغاة - (فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله) -. قال ابن كثير: وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق، قال بذلك ابن جرير [۱۱] وكما سارت حركة الدعوة فى زمن

النبى صلى الله عليه وسلم بالرحمة والمشاورة فى الأمر، وجهاد المشركين بما تقتضيه المصلحة ضرب الوحى سورا من الرحمة يحدد كيف يتعامل

[صفحه ۸۱]

المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف يخاطبونه فليس معنى أنه بينهم أو يشاورهم فى الأمر اختلاط الأمور وانصهار المكانة. فأرض الدعوة عليها من هو فى دائرة الإيمان والإسلام وغير ذلك من دوائر الرجس والقلوب المريضة. وجميع هؤلاء يتحدثون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولأن الحديث مع الأنبياء والرسل يترتب عليه إما الجنة وإما النار أقامت الدعوة جدارا من الرحمة، حتى لا تزل الأقدام وتحبط الأعمال. قال تعالى: - (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم - يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم

لا تشعرون - إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله صلى أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) - [۱۲] .

قال ابن كثير: أى لا تسرعوا فى الأشياء بين يديه، أى قبله. بل كونوا تبعا له فى جميع الأمور.. وقال سفيان: لا تقدموا بقول ولا بفعل. وقال الضحاك: لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم. وقوله - (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) - قال ابن كثير: هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين النبى صلى الله عليه وسلم فوق صوته. وروى أنها نزلت فى الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، روى البخارى عن أبى مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم ركب بنى تميم. فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس، أخى بنى مجاشع. وأشار الآخر برجل آخر. فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافى. وقال عمر: ما أردت خلافك. فارتفعت أصواتهما فى ذلك فأنزل الله تعالى: - (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم... الآية) - [۱۳] وقوله تعالى: - (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) -

[صفحه ۸۲]

أى نهاكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدرى. ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك وأرشد إليه ورغب فيه فقال: - (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) - أى أخلصها لها وجعلها أهلا ومحلا [۱۴] وقال فى الميزان: - (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) - بين يدى

الشئ: أمامه. وهو استعمال شائع مجازى أو استعارى. وإضافته إلى الله ورسوله معا، لا إلى الرسول. دليل على أنه أمر مشترك بينه تعالى وبين رسوله. وهو مقام الحكم الذى يختص بالله سبحانه ورسوله بإذنه كما قال تعالى: - (إن الحكم إلا لله) - [۱۵] وقال: - (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) - [۱۶] .

وقوله: - (لا تقدموا) - أى تقديم شئ ما من الحكم. قبال حكم الله ورسوله. إما بالاستباق إلى قول قبل أن يأخذوا القول فيه من الله ورسوله. أو إلى فعل قبل أن يتلقوا الأمر من الله ورسوله.. والمعنى: أن لا تحكموا فيما لله ولرسول فيه حكم. إلا بعد حكم الله ورسوله، أى لا تحكموا إلا لحكم الله ورسوله. ولتكن عليكم سمة الاتباع والاقتفاء. وقوله لا ترفعوا أصواتكم ".. وذلك بأن تكون أصواتهم عند مخاطبته وتكليمه صلى الله عليه وسلم أرفع من صوته وأجهر لأن فى ذلك كما قيل شيئين: إما نوع استخفاف به وهو الكفر. وإما إساءة الأدب بالنسبة إلى مقامه. وهو خلال التعظيم والتوقير المأمور به. وقوله: - (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) - فإن من التعظيم عند التخاطب أن يكون صوت المتكلم أخفض من صوت مخاطبه. فمطلق الجهر بالخطاب فاقد لمعنى التعظيم. فخطاب العظماء بالجهر فيه، كخطاب عامة الناس لا يخلو من إساءة الأدب وقوله - (أن تحبط أعمالكم..) - أى لئلا تحبط أو كراهة أن تحبط أعمالكم. فظاهر الآية أن رفع الصوت فوق صوت النبى صلى الله عليه وسلم والجهر له بالقول معصيتان موجبتان للحبط. فيكون من المعاصى غير

[صفحه ۸۳]

الكفر ما يوجب الحبط [۱۷] .

... والخلاصة: تعددت الدوائر، ولم تجد الدعوة غضاضة فى التعامل مع جميع الخصوم الذين يقفوا تحت سقفها، كانت تحاور جميع الأطراف دون أن تسمح لأى طرف من السيطرة عليها. وتعامل الدعوة مع القوى المختلفة ومع الأضداد، كان تعاملا يستخلص مصلحة الفطرة فى النهاية. وإذا كانت الدعوة قد أحاطت الجميع بآيات تحدد كيفية مخاطبة النبى وكيفية دخول بيوته، فإنها حاصرت دائرة الرجس الحصار الذى يقوقع المنافقين ولا يجعل حركتهم قابلة للتمدد على المستوى الأفقى أو الرأسى. وذلك بفرض نظام يرفض اتخاذ بطانة من غير الذين آمنوا. كما حددت الدعوة دائرة الطهر، وهذه الدائرة قضى الله وقضاؤه حق. إن عزة الإسلام مع هذه الدائرة وإن فى هذه الدائرة طائفة لا يضرهم من ناوأهم أو من خذلهم أو من عاداهم حتى يأتى أمر الله.

[صفحه ۸۵]

[۱] سورة آل عمران: الآیة: ۱۵۹.

[۲] المیزان: ۵۶:۴.

[۳] تفسیر ابن کثیر: ۴۲۰:۱.

[۴] سورة التوبة: ۷۳.

[۵] ابن کثیر فی التفسیر: ۳۷۱:۲.

[۶] المیزان: ۳۲۹:۹.

[۷] سورة التوبة: الآیة ۸۴.

[۸] رواه البخاری ومسلم عن جابر (کنز العمال: ۲۰۰:۱۱).

[۹] رواه أحمد وحسنه الهیثمی (مجمع الزوائد: ۲۳۱:۶).

[۱۰] البخاری (الصحیح: ۳۱۲:۴).

[۱۱] ابن کثیر فی التفسیر: ۳۷۱:۲.

[۱۲] سورة الحجرات: الآیة ۱ - ۳.

[۱۳] رواه البخاری (الصحیح: ۱۹۰:۳) والترمذی وقال حسن غریب (الجامع: ۳۸۷:۵) وذکره ابن کثیر فی التفسیر: ۲۰۶:۴.

[۱۴] تفسیر ابن کثیر: ۲۰۷:۴.

[۱۵] سورة یوسف: الآیة ۴۰.

[۱۶] سورة النساء: الآیة ۶۴.

[۱۷] المیزان: ۳۰۸:۱۸.

النور و حصار دائرة الرجس

من الذی یدعو و یختار

لا جدال فی أن الشیطان ما زال یعمل منذ طرده الله من الجنة وأن مجال

عمله هم ذریة آدم وإن عمله مستمر بعد الرسالة الخاتمة وحتی یوم الوقت المعلوم. ولا جدال فی أنه استهدف فی برنامجه رسل الله علیهم السلام ودعوتهم قال تعالی: (وکذلک جعلنا لکل نبی عدوا شیاطین الإنس والجن) [۱] ولا جدال فی أن حزب الشیطان من المنافقین قد تدثروا فی رداء

الإسلام وحاولوا قتل النبی صلی الله علیه وسلم. وحاولوا بث ثقافة العدوان من تحت مئذنة مسجدهم الضرار. وساروا بین المؤمنین یبثون الفتن فی الوقت المناسب. ولا جدال فی أن الکتاب الذی یقرأه کل من یقف تحت سقف الدعوة الإسلامیة هو القرآن الکریم. ولا جدال فی هذا وغیره. فإذا کان الأمر علی هذه الصورة. فکیف حصنت برسالة خط القیادة فیها؟ بمعنی أنها لو ترکت الأمر لاختیار الأمة فإن بین صفوف الأمة من یقول فیهم الله جل شأنه: (وإذا رأیتهم تعجبک أجسامهم وإن یقولوا تسمع لقولهم کأنهم خشب مسندة یحسبون کل صیحة علیهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنی یؤفکون) [۲] بالله علیک إذا قام واحد من هؤلاء لترشیح نفسه للرئاسة فی أی مکان. ألا تراه

[صفحه ۸۶]

يستحوذ على أغلب أصوات الناخبين. فهو فى صباحة من المنظر. وتناسب فى الأعضاء. وإذا سمعه السامع مال إلى الاصغاء إلى قوله: فماذا فعلت الدعوة الخاتمة لسد الطريق أمام أعداء الفطرة الذين يأكلون بأجسامهم وألسنتهم؟ وأيضا يعين صفوف الأمة أولئك الذين غمسوا فى الترف بما لديهم من أموال وأولاد. يقول تعالى: (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) [۳] فماذا فعلت الرسالة الخاتمة لسد الطريق

أمام التجار الكبار الذين احترفوا التجارة فى كل شئ. وأمام أبنائهم الذين ورثوا منهم الشذوذ والدنس والعار، أقول والله أعلم. إن القول بأن الدعوة لم تقم بتحصين هذا الجانب، هو قول فيه تساهل غير لائق بكلام الله وسنة نبيه وحركة التاريخ. ولو قلت أن الأمة تختار قيادتها وفقا لشروط دقيقة. فإن قولى هذا يصطدم بحقيقة لا تقبل الجدل تقول: إن سر المنافق فى قلبه. ومعنى هذا إن أى شروط فى حقيقة أمرها لله تتعدى الأمور الظاهرة، ولأن جسم هذا الأمر لا يبدأ إلا من القلب. فإن الاختيار لا يكون للأمة. وإنما يكون للذى يعلم ما تخفيه الصدور. إلى الله. إن المسيرة لم تأت لتأكل. إنها لم تأت لتحقق أهواء فرد ما أو قبيلة ما أو حزب ما. (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين...) [۴] ، إن المسيرة جاءت لهدف ومن ورائه حكمة (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء) [۵] .

إنه صراع دائم بين الحق وبين الباطل. بين برنامج الشيطان وبين برنامج الفطرة، بين برنامج يقوض الصراط المستقيم وبين برنامج يحدد الصراط المستقيم. ويسوق الناس إلى ربهم. فإذا قرأنا قوله تعالى: (إهدنا الصراط المستقيم) [۶] فهذا إقرار منا بأن هداية الطريق له وحده. وإذا قرأنا قوله تعالى

[صفحه ۸۷]

لرسوله: (إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم) [۷] علمنا أن الدعوة طريقها واضح مستقيم والطريق هو الذى يوصل عابريه إلى الله تعالى. أى إلى السعادة الإنسانية التى فيها كمال العبودية لله والقرب. وإذا قرأنا قوله تعالى لرسوله: (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم [۸] علمنا أن الذى يهدى إليه النبى صلى الله عليه وسلم صراط مستقيم، وإن الذى يهديه النبى من الناس. هو هداية من الله سبحانه وتعالى. فهداية النبى هداية الله. وإذا قرأنا قوله تعالى لرسوله: (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) [۹] علمنا أن النبى الذى يهدى بهداية الله، هو الذى يدعوا إلى هداية الله. إلى الطريق الواضح الذى لا يختلف ولا يتخلف فى حكمة. ويصل بسالكيه إلى الغاية المقصودة. وصفة الطريق هى نفسها صفة الحق. فإن الحق واحد لا يختلف أجزاؤه بالتناقض والتدافع. ولا يتخلف فى مطلوبه الذى يهدى إليه. فالحق صراط مستقيم، فبعد هذا كله، أقول والله أعلم: إن الاختيار القيادة وسط هذا الطريق الذى احتوى على جميع الأنماط البشرية. لا يكون إلا لله ورسوله. لأن الاختيار إذا ترك للأمة فسيترتب عليه ما لم تحمد عقباه. ونحن بين أيدينا نصوصا عديدة تحذر من الأخذ بالصورة، وتبين نهاية الطريق إذا ضرب بالتحذير عرض الحائط ومنها حديث ": إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم [" ۱۰] ولا يخفى على أحد أن طريق الشكل والصورة انتهى إلى كارثة. كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أخبر بها بعد أن حذر منها، فعن حذيفة قال. قلت يا رسول الله: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم. دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ["... ۱۱] .

إن الأمة تدعوا إلى عبادة الله. نعم. ولكن داخل سور الأمة من لا يريد

[صفحه ۸۸]

ذلك. فإذا اختارت الأمة فلا يستبعد أن يقع اختيارها على إمام ضلالة من الأئمة الذين خاف النبى على أمته منهم. فقد قال صلى الله عليه وسلم ": إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين [" ۱۲] ، إن لفظ " إمام " فى الحديث يدل أن شروطا عدة قد انطبقت عليه فى قبيلة أو حزب أو غير ذلك... أو يقع اختيارها على منافق عليم خاف النبى على أمته منه، قال صلى الله عليه وسلم ": أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان [" ۱۳] وتحذيرات النبى هذه جاءت بعد أن بين

صلى الله عليه وسلم جانب الصواب أولا. ولعلمه بأن الاختلاف واقع كما أخبره ربه. حذر من هذه الجوانب وكأنه يدعو إلى الالتزام

بما بين - كما سيأتى. إن الأمة تدعوا إلى صراط الله المستقيم. نعم. ولكن والله أعلم أن أقرب الطرق إلى غايات الصراط المستقيم. لا يكون فيمن تزكيه الأمة. بل فيمن يزكيه الله. قال تعالى: (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) [۱۴] ، فهو سبحانه أعلم بعباده وهم أجنة فى بطون أمهاتهم، ويعلم ما هى حقيقة عباده وما هم عليه وما فى سرهم وإلى ماذا ينتهى أمرهم. فإذا كان الله أعلم من أول أمر. فلا يحق أن يزكى أحد نفسه فينسبها إلى الطهارة. فالله وحده أعلم بمن اتقى. ولا يخفى أن تجارة التزكية وجمع المناقب. فى كثير منها مدخل للشيطان، فعلى بعض التزكيات والمناقب زين الشيطان لكثير من الناس حركة أصحاب هذه المناقب فعبدوهم، والدليل على ذلك ما قاله اليهود فى عزير وما قاله النصارى فى عيسى ابن مريم عليه السلام وغير ذلك من الأمثلة لأجل ذلك سدت الرسالة الخاتمة هذا الباب. فلا تزكية إلا لمن زكاه الله ورسوله. إن الأمة مدعوة من الله ورسوله إلى الصراط المستقيم، فإذا دعت نفسها

[صفحه ۸۹]

فيجب أن يكون فى الحسبان، إن طاعة النبى وتقديمه على الأنفس هو العمل الذى لا يبور. وغيره يجعله الله هباءا منثورا. والذى يدعو نفسه ويعين قافلته التى تقوده. ربما يتعثر فى فهم العمود الفقرى الذى تقوم عليه الدعوة. إلا- وهو القرآن الكريم. والقرآن الكريم به آية ربما تكون والله تعالى أعلم. آية التعجيز لمن رأى أن يختار الطريق لنفسه. قال تعالى: (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) [۱۵] .

فهذه دائرة أخرى [الذين فى قلوبهم زيغ] والزيغ. الميل عن الاستقامة. والآية تكشف حال الناس بالنسبة إلى تلقى القرآن بمحكمه ومتشابهه. وإن منهم من هو زائغ القلب يتبع المتشابه لهدف هو ابتغاء الفتنة والتأويل. ومنهم من هو راسخ العلم مستقر القلب. يأخذ المحكم ويؤمن بالمتشابه. واشتمال القرآن الكريم على المتشابه هو تمحيص القلوب فى التصديق به. والكتاب كما يشتمل على المتشابهات. كذلك يشتمل على المحكمات التى تبين المتشابهات بالرجوع إليها. وقال ابن كثير فى معنى الآية: فأما الذين فى قلوبهم زيغ أى ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل إنما يأخذون منه المتشابه الذى يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة. ابتغاء الفتنة أى الاضلال وابتغاء تأويله أى تحريفه على ما يريدونه [۱۶] وقال صاحب الميزان: ومعنى الآية. يريدون باتباع المتشابه إضلال الناس فى آيات الله. وهو الحصول والوقوف على تأويل القرآن. ومآخذ أحكام الحلال والحرام. حتى يستغنوا عن اتباع محكمات الدين. فينتسخ بذلك دين الله من أصله [۱۷] .

وكما ذكرنا أن هذه الآية عمودا فقريا يتحطم عليه كل رأى اختار طريقه

[صفحه ۹۰]

بنفسه. فكتاب الدعوة لا يمسه أى عقل. فبما أنه كتاب الله. فلا بد أن يختار الله العقل الذى يمسه لينال منه العلم النافع. فالقرآن الكريم حجة الله على خلقه. وهو يحتوى على برنامج الفطرة والثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة. فيه بيان لكل شئ. وجميع الحقائق الموجودة فيه تستند إلى التوحيد. وبما أنه لا يأتيه الباطل ولا يجد إليه طريقا. وبما أنه لا بد أن ينتهى إليه كل رأى دينى. فلا بد أن يكون له عالما يسوق الناس به إلى ربهم. فهو سبحانه مصدر جميع السلطان. وإليه تنتهى جميع القرارات. وهو مصدر الخلق والتكوين وواهب الحياة ومقوماتها. فكما أن له سبحانه الخلق ولا بداع. كذلك له الأمر والنهى. وعالم الزيغ هو نفسه عالم الرأى. أو ابنا شرعيا للذين اختاروا أن يكون الكشاف الذى يكشفون به الطريق من صنعهم وبأيديهم. وأنت إذا تتبعت البدع والأهواء والمذاهب الفاسدة. التى انحرف فيها الفرق الإسلامية، عن الحق القويم بعد زمن النبى صلى الله عليه وآله. سواء كان فى المعارف أو فى الأحكام. وجدت أكثر مواردها من اتباع المتشابه والتأويل فى الآيات. بما لا يرتضيه الله سبحانه. ففرقة تتمسك من القرآن بآيات التجسيم. وأخرى للجبر. وأخرى للتفويض. وأخرى لعترة الأنبياء. وأخرى للتنزيه المحصن بنفى الصفات، وأخرى للتشبيه الخالص وزيادة الصفات، إلى غير ذلك، كل ذلك للأخذ بالمتشابه من غير إرجاعه إلى المحكم الحاكم فيه. وعلى فروع المتشابه أيضا تسلق المتصوفة وعلماء الكلام.

فطائفة ذكرت أن الأحكام الدينية إنما شرعت لتكون طريقا إلى الوصول. فلو كان هناك طريق أقرب منها. كان سلوكه متعينا لمن ركبه. لأن المطلوب هو الوصول بأى طريقة تيسرت. وأخرى قالت: إن التكاليف إنما هى لبلوغ الكمال. ولا معنى لبقائها بعد الكمال بتحقق الوصول. فلا- تكليف لكامل [۱۸] وهكذا وغير ذلك كثير. إن الله تعالى الذى أنزل الكتاب هو وحده الذى يحدد من الذى يتعامل مع هذا الكتاب.

[صفحه ۹۱]

ولقد كانت الأحكام والفرائض والحدود والسياسات الإسلامية قائمة ومقامة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم لا يشذ منها شاذ. ثم لم تزل بعد ارتحاله صلى الله عليه وسلم تنقص وتسقط حكما حكما - كما سنبين - يوما فيوم بيد الحكومات الإسلامية. ولم يبطل حكم واحد. إلا واعتذروا قائلين: إن الدين إنما شرع لصلاح الدنيا وإصلاح الناس، وما أحدثوه أصلح لحال الناس اليوم، حتى آل الأمر إلى أن يقال: إن الغرض الوحيد من شرائع الدين. إصلاح الدنيا. والدنيا اليوم لا تقبل السياسة الدينية ولا تهضمها. بل تستدعى وضع قوانين ترتضيها مدنية اليوم. وإذا تأملت فى هذه وأمثالها. وهى لا تحصى كثرة. وتدبرت فى قوله تعالى: (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) لم تشك فى صحة ما ذكرنا. وقضية بأن هذه الفتن والمحن التى سقطت على المسلمين لم يستقر قرارها إلا- من طريق اتباع المتشابه وابتغاء تأويل القرآن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": أكثر ما أتخوف على أمتى من بعدى رجل يتأول القرآن يضعه على غير مواضعه. ورجل يرى أنه أحق بهذا الأمر من غيره [" ۱۹] .

إن الذى تخوف منه الرسول ما جاء إلا على أكتاف الذين ساروا فى موضع غير الموضع. ورأوا أنهم أحق بتحديد العلامات على طريق طويل. ومن العجيب أن الذى يقف فى أول الطريق لا يرى ما هى نتيجة مقدمته فى نهاية الطريق. أما الذى يقف فى نهاية الطريق. عند النتيجة. فإنه يرى المقدمة بمنتهى الوضوح. إن الأمة إذا كانت هى الأولى بتحديد قافلتها التى تقودها إلى الصراط المستقيم، لا بد أولا أن تكون على علم بمن يقفون تحت سقفها. ولا بد ثانيا أن تعلم كتابها بالعلم الذى يستقيم معه. ومن آيات الله وأحاديث رسول الله الصحيحة تبين أن داخل الأمة دوائر متعددة لمؤسسات الصد عن سبيل الله.

[صفحه ۹۲]

وداخل هذه المؤسسات اثنى عشر رجلا لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط. وشهد حذيفة وعمار رضى الله عنهما... أنهم حزب الله ورسوله فى الحياة الدنيا. ومعنى فى الحياة الدنيا يفيد أن لكل منهم ثقافة لا تصيب الذين ظلموا خاصة. بل تتعداهم إلى غيرهم إذا تعاموا عن فحص المقدمات. فإذا كانت الأمة أولى بالاختيار فما هى الضمانات التى لا تجعل واحد من هؤلاء أو من غيرهم من أى دائرة كان أن ينفذ لإحداث الفتنة والتأويل. ثم ما هى الضمانات التى تضمن عدم بغى الأمة واختلافها وافتراقها عن كتاب الله - إن دائرة الرجس لا بد أن يقابلها دائرة طهر. بهذا تقضى الفطرة ويقضى العقل. لقد حاصر كتاب الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وآله برنامج الشيطان وبرامج المشركين والمنحرفين من أهل الكتاب. وكما حاصر هؤلاء حاصر دائرة الرجس.

[۱] سورة الأنعام: الآية ۱۱۲.

[۲] سورة المنافقون: الآية ۴.

[۳] سورة التوبة: الآية ۸۵.

[۴] سورة النساء: الآية ۱۳۳.

[۵] سورة الأنعام: الآية ۱۳۳.

[۶] سورة الفاتحة: الآية ۶.

[۷] سورة يس: الآية ۳ - ۴.

[۸] سورة الشورى: الآية ۵۲.

[۹] سورة المؤمنون: الآیة ۷۳.

[۱۰] رواه مسلم وابن ماجة (کشف الخفاء ۲۸۲:۱).

[۱۱] البخاری (الصحیح ۲۸۰:۲) ک بدء الخلق ب علامات النبوة.

[۱۲] رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذی وابن ماجة وقال الترمذی حسن صحیح (الفتح الربانی ۲۳:۲۱).

[۱۳] رواه ابن عدی (کشف الخفاء ۱۶:۱).

[۱۴] سورة النجم: الآیة ۳۲.

[۱۵] سورة آل عمران: الآیة ۷.

[۱۶] تفسیر ابن کثیر ۳۴۵:۱.

[۱۷] المیزان ۲۳:۳.

[۱۸] المیزان ۴۱:۳.

[۱۹] رواه الطبرانی فی الأوسط (کنزل العمال ۲۰۰:۱۰).

دائرة الطهر

إن المعارف الحقة والعلوم المفیدة التی تحقق سعادة الدنیا والآخرة. لا
تکون فی متناول الإنسان إلا إذا صلحت أخلاقه. وعن أصول الأخلاق: العفة والشجاعة والحکمة والعدالة. ولکل واحدة فروع ناشئة منها وراجعة بحسب التحلیل إلیها. والأخلاق علی امتداد المسیرة الإنسانیة. لا یمکن بحال أن تسیر بمفردها. بل لا بد من عامل یحرسها ویحفظ دوامها وثباتها. وأن یکون هذا العامل مرتبطا ارتباطا وثیقا بالقرآن الکریم. بمعنی أن العامل إذا دار لا یدور إلا مع القرآن. ویظل فی حرکته وسکونه مع القرآن حتی یوم القیامة. وعندما یقف القرآن مع رسول الله صلی الله علیه وسلم عند الحوض یکون هذا العامل مع القرآن علی الحوض. فالنفس واحدة والحرکة واحدة من الابتداء إلی الانتهاء. إن حرکة مثل هذه نطلق علیها هنا [دائرة الطهر]. ولکی نبحث عن هذه الدائرة وعن أصحابها یجب أن تکون البدایة من القرآن الکریم ومن الحدیث الشریف الصحیح الذی یفسر الآیة ویرشد علی العامل الذی نبحث عنه. ولتکن البدایة من قوله تعالی: (إنه لقرآن کریم - فی
[صفحه ۹۳]
کتاب مکنون - لا یمسه إلا المطهرون) [۱] إن المس المذکور فی الآیة الکریمة
أوسع من أن یقال لا- بد أن یکون من یمسه علی طهارة من الخبث أو الحدث. فلو اقتصر التعریف علی هذا. لاحتج به علینا الکفار والمشرکین. الذین یشترون المصاحف فی کل مکان لأسباب عدیدة. بل إن المصاحف تطبع فی العدید من البلاد غیر الإسلامیة وتتناقلها الأیدی من هنا وهناک. کما أن النبی صلی الله علیه وسلم أخبر أنه فی زمن من الأزمنة سیقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر [۲] فالمنافق کافر به. والفاجر یتأکل منه. والمؤمن یؤمن به [۳] ، نعم الطهارة مطلوبة ولکن المس الأوسع هو مس العقول له لنیل الفهم والعلم. وفی معنی (لا یمسه إلا المطهرون) قال أبو العالیة: لیس أنتم. أنتم أصحاب الذنوب [۴] والمطهرون هم الذین طهر الله تعالی نفوسهم من أرجاس المعاصی وقاذورات الذنوب. أو مما هو أعظم من ذلک وأدق. وهو تطهیر قلوبهم من التعلق بغیره تعالی، وقال فی المیزان: وهذا المعنی من التطهیر هو المناسب للمس الذی هو العلم دون الطهارة من الخبث أو الحدث. فالمطهرون هم الذین أکرمهم الله تعالی بتطهیر نفوسهم کالملائکة الکرام والذین طهرهم الله من البشر. قال تعالی: (إنما یرید الله لیذهب عنکم الرجس أهل البیت ویطهرکم تطهیرا) [۵] ولا وجه لتخصیص المطهرین بالملائکة کما ذکر بعض المفسرین لکونه تقییدا من غیر مقید .[۶]

والله جل شأنه ذكر أصنافا من عباده. وخص كل صنف بنوع من العلم والمعرفة. لا توجد فى الصنف الآخر. كالموقنين، وخص بهم مشاهدة ملكوت

[صفحه ۹۴]

السماوات والأرض، " قال تعالى: (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين) [۷] وكالمنيبين وخص بهم التذكر قال تعالى: (وما يتذكر إلا من ينيب) [۸] ، وكالعالمين بهم الذى يعقل أمثال القرآن، قال تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) [۹] ، كالأولياء وهم أهل المحبة الذين لا يلتفتون إلى شئ إلا له سبحانه ولذلك لا يخافون شيئا ولا يحزنون بشئ. قال تعالى: (ألا- إن أولياء الله لا- خوف عليهم ولا- هم يحزنون) [۱۰] وكالمقربين. والمجتبين والصالحين والمؤمنين. ولكل منهم خواص من العلم والإدراك يختصون بها. ونظير هذه المقامات الحسنة. مقامات سوء فى مقابلها. ولها خواص رديئة فى باب العلم والمعرفة. ولها أصحاب كالكافرين والمنافقين والفاسقين وغيرهم. وهؤلاء لهم نصيب من سوء الفهم ورداءة الادراك لآيات الله ومعارفه الحقة. وعلاقة المطهرين بالقرآن هى علاقة الفاهم للقرآن. أى العالم بمتشابه القرآن ورده إلى محكمه. ودائرة الطهر تقابل الذين قال تعالى فيهم: (أفلا- يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) [۱۱] ، وقوله: (أفلا- يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) [۱۲] ، فالمطهرين خصهم الله بعلم تأويل الكتاب. لينطلق طريق العلم فى مواجهة أصحاب المقامات السوء والخواص الرديئة. ويجب أن يفهم. إن الطريق إلى فهم القرآن غير مسدود. فهو حجة على الناس بذاته. ولكن إذا كان للقرآن الدلالة على معانيه والكشف عن المعارف الإلهية فإن للمطهرين الدلالة على الطريق وهداية الناس إلى أغراض القرآن ومقاصده. فبهذا يحافظ العامل على المسيرة وعلى أخلاقها. بعيدا عن

[صفحه ۹۵]

الأفهام التى امتنع عليها التأويل لأن أفهامها غير مطهرة.

[۱] سورة الواقعة: الآية ۷۷ – ۷۹.

[۲] رواه أحمد، وقال الهيثمى رجاله ثقات مجمع الزوائد ۲۳۱:۶) ورواه الحاكم وأقره الذهبى (المستدرك ۵۰۷:۴) وابن حبان والبيهقى (كنزل العمال ۱۹۵:۱۱).

[۳] رواه الحاكم وأقره الذهبى (المستدرك ۵۰۷:۴).

[۴] تفسير ابن كثير ۲۹۸:۴.

[۵] سورة الأحزاب: الآية ۳۳.

[۶] الميزان ۱۳۷:۱۹.

[۷] سورة الأنعام: الآية ۷۵.

[۸] سورة المؤمن: الآية ۱۳.

[۹] سورة العنكبوت: الآية ۴۳.

[۱۰] سورة يونس: الآية ۶۲.

[۱۱] سورة محمد: الآية ۲۴.

[۱۲] سورة النساء: الآية ۸۲.

من هم المطهرون

هل هم نساء النبى؟ أم بنى هاشم كافة؟ أم أنهم جميع الأمة؟ إن الذى

حدد دوائر الصد عن سبيل الله هو سبحانه الذى يحدد دائرة الطهر. قال تعالى: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) [۱] لقد قال

تعالى فى المنافقين: (فأعرضوا عنهم إنهم رجس) [۲] ، وقال تعالى (وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) [۳] والرجس كل ما استقذر

من عمل. ثم قال تعالى فى أهل هذه الآية: (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهير)، وهكذا دائرة أمام دائرة. وإذهاب الرجس. إزالة كل هيئة خبيثة فى النفس. وقوله تعالى: (ويطهركم تطهير) أى تجهيزهم بإدراك الحق فى الاعتقاد والعمل. أما من هم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. فلقد روى الإمام مسلم عن أم المؤمنين عائشة قالت: خرج النبى صلى الله عليه وآله وسلم غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود. فجاء الحسن بن على فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء على فأدخله. ثم قال ": إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا [" ۴] .

وفى أسباب النزول. أن الآية نزلت فى النبى صلى الله عليه وسلم وعلى وفاطمة والحسنين رضى الله عنهم خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم. وليعلم طالب العلم أن هذا الحديث ثابت فى كتب الأمة بجميع دروبها ومذاهبها. والروايات كثيرة تزيد على سبعين حديثا يربو ما ورد منها من طرق أهل السنة

[صفحه ۹۶]

على ما ورد من طرق الشيعة. فقد رواها أهل السنة بطرق كثيرة [۵] عن أم سلمة وعائشة وأبى سعيد الخدرى وسعد وواثلة بن الأسقع وأبى الحمراء وابن عباس وثوبان وعبد الله بن جعفر وعلى والحسن بن على رضى الله عنهم فى قريب من أربعين طريقا.

[۱] سورة الأحزاب: الآية ۳۳.

[۲] سورة التوبة: الآية ۹۵.

[۳] سورة التوبة: الآية ۱۲۵.

[۴] صحيح مسلم ك فضائل الصحابة ب فضائل الحسن والحسين (۱۹۴:۱۵) ورواه الحاكم وقال هذا حديث صحيح على شرطهما (المستدرك ۱۴۷:۷).

[۵] ابن كثير فى التفسير ۳۸۴:۳، البغوى فى تفسيره ۵۴۶:۶، ابن جرير فى تفسيره ۵:۲۰ وغيرهم.

اعلان الناس بمن هم المطهرون

علمنا من السيرة النبوية أنه صلى الله عليه وسلم كان يكرر جوابه على من

يسأله أكثر من مرة وربما يكرر الجواب ثلاث [۱] أو سبع مرات [۲] وكان

يتحدث بالحديث الواحد فى أكثر من موطن. وكل ذلك ليحقق الاستماع والإنصات والفهم لمن حوله كى يبينوا لمن لم ير أو يسمع. وإعلانه صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء أهل بيته المطهرون تم فى أكثر من موضع ليعلم الناس أن هؤلاء فى عرف القرآن هم أهل البيت. وآية التطهير نزلت فى بيت أم سلمة: وإنما أوردنا حديث عائشة فى أول حديثنا عنهم لكونه ورد فى صحيح مسلم. ومن بيت أم سلمة روى الحديث أم سلمة وعمر بن أبى سلمة [۳] وزينب بنت أبى سلمة [۴] فعن أم سلمة قالت ": دعا النبى صلى الله عليه وسلم فاطمة وحسنا وحسينا وعلى خلف ظهره فجللهم بكساء ثم قال " اللهم هؤلاء هم أهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا" فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبى الله؟ قال ": أنت على مكانك

[صفحه ۹۷]

وأنت على خير [" ۵] ، وفى رواية عند أبى حاتم. فقلت: يا رسول الله وأنا من أهل بيتك؟ فقال ": تنحى فإنك على خير [" ۶] ، وفى

روايهٔ عند الإمام أحمد. فرفعت الكساء لأدخل معهم. فجذبه من يدى وقال: إنك على خير [" ۷] .

وبعد بيت أم سلمهٔ تكرر المشهد فى أماكن أخرى، روى الإمام أحمد، عن شداد بن أبى عمار أنه قال: أتيت فاطمهٔ أسألها عن على. قالت: توجه إلى رسول الله صلى الله على وسلم. فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه حسن وحسين. أخذ كل واحد منهما بيده. حتى دخل فأتى عليا وفاطمهٔ فأجلسهما بين يديه، وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه ثم تلا هذه الآيهٔ (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس...) الآيهٔ، وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتى وأهل بيتى أحق [" ۸] .

وعن إسماعيل بن عبد الله قال: لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرحمهٔ هابطهٔ قال: ادعوا لى ادعوا لى فقالت صفيهٔ: من يا رسول الله؟ قال: أهل بيتى عليا وفاطمهٔ والحسن والحسين. فجئ بهم. فألقى النبى صلى الله عليه وسلم كساء، ثم رفع يده وقال: اللهم هؤلاء آل محمد فصلى على محمد وآل محمد [۹] .

وعن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم. كان يمر على بيت فاطمهٔ ستهٔ أشهر إذا خرج إلى الفجر فيقول: الصلاهٔ يا أهل البيت " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم

[صفحه ۹۸]

تطهيرا [" ۱۰] ، وقال فى الفتح الربانى. قال جماعهٔ من التابعين منهم مجاهد وقتادهٔ أن أهل البيت هم على وفاطمهٔ والحسن والحسين. وتمسكوا بحديث الكساء وحديث أنس أن النبى كان يمر بباب فاطمهٔ ستهٔ أشهر [۱۱] وقال فى تحفهٔ الأحوازى: قال أبو سعيد الخدرى ومجاهد وقتادهٔ والكلبى أن أهل البيت المذكورين فى الآيهٔ هم: على وفاطمهٔ والحسن والحسين. والخطاب فى الآيهٔ بما يصلح للذكور لا للإناث وهو قوله " عنكم " و " ليطهركم " ولو كان للنساء. لقال " عنكن " و " ليطهركن [" ۱۲] ، وقال فى أسد الغابهٔ أن هذا الحديث. رواه الأوزعى. ولم يرو فى الفضائل حديثا غير هذا. وكذلك الزهرى. لم يرو فيها إلا حديثا واحدا. كانا يخافان بنى أميهٔ [۱۳] .

فإذا كان الحديث قد تكرر أكثر من مرهٔ فى أكثر من مكان فى زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كى يتذكر من أراد أن يتذكر. وإذا كان قد روى فى عالم الخوف. أيام بنى أميهٔ. فإنه روى أيضا فى أشد الأوقات حديث كانت الدماء تنزف فى كل مكان. فلقد روى أن الحسن بن على رضى الله عنهما عندما طالبه القوم بإبرام الصلح مع معاويهٔ خطب فى الناس وقال ": أيها الناس. إنما نحن أمراؤكم وضيفانكم. ونحن أهل بيت نبيكم الذى أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وكرر ذلك. حتى ما بقى فى المجلس إلا من بكى حتى سمع نشيجه [" ۱۴] وإذا كان الحسن رضى الله عنه قد ذكرهم يوما. فإن على بن

الحسين رضى الله عنهم قد ذكر أهل زمانه أيضا. من أبى الديلم قال. قال

[صفحه ۹۹]

على بن الحسين رضى الله عنهما لرجل من أهل الشام. أما قرأت فى الأحزاب (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) قال: نعم ولأنتم هم؟ قال: نعم [۱۵] .

فهؤلاء أهل البيت. الذى أذهب الله عنهم الرجس: أى عمل الشيطان وما ليس لله فيه رضا. كما قال ابن عباس [۱۶] الذين قال فيهم النبى ": اللهم هؤلاء أهل بيتى وأهل بيتى أحق [" ۱۷] ، وقال فيهم ": اللهم أرض عنهم كما أنا عنهم راض [" ۱۸] ، وقال لهم": رحمهٔ الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد [" ۱۹] ، وقال ": اللهم هؤلاء آهل فصل على محمد وآل محمد [" ۲۰] .

هؤلاء قوم نزلت الطهارهٔ فى قلوبهم. ولم ينزلها إلا الله سبحانه. فإنه تعالى ذكرها منسوبهٔ إلى نفسه " إنما يريد الله "... وليست الطهارهٔ إلا زوال الرجس من القلب. وليس القلب من الإنسان إلا ما يدرك به ويريد به، فطهارهٔ القلب طهارهٔ نفس الإنسان فى اعتقادها وإرادتها وزوال الرجس عن هاتين الجهتين. ويرجع إلى ثبات القلب فيما اعتقده من المعارف الحقهٔ من غير ميلان إلى الشك. وثباته على لوازم ما علمه من الحق من غير تماثل إلى اتباع الهوى ونقض ميثاق العلم. وهذا هو الرسوخ فى العلم. فإن الله تعالى ما وصف

الراسخين فى العلم إلا بأنهم مهديون ثابتون على ما علموا. غير زائغة قلوبهم إلى ابتغاء الفتنة. إن دائرة الذين فى قلوبهم زيغ. ما دخلوا دائرتهم إلا بعد أن ضلوا عن

[صفحه ۱۰۰]

سبيل الله حيث نسوا هناك يوم الحساب قال تعالى: (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) [۲۱] ، أما الراسخون فى العلم فإنهم فى شوق إلى يوم الحساب. اليوم الذى يقف فيه التابع والمتبوع أمام جلال الله وعزته. يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. إن الراسخين فى العلم يعشقون يوم الحساب ويقولون (ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد) [۲۲] .

وعلى امتداد الدعوة فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم. كانت تجرى أحداث يترتب عليها غرس مفهوم من هم أهل البيت فى ذاكرة الذين عاصروا النبى على اعتبار أنهم الجيل الذى سيفتح الأبواب من بعده ووفقا لحركة هذا الجيل ستسير الحركة على امتداد المسيرة. ومن هذه الأحداث التى غرست مفهوم من هم أهل البيت. أحداث يوم المباهلة وملخص القصة التى وردت فى كتب التفسير والحديث والتاريخ. إن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: إلى ما تدعوا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إلى شهادة أن لا إله إلا الله. وأنى رسول الله. قالوا: وماذا تقول فى عيسى: قال: إن عيسى عبدا مخلوقا. يأكل ويشرب ويحدث. قالوا: فمن أبوه؟ فنزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال. قل لهم: ما تقولون فى آدم، أكان عبدا مخلوقا يأكل ويشرب ويحدث وينكح؟ فسألهم النبى. فقالوا: نعم. فقال لهم: فمن أبوه؟ فبهتوا. فأنزل الله: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب... الآية). وقوله تعالى: (فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين) [۲۳] فقال رسول الله: فباهلونى فإن كنت صادقا أنزلت اللعنة عليهم. وإن كنت كاذبا أنزلت على. فقالوا: أنصفت

[صفحه ۱۰۱]

فتواعدوا للمباهلة. فهذا الحدث. لم يكن ليتم فى الخفاء، ولأن هذا الاجتماع سيترتب عليه نتيجة حاسمة. فلا بد أن يشهده كل من سمع بموعده سواء أكان من المكذبين أو من المؤمنين أو غيرهم. وبين هؤلاء يوجد الحبشى والفارسى والرومى والنجرانى إلى غير ذلك من الأجناس. باختصار كانت العالمية ممثلة بصورة أو بأخرى لمشاهدة هذا الحدث. ويروى أصحاب التفسير بالمأثور. إن رؤساء النصارى قالوا لبعضهم بعد أن اتفقوا على موعد المباهلة: إن باهلنا بقومه باهلناه. فإنه ليس نبيا. وإن باهلنا بأهل بيته خاصة لم نباهله. فإنه لا يقدم إلى أهل بيته إلا وهو صادق. فمن هم الذين جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ روى الإمام مسلم فى صحيحه عن سعد بن أبى وقاص قال: لما نزلت هذه الآية (فقل تعالوا ندع أبناء وأبناءكم) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا. فقال ": اللهم هؤلاء أهلى [" ۲۴] .

فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم ومعه أهل بيته. قال النصارى: من هؤلاء؟ فقيل لهم: هذا ابن عمه. وهذه ابنته فاطمة وهذان ابناه الحسن والحسين. ففرقوا. فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: نعطيك الرضا. فاعفنا من المباهلة فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية وانصرفوا. قال صاحب تحفة الأحوذى: دعا عليا فنزله منزلة نفسه. وفاطمة لأنها أخص النساء. وحسنا وحسينا فمنزلتهما بمنزلة ابنيه صلى الله عليه وسلم [۲۵] ، وسئل يحيى ابن معمر. هل كان الحسين من ذرية النبى صلى الله عليه وسلم. وإذا كانت الإجابة. نعم. فكيف والنبى لم يعقب. وإنما العقب

[صفحه ۱۰۲]

للذكر لا للأنثى. والحسين ولد البنت: قال: قال تعالى: (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس) فأخبر عز وجل أن عيسى من ذرية آدم بأمه. والحسن بن على من ذرية محمد بأمه [۲۶] .

إن حديث المباهلة روى من أحد وخمسين طريقا. وأثبتها أرباب الجوامع فی جوامعهم. وأثبتها المفسرون فی تفاسيرهم من غير اعتراض أو ارتياب. كالطبری وابن كثير والسيوطی وغيرهم، وروى القصة أبو نعيم فی الحلية والبيهقی فی الدلائل وابن إسحاق وابن هشام فی السيرة. وغيرهم. وعلی هذا نقول بأن مفهوم من هم أهل البيت قد غرس غرسا فی ذاكرة العديد علی زمن النبی صلی الله عليه وآله. وعلم الجميع أن قوله تعالی: (أبناءنا) تعنی الحسن والحسين. وإن قوله تعالی: (وأنفسنا) تعنی كما فی حديث جابر ": رسول الله صلی الله عليه وسلم وعلی بن أبی طالب [" ۲۷] ، وإن قوله تعالی: (ونساءنا " يعنی. فاطمة.

[۱] كنز العمال ۴۴۵:۴.

[۲] سنن أبو داوود.

[۳] روى الترمذی حديثه (الجامع ۳۵۱:۵).

[۴] روى ابن عساكر حديثها (كنز العمال ۶۴۳:۱۳).

[۵] رواه الترمذی (الجامع ۳۵۱:۵) وأحمد (الفتح الربانی ۲۳۷:۱۸) وأبی يعلی والطبرانی بإسنادين. وذكره ابن تيمية فی منهاج السنة (منهاج ۲۵۰:۳) وذكره أيضا فی الفتاوی الكبری ۲۳۰:۱، ورواه ابن عبد البر فی الإستيعاب ۲۷:۱.

[۶] تفسير ابن كثير ۴۸۴:۳.

[۷] الفتح الربانی ۳۳۸:۱۸.

[۸] رواه الإمام أحمد، وقال فی الفتح الربانی قال الهنثی، رواه أحمد وأبو يعلی (الفتح ۱۰۳:۲۲).

[۹] رواه الحاكم وقال حديث صحيح الإسناد (المستدرک ۱۴۸:۳).

[۱۰] أخرجه الإمام أحمد وقال فی الفتح الربانی: أورده ابن كثير وعزاه للإمام أحمد وأورده الطيالسی فی مسنده (الفتح ۱۰۳:۲۲)، ورواه الترمذی الجامع الصحيح ۳۵۲:۵) وقال فی تحفة الأحوازی: أخرجه أحمد وابن أبی شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانی والحاكم وصححه ابن مردويه (تحفة الأحوازی ۶۸:۹) ورواه الحكم وصححه (المستدرک ۱۵۸:۳) ورواه صاحب الغابة (أسد الغابة ۲۲۳:۷).

[۱۱] الفتح الربانی ۲۳۸:۱۸.

[۱۲] تحفة الأحوازی ۶۷:۹.

[۱۳] أسد الغابة ۲۱:۲.

[۱۴] ابن الأثير ۲۰۴:۳، تفسير ابن كثير ۴۸۶:۳.

[۱۵] تفسير ابن كثير ۴۸۶:۳.

[۱۶] الفتح الربانی ۲۳۸:۱۸.

[۱۷] رواه أحمد وأبو يعلی (الفتح الربانی ۱۰۳:۲۲).

[۱۸] قال الهيثمی رواه الطبرانی فی الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير عبيد بن الطفيل وهو ثقة (معجم الزوائد ۹:۱۶۹ -.

[۱۹] رواه ابن عساكر (كنز العمال ۶۴۳:۱۳).

[۲۰] رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد (المستدرک ۱۴۸:۳)، ورواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۱۰۳:۲۲).

[۲۱] سورة ص: الآية ۲۶.

[۲۲] سورة آل عمران: الآية ۹.

[۲۳] سورة آل عمران: الآية ۶۱.

[۲۴] صحيح مسلم ك، فضائل الصحابة ب، فضل علی، وأصل المباهلة فی صحيح البخاری ۸۰:۳. ورواه الترمذی عن سعد بن أبی

وقاص، وقال حديث حسن ورواه الحاكم وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخان (المستدرک ۳:۱۵۰).

[۲۵] تحفة الأحوذى ۸:۳۵۰.

[۲۶] الحاكم (المستدرک ۳:۱۶۲).

[۲۷] تفسير ابن كثير ۱:۳۷۱.

القرآن والمطهرون والحوض

وبعد تحديد من هم أهل البيت. ربط النبى بينهم وبين القرآن الكريم برباط وثيق. وهذا الرباط غرس غرسا فى ذاكرة العديد فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم. روى الإمام مسلم عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة. فحمد الله وأثنى عليه. ووعظ وذكر ثم قال أما بعد: ألا- أيها الناس. فإنما إنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب. وأنا تارک فيكم ثقلين أولهما كتاب الله. فيه الهدى والنور. فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى

[صفحه ۱۰۳]

أهل بيتى [۱] .

قال النووى: سمى ثقلين لعظمهما وكبير شأنهما. وقيل لثقل العمل بهما [۲] وهذا الحديث تحدث به النبى صلى الله عليه وسلم بعد حجة

الوداع. عند غدير خم. مما يفيد بأن جمع كبير من صحابة النبى قد سمعوه. وسنبين ذلک فى حينه. وروى أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر بأن أهل بيته والقرآن لن يفترقا حتى يردا على حوضه يوم القيامة وهذا يفيد بأن أهل بيته على الصراط المستقيم. يسيرون بالطهر إلى غاية عظمى. فمن أراد الوصول فعليه بالسبيل الذى لا يقيضه شيطان. لأنه سبيل القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وسبيل أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. فلا- يستطيع الشيطان أن يأتيهم من بين أيديهم أو من خلفهم. وهو الذى أخذ على عاتقه أن يأتى الناس من بين أيديهم ومن خلفهم. إلا- من عصم الله. وأحاديث أهل البيت والقرآن والحوض. رواها أصحاب السنن وأثبتها المفسرون فى تفاسيرهم. فعن أبى سعيد الخدرى. قال: قال صلى الله عليه وسلم: إنى تارک فيكم الثقلين. أحدهما أكبر من الآخر. كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتى أهل بيتى وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض [۳] ، وفى رواية عن زيد بن ثابت قال

[صفحه ۱۰۴]

صلى الله عليه وسلم ": إنى تارک فيكم خليفتين. كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتى أهل بيتى وإنهما لا يتفرقان حتى يردوا على الحوض [۴] .

وهكذا حبل من السماء إلى الأرض. سبيل واحد. له مقدمة ونتيجة. وفى رواية عن حبيب بن أبى ثابت وزيد بن أرقم معا قالا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى تارک فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدى. أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض. وعترتى أهل بيتى ولن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفونى فيهما [۵] .

لقد أعلن الرسول هذا على الملأ فى حجة الوداع وفى غدير خم وفى أكثر من موطن. إنه تارک فى أمته من بعده. ثقلين أو خليفتين. من يتمسک بهما لن يضل ومن سار معهما وصل إلى الحوض سالما ولن يكون مع الذين سيقال فيهم إنهم ارتدوا على أعقابهم فيقول الرسول: سحقا سحقا. كما ورد فى صحيح البخارى ومسلم. وفى تفسير الحديث قال صاحب تحفة الأحوازى: (كتاب الله حبل ممدود)

أی هو حبل ممدود من السماء إلی الأرض. یوصل العبد إلی ربه ویتوسل به إلی قربه. (وعترتی أهل بیتی) بیان لعترته. فقوله: إنی تارک فیکم. إشارة إلی أنهما بمنزلة التوأمین الخلیفتین عن رسول الله صلی الله علیه وسلم. وأنه یوصی الأمة بحسن المخالفة معهما. وإیثار حقهما علی أنفسهم، کما یوصی الأب المشفق الناس فی حق أولاده. (ولن یفترقا) أی الکتاب والعترة فی مواقف القیامة (حتی یردا علی الحوض) یعنی فیشکرانکم صنیعکم عندی (فانظروا کیف تخلفوننی) أی کیف تکونون بعدی خلفاء. أی، عاملین متمسکین بهما. ولعل السر فی هذه التوصیة. واقتران العترة بالقرآن. إن إیجاب محبتهم لائح فی معنی قوله تعالی: (قل لا أسألکم علیه أجرا إلا المودة فی القربی) فإنه تعالی جعل شکر أنعامه

[صفحه ۱۰۵]

وإحسانه بالقرآن منوطا بمحبتهم علی سبیل الحصر، فکأنه صلی الله علیه وسلم یوصی الأمة بقیام الشکر... فمن أقام بالوصیة وشکر تلک الصنیعة بحسن الخلافة فیهما. فلن یفارقهما یوم القیامة... ومن أضاع الوصیة وکفر النعمة فحکمة علی العکس. فقوله ": فانظروا کیف تخلفونی فیهما " النظر بمعنی التأمل والتفکر. أی تأملوا واستعملوا الرویة فی استخلافی إیاکم. هل تکونون خلف صدق أو خلف سوء [" ۶] ، وقال صاحب الفتح الربانی فی شرح الحدیث: إن إئتمرتم بأوامر کتابه وانتهیتم بنواهیه واهتدیتم بهدی عترته واقتدیتم بسیرته. اهتدیتم فلم تضلوا [۷] ، وقال الزرقانی فی شرح المواهب فی شرح الحدیث: أما الکتاب. فلأنه معد من العلوم الدینیة والأسرار والحکم الشرعیة. وکنوز الحقائق وخفایا الدقائق. وأما العترة. فلأن العنصر إذا طاب. أعان علی فهم الدین. فطیب العنصر یؤدی إلی حسن الأخلاق ومحاسنها یؤدی إلی صفاء القلب ونزاهته وطهارته. لهذا أکد رسول الله صلی الله علیه وسلم فی عدة مواطن علی لزوم اتباع أهل بیته. وإنهم أولی الناس برعایة شؤون الأمة. ولهذا جعل مثلهم کمثل سفینة نوح من رکبها نجا ومن تخلف عنها غرق [۸] ، وقال صاحب التاج الجامع للأصول فی شرح الحدیث: یقول النبی صلی الله علیه وسلم أحسنوا خلافتی فیهما باحترامهما والعمل بکتاب الله. وما یراه أهل العلم من آل البیت أکثر من غیرهم [۹] .

إن مقدمة هذا کله الاعلان الهام " یا أیها الناس إنی قد ترکت فیکم ما أن أخذتم به فلن تضلوا بعدی. کتاب الله وعترتی [" ۱۰] وفی معنی العترة، قال فی

[صفحه ۱۰۶]

لسان العرب: عترة الرجل أخص أقاربه. قال ابن الأعرابی: العترة ولد الرجل وذریته وعقبه من صلبه. وعترة النبی صلی الله علیه وسلم ولد فاطمة البتول علیها السلام [۱۱] ، وقال فی مختار الصحاح: العترة ولد الرجل وذریته وعقبه من صلبه ولا یعرف العرف من العترة غیر هذا، وقال فی الفتح الربانی: عترة النبی هم أصحاب الکساء الذین أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهیرا [۱۲] وما ذکره أصحاب اللغة. ذکرناه فیما سبق من أن عیسی من ذریة آدم بأمه. وأولاد فاطمة من ذریة محمد بأمهم. وعلاوة علی أنهم رضی الله عنهم عترة النبی فإنه أیضا ولیهم وعصبتهم، فعن فاطمة رضی الله عنها قالت: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": کل بنی آدم ینتمون إلی عصبة إلا ولد فاطمة فأنا ولیهم وأنا عصبتهم [" ۱۳] ، وعن جابر رضی الله عنه قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم إن لکل بنی أب عصبة ینتمون إلیها إلا ولد فاطمة. فأنا ولیهم وأنا عصبتهم وهم عترتی خلقوا من طینتی. ویل للمکذبین بفضلهم من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله [۱۴] .

[۱] صحیح مسلم ک، فضائل الصحابة ۱۵:۱۷۹، وفی روایة: قلنا: من أهل بیته نساؤه؟ قال: لا وأیم الله إن المرأة تکون مع الرجل العصر من الدهر ثم یطلقها فترجع إلی أبیها وقومها. أهل بیته أصله وعصبته الذین حرموا الصدقة بعده، صحیح مسلم ۱۵:۱۸۱. وقال النووی فی روایة لمسلم ": نساؤه من أهل المدینة " أی الذین یساکنونه ویعلو لهم والمعروف فی معظم الروایات فی غیر مسلم أنه قال: نساؤه لسن من أهل بیته (النووی شرح مسلم ۱۵:۱۸۱).۴.

[۲] النووی شرح مسلم ۱۵:۱۷۹ ک فضائل الصحابة ب فضائل علی.

[۳] رواه الإمام أحمد والترمذی وقال حدیث حسن. والطبرانی وقال المناوی رجاله موثقون (الفتح الربانی ۱۸۶:۱) ورواه ابن أبی عاصم (۶۴۴:۲ کتاب السنة) ورواه ابن أبی شیبة وابن سعد وأبو یعلی. وفیه: وإن اللطیف الخبیر أخبرنی أنهم لن یفترقا حتی یردا علی الحوض فانظروا کیف تخلفونی فیهما (کنز العمال ۱۸۶:۱).

[۴] رواه الإمام أحمد وقال الهیثمی إسناده جید (مجمع الزوائد ۱۹۳:۹) (الفتح الربانی ۱۰۵:۲۲) ورواه الطبرانی وسعید بن منصور (کنز العمال ۱۸۶:۱۰).

[۵] رواه الترمذی وقال حدیث حسن (الجامع الصحیح ۶۶۳:۵) وقال فی تحفة الأحوذی، رواه مسلم من وجه آخر (التحفة ۱۰:۲۹۰).

[۶] تحفة الأحوازی فی شرح جامع الترمذی (۱۰:۲۹۰).

[۷] الفتح الربانی فی ترتیب مسند أحمد (۱۰۴:۲۲).

[۸] شرح المواهب ۲:۸.

[۹] التاج الجامع للأصول ۴۸:۱.

[۱۰] رواه أحمد والطبرانی وسعید بن منصور وابن أبی عاصم عن زید بن ثابت (کنز العمال ۱۷۲:۱، ۱۸۶:۱۰) (کتاب السنة ۲:۳۵۱)، ورواه الترمذی والنسائی والحاکم عن زید بن أرقم (کنز العمال ۱۷۳:۱)، (البدایة والنهایة چ ۲۱:۵)، ورواه أحمد وأبو یعلی وابن أبی عاصم عن أبی سعید الخدری (الفتح الربانی ۱۱۵:۲۲)، و (کتاب السنة ۶۴۴:۲)، ورواه الترمذی والنسائی وابن أبی شیبة والخطیب عن جابر (کنز العمال ۱۷۲، ۱۸۷:۱) ورواه الطبرانی وأبو نعیم عن حذیفة ن أسید (کنز العمال ۴۳۵:۱۴).

[۱۱] لسان العرب ص ۲۷۹۶.

[۱۲] الفتح الربانی ۱۰۴:۲۲.

[۱۳] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱۱۶:۱۲).

[۱۴] رواه الحاکم وابن عساکر (کنز العمال ۹۸:۱۲).

من حقوق المطهرین

من الحقوق قوله تعالی: (قل لا أسألکم علیه أجرا إلا المودة فی القربی) [۱] ، لقد ذهبوا فی هذه الآیة کل مذهب. فقال البعض. إن الخطاب لقریش. والأجر المسؤول هو مودتهم للنبی لقرابته منهم، وذلک لأنهم کانوا

[صفحه ۱۰۷]

یکذبونه. فأمر الله تعالی رسوله. أن یسألهم. إن لم یؤمنوا به فلیودوه!! فکیف تعطی قریش الأجر وهم مکذبین له؟ إنهم لم یأخذوا من القرآن شیئا - فالنص (لا- أسألکم علیه) أی القرآن فإذا کانوا لم یأخذوا فیکف یعطوا؟ إن الأجر إنما یتم إذا قوبل به عمل یمتلکه معطی الأجر. فسؤال الأجر من قریش وهم کانوا مکذبین له کافرین بدعوته. إنما یصح علی تقدیر إیمانهم به. وقیل أیضا: المعنی. لا أسألکم علی دعائی أجرا إلا أن تودوا أقرباءکم. فکیف یکون هذا؟ ومودة الأقرباء علی إطلاقهم لیست مما یندب إلیه فی الإسلام. قال تعالی: (لا تجد قوما یؤمنون بالله والیوم الآخر یوادون من حاد الله ورسوله ولو کانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشیرتهم) [۲] ، وإن الذی یندب إلیه الإسلام هو الحب فی الله من غیر أن تکون للقرابة خصوصیة فی ذلک. نعم هناک اهتمام شدید بأمر القرابة والرحم. لکنه بعنوان صلة الرحم وإیتاء المال علی حبه ذوی القربی. لا بعنوان مودة القربی، فلا حب إلا لله عز وجل. وروی أن المراد بالمودة فی القربی. مودة قرابة النبی صلی الله علیه وسلم. وهم عترته. فعن ابن عباس رضی الله عنهما. فی قوله (لا أسألکم علیه أجرا) قال. قالوا: یا رسول الله. من هؤلاء الذین أمر الله بمودتهم؟ قال ": علی وفاطمة وابناهما [" ۳] ، وروی ابن جریر عن أبی الدیلم قال:

لما جئ بعلى بن الحسين رضى الله عنه أسيرا فأقيم على درج دمشق. قام رجل من أهل الشام. فقال: الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة، فقال له على بن الحسن رضى الله عنهما ": أقرأت القرآن، "؟ قال: نعم، قال ": أقرأت آل حم "؟ قال: قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم. قال: ما قرأت: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) قال: وإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم. وروى الإمام أحمد

[صفحه ۱۰۸]

عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ": لا أسألكم على ما أتيتكم من البينات والهدى أجرا إلا أن توادوا الله تعالى وأن تقربوا إليه بطاعته [۴] وقال ابن كثير: كأنه يقول. إن تعملوا بالطاعة التى تقربكم عند الله زلفى. وفى رواية لسعيد بن جبير معناه: إن تودونى فى قرابتى أى تحسنوا إليهم وتبروهم [۵] .

وقال البعض. إن آية: (إلا المودة فى القربى) منسوخة!!؟ ورد الحسن بن الفضل على الذين قالوا بذلك. فقال: القول بنسخ هذه الآية غير مرضى. لأن مودة النبى وكف الأذى عنه. ومودة أقاربه من فرائض الدين. وهو قول السلف. فلا يجوز القول بنسخ هذه الآية [۶] .

وحث النبى صلى الله عليه وسلم أمته وساقها نحو الصراط المستقيم فى أكثر من موضع. فعن ابن عباس. قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: أحبوا الله لما يغذيكم (أى يرزقكم به) من نعمه. وأحبونى بحب الله. وأحبوا أهل بيتى لحبى [" ۷] ، وقال ": النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان لأمتى [" ۸] ، وقال ": مثل أهل بيتى مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق [" ۹] .

وبعد أن فرض مودتهم ومحبتهم وبين أنهم أمان للأمة من الظلام ومن الغرق. أمر بالصلاة عليهم. ليستقيم البدء مع الختام. فقد أمر الله تعالى بالصلاة على

[صفحه ۱۰۹]

رسوله فى قوله: (إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما - إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا) [۱۰] .

فصلاته تعالى. انعطافا عليه بالرحمة انعطافا مطلقا. لم يقيد فى الآية بشئ دون شئ. وكذلك صلاة الملائكة عليه انعطافا عليه بالتزكية والاستغفار. وقد ذكر تعالى صلاته وصلاة ملائكته عليه. قبل أن يقول: (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) دلالة على أن فى صلاة المؤمنين له. اتباعا لله سبحانه وملائكته. وقد استفاضت الروايات أن طريق صلاة المؤمنين. أن يسألوا الله تعالى أن يصلى عليه وآله. كما سيأتى. وقوله تعالى: (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا)، من المعلوم أن الله تعالى منزه من أن يناله الأذى وكل ما فيه وصمة النقص والهوان. فذكره مع الرسول وتشريكه فى إيذائه. تشريف للرسول. وإشارة إلى أن من قصد رسوله بسوء. فقد قصده أيضا بالسوء. فقد أوعدهم باللعن فى الدنيا والآخرة. واللعن هو الإبعاد من الرحمة. والرحمة الخاصة بالمؤمنين هى الهداية إلى الاعتقاد الحق وحقيقة الإيمان. ويتبعه العمل الصالح. فالإبعاد من الرحمة فى الدنيا. تحريمه عليه جزاء لعمله فيرجع إلى طبع القلوب كما فى قوله تعالى: (ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) [۱۱] ، وقوله: (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) [۱۲] ، وأما اللعن فى الآخرة فهو الإبعاد من رحمة القرب. وقد قال تعالى: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) [۱۳] ثم أوعدهم بأنه أعد لهم -

أى فى الآخرة - عذابا مهينا ووصف العذاب بالمهين. لأنهم يقصدون باستكبارهم فى الدنيا إهانة الله ورسوله. فقوبلوا فى الآخرة بعذاب يهينهم [۱۴] .

[صفحه ۱۱۰]

إن طريق الصلاة على النبى وآله. غير طريق إيذاء الله ورسوله وآله. وقد أورد السيوطى فى الدر المنثور ما يقرب من عشرين حديثا تدل على تشريك آل النبى معه فى الصلاة. وروى مسلم عن بشير بن سعد. قال: أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله. فكيف نصلى عليك؟. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال صلى الله عليه وسلم ": قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما

صليت على آل إبراهيم. وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد [۱۵] ولما كان النبى صلى الله عليه

وسلم قد حدد من هم أهل البيت. فإن البخارى روى حديثا يأمر فيه النبى بالصلاة على أهل البيت. كى لا يظن الناس أن الآل والأهل كل منهم فى طريق. وإنما هم واحد. فعن أبى ليلى قال: لقينى كعب بن عجرة. فقال: ألا أهدى لك هدية سمعتها من النبى صلى الله عليه وآله. قال: قلت بلى فإهدها لى. فقال: سألنا رسول الله. فقلنا يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت. فإن الله قد علمنا كيف نسلم. قال ": قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد [۱۶] .

وروى الحاكم هذا الحديث. قال: وقد روى هذا الحديث بإسناده وألفاظه حرفا بعد حرف الإمام محمد بن إسماعيل البخارى عن موسى بن إسماعيل فى الجامع الصحيح. وإنما أخرجته ليعلم المستفيد أن أهل البيت والآل جميعا هم [۱۷] وروى الديلمى عن واثلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع فاطمة وعليا والحسن والحسين تحت ثوبه وقال ": اللهم قد جعلت صلواتك ورحمتك ومغفرتك ورضوانك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، اللهم إن هؤلاء

[صفحه ۱۱۱]

منى وأنا منهم فاجعل صلواتك ورحمتك ومغفرتك ورضوانك على وعليهم [۱۸] ، وروى ابن عساكر وأبو يعلى عن أم سلمة. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة: اتينى بزوجك وابنيك. فجاءت بهم. ثم رفع يده فقال: اللهم إن هؤلاء آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد [۱۹] .

وقال فى فتح البارى: قال أحد الهاشميين - من غير أهل البيت - للنبى صلى الله عليه وسلم: اتقصدنى وأنت تصلى على فى كل صلاة فى قولك اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد. فقال: إنى أريد الطيبين الطاهرين ولست منهم [۲۰] .

لقد استقام البدء مع الختام. والتقى عصر إبراهيم عليه السلام مع عصر محمد صلى الله عليه وسلم فى صلاة المؤمنين. وكما جرت يد إبراهيم على أولاده إسماعيل وإسحاق عليهم السلام وهو يدعو لهما كذلك جرت يد محمد صلى الله عليه وسلم على الحسن والحسين وهو يعوذهما بمعوذة إبراهيم. روى البخارى عن ابن عباس. قال: كان النبى صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين. ويقول: إن أباكما إبراهيم كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق ": أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة" [۲۱] ، إن المعوذة التى جرت على الشجرة الإسرائيلية من القديم هى نفسها التى جرت على الشجرة الإسماعيلية من قديم حتى استقرت فى الرسالة عن الحسن والحسين. ويمكن على هذا الضوء أن نفهم معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم ": حسين منى وأنا من حسين. أحب الله من أحب حسينا. حسين سبط من

[صفحه ۱۱۲]

الأسباط [" ۲۲] .

قال فى تحفة الأحوذى ": أحب الله من أحب حسينا " لأن محبته محبة الرسول ومحبة الرسول محبة الله. وقوله ": حسين سبط من الأسباط " أى أمة من الأمم فى الخير والأسباط فى أولاد إسحاق بن إبراهيم بمنزلة القبائل فى ولد إسماعيل. وأحدهم سبط. فهو واقع على الأمة. والأمة واقعة عليه [۲۳] وإذا كنا قد فهمنا مغزى المعوذة، ومغزى السبط. فإننا يمكن أن نفهم أيضا معنى الخلفاء فيما رواه أبو هريرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه: إن بنى إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء. كلما هلك نبى خلف نبى. وإنه لا نبى بعدى. إنه سيكون خلفاء. فتكثر. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول. واعطوهم حقهم الذى جعل الله لهم. فإن الله سائلهم عما استرعاهم [۲۴] إن قوله ": أعطوهم حقهم الذى جعل الله لهم " فيه إن الله جعل الخلفاء الحق حقا. وإن هذا الحق عنوان على امتداد الصراط المستقيم. ولا يجوز أن يسقط هذا الحق على خلفاء الجور والملك العضوض. لأن هؤلاء ليس لهم عند الله حقا، فالحق يكون للأنبياء

والرسل. ولأولى الناس بالأنبياء والرسل. وأولى الناس بهم. أعلمهم بما جاءوا به. وبعد هؤلاء للمؤمنين الذين اتبعوا الخط الرسالى للأنبياء والرسل. ثم لمن صالحوا أو عاهدوا إلى غير ذلك، فعلى هذا الطريق تكون الحقوق. أما على غيره فترتع الأهواء وتعوى الذئاب ويسير اللصوص بالليل والنهار فيزينون ويغوون ويحتنكون بنى الإنسان من أجل سرقة حقوقهم التى جعلها الله لهم كى يعيشوا الحياة السعيدة. وبعد أن أعلن التطهير، وبعد أن أعلن أن المطهرين مع القرآن الطاهر على

[صفحه ۱۱۳]

صراط واحد حتى يردا على الحوض. وبعد أن حث الأمة على مودتهم وفيه دليل على أن عبادتهم حتى قيام الساعة هى عبادة الحق لأن الله لم يفرض مودتهم إلا وقد علم أنهم لا يرتدون عن الدين أبدا ولا يرجعون إلى ضلال أبدا. وبعد أن أمر تعالى بالصلاة عليهم. لتستقيم الصلاة عليهم مع المودة على طريق واحد وبالصلاة والمودة تغرس فى النفوس تعظيم شأنهم. بعد كل هذا طهرهم الله من الصدقة وفرض لهم فى الأموال فرضا. لتكون دائرة الطهر بذلك دائرة كاملة ناصعة فى بياضها قوية فى محبتها. قال النبى صلى الله عليه وسلم ": إن الصدقة لا- تنبغى لآل محمد إنما هى أوساخ الناس [" ۲۵] وعن أبى هريرة قال: أخذ الحسين بن على من تمر الصدقة فجعلها فى فيه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": كخ كخ إرم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة " رواه مسلم [۲۶] ، وقال النووى: معنى أوساخ الناس إنها تطهير لأموالهم ونفوسهم. كما قال تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فهى كغسالة الأوساخ [۲۷] .

لقد حرم الله تعالى الصدقة على النبى وآله " إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة " رواه مسلم [۲۸] وعوضه سبحانه سهما من الخمس عوضا بما حرم

عليه. وضرب لآله معه سهما عوضا مما حرم عليهم. قال تعالى فى صدر سورة الأنفال: (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) [۲۹] .

والأنفال جمع نفل. وهو الزيادة على الشئ. ولذا يطلق النفل على التطوع

[صفحه ۱۱۴]

لزيادته على الفريضة. وتطلق على ما يسمى فيئا وهى الأشياء من الأموال التى لا مالك لها من الناس. كرؤوس الجبال وبطون الأودية والديار الخربة والقرى التى باد أهلها. وتركة من لا وارث له. وغير ذلك كأنها زيادة على ما ملكه الناس فلم يملكها أحد. وهى لله ولرسوله. وتطلق على غنائم الحرب. كأنها زيادة على ما قصد منها. فإن المقصود بالحرب والغزو. الظفر على الأعداء. فإذا غلبوا وظفر بهم فقد حصل المطلوب والأموال التى غنمها المقاتلون زيادة على أصل الغرض. فقوله: (يسألونك عن الأنفال) يفيد أنهم سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن حكم غنائم الحرب. بعدما زعموا أنهم يملكون الغنيمة واختلفوا فيمن يملكها أو فى كيفية ملكها وقسمتها بينهم أو فيهما معا. وتخاصموا فى ذلك. وقوله: (قل الأنفال لله والرسول) جواب على مسألتهم. وفيه بيان أنهم لا يملكونها وإنما هى أنفال يملكها الله ورسوله فتوضع حيثما أراد الله ورسوله. وذكروا فى تفسير الآية: أى يسألك أصحابك يا محمد عن هذه الغنائم التى غنمتها. وما حكمها وكيف تقسم فقل لهم. هى لله وللرسول يحكم فيها الله عز وجل بحكمه. ويقسمها الرسول صلى الله عليه وسلم على حسب تشريع الله عز وجل. فاتقوا الله ولا تختلفوا ولا تنازعوا فى شأنها لأن ذلك يوجب سخط الله وغضبه عليكم [۳۰] وبعد أن حدد الشرع الحنيف حكم الأنفال. قال تعالى: (واعلموا إنما غنمتم من شئ فإن الله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله...) [۳۱] .

والغنم والغنيمة: إصابة الفائدة من جهة تجارة أو عمل أو حرب. وفى الآية ينطبق على غنيمة الحرب. وذو القربى، قرابة النبى أو خصوص أشخاص منهم على ما تفسره الآثار القطعية. ومعنى الآية والله أعلم: واعلموا أن خمس ما غنمتم أى شئ كان. هو لله ولرسوله ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن

[صفحه ۱۱۵]

السبيل. فردوه إلى أهله إن كنتم آمنتم بالله وما أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدر. وهو أن الأنفال وغنائم الحرب لله ولرسوله. لا يشارك الله ورسوله فيها أحد. وقد أجاز الله لكم أن تأكلوا منها وأباح لكم التصرف فيها. فالذى أباح لكم التصرف فيها. ويأمركم أن تؤدوا خمسها إلى أهله. والنبى صلى الله عليه وسلم كان يأمر من يأتيه مسلما أن يؤدى خمس ما غنم. فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس ": آمركم أن تؤدوا خمس ما غنمتم [" ۳۲] ، وروى الشيخان عن ابن عباس: أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لوفد عبد القيس لما أمرهم بالإيمان بالله وحده. أتدرون ما الإيمان بالله وحده. قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس، " ومعنى هذا أن الخمس حق شرعى لأربابه المذكورين فى الآية يجب صرفه إليهم. وقد أجمع أهل القبلة كافة. على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يختص بسهم من الخمس ويخص أقاربه بسهم آخر منه. وإنه لم يعهد بتغيير ذلك إلى أحد حتى دعاه الله إليه. واختاره إلى الرفيق الأعلى [۳۳] .

وسهم ذى القربى كان رباطا وثيقا لهم على امتداد الصراط المستقيم. فالله تعالى كما حصنهم الطهر. جعل سهمهم امتدادا لحصن الطهر. فالمال على مختلف العصور فتنة سقط فيها الأحبار والرهبان من قبل. وعندما سقطوا فسدت قيادتهم. قال تعالى: (إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس

[صفحه ۱۱۶]

بالباطل [" ۳۴] قال المفسرون: إن أهم ما يقوم به المجتمع الإنسانى على أساسه. هو

الجهة المالية التى جعل الله لهم قياما. فجميع المآثم والمساوئ والجنايات والتعديات والمظالم تنتهى بالتحليل إما إلى فقر مفرط يدعو إلى اختلاس أموال الناس بالسرقة وقطع الطرق وقتل النفوس والبخس فى الكيل والوزن والغصب وسائر التعديات المالية. وإما إلى غنى مفرط يدعو إلى الإتراف والإسراف فى المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك وينتهى إلى الاسترسال فى الشهوات وهتك الحرمات وبسط التسلط على أموال الناس وأعراضهم ونفوسهم. وتنتهى جميع هذه المفاسد التى ذكرناها. بالتحليل إلى ما يعرض من الاختلال على النظام الحاكم فى حيازة الأموال واقتناء الثروة والأحكام المشرعة لتعديل الجهات المملكة المميزة لأخذ المال بالحق من أكله بالباطل فإذا اختل ذلك، وأذعنت النفوس بإمكان القبض على ما تحتها من المال. فشى الفساد وشاع الانحطاط الأخلاقى فى المجتمع وانقلب المحيط الإنسانى إلى محيط حيوانى لا هم له إلا بطنه وما دونها. ولا يملك فيه إرادة أحد بسياسة أو تربية. ولا تفقه فيه محكمة ولا إصغاء إلى موعظة. والأحبار والرهبان الذين تعود إليهم تربية الأمة وإصلاح المجتمع. كان أكثرهم يأكل أموال الناس بالباطل. لتظاهرهم بالزهد والتنسك. وعلى ظلام الباطن وزخرف الظاهر توغلوا فى سبيل الباطل ومنعوا الناس عن سبيل الله. وسدوا الطريق على الحكومة الدينية العادلة التى غرضها إصلاح الناس. وتكوين مجتمع حى فعال يليق بالإنسان الفطرى المتوجه إلى سعادته الفطرية. ولسد الطريق أمام هذه العقبة التى نفذ منها الشيطان. فرض الله تعالى لرسوله وأهل بيته المال الحق الطاهر، ليواجه خط المال الباطل الدنس للذين يصدون عن سبيل الله، ودائرة القربى الخاصة بسهم ذى القربى. دائرة واسعة بعض الشئ. فهى تشمل القيادة ومن حولها من بنى هاشم ومن بنى المطلب الذين كانوا

[صفحه ۱۱۷]

ينصرون منهج الفطرة كتفا بكتف مع بنى هاشم. وهذه الدائرة التى تحدد الخط الأول فيها ثم الخط الثانى لم يقم بتعيين من فيها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد رفض النبى أن يدخل فيها عثمان بن عفان أو غيره ممن لا ينطبق على شروطها. روى الإمام البخارى عن جبير بن مطعم قال: مشيت أنا وعثمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلنا يا رسول الله. أعطيت بنى المطلب وتركتنا ونحن وهم منك بمنزلة واحدة. فقال: إنما بنو المطلب وبنو هاشم واحد [۳۵] ، وروى أبو داود عن جبير بن مطعم قال: لما كان يوم

خبیر وضع رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم سهم القربی فی بنی هاشم وبنی المطلب. وترک بنی نوفل وبنی عبد شمس. فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتی أتینا النبی صلی الله علیه وسلم. فقلنا: یا رسول الله. هؤلاء بنو هاشم لا ننکر فضلهم للموضع الذی وضعک الله به منهم. فما بال إخواننا بنی المطلب أعطیتهم وترکتنا وقرابتنا واحدة. فقال صلی الله علیه وسلم: إنا وبنو المطلب لا نفترق فی جاهلیة ولا إسلام وإنا نحن وهم شئ واحد وشبک بین أصابعه [۳۶] قال ابن قدامة فی المغنی: شارک بنی

المطلب بنی هاشم بالنصرة [۳۷] .

إنه حکم الله وکان النبی صلی الله علیه وسلم یقول ": إنما أنا قاسم وخازن الله یعطی [" ۳۸] ، وکان یقول ": ما أعطیکم ولا أمنعکم. أنا قاسم أضع حیث أمرت [" ۳۹] ، ولأن الطریق طریق حق یواجهه طریق باطل. ولأن هناک من یعمل لمنع الناس عن سبیل الله ویأکل أموالهم بالباطل. حذر النبی صلی الله علیه وسلم من عثرات الطریق وقال ": إن رجالا یتخوضون فی مال الله بغیر حق فلهم النار یوم القیامة [" ۴۰] .

[صفحه ۱۱۸]

إن الدعوة التی یستمد رجالها المال من الناس لا تدوم. وإنما تدوم الدعوة التی یعطیها الله ویقسم لها رسول الله. والدعوة التی تستمد وقودها من الناس الذین تعصف بهم الأهواء کثیرا ما یحتنک الشیطان قیادتها. أما الدعوة التی یفرض فیها الله علی أتباعها فروضا یترتب علیها إما ثواب وإما عقاب. هی دعوة یصل من أخذ بحبلها وسار علی صراطها إلی حوض الذی قسم ما أمر الله به صلی الله علیه وسلم، لهذا لم یکن المال فی الإسلام وجاهه وإنما هو من أجل رسالة. لم یکن المال فی الإسلام وقودا یوضع فی بیت المال. لینال منه هذا لیشعل النار علی ذاک ولم یکن زادا یتزود به کل راشی وکل مرتشی فی الحکم. إنما المال فی الإسلام سدا لطریق الفتن. لهذا وضع فی أیدی أمینة حرمت علیها الصدقة. لتفتح طریقا للفطرة فی عالم مملوء بالرجس والبخس.

[۱] سورة الشوری: الآیة ۲۳، السورة مکیة والآیة مدینة.

[۲] سورة المجادلة: الآیة ۲۲.

[۳] رواه الطبرانی وقال الهیثمی فی موضع رواه الطبرانی وثقوا جمیعا وفی بعضهم ضعف (مجمع الزوائد ۱۰۳:۷) وقال فی موضع آخر رواه الطبرانی وفیه جماعة ضعفاء وقد وثقوا (الزوائد ۱۶۸:۹)، وأخرجه ابن المنذر وابن أبی حاتم وابن مردویه (تحفة الأحوازی ۱۲۷:۹) (الفتح الربانی ۲۷۵:۱۸).

[۴] تفسیر ابن کثیر ۱۱۲:۴، البغوی فی تفسیره ۳۶۴:۷.

[۵] تفسیر ابن کثیر ۱۱۲:۴.

[۶] تحفة الأحوازی ۱۲۷:۹.

[۷] رواه الترمذی وحسنه (الجامع الصحیح ۶۶۴:۵)، والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۵۰:۳.

[۸] رواه الطبرانی وأبو یعلی وابن عساکر وابن أبی شیبة ومسدد عن سلمة بن الأکوع (کنز العمال ۹۶، ۱۰۲:۱۲)، ورواه أبو یعلی والبزار والحاکم عن أبی ذر (الخصائص الکبری للسیوطی ۴۶۶:۲).

[۹] رواه البزار عن ابن عباس والزبیر (کنز العمال ۹۵:۱۲)، ورواه الحاکم وابن جریر والبزار والطبرانی عن أبی ذر، وهذا الطریق فیه من قالوا فیه – متروک. رواه.

[۱۰] سورة الأحزاب: الآیة ۵۶ – ۵۷.

[۱۱] سورة النساء: الآیة ۴۶.

[۱۲] سورة محمد: الآیة ۲۳.

[۱۳] سورة المطففین: الآیة ۱۵.

[۱۴] المیزان ۳۳۸:۱۶.

[۱۵] تفسیر ابن کثیر تفسیر سورة الأحزاب.

[۱۶] البخاری ک، بدء الخلق ب یزفون النسلان ۲۳۹:۲.

[۱۷] المستدرک (۱۴۸:۳).

[۱۸] رواه الدیلمی والطبرانی (کنز العمال ۶۰۳:۱۳، ۱۰۱:۱۲).

[۱۹] رواه أبو یعلی وابن عساکر (کنز ۱۴۵:۱۳).

[۲۰] فتح الباری:ابن حجر ۱۶۰:۱۱.

[۲۱] البخاری ک بدء الخلق (الصحیح ۲۳۹:۲)، ورواه الحاکم (المستدرک ۱۶۷:۳).

[۲۲] رواه الترمذی وقال حدیث حسن (الجامع ۶۵۸:۵) وقال فی تحفة الأحوازی أخرجه البخاری فی الأدب المفرد وابن ماجة والحاکم ورواه أحمد (التحفة ۲۸۰:۱۰)، (الفتح الربانی ۱۷۹:۲۳)، وقال ابن کثیر رواه أحمد والطبرانی والترمذی عن یعلی بن مرة (البدایة ۲۰۶:۸)، ورواه الحاکم وقال صحیح الإسناد (المستدرک ۱۷۷:۳).

[۲۳] تحفة الأحوازی ۲۸۰:۱۰.

[۲۴] رواه الإمام أحمد وإسناده صحیح وقال فی الفتح رواه الإمام مسلم (الفتح ۵۲:۲۳).

[۲۵] شرح النووی ۱۷۹:۷ مسلم باب تحریم الزکاة.

[۲۶] صحیح مسلم ۵، ۱:۷ باب تحریم الزکاة.

[۲۷] النووی شرح مسلم ۱۷۹:۷.

[۲۸] قال فی کشف الخفاء رواه أحمد وابن حبان وأبو داود والحاکم (کشف ۲۳۹:۱) ورواه مسلم بلفظ " إنا لا تحل لنا الصدقة،" (صحیح مسلم ۱۷۶:۷).

[۲۹] سورة الأنفال: الآیة ۱.

[۳۰] تفسیر آیات الأحکام:الصابونی ص ۵۸۹:۱.

[۳۱] سورة الأنفال: الآیة ۴۱.

[۳۲] رواه الترمذی وقال: حدیث حسن صحیح (الجامع ۱۵۳:۴).

[۳۳] الرسول وسهم ذی القربی فی تفسیر القرطبی ۸:۱۰، تفسیر الطبری ۱۰:۴، الکشاف للزمخشری ۲:۱۵۸، تفسیر المنار ۱۰:۱۵، الأموال أبی عبید ۳۲۵، أحکام القرآن للجصاص ۳:۶۰، فتح القدیر للشوکانی ۲:۲۹۵، سنن النسائی الفئ ۷:۱۲۰، ۱۲۲، شرح مسلم النووی باب حکم الفئ ۱۲:۸۲.

[۳۴] سورة التوبة: الآیة ۳۴.

[۳۵] صحیح البخاری (۱۹۶:۲) ک الجهاد والسیر.

[۳۶] أبو داوود حدیث رقم ۲۹۸۰.

[۳۷] المغنی ۶۵۷:۲.

[۳۸] رواه البخاری (الصحیح ۱۹۰:۲) ک الجهاد والسیر.

[۳۹] رواه البخاری (الصحیح ۱۹۲:۲) ک الجهاد والسیر.

[۴۰] رواه البخاری (الصحیح ۱۹۲:۲) ک الجهاد والسیر.

من مناقب أهل البیت

لما كان أهل البيت هم ذروة الأمة الخاتمة. فإن الله تعالى وضعهم فى
دائرة خاصة بهم. لهم فيها ما ليس لغيرهم ليكون فى ذلك لفتا لأنظار الأمة إليهم. ونحن سنقتبس من نورهم بعضا من مناقبهم التى يحتاجها هذا الموضع.

من مناقب على بن أبى طالب

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أول من صلى مع النبى بعد خديجة
على بن أبى طالب [۱] ، وعن زيد بن أرقم قال: أول من أسلم على [۲] ، وعن سلمان قال: أول هذه الأمة ورودا على نبيها. أولها إسلاما على بن أبى
[صفحه ۱۱۹]
طالب [۳] ، وعن على قال: كنت إذا سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانى وإذا سكت - أى عن السؤال ابتدأنى [۴] ، وعن عبد الله بن جعفر قال: قال صلى الله عليه وسلم ": على أصلى وجعفر فرعى [" ۵] ، وعن عمر بن عبد الله عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم. آخى بين الناس وترك عليا حتى بقى آخرهم لا يرى له أخا. فقال يا رسول الله: آخيت بين الناس وتركتنى. قال: ولم ترانى تركتك. تركتك لنفسى أنت أخى وأنا أخوك. فإن ذكرك أحد فقل أنا عبد الله وأخو رسوله لا يدعيها بعد إلا كذاب [۶] عن ابن عمر
قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى ": أنت أخى فى الدنيا والآخرة [۷] ، وقال ابن كثير فى هذا الحديث. كان المشايخ يعجبهم هذا الحديث لكونه من رواية أهل الشام [۸] .

[۱] رواه أحمد. وقال فى الفتح الربانى: أورده الطيالسى فى سنده والهيثمى عن على وقال رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير حية العرض وقد وثق (الفتح ۱۲۲:۲۳)، ورواه الترمذى وقال حديث غريب (تحفة الأحوازى ۲۳۹:۱۰).

[۲] رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح (الجامع ۶۴۲:۵) ورواه أحمد بسند صحيح (الفتح الربانى ۱۲۲:۲۳) ورواه الحاكم وأقره الذهبى (المستدرك ۱۳۶:۳).

[۳] رواه الطبرانى وقال الهيثمى رجاله ثقات (مجمع الزوائد ۱۰۲:۹)، ورواه ابن أبى شيبة (كنز العمال ۱۴۴:۳)، ورواه الحاكم والخطيب (كنز العمال ۶۱۶:۱۱).

[۴] رواه الترمذى وقال: حديث حسن غريب (الجامع ۶۳۷:۵) وقال فى تحفة الأحوازى رواه النسائى وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم ورواه أبو نعيم فى الحلية وسعيد بن منصور (تحفة الأحوازى ۲۲۵:۱۰) (كنز العمال ۱۲۰:۱۳).

[۵] رواه الطبرانى فى الكبير. ورواه الضياء بسند صحيح (كنز العمال ۶۰۲:۱۳).

[۶] أخرجه الإمام أحمد وأبو يعلى عن على (كنز العمال ۱۴۰:۱۳) (تحفة الأحوازى ۱۲۲:۱۰).

[۷] رواه الترمذى وقال حديث حسن غريب (الجامع ۶۳۶:۵).

[۸] البداية والنهاية ۳۳۶:۷.

من مناقب فاطمة

خطب أبو بكر وعمر فاطمة. فقال النبى صلى الله عليه وسلم " هى لك يا على [" ۱] ، وقال صلى الله عليه وسلم ": إن الله أمرنى أن أزوج فاطمة من على [" ۲] ، وروى الإمام مسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة: يا فاطمة أما ترضين أن

تکونی سیدة نساء المؤمنین. أو سیدة نساء هذه

[صفحه ۱۲۰]

الأمة [۳] ، وعن أنس قال. قال النبی صلی الله علیه وسلم: حسبک من نساء العالمین - مریم ابنة عمران وخدیجة بنت خویلد وفاطمة بنت محمد وآسیة امرأة فرعون [۴] ، وروی الإمام مسلم عن المسور بن مخرمة قال: قال رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم ": إنما فاطمة بضعة منی یؤذینی ما آذاها [" ۵] ، وروی البخاری ": فاطمة بضعة منی فمن أغضبها أغضبنی [" ۶] ، وروی الحاکم ": فاطمة شجنة منی یبسطنی ما یبسطها ویقبضنی ما یقبضها [" ۷] .

فإذا کان الذی یؤذی فاطمة یؤذی رسول الله. وإذا کان ما یغضبها یغضبه. وإذا کان ما یقبضها یقبضه. فعلی ذلک یمکن أن نفهم قول الله تعالی: (إن الذین یؤذون الله ورسوله لعنهم الله فی الدنیا والآخرة [" ۸] ، فمن المعلوم أن الله لا- یناله الأذی ولکنه شارک الرسول فی إیذائه تشریفا للرسول. وإشارة إلی أن من قصد رسول الله بسوء. فقد قصده أیضا بالسوء. لهذا قال لفاطمة ما قال. وقال لعلی بن أبی طالب ": إن الله یغضب لغضبک ویرضی لرضاک [" ۹] ، وقال ": یا علی من فارقنی فارق الله ومن فارقک یا علی فارقنی [" ۱۰] ، وقال ": من آذی علیا

[صفحه ۱۲۱]

فقد آذانی [" ۱۱] ، وقال للحسن والحسین ": من أحبهما فقد أحبنی ومن أبغضهما فقد أبغضنی [۱۲] .

إنه خط واحد، لا مجاملة فیه لأحد. فالذین یؤذون الرسول یؤذون الله. والرسول قام بتحدید دائرة. فمن تقدم إلیه بأذی. فإنه یکون فی حقیقة الأمر قد خالف الطریق کله. وحمل الفطرة علی ما لا یجب أن تحمله.

[۱] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۹:۲۰۴).

[۲] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۹:۲۰۴).

[۳] صحیح مسلم فی فضل فاطمة (۶:۱۶)، ورواه البخاری بلفظ " أما ترضین أن تکونی سیدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنین (الصحیح ۲:۲۸۴)، ورواه الحاکم بلفظ مسلم بزیادة " ألا ترضین أن تکونی سیدة نساء العالمین " وقال هذا إسناد صحیح ووافقه الذهبی (المستدرک ۳:۱۵۶).

[۴] رواه الترمذی وقال حدیث صحیح (الجامع ۵:۷۰۳) ورواه الحاکم وقال هذا الحدیث فی المسند لأبی عبد الله أحمد بن حنبل (المستدرک ۳:۱۵۷).

[۵] صحیح مسلم ۳:۱۶، باب فضل فاطمة.

[۶] صحیح البخاری ک بدء الخلق ب مناقب قرابة النبی ۲:۳۰۲.

[۷] الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۳:۱۵۴).

[۸] سورة الأحزاب: الآیة ۵۷.

[۹] رواه الطبرانی وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۹:۲۰۳).

[۱۰] رواه البزار (کشف الأستار ۳:۲۰۱) وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۳۵)، ورواه الحاکم وصححه (المستدرک ۳:۱۲۱).

[۱۱] رواه أحمد وقال الهیثمی رجال أحمد ثقات ورواه ابن حبان فی صحیحه (الزوائد ۹:۱۲۹).

[۱۲] رواه ابن ماجة وقال البوصیری فی الزوائد إسناده صحیح ورجاله ثقات (۳:۱۴۰۶) (کنز العمال ۱۲:۱۱۶) ورواه الحاکم وأقره الذهبی (۳:۱۶۶ المستدرک) وقال الهیثمی رواه أحمد والبزار (الزوائد ۹:۱۷۹).

من مناقب الحسن والحسین

عن ابن عمر قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم ": هما ريحانتاى من الدنيا [" ۱] ، وعن أسامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هـذان ابنـاى وابنا ابنتى. اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما [" ۲] ، وفى هـذا الحديث أطلق عليهما لفظ البنوة التى أطلقها القرآن فى قوله تعـالى: (تعـالوا نـدع أبناءنـا وأبنـاءكم)، وعن أبى سـعيد الخـدرى قال: قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ": الحسـن والحسين سيدا شباب أهل الجنة [" ۳] ، وعن حذيفة: قال النبى

[صفحه ۱۲۲]

صلى الله عليه ": جاءنى جبريل بشرنى أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة [" ۴] ، وبما أنهما فى الجنة فلا يمكن أن يكون من قتلهما فى الجنة أيضا. لأن الجنة لا يدخلها القاتل الذى ساعد وساهم فى تقييض الصـراط المستقيم. بدليل أن الشيطان الذى أخذ على عاتقه تقييض الصـراط المستقيم. لعنه الله وأخرجه من الجنة. سابعا - تحذيرات: بعد اكتمال الدائرة التى ستقف فى مواجهة دوائر الصد عن سبيل الله. وبعـد أن بين الله تعالى العترة الطاهرة الـذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وأن ذروة ذى القربى هم من حرم الله تعالى على محمد صـلى الله عليه وسـلم نكاحه. وبعد أن فرض مودتهم من البداية إلى النهاية. ولم يفرض الله مودتهم إلا لعلمه المطلق بأنهم لا يرتـدون عن الـدين أبـدا ولا يرجعون إلى ضـلال أبـدا. ومودتهم لا يأتى بها أحـد مؤمنا مخلصا إلا اسـتوجب الجنـة لقوله عز وجل: (الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات. قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) [۵] .

وبعد أن فرض سبحانه الصلاة على رسوله والحق رسوله آله به. وفى بعض الروايات أن قوله تعالى: (يس والقرآن الحكيم) [۶] ، روى أن يس اسم من أسماء النبى [۷] وروى فى قوله تعالى: (سلام على آل

[صفحه ۱۲۳]

يس) [۸] ، أن آل يس هم آل محمد صـلى الله عليه وآله وسـلم [۹] ، وقيـل: إن الله تعالى لم يقل سـلام على آل نوح ولم يقل سـلام على آل إبراهيم ولا قال سـلام على آل موسـى وهارون وقال ": سـلام على إل ياسـين " يعنى أل محمد لأنهم حراس العقيدة الخاتمة التى ترتبط بالقرآن وتلتقى معه عند حوض النبى يوم القيامة. وقيل أيضا إن الله تعالى ذكر الرجوع إليهم فيما خفى على الناس فى قوله تعالى: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) [۱۰] إن القول بأهل الذكر فى

هـذه الآيـة ليس اليهود والنصـارى كمـا يزعم البعض. لأن هـذا القول أن يـدعونا إلى دينهم للاحتكام إليه، وإن المعنى: إن الـذكر هو رسول الله صـلى الله عليه وآله وسلم وذلك مبين فى كتاب الله عز وجل. قال تعالى: (فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا - رسولاـ يتلوا عليكم آيـات الله مبينات) [۱۱] ، وقال البعض: المراد بالـذكر بالـذى أنزله هو الرسول. سـمى به لأنه وسـيلة التذكرة بالله وآياته وسبيل الدعوة إلى دين الحق. وعلى هذا فالمراد بإنزال الرسول. بعثه من عالم الغيب. وإظهاره لهم رسولا من عنده. بعدما لم يكونوا يحتسبون كما فى قوله تعالى: (وأنزلنا الحديد) [۱۲] وقال البعض: يحتمل أن

يكون " رسولا " منصوبا بفعل محذوف والتقدير أرسل رسولا يتلو عليكم، " ويكون المراد بالذكر المنزل إليهم القرآن، وقال البعض: إن " رسولا " هو جبريل. ولكن ظاهر قوله " يتلو عليكم "... يخالف ذلك. والخلاصـة: إن الروايات التى فسـرت الآية بينت أن الذكر رسول الله وإن عـترته أهله. وروى فى قوله عز وجـل: (وأمر أهلـك بالصـلاة واصـطبر عليهـا) [۱۳] ، إن الآيـة مكيـة وعلى هذا فالمراد بقوله ": أهلك " بحسب وقت النزول خديجة زوج

[صفحه ۱۲۴]

النبى صـلى الله عليه وسـلم وعلى بن أبى طالب، وكان من أهله وفى بيته أو هما وبعض بنات النبى صلى الله عليه وسلم. وعلى هذا فإن القول بأن أهله جميع متبعيه من أمته غير سديد. وروى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ظل يأمر أهله بالصلاة فى مكة والمدينة حتى فارق الدنيا. وفى الدر المنثور أخرج الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شـعب الإيمان بسـند صحيح عن عبد الله بن

سلام قال: کان النبی صلی الله علیه وسلم إذا نزلت بأهله شده أو ضیق أمرهم بالصلاة وتلا (وأمر أهلک بالصلاة) وروی أنه صلی الله علیه وآله وسلم کان یجئ إلی باب علی وفاطمة ثمانیة أشهر، وفی روایة تسعة أشهر ویقول ": الصلاة رحمکم الله. إنما یرید الله لیذهب عنکم الرجس أهل البیت ویطهرکم تطهیرا [" ۱۴] .

وبعد أن فرض سبحانه لذی القربی نصیبهم من المال. فقرن سهمهم مع سهمه وسهم رسوله. فجعلهم بذلک فی خیر. وجعل الناس فی خیر دون ذلک. ورضی لهم ما رضی لنفسه. واصطفاهم فیه فبدأ بنفسه ثم ثنی برسوله ثم بذی القربی. (واعلموا إنما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذی القربی). [۱۵] فهذا النصیب من الفئ والغنیمة حقا لهم إلی یوم القیامة فی کتاب الله الناطق. بخلاف الیتامی والمساکین الذین ورد ذکرهم فی الآیة. فإن الیتیم إذا انقطع یتمه خرج من الغنائم ولم یکن له فیها نصیب. وکذلک المسکین إذا انقطعت مسکنته لم یکن له نصیب من المغنم ولا یحل له أخذه. ولکن سهم ذی القربی إلی یوم القیامة. قائم فیهم للغنی والفقیر منهم. لأنه لا أحد أغنی من الله عز وجل. فجعل لنفسه منها سهما ولرسوله سهما. فما رضیه لنفسه ولرسوله رضیه لهم. وکذلک الغنی ما رضیه منه لنفسه ولرسوله صلی الله علیه وآله رضیه لذی القربی. وکذلک الصدقة. فکما نزه سبحانه نفسه ونزه رسوله. نزه أهل بیت النبی عنها. فقال: (إنما الصدقات للفقراء والمساکین والعاملین علیها والمؤلفة قلوبهم وفی الرقاب والغارمین وفی سبیل الله وابن السبیل فریضة من

[صفحه ۱۲۵]

الله) [۱۶] ، فلا یوجد فی شئ من ذلک أنه عز وجل سمی لنفسه أو لرسوله أو لذی القربی. لأنه لما نزه نفسه من الصدقة ونزه رسوله نزه أهل بیته. بل حرمها علیهم لأن الصدقة محرمة علی محمد وآله. وهی أوساخ أیدی الناس. لا تحل لهم. لأنهم طهروا من کل دنس ووسخ. فلما طهرهم الله عز وجل. رضی لهم ما رضی لنفسه وکره لهم ما کره لنفسه. بعد کل هذا التطهیر. وبعد رباط القرآن الذی لا ینفک عنهم حتی یوم القیامة. بعد کل هذا حذر ثم حذر وحذر. فقال ": سبعة لعنتهم ولعنهم الله " ومنهم ": المتسلط علی أمتی کالجبروت لیذل من أعز الله، ویعز من أذل الله عز وجل. والمستحل من عترتی ما حرم الله عز وجل [" ۱۷] ، وعن زید بن أرقم. أن النبی صلی الله علیه وسلم قال لعلی وفاطمة والحسن والحسین. أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم [۱۸] .

قال فی تحفة الأحوذی: أی أنا محارب لمن حاربتم. جعل النبی صلی الله علیه وسلم نفسه نفس الحرب مبالغة کرجل عدل [۱۹] ، وعن أبی

[صفحه ۱۲۶]

سعید الخدری قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": لا یبغضنا أهل البیت أحد إلا أدخله الله النار [" ۲۰] .

وعلی ذلک تکون الحجة قد أقیمت. فالله سبحانه هو الذی حذر من خطوات الشیطان. وهو سبحانه الذی بین أهداف المشرکین فی دائرة البخس. وهو سبحانه الذی بین أهداف المنافقین فی دائرة الرجس. کما بین أهداف تیار الذین فی قلوبهم مرض. وتیار الذین فی قلوبهم زیغ. ولما کانت الأمة ستجد مشاکل علی الطریق یضعها أناس من جلدتهم یتکلمون بألسنتهم ویدعون إلی النار من أجابهم قذفوه فیها. ولما کان عدم وجود دلیل للأمة یرشدها مع کتاب الله إلی الطریق الحق. یعتبر حجة لهم یوم القیامة. أقام الله حجته حتی لا یکون للناس علیه حجة یوم القیامة، ولا إکراه فی الدین. فالحق حق وإن ترکه الناس. والباطل باطل وإن التزموا به.

[صفحه ۱۲۷]

[۱] رواه البخاری ک بدء الخلق ب مناقب الحسن والحسین (۳۰۶:۲) وأحمد والترمذی عن ابن عمر. وابن عساکر وابن عدی عن أبی بکرة. والنسائی عن أنس (کنز العمال ۱۱۳، ۱۱۴:۱۲) ورواه البزار عن سعد وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۱۸۱:۹).

[۲] رواه الترمذی وقال حدیث حسن غریب (الجامع ۶۵۶:۵)، وقال فی تحفة الأحوازی رواه الحاکم وصححه وابن حبان فی صحیحه (التحفة ۲۷۴:۱۰) ورواه البخاری ک بدء الخلق ب مناقب المهاجرین ۳۰۶:۲ الصحیح.

[۳] رواه الترمذی وقال حدیث حسن صحیح (الجامع ۶۵۶:۵) وقال فی کشف الخفاء أخرجه أحمد وصححه ابن حبان والحاکم (کشف الخفاء ۴۲۹:۱) وقال فی تحفة الأحوازی هذا الحدیث مروی عن عدة من الصحابة من طرق کثیرة ولذا عده السیوطی من المتواترات (تحفة ۲۷۲:۳) وقال الهیثمی رواه أحمد وأبو یعلی ورجالها رجال الصحیح (الزوائد ۲۰۱:۹).

[۴] رواه البخاری والضیاء فی المختارة بسند صحیح (کنز ۱۲۰:۱۲) وابن سعد والحاکم (کنز ۱۱۳:۱۲) وأحمد والترمذی وقال حدیث حسن والنسائی وابن حبان فی صحیحه (کنز ۱۱۳:۱۲).

[۵] سورة الشوری: الآیة ۲۲ – ۲۳.

[۶] سورة یس: الآیة ۱.

[۷] جلاء الأفهام:ابن القیم ط دار الکتب العلمیة بیروت.

[۸] سورة الصافات: الآیة ۱۳۰.

[۹] تفسیر ابن کثیر ۲۰:۴، البغوی فی تفسیره معالم التنزیل ۱۶۴:۷ ط المنار ۱۳۴۷ ه.

[۱۰] سورة النحل: الآیة ۴۳.

[۱۱] سورة الطلاق: الآیة ۱۰ – ۱۱.

[۱۲] سورة الحدید: الآیة ۲۵.

[۱۳] سورة طه: الآیة ۱۳۲.

[۱۴] أخرجه ابن مردویه وابن عساکر وابن النجار عن أبی سعید الخدری.

[۱۵] سورة الأنفال: الآیة ۴۱.

[۱۶] سورة التوبة: الآیة ۶۰.

[۱۷] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی له طریق عن عائشة إسناده حسن (کتاب السنة ۲۴:۱).

[۱۸] رواه الترمذی وقال حدیث غریب. وقال فی تحفة الأحوذی. قول الترمذی صبیح مولی أم سلمة لیس عوف ذکره ابن حبان فی الثقات. ورواه أحمد والطبرانی عن أبی هریرة وفیه تلید بن سلیمان وفیه خلاف (التحفة ۳۷۲:۱۰) (الفتح الربانی ۱۰۶:۲۲) (کنز العمال ۹۶، ۹۷:۱۲)، (مجمع الزوائد ۱۶۹:۹)، ورواه الحاکم وقال هذا حدیث حسن من أحادیث أبی عبد الله أحمد بن حنبل، ورواه الحاکم أیضا عن طریق زید بن أرقم (المستدرک ۱۴۹:۳)، وقال فی کنزل العمال، رواه الترمذی وابن ماجة والحاکم عن زید بن أرقم وأحمد والطبرانی والحاکم عن أبی هریرة (کنز العمال ۹۶:۹۷:۱۲)، ورواه الضیاء بسند صحیح عن زید بن أرقم، ورواه عنه ابن أبی شیبة وابن حبان فی صحیحه (کنز العمال (۶۴۰:۱۳)، وذکره ابن کثیر فی البدایة، وقال رواه أحمد (البدایة ۳۸:۵).

[۱۹] تحفة الأحوذی ۳۷۲:۱۰.

[۲۰] رواه الحاکم وقال حدیث صحیح علی شرط مسلم ولم یخرجاه (المستدرک ۱۵۰:۳).

النور والولایة

بعد تحدید دائرة الطهر. هل کان لهذه الدائرة ذروة بعد الرسول صلی الله علیه وآله سلم؟ بمعنی هل کان فیها الرجل الذی یبلغ عن الرسول من بعده أم أن الدائرة وجدت لیتبارک بها الناس فیحمل أحدهم الحسن ویقبل الآخر الحسین ویبتسم الجمیع فی وجه فاطمة وعلی رضی الله عنهما؟ فإذا کانت الإجابة. أن الدائرة برکة. ولا یوجد ما یسمی بالخلافة. ولم یقوم الرسول بتعیین من یبلغ من بعده. فإن من خالف یقول: فهل من المعقول أن یجعل النبی صلی الله علیه وسلم أصحابه دون استثناء قدوة للبشر وفی أصحابه دائرة المنافقین وتیار الذین فی قلوبهم مرض؟ کیف وقد أظهرت حرکة التاریخ أن

الصحابة اختلقوا فى الرواية والقيادة والسيرة والأخلاق، وفى طريق الهداية والإرشاد وفى كل شئ. وسبب هذا الاختلاف أن المحتاج إلى التعليم والإرشاد. أصبح قرينا للقرآن الذى لا يستغنى عن المفسر العالم به. ولو كان القرآن لا يحتاج إلى تأويل لأجمع الناس على مدلوله ولم تفترق الأمة. وإذا كانت الخلافة ليست أصلا إسلاميا. ولم يأمر الرسول بها. فلماذا قامت بعده؟ بمعنى لماذا أوصى الذين جاءوا من بعده وحتى يومنا هذا بمن يخلفهم. هل كان معاوية بن أبى سفيان أحرص على الدعوة من رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلها لابنه من بعده وسار بها بعد ذلك لتستقر فى إناء الكسروية والقيصرية؟ لماذا حرصوا على الخلافة ولم يتركوا الأمر اقتداءا بسنة رسول الله إذا اعتبرنا أنه ترك أمته كهباء ضائع فى خلاء. وحاشاه أن

[صفحه ۱۲۸]

يفعل ذلك فإذا قيل: إن الخلافة مجرد اجتهاد وتطبيق ارتضاه المسلمون الأوائل. وإنها تقوم على الاجماع أو الانتخاب. فإن من خالف يقول: إذا كانت الخلافة بالإجماع فما معنى عقد أبى بكر لعمر رضى الله عنهما. وما معنى وصية عمر وجعلها شورى، وما معنى جعل الخلفاء إياها كسروية. إن كل حلقة تختلف عن الأخرى. وانتهت الحلقات إلى الجبرية حيث الاجماع الذى على رأسه السيف. وكل حلقة لم تحقق الاجماع الكامل ويوم السقيفة شاهد بخروج سعد بن عبادة ومن معه على هذا الاجماع وعلى امتداد التاريخ تشهد الأحداث أن الاجماع لم يتحقق يوما وأن المعارك بين المسلمين وبين أنفسهم كان عمودها الفقرى الخروج على الحكم وطلب الكرسى. فأين الاجماع فى هذه الأحداث؟ وإذا كانت الخلافة بالانتخاب. فمن المعلوم أن الأمة ليست متفقة فى الرأى وأن لكل فرد فيها رأى يخالف الباقين. فأى انتخاب؟ وهل المرشح الذى تخرج دنانيره من بيت المال لتلمع فى عيون الناخبين. هل يكو هذا مرشحا، مهمته السير بالدعوة الحق على الصراط الحق. هل اللائحة التى تحافظ على الأهواء وتزين وتغوى الناخبين بأحقية حزب ما أو قبيلة ما. وما يقابلها من لوائح تزين وتغوى بالأموال والقرب والجاه. هل هذه اللوائح. لوائح حق تسير بالدعوة الحق على الصراط الحق. أن الخليفة بحكم العقل والنقل مطلوب منه المحافظة على كيان الإسلام. وإزاحة الشبهات وقطع دابر الكفار والمنافقين ونشر الأحكام الإلهية. فهل يا ترى يمكن للناس الوصول إلى من يتصف بهذه الصفات المذكورة وهل فى وسعهم الاتجاه والاتفاق على اختياره. مع الوضع فى الاعتبار أن فى الأمة دوائر عديدة هدفها الصد عن سبيل الله. وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر أن فى أمته أئمة مضلون ومنافق عليم اللسان إلى غير ذلك. فهل يمكن للناس تفادى كل هذا؟ فإن قيل: إن الخلافة فى عصورها المتأخرة تختلف عنها فى عصورها الأولى حيث كان الصحابة يتحرون الدقة. وهم بالإجماع أهل عدل وصلاح. وبموت الرسول صلى الله عليه وسلم. لم يعد هناك منافقون ولم يعد لتيار الذين فى قلوبهم مرض وجود. فإن المخالف يقول: إذا كانوا جميعا عدو. فبمن

[صفحه ۱۲۹]

نقتدى. بأبى بكر رضى الله عنه. أم بالصحابة الذين تخلفوا عنه وعلى رأسهم سعد بن عبادة الذى قال يوم السقيفة ": لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى [" ۱] ، وكان سعد لا يصلى معهم [۲] ألم يكن سعد يعلم أن من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية؟. هل نقتدى بسعد بن عبادة أم بعمر بن الخطاب رضى الله عنهما. وعمر أمر يوم السقيفة بقتل سعد وقال ": اقتلوه اقتلوه. ثم قام على رأسه وقال: لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضوك [۳] ، وعندما تكاتفوا على سعد. قال قائل فيما روى البخارى ": قتلتم سعد بن عبادة. فقال عمر: قتله الله [۴] ، وبعد ذلك قال سعد لعمر فى خلافته بعد وفاة أبو بكر " والله لقد كرهت جوارك [" ۵] ، وخرج سعد مهاجرا إلى الشام ولم يلبث إلا قليلا. حتى قتل. وقيل: إن الجن هم الذين قتلوه!! [۶] .

وبمن نقتدى بخلافة أبى بكر رضى الله عنه. أم بقول على بن أبى طالب له ": أفسدت علينا أمورنا ولم تستشر ولم ترع لنا حقا [" ۷] ، وفى رواية عند البخارى قال ": ولكنك استبدت علينا بالأمر. وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيبا [" ۸] ، أم بوصف عمر فيما بعد لخلافة أبى بكر بأنها فلتة ومن عاد إليها فيجب قتله [۹] ، وبمن نقتدى يوم جعلها عمر بعد إصابته شورى بين ستة روى أنهم من أهل الجنة. فقد قال ": إن خالف اثنان لأربعة فاقتلوا الاثنين. وإن خالف ثلاثة ثلاثة فاقتلوا الثلاثة الذين ليس فيهم

[صفحه ۱۳۰]

عبد الرحمن بن عوف [۱۰] بمن نقتدی بمن یأمر بقتل أهل الجنة أم بمن بقی من

أهل الجنة. وما رأی المسلمین لو سمع رسول الله صلی الله علیه وسلم عمر یقول: اقتلوا أهل الشوری الذین روی بأنهم من أهل الجنة. فأی رضا وأی إجماع فی الشوری، وکیف یکون مختارا من تهدد بالقتل؟ وبمن نقتدی بعثمان بن عفان أم بالذین خرجوا علیه وهم صحابة. وفیهم من ألب علیه. وفیهم من قال ": اقتلوا نعثلا فقد کفر "وفیهم من کان یلعنه کما سنبین ذلک فی حینه... بمن نقتدی بأم المؤمنین عائشة رضی الله عنها أم بالناکثین وفیهم صحابة. أم بالقاسطین وفیهم صحابة. أم بالمارقین وفیهم صحابة. أم بعلی بن أبی طالب ومن معه وهم صحابة. بمن نقتدی. بمعاویة ابن أبی سفیان أم بعمرو بن العاص وهما من الصحابة؟ من المسؤول عن الدماء التی أریقت بعد وفاة الرسول صلی الله علیه وسلم بمدة قلیلة. والذین کانوا فی صدر المسؤولیة جمیعا من الصحابة، ویبقی السؤال قائما. هل أوصی الرسول الأکرم لأحد أصحابه بأن یبلغ من بعده. أم ترک الأمة کهباء ضائع فی خلاء بعد جهاد طویل فی عالم الحرب والسیاسة والنفس. هل ترکها لتستقر بعد ذلک عند أقدام یزید بن معاویة ومن علی شاکلته. حیث تقطع رؤوس الذین آمنوا وتجلد ظهورهم بکل قسوة وبلا أدنی رحمة. وینتهی الأمر بأن تدخل الأمة فی دوائر الذین سبقوها وتتبع سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع؟ إن الذی یقول بذلک. یکون قد تساهل تساهلا کبیرا فی حق الله وحق کتابه وحق رسوله. نحن لا نقلل من شأن الصحابة رضی الله عنهم. ولکن هناک حقیقة لا یجب أن نتعامی عنها: هی إن النبی صلی الله علیه وسلم أوجب محبة أصحابه لطاعتهم لله. فإذا عصوا الله وترکوا ما أوجب محبتهم. فإن النبی لا یجامل أحدا. لقد قیل. أنه صلی الله علیه وسلم أشاد بالصحابة وأنهم کالنجوم وعلی الهدی. ولیس معنی ذلک أن أهل الشام علی هدی. وإنهم بهداهم حاربوا علی بن أبی طالب وأن قاتل عمار بن یاسر علی هدی، والصحیح

[صفحه ۱۳۱]

فی عمار أن الفئة الباغیة تقتله. وقال القرآن: (فقاتلوا التی تبغی حتی تفئ إلی أمر الله [۱۱] ، وهذا یدل علی أنها ما دامت موصوفة بالمقام علی البغی. فهی مفارقة لأمر الله. ومن فارق أمر الله لا یکون مهتدیا. فکیف یکون کل واحد من الصحابة علی هدی ولا یخطئون والله تعالی یقول لرسوله: (قل إنی أخاف إن عصیت ربی عذاب یوم عظیم) [۱۲] ، وقال: (ولقد أوحی إلیک وإلی الذین من قبلک لئن أشرکت لیحبطن عملک ولتکونن من الخاسرین) [۱۳] ، فکیف یقول الرسول هذا ونحن نقول الصحابة لا یخطؤن؟! إن خیر القرون التی جاء ذکرها فی الحدیث. تصدرها القرن الذی دارت أحداثه بعد وفاة الرسول صلی الله علیه وسلم. وهذه الأحداث هی شر الأحداث. ففی هذا القرن قتل الحسین. واجتاحت خیول یزید المدینة. وحوصرت مکة. وشرب الخلفاء الخمور وارتکبوا الفجور وأریقت الدماء. وقتل المسلمون وسبی الحریم. واستبعد أبناء المهاجرین والأنصار. وما کان هذا إلا بسیاسة من بعض الصحابة وما جری إلا تحت أعینهم. ولکی لا تختلط الأمور فنحن نعرف هنا ما هی الصحبة.

[۱] الطبری ۳:۲۱۰.

[۲] الطبری ۳:۲۱۰.

[۳] الطبری ۳:۲۱۰.

[۴] البخاری (الصحیح ۲:۲۹۱) لبدء الخلق.

[۵] ابن سعد فی الطبقات (کنز العمال ۵:۶۲۸).

[۶] راجع ابن کثیر وابن الأثیر فی أحداث السقیفة.

[۷] مروج الذهب:المسعودی (۱:۴۱۴).

[۸] البخاری (الصحیح ۳:۵۶) ک المغازی.

[۹] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۲۳:۵۹) وابن أبی شیبة (کنز العمال ۵:۶۴۹)، الطبری (۳:۲۰۰).

[۱۰] قصة الشورى الطبرى (۵:۳۳).

[۱۱] سورة الحجرات: من الآية ۵۱.

[۱۲] سورة الزمر: الآية ۱۳.

[۱۳] سورة الزمر: الآية ۶۵.

تعريف من هو الصحابى

الصحبة لغة. هى المعاشرة، وتطلق على المعاشرة فى الزمن القليل
والكثير. ولذلك يقال صحبت فلانا حولا وشهرا ويوما وساعة. وتقع الصحبة بين المؤمن والكافر. كما تقع بين المؤمن والمؤمن. قال تعالى فى محاورة بين مؤمن وكافر: (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت الذى خلقك) [۱] ، وقال تعالى لكفار المشركين (ما ضل صاحبكم وما غوى - وما ينطق عن الهوى) [۲] ، وقال سبحانه لهم: (ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير
[صفحه ۱۳۲]
لكم) [۳] ، واسم الصحبة يطلب أيضا بين العاقل وبين البهيمة. فالعرب سموا الحمار صاحبا فقالوا:

إن الحمار مع الحمار مطية++

فإذا خلوت به فبئس الصاحب

وسموا الجماد مع الحى صاحبا فقالوا فى السيف:

زرت هندا وذاك غير اختيان++

ومعى صاحب كتوم اللسان

وأطلقت كلمة الصحابى على كل من أسلم فى حياة النبى ولقيه مسلما. ومن هؤلاء المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون الذين كانوا يعملون على إحداث الاضطراب فى المدينة. ومنهم الذين قال فيهم تعالى: (ومنهم الذين يؤذون النبى) [۴] ، وقوله: (ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) [۵] ، وقوله: (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم) [۶] فإذا كان فى الصحابة من يبطن
الكفر ويظهر الإيمان بنص الكتاب. فكيف يجوز الاقتداء بكل فرد منهم دون أن يوثق بإيمانه ويعرف صحة إسلامه ورسوخ عقيدته. لقد قال تعالى فى صحابة النبى صلى الله عليه وسلم: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار) إلى قوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجر عظيما) [۷] ، فقوله تعالى ": منهم " أى لو كان منهم من لم يؤمن أصلا كالمنافقين والذين فى قلوبهم مرض. أو منهم الذى آمن أولا ثم أشرك وكفر كما فى قوله تعالى: (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى) إلى قوله تعالى: (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم
[صفحه ۱۳۳]
بسيماهم) [۸] ، أو منهم الذى آمن ولم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك. ومن أهل الإفك من هو صحابى بدرى. وقد قال تعالى: (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) [۹] ، فأمثال هؤلاء لا يشملهم وعد المغفرة والأجر العظيم الذى وعد الله به فى صدر الآية. وقال تعالى: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) [۱۰] ، فمن ينكث لا- معنى للقول بأن له عند الله أجرا عظيما. ولقد دلت الحوادث أن هناك من نكث بيعته. وبالجملة الصحابة ناس كغيرهم - مع فضل الصحبة - فيهم العدول الثقاة والقادة الهداة. وشهد لهم النبى صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام مالك. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشهداء أحد ": هؤلاء أشهد عليهم " فقال أبو

بكر الصديق رضى الله عنه: ألسنا يا رسول الله إخوانهم. أسلمنا كما أسلموا. وجاهدنا كما جاهدوا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بلى ولكن لا أدرى ما تحدثون بعدى " فبكى أبو بكر ثم بكى ثم قال: ائنا لكائنون بعدك! [۱۱] .

لقد كان فى الصحابة أعظم الرجال فى تاريخ البعثة إذ لم يكن فى تاريخ الإنسانية منهم عبيدة بن الحارث. وعمير بن أبى وقاص. وعاقل بن أبى البكير. ومهجع مولى عمر بن الخطاب. وصفوان بن بيضاء. ومبشر بن عبد المنذر. وسعد بن خيثمة. وحارثة بن سراقة. وعمير بن الحمام بن الجموع. ورافع بن المعلى. ويزيد بن الحارث. وغير هؤلاء من أبطال بدر. وحمزة بن عبد المطلب. وعبد الله بن جحش. ومصعب بن عمير. وشماس بن عمر. والحارث بن أنس وعمر بن معاذ. وعمارة بن زياد بن السكين، وعمرو بن

[صفحه ۱۳۴]

الجموح، وخلاد بن عمر بن الجموح، وعتبة بن الربيع، ومالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى. وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر. وأويس بن ثابت، وغير هؤلاء من شهداء أحد. وأبو ذر الغفارى. وعمار بن ياسر. وأبو أيوب الأنصارى. وخزيمة بن ثابت. وسلمان الفارسى. وأبو سعيد الخدرى. وزيد بن أرقم، وبريدة الأسلمى، وأبى بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، والمقداد وأبو الهيثم التيهان، وسهل وعثمان ابنا حنيف، والبراء بن عازب. وزيد بن صوحان، وحذيفة بن اليمان، وعمران بن حصين، وأبو رافع مولى رسول الله. وغير هؤلاء من الصحابة العظام، وفى الصحابة من نكث ومن مرق ومن بغى. وفيهم من لعبت به الأهواء، وفيهم من خرج عن الحق، وفيهم من رجع إليه. والنفاق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله. لم ينتهى بموته. ولم ينقطع بمجرد انقطاع الوحى. ومن قال بأن النفاق قد انتهى بعد موت الرسول. فعليه أن يقول لنا. هل كانت حياة الرسول سببا فى نفاق المنافقين. وموته سببا فى إيمانهم وعدالتهم، وحتى صاروا أفضل الخلائق بعد الأنبياء. كيف انقلبت دوائرهم وحقائقهم بعد وفاته. وأصبحوا ثقلا مع القرآن كما قال البعض. إن فى الكتاب العزيز وسنة النبى المطهرة ما يثبت بقاء المنافقين على نفاقهم بشهادة حذيفة رضى الله عنه وسنبين ذلك فى موضعه. لقد كان النبى وهو بين أصحابه يود أن يلقى إخوانه كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": وددت أنى رأيت إخوانى - قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابى وإخوانى الذين لم يأتوا بعد [" ۱۲] ، وفى رواية ": وإخوانى الذين آمنوا بى ولم يرونى أنا إليهم بالأشواق [" ۱۳] ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول ": مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم

[صفحه ۱۳۵]

آخره [" ۱۴] ، إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحصر الخبر فى جهة. لقد أقام الحجة وبلغ عن ربه وهو فى شوق إلى إخوانه وربما يكون عندهم الخير كما كان فى عهده صلى الله عليه وسلم. فالمقياس الحقيقى لا يكون أبدا بالمتاجرة بالشعارات. وإنما باقتفاء أثره صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم. فهنا وهنا فقط يكون الخير. ففى الحديث الذى رواه أبو هريرة. قال: قيل للنبى صلى الله عليه وسلم: أى الناس خير؟ قال: أنا ومن معى. فقيل له: ثم من؟ قال: الذى على الأثر. قيل له: ثم من يا رسول الله؟ قال أبو هريرة: فرفضهم رسول الله [۱۵] .

إن الذين مع النبى هم الذين لن يقال لهم عند الحوض سحقا سحقا. لأنهم بدلوا وغيروا وارتدوا بعده كما فى الأحاديث الصحيحة. روى البخارى ومسلم ": أنا فرطكم على الحوض من ورد شرب ومن شرب لم يظمأ أبدا وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوننى. ثم يحال بينى وبينهم [" ۱۶] ، وفى رواية " ليردن على الحوض رجال ممن صحبنى ورآنى فأقول أى رب أصحابى أصحابى. فليقالن إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك [" ۱۷] ، وفى رواية ": فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول سحقا [" ۱۸] .

وقوله صلى الله عليه وسلم ": سحقا " أى بعد بعدا ومكان سحيق

[صفحه ۱۳۶]

بعيد. فيه دليل على أنهم ليسوا عصاة. لأن العصاة يشفع لهم. وفى هؤلاء وغيرهم قال النبى صلى الله عليه وسلم ": مثلى كمثل رجل

استوقد نارا. فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التى يقمن فى النار يقعن فيها. وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها. فذلك مثلى ومثلكم. أنا آخذ بحجزكم عن النار. هلم عن النار! هلم عن النار! فتغلبونى فتقتحمون فيها [۱۹] .

إن الدعوة الخاتمة جاءت لتقيم حجتها وتذكر الناس بمخزون الفطرة وتدعوهم للتفكر فى الآيات من حولهم وتسوقهم إلى الصراط المستقيم كى يتفادوا العقبات التى وضعها الشيطان ومؤسساته على الأرض وفى الأهواء. إن الشيطان دق أوتاد خيمة مهمتها عبادة السلف الصالح. ولقد سقط العديد داخل هذه الخيمة منذ فجر التاريخ وعلى هذه العبادة نشأت عبادة الأوثان. وعبادة السلف كانت سببا أساسيا فى منع الباحثين والدارسين عن سلوك طريق العلم. لقد وجد الباحثون أن السلف كان ينتقد بعضه بعضا. بل يقتل من خالفه فى الرأى من معاصريه. فلما جاء الخلف رفع راية تحرم النقد ولو كان للنقد جذور فى كتاب الله. وعندئذ أغلق الباحثون والدارسون على أنفسهم الأبواب. وطويت صفحات العلم والمعرفة. وجرت الفتنة فلم تصب الذين ظلموا خاصة. بل تعدتهم إلى الحاضر والمستقبل. تلقى بالتعصب الذميم وتهلك ضحاياها فى كل عصر. وتشد فى كل وادى آلهة جدد. وما زال السؤال يجرى: هل أوصى النبى صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه بأن يبلغ من بعده ويسوق الناس إلى صراط الله المستقيم. هل صرح الرسول باسم الخليفة من بعده؟ أم كانت هناك رموز وإيماء وكناية وتعريض. وكان للرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك عذر لا نعلمه نحن. خشية من فساد الأمر أو إرجاف المنافقين. أم أن الرسول لم يوص ولم يصرح ولم تكن هناك رموز وإيماء. وترك أمته كى يسوقها معاوية وعمر بن العاص وبسر بن

[صفحه ۱۳۷]

أرطأة وأبو الأعور السلمى ومروان بن الحكم والجماح بن يوسف؟ وإذا كانت الإجابة: نعم تركها لهؤلاء الصحابة العدول الذين إذا أصابوا لهم أجران وإذا أخطأوا فلهم أجرا واحد. فنقول: وهل تستقيم مقدمات بدر وأحد مع هذه النتيجة؟ أى تفسير هذا الذى سيقدمه ابن أبى سفيان وهو يتحدث عن آيات القتال فى بدر وفى أحد؟ وأى تفسير سيقدمه للمسجد الضرار ومحاولة اغتيال الرسول. إن الحقيقة مرة. والمقدمات لا- تستقيم مع النتائج. ويبدو أمام الباحث أن أمورا قد جرت. وللحقيقة نقول: إن الأمور الماضية يتعذر الوقوف على عللها وأسبابها ولا يعلم حقائقها إلا من شاهدها ولابسها. وللحقيقة أيضا نقول إن الأمور إذا اشتبهت. اعتبر آخرها أولها. أى يقاس آخرها على أولها. فحسب البدايات تكون النهايات. والقرآن الكريم يهدى العقول إلى استعمال ما فطرت على استعماله. وسلوك ما تألفه وتعرفه بحسب طبعها. وهو ترتيب المعلومات لاستنتاج المجهولات. والذى فطرت العقول عليه هو. أن تستعمل مقدمات حقيقية يقينية لاستنتاج المعلومات التصديقية الواقعية. وهو البرهان. إننا إذا وضعنا أيدينا على الحقيقة الأولى عند المقدمة. ظهر لنا سلوك الحقيقة عند الخاتمة. وعلى السلوك نعرف الزائف والمزخرف الذى تاجر بالحقيقة ولم يسلك سلوكها. ويتم استبعاده. وإذا كان قد قيل: بأن العاقل هو الذى يضع الشئ فى موضعه. فإن القرآن الكريم اشترط التقوى فى التفكر والتذكر والتعقل. وقارن العلم العمل للحصول على استقامة الفكر وإصابة العلم وخلوصه من شوائب الأوهام الحيوانية والإلقاءات الشيطانية، ونحن فى بحثنا هذا لا ندعى كمال البحث ولا ندعى أننا حسمنا موقفا. إن الذى أقدمنا عليه هنا. يخضع فى المقام الأول. للبحث العلمى المجرد الذى يتناول الأفكار والمبادئ. ولا شأن له بالمناسبات التى صدر فيها هذا الحكم أو ذاك، نحن هنا نقوم بالقراءة المنصتة للمصادر. قراءة نقدية متفحصة تقييمية تعتمد على الطريقة السردية التى تقوم على القرآن والحديث والرواية التاريخية. وتمنح القراء خيطا يقودهم إلى البحث عن الحقيقة. ونحن وراء قراءتنا هذه مصممون على تقديم تاريخ يجتمع فيه جميع الخيوط سياسية ودينية واجتماعية واقتصادية. وبناءا على

[صفحه ۱۳۸]

هذا فإن البحث عن الرجل الذى قدر له أن يقود الأمة بعد الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم. يجعلنا فى البداية أن نجمع مواد البناء أولا- على أن تكون مواد البناء لا خلاف على صحتها عند أهل القبلة. والتقاط مواد البناء هذه من وسط ركام طويل عريض مارس

أصحابه سیاسات التعتیم والتشهیر والقتل. لیس بالأمر السهل. ورغم صعوبته إلا أن الیسر فی خاتمته. وذلک أن مواد البناء لن تکون فی حاجة إلی الخطوة التالیة التی هی عملیة البناء. لأن المواد فی حد ذاتها بناء. ولتکن البدایة من عند ولایة الله.

[۱] سورة الکهف: الآیة ۳۷.

[۲] سورة النجم: الآیة ۲ – ۳.

[۳] سورة سبأ: الآیة ۴۶.

[۴] سورة التوبة: الآیة ۶۱.

[۵] سورة التوبة: الآیة ۵۸.

[۶] سورة التوبة: الآیة ۶۴.

[۷] سورة الفتح: الآیة ۲۹.

[۸] سورة محمد: الآیة ۳۰.

[۹] سورة النور: الآیة ۲۳.

[۱۰] سورة الفتح: الآیة ۱۰.

[۱۱] موطأ مالک کتاب الجهاد ص ۳۷۱.

[۱۲] رواه مسلم (الخصائص الکبری للسیوطی ۲:۲۶۰).

[۱۳] رواه أبو یعلی وأبو الشیخ عن أنس. وابن عساکر عن البراء (کنز العمال ۱۲:۱۸۴) رواه أحمد بلفظ " وددت أنی لقیت إخوانی الذین آمنوا بی ولم یرونی (کنز العمال (۱۲:۱۶۴).

[۱۴] رواه الإمام أحمد عن أنس ورواه الترمذی وقال: حسن غریر. وقال فی کشف الخفاء: رواه الترمذی وأبو یعلی والدارقطنی والخطیب وابن حبان فی صحیحه وقال ابن حجر: حدیث حسن له طرق (الفتح الربانی ۲۳:۲۰۳، کشف الخفاء ۲:۲۵۸).

[۱۵] رواه أحمد وقال فی الفتح الربانی الحدیث صحیح الإسناد (الفتح ۲۳:۲۱۹) وقال فی الفتح رواه مسلم بإسنادین.

[۱۶] البخاری (الصحیح ک. الدعوات باب الصراط ۴:۱۴۱) مسلم (الصحیح ۱۵:۵۳) له الفضائل ب حوض نبینا صلی الله علیه وآله.

[۱۷] رواه أحمد (۱:۱۹۵ الفتح الربانی) ومسلم (الصحیح ۱۵:۶۵) ک الفضائل ب حوض نبینا صلی الله علیه وآله.

[۱۸] رواه مسلم (الصحیح ۱۵:۵۶ ک الفضائل ب حوض نبینا صلی الله علیه وآله).

[۱۹] رواه البخاری کتاب الدعوات (الصحیح ۴:۱۲۷) وأحمد والبیهقی والترمذی عن أبی هریرة. واللفظ لأحمد (الفتح الربانی ۲۱:۲۸۴، وکنز العمال ۱:۱۷۷).

ولایة الله عزوجل

لقد أقام الله تعالی حجته علی الخلق فی عالم الغیب بمیثاق الفطرة

المغروس فی داخل الکیان الإنسانی بأنه تعالی رب کل شئ. وأقام حجته فی عالم الاحساس الإنسانی بأن زود الإنسان بما یهدیه إلی طریق التقوی ویبتعد به عن طریق الفجور. وزوده فی عالم المشاهدة المنظور بما یقربه إلیه حیث الوجود کله من حوله یهتف بأنه لا إله إلا الله. وفی النهایة جعله مختارا. له أن یختار أی طریق یسلک. وعلی سلوکه سیترتب الثواب والعقاب یوم القیامة. فالفائز هو فقط من احترم المخزون الفطری وما زوده الله به واتبع الهدی الذی جاء به الأنبیاء والرسل علیهم السلام، فهذا الهدی الذی جاء به الأنبیاء یرشده ویسوقه إلی الصراط المستقیم الذی یتفنن الشیطان فی کل عصر ومکان فی وضع العراقیل علیه. فالهدی یتعامل مع کل حالة وفقا للزمان والمکان. ولهذا تتابع الرسل علیهم السلام فی کل زمان ومکان من أجل أن یسدوا منافذ الشیطان الذی أمهله الله حتی یوم

الوقت المعلوم. ومن أجل هذا تحتم على من أراد الفوز بالنجاة والثواب أن يقف تحت ولاية الله ورسوله. لأنها الولاية الوحيدة التى فى ظاهرها وباطنها الرحمة وتقود من استظل بها إلى ساحة القرب يوم القيامة، ومن فضله سبحانه على خلقه أنه حذر من اتخاذ الشيطان وليا. ونهى عن مودة اليهود والنصارى - يعنى نهى المحبة والاتحاد معهم - لأن هذا الطريق بكل ما عليه من رموز يصب فى النهاية فى ساحة الخاسرين.

[صفحه ۱۳۹]

والقرآن الكريم أخبر بولاية الله وأن الأمر كله إليه سبحانه فى أكثر من موضع منه قوله تعالى: (أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى وهو يحيى الموتى وهو على كل شئ قدير - وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب - فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزوجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) [۱] ، قال المفسرون: إنه تعالى ولى تنحصر فيه الولاية. فمن الواجب على من يتخذه وليا. أن لا يتعداه إلى غيره. إذ لا ولى غيره. وقوله: (وهو يحيى ويميت) حجة على وجوب اتخاذه تعالى وحده وليا. لأن الغرض من اتخاذ الولى والتدين له. هو التخلص من عذاب السعير والفوز بالجنة يوم القيامة. ولما كان ذلك كذلك فإن المثيب والمعاقب يوم القيامة هو الله. فهو وحده الذى يحيى الموتى فيجمعهم فيجازيهم بأعمالهم. وعلى هذا فهو الذى يجب أن يتخذ وليا. وأن لا يلتفت الناس إلى أولياء من دونه لأنهم أموات غير أحياء ولا يشعرون أيان يبعثون. وقوله تعالى: (وهو على كل شئ قدير) حجة أخرى، على وجوب اتخاذه تعالى وليا دون غيره، لأنه من الواجب فى باب الولاية. أن يكون للولى قدرة على ما يتولاه من شؤون من يتولاه وأموره. والله تعالى على كل شئ قدير ولا قدرة لغيره إلا مقدار ما أقدره الله عليه. فهو المالك والقادر على ما ملكه وأقدره عليه. فهو سبحانه الولى لا ولى غيره تعالى، وقوله سبحانه: (وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله)، حجة أخرى على كونه تعالى وليا لا ولى غيره، فالاختلاف ربما كان فى عقيدة فى أن الإله واحد أو كثير، أو كان فى نبوة أو إمامة. وربما كان فى عمل أو ما يرجع إليه كالاختلاف فى أمور المعيشة. أمور المعيشة. فاختلافات الناس فى عقائدهم وأعمالهم اختلاف تشريعى لا يرفعه إلا الأحكام والقوانين التشريعية ولولا الاختلاف لم يوجد قانون.

[صفحه ۱۴۰]

والله تعالى هو المالك لكل شئ. لا مالك سواه. فكل شئ بوجوده وآثار وجوده قائما به تعال. فله سبحانه الحكم والقضاء بالحق قال تعالى: (كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) [۲] ، وقال (والله يحكم ما يريد) [۳] ، فالولى الذى يعبد يجب أن يكون رافعا لاختلافات من يتولونه، مصلحا لما فسد من شؤون مجتمعهم، سائقا لهم إلى سعادة الحياة الدائمة بما يضعه عليهم من الحكم وهو الدين. والحكم فى ذلك كله إلى الله عز وجل. فهو الولى الذى يجب أن يتخذ وليا لا غير. وبعد أن أقام الله الحجج فى الآية أمر النبى أن يقول لهم: (ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب) إعلاما لهم بأنه تعالى هو الولى معترفا له بالربوبية التى هى ملك التدبير راجع إلى حكمه فى كل واقعة تستقبل الإنسان فى مسير حياته ففى هذا كله تكمن الإنابة وتظهر (عليه توكلت وإليه أنيب أنيب) أى أرجع فى جميع أمورى إليه. تكوينا وتشريعا. (فاطر السماوات والأرض. جعل لكم من أنفسكم أزواجا...)، أى أنه تعالى موجب الأشياء وفاطرها من كتم العدم إلى الوجود. وقد جعلكم أزواجا فكثركم بذلك وجعل من الأنعام أزواجا فكثرها بذلك لتنتفعوا بها. وهذا خلق وتدبير. وهو سميع لما يسأله خلقه من الحوائج، وبصير لما يعمله خلقه من الأعمال. وهو الذى يملك مفاتيح خزائن السماوات والأرض! وهو الذى يرزق المرزوقين فيوسع فى رزقهم ويضيق ممن علم منه بذلك. وهذا كله من التدبير. فهو الرب المدبر للأمور ليس مثله شئ. إن الله هو الولى. (ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون) [۴] ، إن الله هو الولى: (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) [۵] ، إن الله هو الولى: (وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى

[صفحه ۱۴۱]

المتقين) [۶] ، (ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) [۷] ، إنه سبحانه مصدر جميع السلطات وإليه تنتهى جميع القرارات. وهو مصدر

الخلق والتكوين وواهب الحياة ومقوماتها فكما أن له سبحانه الخلق والإبداع، كذلك له الأمر والنهى.

[۱] سورة الشورى: الآية ۹ - ۱۱.

[۲] سورة القصص: الآية ۸۸.

[۳] سورة المائدة: الآية ۱.

[۴] سورة السجدة: الآية ۴.

[۵] سورة البقرة: الآية ۲۵۷.

[۶] سورة الجاثية: الآية ۱۹.

[۷] سورة الكهف: الآية ۱۷.

ولاية رسول الله

لقد شرع الله ولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل ولاية الرسول

على المؤمنين شرط فى الإيمان بالله. قال تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) [۱] ، فالإخلاص لله فى دينه خطوته الأولى لا تكون إلا بحبه تعالى. ومن أراد أن يخلص فى عبوديته على الحب فعليه أن يتبع هذه الشريعة التى هى مبنية على الحب، ولا حب حقيقى إلا فى اتباع سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالأخذ عنه والتأسى به. فمقدمة ولاية الرسول هى الحب الذى هو فى الحقيقة الوسيلة الوحيدة لارتباط كل طالب بمطلوبه وكل مريد بمراده. فالواجب على من يدعى ولاية الله بحبه. أن يتبع الرسول حتى ينتهى ذلك إلى ولاية الله له بحبه. والآية ذكرت حب الله دون ولايته. لأنه الأساس الذى تبنى عليه الولاية. وإنما ذكر حب الله تعالى فحسب لأن ولاية النبى والمؤمنين تؤول بالحقيقة إلى ولاية الله. وباب الحب هنا إعجاز بغلق الباب أمام المتاجرين فى دوائر الرجس والبخس ويبشرهم بالعذاب الأليم إذ لم تخضع قلوبهم وتخشع وولاية الرسول صلى الله عليه وسلم إذا كان خيطها الأول يبدأ من القلوب. فإن هذا الخيط يمر فى عالم المشاهدة حيث العلم وبيان المعارف الإلهية التى أنزلها الله للناس. لتدخل الولاية من باب الحجة. قال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما

[صفحه ۱۴۲]

نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) [۲] ، قال المفسرون: إن القصد بنزول هذا الذكر إلى عامة البشر. وإنك والناس فى سواء. ولقد اخترناك من بين الناس لتوجيه الخطاب وإلقاء القول. ولا نحملك بهذا قدرة غيبية أو إرادة تكوينية إلهية. بل لأمرين: أحدهما: أن تبين للناس ما نزل تدريجيا إليهم. لأن المعارف الإلهية لا ينالها الناس بلا واسطة فلا بد من بعث واحد منهم للتبيين والتعليم. وهذا هو غرض الرسالة. ينزل الوحى فيحمله الرسول. ثم يؤمر بتبليغه وتعليمه وتبيينه. والثانى: رجاء أن يتفكروا فيك فيتبصروا إن ما جئت به حق من عند الله. فالأوضاع المحيطة بك والحوادث والأحوال الواردة عليك على مدى حياتك من اليتم وخمود الذكر والحرمان من التعلم والكتابة، وغير ذلك كانت جميعا أسباب قاطعة أن لا تذوق من عين الكمال قطرة. لكن الله أنزل إليك ذكرا تتحدى به على الجن والإنس. مهيمنا على سائر الكتب السماوية. والتفكر فيك نعم الدليل الهادى. على أنه ليس لك فيما جئت به صنع، ولا لك من الأمر شئ. وإن الله أنزله بعلمه وأيدك لذلك بقدرته. فالرسول الله صلى الله عليه وسلم له الولاية فى أن يبين للناس ويربى الأمة ويحكم فيهم ويقضى فى أمرهم. لأن الله الذى أنزل الكتاب. علمه أحكامه وشرائعه. والرسول بهذه الولاية يبث الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة لتكتمل البشرية ويستقيم حالهم فى دنياهم وأخراهم. فيعيشون سعداء ويموتون سعداء. ولأنه صلى الله عليه وسلم كذلك أوجب الله الأخذ عنه والتأسى به وفرض طاعته طاعة مطلقة. لأن طاعته طاعة لله. قال تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) [۳] ، ومن اتخذ الرسول مولى له. له يصل إلى الكمال فى الحب والطاعة إلا إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه قال تعالى:

(النبی أولی بالمؤمنین من

[صفحه ۱۴۳]

أنفسهم) [۴] ، روی البخاری عن أبی هریرة. قال قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": ما من مؤمن إلا وأنا أولی الناس به فی الدنیا والآخرة اقرءوا إن شئتم " النبی أولی بالمؤمنین من أنفسهم [" ۵] ، وقال المفسرون: إنه أولی بهم منهم. ومعنی الأولویة. هو رجحان الجانب إذا دار الأمر بینه وبین ما هو أدنی منه. فالمحصل: إن ما یراه المؤمن لنفسه من الحفظ والمحبة والکرامة واستجابة الدعوة. فالنبی أولی بذلک من نفسه. ولو دار الأمر بین النبی وبین نفسه فی شئ من ذلک. کان جانب النبی أرجح من جانب نفسه. وعلی هذا فإذا توجه شئ من المخاطر إلی نفس النبی. فلیلقه المؤمن بنفسه ویفده نفسه. ولیکن النبی أحب إلیه من نفسه. وأکرم عنده من نفسه. ولو دعته نفسه إلی شئ والنبی إلی خلافه. أو أرادت نفسه منه شیئا وأراد النبی خلافه. کان المتعین استجابة النبی صلی الله علیه وسلم وطاعته وتقدیمه علی نفسه. فمن قدم نفسه علی النبی فهو فی الحقیقة غیر مؤمن حتی یقدم النبی علی نفسه ویحسب إیمانه فقط من وقت تأخره وتقدم النبی. وعمر بن الخطاب رضی الله عنه خاض هذه التجربة. فیما رواه البخاری عن عبد الله بن هشام قال: کنا مع النبی صلی الله علیه وسلم وهو آخذ بید عمر. فقال له عمر: یا رسول الله لأنت أحب إلی من کل شئ إلا من نفسی. فقال النبی: لا والذی نفسی بیده حتی أکون أحب إلیک من نفسک. فقال عمر: فإنه الآن لأنت أحب إلی من نفسی، فقال النبی ": الآن یا عمر [" ۶] ، فتقدیم النبی علی النفس والولد والوالد والقبیلة والحزب وأی مصلحة هو مفتاح الإیمان الحقیقی. قال رسول الله صلی الله علیه وسلم: "لا یؤمن أحدکم حتی أکون أحب إلیه من ولده ووالده والناس أجمعین [" ۷] ، ولأن النبی جعل نفسه هی نفس علی ابن أبی طالب رضی عنه فی قوله تعالی: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءکم ونساءنا

[صفحه ۱۴۴]

ونساءکم وأنفسنا وأنفسکم) [۸] ، روی عن جابر قال ": أنفسنا وأنفسکم " رسول الله صلی الله علیه وسلم وعلی بن أبی طالب [۹] تقدیم خط دائرة الطهر أی أصحاب الکساء والمباهلة الذین فرض الله مودتهم والصلاة علیهم وجعل لهم سهما مع سهمه وسهم رسوله فی مال الله، فتقدیم هؤلاء، هو فی حقیقة الأمر تقدیم للرسول. قال النبی صلی الله علیه وسلم ": لا یؤمن أحدکم حتی أکون أحب إلیه من نفسه وأهلی أحب إلیه من أهله. وعترتی أحب إلیه من عترته وذریتی أحب إلیه من ذریته [" ۱۰] .

وولایة الله ورسوله. إذا کانت فی أعمال المؤمنین. لا یحق للمؤمنین أن یعتبروا أنفسهم أصحاب الاختیار. وکیف یکون المؤمن صاحب اختیار فی دائرة ولیها الله ورسوله. إن الله ولی عبده المؤمن. لأنه یلی أمره ویدبر شأنه. فیهدیه إلی صراطه المستقیم. ویأمره وینهاه فیما ینبغی له أو لا ینبغی. وینصره فی الحیاة الدنیا وفی الآخرة. المؤمن فی دائرة ولایة الله ورسوله. لا یری لغیر الله استقلالا فی التأثیر. ویقصر الملک والحکم فیه تعالی. فلا یخاف إلا إیاه أو ما یحب الله ویرید أن یحذر منه أو یحزن علیه... قال تعالی: (وما کان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضی الله ورسوله أمرا أن یکون لهم الخیرة من أمرهم ومن یعصی الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبینا) [۱۱] .

والخلاصة: ذکر سبحانه لنبیه صلی الله علیه وسلم من الولایة التی تخصه الولایة التشریعیة. وهی القیام بالتشریع والدعوة وتربیة الأمة والحکم فیهم والقضاء فی أمرهم، قال تعالی: (إنا أنزلنا إلیک الکتاب بالحق لتحکم بین الناس بما أراک الله) [۱۲] ، وقال تعالی: (وإنک لتهدی إلی صراط مستقیم) [۱۳] .

[صفحه ۱۴۵]

وللنبی صلی الله علیه وسلم الولایة علی الأمة فی سوقهم إلی الله والحکم فیهم والقضاء علیهم فی جمیع شؤونهم وله علیهم الإطاعة المطلقة. فترجع ولایته إلی ولایة الله سبحانه بالولایة التشریعیة. ونعنی بذلک أن له صلی الله علیه وسلم التقدم علیهم. بافتراض الطاعة. لأن طاعته طاعة لله. فولایته ولایة لله کما یدل علیه بعض الآیات السابقة کقوله... (أطیعوا الله وأطیعوا الرسول)، الآیة. وقوله: (وما کان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضی الله ورسوله أمرا) الآیة. وهذا المعنی من الولایة لله ورسوله هو الذی تذکره الآیة للذین آمنوا بعطفه علی الله

ورسوله فى قوله تعالى: (إنما وليكم الله ورسوله والـذين آمنوا الـذين يقيمون الصـلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) [۱۴] ، فالولاية فى هذه الآية واحدة. هى لله سبحانه بالأصالة. ولرسوله صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا بالتبع وبإذن منه تعالى. ولما كان الذين آمنوا لهم الولايـة بالتبع لرسول الله وبإذن من الله. فإن للذين آمنوا الذين يحملون الولاية شـروط أهمها أن يكون فيه نص إن الرجس لا يعرف له طريقـا وإن الطهارة له رداء إلا أنه سـيتعامل مع كتاب الله الـذى لا يمسه إلا المطهرون والـذى يكون فيه نصوص بأنه على علم بأحكام القرآن وشـرائعه. ولأنه بعلمه سـيرفع الاختلاف بين الناس. وأن يكون هـذا العلم قـد أخـذ من رسول الله، فعن على بن أبى طالب قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ": إن أولى النـاس بالأنبيـاء أعلمهم بمـا جـاؤوا به. ثم تلى قوله تعالى: (إن أولى الناس بإبراهيم للـذين اتبعوه وهذا النبى) [۱۵] ، وقال صـلى الله عليه وسلم ": إن للقرآن منارا كمنار الطريق فما عرفتم فخذوه وما أنكرتم فردوه إلى عالمه" [۱۶] ، وأن تكون فيه نصوص تثبت بأن يتمتع بقوة العفة والشجاعة والحكمة. لأن من يمتلك هذا تكون لديه ملكة العدالة.

[صفحه ۱۴۶]

ومن أهم الشـروط أيضا أن تكون حرمته جزءا لا يتجزء من الدعوة. بمعنى أن أخطر أعداء الدعوة هم المنافقون. فيجب أن يكون على علم بحركتهم. ولا يتحقق هـذا العلم إلا بنص قاطع بأنه لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق. فالإخبار بأن المنافق يبغضه فيه أن النص من عند الله العليم بذات الصدور. وفيه أن سياسـته تحت ضوئها سـتظهر جحافل النفاق. فإذا قطع الطريق على سياسـته فحدث ولا حرج. لأن النفاق عاجلا أو آجلا سـيشق طريقه إلى سـنن الأولين. فيأخـذ بذيلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع. فالإخبار بأن حبه رداء على المؤمن حجة على المنافق فى نهاية الطريق. وإن عذاب الله أليم شديد. باختصار يجب أن تكون فيه نصوص صـريحة صـحيحة متفق عليها عند أهـل القبلـة. تبين أن الله اختـاره فى مواطن وأن الرسول أعطاه الولايـة. وأن تكون حركته تسـير مع أخبار الرسول بالغيب عن ربه سـيرا واحـدا. بمعنى أن الرسول قد أخبر بأن أمته سـتفترق وأنها سـتتبع سـنن اليهود والنصارى شبرا بشبر وذراعا بذراع. وأمة اليهود وضـعت أول بذور الافتراق يوم اتخذوا العجل وكادوا أن يقتلوا نبى الله هارون. وظل خط العجل يعمل من بعد موسـى وهارون عليهما السـلام. فإذا كان هـذا الشـذوذ سـينتقل إلى الأمـة بصورة أو بأخرى. فلا بـد أن تكون هناك نصوص قاطعة. بأن حركة ولى رسول الله فى أول الطريق هى نفسـها حركة هارون فى أول الطريق. وعلى هذا يتم التطابق بين أمم اسـتخلفها الله لينظر كيف يعملون. يتم التطابق بين فعل ولى الله وهارون وبين حركـة أمـة فتيـة أخبر رسولها بالغيب عن ربه أنها على أثر الماضـين سائرة إلا من رحم الله. وعلى هذا النص إذا وقفنا فى آخر الطريق. ونظرنا إلى أول الطريق. سنعلم أن النص حق وسنرى شعاع النور رغم السحب الداكنة.

[۱] سورة آل عمران: الآية ۳۱.

[۲] سورة النحل: الآية ۴۴.

[۳] سورة النساء: الآية ۵۹.

[۴] سورة الأحزاب: الآية ۶.

[۵] تفسير ابن كثير ۴:۴۶۸.

[۶] البخارى ك الإيمان والنذور (الصحيح ۴:۱۴۹) وتفسير ابن كثير ۴:۴۶۷.

[۷] رواه أحمد والنسائى وابن ماجة عن أنس (كنز العمال ۱:۳۷).

[۸] سورة آل عمران: الآية ۶۱.

[۹] تفسير ابن كثير ۱:۳۷۱.

[۱۰] رواه الطبرانى والبيهقى عن عبد الرحمن بن أبى يعلى عن أبيه (كنز ۱:۴۱).

[۱۱] سورة الأحزاب: الآية ۳۶.

[۱۲] سورة النساء: الآية ۱۰۵.

[۱۳] سورة الشورى: الآية ۵۲.

[۱۴] سورة المائدة: الآية ۵۵.

[۱۵] اللالكائى (كنز العمال ۱:۳۷۹).

[۱۶] رواه الطبرانى (مجمع الزوائد ۱:۱۸۷).

ولاية على بن أبى طالب

هذا العنوان وضعته عندما لم أجد أحدا غير على بن أبى طالب ينطبق عليه
ما ذكرت سابقا. فعلى رضى الله عنه فيه نصوص قاطعة. قرآن يفسره حديث. وحديث يشهد للحديث الذى فسر القرآن. وحركة تاريخ تشهد للحديث وللنص
[صفحه ۱۴۷]
القرآنى. وأمام القرآن والحديث والتاريخ والواقع لم يجد الباحث إلا أن يكتب هذه الحقيقة. وما وجدناه من نصوص سنقدمه على امتداد هذا البحث. كل فى موضعه.

على بن أبى طالب والعلم

قدمنا فيما مضى كيف أنه من أهل الكساء. ومن الذين باهل بهم النبى
صلى الله عليه وسلم نصارى نجران وأنه كنفس النبى وأول من أسلم وأول من صلى معه صلى الله عليه وسلم. أما ما ورد فى علمه فإن البداية عندنا من قوله تعالى: (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية - لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) [۱] ، فهذه الآية إشارة إلى طوفان نوح. والجارية هى السفينة. والمحمول فى الحقيقة أسلاف الدين فى السفينة. لكون الجميع نوعا واحدا ينسب حال البعض منه إلى الكل. وضمير (لنجعلها) للحمل باعتبار أنه فعله. والمعنى: أى فعلنا بكم تلك الفعلة لنجعلها لكم أمرا تتذكرون به. وعبرة تعتبرون بها وموعظة تتعظون بها: وقوله تعالى: (وتعيها أذن واعية) المراد بوعى الأذن لها. تقريرها فى النفس وحفظها فيها. لتترتب عليها فائدتها وهى التذكر والاتعاظ. وفى الآية إشارة إلى الهداية الربوبية. وروى الضياء بسند صحيح وابن مردويه وأبو نعيم عن على بن أبى طالب [۲] ، وفى الدر المنثور أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مكحول قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سألت ربى أن يجعلها أذن على. قال مكحول: فكان على يقول: ما سمعت عن رسول الله شيئا فنسيته [۳] .
وانظروا الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والواحدى وابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن بردة قال: قال رسول الله صلى الله عليه
[صفحه ۱۴۸]
وسلم لعلى: إن الله أمرنى أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك. وأن تعى وحق لك أن تعى. فنزلت هذه الآية: (وتعيها إذن واعية). وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن على. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. يا على. إن الله أمرنى أن أدنيك وأعلمك لتعى. فأنزلت هذه الآية: (وتعيها أذن واعية) فأنت أذن واعية لعلمى. وهذا الحديث روى من عدة طرق. بلغت ستة عشر حديثا. فإذا كانت البداية مع آية تدل على أن ما سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم لا ينساه. فإن دخوله على النبى لأخذ العلم أمر لا جدال فيه، روى الإمام النسائى عن على بن أبى طالب. قال: كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة آتيه فيها، فإذا أتيته استأذنت إن وجدته يصلى فتنحنح دخلت. وإن وجدته فارغا أذن لى... وفى رواية - كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخلان مدخل بالليل ومدخل بالنهار [۴]
.

وعلی رضی الله عنه، تربی فی بیت النبوة. فالذی سهر علی تربیته هو النبی صلی الله علیه وسلم. وأصح ما ورد من الأخبار. إن النبی أخذ علیا من أبیه وهو صغیر. وأخذ العباس طالبا. لیخففا عن أبی طالب ثقلهم. ومن بیت النبوة شق علی بن أبی طالب طریق العلم حتی قیل فیه فی روایة صحیحة " أفضلنا علی [" ۵] ، وشهد أکثر من واحد أن علیا کان أدری الناس بعد رسول الله بالقرآن. عن أبی الطفیل قال: قال علی ": سلونی عن کتاب الله فإنه لیس فیه آیة إلا وقد عرفت بلیل نزلت أم بنهار فی سهل أم فی جبل [" ۶] ، وعن سلیمان الأحمسی.

[صفحه ۱۴۹]

قال علی ": إن ربی وهب لی قلبا عقولا- ولسانا صادقا [" ۷] ، وفی روایة ": والله ما ترکت آیة إلا وقد علمت فیم نزلت وأین نزلت وعلی من نزلت إن ربی وهب لی قلبا عقولا ولسانا صادقا [" ۸] ، وفی خلافته کان رضی الله عنه یقول ": اسألونی قبل أن تفتقدونی" [۹] قال ابن أبی الحدید فی شرح النهج: قد أجمع الناس

کلهم أنه لم یقل أحد من الصحابة ولا أحد من العلماء هذا غیر علی بن أبی طالب علیه السلام. وشهادة النبی لعلی بأنه أکثر أمته علما وردت فی أحادیث کثیرة ومنها حدیث " أنا مدینة العلم وعلی بابها فمن أراد العلم فلیأت الباب، " الذی رواه ابن عدی عن ابن عباس وابن عساکر عن جابر، والذی تعددت طرقه، فإن القوم ضعفوه ولهم أسبابهم فی تضعیف الأحادیث الواردة فی علی بن أبی طالب، وکذلک حدیث " أنا دار الحکمة وعلی بابها " الذی رواه الترمذی عن علی ورواه بعضهم عن ابن عباس. فلقد قالوا فیه ما قالوا [۱۰] ونحن هنا نقدم حدیثا لا

خلاف علیه یشهد لعلی بالعلم والحلم وهذا الحدیث. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: وجدت فی کتاب أبی بخط یده هذا الحدیث: عن معقل بن یسار. قال النبی صلی الله علیه وسلم لفاطمة رضی الله عنها ": أوما ترضین أنی زوجتک أقدم أمتی سلما وأکثرهم علما وأعظمهم حلما [" ۱۱] ، فهذا الحدیث أثبت سبقه إلی الإسلام. وأثبت له العلم والحلم. وکفی بهما لإثبات ملکة العدالة.

[صفحه ۱۵۰]

[۱] سورة الحاقة: الآیة ۱۲.

[۲] (کنز العمال ۱۳:۱۷۷).

[۳] تفسیر ابن کثیر ۴:۴۱۳.

[۴] النسائی باب السهو ۱۲:۲.

[۵] قال فی کشف الخفاء رواه البخاری فی التفسیر وأبو نعیم عن ابن عباس. والحاکم عن ابن مسعود: ورواه البغوی فی شرح السنة عن أنس، ورواه عبد الله بن أحمد بن حنجل عن ابن عباس وعبد الرزاق عن قتادة، وروی البخاری، وأبو نعیم عن عباس قال عمر: علی أقضانا (کشف الخفاء ۱:۱۸۴).

[۶] الطبقات الکبری ۲:۳۳۸.

[۷] الطبقات الکبری ۲:۳۳۸.

[۸] تاریخ الخلفاء، السیوطی ۱۷۳.

[۹] راجع ابن کثیر فی البدایة والنهایة ۷:۳۵۸.

[۱۰] الحاکم (المستدرک ۲:۴۶۶)، ابن حجر فی الإصابة (۲:۵۰۹)، فالسیوطی فی تاریخ الخلفاء ص ۱۲۴.

[۱۱] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الفتح الربانی ۲۳:۱۳۳) (مجمع الزوائد ۹:۱۰۱) ورواه ابن جریر عن علی بسند صحیح (۱۳:۱۱۴ کنز العمال)، ورواه الخطیب فی المتفق عن بریدة (کنز العمال ۱۳:۱۳۵).

اضواء علی اختیار الله لعلی

لقد کان للصحابهٔ مناقب، ولکن مناقب علی بن أبی طالب فاقت جمیع

المناقب. لأن طرفها الآخر کان الله ورسوله. وکان وراء المناقب هدف من ورائه حکمهٔ سنترکها لفطنهٔ القارئ. روی الطبرانی عن جابر. لما سأل أهل قباء النبی صلی الله علیه وسلم أن یبنی لهم مسجدا، قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": لیقم بعضکم فیرکب فحرکها فلم تنبعث. فرجع فقعد. فقام علی. فلما وضع رجله فی غرز الرکاب وثبت به. قال رسول الله صلی الله علیه وسلم: یا علی ارخ زمامها وأبنوا علی مدارها فإنها مأمورهٔ [۱] .

والذی نشیر إلیه فی هذا الحدیث أن الناقهٔ مأمورهٔ. وأن الذی أمرها هو خالقها. وعن زید بن أرقم قال: کان لنفر من أصحاب النبی صلی الله علیه وسلم أبواب شارعهٔ فی المسجد. فقال یوما: سدوا هذه الأبواب إلا باب علی. فتکلم فی ذلک الناس. فقام رسول الله صلی الله علیه وسلم. فحمد الله وأثنی علیه ثم قال: أما بعد فإنی أمرت بسد هذه الأبواب إلا باب علی. وقال فیه قائلکم وأنی والله ما سددت شیئا ولا فتحته. ولکنی أمرت بشئ فاتبعته [۲] .

وفی روایهٔ عن ابن عباس قال صلی الله علیه وسلم ": ما أخرجتکم من قبل نفسی. ولا أنا ترکته. ولکن الله أخرجکم وترکه إنما أنا عبد مأمور. ما أمرت به فعلت. إن اتبع إلا ما یوحی إلی [" ۳] .

[صفحه ۱۵۱]

وهذا الحدیث رواه تسعهٔ من الصحابهٔ [۴] ، ورغم صحته حکم علیه ابن الجوزی بأنه لا یصح لأنه یعارض حدیث ورد فی أبی بکر. ولقد تصدی غیر واحد من الأئمهٔ لابن الجوزی لتساهله والحکم علی الأحادیث الصحیحهٔ بالوضع. وقال ابن کثیر: هذا الحدیث لا ینافی ما ثبت فی البخاری فی حق أبو بکر [۵] .

والذی نحب أن نشیر إلیه فی هذا الحدیث إن الله هو الذی سعی وهو الذی فتح، وعن ابن عباس رضی الله عنهما قال: کان قوم عند النبی. فجاء علی. فلما دخل علی بن أبی طالب خرجوا. فلما خرجوا تلاوموا، فقال بعضهم لبعض: والله ما أخرجنا فارجعوا. فلما رجعوا قال النبی صلی الله علیه وسلم ": والله ما أدخلته وأخرجتکم ولکن الله أدخله وأخرجکم [" ۶] .

فی هذا الحدیث. الله هو الذی أخرج وأدخل. وعن جابر قال: دعا رسول الله صلی الله علیه وسلم علیا یوم الطائف، فانتجاه. فقال الناس: لقد طالت نجواه مع ابن عمه. فقال رسول الله صلی الله علیه وسلم: ما انتجیته ولکن الله انتجاه [" ۷] ، قال فی تحفهٔ الأحوذی: ناجاه سارهٔ وخصه بمناجاته. وقوله ": ما انتجیته " أی ما خصصته بالنجوی. ولکن الله انتجاه: أی. إنی بلغت عن الله ما أمرنی أن أبلغه إیاه. علی سبیل النجوی. فحینئذ انتجاه الله ولا انتجیته، وقال الطیبی: کان ذلک أسرار إلهیهٔ وأمور غیبیهٔ جعله من

[صفحه ۱۵۲]

خزانها [۸] ، وفی روایهٔ عند الطبرانی أن الذی قال: طالت نجواه مع ابن عمه. أبو بکر رضی الله عنه. فعن جندب بن ناجیهٔ. قال أبو بکر: یا رسول الله. قد طالت مناجاتک علیا منذ الیوم. فقال رسول الله: ما انتجیته ولکن الله انتجاه [" ۹] .

وفی هذا الحدیث أیضا الله هو الذی انتجاه، وعن أبی هریرهٔ، أن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال یوم خیبر: لأعطین هذه الرایهٔ رجلا یحب الله ورسوله یفتح الله علی یدیه. قال عمر بن الخطاب ما أحببت الإمارهٔ إلا یومئذ. قال: فتساورت لها رجاء أن أدعی لها. فدعی رسول الله صلی الله علیه وسلم ثم وقف ولم یلتفت. فصرخ. یا رسول الله علی ماذا أقاتل الناس؟ قال: قاتلهم حتی یشهدوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فإن فعلوا ذلک. فقد منعوا منک دماءهم وأموالهم لا یحقها علی الله [۱۰] وروی ابن جریر بسند صحیح

والضیاء عن عبد الرحمن بن أبی لیلی عن علی. أن رسول الله صلی الله علیه وسلم بعث أبا بکر فسار بالناس فانهزم حتی رجع إلیه. وبعث عمر فانهزم بالناس حتی رجع إلیه. فقال رسول الله صلی الله علیه وسلم: لأعطین الرایهٔ رجلا یحب الله ورسوله یفتح الله له لیس بفرار الحدیث [۱۱] ، وروی ابن کثیر فی البدایهٔ ": بعث النبی صلی الله علیه وسلم أبو بکر فلم یکن فتح. ثم بعث عمر فلم یکن فتح...

الحدیث، " وقال رواه ابن إسحاق والبیهقی [۱۲] ، ومن بعض الروایات یستفاد أنه بعد هزیمهٔ أبی بکر وعمر رضی الله عنهما. وعندما سمعا قول الرسول

[صفحه ۱۵۳]

صلی الله علیه وسلم بعد ذلک ": لأعطین الرایهٔ رجلا یحب الله ورسوله ویحبه الله ورسوله، " أراد أبو بکر وعمر رضی الله عنهما أن ینال کل واحد منهما هذه المرتبهٔ، وهذا أمر طبیعی فالجمیع یریدون إرضاء ربهم ونیل رضاه، ولکن الرسول أعطاها لعلی. ورغم هذا فإن فضل الذین لم یأخذوا الرایهٔ لا یستطیع أن ینکره أحد. ومن الروایات التی تثبت أن أبا بکر وعمر رضی الله عنهما قد کررا المحاولهٔ لأخذ الرایهٔ ما ثبت فی إصحاح کما ذکر ابن کثیر أن النبی صلی الله علیه وسلم قال یوم خیبر ": لأعطین الرایهٔ غدا رجلا یحب الله ورسوله ویحبه الله ورسوله بفرار یفتح الله علی یدیه، " فبات الناس یدرکون أیهم یعطاها حتی قال عمر: ما أحببت الإمارهٔ إلا یومئذ. فلما أصبح أعطاها علیا ففتح الله علی یدیه [۱۳] فهذه الروایهٔ تثبت أن عمر قد أراد أن یقوم بالمحاولهٔ مرهٔ أخری. بعد

المحاولهٔ الأولی التی وردت فی الصحاح عن بریدهٔ بن الحصیب قال: حاصرنا خیبر. فأخذ اللواء أبو بکر فانصرف ولم یفتح له. ثم أخذه من الغد عمر فخرج ولم یفتح له. وأصاب الناس یومئذ شدهٔ وجهد فقال رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم ": إنی دافع اللواء غدا إلی رجل یحبه الله ورسوله ویحب الله ورسوله. لا یرجع حتی یفتح له "... الحدیث [۱۴] .

فالحدیث یبشر بأمرین: الأول: إن الرایهٔ غدا سیأخذها رجل یحبه الله ورسوله. ولهذا ود کل فرد أن یکون هذا الرجل. حتی أنهم تسارعوا إلی رسول الله صلی الله علیه وسلم لما ورد عن أبی سعید الخدری قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم أخذ الرایهٔ فهزها. ثم قال ": من یأخذها بحقها. فجاء فلان!! فقال: أنا، فقال النبی: امض. ثم جاء رجل آخر! فقال: أنا. فقال: امض. ثم قال النبی صلی الله علیه وسلم: والذی کرم وجه محمد لأعطینها رجلا لا یقر. فجاء

[صفحه ۱۵۴]

علی فانطلق حتی فتح الله علیه [۱۵] .

والثانی: فإن الحدیث بشر بالنصر وکان لهذا التبشیر أثره علی الصحابهٔ، فعن أبی بریدهٔ بن الخطیب قال: فبتنا طیبهٔ أنفسنا أن الفتح غدا [۱۶] ، فالبشارهٔ الأولی والثانیهٔ کانت لهدف من ورائه حکمهٔ وفیهما إعجاز حیث أخبر النبی بفتح کان ما زال فی عالم الغیب. وعلی الرغم من أن الحدیث الماضی یخبر صراحهٔ أن الله تعالی یحب علیا. إلا أن بعض علماء الحدیث ضعف حدیث الطیر، فعن أنس قال: أهدی إلی رسول الله صلی الله علیه وسلم طائر. فقال النبی: اللهم ائتنی بأحب الخلق إلیک وإلی یأکل معی من هذا الطیر. فدخل علی بن أبی طالب. فقال: اللهم والی [۱۷] فهذا الحدیث کما قال ابن کثیر: صنف الناس فیه وله طرق

متعددهٔ. ورواه عن أنس أکثر من ثلاثین نفسا. وقد جمع الناس فی هذا الحدیث مصنفات منهم أبو بکر بن مردویه والحافظ أبو الطاهر محمد بن أحمد ورأیت فیه مجلدا فی جمیع طرقه وألفاظه لابن جریر الطبری [۱۸] ، فعلی الرغم من کل هذا وضعه ابن الجوزی فی الموضوعات ورفضه ابن کثیر. لسبب واحد یکمن فی القلب ولا یستند علی أی أساس علمی قال ابن کثیر فی هذا السبب: وبالجملهٔ ففی القلب من صحهٔ هذا الحدیث وإن کثرت طرقه [۱۹] ، وفی هذا الحدیث قال

[صفحه ۱۵۵]

صاحب تحفهٔ الأحوازی: الحدیث له طرق کثیرهٔ کلها ضعیفهٔ. وقد ذکره ابن الجوزی فی الموضوعات. وأما الحاکم فأخرجه فی المستدرک وصححه، وحدیث الطیر له طرق کثیرهٔ جدا أفردتها بمصنف ومجموعها یوجب أن یکون للحدیث أهل [۲۰] .

[۱] رواه الطبرانی فی الکبیر (کنز العمال ۱۳۹:۱۳).

[۲] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۱۱۸:۲۳)، وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۱۴:۹) ورواه الضیاء فی المختارهٔ بسند صحیح (کنز العمال ۵۹۸:۱۱) ورواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۲۵:۳).

[۳] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱۱:۶۰۰).

[۴] نظم المتواتر فی الحدیث المتواتر / الکتانی ص ۱۹۲.

[۵] قال فی تحفة الأحوذی. حکم ابن الجوزی علی هذا الحدیث بالوضع. لأنه یعارض حدیث أن النبی أمر بسد الأبواب إلا باب أبی بکر. ورد ابن حجر علیه وقال: لحدیث علی طرق کثیرة بلغت بعضها حد الصحة وبعضها مرتبة الحسن (التحفة ۲۳۷:۱۰) وعاب علی ابن الجوزی لتساهله فی وصم بعض الأحادیث بالوضع الشیخ ابن الصلاح وقال: لا یعبأ بما قاله ابن الجوزی. کما عقب علیه الحافظ السیوطی بکتاب أسماه النکت البدیعات فی الرد علی الموضوعات. (البدایة والنهایة ۳۴۲:۷).

[۶] رواه البزار وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۱۵:۹).

[۷] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۳۹:۵) وأورده ابن کثیر فی البدایة (البدایة ۳۵۷:۷).

[۸] تحفة الأحوازی (۲۳۱:۱).

[۹] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱۳۹:۱۳).

[۱۰] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۱۳۲:۲۳) ورواه الإمام مسلم بلفظ " رجل یحب الله ورسوله ویحبه الله ورسوله (الصحیح ۱۷۶:۱۵)، ورواه الترمذی مختصرا عن سعد وحسنه (تحفة الأحوازی ۲۲۹:۱۰).

[۱۱] ابن جریر والضیاء بسند صحیح ورواه ابن أبی شیبة وأحمد وابن ماجة والبزار والطبرانی فی الأوسط والحاکم والبیهقی فی الدلائل (کنز العمال ۱۱۲:۳) (البدایة والنهایة ۳۳۷:۷).

[۱۲] البدایة والنهایة ۱۸۶:۴.

[۱۳] أخرجه مسلم (البدایة والنهایة ۳۳۷:۷).

[۱۴] أخرجه أحمد والنسائی (البدایة والنهایة ۳۳۸:۷).

[۱۵] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۵۱:۶)، وقال ابن کثیر رواه أحمد وأبو یعلی (البدایة ۳۳۹:۷).

[۱۶] رواه أحمد (البدایة ۲۳۸:۷).

[۱۷] رواه الترمذی وقال حدیث غریب وقال: وقد روی من غیر وجه عن أنس وعیسی بن معمر والسدی إسماعیل بن عبد الرحمن وسمع عن أنس بن مالک، ورأی الحسین بن علی. وثقه شعبة وسفیان الثوری وزائده ووثقه یحیی بن سعید القطان (الجامع ۶۳۶:۵) وقال الهیثمی رواه البزار والطبرانی ورجال الطبرانی رجال الصحیح غیر فطر بن خلیفة وهو ثقة (الزوائد ۱۲۶:۹) ورواه ابن عساکر عن ابن عباس وعن أنس بطرق مختلفة ورواه ابن النجار (کنز العمال ۱۶۷:۱۳).

[۱۸] البدایة والنهایة ۳۵۱:۷.

[۱۹] البدایة والنهایة ۳۵۱:۷.

[۲۰] تحفة الأحوذی ۱۲۴:۱۰.

اضواء علی قیادة علی

مما سبق علمنا أن اختیار الله تعالی لشخص علی بن أبی طالب قد حدث

فی أماکن عدیدة علی امتداد الرسالة المحمدیة. ففی المسجد سد النبی جمیع الأبواب إلا باب علی. وعند بناء قباء لم تسر الناقة إلا بعلی. وفی میدان من میدان الحرب ناجی رسول الله علیا. وفی منزل الرسول أخرج الله أناس وأدخل علیا. وفی خیبر أخذ الرایة علیا. فهذه الأحداث تدل حرکتها علی أن هناک ضوءا محددا علی شخص محدد وهذا الضوء یبتغی ثقافة محددة للناس. وعلی امتداد هذا الطریق کان هناک طریق آخر یسیر بجانبه. هدفه أیضا الوصول إلی هذه بثقافة التی ینبغی فی النهایة تکوین رأی عام. ومن أحادیث

هذا الطريق. الحديث الصحيح عن على قال: لما نزلت هذه الآية: (وأنذر عشيرتك الأقربين) [۱] ، جمع النبى عشيرته. فاجتمع ثلاثون. فأكلوا وشربوا. فقال لهم النبى: من يضمن عنى دينى ومواعيدى ويكون معى فى الجنة، ويكون خليفتى فى أهلى. فقال رجل: يا رسول الله أنت كنت بحرا. من يقوم بهذا. فعرض الرسول هذا عليهم واحدا واحدا. فقال على: أنا [۲] ، وفى رواية: أيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ووارثى. فلم يقم إليه أحد فقمت إليه وكنت أصغر

[صفحه ۱۵۶]

القوم [۳] ، وفى رواية ": قال النبى: من يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ووليكم من بعدى. فمددت وقلت: أنا أبايعك. وأنا يومئذ أصغر القوم. فبايعنى على ذلك [۴] ، وفى رواية عند ابن إسحاق وابن جرير وابن حاتم وابن مردويه وأبو نعيم أن النبى قال عندما بايعه على ": إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام يضحكون ويقولون لأبى طالب: قد أمرك أن نسمع ونطيع لعلى [" ۵] .

فالآية تصرح إنذار العشيرة الأقربين. ولم تصرح بإنذار قريش. والعشيرة الأقربين إما بنو عبد المطلب أو بنو هاشم، وفى مجمع البيان" عشيرة الرجل. قرابته سموا بذلك لأنه يعاشرهم وهم يعاشرونه، " وخص عشيرته وقرابته الأقربين بالذكر. تنبيها على أنه لا استثناء فى الدعوة الدينية. ولا مهادنة ولا مساهلة. فلا فرق فى تعلق الانذار بين النبى وأمته. ولا بين الأقارب والأجانب. فالجميع عبيد الله والله مولاهم. وإنذار العشيرة الأقربين. كان هو المقدمة الأولى لإلقاء الضوء على على بن أبى طالب – ضوء فى مركز الدائرة التى قدر لها أن تتسع شيئا فشيئا. اتساع يواكب حركة الدعوة ويضع فى اعتباره النفس القبائلية العشائرية التى ترفض فرض أى قيادة عليها وفقا للتصور الجاهلى. وإذا كان على بن أبى طالب قد أصبح بعد مبايعته الرسول رأس القوم رغم صغر سنه [۶] فإنه بنص آية أخرى

ارتقى إلى مرتبة أعلى، قال تعالى لرسوله: (إنما أنت منذر ولكل قوم

[صفحه ۱۵۷]

هاد) [۷] ، قال المفسرون: إنما أنا وأنت يا محمد هاد تهديهم من طريق الانذار. وقد جرت سنة الله فى عباده أن يبعث فى كل قوم هاديا يهديهم. والآية تدل على أن الأرض لا تخلو من هاد يهدى الناس إلى الحق. إما نبى منذر وإما هاد غيره يهدى بأمر الله. وفى الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم فى المعرفة والديلمى وابن عساكر وابن النجار. قال: لما نزلت: (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد)، وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال: أنا المنذر. وأومأ بيده إلى منكب على فقال ": أنت الهادى يا على بك يهتدى المهتدون من بعدى [" ۸] ، وروى الحاكم عن بريدة الأسلمى قال ": دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهور وعنده على بن أبى طالب فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد على بعدما تطهر. فألصقها بصدره ثم قال ": إنما أنت تنذر " ويعنى نفسه. ثم ردها إلى صدر على ثم قال ": ولكل قوم هاد " ثم قال له: أنت منار الأنام وغاية الهدى وأمير القراء وأشهد على ذلك إنك كذلك. وفى تفسير ابن كثير عن على قال ": ولكل قوم هاد " الهادى رجل من بنى هاشم. قال الجنيد: هو على بن أبى طالب رضى الله عنه [۹] .

لقد كان الضوء يتسع شيئا فشيئا. اتسع بيوم المباهلة ويوم الكساء ويوم سد الأبواب إلا باب على. ويوم إن دعا الكتاب إلى مودة ذو القربى وسهم ذى القربى. إلى غير ذلك. حتى جاء اليوم الذى وضع فيه حول على منقبه من أعظم المناقب لأن عليها تدور الحركة الواسعة للدعوة الإسلامية. روى الإمام مسلم عن على قال ": والذى فلق الحبة وبرأ النسمة أنه لعهد النبى الأمى إلى. أن لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق [" ۱۰] ، وعن أم سلمة قال: كان رسول الله

[صفحه ۱۵۸]

صلى الله عليه وسلم يقول ": لا يحب عليا منافق ولا يبغضه مؤمن [" ۱۱] ، وعن أبى سعيد الخدرى قال ": إنا كنا نعرف المنافقين نحن معشر الأنصار ببغضهم على بن أبى طالب [" ۱۲] ، فهذه المنقبة هى عين المواجهة بين الدعوة وبين دائرة الرجس التى تسترت بجلباب

الـدين وما هى من الـدين. وبـدأت دائرة الضوء تتسع. حتى كان يوم تبوك. اليوم الـذى عزم فيه التيار التخريبى لـدائرة الرجس ودائرة البخس على اغتيال الرسول. وافتتاح المسـجد الضـرار. وفتـح الأبواب لاسـتقبال الغزو الخارجى الذى تحمل أعلامه جيوش قيصـر [۱۳] وما بين أيدينا من روايات. يؤكد أن المنافقين ما كانوا يريدون

على بن أبى طالب فى المدينة. لقد اسـتعملوا أسـلوب الحرب النفسـية ضد على عندما علموا أن الرسول صـلى الله عليه وسـلم سـيخلفه على المدينـة. ولكن النبى قطع عليهم حبل تفكيرهم ووضع حول على منقبـة ارتبطت بمنقبة لا يحب عليا منافق ولا يبغضه مؤمن برباط وثيق. قال له النبى كما وردت فى صحيح مسلم " أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى [" ۱۴] ، وفى رواية عن ابن عباس ": أما ترضـى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنك لست منى أنه لا ينبغى أن أذهب إلا وأنت خليفتى ["۱۵] ، وفى رواية ": إنه لا ينبغى أن أذهب إلا وأنت خليفتى فى كل مؤمن بعدى [" ۱۶] .

لقد أشاعوا أن النبى ترك عليا بين النساء والصبيان كما ورد فى أحاديث

[صفحه ۱۵۹]

صحيحـة وأشاعوا غير ذلك كما ورد فى تاريخ الطبرى، قال على للنبى ": زعم المنافقون إنك إنما خلفتنى إنك اسـتثقلتنى وتخففت منى، " فقـال له النبى: كـذبوا... أما ترضـى يا على أن تكون منى بمنزلـة هارون من موسـى إلا أنه لا نبى بعـدى [" ۱۷] لقد كان عليا مقياسا لما يجرى على طريق تبوك. به يظهر النفاق

ويشع. ووجوده فى المدينة فى غياب الرسول صـلى الله عليه وسـلم يحدد الخنادق بدقة. فأى ثقافة تخرج من المسجد الضرار لا يرضى عنهـا على فهى ثقافـة نفاق. وأى حشـد فى اتجاه المدينـة لا يرضـى عنه على فهو حشـد نفاق. وأى معارض يعارض أمرا لعلى فهو فى دائرة النفاق. كما ذكر أبو سعيد الخدرى " كنا نعرف المنافقين نحن معشر الأنصار ببغضهم على بن أبى طالب [" ۱۸] .

"حديث المنزلة رواه البخارى ومسـلم والترمذى وغيرهم. وقال ابن عساكر. وقد روى هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من الصـحابة منهم عمر بن الخطاب وعلى وابن عباس وغيرهم. وقد تقصى ابن عساكر هذا الحديث فى ترجمة على فى تاريخه فأجاد وأفاد وبرز مع النظراء والأشباه والأنداد [۱۹] .

ولقـد ناقش العديـد من الأفاضل هـذا الحديث على خلفية أن هارون (ع) مات قبل موسـى (ع) وتركوا لفظ " منزلة " وهو الذى يدور عليه الحـديث. ومنزلـة هـارون ينبغى أن تنـاقش فى ضوء الآيات القرآنيـة وليس فى ضوء التواريـخ الإسـرائيلية. فقـد قال تعالى: (ولقد جاءكم موسـى بالبينات ثم اتخـذتم العجل من بعده) [۲۰] ، فالآيـة تخبر أن موسـى عليه السـلام جاءهم بالبينات. واتخاذهم العجل من بعده، اسـتمرارا لفعلهم. فهم فى الحقيقة اتخذوا العجل فى حياة موسى. وهارون عليه السلام كان عليه شعاع من الضوء فى حياة موسى عليه السلام.

[صفحه ۱۶۰]

فقبل ذهاب موسـى لميقات ربه قال لأخبره كما أخبر تعالى: (قال موسـى لأخيه هارون أخلفنى فى قومى وأصلح) [۲۱] ، فهارون عليه السـلام نبى وخليفـة (اخلفنى فى قومى) والشـعاع الذى حول على بن أبى طالب يطول منزلة الخلافة التى تقلدها هارون بنص الحديث الذى رواه الشـيخان ولا يطول منزلة النبوة حيث لا نبوة بعد رسول الله صـلى الله عليه وسـلم وأصحاب المسجد الضرار فى بنى إسرائيل نصـبوا العجـل فى دائرته. ولمـا حـاول هـارون الاصـلاح استضـعفوه. قـال هارون عليه السـلام كما أخبر تعالى: (إن القوم استضـعفونى وكادوا يقتلوننى) [۲۲] ، ولأن القاعـدة الأساسـية فى دين الفطرة أنه لا إكراه فى الـدين، وأن الله غنى عن العالمين. فإن هارون بعد أن أقـام عليهم الحجـة اعتزل هو ومن آمن معه. وبعـد عودة موسـى عليه السـلام قـال لأـخيه كمـا أخبر تعالى: (قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضـلوا - ألا تتبعن أفعصـيت أمرى - قال يا بن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسـى إنى خشـيت أن تقول فرقت بين بنى إسـرائيل ولم ترقب قولى) [۲۳] ، لقد عمل هارون من أجل المحافظة على الرمز والشعار الإسلامى وكفى به فى عالم المعابد الضرار. أما موسى عليه

السلام. فلقد كان له رأى فيهم بعد أن خرجوا عن خط الخلافة الذى حدده. قال لهم فيما أخبر الله: (قال بئسما خلفتمونى من بعدى) [۲۴] ثم دعا موسى ربه: (قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك

وأنت أرحم الراحمين) [۲۵] أما الذين اتخذوا العجل فضربهم الجزاء العادل بعد

أن أشربوا فى قلوبهم حب العجل، قال تعالى: (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين) [۲۶].

[صفحه ۱۶۱]

فهذه منزلة هارون أخو موسى عليهما السلام وعلى هذا يجب أن تقاس منزلة على بن أبى طالب أخى رسول الله - كما جاء فى الحديث الصحيح قول النبى صلى الله عليه وسلم لعلى ": أنت أخى وأنا أخوك فإن ذكرك أحد فقل أنا عبد الله وأخو رسول الله لا يدعيها بعد إلا كذاب [" ۲۷].

فموسى عليه السلام فى أول الأيام يتلقى كلمات ربه جل وعلا وخلف أخاه هارون بعده على قومه. ومحمد صلى الله عليه وسلم فى البعثة الخاتمة ذهب ليضرب من أجل. كلمة ربه. وخلف أخاه عليا بعده على قومه. وبعد عودة موسى عليه السلام أبلغه هارون بالأحداث فحرق العجل ونسفه فى اليم نسفا. وبعد عودة محمد صلى الله عليه وسلم حرق المسجد الضرار. وبعد موسى جرى حب العجل فى الدماء، وبعد محمد صلى الله عليه وسلم جرت الريبة فى قلوب الذين اتخذوا المسجد الضرار. ولله فى خلقه شؤون. ومناقب على بن أبى طالب ومنزلته لم تقف عند تدمير المسجد الضرار. فالأحاديث الصحيحة تبين أن دائرة النور حول على بدأت تتسع على شكل لم يسبق له مثيل بعد تبوك. ويبدو والله أعلم أن هناك أحداثا جرت بعد فشل عملية اغتيال الرسول وثقافة المسجد الضرار، فمجموعة التخريب التى تتكون من اثنى عشر رجلا- والتى حملت على عاتقها عملية قتل الرسول. كان من بينهم رجال من قريش. والأحداث بعد ذلك تقول أن الأمور حول مكة لم تكن تجرى على الوضع الطبيعى. ومن المعروف أن فتح مكة كان فى العام الثامن الهجرى. وفى هذا العام دخل الإسلام مجموعة تسترت برداء الإسلام وكان لها الأثر البالغ فى إيجاد الانحرافات التى حفرت فى الجسد الإسلامى حفر نازفة سنتعرض لها فى حينه، وبعد فتح مكة وفى العام التاسع كانت فورة النفاق. حيث دبرت حادثة اغتيال

[صفحه ۱۶۲]

الرسول وبناء المسجد الضرار. وعلى إثر هذه التطورات كان للدعوة موقفها الجازم من خدمة النفاق والشرك. فقبل نزول سورة براءة كانت سيرة الرسول. أن لا- يقاتل إلا- من قاتله ولا- يحارب إلا من حاربه وأراده. وقد كان أنزل عليه فى ذلك: (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا)، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يقاتل أحدا قد تنحى عنه واعتزله. حتى نزلت عليه سورة براءة وأمره بقتل المشركين. من اعتزله ومن لم يعتزله إلا الذين قد عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة إلى مدة. ومنهم: صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو. فقال تعالى: (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين - فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) [۲۸]، لقد جعلهم فى مأمن من هذه البرهة من الزمان. وتركهم بحيث لا- يتعرض لهم بشر حتى يختاروا ما يرونه أنفع بحالهم من البقاء أو الفناء. وأخبرهم أن الأصلح بحالهم رفض الشرك فإذا انتهت المدة ولم يستقروا على الأصلح. فالفناء (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) [۲۹]، فالبراءة بعد العهد لا بد أن يكون سببها التعدى من جانب المخلوق. وسورة براءة نزلت بعد عودة النبى صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة. وكان الصحابة يسمونها السورة الفاضحة. نظرا لأنها كشفت المخططات ووضعت الجهاز التخريبى فى مأزق كما يستفاد من رواية ابن عباس فى صحيح مسلم. فعن سعيد بن جبير قال. قلت لابن عباس: سورة التوبة. قال: التوبة!! بل هى الفاضحة!! ما زالت تنزل. ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى منا أحدا إلا ذكر فيها [۳۰].

فما هى الأحداث التى أدت إلى نزول الوحى بقوله تعالى: (كيف يكون

[صفحه ۱۶۳]

للمشركين عهد عند الله وعند رسوله - إلى قوله تعالى - قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم...) [۳۱] ، ومن المعلوم أن أبا عامر مؤسس المسجد الضرار كان على علاقة وطيدة بمشركى المغرب والمنافقين فى كل مكان. ولقد اتفق مع الجميع على أن يتوجه إلى قيصر الروم ويحثه على غزو المدينة، وعلى امتداد هذه المساحة تمت محاولة اغتيال الرسول وبناء المسجد الضرار ويبدو أن هناك مؤامرة اتفق عليها الحاقدون على الإسلام فى مكة بعد فتحها وطائفة المشركين وتيارات النفاق - والدليل على ذلك فورة الصد عن سبيل الله التى تحدث القرآن والسنة عنها بعد فتحة مكة. تلك الفورة التى اختفت وراء جدار يرتدى ثياب الإسلام. ومن الدليل أيضا أن هذه الفورة استهدفت على بن أبى طالب أيضا. وذلك حينما أشاعوا يوم أن تركه النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة يوم ذهابه إلى تبوك. إن النبى تركه مع النساء والصبيان وأنه قد استثقله وتخفف منه. وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أخبر مشركى مكة بعد صلح الحديبية. أن لهم يوما من على بن أبى طالب حيث سيقاتلهم على تأويل القرآن كما قاتلهم على تنزيله. وسنتحدث عن هذه الأخبار فى حينه. فدائرة الحقد على الإسلام كانت تختزن فى ذاكرتها ما تخبئه لهم الأيام. وظل اتباع هذه الدائرة يكيدون للدعوة فى حياة الرسول وبعد مماته صلى الله عليه وسلم على هذا الأساس فضلا على كراهيتهم الأصيلة للدعوة. ومن الواضح أن دائرة الرجس ودائرة الدنس. اتفقتا على ثقافة يقتحمون بشذوذها المجتمع الإسلامى. ويتبين هذا من الحكم الذى بعث به النبى صلى الله عليه وسلم مع على بن أبى طالب إلى المشركين. حيث قال ": لا يطوفن بالبيت عريان، " وكانت سنة العرب فى الجاهلية عندما يقصدون البيت الحرام. إن من دخل مكة وطاف البيت فى ثيابه. لم يحل له إمساكها. وكانوا يتصدقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف. فكان من جاء إلى مكة يستعير ثوبا ويطوف فيه ثم يرده. ومن لم يجد من يعيره ولم يكن إلا ثوابا واحدا. طاف بالبيت عريانا.

[صفحه ۱۶۴]

والأحاديث الصحيحة تخبر بأن الفترة الأخيرة - بعد تبوك - إن امرأة طافت بالبيت عريانة وأشرف لها الناس. فوضعت إحدى يديها على قبلها والأخرى على دبرها. وقالت شعرا:

اليوم يبدو بعضه أو كله++

فما بدا منه فلا أحله

فلما فرغت من الطواف هرول إليها جماعة من الناس. ومن هذا يظهر والله أعلم أن فروع التآمر كانت كثيرة، وعندما نزلت السورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بها مع أبى بكر إلى المشركين. فلما خرج أبو بكر نزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد لا يؤدى عنك إلا رجل منك. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب فى طلب أبى بكر. فلحقه بالروحاء وأخذ منه الآيات - وفى رواية - قال أبو بكر يا رسول الله نزل فى شئ؟ قال: لا ولكن جبريل جاءنى فقال: لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك [۳۲] ، وفى الدر المنثور أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل وأبو الشيخ وابن مردويه عن على قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبى صلى الله عليه وسلم. دعا أبا بكر رضى الله عنه ليقرأها على أهل مكة. ثم دعا لى فقال لى: أدرك أبا بكر فحينما لقيته فخذ الكتاب منه، ورجع أبو بكر إلى النبى فقال: يا رسول الله نزل فى شئ؟ قال: لا ولكن جبريل جاءنى فقال: لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك [۳۳] .

وفى الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر رضى الله عنه ببراءة إلى أهل مكة ثم بعث

[صفحه ۱۶۵]

عليا رضى الله عنه على أثره. فأخذها منه. فكان أبا بكر وجد فى نفسه فقال النبى صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر إنه لا يؤدى عنى إلا

أنا أو رجل منى. وفى الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبى رافع قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله ببراءة إلى الموسم. فأتى جبريل عليه السلام. فقال: إنه لا يؤديها إلا أنت أو رجل منك، فبعث عليا رضى الله عنه على أثره. حتى لحقه بين مكة والمدينة فأخذها فقرأها على الناس فى الموسم. فذهاب على بن أبى طالب، علاوة على أنه لا يؤدى عن النبى إلا هو كما ورد فى الحديث الصحيح عن حبشى بن جنادة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ": على منى وأنا من على ولا يؤدى عنى إلا أنا أو على" [۳۴] ، إلا أنه يستقيم مع الأحداث حيث فورة النفاق، وحيث إخبار النبى لقريش يوم الحديبية بأن لهم من على بن أبى طالب يوما فعن ربعى بن على، أن النبى قال لهم يومئذ: يا معشر قريش لتنتهين أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين. قد امتحن الله قلبه على الإيمان. قالوا: من هو يا رسول الله؟ وقال أبو بكر: من هو يا رسول الله؟ وقال عمر: من هو يا رسول الله؟ قال: هو خاصف النعل. وكان قد أعطى عليا نعله يخصفها [۳۵] .

لهذا نقول أن بعث على بن أبى طالب بسورة براءة له أبعاد متعددة. فأبو بكر لم يثبت أن له قتيل فى الإسلام. ولم يكن رضى الله عنه مشهورا بالشجاعة ولقاء الحروب. وأيضا لم يكن جبانا ولا خوارا. وإنما كان رجلا عاقلا ذا رأى وحسن تدبير، والآيات تحمل منهجا لا مهادنة فيه ولا مساهلة. فإعطاؤها لأبى بكر أولا ثم إعطاؤها لعلى بعد ذلك فيه تلويح بالعصا الغليظة. وحول هذا الحديث أدلى كل منهم بدلوه، فقال البعض: إن النبى بعث عليا بالسورة لأن من عادة العرب أن لا يحل ما عقده الرئيس منهم. إلا هو أو

[صفحه ۱۶۶]

المتقدم من رهطه. فإذا كان كذلك. فهل يجوز أن يجرى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى سنته وأحكامه على عادات الجاهلية؟ ثم لو كانت سنة عربية جاهلية فما وزنها فى الإسلام وما هى قيمتها عند النبى، وقد كان ينسج كل يوم سنة جاهلية وينقض كل حين عادة قومية. ثم إذا كانت سنة عربية ومعروفة للنبى قبل بعثه أبا بكر بسورة براءة. فما باله لم يعتمدها فى الابتداء، ويبعث إليهم بمن يجوز أن يحل عقده من قومه؟ هل نسيها النبى حين سلم الآيات إلى أبى بكر. وعندما خرج أبو بكر ذكر النبى ما نسيه. هل يجوز ذلك وهو صلى الله عليه وآله وسلم المثل الأعلى فى مكارم الأخلاق واعتبار ما يجب أن يعتبر من الحزم وحسن التدبير. ثم إذا كانت سنة عربية فلماذا لم يذكر النبى ذلك عندما رجع إليه أبو بكر ليسأله. وقال له: إنه أوحى إلى أن لا يؤدى عنى إلا أنا أو رجل منى. " إن كلمة" أوحى إلى " أو " أخبرنى جبريل " فى الحديث. هى المحك فى الحدث. والذى يمكن أن يقال عند الجمع بين الروايات. أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم سلم إلى أبى بكر السورة. بإذن الله. إلا أنه لم يأمر بأدائها ولا كلف بقراءتها على أهل الموسم. سلمت إليه وأمر بالتوجه إلى أن يأذن الله فيها. وقد قال البعض: إن الفائدة فى ذلك ظهور فضل على بن أبى طالب ومرتبته. ولكنى أميل أن ظهور الفضل فى مساحة الأحداث كلها علاوة على المناقب التى وضعت حول على على امتداد الرحلة أوقع من ظهوره فى هذه المساحة الضيقة. فعلى لم يذهب ليبلغ براءة فقط وإنما ليبلغ أحكاما أيضا. فهو يبلغ كلمة الوحى وكلمة الرسول عن الوحى. فعن زيد بن يثيع قال سألنا عليا بأى شئ بعثت فى الحجة. قال: بعثت بأربع أن لا يطوف بالبيت عريان. ومن كان بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر. ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة. ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا [۳۶] .

[صفحه ۱۶۷]

من هذا نعلم أن على بن أبى طالب كان يتحرك فى ساحة واسعة تجرى عليها أحداث متعاقبة فى العام التاسع الهجرى، ترى ماذا يقول أصحاب الرأى القائل أن من عادة العرب أن لا يحل ما عقده الرئيس إلا المتقدم من رهطه. إذا قلنا لهم. إذا كان على بن أبى طالب هو الذى أناب عن الرسول فى حل عقدة من قومه. باعتبار أنه المتقدم فى رهطه والذى يؤدى عنه. فمن غير على بن أبى طالب بعد وفاة الرسول يحسم ما أعلنه على على القوم فى حياة الرسول. والسنة العربية تقول أن التفاوض لا يكون إلا مع الرئيس أو المتقدم من رهطه. وخصوصا أن الآيات التى رفعت الأمان فى سورة براءة عن المشركين لم تهمل أى طريق يرجى فيه الوصول إلى الهداية. قال

تعالی: (وإن أحد من المشرکین استجارک فأجره حتی یسمع کلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلک بأنهم قوم لا یعلمون) [۳۷] ، قال ابن کثیرهٔ: وإن أحد من المشرکین الذین أمرتک بقتالهم وأحللت لک استباحهٔ نفوسهم وأموالهم استأمنک فأجبه إلی طلبه حتی یسمع القرآن فقرؤه علیه وتذکر له شیئا من أمر الدین تقیم به علیه حجهٔ الله. ثم اعطه الأمان حتی یرجع إلی بلاده وداره. وإنما شرعنا أمان مثل هؤلاء لیعلموا دین الله وتنتشر دعوهٔ الله، وکان رسول الله صلی الله علیه وسلم یعطی الأمان لمن جاء مسترشدا [۳۸] .

إذا فهناک عقود أمان. فإذا کان علی بن أبی طالب حل عقد رسول الله من قومه - فحسب عادهٔ العرب - من الذی ینظر فی عقود الأمان الجدیدهٔ. فیتمها إلی مدتها أو یحلها؟ لهذا نقول أن القول بأن بعث علی بن أبی طالب بسورهٔ براءهٔ خرجت شجرته من عادات العرب. قول لا یلتفت إلیه لما سیترتب علیه من إشکال.

[صفحه ۱۶۸]

[۱] سورهٔ الشعراء: الآیهٔ ۲۱۴.

[۲] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۱۲۲:۲۳) وقال الهیثمی رواه أحمد ورجاله رجال الصحیح غیر حبهٔ العرفی وقد وثقه. ورواه ابن جریر وصححه والضیاء وصححه، ورواه الطحاوی (کنز العمال ۱۲۹:۱۳) وذکره ابن کثیر فی التفسیر (۳۵۰:۳).

[۳] رواه أحمد وابن جریر والضیاء بسند صحیح (کنز العمال ۱۷۴:۱۳) (الفتح الربانی وقال إسناده (۲۲۴:۲۰).

[۴] رواه أحمد وابن جریر والضیاء بسند صحیح (کنز ۱۷۵:۱۳) وذکره ابن کثیر فی التفسیر (۳۵۰:۳).

[۵] (کنز العمال ۱۳۳:۱۳) تفسیر ابن کثیر (۳۵۰:۳).

[۶] من العجیب أن هناک العدید یرفضون کون علیا رغم صغر سنه هو رأس القوم. فی حین أن هؤلاء الرافضین یخضعون لفقه یجیز ولایهٔ الفاسق. بل وعلی امتداد التاریخ الإسلامی کانوا یبایعون لابن الخلیفهٔ وهو فی بطن أمه.

[۷] سورهٔ الرعد: الآیهٔ: الآیهٔ ۷.

[۸] راجع تفسیر ابن کثیر ۵۰۲:۲.

[۹] تفسیر ابن کثیر ۵۰۲:۲.

[۱۰] رواه مسلم ک الإیمان ب حب علی بن الإیمان (الصحیح ۶۴:۲)، وأحمد (الفتح الربانی ۱۲۲:۲۳) وابن أبی شیبهٔ والنسائی وابن ماجهٔ وابن حبان وابن أبی عاصم (کنز العمال ۲۰:۱۲) (کنز ۵۹۸:۱۱).

[۱۱] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۳۵:۵) ورواه أحمد (الفتح الربانی ۱۲۱:۲۳).

[۱۲] رواه الترمذی وقال حدیث غریب (الجامع ۶۳۵:۵). ورواه الخطیب عن أبی ذر بلفظ. ما کنا نعرف المنافقین علی عهد رسول الله صلی الله علیه وآله إلا بثلاث: بتکذیبهم الله ورسوله. والتخلف عن الصلاهٔ. وببغضهم علی بن أبی طالب (کنز العمال ۱۰۶:۱۳).

[۱۳] ذکرنا ذلک فیما سبق عند الحدیث عن دائرهٔ الرجس.

[۱۴] رواه مسلم (الصحیح ۱۷۴:۱۵).

[۱۵] رواه الإمام أحمد (الفتح ۲۰۴:۲۱) والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۳۳:۳).

[۱۶] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی إسناده حسن ورجاله ثقات (کتاب السنهٔ ۵۶۵:۲).

[۱۷] تاریخ الأمم والملوک ۱۴۴:۳.

[۱۸] سبق التخریج.

[۱۹] البدایهٔ والنهایهٔ ۳۴۲:۷.

[۲۰] سورهٔ البقرهٔ: الآیهٔ ۹۲.

[۲۱] سورهٔ الأعراف: الآیهٔ ۱۴۲.

[۲۲] سورة الأعراف: الآیة ۱۵۰.

[۲۳] سورة طه: الآیة ۹۲ – ۹۴.

[۲۴] سورة الأعراف: الآیة ۱۵۰.

[۲۵] سورة الأعراف: الآیة ۱۵۱.

[۲۶] سورة الأعراف: الآیة ۱۵۲.

[۲۷] رواه الترمذی وقال حدیث حسن بلفظ " أنت أخی فی الدنیا والآخرة (" الجامع ۶۳۶:۵) ورواه أحمد عن عمر بن عبد الله عن أبیه عن جده (۲۲۲:۱۰ تحفة الأحوازی) ورواه أبو یعلی عن علی (کنز العمال ۱۴۰:۱۳) ورواه الحاکم عن ابن عمر (۵۹۸:۱۱ کنز).

[۲۸] سورة التوبة: الآیة ۱.

[۲۹] سورة التوبة: الآیة ۵.

[۳۰] رواه مسلم (کنز العمال ۴۲۰:۲).

[۳۱] سورة التوبة: الآیة ۷ – ۱۴.

[۳۲] رواه الإمام أحمد (البدایة والنهایة ۳۵۸:۷، فی تفسیر ابن کثیر ۳۳۱:۲)، ورواه بلفظ آخر الترمذی وحسنه، (الجامع ۲۷۵:۵)، وقال فی الفتح الربانی، الحدیث سنده صحیح وله شواهد کثیرة تعضده منها عند البخاری والإمام أحمد أیضا من حدیث أبا هریرة ومنها حدیث أنس عند الترمذی وحدیث ابن عباس عنده أیضا (الفتح الربانی ۱۵۷:۱۸).

[۳۳] الفتح الربانی، وقال: وقال الهیثمی رجاله ثقات. وأورده ابن کثیر فی التفسیر والحافظ السیوطی فی الدر المنثور وروی نحوه الترمذی وحسنه (۱۵۸:۷).

[۳۴] سبق التخریج.

[۳۵] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۶۳۴:۵) وابن جریر وصححه والضیاء (کنز العمال ۱۷۳:۱۳).

[۳۶] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۲۷۶:۵) وأحمد وابن جریر بسند صحیح (الفتح الربانی ۱۵۹:۱۸).

[۳۷] سورة التوبة: الآیة ۶.

[۳۸] تفسیر ابن کثیر ۳۳۷:۲.

حجة الوداع و إعلان الولایة

فی العام التاسع الهجری کانت فورة التفاور والشرک. فمن تحت جلباب

الإسلام تحرکت دائرة الرجس لتکید للإسلام. ومن تحت لافتة المعاهدات تحرکت دائرة البخس لتعرقل المسیرة. ولکن الله رد کیدهم فی نحورهم بإنزال سورة براءة التی جعلت جمیع دوائر الصد عن سبیل الله تقف لتحکم المخزون الفطری عند کل إنسان فیهم. وإلا فالسیف، ولا یتصور عاقل أن دوائر الصد بعد سورة براءة. قد ألقوا بسلاحهم وهرولوا فی اتجاه الإسلام تائبین عابدین. فقد یکون هناک من أسلم وحسن إسلامه. وقد یکون هناک من أسلم إلی حین تأتیه الفرصة. أو أسلم ثم ارتد وکتم ارتداده أو لم یسلم أصلا، وهرب حتی یشتد عوده. فهؤلاء وغیرهم لم ینتهوا بنزول سورة براءة أو برحیل النبی صلی الله علیه وسلم. لأن جذورهم فی الأرض منذ أن طرد إبلیس اللعین. وفی کل جیل تخرج الفروع وأوراق الفتنة من الجذور، ثم یستأصلها الله من عنده أو بأیدی الذین آمنوا، ثم تخرج لتستأصل لیکون استئصالها عنوانا لهزیمة الباطل علی امتداد التاریخ الإنسانی. وسورة براءة أشارت إلی أعلام هؤلاء، قال تعالی: (فقاتلوا أئمة الکفر إنهم لا إیمان لهم) [۱] ، وکان حذیفة بعد وفاة الرسول یقول ": ما قوتل أهل هذه الآیة بعد [" ۲] ، وقوله تعالی: (وقاتلوا المشرکین کافة کما یقاتلونکم کافة) [۳] ، وکما أن جذور هؤلاء ممتدة فی طین الشذوذ. فکذلک جذور البغی. فالبغاة لم

يقاتلوا النبى صلى الله عليه وسلم. لأن جذورهم فى عهدهم لم تكن قد أخرجت فروعها العتية بعد. والقرآن أخبر بهم فقال تعالى: (فقاتلوا التى تبغى حتى تفيئ إلى أمر الله) [۴] ، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم بمقتضى هذه الآية. إنه سيكون بغى. ولذا أخبر عن

[صفحه ۱۶۹]

أعلامه. وأقام الحجة على كل من له عينين ولسانا وشفتين. ودثرت حجته التاريخ كله. كما أخبر عن ربه بكيفية قتال المشركين كافة. وحذر من اتباع سننهم التى تقود من ركبها إلى الوحل. فإذا كان امتداد المسيرة أمام الرسول فى عالم الغيب. امتدادا مكشوفا. وعلى امتداده يرى الرسول العوائق والسحب الداكنة. إذا كان هذا ثابتا فكيف يسوغ لمتوهم أن الدين لا يحتاج إلى حافظ يحفظه حق الحفظ. الدين الذى يحتوى على جميع ما يتعلق بالمعارف الأصلية والأصول الخلقية والأحكام الفرعية العامة بجميع حركات الإنسان وسكناته. ليس فى حاجة إلى حفظ من الذين أخبر الله عنهم أنهم يقاتلون الإسلام كافة؟ هذا الدين ليس فى حاجة إلى قيادة تأمر المسلمين كافة بقتال من يقاتلونهم كافة. هل الأمة الإسلامية والمجتمع الدينى مستثنى من بين جميع المجتمعات الإنسانية ومستغنية عن وال يتولى أمرها ومدبر يدبرها ومجر يجريها... إن الحشرات فطرت على أمير. وفى عالم النحل والنمل وفى عالم الطيور والوحوش ألف ألف دليل. وبأى غرر يمكن أن يعتذر إلى الباحث فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم. حيث يرى أنه كان إذا خرج إلى غزوة. خلف مكانه رجلا يدير رحى المجتمع. ألم تر أنه خلف عليا مكانه على المدينة عند مسيره إلى تبوك؟ ويؤمر رجالا على السرايا والجيوش التى يبعثها إلى الأطراف. لقد كان فى حياته يفعل ذلك. وأى فرق بين زمان حياته وما بعد مماته فى حين أن إخباره صلى الله عليه وسلم بالغيب عن ربه. يفيد بأن تعيين حارس للدين بعد موته أشد والضرورة إليه أمس ثم أمس. والنبى صلى الله عليه وسلم هو القائل ": الإسلام والسلطان أخوان توأمان. لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه. فالإسلام أس [۵] والسلطان حارث. وما لا أس له يهدم وما لا حارث له ضائع [" ۶] ، قد يقال: لقد كان الحفظ فى أيدى أهل الحل والعقد. فنقول: ونحن لا نقلل من وزن أهل الحل والعقد ولا من هيبتهم. ولكن الأحاديث الصحيحة أشارت إلى وجود أئمة مضلين فى بطن الزمان يتكلمون بألسنتنا ويدعون إلى النار. ونحن

[صفحه ۱۷۰]

ليست لدينا القدرة على تمييز الصالح من الطالح. إنما القادر هو الله. والناظر فى التاريخ والمتدبر فى الأحداث بعد رحلة النبى صلى الله عليه وسلم يرى كم من دائرة إسلامية اجتمع فيها أهل الحل والعقد من المسلمين على ما اجتمعوا عليه. ثم سلكوا طريقا يهديهم إلى رأيهم. فلم يزيدوا إلا ضلالا. ولم يزد اسعادهم المسلمين إلا شقاء. ولم يمكث الاجتماع الدينى بعد النبى صلى الله عليه وسلم. دون أن عاد إلى إمبراطورية ظالمة. إن التاريخ أمامنا والأحاديث التى تخبر بما فى بطن التاريخ إذا انحرفت الأمة بين أيدينا. والقرآن شاهد على الحديث وعلى حركة التاريخ. فليبحث الناقد فى الفتن الناشئة منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم. وما استتبعته من دماء مسفوكة. وأعراض مهتوكة وأموال منهوبة. وأحكام عطلت. وحدود أبطلت. ثم ليبحث الناقد فى منشئها وأصولها وأعراقها... وسيرى أن الأسباب العاملة فيها تنتهى إلى ما رآه أهل الحل والعقد من الأمة. ثم حملوا ما رأوه على أكتاف الناس. وقد يقال: إذا كان الطالح له أثر فإن هذا لا يعنى أن الصالح فى أهل الحل، والعقد ليس له أثر. ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشاورهم فى الأمر فى قوله تعالى: (وشاورهم فى الأمر. فإذا عزمت فتوكل على الله) [۷] ، فنقول: لقد كان فى الصحابة عظماء أفذاذ قاتلوا وقتلوا فى سبيل الله ومنهم من انتظر دوره ليفدى الدين بما عاهد الله عليه. ولكن من الذى كان يشاورهم؟ إنه الرسول الأعظم الذى لا ينطق عن الهوى. ويخطئ من يظن أن مشاورته كانت عن قلة فى علم ما. فمعاذ الله أن يكون هذا فى من وضع الله على عاتقه تعليم البشرية. لقد كانت المشاورة أحيانا فيما يتعلق بحركة الدعوة بين القبائل. وأحيانا لإرساء قاعدة التآلف بين القلوب. وفى الآية الكريمة. أشركهم الله بالنبى فى المشاورة " وشاورهم فى الأمر " ثم وحده فى العزم " فإذا عزمت فتوكل على الله. " إن المشاورة حق فطرى. والذى يسوق الناس

إلى الصراط المستقيم أمر فطرى. ودائرة العزم لا يجلس فيها إلا من كان على علم بكتاب الله. وإلا فالطريق إلى

[صفحه ۱۷۱]

اختلاف الأمة إلى أكثر من سبعين شعبة. طريق مفتوح. لهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه، " فإذا كان للطالح أثرا على امتداد التاريخ. فإن هذا يؤيد وجود الصالح. ولا شك فى هذا. لأن وجود الصالح حجة على وجود الصالح. والصالح فى دائرة العزم لا بد أن يشير إليه نص. فكم من إنسان، فرادى ومجتمعين. ظنوا أنهم يحسنون صنعا. وبصنيعهم تربعوا فى دائرة الصلاح. وفى الحقيقة إنهم فى دائرة الأخسرين أعمالا. والسبب أنهم ضلوا. والضلال لا يستقيم مع الصلاح. ولأن الله تعالى يقول: (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) [۸] ، فإنه تعالى أولى بتحديد من يسوق الناس إلى صراط الله بعد رحيل رسوله. وخاصة أن الدوائر فى حياة رسوله قد تكاتفت على عرقلة المسيرة التى يختبر الله تعالى الناس فيها لينظر كيف يعملون. فالذى يختبر لا بد أن يحدد الطرق ويقيم الحجج. حتى لا يكون للناس على الله حجة. أما أن نقول إن الأمر كله فى أيدى أهل الحقل والعقد. فإن هذا القول فيه تساهل كبير. ونحن هنا سنتتبع مكان القمة فى موضعين: فى حجة الوداع. وفى غدير خم. لنرى بماذا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[۱] سورة التوبة: الآية ۱۲.

[۲] أخرجه ابن أبى شيبة (كنز العمال ۴۲۶:۱) وسيأتى الكلام عنه فى موضعه.

[۳] سورة التوبة: الآية ۳۶.

[۴] سورة الحجرات: الآية ۹.

[۵] أس:أى أصل البناء.

[۶] رواه الديلمى (كنز العمال ۱۰:۶).

[۷] سورة آل عمران: آية ۱۵۹.

[۸] سورة القلم: الآية ۷.

حجة الوداع

فى العام التاسع الهجرى، كانت فورة الشرك والنفاق. وكان على بن أبى

طالب فى المدينة وكان من الرسول بمنزلة هارون من موسى عدا النبوة. وفى هذا العام نزلت سورة براءة وقرأها على بن أبى طالب وما معها من أحكام على أهل مكة وما حولها. وجاء العام العاشر الهجرى وفيه بعث النبى صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع وفى هذا العام نزلت سورة المائدة فكانت آخر ما نزل من القرآن. وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم عندما خرج إلى حجة الوداع من المدينة. خرج إليها على بن أبى طالب من اليمن وقال: لبيك يا هلالا كإهلال

[صفحه ۱۷۲]

النبى [۱] ، وحضر الحج فى هذا العام نحو أربعين ألفا من المسلمين [۲] ، وروى أن عليا أتى من اليمن بهدى بلغ مجموعها مع ما أتى مع النبى صلى الله عليه وسلم مائة. فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثلاثا وستين. ثم أعطى عليا فنحر ما تبقى. وأشركه فى هديه. ثم أمر من كل بدنة ببضعة (قطعة من اللحم) فجعل فى قدر. فأكل هو وعلى من لحمها وشربا من مرقها [۳] ، وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم عندما هم بذبح الهدى قال: إدع لى أبا حسن. فدعى له على. فقال: خذ بأسفل الحربة. وأخذ رسول الله بأعلاها ثم طعنا بها البدن. فلما فرغ ركب بغلته وأردف عليا [۴] ، وعندما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس. كان على بن أبى طالب يعبر عنه (أى يبلغ حديثه) - عليهم السلام -، قال القارئ: وقف على حيث يبلغه صوت النبى صلى الله عليه وسلم فيفهمه فيبلغه للناس

ويفهمهم من غير زيادة ولا نقصان. كان على بن أبى طالب يبلغ عنه والناس بين قائم وقاعد. والناس شاهدوا الرسول وعلى منذ بداية الشعائر ينحر معه، وتباركة فى الهدى ويأكل معه. ويعبر عنه، ومن قبل سمعوا بقصة تبليغ براءة وبمنزلة هارون من موسى. وبغض المنافقين لعلى. وقبل ذلك سمعوا يوم خيبر أن عليا يحبه الله ورسوله. وشاهدوا يوم أن ناجاه رسول الله وطالت نجواه. وعاينوا يوم أن سد النبى جميع الأبواب إلا باب على. وعلموا وشاهدوا حديث الكساء وحديث المباهلة. وتأكدوا أن عليا أقدمهم سلما وأكثرهم علما وأوسعهم حلما. وأن سيفه لا تخشى فى الله لومة لائم. كل هذا وغيره علموه وشاهدوه. فأى إشارة من النبى إلى على يجب أن تفهم على بساط الفطرة. لأنها لن تفهم على طريق الحفائر والارتياب والجدل العقيم. فإذا وقف النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وقال فيما رواه

[صفحه ۱۷۳]

جابر بن عبد الله. رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول ": يا أيها الناس إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتى أهل بيتى [" ۵] ، إن هذا الاعلان لا يحتاج إلى جدل طويل على بساط الفطرة. حيث أن الساحة عليها دائرة رجس لا بد أن تجابهها دائرة تطهير. وإذا علمنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى حجة الوداع فيما روى عن يحيى بن آدم السلولى، وكان قد شهد يوم حجة الوداع. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": على منى وأنا منه ولا يودى عنى إلا أنا أو على [" ۶] ، فهذا الاعلان أيضا لا يحتاج إلى جدل طويل. لأنه من قماشة واحدة بدأت عندما نزل قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين)، لقد كانت البداية من هنا. ألم يقل النبى صلى الله عليه وسلم منذ البداية لعشيرته كما ورد فى الحديث الصحيح " أيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ووارثى [" ۷] ، فلم يقم إليه أحد وقام على بن أبى طالب وبايعه على ذلك. وليس هذا من قماشه حديث ": أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى، " وذلك بعد أن اتسعت دائرة الضوء وفقا لحركة الدعوة. ثم ألا يتفق ذلك مع قماشة يوم تبليغ سورة براءة حيث قال النبى ": جاءنى جبريل فقال، لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك " فما الغرابة إذن فى فهم الموقف يوم حجة الوداع. حيث قال النبى ": على منى وأنا منه ولا يؤدى عنى إلا أنا أو على،" وجميع ذلك من نسيج قوله تعالى يوم المباهلة. (وأنفسنا وأنفسكم). فإذا كان هذا البلاغ قد تم فى حجة الوداع. وإذا كان فى نفس الحجة قد نزل عشية يوم عرفة [۸] ، قوله تعالى: (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا

[صفحه ۱۷۴]

تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) [۹] ، علمنا أن الكفار قد يأسوا فى اليوم الذى أكمل الله فيه الدين وأتم فيه نعمته. فماذا كان يريد الكفار قبل أن يضربهم اليأس؟ لقد كان الدين هو المبغوض عند دوائر الصد من سبيل الله. فالشيطان منذ اليوم الأول وضع فى برنامجه عرقلة الصراط المستقيم. وعلى امتداد التاريخ سارت جحافل الليل نحو هذه الغاية. فحاولوا فى الرسالة الخاتمة هدم البنيان الرفيع من أسر بتفنين المؤمنين. وبث النفاق فى جماعتهم وإلقاء الخرافات بينهم لإفساد دينهم. فى بداية الأمر صدوا بالمال والجاه والجلد بالسياط والطرد من الأوطان. ثم طوروا الصد إلى محاولة قتل النبى. لقد كانوا يرون أنه ملك فى صورة النبوة. وسلطنة فى لباس الدعوة والرسالة. ولقد كان موته آخر ما يرجونه فى زوال الدين وموت الدعوة. وذلك لأنه لا عقب له. ومن لا عقب له فى قانونهم إذا مات أو قتل انقطع أثره ومات ذكره وذكر دينه. على ما هو المشهود عادة من حال السلاطين والجبابرة. فهؤلاء مما بلغ أمرهم. فإن ذكرهم يموت بموتهم وقوانينهم تدفن معهم فى قبورهم. ولذلك كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ": دعوه، فإنه رجل أبتر لا عقب له فإذا هلك انقطع ذكره فأنزل الله تعالى: (إن شانئك هو الأبتر) [۱۰] .

فإذا كانت ثقافة الكفر تنطلق من هذا المفهوم. فكيف يكون الحال إذا بلغهم قول النبى " على منى وأنا منه ولا يؤدى عنى إلا أنا أو على، " أو تحديد النبى لدائرة الطهر التى لا تفارق القرآن ولا يفارقها. ألا يكون اليأس لهم عنوانا على امتداد التاريخ الإنسانى. وذلك

لأن الصراط المستقيم أصبح له من يسوق الناس إليه بعد وفاة الرسول. ثم أليس إغلاق الباب فی وجوههم إكمالا للدين وإتماما للنعمة وإقامة للحجة. لينظر الله كيف تعمل الأمة الخاتمة تحت قانون سنة الابتلاء الجارية. فقوله تعالى: (فلا تخشوهم واخشون)، يفيد هذا

[صفحه ۱۷۵]

المعنى. قال المفسرون: أى لا موجب للخشية بعد يأس الذين كنتم فی معرض الخطر من قبلهم. فأنتم فی مأمن من ناحية الكفار. ولا ينبغی لكم مع ذلك الخشية منهم على دينكم. فلا تخشوهم واخشونی. فالدين مصون من الخطر المتوجه من قبلهم. وإنه لا يتسرب إليه شئ من طوارق الفساد والهلاك إلا من قبل المسلمين أنفسهم. وإن ذلك إنما يكون بكفرهم بهذه النعمة التامة. ورفضهم هذا الدين الكامل المرضی. ويومئذ يسلبهم الله نعمته ويغيرها إلى النقمة ويذيقهم لباس الجوع والخوف. ومن أراد الوقوف على مبلغ صدق هذه الآية من قوله: (فلا تخشوهم واخشون)، فعليه أن يتأمل فيما استقر عليه حال العالم الإسلامی اليوم. ثم يرجع القهقرى بتحليل الحوادث التاريخية حتى يحصل على أصول القضايا وأعراقها. لقد يأس الكفار عندما أيقنوا أن الدين بعد النبی صلى الله عليه وسلم خرج عن مرحلة القيام بالحامل الشخصی. إلى مرحلة القيام بالحامل النوعی. والحامل الشخصی عمود فقرى للحامل النوعی. ولقد ضربهم اليأس عندما علموا أن الدين خرج من صفة الظهور والحدوث. إلى صفة البقاء والدوام. وصفة الظهور والحدوث رحى تدور عليها صفة البقاء والدوام. وفی عالم اليأس قرقعت أنياب الحيتان. وسرى صوتها ليلا فی الوادى الواسع العريض.

[۱] رواه ابن حبان فی صحيحه (البداية والنهاية ۵:۱۳۰).

[۲] رواه أحمد ومسلم (الفتح الربانی ۵:۱۳۷) (تفسير ابن كثير ۲:۷۷).

[۳] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۱۱:۸۱)، ورواه ابن حبان (البداية ۵:۱۱۸).

[۴] رواه أبو داود (البداية ۵:۱۸۹).

[۵] رواه أبو داود والنسائی أحمد (البداية والنهاية ۱۹۸، ۵:۱۹۹).

[۶] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۵:۶۶۲) والنسائی (كنز العمال ۱:۱۷۲).

[۷] أخرجه أحمد (الفتح الربانی ۲۳:۱۲۱) والترمذی وقال حديث حسن (الجامع ۲:۲۹۹) وأورده ابن كثير فی البداية والنهاية ۵:۳۵۷.

[۸] رواه أحمد وابن جرير والضياء بسند صحيح (كنز العمال ۱۳:۱۷۴) وقال فی الفتح الربانی رواه أحمد وإسناده ص (الفتح ۲۳:۲۲۴).

[۹] سورة المائدة الآية ۳، نزول الآية يوم عرفة رواه أحمد والشيخان والترمذی (الفتح الربانی ۱۸:۱۲۶).

[۱۰] سورة الكوثر: آية ۳.

يوم غدير خم

بعد حجة الوداع عاد النبی صلى الله عليه وسلم إلى المدينة هو ومن

معه. وكان قد أحث يوم الحج على التمسك بالكتاب والعترة وحذر الأمة من الاختلاف والافتراق وقتل بعضهم بعضا. وفی هذا الحج أخذ الناس عنه صلى الله عليه وسلم مناسكهم. وما أعلنه الرسول وما حث الناس عليه، كان على مستوى المساحة الواسعة للأمة. وهذه المساحة تختلف عن المساحة الأم. بمعنى أن الأمور التی تتعلق بالقيادة لا تعلن إلا فی دائرة مساحة القيادة. لذا نراه صلى الله عليه وسلم فی بداية الدعوة عندما نزل قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين) لم يأت بأفراد المساحة الواسعة وإنما تحدث أمام ناس

[صفحه ۱۷۶]

بأعينهم. وقال كما فی الحديث الصحيح ": أيكم يبايعنی على أن يكون أخی وصاحبی ووارثی، " كما مر من قبل. والأمور التی تتعلق بالقيادة بعد حجة الوداع تقام الحجة فيها على ساحة القيادة أولا. وهذه المساحة هی رؤوس قريش بالمدينة. وذلك لأن قريشا هی

النواة التى تدور حولها المساحة الواسعة، يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": الناس تبع لقريش فى هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم [" ۱] ، وفى رواية ": صالحهم تبع لصالحهم وشرارهم تبع لشرارهم [" ۲] ، فقريش بذور منها شجر. وقال النبى صلى الله عليه وسلم ": المرء مع من أحب [" ۳] .

والنبى فى طريقه من حجة الوداع. كان على علم تام من ربه. مما سيحدث لأمته من بعده. كان يعلم أن فى أمته من سيستمتع كما استمتع الذين من قبلهم وسيخوض كما خاضوا. وسيترتب على ذلك الحبط والخسران والبغى والافتراق، وكان يعلم أن مقدمة هذا كله ستكون من دائرة قريش وليس من الدائرة الواسعة، لذا نراه صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وجه إشاعات من الضوء على سبيل الخير ليهرع الناس إليه، فأوصى بالكتاب والعترة، وأعلن أن عليا منه وهو منه ولا يؤدى عنه إلا هو أو على. وهذا الاعلان. هو نفس الاعلان يوم سورة براءة فى العام التاسع الهجرى. وبعد أن سلط الضوء على سبيل الخير. سلطه على الجانب الآخر كى يحذر الناس من مقدمات الوقوع قبل الوقوع. ثم بين كيفية النهوض بعد الوقوع. كما سنبين فيما بعد. ومن أشعة الضوء على الجانب الآخر من قريش. عن أبى مطير قال: أخبرنى من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وهو يعظ الناس ويأمرهم وينهاهم فقال: أيها الناس خذوا العطاء ما كان عطاء. فإذا

[صفحه ۱۷۷]

تجاحفت قريش على الملك وكان عن دين أحدكم فدعوه [" ۴] ، فهو فى حجة الوداع كان يعلم أن قريشا ستدفع لتشترى الدين من الناس. أليس هذا فى حاجة إلى إقامة حجة دافعة عليها؟ وفى رواية ": خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا كان إنما هو رشا فاتركوه. ولا أراكم تفعلون. يحملكم على ذلك الفقر والحاجة. ألا إن رحى بنى مرج قد دارت. وإن رحى الإسلام دائرة. وإن الكتاب والسلطان سيفترقان. فدوروا مع الكتاب حيث دار. وستكون عليكم أئمة أن أطعتموهم أضلوكم. وإن عصيتموهم قتلوكم. قالوا: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال. كونوا كأصحاب عيسى نصبوا على الخشب ونشروا بالمناشير. موت فى طاعة. خير من حياة فى معصية [۵] ، قال صاحب عون المعبود فى شرح سنن أبو داوود: معنى حديث ترك أخذ العطاء. إذا رأيت قريش تخاصموا على الملك. وتقاتلوا عليه. وقال كل واحد منهم: أنا أحق بالملك أو الخلافة منك. وتنازعوا فى ذلك وأصبح هذا العطاء عن دين أحدكم، أى يعطوه لكم عوضا عن دينكم. فاتركوا أخذه [" ۶] .

باختصار الحديث عن القيادة لا يكون تفصيله إلا على أرضية قريش. فإذا كان على ولى كل مؤمن بعد رسول الله. فلا بد أن يعلن هذا أولا عند الأعقاب التى ستتصارع على الملك ليكون فى ذلك حجة عليها. ومن أراد أن يفهم هذا المعنى عليه أولا أن يسلم بأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث فى قوم من البشر وليسوا من الملائكة. وهذا القوم كان النبى يتعامل معه وفقا لمصلحة الإسلام وكان لا يخاف إلا على الدعوة. ومن الدليل على ذلك. أن زيد بن حارثة كان عبدا للنبى صلى الله عليه وسلم. ثم حرره واتخذه ابنا له. وكان تحته زينب بنت جحش بنت عمة النبى. وكان النبى يعلم من ربه أن زينب ستكون من أزواجه. فجاء زيد إليه واستشاره فى طلاقها. فنهاه النبى عن

[صفحه ۱۷۸]

الطلاق. ثم طلقها زيد بعد ذلك وتزوجها النبى. يقول تعالى: (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) [۷] ، أى: لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك؟ إن النبى قال هذا خوفا من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض. ولقد أخفى فى نفسه ما أخفاه استشعارا منه أنه لو أظهره. عابه الناس وطعن فيه تيار الذين فى قلوبهم مرض. فيؤثر ذلك أثرا سيئا فى إيمان العامة وحركة الدعوة. والنبى صلى الله عليه وسلم لم تكن خشيته للناس خشية على نفسه. بل كانت خشية فى الله. وهذا الخوف ليس خوفا مذموما لأن الخوف فى الله هو فى الحقيقة خوف من الله تعالى. ومن المعلوم أن الله تعالى. فرض للنبى أن يتزوج زينب زوج زيد. ليرتفع بذلك الحرج من المؤمنين فى

التزويج بأزواج الأدعياء. ألم يكن هذا الخوف على أرضية الصحابة؟ نعم كان على أرضيتهم لأن كل من سمع من النبى أو رآه فهو صحابى. فالنبى خاف من بعضهم على الدعوة. فإذا كان قد خاف منهم فى موقف كهذا. فكيف بموقف يترتب عليه قيادة هم من صاحبها فى غليان؟ لقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم فى بشر فيهم الصالح والطالح والمحسن والمسئ. والنبى صلى الله عليه وسلم كان ينتظر الوقت المناسب الذى يعلن فيه ولاية على بن أبى طالب أمام قريش ومن حولهم فى المقام الأول لأنهم خميرة الاختلاف وطلب الملك.. وفى أثناء ذلك نزل قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين) [۸].

فالآية تكشف عن أمر قد أنزل على النبى. وكان النبى يخاف الناس من تبليغه ويؤخره إلى حين يناسبه. ولولا مخافته. لم يحتاج إلى تهديده بقوله ": وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، " النبى كان يخاف ولكن لم تكن مخافته على

[صفحه ۱۷۹]

نفسه. وكيف يخاف على نفسه وهو الذى بلغ عن ربه. (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) [۹]، كيف وهو الذى بلغ قوله تعالى: (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) [۱۰]، كيف؟ وهو الذى تلى قوله تعالى: (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) [۱۱]، إن النبى لم يخف على نفسه. وإنما يخاف أن يتهموا الدعوة اتهاما يفسدها ويترتب على ذلك اختلافها واخترامها، وقد علم من ربه أن هذا سيحدث. ولذا فهو صلى الله عليه وسلم يأخذ بأسباب النجاة ليقيم الحجة. فهو يخاف على الدعوة وعلى الذين قدر لهم أن يعيشوا فى زمانه، يرى فيه الإنسان الخير والشر فلا يدرى أيهما يركب. ولله فى عباده شؤون. قال المفسرون: قوله ": وإن لم تفعل فما بلغت رسالته " تفيد التهديد بظاهرها. وإعلامه صلى الله عليه وسلم وإعلام غيره ما لهذا الحكم من الأهمية. فالكلام فى صورة التهديد. لبيان أهمية الحكم. بحيث أن هذا الحكم لو لم يصل إلى الناس. ولم يرع حقه. كان كأن لم يرع حق شئ من أجزاء الدين. والتهديد كما فى ظاهر الآية. لا يعنى أن القرآن يذكر فى حق النبى احتمال أن يبلغ الحكم أو لا يبلغ. حاشا ساحة النبى صلى الله عليه وآله من ذلك. فالله تعالى يقول: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) [۱۲].

فإذا كانت سورة المائدة آخر سور القرآن نزولا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فما هو هذا الحكم النازل؟ إذا كان يختص بالوضوء والصلاة. فالناس قد توضأوا وصلوا. وإذا كان يختص بصيام رمضان وإيتاء الزكاة. فالناس صاموا من قبل وزكوا. وإذا كان يختص بتعليم الناس مناسك الحج. فالرسول قد فرغ من حجة الوداع وأخذ الناس عنه مناسكهم والجميع تحت مظلة لا إله إلا الله

[صفحه ۱۸۰]

محمد رسول الله. فما هو هذا الحكم الذى وأكبه تهديد من الله تعالى إذا لم يبلغ؟ قال المفسرون: لم يصرح القرآن باسم هذا الشئ الذى أنزل على النبى من ربه. وعبر عنه بالعنت وإنه شئ أنزل إليه. إشعارا بتعظيمه ودلالة على أنه أمر ليس فيه لرسول الله صنع ولا له من أمره شئ. ليكون هذا البرهان على عدم اختيار من النبى فى كتمانه وتأخير تبليغه. ويكون له عذر فى إظهاره على الناس. وتلويحا إلى أنه مصيب فى ما تفرس منهم وتخوف عليه. وإيحاء إلى أنه مما يحب أن يظهر من ناحيته صلى الله عليه وآله وبلسانه وبيانه. هذا عن الحكم. أما قوله تعالى: (والله يعصمك من الناس) [۱۳]، قال المفسرون: أخذ لفظ الناس. اعتبارا بسواد الأفراد. الذى فيه المؤمن والمنافق والذى فى قلبه مرض. وقد اختلطوا من دون تمايز، فإذا خيف خيف من عامتهم. والعصمة فى الآية. بمعنى الحفظ والوقاية من شر الناس المتوجهة إلى النبى أو مقاصده الدينية أو نجاح تبليغه. والذى يجب أن تذكر به إن طريق تبوك فى العام التاسع الهجرى. أنتج جماعة من اثنى عشر رجلا، أخبر الحديث الصحيح أنهم لن يدخلوا الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وإنهم حرب على الله وعلى رسوله فى الحياة الدنيا [۱۴]، وأن الطريق من حجة الوداع إلى المدينة وزمنه ومكانه ضمن الحياة الدنيا... وآية سورة المائدة التى نحن بصددها. ذهب فى أسباب نزلها إلى كل مذهب. فهناك من قال إنها مكية. وهذا القول لا يلتفت إليه. لأن الآية بتمامها لا

تنطبق على الأحداث التى ذكروها. فلم يكن من شأن اليهود ولا النصارى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم. أن يتوجه إليه من ناحيتهم خطر يجعله يمسك عن التبليغ أو يؤخره إلى حين. ولم يكن من شأن كفار قريش ومشركى مكة أن يفعل النبى ذلك أيضا. وهم أغلظ جانبا وأشد بطشا وأسفك للدماء

[صفحه ۱۸۱]

وأفتك من اليهود وسائر أهل الكتاب. فهؤلاء لم يمسك النبى صلى الله عليه وسلم عن تبليغهم أو أخره. وإنما تعامل معهم على امتداد الرحلة بالذى تظهره كتب التفسير والحديث والتاريخ. وهؤلاء قد يأتى منهم خطر. ولكن هذا الخطر لا يأتى إلا بعد أن يتآكل الأساس. وتآكل الأساس مهمة المنافقين والذين فى قلوبهم مرض - فى المقام الأول - لقد رد ابن كثير على القول بأن الآية مكية فقال فى تفسيره: إن هذه الآية مدينة. بل هى من أواخر ما نزل بها [۱۵] .

وقول ابن كثير بأن الآية أخر ما نزل. قد يفتح الأبواب على سؤال هو، ما هو الحكم الذى أنزل الله فى آخر آية نزلت على رسوله وقال له: (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) إن القول بأن هذا الحكم يتعلق بالطهارة والغسل والتكفين. قول لا يلتفت إليه. وعلى أى حال. فهناك نبذة من الأخبار تدل على نزول هذه الآية فى حق على بن أبى طالب يوم غدير خم. وقبل أن نقدم أحداث يوم الغدير. حيث قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى رواه أئمة الحفاظ عن جمع من الصحابة " من كنت مولاه فعلى مولاه " نلقى الضوء على الحديث ورواته. قال ابن كثير فى البداية: لما تفرغ النبى من بيان المناسك ورجع إلى المدينة. خطب خطبة عظيمة الشأن فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة. بغدير خم تحت شجرة هناك. فبين فيها أشياء. وذكر فى فضل على بن أبى طالب وأمانته وعدله وقربه إليه. وأزاح به ما كان فى نفوس كثير من الناس منه. وقد اعتنى بأمر حديث غدير خم أبو جعفر الطبرى فجمع فيه مجلدين وأورد فيها طرقه وألفاظه. وكذلك الحفاظ الكبير أبو القاسم بن عساكر أورد أحاديث كثيرة فى هذه الخطبة [۱۶] .

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حديث من كنت مولاه. سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثون صحابيا. شهدوا به لعلى بن أبى طالب عندما

[صفحه ۱۸۲]

نوزع أيام خلافته. وصرح بتواتر هذا الحديث العديد من العلماء... وقال ابن حجر: حديث من كنت مولاه، كثير الطرق جدا، وقد استوعبها ابن عقدة فى مؤلف مفرد وأكثر أسانيدها صحيح وحسن [۱۷] ، وقال الألبانى فى كتاب السنة: حديث من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه حديث صحيح جاء من طرق جماعة من الصحابة. خرجت أحاديث سبعة منهم. ولبعضهم أكثر من طريق واحد. وقد خرجتها كلها وتكلمت على أسانيدها فى سلسلة الأحاديث الصحيحة [۱۸] .

وحديث الغدير رواه جمع من الصحابة منهم: زيد بن أرقم، ومالك بن الحويرث، وعلى بن أبى طالب، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدرى، وأبو أيوب الأنصارى. وجرير. وجندب الأنصارى، وطلحة وغيرهم، وسجل هذا الحديث فى كتبهم العديد من الأئمة والحفاظ منهم: أحمد بن حنبل والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن حبان والحاكم والضياء وابن أبى شيبة. وابن جرير. وابن عساكر وأبو نعيم وسموية والخطيب والبزار وأبو يعلى والطبرانى وابن رهوية. وابن أبى عاصم والمحاملى وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد فى سبع صفحات. وذكر الفخر الرازى عند تفسيره الآية (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك)، قال: نزلت هذه الآية فى فضل على بن أبى طالب. فلما نزلت أخذ النبى بيده وقال ": من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعادى من عاداه، " فلقيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال ": هنيئا لك يا ابن أبى طالب، أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة، " وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن على [۱۹] وروى الواحدى فى كتابه أسباب النزول عن أبى سعيد الخدرى قال: نزلت هذه الآية: (يا أيها الرسول بلغ...)، يوم غدير خم فى

[صفحه ۱۸۳]

على بن أبى طالب. وغدير خم يقع على الطريق بين مكة والمدينة. وهو على بعد ثلاثة أميال من الجحفة. وهناك حكمة بالغة فى اختيار هذا الموقع لإقامة الحجة على قريش ومن حولهم. فالمنطقة صحراوية إلا من بعض الشجر. وقيل، كان هناك غيطة الغدير مضاف إليها، فالمكان معد لاستقبال من أراد الراحة من عناء سفر طويل. واختيار هذا المكان لإبلاغ الحكم النازل. كى يكون المكان فريدا لإعلان حكم فريد. بمعنى. لو أعلن الحكم فى حجة الوداع مثلا. وسئل الناس بعد ربع قرن على سبيل المثال. ماذا قال الرسول فى حجة الوداع: سيقولون. قال كذا عند الحلق والتقصير وذبح الهدى ورمى الجمار وأوصى بكذا وكذا، وأما إذا كان المكان قد خصص لحكم واحد كغدير خم. فلو قيل: ماذا قال الرسول فى الغدير؟ فلن تكون هناك إلا إجابة واحدة على سؤال محدد. وهذا ما فعله على بن أبى طالب أيام خلافته فكان لا يقول إلا " نشدت الله رجلا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم ما قال لما قام [".. ۲۰] ، فإفراد المكان بحكم. لهدف ومن وراء الهدف حكمة. وأما حديث الغدير فإننا نسوق منه ما رواه الإمام مسلم عن زيد بن أرقم رضى الله عنه. قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة. فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر. ثم قال: أما بعد ألا- أيها الناس. فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله. فيه الهدى والنور. فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى [۲۱] .

هذه رواية مسلم وفيها الخطوط العريضة. ومنها نعلم أن النبى يودع ويخبر

[صفحه ۱۸۴]

بأنه أوشك على الرحيل من هذه الحياة الدنيا. ولهذا أوصى بالطريق الذى يسوق الناس إلى الصراط الذى يوصلهم إلى ربهم حيث السعادة الحقيقية، وروى الإمام النسائى رواية بزيادة ": إنى قد تركت فيكم الثقلين. كتاب الله وعترتى أهل بيتى فانظروا كيف تخلفونى فيهما. فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض. ثم قال: الله مولاى وأنا ولى كل مؤمن. ثم أخذ بيد على فقال: من كنت مولاه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه [۲۲] ، وعن عمرو ذى مر وزيد بن أرقم معا. روى الطبرانى ": من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره وأعن من أعانه [" ۲۳] ، وروى ابن جرير عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيها الناس. إنه قد نبأنى اللطيف الخبير. إنه لم يعمر نبى إلا مثل نصف عمر النبى الذى قبله. وإنى لأظن إنى موشك، وإن أدعى فأجيب. وإنى مسؤول، وإنكم مسؤولون. فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك بغلت ونصحت فجزاك الله خيرا. قال: ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن جنته حق وناره حق وإن الموت حق وإن الساعة آتية لا ريب فيها. وإن الله يبعث من فى القبور. قالوا: نشهد بذلك وقال: اللهم فاشهد. ثم قال: أيها الناس إن الله مولاى، وأنا مولى المؤمنين. وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم. فمن كنت مولاه فعلى مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. أيها الناس. إنى فرطكم وأنتم واردون على الحوض. حوض عرضه ما بين بصرى وصنعاء. فيه عدد النجوم قدحان من فضة. وإنى سائلكم حين تردون على عن الثقلين. فانظروا كيف تخلفونى فيهما.

[صفحه ۱۸۵]

الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم. فتمسكوا به لا تضلوا ولا تبدلوا. وعترتى أهل بيتى. وإنه قد نبأنى اللطيف الخبير إنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض [۲۴] .

ولقد وردت روايات تفيد أن النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن أخذ البيعة لعلى. كان يذكر كل من يدخل عليه خيمته أو من يراه فى منطقة الغدير. عن جابر بن عبد الله قال: كنا بالجحفة بغدير خم. وثم ناس كثير من جهينة ومزينة وخفار. فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من خباء أو فسطاط. فأشار بيده ثلاثا. فأخذ بيد على. فقال: من كنت مولاه فعلى مولاه [۲۵] وعن البراء بن عازب أن عمر بن الخطاب لقى بن أبى طالب بعد ذلك فقال: هنيئا لك يا ابن أبى طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة [۲۶] .

باختصار. شهد الغدير إعلان الحكم. وسمعته قريش ومن ناصرهم. وانفرد المكان بهذا الحكم لتكون الحجة دامغة، وشاء الله أن تتفق الأمة على صحة هذا الحديث. وإذا كانت مقدمة الطريق مكة. حيث كانت حجة الوداع. فإن مقدمة الطريق شاهد من فيها وسمع البلاغ الذى يستقيم مع المساحة الواسعة. وشاء الله أن يشهد غدير خم ما أعلنه الرسول فى مكة أمام هذه المساحة مضافا إليه ما أعلنه أمام قريش، أوائل الناس فى الخير والشر كما ورد فى الحديث. قال ابن كثير: قال الذهبى: وجدت نسخة مكتوبة عن ابن جرير

[صفحه ۱۸۶]

عن عائشة بنت سعد سمعت أباها يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم الجحفة. وقد أخذ بيد على فخطب يوم قال": أيها الناس إنى وليكم. قالوا: صدقت. فرفع يد على فقال: هذا وليى والمؤدى عنى. وإن الله مولى من والاه ومعادى من عاداه [۲۷] ، لقد استقام البدء مع الختام. ففى حجة الوداع قال صلى الله عليه وسلم ": لا يؤدى عنى إلا أنا أو على [" ۲۸] ، وفى غدير خم قال كما مر ": هذا وليى والمؤدى عنى، " لقد استقبلت مساحة القيادة الاعلان التام للبدء والختام. ودارت الرحى.

[۱] رواه البخارى عن ابن عمر ك بدء الخلق ب، مناقب قريش (الصحيح ۲۶۴:۲) وابن أبى عاصم عن أبى هريرة (كتاب السنة ۵۳۴:۲).

[۲] رواه أحمد عن على وقال الهيثمى رجاله ثقات (الفتح الربانى ۲۲۶:۲۴).

[۳] رواه البخارى ك الآداب (الصحيح ۷۷:۴) وصححه الترمذى (الجامع ۵۹۶:۴).

[۴] رواه أبو داود حديث ۲۹۵۸.

[۵] رواه الطبرانى عن معاذ، وابن عساكر عن ابن مسعود (كنز العمال ۲۱۶:۱).

[۶] عون المعبود ۱۷۳:۸.

[۷] سورة الأحزاب: الآية ۳۷.

[۸] سورة المائدة: الآية ۶۷.

[۹] سورة الأحزاب: الآية ۳۹.

[۱۰] سورة آل عمران: الآية ۱۷۵.

[۱۱] سورة آل عمران: الآية ۱۷۳.

[۱۲] سورة الأنعام: الآية ۱۲۴.

[۱۳] سورة الأنعام: الآية ۱۲۴.

[۱۴] سورة الأنعام: الآية ۱۲۴.

[۱۵] تفسير ابن كثير ۷۹:۲.

[۱۶] البداية والنهاية ۴۰۸:۵.

[۱۷] نظم المتناثر من الحديث المتواتر / الكنانى ص ۱۹۴.

[۱۸] كتاب السنة / ابن أبى عاصم تحقيق نصر الدين الألبانى ۵۶۶:۲.

[۱۹] الفخر الرازى ص ۴۸، ۴۹:۱۲.

[۲۰] رواه أحمد وقال الهيثمى رجاله ثقات (مجمع الزوائد ۱۰۴:۹).

[۲۱] رواه مسلم ب فضائل على (الصحيح ۱۷۹:۱۵) وأحمد (الفتح الربانى ۱۸۵:۱) وابن أبى عاصم (كتاب السنة ۶۴۴:۲).

[۲۲] قال ابن كثير رواه النسائى وقال الذهبى وهذا حديث صحيح (البداية والنهاية ۲۰۹:۵) ورواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بطوله (المستدرك ۱۰۹:۳) ورواه الطبرانى عن ابن عمر وابن أبى شيبة عن أبى هريرة وأحمد والطبرانى

وسعید بن منصور عن أبی أیوب. والحاکم عن علی وأبو نعیم عن سعد (کنز العمال ۶۱۰:۱۱)، وقال ابن کثیر رواه أحمد وهذا إسناده جید رجاله ثقات (البدایة ۲۱۲:۵).

[۲۳] رواه الطبرانی (الزوائد ۱۰۴:۹) والخطیب فی الإفراد عن علی (کنز ۱۳۱:۱۳) والبزار وابن جریر وقال الهیثمی رجال إسناده ثقات (کنز العمال ۱۵۸:۱۳).

[۲۴] رواه ابن جریر الطبری (کنز العمال ۲۹۰:۵) والطبرانی (کنز العمال ۱۸۹:۱) وابن أبی عاصم عن علی باختصار (کتاب السنة ۶۰۵:۲) وقال فی کنز العمال رواه ابن راهویه وابن جریر وابن أبی عاصم والمحاملی فی أمالیه عن علی وإسناده صحیح (کنز العمال ۱۴۰:۱۳) ورواه ابن عساکر (البدایة والنهایة ۲۴۹:۵).

[۲۵] رواه البزار (کنز ۱۳۷:۱۳) وقال ابن کثیر قال الذهبی إسناده حسن (البدایة والنهایة ۲۱۳:۵).

[۲۶] رواه ابن أبی شیبة (کنز العمال ۱۳۴:۱۳) ورواه أبو یعلی (البدایة والنهایة ۲۱۰:۵)، وقال ابن کثیر رواه ابن ماجة عن البراء وقد روی هذا الحدیث عن سعد وطلحة وجابر وأبی سعید الخدری وجریر وعمر وأبی هریرة (البدایة ۳۵۰:۵).

[۲۷] قال ابن کثیر رواه ابن جریر وقال شیخنا الذهبی وهذا حدیث حسن (البداة ۲۱۳:۵).

[۲۸] تم تخرجه من قبل.

الحجة علی من لم یشهد الغدیر

لم یکن إعلان النبی فی غدیر خم فی خطبة واحدة. وإنما بعد خطاب

رسول الله صلی الله علیه وسلم انتقل صلی الله علیه وسلم من قبیلة إلی قبیلة علی امتداد الغدیر وجاءوا إلیه من هنا وهناک وهو فی خیمته. وذکرهم وأخذ البیعة لعلی کما یستفاد من الأحادیث الواردة. وبعد وصول رکب النبی إلی المدینة بأیام. وصل أفراد سریة الیمن. التی بعثها النبی إلی هناک تحت قیادة علی بن أبی طالب وخالد بن الولید. وکان علی قد فارقهم لحضور حجة الوداع وعاد مع الرسول صلی الله علیه وسلم حتی شهد یوم الغدیر. ویوم أن بعث رسول الله صلی الله علیه وسلم علیا إلی الیمن. روی عن أبی رافع أنه قال: لما مضی علی قال النبی صلی الله علیه وسلم ": یا أبا رافع الحقه ولا تدعه من خلفه. ولیقف ولا یلتفت حتی أجیئه " فآتاه. فأوصاه بأشیاء فقال: یا علی لأن یهدی الله علی یدیک رجلا خیر لک مما طلعت علیه الشمس [" ۱] ولقد کان لهذا الدعاء أثرا بالغا فیما بعد. فلقد کان مع علی فی

هذه الرحلة من یبغضه أشد البغض. وعندما عادت القافلة وأراد بعضهم أن یشکو علیا لرسول الله. خرجوا من عند النبی وحب علی یجری فی عروقهم مجری

[صفحه ۱۸۷]

الدم. وسجل التاریخ لهؤلاء أعظم الأثر علی امتداد الرحلة بعد وفاة النبی الأکرم صلی الله علیه وسلم. ومن هؤلاء بریدة الأسلمی والبراء بن عازب وعمران بن حصین وغیرهم، وروی أن خالد بن الولید کان علی رأس المبغضین لعلی والمحرضین علیه [۲] ، فعن البراء قال: بعث النبی صلی الله علیه وسلم جیشین فأمر علی أحدهما علی بن أبی طالب، ومع الآخر خالد بن الولید. وقال: إذا کان القتال فعلی [۳] فافتتح علی حصنا فأخذ منه جاریة. فکتب معی خالد کتابا

إلی النبی یشی به. فقدمت علی النبی فقرأ الکتاب. فتغیر لونه. ثم قال ": ما تری فی رجل یحب الله ورسوله ویحبه الله ورسوله " قلت: أعوذ بالله من غضب الله وغضب الرسول. وإنما أنا رسول، فسکت النبی [۴] ، وبعد هذه المقابلة کان البراء من المخلصین لعلی. وعن عبد الله بن بریدة عن أبیه بریدة قال: أبغضت علیا بغضا لم یبغضه أحد قط، وأحببت رجلا من قریش لم أحبه إلا علی بغضه علی – هو خالد – [۵] ، فبعث هذا الرجل علی خیل فصحبته ما أصحبه إلا علی بغض علیا. فأصبنا سبیا. فکتب إلی رسول الله صلی الله علیه وسلم.

ابعث إلينا من يخمسه. فبعث عليا، فأخذ منه جارية. فكتب الرجل - خالد - إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: ابعثنى فبعثنى مصدقا. فجعلت أقرأ الكتاب. وأقول: صدق. فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم يدى والكتاب. وقال: أتبغض عليا؟ قلت: نعم، قال: لا- تبغضه وإن كنت تحبه فازدد له حبا، فوالذى نفسى بيده. لنصيب آل على فى الخمس أفضل من وصيفة. قال فما كان من الناس أحد بعد قول النبى صلى الله عليه وسلم أحب إلى من على.

[صفحه ۱۸۸]

قال عبد الله بن بريدة: فوالذى لا إله غيره ما بينى وبين النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث غير أبى بريدة [۶] ، وعن بريدة قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: يا بريدة. ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلى مولاه [۷] - وفى لفظ - من كنت وليه فعلى وليه [۸] ، وفى رواية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": لا تقع فى على فإنه منى وأنا منه وهو وليكم بعدى. وإنه منى وأنا منه وهو وليكم بعدى [" ۹] .

وعن عمرو بن شاس الأسلمى قال: خرجت مع على إلى اليمن. فجافانى فى سفرى ذلك. حتى وجدت فى نفسى عليه. فلما قدمت أظهرت شكايته فى المسجد. حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدخلت المسجد ذات غدوة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناس من أصحابه. فلما رآنى أبدى عينيه (أى: حدد إلى النظر) حتى إذا جلست قال: يا عمرو والله لقد آذيتنى! قلت: أعوذ بالله أن أؤذيك يا رسول الله. قال: بلى من آذى عليا

[صفحه ۱۸۹]

فقد آذانى [۱۰] .

وروى الحافظ البيهقى: أن سعد بن مالك كان فيمن خرج مع على إلى اليمن وأصابه من على بن أبى طالب بعض الغلظة والتضييق. وذلك منعهم من استخدام إبل الصدقة. فاستخدموها فذمهم ولامهم. يقول سعد: فلما جاء - على - عرف فى إبل الصدقة أنها ركبت. فذم الذى أمره ولامه فقلت: أما إن لله على أن قدمت المدينة وغدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأذكرن لرسول الله ولأخبرنه ما لقينا من الغلظة والتضييق. فلما قدمنا المدينة. لقيت أبا بكر خارجا من عند رسول الله. فلما رآنى وقف معى. ورحب بى وساءلنى وساءلته. وقال: متى قدمت؟ قلت: قدمت البارحة. فرجع معى إلى رسول الله!! وقال أبو بكر: هذا سعد بن مالك بن الشهيد. فقال النبى: ائذن له. فدخلت. فحييت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيانى. وسلمت عليه وسألنى عن نفسى وأهلى. فأخفى المسألة. فقلت: يا رسول الله. لقينا من على بن أبى طالب ما لقينا منه! حتى إذا كنت وسط كلامى. ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى وكنت منه قريبا. وقال: سعد بن مالك بن الشهيد!! مه بغض قومك لأخيك على. فوالله لقد علمت أنه جيش فى سبيل الله. قال سعد: فقلت فى نفسى: ثكلتك أمك سعد بن مالك. ألا أرانى كنت فيما يكره منذ اليوم. وما أدرى لا جرم. والله لا أذكره بسوء أبدا سرا ولا علانية [۱۱] .

وعن عمران بن حصين. قال: بعث رسول الله سرية وأمر عليها على بن أبى طالب. فأحدث شيئا فى سفره فتعاقد أربعة من أصحاب محمد أن يذكروا أمره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال عمران: وكنا إذا قدمنا من

[صفحه ۱۹۰]

سفر بدأنا برسول الله فسلمنا عليه. قال: فدخلوا عليه. فقام رجل منهم. فقال: يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا. فأعرض عنه. ثم قام الثانى فقال: يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا. فأعرض عنه. ثم قام الثالث فقال: يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا. فأعرض عنه. ثم قام الرابع فقال: يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا قال: فأقبل رسول الله على الرابع وقد تغير وجهه. وقال: دعوا عليا - دعوا عليا - دعوا عليا. إن عليا منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن بعدى [" ۱۲] .

وهكذا أقيمت الحجة على سرية اليمن. التى قال النبى فيها لعلى عند بداية رحلته " يا على لأن يهدى الله على يديك رجلا خير لك

مما طلعت عليه الشمس " ولقد صدق رسول الله وانتقل رجال من دائرة البغض إلى دائرة الحب. وظل النبى يحيط قيادة على بن أبى طالب بالرعاية وتسليط الضوء عليها ليقيم الحجة الدامغة. ولم تكن الحجج من نصيب سرية اليمن وحدها بعد غدير خم وإنما شملت آخرين فعن سعد بن أبى وقاص قال: كنت جالسا فى المسجد أنا ورجلين معى. فنلنا من على بن أبى طالب. فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله غضبان. يعرف فى وجهه الغضب. فتعوذت بالله من غضبه. فقال: ما لكم وما لى!! من آذى عليا فقد آذانى [۱۳] ، وعن أبى سعيد الخدرى قال: اشتكى عليا الناس. فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فينا خطيبا فسمعته يقول: أيها الناس لا تشكوا عليا!! فوالله إنه لأخشن فى ذات الله. أو فى سبيل الله [۱۴] .

وعن وهب ابن حمزة قال: سافرت مع على بن أبى طالب من المدينة إلى مكة. فرأيت منه جفوة. فقلت: لئن رجعت فلقيت رسول الله صلى الله عليه

[صفحه ۱۹۱]

وسلم. لأنالن منه قال: فرجعت فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عليا فقلت عنه. فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم": لا تقولن هذا لعلى. فإن عليا وليكم بعدى [" ۱۵] .

ولكى يكتمل تصور (هو وليكم بعدى) ويرسخ فى الأذهان. تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم آية من سورة المائدة آخر سور القرآن نزولا. وكانت الآية فى على بن أبى طالب. قال تعالى: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون - ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) [۱۶] .

قال المفسرون: اشتمل قوله تعالى من السياق. على ما يدل على وحدة ما فى معنى الولاية المذكورة فيه. حيث تضمن العد فى قوله: (الله ورسوله والذين آمنوا)، وأسند الجميع إلى قوله " وليكم " وظاهره كون الولاية فى الجميع بمعنى واحد. ويؤيد ذلك أيضا قوله فى الآية التالية: (فإن حزب الله هم الغالبون)، حيث يشعر أو يدل على كون المتولين جميعا حزبا لله. لكونهم تحت ولايته. فولاية الرسول والذين آمنوا. إنما هى من سنخ ولاية الله.. ولو كانت الولاية المنسوبة إلى الله فى الآية. غير المنسوبة إلى الذين آمنوا. كان الأنسب أن تفرد ولاية أخرى للمؤمنين بالذكر. رفعا للالتباس. كما وقع فى نظيرها قال تعالى: (.. قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) [۱۷] ، فكرر لفظ الإيمان. لما كان فى كل من الموضعين. لمعنى غير الآخر. على أن لفظ (وليكم) أتى به مفردا وقد نسب إلى الذين آمنوا وهو جمع. وقد وجهه المفسرون بكونه الولاية. ذات معنى واحد، هو لله سبحانه على الإصابة ولغيره بالتبع... والروايات تدل على أن الآيتين نازلتان فى على بن أبى طالب. فقوله تعالى: (والذين آمنوا)، إطلاق للجمع وإرادة للواحد. وقد كثر

[صفحه ۱۹۲]

فى القرآن الحكم أو الوعد والوعيد للجماعة. والحقيقة حسب أسباب النزول للمفرد كقوله تعالى: (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) [۱۸] ، وقوله تعالى: (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) [۱۹] ، وقوله تعالى: (الذين يظاهرون - من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) [۲۰] ، وقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) [۲۱] ، وقد صح فى أسباب النزول أن المراد به حاطب بن أبى بلتعة فى مكاتبته قريش. وقوله تعالى: (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) [۲۲] ، وقد صح أن القائل عبد الله بن أبى سلول. وقوله تعالى: (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار) [۲۳] ، وقد ورد أنها نزلت فى على بن أبى طالب، وقوله تعالى: (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى) [۲۴] ، والقائل هو عبد الله بن أبى، وهذه الآية واقعة بين الآيات المبحوث عنها نفسها إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى وردت بلفظ الجمع ومصداقها حسب أسباب النزول مفرد. أما الحديث الذى يشهد بأن الآية نزلت فى على بن أبى طالب. فقد اتفق على نقله من غير رد أئمة التفسير بالمأثور. واتفق عليه أحمد والنسائى والطبرانى والطبرى وعبد بن حميد وغيرهم من الحفاظ وأئمة الحديث. فعن ابن عباس قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يصلون بين راكع وساجد وقائم وقاعد. وإذا مسكين يسأل. فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: أعطاك أحد شيئا؟ قال: نعم، قال: من؟

قال: ذلک الرجل القائم، قال:

[صفحه ۱۹۳]

علی أی حال أعطاکه؟ قال: وهو راکع، قال: وذلک علی بن أبی طالب. قال: فکبر رسول الله صلی الله علیه وسلم وهو یقول: (ومن یتولی الله ورسوله والذین آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) [۲۵] .

وقال ابن کثیر، قال ابن جریر. الآیة نزلت فی علی بن طالب تصدق وهو راکع [۲۶] ، وروی الطبرانی: بطریق إلی عیسی بن عبد الله بن عبید الله بن عمر بن علی بن أبی طالب قال: حدثنی أبی عن أبیه عن جده عن علی قال ": نزلت هذه الآیة علی رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم: (إنما ولیکم الله ورسوله والذین آمنوا...) الآیة، فخرج رسول الله فدخل المسجد والناس یصلون بین راکع وقائم وإذا سائل. فقال: یا سائل هل أعطاک أحد شیئا. فقال: لا إلا ها ذاک الراکع - لعلی - أعطانی خاتمه [۲۷] .

إنها المنقبة التی جمعت أحداث الغدیر. منقبة تفرد بها علی فتصدق وهو راکع. لیستقیم هذا التفرد. مع تفرد الغدیر بحدیث واحد وحدث واحد. فإذا قیل: ماذا قال النبی فی الغدیر؟ تردد صدی الإجابة مع إجابة سؤال: من الذی تصدق وهو راکع؟ إنه موقف التفرد وسط مواقف کثیرة، فلقد روی عن ابن عباس قال ": نزلت علی ثلاثمائة آیة [" ۲۸] وعنه. قال ": کان لعلی ثمانی عشر

منقبة ما کانت لأحد من هذه الأمة [" ۲۹] ، وإذا لا خلاف علی أن منقبة علی بن أبی طالب فی هذه الآیة واحدة من هذه المناقب التی لم یتمتع بها غیره. إن ظلال ولایة الله ورسوله والذین آمنوا، یلتقی مع ظلال وأطیعوا الله وأطیعوا الرسول وأولی الأمر منکم. وتحت هذا الظلال ینتهی الطریق إلی سعادة الدنیا والآخرة. ولقد قامت الحجة فی أول الطریق وشاع حدیث الکساء

[صفحه ۱۹۴]

والمباهلة والمنزلة والولایة بین الناس. والماضی زاد للحاضر. والقرآن حث علی النظر إلی الماضی کی یتبین الإنسان فی الحاضر خطأه. لأن الماضی لا یعمل فیه برنامج واحد ولم یکن ملکا لدائرة واحدة. فالنظر والتدبر فریضة حتی لا یلد الحاضر مستقبلا کسیحا. نکون نحن بالنسبة إلیه ماضیا وحتما فی عالم الکساح لن یکتب للذین لم یتدبروا الخلود.

[صفحه ۱۹۵]

[۱] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱۰۷:۱۳).

[۲] قتل علی یوم بدر أخوه قیس بن الولید ثلاثة من أبناء أعمامه.

[۳] أی إذا کان قتال فالقیادة لعلی.

[۴] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۳۸:۵) وابن أبی شیبة (کنز ۱۳۴:۱۳).

[۵] صرح باسمه فی روایة أخری عند الإمام أحمد (الفتح الربانی ۵۵:۱۷)، وأیضا (کنز العمال ۱۳۵:۱۳).

[۶] رواه أحمد (الفتح ۵۶:۱۷) والبخاری فی مختصرا (الصحیح ۷۳:۳) وأبو نعیم (کنز العمال ۱۳۵:۱۳) وقال فی الفتح أقسم ابن بریدة أنه تلقی هذا الحدیث من والده بریدة مباشرة. وهو یفید أن والده تلقاه من النبی مباشرة بغیر واسطة یشیر بذلک إلی علو السنن (الفتح ۲۱۴:۲۲).

[۷] رواه أحمد وقال فی الفتح قال الهیثمی رجال أحمد ثقات. وقال فی موضع آخر رجاله رجال الصحیح (الفتح الربانی ۲۱۳:۲۱) ورواه ابن حبان وسمویة والحاکم (کنز العمال ۶۰۹:۱۱).

[۸] رواه أحمد وقال فی الفتح رواه أحمد والنسائی والحاکم وقال الهیثمی فی موضع رجاله موثقون وفی موضع رجاله ثقات، وفی آخر رجاله رجال الصحیح (الفتح الربانی ۲۱۳:۲۱)، ورواه ابن أبی شیبة وابن جریر وأبو نعیم (کنز ۱۳۴:۱۳)، ورواه الحاکم وقال حدیث صحیح علی شرط مسلم ولم یخرجاه (المستدرک ۱۱:۳).

[۹] رواه أحمد وأورده الهیثمی وقال رواه الترمذی باختصار ورواه أحمد والبزتر باختصار وفیه الأجلح الکندی وثقه ابن معین وبقیة

رجاله أحمد رجال الصحيح. وقال فی الفتح أقسم ابن بريدة أنه تلقی هذا الحديث من والده (الفتح الربانی ۲۱۴:۲۱).

[۱۰] رواه أحمد (الفتح ۱۲۰:۲۳) وقال الهيثمی رواه أحمد والطبرانی باختصار والبزار أحضر منه ورجال أحمد ثقات ورواه ابن حبان فی صحيحه (الزوائد ۱۲۹:۹)، ورواه الحاكم وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (المستدرک ۱۲۲:۳)، ورواه ابن أبی شيبة وابن سعد والبخاری فی تاريخه والطبرانی (كنز العمال ۱۴۲:۱۳) وقال ابن كثير رواه غير واحد. (البداية والنهاية ۳۴۷:۷).

[۱۱] رواه البيهقی (البداية والنهاية) ۳۴۶:۷.

[۱۲] رواه الترمذی وحسنه، والنسائی وأبو يعلی (البداية ۳۴۵:۷).

[۱۳] قال الهيثمی رواه أبو يعلی والبزار باختصار، ورجال أبی يعلی رجال الصحيح غير محمود بن خداش وقنان وهما ثقتان (الزوائد ۱۲۹:۹)، وذكره ابن كثير وقال رواه أبو يعلی (البداية ۳۴۷:۷).

[۱۴] رواه أحمد (الفتح ۲۰:۲۳) والحاكم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۳۴:۳) وأبو نعيم فی الحلية (كنز ۶۲۰:۱۱) وقال ابن كثير تفرد به أحمد (البداية ۳۴۶:۵).

[۱۵] رواه أبو يعلی (البداية ۳۴۶:۷).

[۱۶] سورة المائدة: الآية ۵۶.

[۱۷] سورة التوبة: الآية ۶۱.

[۱۸] سورة البقرة: الآية ۲۱۹.

[۱۹] سورة آل عمران: الآية ۱۸۱، والقائل يهودی اسمه قحاص (تفسير ابن كثير ۴۳۴:۱).

[۲۰] سورة المجادلة: الآية ۲ و ۳، والذی ظاهر هو أوس وكان تحته ابنة عم يقال لها خولة (تفسير ابن كثير ۳۲۰:۴).

[۲۱] سورة الممتحنة: الآية ۱، نزلت فی حاطب بن أبی بلتعة (تفسير ابن كثير ۳۴۵:۴).

[۲۲] سورة المنافقون: الآية ۸، والقائل عبد الله بن سلول (تفسير ابن كثير ۳۷۱:۴).

[۲۳] سورة البقرة: الآية ۲۷۴، نزلت فی علی بن أبی طالب (تفسير ابن كثير ۳۲۶:۱).

[۲۴] سورة المائدة: الآية ۵۲، نزلت فی عبد الله بن أبی (تفسير ابن كثير ۶۸:۲).

[۲۵] رواه ابن مردويه (تفسير ابن كثير ۷۱:۲).

[۲۶] تفسير ابن كثير ۷۱:۲.

[۲۷] رواه الطبرانی (البداية والنهاية ۳۵۸:۵).

[۲۸] تاريخ الخلفاء / السيوطی ص ۱۶۱.

[۲۹] تاريخ الخلفاء ص ۱۶۱.

النور بين التحذير والتبشير

فی بداية الطريق غرس الله تعالی فی الإنسان ما يهديه سلوك الصراط المستقيم. وبعث سبحانه الأنبياء والرسل كی يسوقوا الناس نحو ربهم بعيدا على الأشواك وخيام الشذوذ التی أقامها الشيطان وأولياؤه. فالدين الذی يأتی به رسل الله عليهم السلام هو الطريقة الوحيدة التی تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروی والحياة الدائمة الحقيقية. ومن رفض الدين فقد أعرض عن الذكر والعبادة التی من أجلها خلق الله الإنسان. وعلى هذا يدخل بأقدامه فی دائرة الضنک حيث ضيق المعيشة فی الدنيا ثم فی دائرة العمی يوم القيامة. والله تعالى لا يظلم الناس. والعذاب الذی يرونه فی الدنيا وسيرونه فی الآخرة هو نتيجة طبيعية لأعمالهم.. ومنذ فجر التاريخ تأتی الأمم وتجری عليها سنة الابتلاء والامتحان. تلك السنة الإلهية التی لا يستثنی

منها المؤمن والكافر والمحسن والمسئ. وتحت هذه السنة يمتحن الله تعالى البشر. بكل جزء من أجزاء العالم وكل حالة من حالاته التى لها صلة بالإنسان ليعلم سبحانه كيف وإلى أين سيوجه الإنسان إرادته واختياره. ومن هو المحسن ومن هو المسئ، ومن الصابر ومن القانط إلى غير ذلك، وما من امتحان يفتح إلا وفيه حجة من الله ترشد إلى طريق الحق لأن الله تعالى أوجب على نفسه فتح الطريق لعباده وهدايتهم إليه. وبنى إسرائيل أمة من الأمم التى اختبرها الله تعالى وفى البداية قال لهم موسى عليه السلام كما أخبر تعالى: (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم

[صفحه ۱۹۶]

ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) [۱] .

وأقام عليهم موسى وهارون الحجة تلو الحجة، وجاء من بعدهما أنبياء لبنى إسرائيل فكذبوا من كذبوا وقتلوا من قتلوا. فى نهاية المطاف فاز من بنى إسرائيل من فاز ولعن من لعن. والحجة على رأس الجميع يوم القيامة. والأمة الخاتمة، يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا، كذلك نجزى القوم المجرمين - ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) [۲] .

ولما كان الاستخلاف يخضع لسنة الامتحان الإلهى، فما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من شئ إلا وحدد جانب الهدى فيه، وهو يخبر عن ربه جل وعلا فإذا كان الله هو الذى يجرى الامتحان على عباده، فهو الذى يبين النجاة من كل شئ إلى عباده. قال تعالى لرسوله: (ليس لك من الأمر شئ) [۳] .

فالضعف والقوة والإخزاء والإغاظة وغير ذلك ليس للنبى فيه ضلع، والأمر فيه لله. وقال تعالى لرسوله: (واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم) [۴] .

ومن العجيب أن يقول القوم أن الأمر لهم فى تنصيب ما يشاؤون، ومع اختيارهم، ولأن الأمر لهم ركب على أعناق الأمة أغيلمة قريش الذين مهدوا للسفهاء وأولاد الزنا أصحاب أطروحات الاغواء والتزيين والاحتناك. ومن الأعجب، إن الله تعالى يقول لرسوله: (استقم كما أمرت)، وهم لا

[صفحه ۱۹۷]

يطيقون أن يقال لهم اتقوا الله. وجمعوا فريقا من الناس وقالوا: هؤلاء رمزا للاستقامة والعدالة، وإذا أخطأ فله أجر وإذا أصاب فله أجران، وإذا قتل فهو والقتيل تحت عنوان: سيدنا قتل سيدنا من أجل سيدنا رضى الله عنهم أجمعين. وهذا الخلط أخبر عنه النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقيم الحجة بعد أن أقام القرآن حجته على أن الجميع - سيدنا وغير سيدنا - يخضع للسنة الإلهية للابتلاء والامتحان، وتحت هذه السنة لا ينبغى للناس أن يزكوا أنفسهم لأن الله أعلم بالمتقين.

[۱] سورة الأعراف: الآية ۱۲۹.

[۲] سورة يونس: الآية ۱۳ و ۱۴.

[۳] سورة آل عمران: الآية ۱۲۸.

[۴] سورة الشورى: الآية ۱۵.

النبى يحذر من أصول الفتن

فى غدير خم وعلى امتداد الرحلة أقام النبى صلى الله عليه وسلم

الحجة على قريش ومن والاهم وعلى سكان العاصمة الإسلامية أن القيادة محصورة فى دائرة لا تأكل الصدقة. ولهذه الدائرة ذروة كما لكل شئ ذروة، وعندما يحث النبى على شئ ويبالغ فى الحث عليه إشارة إلى أن المحذر منه سيقع. والنبى كان يعلم من ربه أن الأمة

مختلفة من بعده ولأن الاختلاف واقع لا محالة فبث الحجة بطرق مختلفة ضرورة والله لا يظلم الناس. فى البداية خلق سبحانه آدم للخلافة فى الأرض، وقبل أن يخلقه قال لملائكته: (إنى جاعل فى الأرض خليفة) [۱] .

لم يقل فى الجنة وإنما فى الأرض، وبعد خلق آدم نهاه الله عن شجرة وحذره من شيطان. وانطلق آدم وزوجه عليهما السلام فى الجنة باختيارهما. لم يدفعا للهبوط إلى الأرض لممارسة واجب الخلافة. لأن الله لا يظلم أحدا. وهو سبحانه قادر على خلقهما ودفعهما نحو الأرض. ولكن لكل شئ هدف ومن وراء الهدف حكمة. فلو حدث هذا ما ظهر النفاق الشيطانى وبرنامجه، وما ظهرت دائرة العزم والاختيار عند الإنسان. وآدم وزوجه عليهما السلام كانا منذ

[صفحه ۱۹۸]

البداية من المخلصين الذين لا يقدر عليهم الشيطان بشرك أو نحوه. ولم يجد الشيطان منفذا يؤكد من التزيين لهما سوى أن يقسم بالله أنه لهما من الناصحين (وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين) [۲] .

وما كان آدم يظن أن هناك من يقسم بالله كذبا فى هذا العالم الطاهر التقى. وحدث ما حدث. وخرجا من الجنة وفقا لعزمهما واختيارهما ليمارسا واجب الخلافة فى الأرض التى من أجلها خلقا. والله تعالى قبل خلق آدم علم بعلمه المطلق أن خلقه سيسلكون هنا ويتركون هناك، ولو شاء سبحانه ما فعلوا هذا أو ذاك. لأن كل شئ تحت سلطانه ولا يستطيع أحد من خلقه أن يلفظ من قول إلا بإذنه، وعلى الأرض تاب الله على آدم وزوجه واصطفاه وبعث إلى ذريته الأنبياء والرسل. وفى بحور البشرية لبس القسم ألف وجه. وكان مادة أساسية لعرقلة الطريق أمام الذين عطلوا ملكة البصيرة والتفكر فى ملك الله الواسع العريض. والأمة الخاتمة جزء من المسيرة البشرية. عرضة لعواصف القسم والدجل. لهذا بث النبى الحجة حتى لا يكون للناس على الله حجة. واختلاف الأمة ورد فى آيات كثيرة من القرآن وروى عن على قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": آتانى جبريل فقال: يا محمد إن أمتك مختلفة من بعدك "[۳] .

ودائرة الاختلاف لن تكون على مائدة طعام وإنما على الرأس. لأن من ملك الرأس وضع يده على كل بساط. فعن خالد بن عرفطة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إنكم ستبتلون فى أهل بيتى من بعدى [" ۴] .

فالاختبار هنا وليس فى مكان غير هذا. والاختبار هنا لأن الكتاب هنا. والله لا يختبر إلا فيما أمر ونهى. وما ربك بظلام للعبيد. ولما كان على بن أبى طالب هو رأس أهل البيت فإنه ضمن المادة التى تختبر الأمة فيها. فعنه أنه قال:

[صفحه ۱۹۹]

إن مما عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إن الأمة ستغدر بك بعدى [" ۵] .

والنبى الأكرم صلى الله عليه وسلم، سأل ربه أن لا يفرق أمته، وأن لا يجعل بأسهم فيما بينهم. ولكن الله الذى يعلم ما تحتويه طينة كل إنسان من خلقه أبى عليه. روى عن سعد بن أبى وقاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": سألت ربى ثلاثا، فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة. سألت ربى أن لا يهلك أمتى بسنة فأعطانيها. وسألته أن لا يهلك أمتى بالغرور فأعطانيها. وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها - وفى رواية - وسألته أن لا يلبسهم شيئا فأبى على [" ۶] .

فالباب الذى منعه الله غمرته الحجج من كل مكان، والآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التى تحذر من الاختلاف والافتراق والبغى والاستكبار والإنكار وغير ذلك وتحث على الطاعة والوحدة والأخلاق والاستقامة وغير ذلك لا يخلو منها مصدر إسلامى. ونحن هنا لا نسلط ضوء الحجة إلا على دائرة الجيل الأول فى القرن الهجرى الأول. لأن على حركة هذا الجيل دارت العجلة آخذة من ورائها فى كل زمان الماضى والحاضر وهى تتقدم نحو المستقبل. ولأن الجيل الأول هو العجينة التى سيأكل من خبزها الجميع ما ترك النبى بابا إلا وتكلم فيه، عن أبو زيد قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن،

فأعلمنا

[صفحه ۲۰۰]

أحفظنا [" ۷] .

كان النبى يعلم من ربه أن الفتنة إذا انطلقت فلن تنطلق إلا- من عند الذين سمعوا منه وشاهدوه. وإنها ستسير بوقودهم على امتداد التاريخ، ولهذا كان يشير ويحذر. فعن أسامة قال: أشرف النبى صلى الله عليه وسلم على أطم [۸] من أطام المدينة ثم قال: هل ترون ما أرى؟ إنى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر [" ۹] .

والتشبيه بمواقع القطر أى أنها كثيرة وتعم الناس. وقال النووى: وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم... وفيه معجزة ظاهرة له صلى الله عليه وسلم [۱۰] لأن ما أخبر به وقع. وإذا كان النبى قد أشار إلى مواقع الفتن على ساحة المدينة الواسعة فإنه صلى الله عليه وسلم أشار إليها فى ساحة أضيق. فعن أم سلمة قالت: استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول: لا إله إلا الله ما فتح الليلة من الخزائن؟ لا إلا إلا الله ما أنزل الليلة من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجر، يريد به أزواجه... يا رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة" [۱۱] .

وقيل فى المعنى: كاسية من نعم الله، عارية من الشكر الذى تظهر ثمرته فى الآخرة [۱۲] ، ومن ساحة بيوت النبى حيث المساحة الضيقة، أشار عليه الصلاة والسلام إلى ساحة أضيق، روى البخارى عن عبد الله قال: قام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا فأشار نحو مسكن عائشة فقال: ها هنا الفتنة، ها هنا

[صفحه ۲۰۱]

الفتنة، ها هنا الفتنة. من حيث يطلع قرن الشيطان [" ۱۳] .

[۱] سورة البقرة: الآية ۳۰.

[۲] سورة الأعراف: الآية ۲۱.

[۳] رواه أحمد (الفتح الربانى ۱۸۶:۱).

[۴] رواه الطبرانى (كنز العمال ۱۲۴:۱۱).

[۵] رواه البيهقى وقال ابن كثير ابن كثير سنده صحيح (البداية ۲۱۸:۶) ورواه البزار بسند صحيح والحاكم وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (المستدرك ۱۴۰:۳).

[۶] رواه مسلم ك الفتن (الصحيح ۱۴:۱۸) وأحمد (الفتح ۲۱۵:۲۳) وأحمد وابن ماجة بسند صحيح (كنز ۱۲۱:۱۱) والترمذى والنسائى وابن حبان والضياء عن خباب (كنز ۱۲۲:۱۱).

[۷] رواه مسلم ك الفتن (الصحيح ۱۶:۱۸) وأحمد (الفتح ۲۷۲:۲۱).

[۸] الأطم / القصر أو الحصن.

[۹] رواه البخارى ك الحج (الصحيح ۳۲۲:۱)، ومسلم (الصحيح ۷:۱۸).

[۱۰] شرح مسلم ۷:۱۸.

[۱۱] البخارى ك اللباس (الصحيح ۳۳:۴) والترمذى وصححه (الجامع ۴۸۸:۴) وأحمد الفتح ۳۴:۲۳).

[۱۲] فتح البارى ۲۳:۶۰.

[۱۳] رواه البخارى (فتح البارى شرح صحيح البخارى حديث رقم ۳۱۰۴ ص ۲۴۳:۶ ط دار الريان).

الرسول و نظرات على واقع بعيد

لم يكن النبى يحذر من الفتن فقط، وإنما كان يبين لمن حوله أن الفتنة إذا

هبت انطلق دخانها فى سماء العصور والدهور. وعلى امتداد هذه المسيرة يدون لها ثقافات وقوانين لا تخدم إلا أنصار الشذوذ الذين لا هم لهم إلا التعتيم على نور الفطرة والصد عن السبيل. وفى نهاية المطاف يستخدم المسيح الدجال هذه الأوراق لصالحه. والدجال أعظم فتنة منذ ذرأ الله ذرية آدم وما من نبى إلا وحذر قومه الدجال، ولقد حذر نوح قومه منه ليس على أساس أنه خارج فيهم. لأن نوح كان يعلم من ربه أنه يخرج فى الأمة الخاتمة. وإنما حذرهم من نسيج الشذوذ. لأن كل نسيج من هذا يتلقفه الشيطان ويلقيه على رأس البشرية من جيل إلى جيل، حتى يستقر عند الدجال آخر الزمان، والنبى حذر أصحابه على هذا النحو، لأن الدجال خارج فى الأمة الخاتمة لا محالة. فعن حذيفة قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لأنا لفتنة بعضكم بعضا أخوف عندى من فتنة الدجال. ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها، وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال [" ۱] .

فالشذوذ حلقات، وحلقات الشذوذ يصنعها أصحاب القسم الزائف، أى الأئمة المضلين، فعن أبى ذر قال: سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ": غير الدجال أخوف على أمتى. "؟) قلت: يا رسول الله أى شئ أخوف على أمتك من الدجال؟

[صفحه ۲۰۲]

قال ": الأئمة المضلين [" ۲] .

فهؤلاء الباب الذى يدون عنده القانون ذو الغلاف المزخرف، الخارج عنه فى عرفهم خارج عن الدين، ولأن الدين غلافه فى عالمهم. يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر. والنبى صلى الله عليه وسلم حدد ثلاث فتن: الأولى فيها موت والثانية فيها قتل والثالثة فيها الدجال، ومن نجا عند الباب نجا عند الدجال. عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاثة من نجا منها فقد نجا. من نجا عند موتى فقد نجا، ومن نجا عند قتل خليفة يقتل مظلوما وهو مصطبر يعطى الحق من نفسه فقد نجا. ومن نجا من فتنة الدجال فقد نجا [" ۳] .

فعند موته صلى الله عليه وسلم تحدث أحداث من نجا منها فقد نجا، فهذه الأحداث باب وهذا الباب يوصل إلى الحلقة الثانية. حيث الخليفة المظلوم. فمن وقف فى دائرة المظلوم الذى يعطى الحق ثم يأتيه القتل وهو مظلوم فقد نجا، وكم من خليفة قتل على امتداد التاريخ الإسلامى. وكل حزب وكل قبيلة تقسم أن خليفتها قتل مظلوما. ولكى لا تضيع الحقيقة لصالح الدجال فلا بد لتحديد الخليفة أن يقال: خليفة من؟ فإن قيل: خليفة لله، قلنا: ما البرهان؟ إذا نسب أى شئ إلى الله لا بد أن يكون عليه دليل. ألم تر أن المشركين كانوا إذا فعلوا فاحشة قالوا أن الله أمرهم بهذا. ألم تر أنهم عبدوا من دون الله ما لا ينفع ولا يضر وقالوا لو شاء الله ما أشركنا ولم يكن معهم دليل على هذا وذاك. ألم ترى أن عبادة الأصنام دخلت من باب التقرب إلى الله والله برئ من المشركين.

[صفحه ۲۰۳]

ألم تر أن دأب القرآن التمييز بين الحق والباطل والعلم والجهل والجهاد والقعود وغير هذا حتى يكون لكل شئ معالمه ولا تختلط الأوراق. حتى النبوة لا بد أن يكون عليها من الله برهان، والإمامة قال تعالى فيها لإبراهيم عليه السلام: (لا ينال عهدى الظالمين) [۴] وعلى هذا لا بد أن يحدد للناس من

العادل ويكون عدله حجة بذاتها على الظالمين. وكذلك الخلافة. فالخلافة عنه تعالى منزلة. وما دامت عنه تعالى فهو سبحانه الذى يحدد دائرتها. فكم من دائرة إنسانية مهمتها الصد عن السبيل وكل دائرة لها أسماؤها الرنانة. وإذا كان الشيطان قد زخرف قاموس الأسماء وخرج من أتباعه من يدعى الألوهية والنبوة ومراتب الصلاح فلا بد أن يقابل هذا الدوائر الحق التى تشير للناس نحو دوائر الزيف وتسوقهم إلى الصراط المستقيم. والقرآن أشار إلى دائرة الخلافة وكيف نسبها الله إلى نفسه. فداوود عليه السلام كان رسولا. وبمنزلة الرسالة كان يحق له أن يدخل أى دائرة من دوائر الهدى ولكنه لم يدخل إلا بإذنه، قال تعالى: (يا داوود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق) [۵] .

فالخلافة ليست وجاهة، لا بد للخليفة أن يتخلق بأخلاق الله. ويريد ويفعل ما يريده الله. ويحكم ويقضى بما يقضى به الله. والله يقضى بالحق وأن يسلك سبيل الله ويسوق الناس إليه ولا يتعداه. ولا يتبع فى قضائه الهوى هوى النفس لأنه يضل عن الحق. ولهذا وصف النبى الخليفة المظلوم الذى يقتل فقال ": خليفة يقتل مظلوما وهو مصطبر يعطى الحق من نفسه. " ودائرة الخلافة لا يجب أن تفترق عن القرآن ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم ": إنى تارك فيكم خليفتين كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتى أهل بيتى وإنهما لن يتفرقا حتى يردا على

[صفحه ۲۰۴]

الحوض [" ۶] .

والدائرة الثانية فى الحديث دائرة الخليفة الذى يقتل مظلوما، تمهد للدائرة الثالثة التى يتربع فيها الدجال. والطريق بين الدائرتين يجلس فيه القاتل. أى قاتل الخليفة المظلوم. فمن تبين هذه الحقيقة بعد قتل الخليفة. فقد نجا مثل الذين نصروا الخليفة المظلوم فى حياته. فعن عبد الله بن مسعود. قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله. كيف تقول فى الرجل أحب قوما ولم يلحق بهم؟ فقال النبى: المرء مع من أحب [۷] ، أما من وضع على عينيه الغمامة ومر على الخطيئة مر الكرام. فيجيبه أبو العرس بن عميرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها [۸] ، فمن غاب عنها ورضى وشارك الذى شهدها ورضى وإن بعدت المسافة وبعد الزمان بينهما. والفتنة فى كل حلقة لا بد من أن تترك أثرا لها على القلوب. فمن أنكر لا يتعكر قلبه. ومن رضى تعكر قلبه ودخل على فتنة الدجال وهو يهلل للدجال مغديا له بالروح والدم والمال. وعن أثر الفتن على القلوب. يقول حذيفة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": تعرض الفتن على القلوب. فأى قلب أنكرها. نكتت فى قلبه نكتة بيضاء. وأى قلب لم ينكرها نكتت فى قلبه نكتة سوداء. حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا. لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض. والآخر أسود مربدا كالكوز مجفيا. لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا. إلا ما شرب من هواه [" ۹] ، ومن أجل هذا لا بد من البحث عن الحقيقة. لأن الحلقة القادمة هى حلقة الدجال. ومن دخل عليها وهو عارف بحقيقتها فقد

[صفحه ۲۰۵]

نجا. أما الذى يدخلها ليبحث عن الحقيقة بداخلها، فلن ينفعه إيمانه لأن لله آيات لا ينفع فيها إيمان نفس لم تكن آمنت من قبل. قال تعالى: (يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا أيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون) [۱۰] ، وهذه الآيات حددها البنى صلى الله عليه وسلم فقال ": ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا أيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى أيمانها خيرا. الدجال والدابة. وطلوع الشمس من المغرب، " رواه الترمذى وغيره [۱۱] .

فالنبى صلى الله عليه وسلم حذر من أصول الفتن وهو يشير إلى بيوت أصحابه. وحذر من فتنة قومه وفتنة قتل الخليفة القائم بالحق. وبين أن الفتن كبيرها وصغيرها يقود إلى الدجال. كان يحذر وفى التحذير حجة كى لا يفتح فاتح الباب.

[۱] رواه أحمد والبزار وقال الهيثمى رجاله رجال الصحيح (الزوائد ۳۳۵:۷).

[۲] رواه أحمد وقال فى الفتح الربانى إسناده حسن (الفتح ۲۶:۲۳).

[۳] رواه الطبرانى والخطيب وأحمد والضياء بسند صحيح عن عبد الله بن حوالة (كنز ۱۸۰:۱۱) والحاكم وصححه (المستدرك ۱۰۱:۳).

[۴] سورة البقرة: الآية ۱۲۴.

[۵] سورة ص: الآية ۲۶.

[۶] رواه أحمد وقال الهيثمى إسناده جيد (الزوائد ۱۹۳:۹).

[۷] رواه البخارى ک الآداب (الصحيح ۷۷:۴).

[۸] رواه أبو داود حديث ۴۳۴۵.

[۹] رواه أحمد (كنز العمال ۱۱۹:۱۱) والحاكم وصححه (المستدرک ۴۶۸:۴).

[۱۰] سورة الأنعام: الآية ۱۵۸.

[۱۱] راجع كتابنا عقيدة المسيح الدجال.

النبى يحذر من رموز الفتن

بعد أن بين النبى المكان والزمان الذى تهب منه الفتن، وبعد أن بين إلى أين
تتجه الفتن. خوفهم من رموز الفتن. كى ترعد أيديهم إذا حاولوا فتح الباب. وأخبرهم بأنهم (بعده) سيختلفون بعد أن جاءهم العلم وإنهم سيحرصون على الإمارة [۱] ، وإن حرصهم عليها سيقودهم إلى سنن الذين من قبلهم. وإن الطريق سينتهى بهم إلى حيث لا قيادة وإن كانت هناک قيادة. فلن يدرى القاتل فى أى شئ قتل. ولن يدرى المقتول فى أى شئ قتل [۲] ونحن هنا سنقدم نخبة من
الأحاديث
التى فيها كلمة (بعدى) فلعلها تفيد الباحث عن الحقيقة. وقبل ذلک نقدم هذه النخبة لتكون فاتحة عن عمران بن حصين قال: قال النبى صلى الله عليه
[صفحه ۲۰۶]
وسلم ": أكثر ما أتخوف على أمتى من بعدى رجل يتأول القرآن. يضعه على غير مواضعه. ورجل يرى أنه أحق بهذا الأمر من غيره" [۳] ، ومن العجيب أنهم يقولون. أن الرسول ترک الأمر هكذا فى الرياح. كيف وهو كان يخاف أن يأتى من يرى أن أحق بهذا الأمر من غيره؟ هل يترک القرآن ليتلعب به الناس؟ هل يترک الأمر حتى يناله سفهاء قريش ويتسموا بأمراء المؤمنين وهم فى بطون أمهاتهم؟ كيف؟ وهو الذى بلغ الرسالة ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء نهارها وليلها سواء. وإذا كان الأمر هكذا فكيف يترک النبى هؤلاء يزحفون إلى النار وهو المبعوث رحمة للعالمين. لا بد أن يقيم عليهم الحجة أولا ثم ليزحفوا وقتما شاؤوا. ويوم القيامة لا يفيد الندم ولا يكون لهم على الله حجة. وهذه الحقيقة ترى فى حديث أبى هريرة. قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: يوشک رجل أن يتمنى أنه خر من الثرايا ولم يل من أمر الناس شيئا [" ۴] ، ومن دائرة الرجل ينتقل التحذير إلى دائرة أوسع. فعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": ليتمنين أقوام ولوا هذا لأمر أنهم خروا من الثرايا وأنهم لم يولوا شيئا [" ۵] ، وينتقل التحذير إلى دائرة المرتزقة الذين يجيدون الأكل والهتاف على موائد الرجال وأقوامهم. فعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويل للأمراء وويل للعرفاء وويل للأمناء. ليتمنين أقوام يوم القيامة. أن نواصيهم معلقة بالثريا فيجلجلون بين السماء والأرض وأنهم لن يلوا عملا [" ۶] .

وإذا كان النبى يحذر الناس من القيادة ويحذر الأمراء والعرفاء والأمناء. فهل المقصود من هذا أن الدولة لا تعرف النظام. وأن الدولة ينبغى أن تكون بلا
[صفحه ۲۰۷]
رأس. كيف، وهل أمة بلا رأس تكون جديرة بقيادة العالم. كيف وكان النبى يبعث الأمراء والأمناء والعرفاء فى أعمال الدولة. أن العديد فهم من الحديث إنه دعوة للتورع. وكثير منهم تورع حتى لا يتمنى يوما أن يتجلجل بين السماء والأرض وأنه لم يلى عملا. والحديث له أهداف أوسع. فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم يذهب أهل الجيل الأول فى أمر ليس من حقهم. وحذر من حذى حذوهم. فعن المقدام بن معد يكرب. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب على منكبه. ثم قال له ": أفلحت يا قديم إن مت ولم

تکن أمیرا ولا کاتبا ولا عریفا [" ۷] ، فإذا کان الصحابة کلهم عدول ثقات. فمن أولی منهم بالقیادة، ولماذا یحذرهم النبی ومما کان یخاف علیهم؟ لقد کان النبی یحث أصحابه علی أن لا ینازعوا الأمر أهله. فعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ". علیک بالسمع والطاعة فی عسرک ویسرک ومنشطک ومکرهک. وأثره علیک. وأن لا تنازع الأمر أهله [" ۸] ، فإذا کنا قد علمنا أن الأمر کله لله. فعلینا أن نعلم أن أهل الأمر لا یحددهم غیر الله. ولذلک کان أبو أیوب الأنصاری یبکی أیام بنی أمیة. وکان رضی الله عنه قد شهد المشاهد مع علی بن أبی طالب. وعندما سئل عن بکائه. قال: سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول: لا تبکوا علی الذین إذا ولیه أهله. ولکن ابکوا علیه إذا ولیه غیر أهله [" ۹] ، ثم إذا کان أحد أحیاء قریش من الذین لم یشر إلیهم النبی بولایة الأمر. هم أهل الدین. فلماذا طالب النبی الأمة باعتزالهم. روی الشیخان عن أبی هریرة قال النبی صلی الله علیه وآله ": یهلک أمتی هذا الحی من قریش، " قالوا: فما تأمرنا یا رسول الله؟ قال: لو أن الناس اعتزلوهم [" ۱۰] ، لو

[صفحه ۲۰۸]

کانوا أهل الدین فهل یجوز اعتزال الدین؟ إن النبی کان یخوفهم من فتح الباب. لأن الله أبی علیه أن لا یلبسهم شیعا ویذیقهم بأس بعضهم بعضا. وکان علیه الصلاة والسلام یعلم أن الحق سیکون غریبا، فعن قیس قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم: یا قیس عسی إن مد بک الدهر. أن یلیک بعدی ولاة لا تستطیع أن تقول بحق معهم [" ۱۱] ، وعن معقل بن یسار قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": لا یلبث الجور بعدی إلا قلیلا. فکلما طلع من الجور شئ ذهب من العدل مثله. حتی یولد فی الجور من لا یعرف غیره. ثم یأتی الله تبارک وتعالی بالعدل فکلما جاء من العدل شئ ذهب من الجور مثله. حتی یولد فی العدل من لا یعرف غیره، " وقوله ": ثم یأتی الله تبارک وتعالی بالعدل فکلما جاء من العدل شئ ذهب من الجور مثله. حتی یولد فی العدل من لا یعرف غیره [" ۱۲] ، وقوله: "ثم یأتی الله تبارک وتعالی بالعدل، " لا بد أن یکون علیه دلیل علی أنه من الله. ومهمته یجب أن تکون محصورة فی إقامة مؤسسات القسط والعدل بدلا من مؤسسات الظلم والجور. وقد ورد هذا عن النبی صلی الله علیه وسلم. بأن القادم. هو المهدی. من عترته. من ولد فاطمة رضی الله عنها ومهمته یملأ الأرض قسطا وعدلا کما ملئت ظلما وجورا [۱۳] ، وأوصافه فی کتب الحدیث فمن أرادها فلیراجعها [۱۴] ، هناک فدائرة الظلم زوالها علی ید المهدی الذی من عترة الرسول. والمهدی سیقاتل الدجال آخر الزمان. وزاد المهدی من زاد علی بن أبی طالب. فمن تزود نجا من فتنة الدجال. وبعد أن بین النبی لأصحابه أن الجور لا یلبث بعده إلا قلیلا وکلما طلع برأسه. توارى العدل إلی الظلال. أخبرهم بدائهم العضال فعن أبی هریرة قال.

[صفحه ۲۰۹]

قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": إنکم ستحرضون علی الإمارة. وستکون ندامة یوم القیامة. فنعم المرضعة وبئست الفاطمة [" ۱۵] ، قال بعضهم: نعم المرضعة. لما فیها من حصول الجاه والمال ونفاذ الکلمة وتحصیل اللذة الحسیة. وبئست الفاطمة. عند الانفصال عنها وما یترتب علیها من التبعات فی الآخرة [۱۶] ، والحرص علی الإمارة سیجعل للحریص أنیاب ومخالب. فیزرع الجلادین فی کل مکان. وسیأتی بالفقهاء علماء اللسان فیفصلون له الفتوی التی تحقق له الأمن والقداسة. ولهذا کان النبی صلی الله علیه وآله وسلم یقول لأصحابه فیما رواه مسلم ": یکون بعدی أئمة لا یهتدون بهدای ولا یستنون بسنتی. وسیقوم فیها رجال قلوبهم قلوب شیاطین فی جثمان أنس [" ۱۷] ، هؤلاء الرجال. من أی دائرة جاءوا؟ علی أی حال ما دامت قلوبهم قلوب شیاطین فلا علاقة لهم بالذین أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهیرا. وعن حذیفة قال. قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": سیکون بعدی علیکم أمراء یأمرونکم بما لا یفعلون. فمن صدقهم بکذبهم وأعانهم علی ظلمهم فلیس منی ولست منه ولن یرد علی الحوض [" ۱۸] ، من صدقهم وأعانهم لن یرد علی الحوض. فإذا سألنا. من الذی یرد علی الحوض؟ فإن الإجابة تکشف لک حقیقة هؤلاء الأمراء الکذبة. وعن کعب بن عجرة قال: خرج علینا رسول الله صلی الله علیه وسلم فقال: اسمعوا. هل سمعتم؟ أنه سیکون بعدی أمراء. فعن دخل علیهم فصدقهم بکذبهم وأعانهم علی ظلمهم فلیس منی ولست منه ولیس بوارد علی الحوض. ومن لم یدخل علیهم ولم یعنهم علی ظلمهم ولم یصدقهم بکذبهم فهو

منى وأنا منه. وهو وارد على الحوض [" ۱۹] ، إسمعوا، إسمعوا. من الذى يرد على

[صفحه ۲۱۰]

الحوض، قال النبى صلى الله عليه وسلم ": إنى تارك فيكم خليفتين - وفى روايـة ثقلين - أحدهما أكبر من الآخر. كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتى أهل بيتى وإنهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض [" ۲۰] .

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إنه سيلى أمركم من بعدى رجال يطفئون السنة ويحدثون بدعة. ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها، " قال ابن مسعود: كيف بى إذا أدركتهم؟ قال: يا ابن أم عبد. لا طاعة لمن عصى الله (قالها ثلاث مرات) [۲۱] ، يطفئون السنة، والإطفاء إما عدم تدوينها. أو تدوينها وعدم معرفة مراميها أو ترجيح الرأى عليها. فعلى كل هذا وغيره يترتب الاطفاء. وإذا كان هذا الحديث قد أخبر عن أمراء يؤخرون الصلاة فعند البخارى حديث لضياع الصلاة فى عهد بنى أمية، أحد عهود القرن الأول [۲۲] وإذا كان النبى قد

قال عند تأخير الصلاة لا طاعة لمن عصى الله. فإنه صلى الله عليه وسلم قد قال فى عهد ضياع الصلاة. اعتزلوهم. ولكل مرحلة فقه وعلم. وأخيرا نأتى إلى حديث حذيفة. كان يسأل النبى عن الشر مخافة الوقوع فيه. قال للنبى فيما رواه البخارى وغيره ": يا رسول الله، إنا كنا فى جاهلية وشر. فجاء الله بهذا الخير. فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم [۲۳] ، فهذا الحديث سجل وقوع الشر، حلقة وراء حلقة. ويسأل حنيفة عن هذا الشر. ما هو؟ قال النبى: فتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضا. تأتيكم مشتبهة كوجوه البقر لا تدرون أيا من أى [" ۲۴] ، فهل يصح أن يترك الرسول أمته دون أن

[صفحه ۲۱۱]

يبين لهم النجاة من هذه الفتن التى تعصف أول ما تعصف بحبل الصحابة. والله تعالى أوجب على نفسه فتح الطريق لعباده وهدايتهم إليه، (ما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) [۲۵] ، وحذيفة لم يسأل النبى عن الشر مرة واحدة. وإنما كان يحب أن يسأل عنه على فترات كما تدل رواياته. وفى هذه الروايات يقول النبى عن دعاة الشر " دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها " فيقول حذيفة: يا رسول الله صفهم لنا؟ قال ": هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا [" ۲۶] ، ويسأل حذيفة: وما العصمة من ذلك؟ قال: السيف. فقلت يا رسول الله: ثم ماذا يكون؟ قال: إن كان لله خليفة فى الأرض فضرب ظهرك وأخذ مالك فأطعه. وإلا فمت وأنت عاص بجذل شجرة. قال حذيفة: ثم ماذا؟ قال النبى: ثم يخرج الدجال [۲۷] ، فهذه الرواية. قال له ": إن كان لله خليفة فى الأرض " وفيه أن البحث فريضة. فقد يكون خليفة الله كهارون فى عالم السامرى. " فعالم السامرى كان عالم واسع عريض. ولا يضر هارون أنه يقف على الأرضية الأضيق فى أعين الناس. والأرضية الضيقة لها علم وفقه. وقد يكون الصمت فيها دواء. وقد يكون آخر الدواء الكى وهذا أمر يحدده خليفة الله. إن لكى شئ علم. ألم تر أن الله رفع نبيه عيسى عليه السلام. وكان فى الإمكان خسف الأرض. بمن أرادوا قتله. ولكن هذا تم لهدف ومن وراء الهدف حكمة. منها امتحان الذين آمنوا بعيسى عليه السلام. فعيسى أخبر وصيه وتلاميذه بأنه سيرفع وأخبر القاعدة العريضة أيضا بذلك وقال لهم: إنه حيث يكون فلن يستطيعوا الوصول إليه. ومن المعلوم أن أعداءه لا يستطيعون الوصول إلى السماء. وبعد الرفع جاء الامتحان. كانت الحجة كلمة وصرخة تلميذ. أن الذى على الصليب ليس عيسى. فمن استمع نجا، ومن صدق ما يشاهده هلك. وهنا تبرز قيمة الوصية والأوصياء. وكلمة الوصى أصدق مما تراه العيون. ولكن الجماهير تركت الوصى والتلاميذ. وانساقوا وراء من يظنون أنه المسيح. ولم

[صفحه ۲۱۲]

يلبث الجور بعد المسيح إلا قليلا. فكلما طلع من الجور شئ ذهب من العدل مثله. حتى ولد فى الجور من لا يعرف غيره. وشاء الله أن يجتمع عيسى بن مريم والمهدى المنتظر فى عصر واحد. ليخوضا ملاحم الدجال [۲۸] .

لقد أمر النبى حذيفة أن يبحث عن الإمام الحق ثم قال ": وإلا- فمت وأنت عاص بجذل شجرة. قال: ثم ماذا؟ قال النبى: ثم يخرج

الدجال، " فهل بشجرة هنا رمزا لمبايعة حق وخصوصا أن الدجال على الأبواب. ولكن أى شجرة هذه التى يتم مبايعتها وما الناس والكلام إلا شجر. وورد عند البخارى بعد أن قال النبى لحذيفة بأن يلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قال حذيفة: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام. قال النبى. فاعتزل تلك الفرق كلها. ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك [" ۲۹] ، وعدم وجود الجماعة والإمام وارد. فنحن فى زماننا نرى ما نرى. فكل شئ غائب عنا. وغدا يأتى الله بأمره فهل هذه الرواية تختص بزماننا هذا. وكما ذكرنا أن أسئلة حذيفة للنبى كانت بين الحين والحين ولم تكن واحدة. إن الفرق كلها أمر النبى باعتزالها. ولكن الاعتزال والوقوف فى العراء يكون قريبا من دائرة الموتة الجاهلية لحديث البخارى وغيره " من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية [" ۳۰] ، فما بالك بعدم وجود جماعة أصلا والحديث أشار بهذا والنبى لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يدفع إنسان إلى العراء أو يجعله قريبا من الموتة الجاهلية. لذا نجده فى حديث حذيفة يقول بعد أن أمر باعتزال الفرق ": ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك " فعند الشجرة يمكن أن يأتى الموت ولكن ليس موتا جاهليا. وعلى هذا والله أعلم أن الشجرة رمزا للجماعة، من فارقها فى العصر الذى يقصده الحديث تكون ميتته ميتة الجاهلية. وبين الإمام والجماعة فى الحديث خط مستقيم يصل إلى الشجرة. والبحث فى أصول الشجرة، يقتضى منا

[صفحه ۲۱۳]

أن نضع هنا قول النبى صلى الله عليه وسلم " على أصلى ["... ۳۱] ، وقوله ": إن الناس اليوم كشجرة ذات جنى. ويوشك أن يعودوا كشجرة ذات أشواك [" ۳۲] ، وكل إنسان يبحث عن شجرة. وكما علمنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قد حذر من أصول الفتن. فأخبر أن الفتن من بعده ستكون كثيرة وستنتهى إلى الدجال وأن السلطة ستكون كخيمة على بركة من الدماء. الجميع يتصارع من أجل الوصول إليه. ولذا حذر صلى الله عليه وسلم أصحابه حتى لا ينازعوا الأمر أهله. لأن المنازعة ستفتح الأبواب لما هو أشد وافتك. إذا كنا قد علمنا ذلك. فيجب أن نعلم هنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قد حدد تيارا بعينه وهو تيار بنى أمية. وحذر منه أشد التحذير. وأخبر أن هذا التيار سيصل إلى السلطة. والوصول إلى السلطة لا يأتى فى يوم وليلة. فإذا كان سيصل مثلا فى مرحلة منتصف الطريق. فلا بد أن تكون مرحلة أول الطريق قد مهدت له ووضعت له الركائز التى يرتكز عليها دينيا. ثم يقوم هو بدوره فيضع الركائز ويمهد لمن يأتى فى نهاية الطريق. وتحذير النبى لأصحابه من الفتن حتى لا يفتحوا الباب لهذا التيار. تعدى مرحلة التحذير بالقول إلى مرحلة التحذير بالفعل حيث قام النبى صلى الله عليه وسلم بنفى الحكم بن العاص الذى تعتبر ذريته آخر حكام بنى أمية وظل الحكم بن العاص فى المنفى. حتى رده عثمان بن عفان سليل بنى أمية فى خلافته. ونفى النبى للحكم كان من باب الأخذ بالأسباب وإقامة الحجة، وبمعنى أن النبى علم من ربه أن الحكم باب من أبواب الفتن وأن فى صلبه من سيركب على رقبة الأمة. وأن الأمة ستكون لأبنائه شيعة. فأخذ النبى بالأسباب وأزال أصل العقبة من البداية وهو يعلم أن الأمة ستأتى به وستقيم عليه فسطاطا. وإذا كان الحكم بن العاص حلقة أخيرة فى الفتنة. فإن النبى لم يكتف بالتحذير من الحلقة الأخيرة فقط. وإنما حذر من الحلقة الأولى لبنى أمية التى عليها سيأتى

[صفحه ۲۱۴]

أبناء الحكم. باختصار حذر من الشجرة الأموية كلها. وقد أراه الله تعالى من أخبار هذه الشجرة الشئ الكثير الأمر الذى جعله صلى الله عليه وسلم لم ير ضاحكا حتى مات صلى الله عليه وسلم. ففى سورة الإسراء. وبعد أن تحدث سبحانه عن الآيات التى يرسلها إلى عباده. وعن ناقة ثمود التى قتلها الجاحدون وبعد أن أخبر سبحانه أنه يرسل بالآيات للتخويف والإنذار. قال تعالى: (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا) [۳۳] .

ولا ندرى ما هذه الشجرة الملعونة فى القرآن التى جعلها فتنة للناس. ولا يوجد فى القرآن شجرة يذكرها الله ثم يلعنها. قالوا: إنها شجرة الزقوم! التى جاء ذكرها فى قوله تعالى: (أم الشجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمين) [۳۴] ، فالشجرة فى الآية وصفت بأنها فتنة. أى

عقـاب للظالمين. فكيف يقال أن العقاب ملعون والله تعالى لم يلعن الشـجرة فلو كانت الشـجرة ملعونـة لكونها تخرج فى أصل الجحيم وسـببا من أسـباب عـذاب الظالمين. لكانت النار، وكل ما أعـد الله فيها للعـذاب ملعونـة، وهذا لا يصح لأن الله أعد لها ملائكة للعذاب فقال تعالى: (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) [۳۵] ، وقـد أثنى الله تعالى على ملائكة النار، فقال تعالى: (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) [۳۶] .

وبمـا أن الشـجرة جاء ذكرها بين الآيات التى يخوف بها الله عباده. ومنها آيـة الناقـة. فإن الرؤيا والشـجرة المشار إليهما فى الآيـة أمران سيظهران على النـاس. أو همـا ظـاهران. يفتتن بهمـا النـاس فيشـيع بهمـا فيهم الفسـاد. ويتعرف فيهم الطغيـان والاسـتكبار. وذيـل الآيـة: (ونخوفهم مما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا)،

[صفحه ۲۱۵]

يشـير إلى ذلـك ويؤيـده. بل وصـدر الآيـة أيضا يؤيـده قال تعالى: (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا...)، والمعنى: واذكر التثبت فيما ذكرنا لك فى هذه الآيات أن شـيمة الناس والاستمرار فى الفساد والفسوق. واقتداء أخلافهم بأسلافهم فى الإعراض عن ذكر الله وعـدم الاعتناء بآيات الله. وقد قلنا لك أن ربك أحاط بالناس علما. وعلم أن هذه السـنة سـتجرى بينهم كما كانت تجرى ولم نجعـل الشـجرة الملعونـة فى القرآن التى تعرفهـا بتعريفنـا. ومـا أريناك فى المنـام من أمرهم. إلا فتنـة للناس، وقـد أحطنا بالناس. (ونخوفهم فمـا يزيـدهم إلاـ طغيانـا كبيرا)، أى تخوف النـاس فما يزيـدهم التخويف إلا طغيانا ولا أى طغيان كان. بل طغيانا كبيرا. أى إنهم لاـ يخـافون من تخويفنـا حتى ينتهوا عمـا هم عليه بـل يجيبوننا بالطغيان الكبير. فهم يبالغون فى طغيانهم ويفرطون فى عنادهم مع الحق. وذكر غير واحـد من المفسـرين أن الله تعـالى فى هـذه الآيـة يعزى نبيه صـلى الله عليه وسـلم. بأن الـذى أراه من الأمر وعرفه من الفتن. قد جرت عليه سـنة الله فهو سـبحانه يمتحن عباده بالمحن والفتن. ويؤيد هذا ما ورد من أحاديث بأن المراد بالرؤيا فى الآيـة. هى رؤيا رآها النبى صلى الله عليه وسلم فى بنى أميـة. والشجرة شجرتهم. أما القول بأن الشجرة الملعونة هى شجرة الزقوم. فلا معنى له. لأنه لا ذنب للشـجرة. وهل وجودها فى أصل الجحيم عقابا للظالمين يستحق اللعن. كيف؟ والذى سيسوق الظالمين إليها ملائكة لا يعصون الله. ويفعلون مـا أمرهم به الله. أما الرؤيا التى أراها الله لرسوله فعن الحسن قال: فرأى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم بنى أميـة يخطبون على منبره رجلاـ رجلاـ فسـاءه ذلك ["... ۳۷] ، وروى أبـو بكر ابن خيثمـة عن سـعيد بن المسـيب فى قوله ": ومـا جعلنـا الرؤيـا الـتى أريناك إلا فتنة للناس، " قال:

[صفحه ۲۱۶]

رأى ناسا من بنى أمية على المنابر فساءه ذلك [۳۸] .

هـذا عن مقدمـة بنى أميـة. أما خاتمتهم الحكم بن العاص. فقد روى أبو يعلى. رأى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فى منامه كان بنى الحكم ينزون على منبره وينزلون فأصبح كالمتغيـظ. فقـال: مـا لى رأيت بنى الحكم ينزون على منبرى نزو القردة. فمـا رؤى رسول الله صلى الله عليه وسـلم مستجمعا ضاحكا بعد ذلك حتى مات [" ۳۹] ، وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صـلى الله عليه وآله وسـلم": أريت فى منامى كأن بنى الحكم بن أبى العاص ينزون على منبرى كما ينزو القردة [" ۴۰] .

أما كون الشـجرة شجرتهم ما رواه مطعم قال. كنا مع النبى فمر الحكم بن العاص فقال النبى: ويل لأمتى مما فى صلب هذا [۴۱] ، وعن ضمرة ابن حبيب قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ": ويل لأمتى من هـذا وولد هذا [" ۴۲] ، وعن ابن عمر قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم للحكم ": إن هذا سيخالف كتاب الله وسنة نبيه وسيخرج من صلبه فتن يبلغ دخانها السماء وبعضكم يومئذ شيعته [" ۴۳] .

أما كون هذه الشـجرة ملعونة. ما روى عن عبد الله. قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ونحن عنده. ليدخلن عليكم رجل لعين فوالله ما زلت وجلاـ أتشوف خارجا وداخلا حتى دخل فلان - يعنى الحكم - وروى الإمام أحمـد ": لعن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فلانا وما ولد من صلبه، " وفى

[صفحه ۲۱۷]

روایـة للبزار ": لعن الله الحکم ومـا ولـد علی لسان نبیه صـلی الله علیه وسـلم [" ۴۴] ، وروی الـبزار أن عبـد الرحمن بن أبی بکر قـال لمروان ابن الحکم ": إن رسول الله صـلی الله علیه وسـلم لعن أبـاک [" ۴۵] ، وروی أن عبـد الله بن الزبیر قـال وهو یطوف بالکعبـة " ورب هـذا البیت الحرام والبلد الحرام أن الحکم بن أبی العاص وولده ملعونین علی لسان محمد صـلی الله علیه وسـلم [" ۴۶] ، وروی أن الحسن قال لمروان بن الحکم ": لقـد لعنک الله علی لسان رسول الله صـلی الله علیه وسـلم وأنت فی صـلب أبیک) [۴۷] وفی الدر المنثور أخرج ابن مردویه عن عائشة أنها

قالت لمروان: سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول لأبیک وجدک أنکم الشجرة الملعونة فی القرآن. وباختصار: روی أصحاب التفاسیر کالطبری وغیره عن سـهل بن ساعد وعبد الله بن عمر ویعلی بن مرة والحسین بن علی وسعید بن المسیب أن هؤلاء هم الذین أنزل فیهم قـوله تعـالی: (ومـا جعلنـا الرؤیـا) إلی قـوله: (والشـجرة الملعونـة فی القرآن). أمـا کون النـبی صـلی الله علیه وسـلم قـد أخذ بالأسباب ونفاه. وذلک بعد أن ارتکب الحکم بن أبی العاص الجریمة التی یستحق علیها هذه العقوبة. وکما نعلم أن الله لا یظلم الناس شیئـا. فلقـد خلق الإنسـان لیمارس واجب الخلافـة فی الأرض. ولم یخرج أحـدا من الجنـة إلا عنـدما ارتکب آدم وزوجه الخطأ الـذی استحقا علیه الاخراج من الجنـة. وعنـدما ارتکب الشـیطان الجریمـة التی اسـتحق علیها الطرد واللعن. وهناک فرق بین الاخراج والطرد واللعن. والحکم بن أبی العاص ارتکب الجریمة التی استحق علیها النفی واللعن. وما

[صفحه ۲۱۸]

کانت الجریمة إلا لهدف ومن وراء الهدف حکمة. وروی عن حماد بن سلمة. إن أصحاب النبی دخلوا علیه وهو یلعن الحکم بن أبی العاص فقالوا: یا رسول الله ما له. قال: دخل علی شق الجدار وأنا مع زوجتی فکلح فی وجهی. فقالوا: أفلا نلعنه نحن؟ قال: لا فإنی أنظر إلی بنیه یصعدون منبری وینزلونه. فقالوا: یا رسول الله ألا نأخذهم؟ قال: لا ونفاه [۴۸] ، وروی أن سبب نفیه غیر ذلک. وهو أن الحکم کـان من المرجفین فی المدینـة ویبلغ فیهـا أسـرار رسول الله صـلی الله علیه وآله، وقـد نفـاه النبی عنـدما أمره الله بنفی من کـانت هـذه أعماله. وقـد وردت هـذه الجرائم وعقوباتها فی سورة الأحزاب [۴۹] ، وقـد أخبر النبی بأن من الأمة من سـیتعهد بنی أمیة وبنی الحکم حتی یبلغوا ثلاثین رجلا وفی روایة أربعین. ثم یکون الحدیث انطلاقهم عن أبی سعید الخدری قال: قال رسول الله صلی الله علیه وآله: "إذا بلغ بنو أبی فلاـن ثلاثین رجلا اتخـذوا مال الله دولا [۵۰] ودین الله دخلا [۵۱] ، وعباد الله خولا [۵۲] [۵۳] وفی روایة إذا بلغ بنو العـاص ثلاثین ["... ۵۴] ، وفی روایـة إذا بلـغ بنـو الحکم ثلاـثین ["... ۵۵] ، ویبـدو والله أعلم أن هـذا العـدد یتعلق بعـدد رجالهم فی المناصب القیادیة فی الدولة. بمعنی إذا فتح لهم الباب وتولی " ثلاثون " أو أربعون منهم المناصب فعلوا هذه الأشیاء. وحرکة التاریخ تؤید هذا الرأی کما سیأتی فی حینه.

[۱] رواه البخاری ک الفتن (الصحیح ۲۳۵:۴).

[۲] رواه مسلم ک الفتن (الصحیح ۳۴:۱۸).

[۳] رواه الطبرانی فی الأوسط (کنز ۲۰۰:۱۰).

[۴] رواه الحاکم وأقره الذهبی (کنز العمال ۱۷:۶).

[۵] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الفتح الربانی ۲۹:۲۳).

[۶] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الفتح الربانی ۲۳:۲۳).

[۷] رواه أبو داود الحدیث ۲۹۳۳.

[۸] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی إسناده حسن ورجال ثقات (کتاب السنة ۴۹۳:۲).

[۹] رواه أحمد (الفتح ۳۲:۲۳) والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۵۱۵:۴)، والطبرانی (الزوائد ۲۴۵:۵).

[۱۰] رواه البخاری ک بدء الخلقة (الصحیح ۲:۲۸۰) ومسلم ک الفتن (الصحیح ۱۸:۴۱) وأحمد (الفتح ۲۳:۳۹).

[۱۱] رواه الطبرانی عن قیس بن خوشة (کنز العمال ۱۱:۱۹۰).

[۱۲] رواه أحمد (الفتح ۲۳:۳۲) وقال الهیثی فیه خالد بن طهمان وثقه أبو حاتم وبقیة رجاله ثقات (الزوائد ۵:۱۹۶).

[۱۳] أبو داود ۴:۱۱۷، وابن ماجة ۲:۱۳۶۸، الحاکم ۴:۵۵۷.

[۱۴] راجع کتابنا عقیدة المسیح الدجال.

[۱۵] البخاری ک الأحکام (الصحیح ۴:۲۲۵).

[۱۶] فتح الباری (۳۲:۲۲).

[۱۷] مسلم (الصحیح ۲۰:۶) ط إسطنبول.

[۱۸] رواه أحمد وقال الهیثمی رواه أحمد والبزار وفیه إبراهیم بن قیس وثقه ابن حبان وبقیة رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۵:۲۴۷).

[۱۹] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۴:۵۲۵) ورواه أحمد عن خباب (الفتح الربانی ۲۳:۳۰) وابن أبی عاصم وقال الألبانی رجاله ثقات وأخرجه أحمد وابن حبان (کتاب السنة ۲:۳۵۲).

[۲۰] تم تخریج الحدیث فیما سبق ورواه أحمد والترمذی وحسنه والطبرانی وقال المناوی رجاله موثقون (الفتح الربانی ۱:۱۸۶).

[۲۱] رواه أحمد وقال فی الفتح الربانی حدیث صحیح (الفتح ۲۳:۲۹).

[۲۲] سیأتی الحدیث عنه فی حینه.

[۲۳] البخاری (الصحیح ۲:۲۸۰) ک بدء الخلق ب علامات النبوة.

[۲۴] رواه أحمد (الفتح الربانی ۲۳:۳۸).

[۲۵] سورة التوبة: الآیة ۱۱۵.

[۲۶] رواه البخاری (الصحیح ۲:۲۸۰) ک بدء الخلق.

[۲۷] رواه أبو داود حدیث ۴۲۴۴.

[۲۸] راجع کتابنا عقیدة المسیح الدجال.

[۲۹] رواه البخاری (الصحیح ۲:۲۸۰) ک بدء الخلق.

[۳۰] رواه البخاری (الصحیح ۴:۲۲۲) ک الفتن.

[۳۱] رواه الطبرانی والضیاء بسند صحیح (کنز ۱۱:۶۰۲).

[۳۲] رواه ابن عساکر وفیه ضعف (کنز ۱۱:۱۴۹).

[۳۳] سورة الإسراء: الآیة ۶۰.

[۳۴] سورة الصافات: الآیة ۶۲ – ۶۳.

[۳۵] سورة المدثر: الآیة ۳۱.

[۳۶] سورة التحریم: الآیة ۶.

[۳۷] رواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۳:۱۷۱) وقال ابن کثیر رواه الترمذی عن القاسم بن الفضل وقد وثقه یحیی بن سعید وغیره، ورواه ابن جریر والحاکم والبیهقی (البدایة ۶:۲۴۳).

[۳۸] أبو بکر بن خیثمة (البدایة والنهایة ۱۰:۵۰).

[۳۹] رواه أبو یعلی ورجاله رجال الصحیح غیر مصعب بن عبد الله وهو ثقة – قاله الهیثمی (الزوائد ۵:۲۴۴) والحاکم وصححه (المستدرک ۴:۴۸۰).

[۴۰] والبیهقی وابن عساکر وأبو یعلی (کنز العمال ۳۵۸:۱۱) والحاکم (کنز ۱۱۷:۱۱) وقال ابن کثیر رواه یعقوب بن سفیان (البدایة ۵۰:۱۰، ۲۴۳:۶).

[۴۱] رواه ابن عساکر (کنز ۱۶۷:۱۱).

[۴۲] ابن عساکر (کنز ۱۶۷:۱۱). (الإصابة ۲۹:۲).

[۴۳] رواه الدارقطنی (کنز ۱۶۶:۱۱) وابن عساکر (۳۶۰:۱۱)، والطبرانی (کنز ۱۶۷:۱۱).

[۴۴] قال الهیثمی رواه أحمد والبزار والطبرانی بنحو روایة البزار وعنده روایة کروایة أحمد ورجال أحمد الصحیح (الزوائد ۵:۲۴۱).

[۴۵] قال الهیثمی رواه البزار وإسناده حسن (الزوائد ۵:۲۴۱).

[۴۶] رواه ابن عساکر (کنز ۳۵۸:۱۱) والحاکم وصححه (المستدرک ۴:۴۸۱).

[۴۷] رواه أبو یعلی (الزوائد ۵:۲۴۰) وابن سعد وابن عساکر (کنز ۳۵۷:۱۱) وذکره ابن کثیر فی البدایة (۸:۲۸۰).

[۴۸] الإصابة ۲۸:۲.

[۴۹] سورة الأحزاب: الآیة ۶۰.

[۵۰] أی یکون المال لقوم دون قوم.

[۵۱] أی یدخلوا فی دین الله أمور لم ترد فی کتاب الله وسنة رسوله.

[۵۲] أی یستخدمون الناس ویستعبدوهم.

[۵۳] رواه أحمد (الفتح ۳۲:۲۳). (۷).

[۵۴] رواه أحمد وأبو یعلی والطبرانی (کنز ۱۶۵:۱۱).

[۵۵] رواه الطبرانی والبیهقی (کنز ۱۶۵:۱۱) (البدایة ۲۵۸:۸).

الرسول و إقامة الحجة علی القریب والبعید

إذا کانت المسیرة بعد النبی وبنص الأحادیث الصحیحة. ستبدأ بفتن تنطلق

[صفحه ۲۱۹]

من بیوت الصحابة. وإذا کانت الأحداث ستأتی علی رقاب العباد برجال قلوبهم قلوب الشیاطین فی جثمان أنس کما فی صحیح مسلم. وبدعاة علی أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فیها کما ورد فی صحیح البخاری. ثم تنتهی الأحداث بقذف الأمة نحو سنن الأولین فنسیر علیها شبرا بشبر وذراعا بذراع. وفی النهایة یکونون غثاءا کغثاء السیل لا قیمة لهم ولا وزن. القاتل فیهم لا یدری فیما قتل والمقتول فیهم لا یدری فیما قتل. إذا کان هذا کله قد دخل من تحت لافتة القیادة فکیف یقال أن الشریعة قد تکلمت فی کل شئ عدا القیادة. وکیف یستقیم قول کهذا مع ما رواه أبو الدرداء عن النبی صلی الله علیه وآله ": وأیم الله، لقد ترکتم علی مثل البیضاء لیلها ونهارها سواء [" ۱] .

قال البعض: إن الناس أدری بشؤون دنیاهم. وإن اختیارهم للقیادة ینضوی تحت قوله تعالی: (وأمرهم شوری بینهم) [۲] ، وقول البعض بهذا. لا یحقق أی دفع لدائرة الرجس. فتحت سقف شؤون دنیاهم یجلس أیضا المنافقین والذین فی قلوبهم مرض. وشؤون دنیاهم لا تنسی أنها قابلة للاختراق من جهة الشیطان بفقه التزیین والإغواء. باختصار ستکون المسیرة غیر محمودة العواقب. ولهذا لا بد من مرشد لها حدده الله الذی أخذ علی نفسه فتح طریق العبادة وهدایة الناس إلیه. ثم إن القول بأن الأمر کان شوری فی اختیار الخلیفة. أمر لا یمکن إثباته. وذلک لأن اختیار الخلیفة علی امتداد المسیرة لم یکن له وجد واحد ولم تتوفر الشوری فیه إلا فیما ندر. وعلی سبیل المثال. فإن یوم السقیفة لم یشهده رجل من بنی هاشم بل لم یشهده من المهاجرین عدد لا یتعدی خمسة أفراد علی أکثر

الروایات وأصحها. ویوم السقیفهٔ کان بحق یوم عمر بن الخطاب رضی الله عنه. حیث توعد سعد بن عبادهٔ مرشح الأنصار وهتف کما جاء فی الصحیح " اقتلوا

[صفحه ۲۲۰]

سعدا، " فأی شوری تری هنا؟ وقد اعترف عمر فیما بعد وفاهٔ أبی بکر رضی الله عنه بأن بیعهٔ أبی بکر کانت فلتهٔ وقال من عاد إلی مثلها فاقتلوه کما جاء فی الصحیح، فإذا کانت البیعهٔ أن عادت علی نفس الصورهٔ فجزاء من یقدم علیها القتل. فما القول فی هذا؟ وأبو بکر رضی الله عنه وهو علی فراش الموت أوصی لعمر بن الخطاب من بعده ولم یشاور المهاجرین والأنصار عند اتخاذه هذا القرار. وعمر بن الخطاب وهو علی فراش الموت جعلها شوری فی ستهٔ من أهل الجنهٔ کما ورد فی الحدیث، ووضع نظاما للاختیار وأمر رضی الله عنه بقتل من عارض اختیار الأغلبیهٔ. فمن هذا وذاک لا تری ما تعارف علیه من الشوری. وفی أیام معاویهٔ وبنی أمیهٔ. عندما أراد البیعهٔ لولده یزید. روی أنه جاء بأفصح فقهائه. وجمع رؤوس القبائل. ووقف الفقیه المحنک وأشار إلی معاویهٔ وقال: أنت أمیر المؤمنین. فإن مت فیزید. فمن أبی هذا وأشار إلی السیف. وعلی هذا جاء أولاد الحکم بن أبی العاص فی القرن الأول الهجری. وعلی هذا أفتی المحنکون بولایهٔ الفاسق فهل الفاسق یسوق الناس إلی رب العالمین؟ إذا کانت الإجابهٔ نعم، فما معنی قوله تعالی: (والله لا یهدی القوم الفاسقین) [۳] ، وکیف یسوق الفاسق الناس إلی رب العالمین؟ إذا کانت الإجابهٔ نعم، قال تعالی: (ولا تقبلوا لهم شهادهٔ أبدا وأولئک هم الفاسقون) [۴] ، ولا یرض عنهم: (فإن الله لا یرض عن القوم الفاسقین) [۵] ، وکیف یتم وضعهم علی رقبهٔ الأمهٔ. والله قد حذر من المنافقین وما الفاسقین إلا عمال فی دائرهٔ الرجس قال تعالی: (نسوا الله فنسیهم إن المنافقین هم الفاسقون) [۶] ، کیف تستأمنه الأمهٔ والله تعالی لم یستأمن الفاسق علی نبأ قال تعالی: (یا أیها الذین آمنوا إن جاءکم فساق بنبأ فتبینوا) [۷] ، لقد جعل المحنکون من الشذوذ قاعدهٔ استرضاءا منهم لخط نصب

[صفحه ۲۲۱]

خیمته ومن داخلها اتخاذ مال الله دولا. ودین الله دخلا وعباد الله خولا. وجمیع ذلک تحت شعار الشوری. والحقیقهٔ أن ولایهٔ الفاسق التی أقرها المحنکون فیها تساهل طویل وعریض. لأن الذی أدلی دلوه کی یخرج لنا فیه فاسقا. کان علیه أولا أن یبحث عن بئر نظیف لیخرج لنا بآخر وقد قال تعالی: (أفمن کان مؤمنا کمن کان فاسقا لا یستوون) [۸] ، نعم قد یکون الفاسق فی الذروهٔ ولکن وفقا للقاعدهٔ النبویهٔ حیث قال صلی الله علیه وسلم فی قریش ": الناس تبع لقریش فی هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وکافرهم تبع لکافرهم [" ۹] ، وقال ": صالحهم تبع لصالحهم وشرارهم تبع لشرارهم [" ۱۰] ، فالناس لا بد لهم من شجرهٔ یستظلون بظلها. وهناک شجرتان، وللفاسق شجرهٔ وذروته، أما قوله تعالی: (وأمرهم شوری بینهم)، قال المفسرون: أی أن الأمر الذی یعزمون علیه فیما بینهم یتشاورون فیه لاستخراج صواب الرأی بمراجعهٔ العقول. وصواب الرأی تمتصه العقول من قوله تعالی: (الذین یستمعون القول فیتبعون أحسنه) [۱۱] ، فهذه دائرهٔ أصحاب الشوری، والقرآن الکریم کما سلط الضوء علی الذین أمرهم شوری بینهم. سلطهٔ أیضا علی الذین فرقوا أمرهم بینهم ووضعهم فی دائرهٔ مغلقهٔ علیهم قال تعالی فی الصنف الذی رفض الأمهٔ الواحدهٔ والدعوهٔ الواحدهٔ للسبیل الحق (فتقطعوا أمرهم بینهم زبرا کل حزب بما لدیهم فرحون)، ولأن لهذا الحزب سائر علی امتداد السیرهٔ لا یکل ولا یمل. قال تعالی لرسوله: (فذرهم فی غمرتهم حتی حین - أیحسبون إنما نمدهم به من مال وبنین - نسارع لهم فی الخیرات بل لا یشعرون) [۱۲] ، فأصحاب هذه الآیهٔ قطعوا أمرهم. وجعلوا کل قطعهٔ منه کتابا. ثم التقط کل حزب قطعته وانطلق فرحا یقرأ فی قطعته کتابه.

[صفحه ۲۲۲]

وفی عالم الزخرف والزینهٔ والإغواء یرقصون طربا لما عندهم من مال وبنین. وهم فی الحقیقهٔ لا یشعرون ماذا ینتظرهم فی نهایهٔ الطریق. إنهم قد یرون بدایهٔ الطریق أو وسطه. أما نهایهٔ الطریق فلا تری إلا بعد أن تجیئ. وإذا کان القرآن قد سلط الأضواء علی الذین أمرهم شوری بینهم والذین قطعوا أمرهم بینهم، فإن الله تعالی أمر دائرهٔ الإیمان وفیها الذین أمرهم شوری بینهم. أمرهم أمرا واحدا لا

اختيار فيه حتى يوازنوا بينه وبين أمرهم فقال جل وعلا: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) [۱۳] فكيف يكون هناك اختيار والله

ورسوله قد اختار. وفى هذا الاختيار قمة الحرية الحقيقية التى توفر للإنسان إنسانيته الحقة. حتى نعود إلى من حيث بدأنا ونقول: إن علم النبى صلى الله عليه وسلم بما سيحدث فى النهاية يقتضى أن يقيم عليه الحجة فى البداية. وإقامة الحجة سنة إلهية يترتب عليها الثواب والعقاب. ألم ترى أن الله أقام الحجة على خلقه وهم فى عالم الذر. أقامها عند أول أعتاب خلق البشرية. لعلمه أن المسيرة ستنتج المؤمن والكافر والمحسن والمسئ، قال تعالى: (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) [۱۴] ، فإذا كان سبحانه قد أقامها فى البداية فى عالم الغيب. فإنه تعالى قد أقامها على امتداد العصور. وإن كانت الحجة قد سدت الأبواب فى وجوه البعض. فإنها فتحتها أمام آخرين. والنبى ما سد شيئا ولا فتحه. ولكنه أمر بشئ فاتبعه وهو فى هذا عبدا مأمورا. ما أمر به فعله. إن يتبع إلا ما يوحى إليه. والنبى ما أدخل أحدا وما أخرج أحدا. ولكن الله هو الذى أدخل هذا وأخرج هؤلاء. وذلك لأن المستقبل به أصحاب شجرة خبيثة. والشجرة الخبيثة لا بد أن يقابلها شجرة طيبة، والمستقبل فيه دائرة رجس لا بد أن يقابلها دائرة

[صفحه ۲۲۳]

طهر. والمستقبل به الذين فى قلوبهم زيغ الذين يريدون الفتنة المتشابه. ولا بد أن يقابلهم الراسخون فى العلم فبعد أن أشارت الأحاديث التى بها كلمة (بعدى) إلى مواقع الفتن. إلى مقدماتها ونتائجها وبداياتها ونهاياتها. أشارت أحاديث أخرى إلى مواقع الأمان. لتقوم الحجة ويظهر التبشير والتحذير على صفحات التاريخ. وعن هذه الأحاديث عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى: "أنت وليى فى كل مؤمن بعدى [" ۱۵] ، وعن عمران بن حصين قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم ": على منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن من بعدى [" ۱۶] ، وعن بريدة الأسلمى قال: قال النبى صلى الله عليه وآله فى على: فإنه منى وأنا منه وهو وليكم بعدى. وإنه منى وأنا منه وهو وليكم بعدى [۱۷] ، وعن بريدة أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": يا بريدة إن عليا وليكم بعدى. فأحب عليا فإن يفعل ما يؤمر [" ۱۸] ، وعن أنس قال، قال النبى صلى الله عليه وسلم ": يا على أنت تبين لأمتى ما اختلفوا فيه من بعدى [" ۱۹] وعن وهب بن حمزة قال: قال

[صفحه ۲۲۴]

رسول الله صلى الله عليه وسلم ": لا تقولن هذا لعلى فإن عليا وليكم بعدى [" ۲۰] ، وعن ابن عباس قال قال النبى صلى الله عليه وسلم: "أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنك لست نبيا. إنه لا ينبغى أن أذهب إلا وأنت خليفتى فى كل مؤمن من بعدى [" ۲۱] .

والمعروف أن أظهر منازل هارون بعد موسى. وزارته له. وخلافته عنه. واشتراكه فى الأمر معه. قال سبحانه حاكيا عن نبيه موسى: (فاجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى)، إلى قوله تعالى: (قد أوتيت سؤلك يا موسى) [۲۲] ، وقال تعالى: (وقال موسى لأخيه هارون أخلفنى فى قومى وأصلح) [۲۳] ، والنبى صلى الله عليه وسلم عندما نزل قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين)، قال لهم كما ذكرنا من قبل فى رواية صحيحة ": إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم واسمعوا له وأطيعوا،" وعندما اتسعت الدائرة كما ذكرنا قال ": أنت منى بمنزلة هارون من موسى، " ثم اتسعت الدائرة فبعثه بسورة براءة وقال كما ذكرنا فى رواية صحيحة ": ولا يؤدى عنى إلا أنا أو على، " وعندما اتسعت قال ": من كنت مولاه فعلى مولاه، " وعلى بحكم نص منزلة هارون من موسى. خليفة الرسول فى النواة التى تدور حولها القرى والقبائل. ولعلى ابن أبى طالب على الأمة جمعاء فرص الطاعة كما كان لهارون بالنسبة إلى أمة موسى. ومن وحيث طاعته لا يكون مأمورا، وها نحن قد أوردنا نخبة من الأحاديث الصحيحة التى توجب الطاعة. فأى حجة بعد ذلك. ولقد قام النبى بتحصين هذه الطاعة فعن عبيد الله بن عباس قال: نظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى على فقال: يا على أنت سيد فى الدنيا سيد فى الآخرة. حبيبك حبيبى. وحبيبى حبيب الله. وعدوك عدوى وعدوى عدو الله.

[صفحه ۲۲۵]

والویل لمن أبغضک بعدی [۲۴] ، وعن أم سلمة قالت: أشهد أنی سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول: من أحب علیا فقد أحبنی. ومن أحبنی فقد أحب الله. ومن أبغض علیا فقد أبغضنی. ومن أبغضنی فقد أبغض الله [۲۵] ، وعن أبی ذر قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": یا علی من فارقنی فارق الله ومن فارقک یا علی فارقنی [۲۶] ، وعن علی قال. قال لی النبی صلی الله علیه وسلم: "إن الله یغضب لغضبک ویرضی لرضاک [۲۷] ، أ لیس فی هذا کله سوق للناس نحو الطاعة؟ وعن عمرو بن شاس الأسلمی أن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال له: یا عمرو والله لقد آذیتنی. قلت: أعوذ بالله أن أوذیک یا رسول الله. قال: بلی من آذی علیا فقد آذانی [۲۸] ، وعن سعد بن أبی وقاص أن النبی صلی الله علیه وسلم قال لمن نالوا من علی ": ما لکم وما لی. من آذی علیا فقد آذانی" [۲۹] ، أ لیس فی هذا تحصین للخلیفة وسوق للناس إلی صراط المستقیم؟ ألم تجمع الأمة علی حدیث من کنت مولاه فعلی مولاه؟ فما جزاء من أهان ولی الله وسلطانه؟ قال النبی صلی الله علیه وسلم ": من أهان لی ولیا

[صفحه ۲۲۶]

فقد بارزنی بالعداوة ["... ۳۰] ، وقال ": من أهان سلطان الله فی الأرض أهانه الله [" ۳۱] ، وقال ": أول فرقة تسیر إلی السلطان فی الأرض لتذله یذلهم الله قبل یوم القیامة [" ۳۲] وقال صاحب تحفة الأحوذی: من أهان من أعز الله وألبسه

خلعة السلطنة أهانه الله. وسلطان الله فی قوله: (إنا جعلناک خلیفة فی الأرض) [۳۳] فالله هو الذی جعل. وإضافة السلطان إلی الله أضافت تشریف کبیت الله وناقة الله [۳۴] ولأنه سلطان الله. فمن خرج من السلطان شبرا مات میتة جاهلیة کما ورد فی صحیح البخاری [۳۵] ولأنه هذا السلطان فی مرکز النواة. فهو

العمود الفقری للجماعة ومن فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات میتة جاهلیة، کما ورد أیضا فی البخاری [۳۶] ، وعن حذیفة من فارق الجماعة شبرا خلع ربقة الإسلام من عنقه [۳۷] ، فإذا لم یکن هذا کله تحصینا للخلیفة وحثا للناس کی یکونوا یدا واحدة وسوقا لهم نحو الصراط المستقیم. فأی کلام بعد ذلک یجدی "؟ من کنت مولاه فعلی مولاه، " ألا یستشف عن هذا النص إمارة أی إمارة. فإذا کانت فیه. فکیف نفهم ما رواه البخاری عن أبی هریرة قال رسول الله صلی الله علیه وسلم: من أطاعنی فقد أطاع الله ومن عصانی فقد عصی الله.

[صفحه ۲۲۷]

ومن أطاع أمیری فقد أطاعنی. ومن عصی أمیری فقد عصانی [" ۳۸] ، ألا ینطبق هذا النص علی أی شئ مما ذکرناه فی علی بن أبی طالب؟ والخلاصة: لقد حذر الله تعالی من دائرة البخس التی یعمل بداخلها حکومة دینیة تتخذ الدین ستارا. وهدف هذه الحکومة رد الذین آمنوا بالله عن دینهم ووضعهم علی أرضیة لا علاقة لها بالصراط المستقیم. وحذر تعالی من دائرة الرجس التی یعم بداخلها طابور خامس تلتقی أهواؤه فی الخطوط العریضة مع أهواء حکومة الأحبار وعباقرة الأوثان. ولما کانت الحکومة التی تواجهها إلی حکومة. فقد أمر تعالی بأن یکون المؤمنین کلهم یدا واحدة. ولما کان لکل شئ ذروة أعلن النبی ولایة علی بن أبی طالب علی رأس الحکومة الدینیة. فإذا نظرت ولم تجد الرأس. فلا تسأل فی خاتمة الطریق کیف اتبعت الأمة سنن الأولین التی صممها أحبار الحکومة الدینیة وأشرف علی تنفیذها جمیع الخدم والعبید.

[۱] رواه ابن ماجة (کنز ۱۱:۳۷۰) وابن أبی عاصم، وقال الألبانی له متابع قوی عند الإمام أحمد (کتاب السنة ۱:۲۷).

[۲] سورة الشوری: الآیة ۳۸.

[۳] سورة التوبة: الآیة ۸۰.

[۴] سورة النور: الآیة ۴.

[۵] سورة التوبة: الآیة ۹۶.

[۶] سورة التوبة: الآیة ۶۷.

[۷] سوره الحجرات: الآیة ۶.

[۸] سورة السجدة: الآیة ۱۸.

[۹] رواه البخاری (الصحیح ۲۶۴:۲) وسبق تخریجه.

[۱۰] رواه أحمد ورجال ثقات (الفتح ۲۲۶:۲۴) سبق تخریجه.

[۱۱] سورة الزمر: الآیة ۱۸.

[۱۲] سورة المؤمنون: الآیة ۵۴ - ۵۵ - ۵۶.

[۱۳] سورة الأحزاب: الآیة ۳۶.

[۱۴] سورة الأعراف: الآیة ۱۷۲.

[۱۵] رواه أحمد ورجاله ثقات غیر أبی بلج وهو ثقة وطیه لین (الفتح ۱۱۶:۲۳) وقال ابن کثیر رواه أبو داود الطیالیسی (البدایة ۳۴۶:۷) ورواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی صحیح (کتاب السنة ۲۶۳:۵).

[۱۶] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی: إسناده صحیح ورجاله ثقات علی شرط مسلم والحدیث أخرجه الترمذی وابن حبان والحاکم وأحمد من طرق أخری. وقال الترمذی حدیث حسن غریب وقال الحاکم صحیح علی شرط مسلم وأقره الذهبی (کتاب السنة ۵۶۵:۲)، ورواه ابن جریر بسند صحیح (کنز العمال ۱۴۲:۱۳) وابن أبی شیبة بسند صحیح (کنز العمال ۶۰۸:۱۱)، والطبرانی وقال الهیثمی رواه أحمد والطبرانی فی الأوسط وباختصار فی الکبیر ورجال أحمد رجال الصحیح (الزوائد ۱۰۹:۹).

[۱۷] رواه أحمد وقال فی الفتح الربانی. رواه الطبرانی فی الکبیر والأوسط وأسانید الکبیر رجاله رجال الصحیح ورجال أحمد ثقات (الفتح ۱۱۷:۲۳)، ورواه ابن أبی شیبة (کنز العمال ۶۰۸:۱۱).

[۱۸] رواه الدیلمی (کنز العمال ۶۱۲:۱۱).

[۱۹] رواه الدیلمی (کنز العمال ۶۱۵:۱۱).

[۲۰] رواه ابن کثیر فی البدایة (۳۴۶:۷).

[۲۱] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی إسناده حسن ورجاله ثقات (کتاب السنة ۵۶۵:۲).

[۲۲] سورة طه: الآیة ۳۶.

[۲۳] سورة الأعراف: الآیة ۱۴۲.

[۲۴] رواه الحاکم وقال حدیث صحیح علی شرط الشیخین. وأبو الأزهر بإجماعهم ثقة. وإذا تفرد الثقة بحدیث فهو علی أصلهم صحیح. والحدیث سمعه یحیی بن معین بن أبو الأزهر فصدقه واعتذر إلیه إن کان قد رماه بالکذب (المستدرک ۱۲۸:۳) وأورده ابن کثیر فی البدایة ۳۵۶:۷.

[۲۵] رواه الطبرانی وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۱۳۲:۹).

[۲۶] رواه البزار وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۳۵:۹).

[۲۷] رواه الطبرانی وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۲۰۳:۹).

[۲۸] رواه أحمد (الفتح ۱۲۰:۲۳) وقال الهیثمی رواه أحمد والطبرانی باختصار والبزار أصغر منه. ورجال أحمد ثقات، ورواه ابن حبان (الزوائد ۱۲۹:۹)، ورواه ابن أبی شیبة وابن سعد وأحمد والبخاری فی تاریخه والطبرانی والحاکم (المستدرک ۱۲۲:۳) (کنز العمال ۱۴۲:۱۳).

[۲۹] رواه أبو یعلی ورجاله ثقات (الزوائد ۱۲۹:۹) ومر سابقا.

[۳۰] رواه الطبرانی وأبو نعیم فی الطب عن أبی أمامة. ورواه ابن عساکر عن أنس بلفظ " من أخاف لی ولیا فقد بارزنی بالمحاربة (کنز ۲۲۹:۱)، ورواه أحمد وأبو یعلی والطبرانی والبیهقی وأبو نعیم عن عائشة بلفظ " من آذی لی ولیا فقد استحل محاربتی (" کنز ۲۳۰:۱) ورواه الطبرانی عن ابن عباس بلفظ " من عادی لی ولیا فقد ناصبنی بالمحاربة (کنز ۲۳۱:۱).

[۳۱] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبای حدیث صحیح (کتاب السنة ۲۸۹:۲) ورواه الترمذی من أبی بکرة (کنز ۱۸۲:۱).

[۳۲] رواه الدیلمی عن حذیفة (کنز ۲۱۵:۱).

[۳۳] سورة ص: الآیة ۲۶.

[۳۴] تحفة الأحوذی ۴۷۶:۶.

[۳۵] البخاری (الصحیح ۲۲۲:۴) ک. الفتن.

[۳۶] البخاری ک الفتن (الصحیح ۲۲۲:۴).

[۳۷] ابن أبی شیبة (کنز ۳۸۴:۱).

[۳۸] رواه البخاری ک الأحکام (الصحیح ۲۳۳:۴) وأحمد بسند صحیح (الفتح ۴۰:۲۳) وابن أبی عاصم بسند صحیح (کتاب السنة ۵۰۷:۲).

خاتمة المطاف عند الحوض یوم القیامة

بعد أن أخبر النبی صلی الله علیه وسلم عن الفتن وکیفیة النجاة منها.

وبعد أن قام قبل ذلک بإغلاق الباب الذی تهب منه أعاصیر الفتن آخذا بأسباب النجاة مع علمه بأن الأمة مختلفة بعده. فلیس معنی أن الموت قد کتب علی الإنسان. أن یجلس الإنسان فی انتظاره. ولکن علیه أن یأخذ بأسباب الحیاة الکریمة التی تحقق له الحیاة السعیدة فی الآخرة. والنبی قدم کل سبب یؤدی للنجاة من یوم یجد المرء فیه ما قدمت یداه. والذی أخذ بسبب فی الدنیا سیتسلقه حتی یرد علی الحوض یوم القیامة. وعند الحوض سنری وجوه الجمیع ولن ینجو إلا الذی أخذ بالکتاب والعترة، کما أخبر النبی، ومن یشفع له صلی الله علیه وسلم. وذکر ابن ماجة فی باب الخطبة یوم النحر

[صفحه ۲۲۸]

ص ۶۲۹:۳۲ أن حدیث الحوض کان فی حجة الوداع، أی ذکره النبی یوم أن أمر الأمة أن تأخذ بالکتاب والعترة. ومن العجیب أن بعض الأحادیث قد أشارت إلی رجل یظهر عند الحوض یخبر النبی بما حدث بعده. وفی أحادیث أخری کشف النقاب عن هذا الرجل لنتبین أنه علی بن أبی طالب الذی زوده الله بخاصیة أنه لا یحبه إلا مؤمن ولا یبغضه إلا منافق کما ورد فی مسلم وغیره، ولنتتبع الأحادیث حتی نصل إلی ما ذکرنا. روی الشیخان عن سهل. قال قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": أنا فرطکم علی الحوض من ورد وشرب ومن شرب لم یظمأ أبدا، ولیردن علی أقوام أعرفهم ویعرفوننی ثم یحال بینی وبینهم [۱] ، وفی روایة عن عبد الله ": أقول یا رب أصحابی أصحابی. فیقال إنک لا تدری ما أحدثوا بعدک [۲] ، وفی روایة عن أبو هریرة، فیقول "، إنک لا علم لک بما أحدثوا بعدک إنهم ارتدوا علی أدبارهم القهقری [۳] ، وفی روایة عن أسماء " فیقال: هل شعرت ما عملوا والله ما برحوا بعدک یرجعون علی أعقابهم [" ۴] ، وفی روایة عن ابن عباس ": فیقال: إن هؤلاء لم یزالوا مرتدین علی أعقابهم منذ فارقتهم [" ۵] .

فهذه الروایات هی صلب هذا الحدث الخطیر. وفی روایات أخری ظهرت الإشارة إلی الرجل. روی البخاری عن أبی هریرة قال. قال النبی صلی الله علیه وآله وسلم، بینما أنا قائم، إذا زمرة، حتی إذا عرفتهم. خرج رجل من بینی وبینهم. فقال: هلم. قلت: أین؟ قال: إلی النار والله. وقلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدک علی أدبارهم القهقری. ثم إذا زمرة، حتی إذا عرفتهم.

[صفحه ۲۲۹]

خرج رجل من بینی وبینهم. فقال: هلم. قلت: أین؟ قال: إلی النار والله. قلت: ما شأنهم. قال: إنهم ارتدوا بعدک علی أدبارهم القهقری. فلا أراه یخلص منهم ألا مثل همل النعم. [۶] ففی هذه الروایة ظهر رجل شاهد علیهم.

وکلما ذهبت زمرة وجاءت أخری فالرجل شاهد ولا یغادر موقعه. وفی روایة أخری أشیر إلی الرجل بصورة أخری فعن أم سلمة " فصرخ صارخ فقال: إنهم قد بدلوا بعدک. فأقول سحقا سحقا [" ۷] ، وفی روایة حدد زمن هذا الرجل، بأنه بعد النبی صلی الله علیه وسلم. فعن أم سلمة رضی الله عنها. قالت قال رسول الله صلی الله علیه وسلم: أیها الناس بینما أنا علی الحوض. جئ بکم زمرا (أی جماعات) فتفرقت بکم الطرق. فنادیتکم: ألا هلموا إلی الطریق (أی اقبلوا) فنادانی مناد من بعدی فقال: إنهم قد بدلوا من بعدک. فقلت: ألا سحقا سحقا [۸] – وفی روایة – فأقول: سحقا سحقا لمن بدل بعدی (أی بعدا بعدا. أو مکانا سحیقا أو بعیدا) [۹] .

وبنظرة سریعة علی بعض الأصناف التی تدخل تحت بند سحق یمکن أن نحدد طبیعة من هو الرجل أو الصارخ أو المنادی الذی ورد ذکره فی الأحادیث. بمعنی أن المکان الذی به الجانی حتما سنجد فیه ما یشیر إلی المجنی علیه أو إلی الشاهد. فلینظر فی الأصول مرة أخری. هذا هو حدیث الثقلین یوم غدیر خم ورواه غیر واحدة وفیه " إنی تارک فیکم خلیفتین، " وفی روایة " ثقلین – " أحدهما أکبر من الآخر – کتاب الله حبل ممدود من السماء والأرض وعترتی أهل بیتی وإنهما لن یفترقا – حتی یردا علی الحوض [۱۰] – وفی روایة – وإن اللطیف الخبیر خبرنی أنهما لن یفترقا حتی یردا علی الحوض فانظروا کیف تخلفونی

[صفحه ۲۳۰]

فیهما [" ۱۱] – وفی روایة: وأنا تارک فیکم ثقلین أولهما کتاب الله فیه الهدی والنور. فخذوا بکتاب الله واستمسکوا به. فحث علی کتاب الله. ورغب فیه. ثم قال: وأهل بیتی أذکرکم الله فی أهل بیتی. أذکرکم الله فی أهل بیتی. أذکرکم الله فی أهل بیتی [۱۲] – وفی روایة – إنی تارک فیکم الثقلین أحدهما أکبر من الآخر کتاب الله وعترتی أهل بیتی، فانظروا کیف تخلفونی فیهما فإنهما لن یتفرقا حتی یردا علی الحوض. إن الله مولای. وأنا ولی کل مؤمن. من کنت مولاه فعلی مولاه اللهم والی من والاه وعاد من عاداه [۱۳] .

من هذا نعلم أن الأقدام الثابتة عند الحوض یوم القیامة هی الکتاب والعترة وعلی رأس أهل البیت علی بن أبی طالب. فالشاهد أو المجنی علیه فی هذه الدائرة. ثم لننظر نظرة سریعة أیضا فی أصناف الذین سیقال لهم سحقا لنعرف من أی دائرة هم – عن خباب قال: إنا لقعود علی باب رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم ننتظره أن یخرج لصلاة الظهر إن خرج علینا. فقال ": اسمعوا " فقلنا: سمعنا. ثم قال ": اسمعوا " فقلنا: سمعنا. فقال ": إنه سیلی علیکم أمراء فلا تعینوهم علی ظلمهم. فمن صدقهم بکذبهم فلن یرد علی الحوض " [۱۴] – وفی روایة – اسمعوا. هل سمعتم؟ إنه سیکون بعدی أمراء فمن دخل علیهم [۱۵] فصدقهم بکذبهم وأعانهم علی ظلمهم فلیس منی ولست منه ولیس بوارد علی الحوض [" ۱۶] – وفی روایة – سیکون بعدی أمراء فمن دخل علیهم فصدقهم

[صفحه ۲۳۱]

بکذبهم وأعانهم علی فجورهم فلیس منی ولست منه ولا یرد علی حوضی [" ۱۷] .

من هذه الأحادیث نری أن هناک رؤوس وقواعد طواغیت ورعاع. مادتهم الکذب وهدفهم الفجور وبین هذا وذاک (رحماء) وغوغاء، وهؤلاء لا علاقة لهم بالکتاب. لأن الکتاب له هدف. ولا علاقة لهم بالعترة لأن العترة طاهرة وهؤلاء خرجوا من بحیرات الفجور والدنس. فطردهم من علی الحوض شئ طبیعی. لأنهم بغضوا الطهر والنقاء. بغضوا حکم الکتاب وحرکة العترة. ومن کان شأنه هذا کانت النار مثواه، عن أبی سعید قال: قال رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم ": لا یبغضنا أهل البیت أحد إلا أدخله الله النار [" ۱۸] ، وعن الحسن قال رسول الله صلی الله علیه وآله ": لا یبغضنا أحد ولا یحسدنا أحد إلا دبر یوم القیامة عن الحوض [" ۱۹] ، وعن أنس قال صلی الله علیه وآله ": لا یشربه أحد أخفر ذمتی ولا قتل أهل بیتی [" ۲۰] ، ألم تقرأ من قبل الحدیث الذی ذکرناه عن زید بن أرقم قال النبی صلی الله علیه وآله لعلی وفاطمة والحسن والحسین ": أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم [" ۲۱] ، فلا عجب أن یطردوا عند الحوض. لأن الحجة قامت علیهم فی الدنیا فضربوا بها عرض الحائط. ثم نعود مرة أخری لنعرف من هو الرجل، أو

المنادى، أو الصارخ الذى

[صفحه ۲۳۲]

جاء ذكره عند البخارى وأحمد وغيرهما. ولنبدأ من عند طرد الإبل الغريبة من على حوض النبى. روى مسلم عن أبى هريرة قال، قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لأذودن عن حوضى رجالا كما تذاد الغريبة من الإبل [" ۲۲] ، ومعناه: كما يذود ساقى الناقة الغريبة عن إبله إذا أرادت الشرب مع إبله [۲۳] ، وهذا الحديث من جنس الحديث الذى رواه أحمد عن أبى أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إن الله غافر إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله [" ۲۴] وبالجملة، بعد النظر فى الروايات الواردة فى الحوض ونحن نبحث عن الصارخ. وجدنا أنه على بن أبى طالب عليه السلام. روى الطبرانى قال النبى صلى الله عليه وسلم: يا على معك يوم القيامة عصا من عصى الجنة تذود بها المنافقين عن حوضى [۲۵] وعن على قال: أنا

أذود عن حوض النبى صلى الله عليه وآله بيدى هاتين القصيرتين. الكفار والمنافقين. كما تذود السقاة غريبة الإبل عن حياضهم" [۲۶] ، وعن على قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: سألت ربى أن تسقى أمتى من حوضى فأعطانى [" ۲۷] .

وروى، إن معاوية بن خديج كان يسب على بن أبى طالب. يوم أن كان السب ثقافة أمر بها معاوية ابن أبى سفيان. فلقيه الحسن بن على فقال له: أنت الساب لعلى! أما والله لتردن على الحوض. وما أراك أن ترده. فتجده مشمر الإزار على ساق يذود عنه. لا يأتى المنافقون ذود (كذا) غريبة الإبل. قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم وقد خاب من افترى [۲۸] .

[صفحه ۲۳۳]

فالرجل والصارخ والمنادى الذى جاء ذكره فى الروايات عند البخارى ومسلم وأحمد. وهو على بن أبى طالب وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه ": لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا [" ۲۹] ، وذهب صلى الله عليه وسلم يوما إلى القبور. فقال فيما رواه الحسن: السلام عليكم يا أهل القبور. لو تعلمون ما نجاكم منه مما هو كائن بعدكم. ثم قال لأصحابه: هؤلاء خير منكم. إن هؤلاء خرجوا من الدنيا ولم يأكلوا من أجورهم شيئا. وخرجوا وأنا الشهيد عليهم. وإنكم قد أكلتم من أجوركم ولا أدرى ما تحدثون من بعدى [۳۰] ، وروى الإمام مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشهداء أحد: هؤلاء أشهد عليهم، فقال أبو بكر الصديق: ألسنا يا رسول الله إخوانهم، أسلمنا كما أسلموا وجاهدنا كما جاهدوا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بلى، ولكن لا أدرى ما تحدثون بعد. فبكى أبو بكر ثم بكى. ثم قال: ائنا لكائنون بعدك [۳۱] .

إن الطريق إلى الحوض. هو نفسه الصراط المستقيم... الذى يكافح الشيطان وأعوانه من أجل أن يعرقلوا المسيرة البشرية التى خلقها الله لتسير إليه بعبادته سبحانه، والذين ارتدوا على أدبارهم القهقرى هم فى الحقيقة الذى سقطوا فى شباك الشيطان. قال تعالى: (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم) [۳۲] ، فالارتداد على الأدبار. الرجوع إلى الاستدبار بعد الاستقبال. وهو استعارة أريد بها الترك بعد الأخذ. وتسويل الشيطان لهم. أى زين لهم ما تحرص النفس عليه. وصور القبيح لهم

[صفحه ۲۳۴]

فى صورة الحسن. والطرد من على الحوض عقوبة شديدة يتذوقها الذين ارتدوا على أدبارهم قبل أن يذوقوا عذاب النار. قال تعالى: (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) [۳۳] فقد بين تعالى جزاء عمل هذا النمط البشرى وعاقبة

أمرهم بقوله تعالى: (أولئك لهم اللعنة وسوء الدار " واللعن: الإبعاد من الرحمة والطرد من كل كرامة. وليس ذلك إلا لانكبابهم على الباطل ورفض الحق النازل من الله، وليس للباطل إلا البوار. إن للمؤمنين سبيل فمن سلكه شرب ونال الثواب العظيم. ومن ارتد القهقرى فله الجهة التى ارتد إليها، قال تعالى: (ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) [۳۴] ، وقيل: المراد بمشاقة الرسول بعد تبين الهدى. فخالفته وعدم إطاعته. وعلى هذا فقوله ": ويتبع غير

سبیل المؤمنین " بیان آخر لمشاقة الرسول. والمراد بسبیل المؤمنین. إطاعة الرسول. فإن طاعته طاعة لله. قال تعالی: (من یطع الرسول فقد أطاع الله) [۳۵] .

[صفحه ۲۳۵]

[۱] البخاری ک: الدعوات (الصحیح ۱۴۱:۴). مسلم ک الفضائل ب الحوض (الصحیح ۵۳:۱۵) وأحمد (الفتح ۱۹۲:۱).

[۲] البخاری ک الدعوات (الصحیح ۱۴۱:۴) مسلم ک الفضائل ب الحوض (الصحیح ۵۹:۱۵) وأحمد والبیهقی عن ابن سعود (کنز ۴۱۸:۱۴).

[۳] البخاری ک الدعوات (الصحیح ۱۴۲:۴) ب الصراط.

[۴] رواه مسلم عن أسماء وأحمد ومسلم عن عائشة (کنز العمال ۴۱۹:۱۴).

[۵] البخاری فی تفسیر سورة الأنبیاء (الصحیح ۱۶۰:۳) مسلم (۱۹۴:۱۷).

[۶] البخاری (الصحیح ۱۴۲:۴) ک الدعوات ب الصراط.

[۷] رواه أحمد بسند صحیح والطبرانی (کنز العمال ۴۳۶:۱۴).

[۸] رواه أحمد وقال فی الفتح إسناد جید (الفتح الربانی ۱۹۷:۱).

[۹] فیه إشارة إنهم غیر عصاة لأن العاص یشفع له النبی. وهؤلاء أبعدهم.

[۱۰] رواه أحمد والترمذی وقال حدیث حسن والطبرانی عن أبی سعید، وقال المناوی رجاله موثقون (الفتح الربانی ۱۸۶:۱).

[۱۱] رواه أحمد وأبو یعلی وابن أبی شیبة وابن سعد عن أبی سعید (کنز ۱۸۶:۱).

[۱۲] رواه مسلم والصحیح ۱۷۹:۱۵) ک فضل الصحابة.

[۱۳] رواه الطبرانی والحاکم عن زید بن أرقم (کنز ۱۸۷:۱).

[۱۴] رواه أحمد (الفتح الربانی ۳۰:۲۷) وابن أبی عاصم وقال الألبانی رجاله ثقات أخرجه أحمد وابن حبان (کتاب السنة ۳۲۲:۲).

[۱۵] قال فی تحفة الأحوازی (فمن دخل علیهم) أی العلماء وغیرهم، (وأعانهم علی ظلمهم) أی الافتاء ونحوه (فلیس منی ولست منه) أی بینی وبینهم براءة ونقص ذمة (التحفة ۵۳۷:۶).

[۱۶] رواه الترمذی عن کعب بن عجرة وصححه (۵۲۵:۴) وقال فی تحفة الأحوازی أخرجه النسائی وأحمد (التحفة ۵۳۷:۶).

[۱۷] رواه ابن أبی عاصم بن کعب بن عجرة وقال الألبانی حدیث صحیح (کتاب السنة ۳۵۳:۲).

[۱۸] رواه الحاکم عن أبی سعید وقال حدیث صحیح علی شرط مسلم ولم یخرجاه (المستدرک ۱۵۰:۳).

[۱۹] رواه الطقرانی (کنز العمال ۱۰۴:۱۲).

[۲۰] رواه ابن مردویه (کنز ۴۲۶:۱۲) وابن عدی (کنز ۴۳۵:۱۴).

[۲۱] تم تخریجه سابقا، رواه الترمذی عن زید بن أرقم، والترمذی وابن ماجة والحاکم عن زید أیضا. وأحمد والطبرانی والحاکم عن أبی هریرة. ورواه الضیاء بسند صحیح وابن حبان وابن أبی شیبة (الجامع الصحیح ۶۹۹:۵) (تحفة الأحوازی ۳۷۲:۱۰) (المستدرک ۱۴۹:۳) (کنز العمال ۹۶، ۹۷:۱۲، ۶۴۰:۱۳)، (الفتح الربانی ۱۰۶:۲۲)، (البدایة والنهایة ۳۸:۵).

[۲۲] رواه مسلم (الصحیح ۶۴:۱۵) ک الفضائل ب الحوض.

[۲۳] مسلم شرح النووی ۶۴:۱۵.

[۲۴] رواه أحمد والحاکم والضیاء بسند صحیح (کنز العمال ۱۲:۱۶).

[۲۵] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رواته ثقات (الزوائد ۱۳۵:۹).

[۲۶] روایة الطبرانی فی الأوسط (الزوائد ۱۳۵:۹) (کنز العمال ۱۵۷:۱۳).

[۲۷] رواه شاذان وقال السيوطى لهذا الحديث شاهد (كنز ۱۵۲:۱۳).

[۲۸] رواه ابن أبى عاصم. واختلف أحد رواة الحديث وهو على بن أبى طلحة. وقال الألبانى: إن على بن أبى طلحة سالم مولى بنى العباس، وأخرج له مسلم وأصحاب السنن إلا الترمذى. وهو ليس مولى بنى أمية كما وقع فى الإسناد واتفق عليه الإمامان أحمد بن حنبل وأبو حاتم (كتاب السنة ۲۶۱:۲).

[۲۹] رواه مسلم (كنز ۴۰۸:۱۱).

[۳۰] رواه ابن المبارك عن الحسن مرسلا (كنز ۱۷۹:۱۱).

[۳۱] موطأ مالك. كتاب الجهاد ص ۳۷۱.

[۳۲] سورة محمد: الآية ۲۵.

[۳۳] سورة الرعد: الآية ۲۵.

[۳۴] سورة النساء: الآية ۱۱۵.

[۳۵] سورة النساء: الآية ۸۰.

غروب الشمس والقمر

مما سبق علمنا منزلة على بن أبى طالب. فهو من بنى هاشم كالقمر فى كبد السماء. وفى الحديث الصحيح قال النبى صلى الله عليه وسلم لبنى هاشم ": إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا [" ۱] ، ومن بنى هاشم اخترق هذا التكليف والأمر جدار القبيلة. إلى دار الأمة فقال النبى صلى الله عليه وسلم مخاطبا أمته" على منى وأنا منه ولا يؤدى عنى إلا أنا أو على [" ۲] ، وقال ": من كنت مولاه فعلى مولاه [" ۳] ، وقال لعلى ": أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى [" ۴] ، إلى غير هذا من الأحاديث التى تلقتها الأمة بالقبول وصححها علماء الحديث. فعلى بن أبى طالب له مكانه الواضح الظاهر فى منطقة المركز. ثم فى جميع مناطق الاتساع التى تنشأ نتيجة لحركة الدعوة. وهذا المكان تم تأمينه بوضع علامات تحذيرية من حوله. كى يعلم كل من يريده بسوء أن الأمر لن يكون سهلا عندما يقف التابع والمتبوع أمام الله تعالى يوم القيامة. ويكفى من

[صفحه ۲۳۶]

علامات التحذير قوله صلى الله عليه وسلم لعلى وفاطمة والحسن والحسين ": أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم [" ۵] ، وخطابه صلى الله عليه وسلم أمته قائلا ": أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى [" ۶] .

ولما كان من مهام الإنسان خلافة الله فى الأرض - فإن هذه المهمة فى جوهرها مادة للابتلاء. وعلى امتداد التاريخ الإنسانى. رفضت أقوام الأنبياء والرسل. وكان العمود الفقرى للرفض أنه من بين هذه الأقوام من كان يزعم أنه الأجدر والأحق بقيادة المسيرة. وهذا فى حد ذاته خروج عن واجب الخلافة. وترتب على هذا الزعم أن انحرفت قوافل الضلال وتاهت فى أودية عبادة المادة بجميع أشكالها - وظهر فى الوجود آلهة من الأصنام والأوثان والبشر. ومن ينظر بتدبر تحت أقدام هذه الآلهة المتعددة. يجد أن السبب الرئيسى لوجودها هو رفض خليفة الله فى الأرض. وإذا عدنا بالذاكرة إلى الخلف لنلتقط مشهد وحركة من أعماق الوجود لندلل به على ذلك. فلنقف أمام قصة آدم عليه السلام وموقف الشيطان الرجيم منه فآدم عليه السلام خليفة. والشيطان خارج على هذه الخلافة. ولكل منهما منهاج له مقدمة وعليها نتيجة. والأمة الخاتمة بين لها رسولها صلى الله عليه وسلم المقاعد الأولى فيها. وذلك كما بينا من قبل. ولما كان التشريع مبنيا على أساس أنه لا إجبار فى دين الله. وإنه لا إجبار فى الأفعال. وإن التكاليف مجعولة على رفق مصالح العباد فى معاشهم ومعادهم أولا، وهى متوجهة إلى العباد من حيث أنهم مختارون فى الفعل والترك ثانيا. والمكلفون إنما يثابون أو يعاقبون بما كسبت

أيديهم من خير أو شر اختيارا. فإنه لا معنى للقول بأن التكليف أهمل مصالح العباد فى تعيين الخليفة الذى يسوق الناس إلى الله تعالى، ويعبر بهم الحياة الدنيا

[صفحه ۲۳۷]

بما يوافق الكمال الأخروى الحياة الدائمة الحقيقية. وكيف يهمل التكليف هذا. وفى الاهمال إلغاء لآدم وبرنامج آدم، وفى الالغاء ضياع للسعادة الحقيقية التى لا يصل الإنسان إليها. إلا عندما يكون مؤمنا بالله وكافرا بالطاغوت. وبضياع السعادة الحقيقية يفسد دين الإنسان الفطرى ولا تتعادل قواه الحسية الداخلية. وعندما يفسد الدين الفطرى يميل الإنسان إلى قوة من القوى ويتبعها. ويؤدى هذا الميل إلى طغيان تلك القوة. ويعلو هبل بل ألف ألف هبل. ولا معنى أيضا للقول بأن الإنسان خلقه الله تعالى كحصاة فى الطريق تلهو بها كل قدم. وإن على عباقرة القبائل فى كل عصر أن يستخدموه فى أى عمل شاءوا كيف؟ وهل جاءت الأصنام والأوثان إلا من طريق الفراعنة والقياصرة والأكاسرة. أصحاب المقاعد الأولى التى زخرف الشيطان حولها. إن التسليم لفقه الحصى الذى تلهو به كل قدم. يعنى إبطال معرفة الحسن من القبيح. ويعطل الثواب والعقاب. وكيف يكون هذا والتكاليف متوجهة إلى العباد من حيث أنهم مختارون فى الفعل والترك. ويثاب المكلفون أو يعاقبون بما كسبت أيديهم من خير أو شر اختيارا. والقرآن الكريم أخبر بأن الكفار والمشركين سيعترفون يوم القيامة بأنهم إنما أشركوا واقترفوا المعاصى بسوء اختيارهم واغترارهم بالحياة الدنيا، إن فقه الحصى وضعه علماء الشذوذ والترفيع ليخدم سياسة الاحتناك لأن من أبوابه دخل الجلادون ليمارسوا واجب الاستكبار الذى دور أوتاده الشيطان. وفقه الحصى والحجارة مهمته تبرير أعمال المنافقين والفساق والمشركين والكفار. ونسى عباقرة هذا الفقه أن الله تعالى عندما تبرأ من المشركين لم يتبرأ سبحانه من خلق ذواتهم أو ألوان بشرتهم. وإنما تبرأ من شركهم وقبائحهم. وتحت سقف التبرير دخل علماء الحجارة من باب القضاء والقدر. ومن هذا الباب قتلوا المقاومة والتصدى للشر عند أكثر الناس: بحجة أن الله أجبر العباد على أفعالهم. أو أن الأنبياء والرسل عليهم السلام قد يريدون لذويهم أن يكونوا على المقاعد الأولى فى أممهم. ولكن الله تعالى يريد غير ذلك لأن الناس سواسية كلهم لآدم وآدم من تراب. ولهذا سبق القضاء وجاء الفراعنة والقياصرة. لقد كان هذا الباب من فقه الحصى والحجارة. من أخطر الأبواب

[صفحه ۲۳۸]

على المسيرة البشرية. وكيف يجلس الفراعنة فى دائرة الفحشاء والمنكر ثم يقال بعد هذا إن الله أمر بذلك؟ إن البرنامج الذى يأمر بالسوء والفحشاء حذر الله تعالى الجنس البشرى منه. وما قال أتباع هذا البرنامج ذلك إلا ليحتموا وراء جدار من الزينة ليغووا الناس ويدعونهم إليه. أما القول الحق فى هذه المسائل ما روى عن الإمام الصادق. وقد قيل له: هل فوض الله الأمر للعباد؟ فقال: إن الله أكرم من أن يفوض إليهم. فقيل له: فأجبر الله العباد على أفعالهم؟ قال: الله أعدل من أن يجبر عبدا على فعل ثم يعذبه عليه. وروى عنه أنه قال: إن الله عز وجل أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها والله أعز من أن يريد أمرا فلا يكون. وعنه قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من زعم أن الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله. ومن زعم أن الخير والشر بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه. وبيان هذا كله فيما روى عن الإمام الرضا. قال: إن الله عز وجل لم يطع بإكراه. ولم يعص بغلبة ولم يهمل عبادة فى ملكه هو المالك لما ملكهم والقادر على ما أقدرهم عليه فإن ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله منها صادا ولا منها مانعا. وإن ائتمروا بمعصية فشاء أن يحول بينهم وبين ذاك فعل، وإن لم يحل فعلوه فليس هو الذى أدخلهم فيه. ثم قال الإمام الرضا: من يضبط حدود هذا الكلام فقد خصم من خالفه - أى من جادله. لقد بين النبى صلى الله عليه وسلم أين المركز من الدائرة. وأحاط أمته علما بأن اختيار الأمة سيكون حول هذا المركز. ونهى عن إيذاء أهل المركز أو حربهم وأمر بالالتفات حولهم. واختبار الناس بالناس سنة إلهية جارية. قال تعالى: (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) [۷] ، وقال تعالى: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا

[صفحه ۲۳۹]

ولیعلمن الکاذبین) [۸] ، ففی الآیات مرتکزات ودوائر. وحول هـذا وذاک یجری الامتحان الـذی سیترتب علیه الثواب أو العقاب. قال تعالی: (أم حسبتم أن تـدخلوا الجنهٔ ولما یعلم الله الذین جاهدوا منکم ویعلم الصابرین) [۹] ، وبما أن الأمـهٔ الخاتمهٔ من الناس وعلیها یجری الاختبار. وبما أن النبی صـلی الله علیه وسـلم قـد أخبر بما هو کائن وما سـیکون. وترک أمته علی المحجهٔ البیضاء لیلها کنهارها حتی لاـ یکون للنـاس علی الله حجـهٔ. فإننـا سـنلقی الضوء هنا علی معالم العقبات التی لم تمکن أهل البیت من القیام بواجب الخلافـهٔ. وفی البدایهٔ إذا سألنا: ما هی العوامل التی أدت إلی ابتعاد أهل البیت عن القیادهٔ، رغم ما أحیط حولهم من مناقب وتبشیر وتحذیر؟ فإن الإجابـهٔ لاـ بـد لهـا من مقدمـهٔ. نقول فیهـا: إن الأـمور الماضـیهٔ یتعـذر الوقوف علی عللهـا وأسـبابها. ولا یعلم حقائقها إلا من شاهـدها ولابسها. وکما قال ابن أبی الحدید: بل لعل الحاضرین المشاهدین لها. لا یعلمون باطن الأمر فیها... ولأن الأمر کذلک. فنحن هنا نقوم بترتیب المعلومات لاسـتنتاج المجهولات ونسـتعمل مقـدمات حقیقیهٔ یقینیهٔ لاسـتنتاج معلومات تصدیقیهٔ واقعیهٔ. وفی مجال البحث عن الحقیقـهٔ نعلم أن الأمور إذا اشـتبهت اعتبر آخرها أولها أی یقاس آخرها علی أولها فحسب البـدایات تکون النهایات، وعمودنا الفقری فی البحث هنا الحـدیث الشـریف، وفیه نسـلط الضوء علی التاریـخ وحرکته وتحت الضوء تظهر المعلومات وبحـدیث آخر ترتب هـذه المعلومـات، وفی النهایـهٔ نحصل علی مقدمـهٔ حقیقیـهٔ یقینیـهٔ علی ضوئها یفتـح التاریـخ أبوابه لنسـتنتج المعلومات التصدیقیـهٔ الواقعیـهٔ. والمقدمات الحقیقیهٔ التی یمکن أن یستند علیها لاستنتاج الأسباب التی أدت إلی إبعاد أهل البیت عن ممارسهٔ واجب الخلافهٔ مقدمات کثیرهٔ. ولکننا سنسلط الضوء علی وجه المجتمع أولا فعلی الوجه تری ما نریده من مقدمات.

[صفحه ۲۴۰]

[۱] حدیث قوله تعالی: (وأنذر عشـیرتک الأقربین) رواه أحمد وابن جریر وصـححه والطحاوی والضیاء بسند صحیح، وتم تخریجه من قبل راجع (کنز العمال ۱۲۹ – ۱۳۳، ۱۷۴، ۱۷۵:۱۳) (الفتح الربانی ۱۲۲:۲۳) (المستدرک ۳۵:۳).

[۲] تم تخریجه والحدیث صحیح راجع (جامع الترمذی ۶۳۵، ۶۳۶:۵) (کنز العمال ۵۹۹، ۶۳۶:۵).

[۳] تـم تخریجه والحـدیث صـحیح راجـع (الفتـح الربـانی ۲۱۳:۲۱) (کنز العمـال ۶۰۹:۱۱، ۱۳۴:۱۳) (المسـتدرک ۱۱۰:۳) (الزوائد ۱۰۴:۹).

[۴] رواه مسلم وغیره وتم تخریجه من قبل راجع (صحیح مسلم ۱۷۴:۱۵).

[۵] رواه أحمد وتم تخریجه من قبل راجع (المسند ۲:۲۴۲) (المستدرک ۱۴۹:۳) والحدیث صحیح.

[۶] رواه مسلم وتم تخریجه من قبل. راجع (صحیح مسلم ۱۷۹:۱۵).

[۷] سورهٔ الأنعام: الآیهٔ ۵۳.

[۸] سورهٔ العنکبوت: الآیهٔ ۲ – ۳.

[۹] سورهٔ آل عمران: الآیهٔ ۱۴۲.

من معالم الغروب

بینا فیما سبق أن الصحابهٔ قوم من الناس. لهم ما للناس وعلیهم ما

علیهم. لیس لهم علی غیرهم من المسـلمین کبیر فضـل إلاـ بمشاهـدهٔ الرسول ومعاصـرته لاـ غیر. بـل وربمـا کـانت ذنوبهم أفحش من ذنـوب غیرهـم. لأـنهم شاهـدوا الأعلاـم والمعجزات. ویکفی أن فیهـم اثنی عشـر رجلاـ حربـا لله ولرسـوله فی الحیـاهٔ الـدنیا. وإن فیهم أصـحاب المسـجد الضـرار. وفیهم من قـال فیهم عمر بن الخطاب عنـدما اسـتأذنه الزبیر فی الغزو: ها أنا ممسک بباب هـذا الشـعب أن یتفرق أصـحاب محمـد فی الناس فیضـلوهم. وسـنذکر بعض الآیات الکریمـهٔ. التی تبین حاله صـلی الله علیه وسـلم مع أصـحابه کیف

كانت. وقد بينا ذلك ونحن نتحدث عن دائرة الرجس والذين فى قلوبهم مرض لأن هؤلاء هم أصحاب المصلحة فى عرقلة الطريق وإضلال الناس. وهؤلاء كان لهم موقف ثابت من الرسول ودعوته على امتداد الزمان. وبما أن على بن أبى طالب أقرب الناس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه أخذ القسط الأكبر من العداء ووضع العراقيل أمام خطاه. ونحن لن نعرف حجم هذه العراقيل. إلا إذا وضعنا أيدينا على طبيعة القوم فى عهد النبوة. فتخاذلهم وحبهم للدنيا والرسول فى وسطهم. يفسح الطريق لفهم تخاذلهم وحبهم للدنيا عندما جاء دور على بن أبى طالب. وآيات تخاذلهم فى الحروب كثيرة فى كتاب الله. فالقرآن يشهد بأنهم التووا عليه صلى الله عليه وسلم يوم بدر وكرهوا لقاء العدو حتى خيف خذلانهم وذلك قبل أن تتراءى الفئتان. قال تعالى: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون - يجادلونك فى الحق بعدما تبين لهم كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) [۱] ، قال المفسرون: المعنى: إن الله تعالى حكم فى أمر الأنفال بالحق مع كراهتهم لحكمه. كما أخرجك من بيتك بالمدينة إخراجا يصاحب الحق. والحال أن فريقا من المؤمنين لكارهون لذلك ينازعونك فى الحق بعدما تبين لهم إجمالا. والحال إنهم يشبهون جماعة يساقون إلى

[صفحه ۲۴۱]

الموت. وهم ينظرون إلى ما أعد لهم من أسبابه وأدواته... ومن هذا نعلم أن المجتمع كان فيه من يجادل فى الحق. وعلى هذا لا يكون من العسير أن يجادل هؤلاء على بن أبى طالب أو غيره إذا كانوا قد جادلوا الرسول. ويوم أحد شهد القرآن أنهم عصوا أمره صلى الله عليه وسلم فى ذلك اليوم، حيث أقامهم على الشعب فى الجبل. وهو الموضع الذى خاف أن تكر عليه منه خيل العدو من ورائه. وهم أصحاب عبد الله بن جبير. فإنهم خالفوا أمره وعصوه فيما تقدم به إليهم. وروى أصحاب التفاسير أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم": إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم " ولكنهم رغبوا فى الغنيمة عندما شاهدوا النساء يشتدون على الجبل وقد بدت أسواقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن [۲] ففارقوا مركزهم، حتى دخل الوهن على

المسلمين بطريقهم. لأن خالد بن الوليد كر فى عصابة من الخيل فدخل من الشعب الذى كانوا يحرسونه فما أحس المسلمون بهم إلا وقد غشوهم بالسيوف من خلفهم فكانت الهزيمة. وذلك قوله تعالى: (حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) [۳] ، وعن ابن مسعود قال: ما كنت أرى أن أحدا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا. حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد [۴] .

والذين يحبون الدنيا لا- يمكن بحال أن يلتقوا مع على بن أبى طالب على خط واحد له هدف واحد. والذين يحبون الدنيا لم تنته حياتهم. بموت الرسول صلى الله عليه وآله. بل استمر عطاؤهم على خنادق الصد حربا لله ولرسوله فى الحياة الدنيا. ولم تكن المعصية يوم أحد فقط. وإنما كانت أيضا فى غزوة تبوك. فبعد أن أكد عليهم النبى صلى الله عليه وسلم الأوامر. خذلوه وتركوه. كما بينا من قبل أساليبهم فى ضرب القوة العسكرية للدعوة. وهذا

[صفحه ۲۴۲]

النمط البشرى نزل فيه قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) [۵] ، وهذه الآية خطاب مع المؤمنين لا مع المنافقين. وفيها أوضح دليل على أن أصحابه المصدقين لدعوته كانوا يعصونه ويخالفون أمره وهذا النمط المتخاذل عاتبهم الله ووبخهم بقوله تعالى: (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) [۶] .

كان هذا فى ميادين القتال، وفى داخل المسجد لم يختلف الأمر كثيرا. فالذين أحبوا الدنيا فى المعركة أحبوها أيضا والرسول صلى الله عليه وسلم قائم يخطبهم يوم الجمعة. وهذا إن دل على شئ. فإنما يدل على الاستهانة بما هو من أعظم المناسك الدينية. ويكشف

أنهم لم يقدروها حق قدرها ولا نزلوها منزلتها. ولقد اتفقت الروايات على أنه ورد المدينة عير معها تجارة وذلك يوم الجمعة والنبى صلى الله عليه وسلم قائم يخطب فضرب أصحاب التجارة بالطبل والدف لإعلام الناس. فانفض أهل المسجد إليهم وتركوا النبى قائما يخطب وذلك فى قوله تعالى: (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما) [۷] ، أيستبعد على هذا النمط بعد ذلك أن يصادر الحكمة والبلاغة وأن يترك من هو دون الرسول إذا قام فيهم أو ساقهم إلى ما فيه سعادتهم الحقيقية. ومن دائرة حب الدنيا ننتقل إلى دائرة تفسير النصوص وفيها نرى أن العديد منهم كان يفتح أبواب الرأى والنبى فى وسطهم. ولقد حذرهم النبى من هذا. لأن هذا الباب إذا فتح فسيدخل منه أمور لم يرد لها ذكر فى الكتاب والسنة. روى الإمام مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع أصوات رجلين اختلفا فى آية. فخرج يعرف فى وجهه الغضب وقال ": إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى

[صفحه ۲۴۳]

الكتاب [" ۸] ، وفى رواية عند الإمام أحمد قال النبى لبعض أصحابه ": ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض. بهذا أهلك من كان قبلكم [" ۹] ، وروى الإمام مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ": أيتلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم [" ۱۰] ، وروى ابن أبى عاصم أنه قال لهم ": ألهذا خلقتم؟ أم بهذا أمرتم. لا يضربوا كتاب الله بعضه ببعض. انظروا ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه ["۱۱] ، وروى الدارقطنى: إن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من باب البيت وهو يريد الحجرة. فسمع قوما يتراجعون بينهم فى القرآن. يقولون: ألم يقل الله فى آية كذا وكذا. فقال لهم: أبهذا أمرتم. أبهذا عنيتم إنما هلك من قبلكم بأشباه هذا ضربوا كتاب الله بعضه بعضا أمركم الله بأمر فاتبعوه ونهاكم عن شئ فانتهوا [۱۲] .

فهل انتهوا؟ إن التاريخ يقول إن المسيرة شهدت للرأى أعلاما. واتفق على أن الصحابة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم. أطبقوا إطباقا واحدا على ترك كثير من النصوص لما رأوا المصلحة فى ذلك. كإسقاطهم سهم ذوى القربى وإسقاط سهم المؤلفة قلوبهم. وهذان الأمران يدخلان فى باب الدين وفيهما نصوص صريحة. وقد عملوا بآرائهم أمورا لم يكن لها ذكر فى الكتاب والسنة. وعملوا بمقتضى ما يغلب فى ظنونهم من المصلحة. ولم يقفوا مع موارد النصوص حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعد فرجح كثير منهم القياس على النص، حتى استحالت الشريعة وصار أصحاب القياس أصحاب شريعة جديدة. وأكثر ما يعملون بآرائهم فيما يجرى مجرى الولايات والتأمير والتدبير وتقرير قواعد الدولة. وما كانوا ليقفوا مع نصوص الرسول صلى الله عليه وسلم وتدبيراته

[صفحه ۲۴۴]

إذا رأوا المصلحة فى خلافها. كأنهم كانوا يقيدون نصوصه المطلقة بقيد غير مذكور لفظا، وكأنهم كانوا يفهمونه من قرائن أحواله. وتقدير ذلك القيد " افعلوا كذا إن رأيتموه مصلحة [" ۱۳] ، وهكذا حذر النبى من تأول غير الراسخين فى العلم. لأن تأولهم يفتح الأبواب للذين فى قلوبهم زيغ. فيدقون أوتاد الفتن ويقيمون خيام الهلاك التى أقيمت من قبل للأمم السابقة. وكما حذر النبى من الرأى والتأويل الذى لا يستند على كتاب الله وسنة رسوله. حذر أيضا من السلوك فى طريق الخشوع الزائف. لأن هذا النوع من الخشوع من فضيلة ضرب كتاب الله بعضه ببعض. فأصحاب الخشوع الزائف شربوا من إناء الذين فى قلوبهم زيغ. ولأن حركة أصحاب الخشوع الزائف تضيق الطريق أمام أصحاب الخشوع الحق. بتلبيس الأمور على الناس فإن النبى صلى الله عليه وآله عاتب أصحاب هذا الخشوع ووبخهم وذمهم فى أكثر من موضع. روى الإمام البخارى أن النبى صلى الله عليه وآله رخص فى أمر فتنزه عنه ناس من الناس فبلغ ذلك النبى فغضب ثم قال: ما بال أقوام يتنزهون عن الشئ أصنعه. فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية [۱۴] ، وروى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى مكة فصام حتى بلغ كراع الغميم [۱۵] وصام الناس معه فقيل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام وإن الناس ينظرون فيما فعلت. فدعا بقدح من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون إليه. فأفطر بعضهم وصام بعضهم. فبلغه أن ناسا صاموا فقال: أولئك العصاة [۱۶] ، وروى الإمام أحمد: إن النبى صلى الله عليه وسلم وعظ الناس. فرفع رجل صوته بالبكاء. فقال النبى: من هذا الذى لبس علينا إن كان صادقا شهر نفسه وإن كان كاذبا محقه الله [" ۱۷] ، وروى أحمد أيضا عن ابن

الأدرع قال: انطلقت مع

[صفحه ۲۴۵]

رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررنا على رجل يصلى مجهرا بالقرآن. فقال النبى: عسى أن يكون مرائيا. قلت: يصلى يجهر بالقرآن!! [۱۸] ، فترك النبى صلى الله عليه وسلم يدى ثم قال: إنكم لن تنالوا هذا الأمر بالمغالبة [۱۹] .

وروى الإمام مسلم أن النبى صلى الله عليه وآله أعتم ذات ليلة العشاء حتى رقد الناس واستيقظوا. فجاء عمر بن الخطاب وأنذر الناس بالصلاة وصاح: الصلاة. وفى رواية: قال عمر: نام النساء والصبيان. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": ما كان لكم أن تنذروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصلاة، " وذلك حين صاح عمر [۲۰] ومن الطريف قول بعضهم: أن صياح عمر كان لغيرته على الدين وذلك عندما وجد أن النبى لم يخرج للصلاة وأن النساء والصبيان قد ناموا. وروى الإمام البخارى ومسلم أن رجلا اشتكى للنبى أن يتأخر عن الصلاة من أجل فلان [۲۱] الذى يطيل بهم فى الصلاة. فغضب النبى صلى الله عليه وسلم وقال: أيها الناس إن منكم منفرين. فأيكم ما صلى بالناس فليوجز فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة [" ۲۲] ، من هذا نعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم واجه كل صور الخشوع الزائف أو المبالغ فيه أو الذى لا يستمد وقوده من النبى صلى الله عليه وسلم. وذلك لأن تحت هذه المظلة تنتعش تزكية النفوس. وتزكية النفوس بغير حق واضح. سلاح فعال يستخدم فى أعمال الصد عن سبيل الله. فأصحاب دائرة الذين فى قلوبهم مرض أو زيغ إذا ضربوا كتاب الله بعضهم ببعض. احتمى تلاعبهم بالنصوص بملابس الخشوع الزائف. وهنا تكمن الخطورة. وذروة التحذير من هذا النمط البشرى. كانت فيما رواه أبو سعيد

[صفحه ۲۴۶]

الخدرى. أن أبا بكر رضى الله عنه. جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: يا رسول الله: إنى مررت بوادى كذا وكذا، فإذا رجل تخشع حسن الهيئة يصلى. فقال له النبى: اذهب إليه فاقتله. فذهب إليه أبو بكر. فلما رآه على تلك الحال كره أن يقتله. فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله رأيته يصلى متخشعا فكرهت أن أقتله. فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعمر: اذهب فاقتله. فذهب عمر فرآه على تلك الحال التى رآه أبو بكر فكره أن يقتله فرجع فقال: يا رسول الله رأيته يصلى متخشعا فكرهت أن أقتله فقال النبى: يا على اذهب فاقتله فذهب فلم يره فرجع على فقال: يا رسول الله إنى لم أره، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم فى فوقه فاقتلوهم هم شر البرية [۲۳] .

وهذا الرجل المتخشع الحسن الهيئة هو ذو الثدية. وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله. وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد رأى هذا المارق من قبل فى المسجد كما فى حديث أنس عند أبى يعلى. ويومئذ أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله ولكن خشوعه غر الشيخين أبو بكر وعمر. كان هذا فى المرة الأولى. ثم جاءت الثانية عندما رآه أبو بكر يصلى فى بعض الأودية. فأخبر النبى فأمره فورا بقتله. وفى هذا دليل على أن الخاشع محكوم عليه من قبل. ولكن رياء هذا المارق بتخشعه فى صلاته غر بشيخين مرة أخرى فكرها قتله وآثرا استحياءه. والنبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم من ربه أن هذا الخاشع المارق سيكون له فقه خاص به مهمته الصد عن الإسلام بالإسلام وعن الكتاب بالكتاب. ولما كان الأمر متعلقا بالإسلام وكتابه فإن الله تعالى أخبر رسوله أن نهاية هذا المارق ستكون بيد أعلم الناس بالأعلام وكتابه على بن أبى طالب. ولقد قاتله على بن أبى طالب فيما بعد وهو بين أتباعه. وعندما قتله أعلن على قواته الحقيقة الكبرى ومفادها أن هذا الرجل لم يكن إلا شيطان من

[صفحه ۲۴۷]

الشياطين. وذلك فيما ذكره ابن كثير أن سعد بن أبى وقاص قال بعد موقعة النهروان " قتل على بن أبى طالب شيطان الردهة [" ۲۴] ، وقال على بعد الموقعة ": أخبرنى خليلى صلى الله عليه وآله وسلم أنهم ثلاثة أخوة من الجن هذا أكبرهم [" ۲۵] ، وظهور الشياطين

علی هـذه الصورة أمر غیر مستغرب. فلقـد روی الإمام مسلم " إن الشیطان لیتمثل فی صورة الرجل فیأتی القوم فیحدثهم بالحدیث " [۲۶].

وروی مسلم أیضا ": إن فی البحر شیاطین مسجونة أوثقها سلیمان یوشک أن تخرج فتقرأ علی الناس قرآنا [" ۲۷] ، ولما کان ظهور الشیاطین حقیقیة. ولما کانوا سیحدثون الناس بأحادیث یکذبون فیها علی رسول الله. ویقرأون علیهم قرآنا لیشتعل الجدال ویأتی الاختلاف والافتراق. کما فی قوله تعالی: (وإن الشیاطین لیوحون إلی أولیائهم لیجادلوکم) [۲۸] ، ولما کانوا سیظهرون بلباس الخشوع ویصلون وسوف یغتر بخشوعهم الکثیر. کان من عدل الله تعالی أنه قطع الطریق علیهم بتحدیده تعالی دائرة الطهر التی یجلس فیها الذین أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهیرا، وأهل هذه الدائرة لا یکذبون کما أنهم أعلم الناس بکتاب الله. ولقد فرض الله مودتهم. وأهل هذه الدائرة یتعاملون مع الدنیا علی أنها قنطرة إلی الآخرة. ولا یأکلون فی الدنیا إلا ما فرضه الله لهم من سهم ذی القربی کما أنهم دخلوا دائرة الأمان وذلک لإخبارهم أنهم سیکونون مع النبی صلی الله علیه وآله عند الحوض، وسیکونون معه فی مکان واحد فی الجنة. من هذا کله یمکن القول بأنه یستحیل علیهم أن یکذبوا فأی غنیمة ینالوها إذا کذبوا. أما الشیاطین وأتباعهم فالکذب نقطة ارتکاز فی نفوسهم. لأنهم

[صفحه ۲۴۸]

یریدون وإذا أعطوا لا یشبعون فالنبی أمر بقتل المارق یوم إن کان متخشعا فی صلاته. وکان یعلم من ربه أن هذا المارق له یوم مؤجل وما فعل النبی هذا إلا من باب الأخذ بالأسباب. بعد أن علم أن الأمة ستختلف وتفترق من بعده. ولقد أخذ صلی الله علیه وسلم بالأسباب فحذر الناس من الإمارة لأنه علم أن الأمة ستسند الأمر إلی غیر أهله. وحذر من بنی أمیة ونفی الحکم بن أبی العاص لما علم من ربه ما یضمروه للدعوة. وبعد أن شاهدهم ینزون علی منبره نزو القردة. ویوم فتح مکة. أهدر النبی دم عبد الله بن أبی السرح وأمر بقتله ولو وجد متعلقا بأستار الکعبة. وذلک عندما علم من ربه أن ابن أبی السرح ستجری علی یدیه فتن تقود إلی فتن حالکة الظلام. فماذا فعلوا مع ابن أبی السرح. لقد فر هذا الرجل إلی أخیه من الرضاعة عثمان بن عفان. وغیبه عثمان عنده حتی أتی به رسول الله صلی الله علیه وسلم بعدما اطمئن أهل مکة. فاستأمنه له فصمت رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم طویلا. ثم قال: نعم فلما انصرف عثمان قال النبی لمن حوله: ما صمتت إلا لیقوم إلیه بعضکم فیضرب عنقه فقال رجل: فهلا أومأت إلی یا رسول الله. فقال النبی: إن النبی لا ینبغی أن یکون له خائنة أعین [۲۹] ، وبعد وفاة النبی تواری ذو الثدیة وابن أبی السرح وبنی أمیة وبنی الحکم وراء أشجار الزینة. یدونون فقههم بعد أن محیت آثار التحذیر منهم وذلک عندما منع الفاروق عمر بن الخطاب رضی الله عنه روایة الحدیث. وألغی سهم المؤلفة قلوبهم الذی ضربه الله علی ضعاف الإیمان المنافقین وأشباههم لیعرفوا به. لقد کان النبی صلی الله علیه وسلم یأخذ بالأسباب رغم علمه بأن الذی یطلب من الله دفعه عن الأمة. واقع لا محالة لأن الله أعلم بالقلوب وأعلم بالطریق الذی ستختاره کل نفس من النفوس. والأخذ بالأسباب رغم هذا العلم. هو فی حقیقته تعلق بالله. لأن الله نسب الهدایة فی کل مکان إلی نفسه

[صفحه ۲۴۹]

بصورة مطلقة. وأمر النبی صلی الله علیه وسلم، بإراقة دماء واحد من الناس بالإضافة إلی أنه أخذ بالأسباب. إلا أنه أیضا یدب الحیاة فی جسد التحذیر بمعنی أن الناس عندما یعلمون أن فلانا قد استباح النبی صلی الله علیه وسلم دمه أو نفاه. فإن التحذیر یکون إعلاما علی رأس المحذر منه فیتعامل معه الناس بحرص ولا یملکوه أعناقهم. فالأخذ بالأسباب من ناحیة الرسول هو تحذیر وحجة فی نفس الوقت. مما سبق یمکن للباحث أن یری صفحة المجتمع الذی بعث فیه النبی صلی الله علیه وسلم - وعلی هذه الرؤیة یمکن القول بأن الصحابة قوم من الناس لهم ما للناس وعلیهم ما علیهم. فیهم من یحب الدنیا ویعمل لها. وفیهم من یحب الآخرة ویعمل لها. وفیهم من کان یتلعب بالنصوص ویضرب کتاب الله بعضه ببعض. وفیهم أصحاب الخشوع الخیالی الزائف. ومن هؤلاء شیطان من الشیاطین تلون وتشکل وزین وزخرف ثم جاءته ضربة فیما بعد من سیف العمود الرئیسی لدائرة الطهر فأردته قتیلا. ومن هذا کله یمکن أن نلقی

بالقبول أن على بن أبى طالب قد واجه صعوبات جمة وأن طريقه قد وضع عليه العديد من العقبات. ولم تكن العقبات تأتيه من جانب هؤلاء فقط. وإنما جاءته أيضا من الأعراب اتباع كل ناعق. الذين لا يعرفون من دينهم شيئا. وهؤلاء جاء ذكرهم فيما رواه البخارى عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم وقال ": ما أظن فلانا وفلانا يعرفان من ديننا شيئا [" ۳۰] ، وروى الترمذى والإمام أحمد أنهم قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم عندما مروا بسدرة: يا نبى الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها. فقال النبى ": الله أكبر. هذا كما قلت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. إنكم تركبون سنن من قبلكم [۳۱] ، وقولهم هذا كان فى العام الثامن

[صفحه ۲۵۰]

الهجرى. أى قبل وفاة النبى بسنتين ونصف تقريبا. فهؤلاء الذين لا يعرفون من الدين شيئا. والذين يريدون ذات أنواط. هؤلاء أنماط بشرية لا يمكن تجاهل وجودها عند قراءة صفحة المجتمع بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم.

[۱] سورة الأنفال: الآية ۵ - ۶.

[۲] تفسير ابن كثير ۴۱۴:۱.

[۳] سورة آل عمران: الآية ۱۵۲.

[۴] تفسير ابن كثير ۴۱۳:۲.

[۵] سورة التوبة: الآية ۳۸.

[۶] سورة التوبة: الآية ۴۲.

[۷] البخارى ك البيوع (الصحيح ۲:۲) ابن كثير فى التفسير ۳۶۷:۴.

[۸] مسلم ك العلم (الصحيح ۲۱۸:۱۶).

[۹] أحمد عن ابن عمر (كنز العمال ۱۹۳:۱).

[۱۰] مسلم (الصحيح ۱۷۵:۱).

[۱۱] ابن أبى عاصم. وقال الألبانى إسناده حسن وأخرجه أحمد وابن ماجة (كتاب السنة ۱۷۷:۱).

[۱۲] الدارقطنى وابن عساكر (كنز العمال ۳۸۳:۱).

[۱۳] ابن أبى الحديد ۸۰۷:۳.

[۱۴] البخارى ك الآداب (الصحيح ۶۶:۴) مسلم (الصحيح ۹۰:۵).

[۱۵] موضع بين مكة والمدينة.

[۱۶] الترمذى وصححه (الجامع ۸۰:۳).

[۱۷] أحمد فى كتاب الورع ص ۷۹.

[۱۸] أى إنه رجل صالح.

[۱۹] رواه أبو يعلى وقال الهيثمى رجاله رجال الصحيح (الزوائد ۶۳۲:۶).

[۲۰] مسلم عن عائشة وابن عمر كتاب المساجد. وقت العشاء (۱۳۷ - ۱۳۸:۵ الصحيح).

[۲۱] فى رواية أنه معاذ بن جبل.

[۲۲] رواه البخارى ككك الأحكام (الصحيح ۲۳۶:۴).

[۲۳] رواه أحمد وقال الهيثمى رجاله ثقات (الزوائد ۲۲۷:۶) وابن كثير فى البداية (۲۹۹:۷).

[۲۴] ابن كثير فى البداية (۲۹۸:۷).

[۲۵] رواه أحمد وقال فی فتح الباری سنده جید وله شاهد من حدیث جابر عند أبی یعلی ورجاله ثقات (فتح الباری ۲۹۹:۱۲)، وأخرجه الحاکم (المستدرک ۵۳۳:۴).

[۲۶] رواه مسلم (الصحیح ۹:۱ ط إسطنبول).

[۲۷] رواه مسلم (الصحیح ۱۰:۱ ط استانبول).

[۲۸] سورهٔ الأنعام: الآیهٔ ۱۲۱.

[۲۹] راجع ترجمهٔ ابن أبی السرح (الإستیعاب ۳۷۸:۲، الإصابهٔ ۳۰۹:۲، أسد الغابهٔ ۱۷۳:۳).

[۳۰] البخاری (الصحیح ۶۱:۴) ک الآداب ب، یکون من الظن.

[۳۱] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۴۷۵ (۴) وأحمد وابن جریر وابن أبی حاتم (تفسیر ابن کثیر ۲۴۳:۲) وابن أبی عاصم وقال الألبانی حدیث صحیح (کتاب السنهٔ ۳۸:۱) والشافعی والبیهقی (کنز العمال ۱۷۰:۱۱).

ذعر علی أعتاب الغروب

علی صفحهٔ المجتمع قدمنا حقیقهٔ یقینیهٔ، حملتها إلینا أحادیث صحیحهٔ.

وهذه المقدمات شهدت لها حرکهٔ التاریخ بعد ذلک بأنها صحیحهٔ. وذلک لأن النتیجهٔ فی النهایهٔ استقامت مع المقدمات فی البدایهٔ. ولا نقصد بحرکهٔ التاریخ هنا ما دونه المؤرخون فقط. وإنما حرکهٔ التاریخ عندنا هی التی یرشد إلیها حدیث صحیح أخبر فیه النبی صلی الله علیه وآله وسلم بالغیب عن ربه. فنحن نمسک بأحادیث الإخبار عن الغیب ونمر بها علی حرکهٔ التاریخ. ولا تعتمد فی بحثنا أن الأحداث التی انطبق علیها الحدیث الصحیح. وکما قدمنا مقدمات جرت علی صفحه المجتمع أیام الرسول صلی الله علیه وسلم. فإننا نقدم هنا أیضا حدثا لا یمکن تجاهله ونحن نبحث عن العراقیل التی وضعت أمام علی بن أبی طالب. وهذا الحدث یحمل معالم الذعر من علی بن أبی طالب. ومما سبق علمنا أن دائرهٔ الرجس وأصحاب المسجد الضرار عندما عزم النبی صلی الله علیه وسلم أن یخرج إلی تبوک وترک علیا فی المدینهٔ، أشاع أصحاب دائرهٔ الرجس أن النبی استثقله وخلفه بین النساء والصبیان. وکان هدفهم من وراء هذا أن یخرج علی بن أبی طالب مع النبی حتی تخلوا المدینهٔ أمام مخططات ملک الروم ومشرکی العرب وأصحاب المسجد الضرار. ولکن النبی رد کیدهم فی نحورهم وقال لعلی ": أنت منی بمنزلهٔ هارون من موسی "... الحدیث. وعند عودهٔ النبی من تبوک حدثت محاولهٔ اغتیاله بواسطهٔ اثنی عشر رجلا هم حرب لله ولرسوله فی الحیاهٔ الدنیا. ومعنی أنهم حرب أی أنهم أصحاب مخططات یتعاملون مع الأحداث وفقا للزمان والمکان. ولا یمکن بحال أن یکون علی بن أبی طالب بعیدا عن مخططاتهم فی حیاهٔ الرسول وبعد مماته. لأن الحدیث الصحیح أفاد بأنهم حرب علی امتداد الحیاهٔ الدنیا. والمعروف أن

[صفحه ۲۵۱]

أصحاب المخططات الحربیهٔ. یجیدون تحدید أعدائهم بدقهٔ وبسرعهٔ وبترکیز. وسبب ذلک أن الله جعلهم فی ذعر دائم. وقد وصفهم الله فی کتابه فقال: (لو یجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إلیه وهم یجمحون) [۱] فهم فی جزع وفزع وهلع وفی انزعاج دائم من ضرر متوقع. وإنهم لدفع هذا الضرر لو یجدون حصنا یتحصنون به وحرزا یتحرزون به أو مغارات فی الجبال أو نفق فی الأرض لأسرعوا فی ذلک لا یصرفهم عنه شیء. فهذا النمط البشری فی فزع من المستقبل ولهذا فهم فی حرب مع کل مستقبل. والذین فی قلوبهم مرض أو زیغ کانوا یعلمون أن السماء لن تضربهم بعقاب ما دام النبی صلی الله علیه وسلم فیهم لقوله تعالی: (وما کان الله لیعذبهم وأنت فیهم وما کان الله معذبهم وهم یستغفرون) [۲] ، فالعذاب لا یضربهم ما دام الرسول فیهم. ولا یضربهم العذاب إذا استغفروا لذنوبهم وتابوا وعادوا إلی الرحاب الآمن. فإذا قبض الله تعالی رسوله إلیه. فإنهم سیقفون تحت قانون هذه الآیهٔ: (فإما نذهبن بک فإنا منهم منتقمون...) [۳] ، ویبقی الاستغفار لمن أراد أن یستقیم. لقد علموا ذلک فی العهد النبوی. علموا أنه بعد وفاهٔ النبی صلی

الله عليه وسلم. وسيكون العقاب منهم أقرب. ولكن على يد من سيكون هذا العقاب؟ لقد كان فى ذاكرتهم حدث وحديث. يمكن عليهما رصد حامل العقاب الذى يدخره المستقبل لهم. روى ربعى بن حراش الذى قال فيه الإمام الترمذى: سمعت الجارود يقول: سمعت وكيعا يقول. لم يكذب ربعى بن حراش فى الإسلام كذبة [۴] ، روى ربعى عن على أنه قال: لما كان يوم الحديبية خرج إلينا ناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو وأناس من رؤساء المشركين. فقالوا: يا رسول الله. خرج إليك ناس من أبنائنا وإخواننا وأرقائنا وليس لهم فقه فى الدين. وإنما خرجوا فرارا من أموالنا وضياعنا. فأرددهم

[صفحه ۲۵۲]

إلينا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإن لم يكن لهم فقه فى الدين سنفقههم، يا معشر قريش لتنتهين أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين. قد امتحن الله قلبه على الإيمان. قالوا: من هو يا رسول الله؟ وقال أبو بكر: من هو يا رسول الله؟ وقال عمر: من هو يا رسول الله. قال: هو خاصف النعل - وكان قد أعطى عليا نعله يخصفها [۵] ، وفى رواية بسند صحيح أيضا. قالوا: يا محمد إنا جيرانك وحلفاؤك. وإن ناسا من عبيدنا قد أتوك ليس بهم رغبة فى الدين ولا رغبة فى الفقه. إنما فروا من ضياعنا وأموالنا فأرددهم إلينا. فقال النبى لأبى بكر: ما تقول؟ قال: صدقوا إنهم لجيرانك وأحلافك. فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال لعمر: ما تقول؟ قال: صدقوا أنهم لجيرانك وحلفاؤك. فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا معشر قريش والله ليبعثن الله عليكم رجلا قد امتحن الله قلبه بالإيمان. فيضربكم على الدين، أو يضرب بعضكم. فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله. قال: لا. قال عمر: أنا يا رسول الله. قال: لا ولكنه الذى يخصف النعل - وكان أعطى عليا نعلا يخصفها [۶] .

فالذاكرة عند القوم تحمل حدث وحديث. والقرآن أخبرهم أنه بعد وفاة الرسول سيكون هناك انتقام لا محالة. وكما تحسسوا رقابهم عندما علموا يوم الحديبية. إن لهم يوما من على بن أبى طالب. تحسسوها أيضا عندما علموا بتفسير قوله تعالى: (فإما تذهبن بك فإنا منهم منتقمون)، قال السيوطى فى الدر المنثور. أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: (فإما تذهبن بك فإنا منهم منتقمون) قال: نزلت فى على بن أبى طالب أنه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدى، وروى على وحذيفة فى قوله تعالى: (فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان

[صفحه ۲۵۳]

لهم) [۷] ، ما قوتل أهل هذه الآية بعد [۸] ، وهذه الآية فى سورة براءة التى نزلت بعد غزوة تبوك آخر غزوات النبى صلى الله عليه وسلم [۹] ، فإذا كان هناك قتال يدخره الغيب بعد آخر غزوة غزاها النبى صلى الله عليه وسلم. فلا جدال أن أصحاب دائرة الرجس سيبحثون كثيرا عن حصون يتحصنون بها أو حرزا يتحرزون به أو مغارات فى الجبال أو نفقا فى الأرض لدفع هذا الضرر عنهم. ولا يمكن للباحث المنصف أن يستبعد عامل الذعر هذا عند البحث عن العوائق التى وضعت فى طريق على بن أبى طالب. ويضاف إلى هذا عامل آخر. فالقوم كان فيهم من حذر النبى صلى الله عليه وسلم منه. وفيهم من دعا النبى عليه ولعنه وفيهم من نفاه وفيهم من أحل دمه. روى الإمام مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم كسنى يوسف اللهم العن لحيان ورعلا وذكوان وعصية [" ۱۰] ، وفى رواية عند أبى نعيم ": والعن أبا الأعور السلمى [" ۱۱] ، وفيما سبق بينا أنه لعن الحكم بن أبى العاص ونفاه وأحل دم عبد الله بن أبى السرح وذو الثدية. فهذا الطابور كله كانت لهم ثقافة يشقون بها طريقا فى اتجاه السلطة لإعادة مجدهم الزائل الذى أطاحت به الدعوة الإسلامية. فكان لا بد من وضع عقبات يكون من نتائجها التعتيم على هذه الروايات حتى تندثر فى عالم النسيان. وكان الطريق إلى ذلك لا يمر إلا بتخطى على بن أبى طالب ثم الكذب بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد كانت هذه الأنماط البشرية تعمل من أجل رسم طريق حذر النبى صلى الله عليه وسلم منه. وهذا الطريق الذى اختاروه من على موائد الخوف والذعر والحسد والبغض. يستند علاوة على ما

[صفحه ۲۵۴]

ذكرنا على عداوة قديمة بين عبد شمس وبين بنى هاشم. فقديما كانت هناك عداوات بين حرب بن أمية وبين عبد المطلب بن هاشم. وفى عهد النبوة قدمت الدعوة رداء الأرحام كى تدخل تحته قريش لا فرق بين هذا وذاك. ولكن أبو سفيان لم ينصت لصوت الرحمة وحسد محمد صلى الله عليه وسلم وحاربه وبعد فتح مكة ظل الطريقان متباغضان وإن وقفوا على أرض واحدة. ولقد اتفق أن على بن أبى طالب قتل جماعة كثيرة من بنى عبد شمس فى حروب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأكد هذا بغضهم لعلى وسنرى فيما بعد أن الأحداث تقر بذلك. باختصار: كان هناك خوف وذعر وطلب ثأر. وكان هناك من استحدث سن على بن أبى طالب. وكان هناك من خاف من شدة وطأته وشدته فى دين الله. وكان هناك من يبغضه فقط لقربه من رسول الله. وكان هناك من كره اجتماع النبوة والخلافة فى بيت واحد، وكان خلاص هؤلاء. أن تتداول الخلافة بين قبائل العرب وأن لا تقتصر على بيت مخصوص. فتكون لكل قبيلة وفقا لهذا التصور بابا مفتوحا يصل بهم إلى كرسى الخلافة. وهذا الطريق يقف فى النهاية تحت مظلة يكون فيها مال الله دولا ودينه دخلا وعباده خولا. وهو الطريق الذى حذر منه النبى صلى الله عليه وسلم. من هذا كله لا يمكن القول أن مجموعة الحرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا. تتحرك بدون خطة تمهد لها ثقافة، ولأن هذه الثقافة لا بد أن تنتشر بين عامة المسلمين. كان لا بد إما الكذب على رسول الله أو التلعب بكتاب الله وضرب بعضه ببعض. والنبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن الكذب عليه واقع لا محالة. ولقد صرح فى أكثر من مكان فى حجة الوداع وقال ": من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار [" ۱۲] ، بل وكان يعلم من ربه بالخطة التى تضعها مجموعة الحرب لله ولرسوله. قال تعالى: (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية

[صفحه ۲۵۵]

الرسول) [۱۳] ، لقد أخبر تعالى عن ثلاثة جرائم: الإثم والعدوان ومعصية الرسول. والإثم هو: العمل الذى له أثر سئ. والعدوان هو: العمل الذى فيه تجاوز إلى الغير مما يتضرر به الناس ويتأذون. والإثم والعدوان يدخلان تحت عنوان معصية الرسول. ولكنه تعالى أفرد معصية الرسول لتشمل مخالفته فيما أمر به أو نهى عنه. مما له من ولاية أمورهم لأنه صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم. لقد نهوا عن النجوى وإن لم تشتمل على معصية. ولكنهم خالفوا. وكان هؤلاء من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض وقيل: إن اليهود كانوا طرفا فى هذه النجوى. وشمول اليهود فى الآية فيه خفاء. وقد بين سبحانه أن التناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول. تنتهى إلى الشيطان، قال تعالى: (إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا...) [۱۴] ، وروى فى تفسير هذه الآيات أن خط الحرب كان هدفهم القضاء على الدعوة، وكان لهذا الهدف ثقافة عرفت باسم " العقدة " أو " الصحيفة " ويمكن أن يرى الباحث هذا العقد إذا تدبر الحوار بين المهاجرين والأنصار بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله، وإذا نقب فى الأحداث بعد ذلك على امتداد العهد الأموى. ويمكن القول بأن قوافل الذعر والحسد والذين كرهوا أن تجتمع الخلافة والنبوة فى بيت واحد. تعاقدوا فيما بينهم على ورقة ثقافية يبثوها على العامة الذين يحبون الدنيا والذين طلبوا أن يكون لهم ذات أنواط والذين لا يعلمون من دينهم شيئا والذين يبحثون عن أمجاد الآباء وغير ذلك مما أوردنا عند البحث عن صفحة المجتمع. وأن العمود الفقرى لهذه الثقافة هو: إن الله بعث محمدا رسولا إلى الناس كافة. ومحمد لم يستخلف أحدا من بعده. وما قاله فى على بن أبى طالب له تأويلات كثيرة عند العرب. والنبى جعل الاختيار إلى المسلمين يختارون لأنفسهم من وثقوا برأيه. والرسول لم يستخلف

[صفحه ۲۵۶]

أحدا. لئلا يجرى ذلك فى أهل بيت واحد فيكون إرثا دون سائر المسلمين ولئلا يكون دولة بين الأغنياء منهم. ولئلا يقول المستخلف أن هذا الأمر باق فى عقبه من ولد إلى ولد إلى يوم القيامة. والذى يجب على المسلمين عند مضى خليفة من الخلفاء. أن يجتمع ذوى الرأى والصلاح يتشاوروا فى أمورهم. فمن رأوه مستحقا لها ولوه أمورهم وجعلوه القيم عليهم. فإنه لا يخفى على أهل كل زمان من يصلح منهم للخلافة. فإن ادعى مدع من الناس جميعا. إن رسول الله استخلف رجلا بعينه نصبه للناس ونص عليه بإسمه ونسبه. فقد

أبطل فی قوله. وأتی بما لا یعرفه أصحاب رسوله الله وخالف جماعهٔ المسلمین. وإن ادع مدع أن الخلافهٔ لا تصلح إلا لرجل واحد من بین الناس وأنها مقصورهٔ فیه. ولا تنبغی لغیره لأنها تتلو النبوهٔ. فقد کذب. لأن النبی قال ": أصحابی کالنجوم بأیهم اقتدیتم اهتدیتم" وإن ادع مدع أنه یستحق الإمامهٔ بقربه من رسول الله. ثم هی مقصورهٔ علیه وعلی عقبه ولا تصلح لغیرهم. فلیس له ولا لولده وإن دنا من النبی نسبه. لأن الله یقول: (إن أکرمکم عند الله أتقاکم)، وقال رسول الله ": إن ذمهٔ المسلمین واحدهٔ یسعی بها أدناهم وکلهم ید علی من سواهم. فمن آمن بما جاء فی کتاب الله وأقر بما قال به رسول الله فقد استقام وأناب وأخذ بالصواب. ومن کره. فقد خالف الحق والکتاب وفارق جماعهٔ المسلمین فاقتلوه. فإن فی قتله صلاحا للأمهٔ. " وقد قال النبی ": من جاء إلی أمتی وهم جمیع ففرقهم فاقتلوه. إن هذه الثقافهٔ یری وجهها بوضوح فی عهد بنی أمیهٔ. یوم أن حافظوا علی الکرسی بقتال أمیر المؤمنین علی، ویوم قتل الحسین، ویوم ضرب المدینهٔ بعد أن خرج أهلها علی یزید بن معاویهٔ. ولم تخرج قوات یزید من المدینهٔ یوم الحرهٔ إلا بعد أن بالت الخیل بین الروضهٔ والمنبر وبعد أن بایع أهل المدینهٔ لیزید علی أساس أنهم عبید له الحق أن یبیع فیهم ویشتری. وتری هذه الورقهٔ أیضا علی امتداد زمن أولاد مروان بن الحکم طرید رسول الله. وکان بعض الصحابهٔ یعرفون الخطوط الرئیسیهٔ لما اتفق علیه القوم وما سمی بالعقدهٔ. ومنهم حذیفهٔ وأبی بن کعب. وروی أبو بکر أحمد بن عبد

[صفحه ۲۵۷]

العزیز [۱۵] فی کتابه السقیفهٔ عن البراء بن عازب. إنه کان فی جماعهٔ منهم المقداد بن الأسود وعبادهٔ بن الصامت وسلمان الفارسی وأبو ذر وحذیفهٔ والهیثم بن التیهان وذلک بعد وفاهٔ الرسول الله صلی الله علیه وسلم. وإذا حذیفهٔ یقول لهم: والله لیکونن ما أخبرتکم به والله ما کذبت ولا کذبت. وإذا القوم یریدون أن یعیدوا الأمر شوری بین المهاجرین. ثم قال: ائتوا أبی بن کعب. فقد علم کما علمت، قال: فانطلقنا إلی أبی. فضربنا علیه بابه حتی صار خلف الباب. فقال: من أنتم؟ فکلمه المقداد فقال: ما حاجتکم؟ فقال له: افتح علیک بابک، فإن الأمر أعظم من أن یجری من وراء حجاب. قال: ما أنا بفاتح بابی وقد عرفت ما جئتم له. کأنکم أردتم النظر فی هذا العقد. فقلنا: نعم فقال: أفیکم حذیفهٔ؟ فقلنا: نعم، قال: فالقول ما قال. وبالله ما أفتح عنی بابی حتی تجری علی ما هی جاریهٔ ولما یکون بعدها شر منها وإلی الله المشتکی [۱۶] .

کان هذا بعد وفاهٔ الرسول صلی الله علیه وسلم مباشرهٔ. وفی عهد عمر بن الخطاب علی أصح الروایات عزم أبی أن یتکلم فی الذی لم یتکلم فیه بعد وفاهٔ الرسول. وکان یقول: هلک أهل العقدهٔ ورب الکعبهٔ ألا لا علیهم آسی ولکن آسی علی من یهلکون من المسلمین [۱۷] ، وفی روایهٔ قال: لأقولن قولا لا أبالی استحییتمونی علیه أو قتلتمونی [" ۱۸] ، ووعد أن یکشف الحقائق أمام الناس یوم الجمعهٔ. وجاء یوم الأربعاء والجمیع ینتظرون موعد أبی. ولکن یوم الأربعاء جاء بخبر ألیم. قال قیس بن عباد: رأیت الناس یموجون. فقلت: ما الخبر؟ فقالوا: مات سید المسلمین أبی بن کعب. فقلت: ستر الله علی المسلمین حیث لم یقم الشیخ ذلک المقام [۱۹] ومات أبی فی خلافهٔ الفاروق عمر بن الخطاب رضی الله عنه علی أصح

[صفحه ۲۵۸]

الروایات [۲۰] وقیل مات فی خلافهٔ عثمان [۲۱] .

وکان هناک العدید من الصحابهٔ یخافون من روایهٔ بعض الأحادیث عن رسول الله صلی الله علیه وآله. من هؤلاء أبو هریرهٔ. قال فیما رواه البخاری " حفظت من رسول الله صلی الله علیه وسلم وعاءین فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم [" ۲۲] ، وقال ": إنی لأحدث أحادیث لو تکلمت بها فی زمان عمر أو عند عمر لشج رأسی [" ۲۳] ، وکان حذیفهٔ یقول ": لو کنت علی شاطئ نهر وقد مددت یدی لاغترف فحدثتکم بکل ما أعلم ما وصلت یدی إلی فمی حتی أقتل [" ۲۴] .

ولقد وجدنا فی المقدمهٔ نمطا بشریا یحب الدنیا ویضرب کتاب الله بعضه ببعض ویترک رسول الله قائما وینقض من حوله. ورأینا قبل ذلک دوائر عدیدهٔ مهمتها الصد عن سبیل الله. بملابس الخشوع الزائف ثم وجدنا أنماطا بشریهٔ برامجها حرب لله ولرسوله فی الحیاهٔ

الدنیا. وأنماطا تنطلق من أرض القبائلیة والعصبیة هدفها إعادة مجد زائل وأنماطا بشریة تختزن فی ذاکرتها معرکة فی المستقبل تطیح برقابهم فعملوا بکل ما لدیهم من قوة وفکر من أجل الاحتماء وراء الجدر ومن وراء الجدر بثوا ثقافة تمهد لمجیئهم. کانت هذه مقدمات حقیقة. ترتب علیها نتائج أقرها الحدیث الصحیح وحرکة التاریخ. واستقامت هذه النتائج من هذه المقدمات علی خط واحد.

[۱] سورة التوبة: الآیة ۵۷.

[۲] سورة الأنفال: الآیة ۳۳.

[۳] سورة الزخرف: الآیة ۴۱.

[۴] الإمام الترمذی (الجامع ۵:۶۳۴).

[۵] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۵:۶۳۴) والخطیب وابن جریر وصححه والضیاء سند صحیح (کنز العمال ۱۱۵، ۱۳:۱۷۳).

[۶] رواه أحمد وابن جریر وصححه والضیاء بسند صحیح وسعید بن منصور (کنز ۱۲۷، ۱۳:۱۷۳).

[۷] سورة التوبة: الآیة ۱۲.

[۸] أخرجه ابن أبی شیبة وابن أبی حاتم عن علی وحذیفة (کنز ۱۱:۴۲۶) (الدر المنثور ۳:۲۱۴) (البدایة والنهایة ۲:۳۳۹).

[۹] البدایة والنهایة ۵:۳۵.

[۱۰] رواه مسلم.

[۱۱] رواه أبو نعیم (کنز ۸:۸۲).

[۱۲] رواه البخاری وغیره (الصحیح ۱:۹۳).

[۱۳] سورة المجادلة: الآیة ۸.

[۱۴] سورة المجادلة: الآیة ۱۰.

[۱۵] أبو بکر أحمد بن عبد العزیز الجوهری.

[۱۶] ابن أبی الحدید نقلا من کتاب السقیفة ۱:۳۱۲، کتاب سلیم بن قیس ص ۷۴.

[۱۷] رواه أبو نعیم فی الحلیة فی الإمام أحمد.

[۱۸] ابن سعد (الطبقات الکبری ۳:۵۰۱) والحاکم باختصار (المستدرک ۲:۲۲۹، ۳:۳۰۳).

[۱۹] ابن جریر فی المسترشد ص ۲۸.

[۲۰] وهو قول ابن حبان وابن عبد البر (الإصابة ۱:۱۶).

[۲۱] وهو قول ابن سعد (الطبقات ۳:۲۰۲).

[۲۲] البخاری ک العلم (الصحیح ۱:۳۴).

[۲۳] ابن کثیر فی البدایة ۸:۱۰۷.

[۲۴] ابن عساکر (کنز العمال ۱۳:۳۴۵).

القرارات الأخیرة للنبی

مما سبق علمنا أن النبی صلی الله علیه وسلم سأل ربه ": أن لا یلبس

[صفحه ۲۵۹]

أمته شیعا، " وفی روایة ": أن لا یجعل بأسهم بینهم " فأبی علیه، وفی روایة " فمنعنیها [" ۱] ، وعلم من ربه أن الأمة ستختلف وتفترق من بعده وستترکب سنن الأولین شبرا بشبر وذراعا بذراع. ووفقا لهذا الإخبار کان صلی الله علیه وسلم یأخذ بالأسباب ویلح علی ربه

جل وعلا. وفی کل هذا تعلق بالله الذی بیده مصیر الأمور. وخلال الأیام الأخیرة للنبی صلی الله علیه وسلم. اتخذ قرارات وکان القوم یعرفون أنه ملاقی الله تعالی لا محالة فی العام الحادی عشر الهجری. وذلک لأنهم سمعوا مقالته لهم فی حجة الوداع " لعلی لا ألقاکم بعد عامکم هذا " وسمعوه یوم غدیر خم یقول ": إننی أوشک أن أدعی فأجیب " وعندما نزل قوله تعالی: (إذا جاء نصر الله والفتح)، قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": نعیت إلی نفسی " فقال ابن عباس ": فإنه مقبوض فی تلک السنة [" ۲] فلا ریب أن الجمیع کانوا یعلمون أن النبی صلی الله علیه وآله مفارق الدنیا. ولا جدال أن الأفراد والجماعات یحب کل منهم أن یفارقه النبی وهو عنهم راض. فینفذون أوامره بدقة ولا یتخاذلوا بأی صورة من الصور. ونحن هنا سنسلط الضوء علی قرارات ثلاثة أصدرها النبی صلی الله علیه وسلم وأیامه الأخیرة لنری کیف کانت الصورة التی سنعتبرها مقدمة حقیقیة یقینیة لیستنتج منها طالب العلم معلومات تصدیقیة واقعیة.

[۱] رواه مسلم کتاب الفتن (۱۴:۱۸ الصحیح) وأحمد (الفتح الربانی ۲۱۵:۲۳) والترمذی (الجامع ۴۷۲:۴).

[۲] قال ابن کثیر تفرد به الإمام أحمد (التفسیر ۵۶۲:۴).

الامر الواقی من الضلال

لقد علم النبی من ربه أن الاختلاف والافتراق واقع. وعلی فراش المرض

أخذ النبی بالأسباب. وطلب من الحاضرین وکان فیهم عمر بن الخطاب. أن یأتوه بدواة وکتف لیکتب لهم کتابا لا یضلون بعده. فهذا أمر صریح مقدمته تستقیم مع نتیجته. فهو صلی الله علیه وسلم یرید أن یکتب حتی لا یضلوا. فماذا حدث؟ عن جابر بن عبد الله قال: إن النبی صلی الله علیه وسلم دعا

[صفحه ۲۶۰]

عند موته بصحیفة لیکتب فیها کتابا لا یضلون بعده. فخالف علیها عمر بن الخطاب حتی رفضها [۱] فهذا الحدیث حدد الزمن " عند موته " وحدد الطلب " صحیفة لیکتب فیها کتابا " وحدد هدف الکتاب " لا تضلون بعده " وحدد الذی خالف " فخالف علیها عمر بن الخطاب. " وفی روایة عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله صلی الله علیه وسلم وفی البیت رجال فیهم عمر بن الخطاب. قال النبی صلی الله علیه وسلم ": هلم أکتب لکم کتابا لا تضلون بعده. فقال عمر: إن النبی قد غلبه الوجع وعندکم القرآن. حسبنا کتاب الله فاختلف أهل البیت فاختصموا. منهم من یقول: قربوا یکتب لکم النبی صلی الله علیه وسلم کتابا لن تضلوه بعده. ومنهم من یقول ما قال عمر فلما أکثروا اللغو والاختلاف عند النبی صلی الله علیه وسلم قال النبی ": قوموا (!!) " فکان ابن عباس یقول: إن الرزیة کل الرزیة ما حال بین رسول الله وبین أن یکتب لهم ذلک الکتاب من اختلافهم ولغطهم [۲] ، وفی روایة: قال عمر: إن النبی غلبه الوجع وعندنا کتاب الله حسبنا. فاختلفوا وأکثروا اللغط فقال النبی ": قوموا عنی. ولا ینبغی عندی التنازع، " فخرج ابن عباس یقول: إن الرزیة کل الرزیة ما حال بین رسول الله وبین کتابه [۳] .

وفی روایة لابن عباس قال: یوم الخمیس وما یوم الخمیس [۴] ثم بکی حتی خضب دمعه الحصباء ثم قال: اشتد برسول الله صلی الله علیه وسلم وجعه یوم الخمیس فقال: ائتونی بکتاب أکتب لکم کتابا لن تضلوا بعده أبدا.

[صفحه ۲۶۱]

فتنازعوا ولا ینبغی عند نبی تنازع فقالوا: هجر رسول الله، فقال النبی صلی الله علیه وآله وسلم: دعونی فالذی أنا فیه خیر مما تدعونی إلیه [" ۵] .

وقال فی لسان العرب فی معنی هجر: إذا جعلت إخبارا " هجر " فیکون المعنی أما من الفحش أو الهذیان. أما إذا کان علی سبیل الاستفهام کقولهم " أهجر " یکون المعنی: هل تغیر کلامه واختلط. وقال ابن الأثیر: والقائل کان عمر بن الخطاب. والذی یلیق بعمر

أن يكون قد استفهم [۶] وبالنظر فيما ورد

نجد أن المسلمين الذى حضروا سماع الأمر افترقوا فى الدار. لقد وقع الاختلاف بين قولين. قول النبى وقول عمر! وحيل المسلمون بينهما فرجح قوم هذا. إن المهم هنا أن القوم سووا بين النبى وبين عمر وجعلوا القولين مسألة خلاف ذهب كل فريق إلى نصرة واحد منهما. ولقد اعتذر العديد لعمر بن الخطاب. فقال النووى فى شرح مسلم: إن قول عمر حسبنا كتاب الله من قوة فقهه ودقيق نظره لأنه خشى أن تكتب أمور ربما عجزوا عنها فاستحقوا العقوبة لكونها منصوصة! ولكن السندى فى شرح البخارى كان له قول آخر قال: إن الأمر الصادر يفيد أنه أمن من الضلال فالكتاب الذى يريد الرسول أن يكتبه سبب للأمن من الضلال ودوام الهداية. فكيف يخطر على باب إنسان أنه سيترتب عليه عقوبة أو فتنة أو عجز. أما قوله ": حسبنا كتاب الله " لأنه تعالى قال: (ما فرطنا فى الكتاب من شئ)، ويقول: (اليوم أكملت لكم دينكم)، فكل من الآيتين لا يفيد الأمن من الضلال ودوام الهداية للناس، ولو كان كذلك لما وقع الضلال ولكن الضلال والتفريق فى الأمة قد وقع بحيث لا يرجى رفعه كما أن النبى لم يقل لهم: إن مراده أن يكتب لهم الأحكام حتى يقال على ذلك: إنه يكفى فهمها من كتاب الله. ولو فرض أن مراد

[صفحه ۲۶۲]

النبى كان كتابة بعض الأحكام، فلعل النص على تلك الأحكام منه صلى الله عليه وآله وسلم سبب للأمن من الضلالة. وعلى هذا فلا وجه لقولهم " حسبنا كتاب الله " بل لو لم يكن فائدة النص ليس إلا الأمن من الضلال لكان مطلوبا جدا ولا يصح تركه للاعتماد على أن الكتاب جامع لكل شئ كيف والناس محتاجون إلى السنة أشد احتياج مع كون الكتاب جامعا وذلك لأن الكتاب وإن كان جامعا إلا أنه لا يقدر كل أحد على الاستخراج منه، وما يمكن لهم استخراجه منه لا يقدر كل أحد على استخراجه منه على وجه الصواب. ولهذا فوض الله لرسوله البيان مع كون الكتاب جامعا فقال تعالى لنبيه: (لتبين للناس ما أنزل إليهم)، ولا شك أن استخراجه صلى الله عليه وآله من الكتاب على وجه الصواب يكفى ويغنى فى كونه نصا مطلوبا لنا لا سيما إذا أمرنا به. ولا سيما إذا وعد على ذلك الأمن من الضلال. فما معنى قول حسبنا كتاب الله بعد ذلك [۷] ، ويبدو أن السندى كان يرد على النووى فيما ادعاه. أدلى العديد من الباحثين بدلوهم. فقال بعضهم: إذا تأملت قول النبى صلى الله عليه وآله ": أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده، " وقوله ": إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى: أحدهم أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتى أهل بيتى" [۸] ، تعلم أن المرمى فى الحديث واحد. وقال البعض: من ألم بأطراف حديث " هجر رسول الله " يقطع بأنهم كانوا عالمين أنه إنما يريد أمر يكرهونه ولذا فاجاؤوه بهذه الكلمة وأكثروا عنده اللغو واللغط كما لا يخفى. وكان هناك إصرارا حتى لا يكتب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ما أراد أن يكتبه الأمر الذى جعل بعض نساء النبى يتحدثن من وراء حجاب [۹] ، وقالوا كما فى الحديث ": ائتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحاجته. فقال عمر: اسكتن فإنكن صواحبه إذا مرض عصرتن

[صفحه ۲۶۳]

أعينكم وإذا صح أخذتن بعنقه. فقال النبى: هن خير منكم [" ۱۰] .

وبقى سؤال: لماذا لم يصر النبى على كتابة الصحيفة. والإجابة: لأنهم جردوه من العصمة من الضلال بقولهم ": هجر " لقد أراد أن يكتب لهم كتابا يكونوا به فى مأمن الضلالة، فقالوا: الكلمة التى بها يصبح الكتاب مصدر ضلالة فلو كتب الكتاب بعد هذه الكلمة لشككك الذين فى قلوبهم مرض فى كل مكتوب بعد ذلك حتى كتاب الله. ولهذا قال لهم فيما رواه ابن عباس بعد أن قالوا أن نبى الله ليهجر: فقيل له ألا نأتيك بما طلبت، فقال صلى الله عليه وسلم: أو بعد ماذا؟!! [۱۱] ، وهناك سبب آخر. وهو أنه صلى الله عليه وآله قد علم من ربه أن الاختلاف واقع لا محالة. ولقد رآهم النبى يختلفون فى أمر أصدره داخل حجرته. فرجحوا بين قوله وبين قول عمر وكثر اللغط. والله تعالى أعلم ماذا كان سيحدث لو أصر النبى على كتابة الصحيفة أثناء هذا اللغو واللغط. ولقد اكتفى صلى الله عليه وسلم بما أمر به وحذر منه على امتدار رسالته. ودعنا نفترض أن الرسول قد كتب ما يريده. فهل تمنع الكتابة هذه الأنماط البشرية التى

يعلمها الله من الكف عن مخططاتها. كلا! لقد كانوا سيعملون فى وجود الصحيفة نفس علمهم فى عدم وجودها. والقرآن الكريم كشف عن أنماط بشرية إذا جاءهم الرسول بآية ظاهرة. قالوا فى ظهورها ما كانوا سيقولونه فى عدم ظهورها يقول تعالى: (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون - كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) [۱۲] ، بل إن القرآن كشف عن نمط بشرى أرادوا أن يبدلوا كلام الله ليكون وفقا لما يريدون قال تعالى: (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل) [۱۳] ، إن النبى أخذ بالأسباب وهو يعلم أنه لن يمكن من كتابة

[صفحه ۲۶۴]

الصحيفة. كما أمر من قبل يقتل ذو الثدية وهو يعلم أن هذا المارق لن يقتله الشيخان أبو بكر وعمر. وإن له يوما فى بطن الغيب وأخبر النبى بهذا اليوم. وأمر بقتل ابن أبى السرح وهو يعلم أن أحدا لن يقتله وأن عثمان بن عفان سيخفيه فى داره وهى نفس الدار التى حاصرها الذين ظلمهم بن أبى السرح. ونفى الحكم بن أبى العاص، وعندما طلب بعض الصحابة أن يقتلوه، رفض وأخبرهم أن فى صلبه ذرية الويل لأمته منهم واكتفى بنفيه حتى أعاده عثمان فى عهده. إن الأحداث تجرى بمشيئة الله. وما فعل النبى أمرا إلا بإذن من الله. وكل حدث يجرى كان من ورائه هدف ومن وراء الهدف حكمة. وعالم الفتن عالم عميق. وأعظم الفتن هى التى تأتى من مكان يستبعد الناس أن تأتى منه الفتن. وما فعله النبى من طرد الحكم وأمره بقتل ذى الثدية وغير ذلك يكون اختبارا لمن عاصر الحدث وتحذيرا لهم ولمن بعدهم. وعليه تأتى أحداث يترتب عليها امتحان. وهذا من حكمة الوجود. ألم تر أن الله تعالى قبل أن يخلق آدم أخبر سبحانه ملائكته أن آدم مخلوق ليمارس واجب الخلافة فى الأرض. ولكن آدم لم يهبطه الله إلى الأرض عقب خلقه مباشرة. وإنما كان بين الخلق وبين الهبوط أوامر ونواهى وأحداث ترتب عليها أن آدم هبط إلى الأرض باختياره وليس قهرا. والرسول حذر وأمر ونهى وفى علم الله أن الهبوط والاختلاف والافتراق واقع لا- محالة. لأنه سبحانه العليم المطلق بطبائع الناس. والله لا يظلم مثقال ذرة. وما من طريق إلا ودل على موطن الهداية فيه. وما ترك الشيطان طريقا للهداية إلا دق عليه أوتادا. ألم تر أن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام أن يبنى البيت الحرام وبعد فترة من الزمان أوحى الشيطان إلى أتباعه بزرع الأصنام حول الكعبة. فأصبح الناظر فى المكان يرى هذا وذاك فأصحاب الفطرة السوية يعرفون طريق الصواب وأصحاب النفوس المريضة يعكفون على كل صنم. إن النبى الأعظم أمر أن يأتوه بصحيفة ليكتب لهم كتابا لا يضلوا بعده. وكان هذا لهدف من ورائه حكمة. وكان أيضا مادة يختبر بها من عاصر الحادثة وشعاعا يهدى إلى الحق لكل باحث عن الحقيقة، وكم كنا نتمنى أن تكتب هذه

[صفحه ۲۶۵]

الصحيفة. نعم لقد كان العديد من الجيل الأول سوف يشكك فيها وربما شكك فيها عشرة أجيال أو أكثر. ولكن الشئ الأكيد أن هذا التشكيك ما كان ليكتب له الخلود وعلى أى حال لم تصلنا هذه الصحيفة لأنها لم تكتب. فدعونا نبحث ودعونا نبكى مع ابن عباس رضى الله عنهما. إن الرسول إذا أمر لا- ينبغى أن نناقش ماذا وراء هذا الأمر. لأن المخالفة لا تصب إلا فى وقت الفتن والعذاب قال تعالى: (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) [۱۴] ، قال المفسرون: دعاء الرسول هو دعوته الناس إلى أمر من الأمور كدعوتهم إلى الإيمان والعمل الصالح ودعوته ليشاورهم فى أمر جامع ودعوته إلى الصلاة جامعة وأمرهم بشئ فى أمر دنياهم أو أخراهم فكل ذلك دعاء ودعوة منه صلى الله عليه وآله وسلم. ويشهد بهذا المعنى قوله ": قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا، " وما يتلوه من تهديد فخالفى أمره صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا المعنى يناسب سياق الآية السابقة وهى قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله فإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله..) فهذه الآية تمدح الذين يلبون دعوته ويحضرون عنه ولا يفارقونه حتى يستأذنوه. أما هذه الآية فهى تذم وتهدد الذى يدعوهم فيتسللون عنه لواذا غير مهتمين بدعائه

ولا معتنین وقوله ": فلیحذر الذین یخالفون عن أمره أن تصبهم فتنة أو یصبهم عذاب ألیم، " تحذیر لمخالفی أمر النبی صلی الله علیه وآله وسلم ودعوته. من أن تصیبهم فتنة وهی البلیة أو یصیبهم عذاب ألیم. والقرآن الکریم کما حذر الذین یخالفون أوامر الرسول. حذر أیضا الذین لا یستجیبون إلی الله، فالرسول إذا دعاهم لما یحییهم ویجعلهم فی مأمن من الضلال. أن تصیبهم فتنة، قال تعالی: (یا أیها الذین آمنوا استجیبوا لله وللرسول إذا دعاکم لما یحییکم. واعلموا أن الله یحول بین المرء وقلبه وإنه إلیه تحشرون

[صفحه ۲۶۶]

واتقوا فتنة لا تصیب الذین ظلموا منکم خاصة واعلم أن الله شدید العقاب) [۱۵] ، قال المفسرون: لقد أحس سبحانه بالاستجابة لما یحیی الإنسان بإخراجه من مهبط الفناء والبوار. وأخبر أنه سبحانه المالک لکل القلوب. وهو أقرب إلی الناس من کل شئ. حتی یعلم المنافقین أنه أعلم بما فی قلوبهم منهم فیرتدعوا. وأحاط الجمیع علما بأنهم إلیه سیحشرون یوم القیامة، ویومئذ تظهر حقیقة ملکه لهم وسلطانه علیهم. ویومئذ له یغنی عنهم منه شئ. ثم حذرهم من فتنة. تختص بجماعة منهم. لکن السئ من أثرها یعم الجمیع. وقد أبهم الله تعالی أمر هذه الفتنة. ولم یعرفها بکمال اسمها ورسمها. غیر أن قوله تعالی فیما بعد: (لا تصبین الذین ظلموا منکم خاصة)، وقوله: (واعلموا إن الله شدید العقاب)، یوضحها بعض الإیضاح. وهو إنها اختلاف البعض من الأمة مع بعض منها فی أمر یعلم جمیعهم وجه الحق فیه. فیجمع البعض عن قبول الحق. ویشق طریقه بالظلم وهذا الظلم هو الذی أمر سبحانه باتقائه. لأنه یری سوء أثره إلی کافة المؤمنین وعامة الأمة. وقد تفطن بعض المفسرین بأن الآیة تحذر الأمة وتهددهم بفتنة تشمل عامتهم وتفرق جمعهم وتشتت شملهم. وهذه الفتنة حدثت أیام الصحابة ولیس فی أیام غیرهم. هم وحدهم المسؤولون عنها. فعن الزبیر بن العوام قال: لقد خوفنا الله بقوله: (واتقوا فتنة...) الآیة نحن مع رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم. وما ظننا أنا خصصنا بها خاصة [۱۶] وعنه أیضا قال: لقد قرأنا هذه الآیة زمانا وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنیون بها [۱۷] ، وقال السدی: نزلت فی أهل بدر خاصة فأصابتهم یوم الجمل فاقتتلوا [۱۸] ، ویوم الجمل ما جاء فجأة. ولکن کانت له مقدمات. وإتقاء هذه الفتنة یکون بالبحث عن المقدمات الحقیقیة الیقینیة لاستنتاج معلومات تصدیقیة واقعیة. فإذا تشابهت الأمور اعتبر آخرها أولها

[صفحه ۲۶۷]

فحسب البدایات تکون النهایات. وفی رأینا أن هذا الأسلوب هو الأمثل للکشف عن فتنة ترتدی ثیاب القداسة والخشوع وأول باب للبحث لاتقاء هذه الفتنة یجب أن یبدأ من قوله تعالی: (لا تصیبن الذین ظلموا) ولیکون السؤال: الذین ظلموا! ظلموا من؟ ثم یتم البحث عن المقیاس الذی علیه یظهر الظلم وحجمه وحرکة الظالم والمظلوم.

[۱] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۲۲۵:۲۲) وابن سعد (الطبقات ۲۴۳:۲) والطبری (تاریخ الأمم ۱۹۳:۴).

[۲] رواه البخاری ک المرض (الصحیح ۷:۴) ومسلم ط استنبول (الصحیح ۷۶:۵)، وأحمد (الفتح ۱۹۱:۲۲) وابن سعد بلفظ: وغموا رسول الله. فقال: قوموا عنی (الطبقات ۲۴۴:۲).

[۳] رواه البخاری (الصحیح ۳۲:۲).

[۴] کان اشتداد المرض یوم الخمیس وکانت الوفاة یوم الاثنین.

[۵] رواه البخاری له الوصایا (الصحیح ۱۷۸:۲) ومسلم (الصحیح ۷۶:۵)، وأحمد (الفتح الربانی ۲۲۴:۲۱).

[۶] لسان العرب ص ۴۶۱۹ وقال أبو حامد الغزالی فی کتابه سر العالمین أن القائل کان عمر، وقال هذا أیضا سبط ابن الجوزی فی تذکرة الخواص ص ۶۲.

[۷] السندی شرح البخاری (۳۳:۱) بتصرف.

[۸] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۶۳:۵).

[۹] القائلة هی أم المؤمنین زینب کما جاء فی روایة عند ابن سعد (الطبقات ۲۴۲:۲).

[۱۰] رواه الطبرانی فی الأوسط (کنز ۶۴۴:۵) وابن سعد (الطبقات ۲۴۴:۲).

[۱۱] رواه ابن سعد (الطبقات ۲۴۲:۲).

[۱۲] سورة الروم: الآیة ۵۸، ۵۹.

[۱۳] سورة الفتح: الآیة ۱۵.

[۱۴] سورة النور: الآیة ۶۳.

[۱۵] سورة الأنفال: الآیة ۲۵.

[۱۶] رواه ابن جریر (تفسیر ابن کثیر ۲۹۹:۲).

[۱۷] ابن کثیر فی التفسیر ۲۹۹:۲.

[۱۸] ابن کثیر فی التفسیر ۲۹۹:۲.

الامر العسکری الأخیر

ذکرنا أن النبی فی حجة الوداع أعلن علی الناس وفاته وذلک فی قوله:

"لعلی لا ألقاکم بعد عامکم هذا، " کما قال مثل ذلک فی غدیر خم. ویمکن أن تکون المساحة الزمنیة بین هذا الإعلام وبین حدوث الوفاة زاخرة بالاجتماعات وترتیب الأوراق بالنسبة لجمیع الأطراف. وشاء الله عز وجل أن یکون هناک حدث یستدعی تجهیز جیش لیصدر النبی قرارا ببعث هذا الجیش إلی مهمة خارج الدولة، ویکون هذا الجیش بقیادة أسامة بن زید وینتظم تحت هذه القیادة جمیع الأطراف وکبار الصحابة باستثناء علی بن أبی طالب. وکان وجود علی فی المدینة لهدف کما کان لوجوده فیها یوم تبوک هدف. وروی أصحاب التواریخ والسیر أن هذا الجیش أمره الرسول أن یسیر إلی مؤتة (وادی فی فلسطین) وروی البلاذری فی تاریخه وهو معروف بالثقة والضبط أن أبا بکر وعمر معا کانا فی جیش أسامة [۱] ، وذکر الواقدی فی کتاب المغازی أن أبا بکر لم یکن فی جیش أسامة وإنما کان عمر وأبو عبیدة وسعد بن أبی وقاص وسعید بن زید بن عمرو وقتادة بن النعمان وسلمة بن أسلم. وقال الواقدی إن أبا بکر استأذن رسول الله فأذن له فذهب إلی داره بالسنح وکان بها منزله حین تزوج ابنة خارجة. وبالجملة: اتفق جمیع المؤرخین علی أن عمر کان بالبعث وروی البلاذری وهو ثقة أن أبا بکر کان أیضا ضمن الجیش وقال غیره غیر ذلک.

[صفحه ۲۶۸]

وأمر الرسول صلی الله علیه وسلم بخروج الجیش. فلما أصبح یوم التاسع والعشرین من صفر ووجدهم متثاقلین خرج إلیهم فحضهم علی السیر وعقد اللواء لأسامة بیده تحریکا لحمیتهم، ثم قال: أغز باسم الله وفی سبیل الله وقاتل من کفر بالله [۲] ، فخرج أسامة بلوائه معقودا فدفعه إلی بریدة وعسکر بالجرف ثم تثاقلوا هناک وطعن قوم منهم فی تأمیر أسامة فبلغ ذلک رسول الله صلی الله علیه وسلم. وکان ذلک یوم السبت قبل وفاته بیومین. وبعد أن قالوا ": هجر " بیومین. فصعد المنبر فحمد الله وأثنی علیه ثم قال: أیها الناس. ما مقالة بلغنی عن بعضکم فی تأمیری أسامة ولئن طعنتم فی تأمیری أسامة لقد طعنتم فی تأمیری أباه من قبل [۳] ، وحضهم علی المبادرة إلی السیر، وروی الشهرستانی أن النبی قال ": جهزوا جیش أسامة لعن الله من تخلف عنه... [۴] فلحق الذین تثاقلوا من قبل بالجیش. ثم نقل إلیهم أن النبی قد ثقل علیه المرض فبدءوا فی التثاقل وعندما نقل إلیهم خبر الوفاة رجعوا إلی المدینة التی کانت ترجف بأهلها. إن حروب النبی صلی الله علیه وسلم لم تکن لدنیا وإنما لدین. وکان للدین فیها أقوی تعلق لما یعود علی الإسلام وأهله بعلو کلمة. وحروب النبی صلی الله علیه وسلم کانت بأمر من الله عز وجل. وکان الملائکة یشارکون فی معظمها لتثبیت الذین آمنوا ونصرة الفطرة. وتخاذل الناس فی الحروب حدث علی امتداد الرسالات السماویة فی أقوام الأنبیاء الذین أمروا بالقتال مع رسلهم. ولقد حدث تخاذل من البعض فی المعارک التی خاضها الرسول صلی الله علیه وسلم. حدث هذا یوم أحد ویوم حنین ویوم تبوک. أما التخاذل

عن بعث أسامهٔ فقد حمل ملامح إضافیهٔ وهی أنهم طعنوا فی تأمیر أسامهٔ علیهم. وهذا

[صفحه ۲۶۹]

الطعن فی حقیقهٔ الأمر موجه إلی رسول الله صلی الله علیه وسلم لا إلی أسامهٔ لأن الذی أمر أسامهٔ هو الرسول. ولهذا خطب النبی ولعن من تخلف عن البعث. وطعنهم فی تأمیر أسامهٔ أجمع علیه أهل السیر والأخبار وأرسلوا ذلک فی کتبهم إرسال المسلمات ورواه الإمام أحمد والبخاری وغیرهما. وتأمیر أسامهٔ والأمر بخروج الجیش ربما والله أعلم یکون من باب الأخذ بالأسباب. فالرسول قال لعلی کما فی الحدیث الصحیح أن الأمهٔ ستغدر به. وإن لهذا الغدر أسباب منها أنهم سیتذرعون بصغر سنه. لذا أمر أسامهٔ علی عظماء قریش وشیوخها. وکان أسامهٔ غلاما لم یبلغ ثمانی عشرهٔ سنهٔ وقتئذ. کی یبین لهم ولغیرهم بأن المؤمن یجب علیه أن یسمع ویطیع ولو وجد فی نفسه حرجا مما قضی النبی ویسلم تسلیما وتأمیر أسامهٔ علیهم إرغام لهم علی السمع له لیکون سمعهم لأسامهٔ مدخلا تتقبله نفوسهم بعد ذلک إذا وجدوا من هو أصغر منهم سنا علی رأس الخرقهٔ. ولکن القوم فطنوا إلی ذلک فقالوا القول الذی لا یبقی للقیادهٔ أی مزیهٔ أو فضل وإلا فما معنی الطعن فی إمارهٔ من أمره رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم. لقد أخلی النبی صلی الله علیه وسلم المدینهٔ قبل وفاته بتعبئهٔ شیوخ قریش تحت إمرهٔ أسامهٔ وإخلاء المدینهٔ من هذه القوهٔ فی هذا الوقت بالذات. فیه أنه علم من ربه أن المدینهٔ لن تهاجم من قبل الروم أو الفرس. فی هذه الفترهٔ. لذا أمر علیه الصلاهٔ والسلام بالبعث لعل البعث یکون فیه شفاء. قال تعالی: (الیوم یئس الذین کفروا من دینکم فلا تخشوهم واخشون الیوم أکملت لکم دینکم وأتممت علیکم نعمتی ورضیت لکم الإسلام دینا) [۵] ، قال المفسرون: تؤذن بأن دین المسلمین فی أمن من جههٔ الکفار مصون من الخطر المتوجه من قبلهم وأنه لا یتسرب إلیه شئ من طوارق الفساد والهلاک إلا من قبل المسلمین أنفسهم وإن ذلک إنما یکون بکفرهم بهذه النعمهٔ التامهٔ ورفضهم هذا الدین الکامل المرضی ویومئذ یسلبهم الله نعمته ویغیرها إلی النقمهٔ ویذیقهم لباس

[صفحه ۲۷۰]

الجوع والخوف، ومن أراد الوقوف علی مبلغ صدق هذه الآیهٔ فی ملحمتها المستفادهٔ من قوله: (فلا تخشوهم واخشون) فعلیه أن یتأمل فیما استقر علیه حال العالم الإسلامی الیوم. حیث انهدام الوحدهٔ الدینیهٔ وظهور الفرقهٔ ونفاذ القوهٔ وذهاب الشوکهٔ. ثم یرجع القهقری بتحلیل الحوادث التاریخیهٔ حتی یحصل علی أصول القضایا وأعراقها.

[۱] راجع (الطبقات الکبری (۲:۱۹۰، ۶۶، ۴:۶۶) والکامل ۲:۳۱۷ فی أنساب الأشراف ۱:۴۷۴، الیعقوبی ۲:۹۳، کنز العمال ۵:۳۱۲، تاریخ ابن عساکر ۲:۳۹۱، الفتح الربانی ۲۱:۲۲۲.

[۲] السیرهٔ الحلبیهٔ ۳:۲۳۴.

[۳] رواه البخاری ب مناقب المهاجرین (الصحیح ۲:۳۰۳) وأحمد (الفتح الربانی ۲۱:۲۲۲) الطبری (تاریخ الأمم ۳:۳۱۲)، ابن سعد (الطبقات ۲:۱۹۰).

[۴] الملل والنحل / الشهرستانی ۱:۲۳.

[۵] سورهٔ المائدهٔ: الآیهٔ ۳.

الامر الطبی الأخیر

بعد أمره صلی الله علیه وآله وسلم بأن یکتب لهم کتابا لا یضلون من

بعده. وأمر بأن یخرجوا فی بعث أسامهٔ. ومن علی فراش المرض. أمرهم أن لا یلدوه مهما شاهدوا علیه من علامات المرض، ومعنی اللد أن یجعلوا الدماء فی إحدی جانبی فیه. وکانوا یستعملون العود الهندی فی ذلک. فماذا حدث بعد هذا الأمر الصریح؟ روی البخاری عن عائشهٔ قالت: لددنا رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم فی مرضه فجعل یشیر لنا أن لا تلدونی، فقلنا: کراهیهٔ المریض

للدواء. فلما أفاق قال صلى الله عليه وآله وسلم: ألم أنهاكم أن تلدونى، قلنا: كراهية المريض للدواء، فقال: لا يبقى أحد فى البيت إلا لد. إلا العباس فإنه لم يشهد [۱] ، وفى رواية للإمام أحمد قالت: ثم سرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأفاق وعرف قد لد ووجد أثر اللدود فقال: ظننتم أن الله عز وجل سلطها على - يعنى ذات الجنب - ما كان الله يسلطها على، ثم قال: لا يبقى أحد فى البيت إلا لد إلا العباس فإنه لم يشهد [۲] ، وفى رواية عند ابن سعد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كنتم ترون أن الله يسلط على ذات الجنب ما كان الله ليجعل لها على سلطانا والذى نفسى بيده لا يبقى فى البيت أحد لا لد "... الحديث [۳] ، وقال السندى فى شرح البخارى: معنى قوله ": لا يبقى فى

[صفحه ۲۷۱]

البيت أحد إلا لد، " عقوبة لهم بتركهم امتثال نهيه عن ذلك [۴] ، وبقراءة متدبرة لهذا الحدث. نجد أن من فى البيت ظنوا أن النبى قد غلبه الوجع! لقد حكموا بما يرون ولم يمتثلوا لما قال. وبعد أن وقعوا فى المحذور أخبرهم بأن الله لم يجعل لهذا المرض سلطانا على رسول الله. ثم أخبرهم بعقوبة تستقيم مع ما فعلوه. ومعنى أنه صلى الله عليه وسلم يخبرهم بالعقوبة أنه لا ينطق عن الهوى. وأنه كان يتلقى من ربه ويخبر بالغيب حتى النفس الأخير. لقد تعاملوا معه على أنه قد غلبه الوجع، أو أنه رفض الدواء كراهية المريض للدواء، فضربتهم العقوبة. ترى هل يستحق الفريق الذين قالوا يوم الخميس أن النبى قد غلبه الوجع عقوبة على ما قالوا بعد أن تبين هنا أن الله لا يسلط على رسوله المرض الذى يجعله يهذى أو يهجر؟

[۱] رواه البخارى (الصحيح ۹۵:۳) ك كتاب المغازى ب مرض النبى.

[۲] رواه أحمد بسند جيد (الفتح الربانى ۲۳۹:۲۱) والطبرانى والحاكم (كنز العمال ۴۶۹:۱۱).

[۳] ابن سعد (الطبقات ۲۳۵:۳).

[۴] البخارى شرح السندى (۹۵:۳).

الوصايا

إذا سألنا: بماذا أوصى النبى صلى الله عليه وسلم قبل الموت؟

فستكون الإجابة على هذا السؤال غير تامة فى جميع الأحوال. ولقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ": ما من حق امرئ مسلم له شئ يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده [" ۱] ، ولقد روى فيما بعد أن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثوا عثمان بن عفان إلى أبى بكر يسأل لهن ميراثهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكانت المفاجأة عندما أخبرهم أبو بكر رضى الله عنه أن الرسول قال: لا نورث [" ۲] فمن

هذا يمكن القول أن النبى لم يكتب وصيته ويقول فيها هذا. وعلى أقل تقدير لم يخبر أهل بيته بذلك. فإذا تركنا الوصية فيما يتعلق بميراث أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ونظرنا إلى الوصية بالأمة. نجد روايات تحتاج إلى إيضاحات. وعلى سبيل المثال روى الإمام أحمد عن ابن عباس أن النبى

[صفحه ۲۷۲]

صلى الله عليه وسلم أوصى بثلاث وقال: اخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، " إلى هنا انتهت الوصايا. وأنت كما ترى من الوصايا ثلاث لكن الراوى أخبرنا بإثنين. وعندما جاء الدور على الوصية الثالثة قال الراوى: وسكت سعيد عن الثالثة. فلا أدرى أسكت عنها عمدا أو قال مرة أو نسيتها [" ۳] ، وهكذا حرمنا من الوصية الثالثة كما حرمنا من كتابة الصحيفة. أين الوصية بخلافة راشدة متكفلة بصلاح النفوس والأموال والأحكام والأخلاق والصالح العام. هل يجوز أن يخشى معاوية بن أبى سفيان أن يترك أمة محمد بعده بلا راعى لها ولا يخشى محمد ذلك؟ أيكون سلاطين الإسلام الذين ورثوا الخلافة من والد إلى ولد

أحرص على مصلحة الأمة من بنى الرحمة؟ إن هذه التساؤلات ليست جديدة. فلقد طرحت من قبل وبعد وفاة الرسول بزمن يسير. روى البخارى: سئل بن أبى أوفى: هل كان النبى صلى الله عليه وسلم أوصى؟ فقال: لا. فقيل: كيف كتب على الناس الوصية أو أمر بالوصية. قال: أوصى بكتاب الله [۴] ، وفى رواية الترمذى: فقيل: كيف كتبت الوصية وكيف أمر الناس ["... ۵] ، وقال فى تحفة الأحوذى: أى كيف يؤمر المسلمون بشئ ولا يفعله النبى. وبذلك يتم الاعتراض [۶] .

وبعد هذا التساؤل من الناس جاء التساؤل الأهم روى البخارى عن الأسود قال: ذكروا عن عائشة أن عليا كان وصيا. فقالت: متى أوصى إليه؟ وقد كنت مسندته إلى صدرى - أو حجرى - فدعا بالطست - وفى رواية: فبال فيها - فلقد أثخنت فى حجرى فما شعرت أنه قد مات فمتى أوصى؟ [۷] ، والجدير بالتسجيل

[صفحه ۲۷۳]

هنا أن وصية النبى صلى الله عليه وآله لعلى كانت متداولة أيام الصحابة. ألم تسمع قولهم فى محضر أم المؤمنين: إن عليا كان وصيا. وعلى أى حال فإن حديث الناس بالوصية لعلى لا خلاف عليه كما فى هذا الحديث. وإنما الخلاف فى رد أم المؤمنين على الذين قالوا بذلك. فلقد أخبرتهم أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم مات على صدرها وإنها آخر الناس عهدا به. وهذا القول تعارضه أحاديث صحيحة أخرى منها ما رواه الإمام أحمد عن أم المؤمنين أم سلمة، قالت: والذى أحلف به إن كان على بن أبى طالب لأقرب الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالت: عدنا رسول الله صلى الله عليه وآله غداة بعد غداة والنبى يقول: جاء على، جاء على - وفى رواية قالت فاطمة: كأنه بعثة فى حاجة - فجاء على، قالت أم سلمة: فظننت أن له إليه حاجة. فخرجنا من البيت فقعدنا وكنت أدناهم إلى الباب فأكب عليه على [۸] فجعل يساره ويناجيه [۹] ، ثم قبض صلى الله عليه وآله من يومه ذلك. وكان على أقرب الناس به عهدا [" ۱۰] .

وروى ابن سعد عن أبى الغطفان قال سألت ابن عباس: يا ابن عباس أرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله توفى ورأسه فى حجر أحد؟ قال ابن عباس: توفى وهو لمستند إلى صدر على بن أبى طالب. قلت: فإن عروة حدثنى عن عائشة أنها قالت: توفى رسول الله صلى الله عليه وآله بين سحرى ونحرى. فقال ابن عباس: أتعقل!! والله لتوفى رسول الله وإنه لمستند إلى صدر على وهو الذى غسله [۱۱] ، وسئل عمر بن الخطاب: ما كان ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: سل عليا، فقيل له: من غسله؟ قال: سل

[صفحه ۲۷۴]

عليا [۱۲] ، وعن حذيفة بن اليمان قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى مرضه الذى قبض فيه فرأيته يستند إلى على بن أبى طالب. فأردت أن أنحيه وأجلس مكانه فقلت: يا أبا الحسن ما أراك إلا تعبت فى ليلتك هذه فلو تنحيت فأعنتك. فقال النبى صلى الله عليه وآله: دعه فهو أحق بمكانه منك [" ۱۳] .

وكما ذكرنا لقد تحدث الناس فى عصر الصحابة عن وصية النبى لعلى. ولكن الوصايا وصلت إلينا مبتورة. وصحيح أن أم المؤمنين عائشة ذكرت أن النبى لم يوصى لعلى. وصحيح أيضا أن عليا كان آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وآله. وفى الحديث أنه مال برأسه على النبى وأن النبى حدثه سرا. وفى الحديث الصحيح. أن عليا قال: إن مما عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أن الأمة ستغدر بك بعدى [" ۱۴] .

ورحل النبى الأعظم صلى الله عليه وآله، رحل النبى الأمى العربى القرشى الهاشمى المكى المدنى ونشهد أنه أدى الرسالة ونصح الأمة وكشف الغمة وجاهد فى سبيل الله حتى آتاه اليقين فجزاه الله خير الجزاء ونسأله سبحانه أن يحشرنا تحت لوائه يوم القيامة والمؤمنين أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

[صفحه ۲۷۷]

[۱] رواه الترمذى وصححه (الجامع ۴:۴۳۲).

[۲] سنبین ذلک فی حینه.

[۳] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۲۲۴:۲۱) وقال فی الفتح رواه الشیخان.

[۴] رواه البخاری ک الوصایا (الصحیح ۱۲۵:۲) ومسلم (الصحیح ۷۴:۵ ط إسطنبول).

[۵] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۴۳۲:۴).

[۶] تحفهٔ الأحوذی (۳۰۹:۶).

[۷] رواه البخاری ک الوصایا ۱۲۵:۲، کتاب المغازی ۹۵:۳، ابن سعد (الطبقات ۲۶۱:۲).

[۸] أی مال برأسه علیه.

[۹] أی یحدثه سرا.

[۱۰] رواه أحمد وأبو یعلی والطبرانی وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح غیر أم موسی وهی ثقهٔ (الزوائد ۱۱۲:۹)، ورواه الحاکم وصححه وأقره الذهبی (المستدرک ۱۳۹:۳)، وأورده ابن کثیر فی البدایهٔ ۳۶۰:۷.

[۱۱] ابن سعد (الطبقات ۲۶۳:۲).

[۱۲] ابن سعد (الطبقات ۲۶۳:۲).

[۱۳] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۲۲۸:۱۶.

[۱۴] رواه البیهقی بسند صحیح (کنز العمال ۲۹۷:۱۱) ابن کثیر فی البدایهٔ (۲۱۸:۶).

الطریق إلی الفتن

الاختیار أضواء علی سقیفهٔ بنی ساعدهٔ

بعد وفاهٔ النبی صلی الله علیه وسلم أرجفت المدینهٔ بأهلها. ونزل إلیها
الذین کانوا فی بعث أسامهٔ. وتوجه عمر بن الخطاب رضی الله عنه إلی دار النبی وأعلن البیان الأول وجاء فیه " أن النبی لم یمت وإنه ذهب إلی ربه کما ذهب موسی فغاب عن قومه أربعین لیلهٔ ثم رجع بعد أن قیل قد مات والله لیرجعن رسول الله صلی الله علیه وسلم فلیقطعن أیدی رجال وأرجلهم یزعمون أن رسول الله مات [" ۱] ، وفی روایهٔ البخاری عن عائشهٔ قالت قال عمر: والله ما مات رسول الله [" ۲] ، والبیان بهذه الصورهٔ فی حاجهٔ إلی دقهٔ. فکان یکفی الفاروق أن ینظر فی بیت النبی أو یسأل أم المؤمنین حفصهٔ عن الحقیقهٔ. ثم یلقی البیان علی خلفیهٔ من الدقهٔ. ولقد فصل الفاروق رضی الله عنه الأسباب التی دعته إلی القول بهذا، فقال فیما رواه البخاری: والله ما کان یقع فی نفسی إلا ذاک ولیبعثنه الله فلیقطعن أیدی رجال وأرجلهم [" ۳] ، وفی تاریخ الطبری قال: والله إن حملنی علی ذلک إلا أننی کنت أقرأ هذه الآیهٔ: (وکذلک جعلناکم أمهٔ وسطا لتکونوا شهداء علی الناس ویکون الرسول علیکم شهیدا)، فوالله إنی کنت لأظن

[صفحه ۲۷۸]

أن رسول الله سیبقی فی أمته حتی یشهد علیها بآخر أعمالها فإنه للذی حملنی علی أن قلت ما قلت [" ۴] ، إن من أعجب الأشیاء أن یقول الفاروق رضی الله عنه ذلک. کیف، وهو القائل یوم الخمیس: حسبنا کتاب الله! والله تعالی یقول لرسوله: (إنک میت وإنهم میتون) [۵] ، والرسول نفسه أعلن علی الملأ أنه أوشک أن یدعی فیجیب والناس علموا وتناقلوا فیما بینهم أن آخر حج للنبی کان حجهٔ الوداع، روی البخاری عن ابن عمر قال: هذا یوم الحج الأکبر فطفق النبی صلی الله علیه وآله یقول اللهم أشهد وودع الناس فقالوا: هذه حجهٔ الوداع [۶] .

إن ما نسب إلى الفاروق فى تأويل هـذه الآيات لا تستريـح النفس إليه، فعمر كان أجل قـدرا من أن يعتقد ما ظهر عنه فى هذه الواقعة. لكنه لما علم بالوفاة خاف من وقوع فتنة فى الإمامة وخاف حدوث ردة. فاقتضت المصـلحة تسكين الناس بأن أظهر ما أظهره من كون أن النبى لم يمت. حتى يأتى أبو بكر وكبار الصـحابة ويقرروا ماذا سـيفعلون لمصـلحة الأمة... وجاء أبو بكر وكان بالسنح وكشف عن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم وعندما علم بالحقيقة قال لعمر الذى كان يحلف بالله أن النبى لم يمت: أيها الحالف على رسلك [۷] ، ثم أعلن البيان الثانى وقال: ألا من كان يعبد محمدا صلى الله عليه وسلم فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت، وقـال: (وإنك ميت وإنهم ميتون)، وقال: (وما محمـد إلا رسول قـد خلت من قبله الرسل، فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) [۸] ، وروى ابن سعد بن عمر عندما سمع الآية قال لأبى بكر ": هذا فى كتاب الله؟! قال: نعم، فقال: أيها الناس هذا أبو

[صفحه ۲۷۹]

بكر وذو شيبة المسلمين فبايعون [" ۹] ، وكانت هذه أول صيحة من المهاجرين تنادى بأبى بكر.

[۱] الطبرى (۱۹۷:۳).

[۲] البخارى ک بدء الخلق (الصحيح ۲۹۱:۲).

[۳] البخارى (الصحيح ۲۹۱:۲) ک بدء الخلق.

[۴] الطبرى (۲۰۴:۳).

[۵] سورة الزمر: الآية ۳۰.

[۶] البخارى (الصحيح ۳۰۰:۱) ک الحج.

[۷] البخارى ک بدء الخلق (الصحيح ۲۹۱:۲).

[۸] البخارى ک بدء الخلق (الصحيح ۲۹۱:۲).

[۹] الطبقات الكبرى ۲۶۷:۲.

الطريق إلى السقيفة

إن دعوة الفاروق لمبايعة أبى بكر يمكن أن تفهم على أرضية الرأى وليس

على أرضـية النص. والصـحابة على أرضـية الرأى لهم أصول عديدة. ولقد أطبقت الصحابة اطباقا واحدا على ترک كثير من النصوص لما رأوا المصـلحة فى ذلک. كإسـقاطهم سم ذوى القربى وإسـقاط سـهم المؤلفة قلوبهم. وفيهما نصوصا واضحة وصريحة بكتاب الله، وكـان ذلـک بعـد وفـاة الرسول صـلى الله عليه وآله وسـلم. وفى حيـاته أمرهم بـالخروج فى بعث أسامـة لكنهم رأوا أن عـدم الخروج مصـلحة للدولـة وللملـة وحفظ للبيضـة ودفعا للفتنـة. والأمثلـة فى ذلک كثيرة. ولما كانت الحركـة بعد وفاة النبى تدور بساعد الفاروق رضـى الله عنه. فإننا نسـجل هنا أن الفاروق كانت له اجتهادات وآراء واعتراضات فى زمن الرسول. إذا نظرنا فيها لا يمكن أن ننكر منه أنه يبايع لأبى بكر لمصـلحة رآها ويعدل عن النص. ومن الثابت أنه أنكر مرارا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمورا اعتمدها. منها إنكاره صـلاة رسول الله على عبـد الله بن أبى. وذلک فيما رواه الإمام البخارى أن عمر قال للنبى ": تصـلى عليه وهو منافق وقـد نهاک الله أن تستغفر له [" ۱] ، وفى رواية عند الترمذى " فلما أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يصلى جذبه عمر وقال: أليس قد نهى الله أن تصلى على المنافقين [" ۲] ، وفى رواية عنده أيضا قال له النبى ": أخر عنى يا عمر إنى خيرت فاخترت [" ۳] .

واعترض على قسـمة قسـمها النبى، روى مسلم عن عمر بن الخطاب قال: قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما فقلت: والله يا رسول الله لغير

[صفحه ۲۸۰]

هؤلاء كان أحق به منهم فقال النبى: إنهم خيرونى أن يسألونى بالفحش أو يبخلون فلست بباخل [" ۴] ، أى: الجأونى إلى السؤال بالفحش أو نسبتى إلى البخل. واعترض على صلح الحديبية وقال للنبى بكل صراحة: ألست نبى الله حقا؟ ولم يعترض عليه النبى. روى البخارى قال عمر: فأتيت نبى الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ألست نبى الله حقا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟ قال: إنى رسول الله! ولست أعصيه وهو ناصرى، قلت: أو ليست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟ قال: بلى فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به. ثم قال عمر فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقا!!؟، قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل، قال: بلى، قلت: فلنعطى الدنية فى ديننا إذا. فقال أبو بكر: أيها الرجل! إنه لرسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه!! فوالله إنه على الحق [۵] .

وفى روايات عديدة أن عمر بن الخطاب عندما تحدث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. رجع متغيظا رغم ردود النبى عليه. وذلك من قوة فقهه وعظيم بصيرته رضى الله عنه، روى البخارى ": قال رسول الله يا ابن الخطاب إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدا. فرجع متغيظا فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق "... الحديث [۶] .

وأرضية الرأى وقف عليها كثير من الصحابة. وبعد الرسول عملوا بمقتضى ما يغلب فى ظنونهم من المصلحة. ولم يقفوا مع موارد النصوص حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعد فرجح كثير منهم القياس على النص. والذى يمكن أن نقوله وفقا لقراءتنا للأحداث. أن العديد من كبار الصحابة تبينوا أن عليا لن تجتمع

[صفحه ۲۸۱]

عليه العرب إما لأنه وترها وسفك دماءها وإما للحسد أو البغض وإما لاستحداثهم سنة أو للخوف من شدة وطأته وشدته فى دين الله أو لدفع ضرر يخبئه لهم الغيب. وإما كراهة اجتماع النبوة والخلافة فى بيت واحد. ولقد تبينوا خطورة الموقف بعد غزوة تبوك وهى الغزوة التى شهدت محاولة اغتيال النبى صلى الله عليه وسلم. ووفقا لهذه القراءة للأحداث كان كبار الصحابة أمام خيارين: الأول: أن يعملوا بالنص وينصبوا عليا، ثم تجرى بحور الدماء على أيدى الذين حق عليهم القول فهم لا يؤمنون بجميع دوائرهم وتياراتهم، ويترتب على ذلك تقدم الجاهلية والارتداد عن الإسلام. الثانى: أن يرجحوا المصلحة وينصبوا لشيخا مجربا للأمور لا يحسده أحد ولا يحقد عليه أحد ولا يبغضه أحد. فأيهما أصلح للدين؟ الوقوف مع النص الذى يؤدى إلى ارتداد الخلق ورجوعهم إلى الأصنام والجاهلية. أم العمل بمقتضى الأصلح واستبقاء الإسلام واستدامة العمل بالدين وإن كان فيه مخالفة النص؟ قد يقول قائل: إن نفسى لا تسامحنى أن أنسب إلى الصحابة عصيان النبى ودفع النص. وهذا شعور طيب. ولكن هناك نصوص صريحة ثم مصادرتها وهى فى كتاب الله ومن ذلك سهم المؤلفة قلوبهم وسهم ذى القربى وسيأتى الحديث عنهما فى حينه. ثم أن نفسى أيضا لا تسامحنى أن أنسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم إهمال أمر الإمامة وأن يترك الناس فى فوضى وهو صلى الله عليه وسلم ما كان يغيب عن المدينة إلا ويؤمر عليها أميرا وهو حى ليس بالبعيد عنها فكيف لا يؤمر وهو ميت لا يقدر على استدراك ما يحدث؟ والخلاصة أقر كبار الصحابة هذا الرأى لحقن الدماء ولسير الدعوة. وحقن الدماء يدخل تحت ظلها على بن أبى طالب وأهل بيته. ولهذا لم يتعرض إليه أحد بمكروه وكان هو وأولاده على امتداد عصور الخلفاء الثلاثة يعامل بكل تقدير واحترام. ووفقا لما ذكرنا بايع عمر لأبى بكر رضى الله عنه... وأبو بكر

[صفحه ۲۸۲]

ما كان يريد قيادة وإنما كان يخاف الفتنة وسنذكر أقواله فى حينها. وكان من قبيلة لا تزاحم غيرها من القبائل على طلب رأس قريش. ولم يكن فى نسبه ما يشمخ به على الناس [۷] وكان منطقة توازن يميل إليه الكثير من الصحابة ولا

يفرق بين هذا وذاك حتى أبو سفيان كان أبو بكر يكن له كل تقدير. ومعاملة كهذه تشهد بأنه كان ماهرا فى قيادة السفينة. روى الإمام مسلم عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وهيب وبلال فى نفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله

مأخـذها. فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم. فأتى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فأخبره. فقال النبى: يا أبا بكر لعلك أغضـبتهم لئن كنت أغضـبتهم لقـد أغضـبت ربـك. فآتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضـبتكم؟ قالوا: لا يغفر الله لك يا أخى [٨] أنها أرضية من الحب. لم يتكبر على الضعفاء وإنما ذهب إليهم وطيب خاطرهم، قال النووى فى الحديث: هذه فضيلة ظاهرة لسلمان ورفقته هؤلاء [٩] ، ولم يختلف الفاروق رضـى الله عنه عن أبى بكر فهو من قبيلة لا تصارع قريشا على متاع ولم يكن عندها ما تشـمخ به على القبائل كان منزله بالعوالى فى بنى أمية [١٠] ، وكان يقدر أبا سفيان وأولاده، ذكر معاوية يوما عنده فقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها [١١] ، فهذا كله يحفظ التوازن لتسير الدولة وفقا لمصلحة الأمة. قد يقول قال: ما هو الدليل على أن كبار الصحابة أخذوا بمصلحة الأمة فى أمر الخلافـة ودفعهم النص؟ نقول: أما النصوص الخاصـة بالولايـة فقد قدمناها على امتداد هذا الكتاب وأما أخذهم بمصـلحة الأمة فلقد روى ابن خزيمة فى صحيحه والإمام أحمد بسند صحيح عن أبى رافع قال: لما استخلف الناس

[صفحه ۲۸۳]

أبـا بكر. قلت: صـاحبى الـذى أمرنى أن لاـ أتـأمر على رجلين. فـارتحلت فـانتهيت إلى المدينـة فتعرضت لأبى بكر فقلت له: يا أبا بكر أتعرفنى؟ قال: نعم، قلت: أتـذكر شـيئا قلته لى. أن لا أتأمر على رجلين وقـد وليت أمر الأمـة، فقال: إن رسول الله قبض والناس حـديث عهـد كفر فخفت عليهم أن يرتـدوا وأن يختلفوا فـدخلت فيها وأنا كاره ولم يزل بى أصـحابى. فلم يزل يعتذر حتى عذرته [١٢] ، وفى رواية الإمام أحمد قال: فبايعونى لذلك وقبلتها منهم وتخوفت أن تكون فتنة يكون بعدها ردة [١٣] .

وروى الطبرى أن عمر قـال لابن عباس: أتـدرى ما منع قومكم منهم بعـد محمـد؟ قال ابن عباس فكرهت أن أجيبه فقلت: إن لم أكن أدرى فـأمير المؤمنين يـدرينى فقـال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتتبجحوا على قومكم بجحا بجحا فاختـارت قريش لنفسها فأصابت [١٤] ، وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز فى كتابه السقيفة أن عمر قال لابن عباس: ما أظن صاحبك إلا مظلوما. قال ابن عباس فقلت فى نفسـى: والله لا يسـبقنى بها فقلت: يا أمير المؤمنين فاردد إليه ظلامته. فانتزع يـده من يـدى ثم مر يهمهم ساعـة ثم وقف فلحقته فقال لى: يا ابن عباس ما أظن القوم منعهم من صاحبك إلا أنهم استصـغروه. قال ابن عباس فقلت فى نفسى: هذه شر من الأولى، فقلت: والله ما استصغره الله حين أمره أن يأخذ سورة براءة من أبى بكر [١٥] وروى أحمد بن

أبى الطـاهر صـاحب كتـاب تاريـخ بغـداد فى كتابه مسـندا عن ابن عباس قال: قال لى عمر [١٦] مـن أين جئت يـا عبـد الله؟ قلت: من المسـجد. قـال: كيف خلفت ابن عمـك؟ فظننته يعنى عبـد الله بن جعفر. قلت: خلفته يلعب مع أترابه، قـال: لم أعن ذلـك، إنما عنيت عظيمكم أهل البيت، قلت: خلفته يمتح

[صفحه ۲۸۴]

بالغرب [١٧] على نخيلاـت من فلان، وهو يقرأ القرآن قال: يا عبـد الله، عليك دماء البـدن إن كتمتنيها! هل بقى فى نفسه شـئ من أمر الخلافـة. قلت: نعم، قال: أيزعم أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم نص عليه؟ قلت: نعم وأزيدك. سألت أبى عما يدعيه فقال: صدق. فقال عمر: لقد كان من رسول الله صـلى الله عليه وآله وسـلم فى أمره ذرو [١٨] من قول لا يثبت حجـة ولا يقطع عذرا. ولقد كان يربع فى أمره وقتا ما. ولقد أراد فى مرضه أن يصـرح باسـمه فمنعت من ذلك إشفاقا وحيطة على الإسلام، لا ورب هذه البنية لا تجتمع عليه قريش أبـدا. ولو وليهـا لاـنتقضت عليه العرب من أقطارهـا. فعلم رسول الله إنى علمت ما فى نفسه. فأمسك وأبى الله إلا إمضاء ما ختم [١٩] .

ونعود إلى حيث بـدأنا. فعنـدما أعلن عن وفـاة النـبى صـلى الله عليه وسـلم. وهتف عمر بمبايعـة أبى بكر علمت الأنصـار بمـا عزم عليه المهاجرون. فأتوا بسعد بن عبادة ليبايعوه. ويقتضى هذا أن نلقى الضوء على الأنصار.

[١] رواه البخارى فى تفسير سورة براءة (الصحيح ٣:١٣٧) ومسلم (الصحيح ١٥:١٦٧).

[٢] رواه الترمذى وصححه (الجامع ٥:٢٨٠).

[۳] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۲۷۹:۵).

[۴] رواه مسلم (الصحیح ۱۴۶:۴).

[۵] رواه البخاری کتاب الشروط باب الجهاد والمصالحة (الصحیح ۱۲۲:۲).

[۶] رواه البخاری تفسیر سورة الفتح (۱۹۰:۳).

[۷] الإسلام لا یقیم وزنا للقبائل من حیث نسبها. ولکننا طرحنا النسب هنا نظرا للقبائلیة التی توهجت بعد رسول الله وبقیت زمنا طویلا.

[۸] رواه مسلم (الصحیح ۶۶:۱۶ فی فضل سلمان وبلال وصهیب).

[۹] مسلم شرح النووی (۶۶:۱۶).

[۱۰] الترمذی (الجامع ۴۲۰:۵).

[۱۱] رواه الدیلمی (کنز العمال ۵۸۷:۱۳) وابن کثیر فی البدایة (۱۲۴:۸).

[۱۲] رواه ابن خزیمة فی صحیحه والبغوی وابن رهویة (کنز ۵۸۶:۵).

[۱۳] رواه أحمد بسند صحیح (الفتح الربانی ۶۱:۲۳).

[۱۴] الطبری (تاریخ الأمم ۳۱:۵).

[۱۵] ابن أبی الحدید ۲۹۰:۲.

[۱۶] کان لقاء عمر بابن عباس فی أوائل خلافة عمر بالمسجد.

[۱۷] الغرب / الدلو.

[۱۸] ذرو / طرف.

[۱۹] ابن أبی الحدید ۷۶۵:۳.

اضواء علی الأنصار

الأنصار هم القوة الضاربة فی جیش الرسول الأعظم صلی الله علیه وسلم وأطاحت سیوفهم برقاب العدید من أهل مکة. وکان الطلقاء من أهل مکة یحملون أحقادا للأنصار. وهذه الأحقاد بلغت ذروتها یوم الحرة عندما اجتاحت خیول یزید بن معاویة المدینة وبایعه أهل المدینة علی أنهم عبید له. والنبی صلی الله علیه وسلم وضع الأنصار مع علی بن أبی طالب علی أرضیة واحدة هی أرضیة الإیمان. روی مسلم عن علی أنه قال: إنه لعهد النبی الأمی صلی الله علیه وسلم أن لا یحبنی إلا مؤمن ولا یبغضنی إلا منافق [۱] ، وفی الأنصار روی مسلم عن البراء قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم فی الأنصار

[صفحه ۲۸۵]

لا یحبهم إلا مؤمن ولا یبغضهم إلا منافق من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله [۲] ، وروی مسلم عن أبی هریرة قال: قال رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم: لا یبغض الأنصار جل یؤمن بالله والیوم الآخر [۳] ، وروی مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلی الله علیه وآله ": حب الأنصار آیة الإیمان وبغضهم آیة النفاق [" ۴] .

ولأن علیا والأنصار علی أرضیة واحدة کان أبو سعید الخدری یقول ": إنا کنا لنعرف المنافقین نحن معشر الأنصار ببغضهم علی بن أبی طالب [" ۵] ، وقال النووی فی شرح مسلم: إن من عرف مرتبة الأنصار وما کان منهم فی نصرة دین الله والسعی فی إظهاره. وعرف من علی بن أبی طالب قربه من رسول الله وحب النبی له، وما کان منه فی نصرة الإسلام، ثم أحب الأنصار وعلیا کان ذلک من دلائل صحة إیمانه، ومن أبغضهم کان ضد ذلک واستدل به علی نفاقه وفساد سریرته [۶] .

والنظر إلى الأنصار لا ينبغى أن يحمل على أن جميع الأنصار فى دائرة الإيمان. لأن كل قاعدة بها وتد للنفاق، قال تعالى: (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) [۷] ، والمعنى وممن حولكم أو حول المدينة من الأعراب الساكنين فى البوادى منافقون مرقوا على النفاق ومن أهل المدينة أيضا منافقون معتادون على النفاق لا تعلمهم أنت يا محمد نحن نعلمهم - لذا فدائرة الإيمان على أرضية الأنصار لا ترى إلا على طريق على بن أبى طالب. فعلى إنسان فطرى رباه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وغرس فيه القيادة كما غرس صلى الله عليه وآله فى

[صفحه ۲۸۶]

الأنصار الجندية. ولهذا ترى الجندية الحقة على صفحة القيادة الحقة. وكان النبى صلى الله عليه وسلم يرتب الأنصار على درجات، روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال ": خير دور الأنصار دور بنى النجار ثم دور بنى الأشهل ثم بنى الحرث بن الخزرج ثم بنى ساعدة وفى كل دور الأنصار خير [" ۸] ، وعندما علم سعد بن عبادة بهذا الترتيب حيث بنى ساعدة التى اشتهرت بسقيفتها رابع أربع قال: خلفنا رسول الله فكنا آخر الأربع. اسرجوا لى حمارى أتى صلى الله عليه وسلم فقال له ابن أخيه: أتذهب لترد على رسول الله صلى الله عليه وآله أعلم. أوليس حسبك أن تكون رابع أربع فرجع وقال: الله ورسوله أعلم [۹] .

ومن الغريب أن فى صحيح البخارى حديثا يتهم سعد بن عبادة بالنفاق. والحديث روته أم المؤمنين عائشة فى قصة الإفك، وفيه ": إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من يعذرنى من رجل بلغنى أذاه فى أهلى. فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلى إلا معى. فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقال سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلا صالحا!! ولكن احتملته الحمية فقال: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك. فقام أسيد ابن الحضير فقال: كذبت لعمر الله والله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا. ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فنزل فخفضهم حتى سكتوا وسكت [" ۱۰] فسعد بن عبادة الذى زاحم المهاجرين فى البيعة وطلبها للأنصار كما طلبها

[صفحه ۲۸۷]

المهاجرين لأنفسهم متهم فى صحيح البخارى بالنفاق وبالدفاع عن المنافقين بعد أن كان رجلا صالحا. وحدث هذا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[۱] رواه مسلم (۶۱:۱ ط التحرير).

[۲] رواه مسلم (۶۰:۱ ط التحرير).

[۳] رواه مسلم (۶۰:۱ ط التحرير).

[۴] رواه مسلم (۶۰:۱ ط التحرير).

[۵] رواه الترمذى (الجامع ۶۳۵:۵) ورواه الخطيب عن أبى ذر بلفظ آخر (كنز ۱۰۶:۱۳).

[۶] مسلم شرح النووى (۶۴:۲).

[۷] سورة التوبة: الآية ۱۰۱.

[۸] رواه مسلم فى الصحيح (۷۰:۱۶) والترمذى (الجامع ۷۲۰:۵) البخارى (الصحيح ۳۱۱:۴).

[۹] رواه مسلم (الصحيح ۱۷۵:۶).

[۱۰] رواه البخارى باب حديث الإفك من كتاب الشهادات (الصحيح ۱۰۴:۲).

صراع داخل السقيفة

كان على بن أبى طالب يغسل النبى الأكرم صلى الله عليه وسلم.

وكان المهاجرون يتناقشون فى الخلافة، وعندما علم الأنصار بأن قريشا عازمة على إبعاد على بن أبى طالب وليس بالضرورة أن يكون هذا العلم قد جاء بعد وفاة الرسول لأن الرسول أخبر بما هو كائن بعده. علاوة على أن الأنصار يعرفون من يحبهم. اجتمع الأنصار وأرادوا إبرام الأمر فيما بينهم على أن يكون الخليفة منهم اعتقادا منهم بأن الإسلام قام بحد سيوفهم وأن المهاجرين عيال عليهم. وحملوا سعد بن عبادة وكان مريضا إلى سقيفة بنى ساعدة. فخطبهم ودعاهم إلى إعطائه الرياسة والخلافة فأجابوه. ثم تكلموا فيما بينهم فقالوا: فإن أبى المهاجرون وقالوا: نحن أولياؤه! فقال قوم من الأنصار نقول: منا أمير ومنكم أمير فقال سعد: هذا أول الوهن. وكان للمهاجرين عيون على الأنصار فانطلق عويم بن ساعدة وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد آخا بين عويم وبين عمر [۱] ، وجاء إلى عمر ومعه معن بن عدى وأخبراه بما حدث من الأنصار. فأرسل عمر إلى أبى بكر أن أخرج فقد حدث أمر لا بد أن تحضره. فخرج فأعلمه بالخبر، فمضينا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة. وكان عمر على امتداد الطريق يبحث عن إجابات مقنعة يقنع بها الأنصار. فقد كان يخشى ردة فعل الأنصار وكان يخشى أن لا يوافقوا على إبعاد على بن أبى طالب نظرا للصالح العام. وعندما وصلوا إلى السقيفة. روى البخارى أن عمر أراد أن يتكلم. فأسكته أبو بكر. وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا إنى قد هيأت كلاما قد أعجبنى خشيت أن لا يبلغه أبو بكر [۲] ، أى أنه جهز كلاما وهو فى الطريق خشى أن لا يقول أبو بكر مثله. فتكلم أبو بكر

[صفحه ۲۸۸]

وقال: نحن الأمراء وأنتم الوزراء فقال الحباب بن المنذر: لا- والله لا- نفعل منا أمير ومنهم أمير. فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء [۳] .

وارتفعت الأصوات وكثر اللغط، وتكلم عمر وقال: والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم [۴] ، فرد عليه الحباب فقال: يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر. فإن أبوا عليكم ما سألتموهم فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور. فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين. أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة. فقال عمر: إذا يقتلك الله، قال الحباب: بل إياك يقتل [۵] ، وقال أبو بكر: إنى قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر أو أبو عبيدة [۶] ، وانتهى الأمر بأن قال عمر: أبسط يدك يا أبا بكر فلا بايعك. فقال أبو بكر: بل أنت يا عمر فأنت أقوى لها منى ففتح عمر يد أبى بكر وقال: إن لك قوتى مع قوتك [۷] ، إلى هذا الحد كان الأنصار يصرن على موقفهم حتى قام بشير بن سعيد الخزرجى وكان حاسدا لسعد وقال: يا معشر الأنصار. إلا أن محمدا من قريش وقومه أولى به. وبايع، فناداه الحباب بن المنذر: يا بشير بن سعد عققت عقاق ما أحوجك إلى ما صنعت أنفست على ابن عمك الإمارة [۸] ، فلما رأت الأوس ما صنع بشير. قام أسيد بن الحضير - قال صاحب الإصابة: كان أبو بكر لا يقدم عليه أحد من الأنصار. ولما مات أسيد وفى عمر دينه [۹] - وقال: قوموا فبايعوا أبا بكر. فقاموا إليه فبايعوه، فأنكس على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما

[صفحه ۲۸۹]

كانوا أجمعوا له من أمرهم [۱۰] .

وحدث هرج وكادوا يطؤن سعد بن عبادة. فقال ناس من أصحاب سعد: اتقوا سعد لا تطؤه. فقال عمر: اقتلوه قتله الله [۱۱] ثم قام على رأسه وقال: لقد

هممت أن أطأك حتى تندر عضوك. فأخذ سعد بلحية عمر، فقال عمر: والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفى فيك واضحة [۱۲] ، فقال سعد لعمر: أما والله لو أن بى قوة ما أقوى على النهوض - وكان مريضا - لسمعت منى فى أقطارها وسككها زئيرا يحجزك وأصحابك. أما والله إذا لألحقتك بقوم كنت فيهم تابعا غير متبوع. ثم قال: احملونى من هذا المكان. فحملوه فأدخلوه داره. وترك

أياما. ثم بعث إليه أن أقبل فبايع. فقال: أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبلى. وأخضب سنان رمحى وأضربكم بسيفى ما ملكته يدى وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى. فلا أفعل وأيم الله. لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى وأعلم ما حسابى. فلما أتى أبو بكر ذلك. قال له عمر: لا تدعه حتى يبايع فقال له بشير بن سعد: أنه قد لج وأبى. وليس بمبايعكم حتى يقتل. وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته فاتركوه فليس تركه بضاركم. إنما هو رجل واحد. فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد. وكان سعد لا يصلى بصلاتهم ولا يجمع معهم ولا يحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم [۱۳]، فلم يزل كذلك حتى خلافة عمر بن الخطاب. فقال لعمر: كان صاحبك أحب إلينا وقد أصبحت والله كارها لجوارك. وأنا متحول إلى جوار من هو خير منك. وخرج سعد مهاجرا إلى الشام. وفى حوران قتل سعد [۱۴] وقالوا لناس يومئذ: لقد قتله الجن.

[صفحه ۲۹۰]

وبعد أكان يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الصراع والتهديد بإجلاء هؤلاء وقتل هؤلاء؟ إن ما ذكرناه اتفق عليه أصحاب الحديث والتراجم والسير واعتبروه من المسلمات. فهل يجوز على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يترك أمته ليكون الحال كما رأينا وهو الذى قال إنى تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها سواء. لقد وقف كل طرف يسأل الإمارة. ولقد روى الإمام مسلم أن رجلين دخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال أحدهما: يا رسول الله أمرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل. وقال الآخر مثل ذلك. فقال النبى: أنا والله لا تولى هذا العمل أحدا سأله ولا أحدا أحرص عليه [۱۵]، لقد طلب كل منهما بعض ما ولاه الله. ولكن هيهات. إن الأمر لله ورسوله والرسول قد يشاور أصحابه فى أمر ما ولكن فى النهاية فإن العزم له وحده فإذا عزم فاعلم أن العزم لهدف ومن وراء الهدف حكمة. وقد يعكف البعض على أرضية المشاورة ويعتقدون أنه ما دام الرسول كان يشاورهم فإن لكلمتهم الخلود. وفاتهم أن الخلود يمكن فى دائرة العزم وحدها ومن تعدى هذه الدائرة فلا يؤمن عليه من الفتن قال تعالى: (وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله)، فهكذا أشركهم سبحانه فى المشاورة ووحد رسوله فى العزم. ولقد عزم الرسول أن لا يولى هذا العمل أحد سأله ولا أحد أحرص عليه.

[۱] الإصابة ۴۵:۵.

[۲] البخارى باب فضائل أصحاب النبى (الصحيح ۲۹۱:۲).

[۳] البخارى (الصحيح ۲۹۱:۲) ك بدء الخلق.

[۴] الطبرى (تاريخ الأمم ۲۰۹:۳).

[۵] الطبرى (۲۰۹:۳).

[۶] البخارى كتاب بدء الخلق باب فضل أصحاب النبى (۲۹۱:۲) الطبرى (۲۰۹:۳).

[۷] الطبرى (۱۹۹:۳).

[۸] الطبرى (۲۰۹:۳).

[۹] الإصابة (۴۸:۱).

[۱۰] الطبرى (۲۰۹:۳).

[۱۱] الطبرى (۲۱۰:۳) البخارى فى الصحيح (۲۹۱:۲).

[۱۲] الطبرى (۲۱۰:۳).

[۱۳] الطبرى (۲۱۰:۳).

[۱۴] ابن سعد (الطبقات ۶۲۸:۵).

[۱۵] رواه مسلم باب الإمارة (الصحيح ۶:۶).

صراع خارج السقيفة

روى الزبير بن بكار فى كتابه ": الموفقيات والزبير - " قال فيه الذهبى: إمام
ثقة من أوعية العلم [۱] - لما بويع أبو بكر أقبلت الجماعة التى بايعته تزفه زفا إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم [۲] ، وروى الإمام البخارى عن أنس أنه بعد بيعة أبو بكر سمع عمر يقول لأبى بكر يومئذ اصعد المنبر فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة وكان قبل ذلك قد بايعته طائفة من
[صفحه ۲۹۱]
السقيفة [۳] ، وروى الزبير بن بكار أنه لما كان من الغد قام أبو بكر فخطب الناس وقال: أيها الناس إنى وليت أمركم ولست بخيركم فإذا أحسنت فأعينونى وإذا أسأت فقومونى إن لى شيطانا يعترينى فإياكم وإياى إذا غضبت ["... ۴] .
وقال الزبير بن بكار: وكان عامة المهاجرين وجل الأنصار لا يشكون أن عليا هو صاحب الأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأن الفضل بن العباس قال: يا معشر قريش وخصوصا يا بنى تيم إنكم إنما أخذتم الخلافة بالنبوة ونحن أهلها دونكم ولو طلبنا هذا الأمر الذى نحن أهله لكانت كراهة الناس لنا أعظم من كراهتهم لغيرنا حسدا منهم لنا وحقدا علينا وإنا لنعلم أن عند صاحبنا عهدا هو ينتهى إليه [۵] ، وقد ذكر الإمام على [۶] إنه كان معهود إليه أن لا ينازع فى الأمر ولا يثير فتنة بل يطلبه برفق فإن حصل له وإلا أمسك وذلك لأن الحجة قد قامت والامتحان قد بدأ ولا إكراه فى الدين. وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى فى كتاب السقيفة: بعد بيعة أبو بكر ذهب عمر بن الخطاب ومعه عصابة إلى بيت فاطمة منهم أسيد بن حضير فقال لهم: انطلقوا فبايعوا فأبوا عليه وروى الطبرى أن عمر قال: والله لأحرقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة. فخرج عليه الزبير بسيفه [۷] فقال عمر: عليكم الكلب، فوثب عليه سلمة بن أسلم وأخذ السيف من يده فضرب به الجدار، ثم انطلقوا بن وبعلى ومعهما بنو هاشم وعلى يقول: أنا عبد الله! وأخو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!. وروى صاحب كتاب السقيفة: وعندما انتهوا بعلى إلى أبى بكر فقيل له: بايع فقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى. أخذتم
[صفحه ۲۹۲]
هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم بالإمارة. وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار فانصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم واعرفوا لنا من الأمر مثل ما عرفت الأنصار لكم وإلا فبؤوا بالظلم وأنتم تعلمون. فقال عمر: إنك لست متروكا حتى تبايع، فقال له على: احلب يا عمر حلبا لك شطره! اشدد له اليوم أمره ليرد عليك غدا!! ألا والله لا أقبل قولك ولا أبايعه، فقال له أبو بكر: فإن لم تبايعنى لم أكرهك، وقال أبو عبيدة: يا أبا الحسن أنك لحديث السن وهؤلاء مشيخة قريش قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور. ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر وأشد احتمالا له واضطلاعا به فسلم له هذا الأمر وأرض. فإنك إن تعش ويصل عمرك فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق فى فضلك وقرابتك وسابقتك وجهادك. فقال على: يا معشر المهاجرين الله الله. لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم ولا تدفعوا أهله عن مقامه فى الناس وحقه. فوالله يا معشر المهاجرين لنحن - أهل البيت - أحق بهذا الأمر منكم. أما كان منا القارئ لكتاب الله الفقيه فى دين الله العالم بالسنة المضطلع بأمر الرعية والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتزدادوا من الحق بعدا وانصرف على إلى منزله ولم يبايع [۸] .
الملاحظ هنا وخلال أحداث هذه الفترة فيما وصل إلينا أن الإمام عليا لم يحتج على قريش بالنص. ويمكن فهم السبب بخلفية أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أراد خلال الأيام القليلة السابقة لهذه الأحداث أن يكتب لهم نصا ولكنهم حالوا بينه وبين ذلك. إشفاقا عليه وإشفاقا على أنفسهم من أن يكتب لهم ما يعجزون عنه فتكون العقوبة أشد لكون الأمر مكتوب. فإذا كان القوم قد صادروا النص

المکتوب لأن عقوبته أشد فإنه لا یستبعد أن یصادروا النص المسموع. والإمام لوح بالنص فی مواطن عدیدة. فقوله لهم ": لنحن أهل البیت أحق بهذا الأمر منکم، " فتح دائرة حق من أراد أن یناقشها ناقشه والحق لا یخفی ثم قوله:

[صفحه ۲۹۳]

"والله إنه لفینا فلا- تتبعوا الهوس " کشف دائرة الهوی وهی أیضا مفتوحة للمناقشة. وروی البیهقی بسند صحیح أن أبا بکر حین استخلف قعد فی بیته حزینا فدخل علیه عمر بن الخطاب فأقبل أبو بکر علیه یلومه وقال: أنت کلفتنی هذا الأمر! وشکا إلیه الحکم بین الناس. فقال عمر: أو ما علمت أن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال: إن الوالی إذا اجتهد فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد. فکأنه سهل علی أبی بکر. [۹] .

[۱] میزان الاعتدال ۶۶:۲.

[۲] ابن أبی الحدید عن کتاب الموفقیات ۲۷۲:۲.

[۳] البخاری (الصحیح ۲۴۸:۴) ک الأحکام.

[۴] ابن أبی الحدید ۲۷۳:۲.

[۵] ابن أبی الحدید ۲۷۳:۲.

[۶] سنبین ذلک فی حینه.

[۷] الطبری ۱۹۸:۳.

[۸] ابن أبی الحدید ۲۶۶:۲.

[۹] رواه البیهقی وابن رهویة وخیثمة (کنز العمال ۶۳۰:۵).

هتاف الأنصار

بعد أن تزعم سعد بن عبادة جماعة من الأنصار ودعا إلی نفسه. قال

الزبیر بن بکار: أفسد حاله رجلان من الأنصار وهما عویم بن ساعدة ومعن بن عدی [۱] وهما عیون المهاجرین علی الأنصار. وذکر المدائنی والواقدی: کان معن بن عدی یسوق أبا بکر وعمر سوقا عنیفا إلی السقیفة مبادرة إلی الأمر قبل فواته [۲] وانتهی الأمر إلی مبایعة أبی بکر وأول من بایعه عمر ثم بشیر بن سعد

ثم أسید بن حضیر ثم أبو عبیدة بن الجراح ثم سالم مولی أبی حذیفة. والذین أنکروا بیعة أبی بکر: خالد بن سعید بن العاص. وسلمان وأبو ذر والمقداد بن الأسود وعمار بن یاسر وبریدة الأسلمی وأبو الهیثم بن التیهان وسهل وعثمان ابنا حنیف وخزیمة بن ثابت وأبی بن کعب وأبو أیوب الأنصاری. وروی الزبیر بن بکار وقال الذهبی الزبیر بن بکار إمام ثقة من أوعیة العلم – عن إبراهیم بن سعد بن إبراهیم بن عبد الرحمن بن عوف قال: لما بویع أبو بکر واستقر أمره. ندم قوم کثیر من الأنصار علی بیعته ولام بعضهم بعضا وذکروا علیا وهتفوا بإسمه وإنه فی داره لم یخرج إلیهم وجزع لذلک المهاجرون وکثر فی

[صفحه ۲۹۴]

ذلک الکلام وکان أشد قریش علی الأنصار نفر فیهم وهم: سهل بن عمرو والحارث بن هشام وعکرمة بن أبی جهل. وهؤلاء أشراف قریش الذین حاربوا النبی ثم دخلوا فی الإسلام وکلهم موتور قد وتره الأنصار. فلما اعتزلت الأنصار. تجمع هؤلاء. فقام سهیل بن عمرو فقال: یا معشر قریش إن هؤلاء القوم قد سماهم الله الأنصار. وأثنی علیهم القرآن فلهم بذلک حظ عظیم وشأن غالب. وقد دعوا إلی أنفسهم وإلی علی بن أبی طالب. وعلی فی بیته لو شاء لردهم! فادعوه إلی صاحبکم وإلی تجدید بیعته فإن أجابوکم وإلا فاقتلوهم. فوالله أنی لأرجو الله أن ینصرکم علیهم کما نصرتم بهم. وقال الحارث: فإنه قد لهجوا بأمر إن ثبتوا علیه. فإنهم قد خرجوا مما

وسموا به وليس بيننا وبينهم معاتبة إلا السيف... وقال عكرمة: إن الذى هم فيه من فلتات الأمور ونزغات الشيطان. وما لا يبلغه المنى ولا يحمله الأمل اعذروا إلى القوم فإن أبوا فقاتلوهم. الملاحظ أن مقدمة القوم هنا هو سهل بن عمرو. وهو بالذات يحفظ فى ذاكرته قول النبى يوم الحديبية والذى أنذرهم فيه بمعركة يدخرها الغيب لهم عقوبة على ما فى قلوبهم، ففى الحديث الصحيح عن ربعى عن على قال: لما كان يوم الحديبية خرج ناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو - إلى أن قال - فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر قريش لتنتهين أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين قد امتحن الله قلبه على الإيمان. قالوا: من هو يا رسول الله؟ وقال أبو بكر: من هو يا رسول الله. وقال عمر: من هو يا رسول الله قال: هو خاصف النعل - وكان قد أعطى عليا نعله يخصفها. لهذا لا يستغرب خوف سهيل بن هتاف الأنصار بعلى. وقوله ": وعلى فى بيته لو شاء لردهم " يبين مدى جزعه. ولا يستغرب منه أن يطالب بتحديد دعوة الأنصار لأبى بكر فإن أجابوا فهو الأمان. وإلا فقتلهم أولى. وعلى ضوء هذا كله يمكن أن نفهم لماذا لم يخرج على بن أبى طالب بأى وسيلة مطالبا بالأمر. فالسكوت كان لقلة الأتباع وظهور سهيل بن عمرو وطابوره. وهم الذين أخرجوا

[صفحه ۲۹۵]

الرسول من قبل فكيف بعلى! ثم علينا أن نأخذ عدة خطوات للإمام ونقول. ماذا حدث عندما أظهر الإمام نفسه وبويع بالخلافة؟ لقد اشتعل التراب نارا مع العلم إن هذا الاشتعال كان بعد وفاة النبى بربع قرن تقريبا فما بالك لو كان هذا الاشتعال بعد وفاة النبى بيوم واحد. ذكر الزبير بن بكار أن عمرو بن العاص قدم من سفر كان فيه. وعندما علم بالأحداث وما كان من يوم السقيفة وما تلى ذلك أدلى بدلوه وقال: لقد قاتلنا الأنصار بالأمس فغلبونا على البدء ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة، فلما بلغ الأنصار مقالته قال شاعر الأنصار النعمان بن العجلان فيه شعرا [۳] ، فلما انتهى شعر النعمان وكلامه إلى قريش غضب كثير منهم. وفى هذا الوقت قدم خالد بن سعيد العاص من اليمن. وكان له ولأخيه أثر قديم عظيم فى الإسلام. ولهما عبادة وفضل. فغضب للأنصار وشتم عمرو ابن العاص وقال: يا معشر قريش إن عمرا دخل فى الإسلام حين لم يجد بدا من الدخول فيه. فلما لم يستطع أن يكيده بيده كاده بلسانه وإن من كيده الإسلام تفريقه وقطعه بين المهاجرين والأنصار، والله ما حاربناهم للدين ولا للدنيا. لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا وما بذلنا دماءنا لله فيهم وقاسمونا ديارهم وأموالهم وما فعلنا مثل ذلك بهم وآثرونا على الفقر وحرمناهم على الغنى ولقد وصى رسول الله بهم وعزاهم عن جفوة السلطان فأعوذ بالله أن أكون وإياكم الخلف المضيع والسلطان الجانى [۴] .

وخالد بن سعيد بن العاص هو الذى امتنع عن بيعة أبى بكر وقال: لا أبايع إلا عليا. وروى الزبير بن بكار: أن رجالا من سفهاء قريش ومثيرى الفتن منهم اجتمعوا إلى عمرو بن العاص فقالوا له: إنك لسان قريش ورجلها فى الجاهلية والإسلام فلا تدع الأنصار، وما قالت. فراح إلى المسجد وفيه ناس من قريش وغيرهم فتكلم وقال: إن الأنصار ترى لنفسها ما ليس لها. وأيم الله لوددت

[صفحه ۲۹۶]

أن الله خلى عنا وعنهم وقضى فيهم وفينا بما أحب. ولنحن الذين أفسدنا على أنفسنا أحرزناهم عن كل مكروه وقدمناهم إلى كل محبوب حتى آمنوا المخوف فلما جاز لهم ذلك صغروا حقنا ولم يراعوا ما أعظمنا من حقوقهم... فقال له الفضل بن العباس بن عبد المطلب: يا عمرو إنه ليس لنا أن نكتم ما سمعنا منك. وليس لنا أن نجيبك وأبو الحسن شاهد بالمدينة إلا أن يأمرنا فنفعل. ثم رجع الفضل إلى على فحدثه فغضب وشتم عمرا وقال: آذى الله ورسوله. ثم قام فأتى المسجد فاجتمع إليه كثير من قريش وتكلم مغضبا فقال: يا معشر قريش إن حب الأنصار إيمان وبغضهم نفاق. وقد قضوا ما عليهم وبقى ما عليكم (!)، واذكروا أن الله تعالى رغب لنبيكم عن مكة فنقله إلى المدينة. وكره له قريشا فنقله إلى الأنصار. ثم قدمنا عليهم دارهم فقاسمونا الأموال وكفونا العمل فصرنا منهم بين بذل الغنى وإيثار الفقير ثم حاربنا الناس فوقونا بأنفسهم وقد أنزل الله تعالى فيهم آية من القرآن جمع لهم فيها بين خمس نعم فقال: (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) [۵] ، ألا- وإن عمرو بن العاص قد قام مقاما (آذى فيه الميت والحى.

ساء به الواتر وسر به الموتور فاستحق من المستمع الجواب ومن الغائب المقت. وأنه من أحب الله ورسوله أحب الأنصار. فليكفف عمرو عنا نفسه. قال الزبير بن بكار: فمشت قريش عند ذلك إلى عمرو بن العاص فقالوا: أيها الرجل أما إذا غضبت على فأكفف وقال على للفضل: يا فضل أنصر الأنصار بلسانك ويدك فإنهم منك وإنك منهم. فقال الفضل:

قلت يا عمرو مقالا فاحشا++

إن تعد يا عمرو والله فلك

إنما الأنصار سيف قاطع++

من تصبه ظبهٔ السيف هلك

وسيوف قاطع مضربها++

وسهام الله فی يوم الحلك

نصروا الدين وآووا أهله++

منزل رحب ورزق مشترك

[صفحه ۲۹۷]

وإذا الحرب تلظت نارها++

بركوا فيها إذا الموت برك

ودخل الفضل على على بن أبی طالب فأسمعه شعره ففرح به. وأمره أن يظهر شعره ويبعث به إلى الأنصار. فلما بلغ ذلك الأنصار بعثوا إلى حسان بن ثابت فعرضوا عليه شعر الفضل. فقال: كيف أصنع بجوابه إن لم أتحر قوافيه فضحنی فرويدا حتى أقفو أثره فی القوافی. فقال له خزيمهٔ بن ثابت ذو الشهادتين: اذكر عليا وآله يكفك عن كل شئ. فقال:

جزى الله عنا والجزاء بكفه++

أبا حسن عنا ومن كأبی حسن

سبقت قريش بالذی أنت أهله++

فصدرك مشروح. وقلبك ممتحن

تمنت رجال من قريش أغرهٔ++

مكانك. هيهات الهزال من السمن

وأنت من الإسلام فی كل موطن++

بمنزلهٔ الدلو البطين من الرسن

غضبت لنا إذ قام عمرو بخطيهٔ++

أمات بها التقوى وأحيا بها الإحن

فكنت المرجی من لؤی بن غالب++

لما كان منهم. والذی كان لم يكن

حفظت رسول الله فينا وعهده++

إليك. ومن أولى به منك من ومن

ألست أخاه فی الهدى ووصيه++

وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن

فحقك ما دمت بنجد وشيجة++

عظيم علينا ثم بعد على اليمن [۶] .

فى هذا الشعر صرحت الأنصار بوصية النبى لعلى:

ألست أخاه فى الهدى ووصيه++

وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن

ولقد قالوا هذا الشعر وهتفوا باسم على. وهذا الأمر يقتضى من الباحث أن يلتمس للأنصار الأعذار وأن ينظر إلى حركتهم من البدء إلى الانتهاء بمنظور الفطرة والرسول الأكرم هو الذى أرشدنا إلى التماس الأعذار لهم. كان صلى الله عليه وسلم يقول لهم ": اللهم أنتم من أحب الناس إلى [" ۷] ، وقال النبى الأكرم ": أيها الناس فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح فى الطعام فمن ولى منكم أمرا يضر فيه أحد أو ينفعه فليتقبل من محسنهم ويتجاوز

[صفحه ۲۹۸]

عن مسيئهم [" ۸] ، فمن هذا الشعر وهذا الهتاف الذى رواه الزبير بن بكار الإمام الثقة. يمكن القول أن الأنصار علموا بعد وفاة الرسول أن صفحة جديدة ستفتح لهم. قال لهم النبى ": إنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى وموعدكم الحوض [" ۹] ، وكما علمنا من قبل أن الكتاب والعترة لا يفترقان حتى يردا على الحوض وإن عليا سيدفع المنافقين عنه. ولما كان الأنصار قد اشتركوا مع على فى أرضية واحدة حيث " لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق " فإن دعوة الرسول لهم أن يصبروا حتى يلقوه وموعدهم الحوض. تعنى أنه يحثهم على التمسك بالأرضية التى وقفوا مع على بن أبى طالب ولا يفارقوه. لأن هذه الأرضية بمثابة المقدمة لنتيجة ستظهر آثارها يوم القيامة. لقد علم الأنصار أن هناك تحولات ستحدث. وأن أى مواجهة عسكرية ستكون خسارة فادحة للفائز فيها فضلا على أنها ستحدث فى الإسلام فجوات الله وحده أعلم بها. لهذا فضل أغلب الأنصار الاعتزال وعلى رأسهم أبى بن كعب. أما سعد بن عبادة ومن معه فقد حسبوها بطريقة أخرى. لقد أرادوا أن يواجهوا الأثرة التى ستحدث لهم بعد وفاة الرسول بالاحتماء فى السلطة وذلك بمزاحمة المهاجرين فيها. لعلمهم أن المهاجرين يطالبون بما ليس لهم. بمعنى أن المهاجرين زاحموا على شئ هم ليسوا من أهله فلا مانع أن يزاحمهم الأنصار. وأى اتفاق مهما كان حجمه فسيدخل الأنصار به دائرة الأمان حتى يحدث الله بعد عسر يسرا. ولذا نجدهم فى أول الأمر طالبوا بالقيادة لسعد بن عبادة. ثم تشاوروا فيما بينهم ونزلوا درجة وقالوا منا أمير ومنكم أمير. واعتقد أنه لو تأخر النعمان بن بشير وأسيد بن حضير عن المبايعة برهة من الزمن لتوصل الأنصار إلى الحصول على موطئ قدم يحقق لهم الحماية ويدخلهم فى عملية التوازنات التى تشارك فيه أطراف عديدة. والذى يؤيد ما ذهبنا إليه من أن حركة سعد بن عبادة كان هدفها حقن دماء

[صفحه ۲۹۹]

الأنصار ولكن بالمناورة على السلطة أن شعراء المهاجرين إذا هاجموا سعد بن عبادة. حزن الأنصار كلهم فى الوقت الذى يهتفون فيه باسم على بن أبى طالب! وخروج على بن أبى طالب وشتمه عمرو بن العاص سببه يرجع فى الابتداء إلى شعر قاله عمرو فى سعد والأنصار. من هذا قول عمرو كما روى الزبير بن بكار:

عجبت لسعد وأصحابه++

ولو لم يهيجوه لم يهج

رجا الخزرج رجاء السراب++

وقد يخلف المرء ما يرتجى

فكان كمنح على كفه++

بکف یقطعها أهوج

قال الزبیر: فلما بلغ الأنصار مقالته بعثوا إلیه لسانهم وشاعرهم النعمان بن عجلان... وتحدث إلیه النعمان [۱۰] ثم قال فیه شعرا جاء فیه:

وقلتم حرام نصب سعد ونصبکم++

عتیق بن عثمان حلال أبا بکر

وأهل أبو بکر لها خیر قائم++

وإن علیا کان أخلق بالأمر

وکان هوانا فی علی وإنه++

لأهل لها یا عمرو من حیث لا تدری

فذاک بعون الله یدعو إلی الهدی++

وینهی عن الفحشاء والبغی والنکر

وصی النبی المصطفی وابن عمه++

وقاتل فرسان الضلالهٔ والکفر [۱۱] .

فکما تری شعر من عمرو بن العاص فی سعد. انتهی إلی حیث انتهی. وبعد السقیفهٔ وقف الأنصار ومن حولهم أمثال سهیل بن عمرو وعکرمهٔ ابن أبی جهل وعمرو بن العاص. وانتظم معهم فی الطابور الولید بن عقبهٔ الذی قال عنه الزبیر بن بکار: کان یبغض الأنصار لأنهم أسروا أباه یوم بدر وضربوا عنقه بین یدی رسول الله. وقال الولید فی الأنصار شعرا شتم فیه الأنصار [۱۲] ، ودخل الأنصار دائرهٔ الصبر. یقول الزبیر: وأقبل حسان بن ثابت مغضبا من کلام الولید بن عقبهٔ وشعره. فدخل المسجد وقال: یا معشر قریش إن أعظم ذنبنا [صفحه ۳۰۰]

إلیکم قتلنا کفارکم وحمایتنا رسول الله صلی الله علیه وسلم وإن کنتم تنقمون منا حنهٔ کانت بالأمس فقد کفی الله شرها. فما لنا وما لکم. والله ما یمنعنا من قتالکم الجبن. ولا من جوابکم العیی. إنا لحی فعال ومقال. ولکنا قلنا: إنها حرب أولها عار وآخرها ذل فأغضینا علیها عیوننا. وسحبنا ذیولنا حتی نری وتروا فإن قلتم قلنا وإن سکتم سکتنا. فلم یجبه أحد من قریش. ثم سکت کل من الفریقین عن صاحبه [۱۳] ، وظل الأنصار تحت حدیث رسول الله صلی الله علیه وسلم الذی قال لهم فیه ": إنکم ستلقون بعدی آثرهٔ فاصبروا" [۱۴] ، والذی قال النووی فی شرحه: أی یستأثر علیکم ویفضل علیکم غیرکم بغیر حق، ظلوا علی أرضیهٔ الصبر حتی کان زمن علی بن أبی طالب فبایعوه کلهم وحاربوا تحت رایته. وبعد وفاهٔ علی وفی عصر یزید بن معاویهٔ جاء یوم الحرهٔ وهو الیوم الذی بایعوا فیه لیزید علی أنهم عبید.

[۱] ابن أبی الحدید ۲:۲۷۵.

[۲] قدمنا الحدیث بطوله فیما سبق ورواه الترمذی وصححه وابن جریر وصححه والضیاء بسند صحیح (کنز ۱۱۵، ۱۳:۱۷۳) (جامع الترمذی ۵:۶۳۴).

[۳] من أراد أن یقف علی الشعر فلیراجع ابن أبی الحدید ۲:۲۸۰.

[۴] ابن أبی الحدید ۲:۲۸۱.

[۵] سورهٔ الحشر: الآیهٔ ۹.

[۶] ابن أبی الحدید نقلا عن الزبیر بن بکار ۲:۲۸۳.

[۷] البخاری (الصحیح ۲:۳۱۰) ک بدء الخلق ب مناقب الأنصار.

[۸] البخاری (الصحیح ۲:۳۱۲).

[۹] البخاری (الصحیح ۳۱۱:۲) ورواه مسلم (الصحیح ۱۵۲:۷).

[۱۰] راجع الحدیث فی المطولات.

[۱۱] ابن أبی الحدید ۲۸۰:۲.

[۱۲] ابن أبی الحدید ۲۸۴:۲.

[۱۳] ابن أبی الحدید ۲۸۵:۲.

[۱۴] رواه البخاری (الصحیح ۳۱۱:۴) مسلم (الصحیح ۱۵۲:۷).

الخلافة فی قریش

فی سقیفة بنی ساعدة لم یذکر فیها نص عن رسول الله صلی الله علیه وآله

وسلم بأن الأئمة من قریش والروایات الواردة فی الجدل الذی دار بین المهاجرین وبین الأنصار لیس فیها إلا إلی أبی بکر وعمر بأن قریشا أهل النبی صلی الله علیه وسلم وعشیرته وأن العرب لا تطیع غیر قریش. وقول أبی بکر لهم: إن هذا الأمر لا یصلح إلا لهذا الحی من قریش. لیس نصا مرویا عن رسول الله صلی الله علیه وسلم، وقد یکون أبو بکر قد ذکر هذا بناءا علی نص سمعه من رسول الله فنقل لهم معناه. وفی أثناء المواجهة بین المهاجرین وبین الأنصار برز علی بسطح القول ": بأن الأئمة من قریش، " وکان أول من قال به عکرمة بن أبی جهل ثم أکده عمرو بن العاص عندما عاد من سفره ثم رواه بعد

[صفحه ۳۰۱]

ذلک معاویة بن أبی سفیان وغیره، وروی عن ابن عمر أن النبی صلی الله علیه وسلم قال ": لا یزال هذا الأمر فی قریش ما بقی منهم اثنان [" ۱] وحدیث

الأئمة من قریش لا جدال فی أنه حدیث صحیح ولکن الکثیر اختلف فی تحدید معناه ومبناه. قال البعض: إن النسب لیس بشرط وأن الإمامة تصلح فی القرشی وغیر القرشی إذا کان سیجمعنا للشرائط المعتبرة. وقال البعض: إن القرشیة شرط إذا وجد فی قریش من یصلح للإمامة فإن لم یکن فیها من یصلح فلیست القرشیة شرط فیها. وقال البعض: إن النسب شرط فیها وأنها لا تصلح إلا فی العرب خاصة ومن العرب فقریش خاصة. وقال فی فتح الباری: وقال البعض لا تجوز إلا فی بنی أمیة وعن بعضهم لا یجوز إلا فی ولد عمر. وقال ابن حزم ولا حجة لأحد من هؤلاء الفرق. وبالغ ضرار بن عمرو فقال: تولیة غیر القرشی أولی لأنه یکون أقل عشیرة فإذا عصی أمکن خلعه [۲] وقال البعض إنها فی العباس وولده من بطون قریش کلها. وقال البعض الآخر: إنها فی الفاطمیین. وقال آخرون: تجوز فی غیر الفاطمیین من ولد علی بن أبی طالب وهناک من جعلها فی محمد بن الحنفیة وولده، ومنهم من نقلها منه إلی ولد غیره. قال البعض: إنها ساریة فی ولد الحسین فی أشخاص مخصوصین. وهذا الاختلاف لیس معناه أن النبی صلی الله علیه وسلم قد ترک أمته ولم یبین لهم وجه الصواب فی هذه المسألة. لقد بین وساق الناس إلی الصراط المستقیم. ولکن السیاسة کان لها أقوال وأفعال وإلیها یعود کل اختلافات الأمة. وعلی أی حال فکل فریق وکل طائفة لدیه أصوله وحججه. ولأننا نبحث هنا فی المواجهة بین المهاجرین وبین الأنصار یحتم علینا البحث أن نلقی الضوء علی عنوان " الأئمة من قریش. " ونحن أمام هذا العنوان یجوز لنا أن نسأل إذا کان الأئمة من قریش فما معنی قول عمر بن الخطاب: لو کان سالم مولی أبی حذیفة حیا

[صفحه ۳۰۲]

لاستخلفته [۳] ، وما جعلتها شوری [۴] ، وسالم لم یکن قرشیا وإنما کان من المؤیدین الأوائل للمهاجرین یوم السقیفة. وإذا کان الأئمة من قریش فأی قریش یعنیها الحدیث؟ ومن المعروف من عبد مناف خرجت شجرة بنی هاشم وشجرة بنی عبد شمس حیث بنی أمیة وبنی العاص وقال ابن حجر فی فتح الباری: وقد وردت أحادیث فی لعن الحکم والد مروان وما ولد أخرجها الطبرانی وغیره وبعضها

جيد [۵] فما معنى أن يكون على رقبة الأئمة أئمة ملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. والذى ينظر فى التاريخ نظرة المتدبر تجد معالم الفتن التى غرست فى هذه العهود وإن كان يعلوها البريق والزخرف وكل أدوات التزيين. وهذه الفتن ما ترتب عليها من حركة تؤكد صحة هذه الأحاديث. فأى قريش التى تدخل تحت سقف " الأئمة من قريش " مع العلم أن قريشا كما ذكر المسعودى خمسة وعشرون بطنا [۶] ، قد يقال: يدخل تحت هذا السقف من كان مستجمعا للشرائط المعتبرة. نقول: كيف؟ والأمة بها العديد من الدوائر التى هدفها الصد عن سبيل الله. وفيها أصحاب الخشوع الزائف والمنافق عليم اللسان والأئمة المضلين وجميع هؤلاء ورد فيهم أحاديث صحيحة. وغير هذا. هل يمكن للناس الوصول إلى من يتصف بالصفات الحميدة. وهل فى وسعهم الاتحاد والاتفاق على اختياره وانتخابه؟ فإذا كانت الإجابة بنعم. فما معنى اختلاف الأمة فى الإصابة. وهل القرشية شرط أو أن النسب ليس بشرط. وهذا إن دل على شئ إنما يدل على أن الأمة ليست متفقة فى الرأى وإن لكل فرد أو قبيلة رأى يخالف الباقين. ومن المعلوم أن أى اختلاف وأى افتراق لا بد وأن تدثره حجة من الله. حتى إذا اختلفوا لم يكن لهم على الله حجة. بمعنى إن الله تعالى يرشدهم إلى الحق ويحيطهم علما بذلك. فإذا بغوا كان بغيهم بعد العلم وبهذا لا يكون لهم على الله حجة.

[صفحه ۳۰۳]

إن سقف الأئمة من قريش سقف واسع ولا يمكن تحديد من كان مستجمعا للشروط المعتبرة وفقا لمقاييس القلوب إلا بإرشاد من رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما الاستجماع للشروط وفقا للصور والثياب واللون وبلاغة اللسان فهذه أمور أخرى. وليس معنى أن الأئمة من قريش أن القرشى يستحق الإمامة. كما أنه ليس المعنى إن الله كرم الإنسان إن كل إنسان سيدخل الجنة وينال رضا ربه جل وعلا. ومن الدليل أن القول بإمامة قريش قول واسع لا بد له من تحديده وخوف النبى صلى الله عليه وسلم على أمته من قريش نفسها فقال ": يهلك أمتى هذا الحى من قريش [" ۷] ، وقال ": إن هلاك أمتى على يدى غلمة من قريش [" ۸] ، وطالب باعتزالهم فقال": لو أن الناس اعتزلوهم [" ۹] ، إن التعريف الواسع يدفع إلى الفتن روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إنى لا أخشى على قريش إلا نفسها قلت: وما هو؟ قال: أشحة سمرة أن طال بك عمر رأيتهم يفتنون الناس حتى يرى الناس بينهم كالغنم بين الحوضين مرة إلى هذا ومرة إلى هذا [" ۱۰] ، وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم": ولتحملنكم قريش على سنة فارس والروم ولتؤمنن عليكم اليهود والنصارى والمجوس [" ۱۱] .

إن هذه حقائق. وعندما ترعرع الزرع فى عهد بنى أمية قال أبو برزة " إنى أصبحت ساخطا على أحياء قريش [" ۱۲] ، فأى قريش؟ هل يمكن تفادى ما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنه سيحدث بأن يختار الناس لأنفسهم؟ وما ذكره

[صفحه ۳۰۴]

النبى الأعظم صلى الله عليه وآله فى قريش قال مثله فى مضر فعن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ": إن هذا الحى من مضر لا تدع لله فى الأرض عبدا صالحا إلا افتتنته وأهلكته [" ۱۳] ، وفى رواية ": إلا فتنوه أو قتلوه [" ۱۴] مما سبق علمنا أن عنوان الأئمة من قريش عنوان واسع، ولكى نحدد المكان الخاص تحت السقف العام. فلا بد أن نحدد أولا: أين جانب الفخر فى قريش؟ هل هو فى قريش أم فى عبد مناف أم فى أولاده. أم أن جانب الفخر فى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ روى أن عبد الله بن الزبير تفاخر يوما أمام ابن عباس، بأن أبيه حوارى رسول الله وأسماء بنت أبى بكر أمه وعمته خديجة سيدة نساء العالمين وأن عائشة أم المؤمنين خالته وأن صفية عمة رسول الله جدته. فقال ابن عباس: لقد ذكرت شرفا رفيعا. وإنك لم تذكر فخرا إلا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأنا أولى بالفخر منك، لقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله ": ما افترقت فرقتان إلا كنت فى خيرهما، " وقد فارقناك يا ابن الزبير من بعد قصى بن كلاب. أفنحن فى فرقة الخير أم لا؟ إن قلت نعم خصمت وإن قلت لا. كفرت.. فالرسول صلى الله عليه وآله هو جانب الفخر فى قريش وعنده يكون الشموخ وفيه بكون الطهر. ومكانة الرسول صلى الله عليه وآله منذ نور الله ذرية آدم مكانة رفيعة فلقد جعله الله فى خير الفرق وخير القبائل وخير البيوت وخير النفوس. فعن واثلة قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وآله: إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة واصطفى من كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم [" ۱۵] ، لقد سار الفخر على امتداد التاريخ حتى استقر فى المكان الذى يقف فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فمن أراد الفخر فلا يبحث فى محطة قريش وإنما يبحث فى المكان الذى استقر عنده.

[صفحه ۳۰۵]

وبما أن بنى هاشم بيوت وللرسول بيتا فيهم، تم تحديد دائرة فى بنى هاشم وفى هذه الدائرة يوجد الفخر. قال النبى صلى الله عليه وسلم ": إن الله خل الخلق فجعلنى فى خيرهم فرقة. ثم جعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتا وخيرهم نفسا [" ۱۶] فالدائرة التى نقصدها هى دائرة النفس. أى

الدائرة التى ترتبط بالروح أكثر من ارتباطها بالأرض. وترتبط بالهدف أكثر من ارتباطها بالقبائل. ومقام النفس له معالم وامتداد. وإذا أردنا أنا نضع أيدينا عليه. فلنقرأ قوله تعالى: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) [۱۷] ففى هذه الآية وردت أحاديث تلقتها الأمة بالقبول. وقال فيها العلماء قولا واحدا هو: إن معنى (أنفسنا وأنفسكم)، رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب (وأبناءنا) الحسن والحسين (ونساءنا) فاطمة [۱۸] فالفخر بعد رسول الله ترى معالمه فى دائرة النفس والمتدبر فى قول النبى لعلى لا- يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق يتبين ذلك بسهولة ويسر. ولقد قدمنا فيما سبق الأحاديث الصحيحة التى أخبر فيها النبى صلى الله عليه وسلم بأن عليا أصل شجرة الرسول. وإن أولاده هم عترة الرسول. وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ": كل بنى آدم ينتمون إلى عصبة إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم [" ۱۹] ، وفى رواية ": إن لكل بنى أب عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم وهم عترتى خلقوا من طينتى ويل للمكذبين بفضلهم من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله [" ۲۰] ، واستمرارية دائرة النفس وتفضيلها على غيرها جاء فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم ": نحن خير من أبنائنا وبنونا خير من أبنائهم وأبناء بنينا خير من أبناء

[صفحه ۳۰۶]

أبنائهم [" ۲۱] ، وقوله ": نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد [" ۲۲] .

ومهمة دائرة النفس هى سوق الناس إلى ربهم. ومن صفات أصحاب هذه الدائرة أنهم يقفون على أرضية الرسول. أرضية العبد الكريم. قال رسول الله صلى الله عليه وآله ": إن الله جعلنى عبدا كريما ولم يجعلنى جبارا عنيدا [" ۲۳] ، وقال ": إنا بعثت رحمة ولم أبعث عذابا [" ۲۴] .

ووفقا لما تقدم نقول: إن النبى صلى الله عليه وآله إذا ذم قريشا أو أمر باعتزالها. فإن المقصود بقريش. قريش التى لا يوجد فيها. وإذا أمر بالالتفاف حول قريش فليس معنى هذا أن نبحث عن نسل عبد مناف ونجرى وراء أبناء عبد شمس حديث أمية وحرب وأبو سفيان وحيث العاص والحكم ومروان وامتداد طابورهما الطويل. أو نبحث فى أصول العباس التى تنتهى عند الخليفة المستعصم وإنما علينا أن نبحث أين رسول الله صلى الله عليه وآله. وكما ذم النبى صلى الله عليه وآله قريشا ذم أيضا مضر. كما قدمنا وفى مقابل ذلك قال ": إذا اختلف الناس فالحق فى مضر [" ۲۵] ، ولماذا يكون الحق فى مضر؟ الإجابة: لأن للنبى قدم فى مضر قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم ": إن جبريل أخبرنى أنى رجل من مضر [" ۲۶] ، وإذا كان للرسول امتداد إلى مضر فإن هذا الامتداد ينتهى أيضا إلى أهل البيت. وفروع مضر كان يعلمها الأوائل وهم المخاطبون بهذا الحديث. والحكمة من وراء هذا جمع القبائل عند نقطة واحدة. وبيان أن الانتساب إلى القبائلية والشعوبية فى الماضى الغابر لا جدوى من ورائه. فالإنسان لا قيمة له إلا الحق والالتفاف حول الحق. وبعد ذلك كله يمكن أن نفهم حديث النبى صلى الله عليه وسلم ": الناس تبع لقريش صالحهم تبع لصالحهم

[صفحه ۳۰۷]

وشرارهم تبع لشرارهم [" ۲۷] ، ويمكن أن تفهم قوله ": يا أيها الناس لا تعلموا قريشا وتعلموا منها فإنهم أعلم منكم [" ۲۸] ، ألم تر

فيما قدمنا إنهم كانوا يضربون كتاب الله بعضه ببعض ويتأولونه فى غير موضعه. فمن منهم الأعلم والراسخ فى العلم؟ ويمكن أيضا أن نعلم موضع الإمامة فى حديث مسلم الذى رواه جابر بن سمرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إن هذا الأمر لا ينقضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة - " وفى لفظ - لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا - وفى لفظ - لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثنى عشر خليفة - وفى لفظ - لا يزال هذا الأمر عزيزا إلى اثنى عشر خليفة، " ثم قال جابر بن سمرة بعد أن سمع ذلك من رسول الله: "ثم تكلم النبى بكلام خفى على - " وفى لفظ - ثم قال كلمة لم أفهمها - وفى لفظ - ثم تكلم بشئ لم أفهمه قال جابر ": فقلت لأبى: ما قال؟ فقال: كلهم من قريش [" ۲۹] .

والخلاصة أن الإمامة تصيب الذين يعلمون الذين يهدون إلى الحق، قال تعالى: (أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى) [۳۰] ، وإن القول بالأئمة من قريش قول فضفاض أريد به إخراج آل محمد من الإمامة. ثم إن هذا القول لم يظهر فى السقيفة وإنما ظهر بعدها أثناء المواجهة بين المهاجرين وبين الأنصار. ومن العجيب أن الذى روج له فى بداية الأمر عكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو ثم جاء من بعدهما عمرو بن العاص ومعاوية وغيرهما. ومن الأعجب أن الواحدى فى كتابه المسمى بأسباب النزول ذكر فى قوله تعالى: (فقاتلوا أئمة الكفر)، إنها نزلت فى سهيل بن عمرو وعكرمة وأبى سفيان، وروى عن الإمام على وحذيفة: أن أهل هذه الآية لم يقاتلوا بعد. وكما علمنا أن

[صفحه ۳۰۸]

هؤلاء كانوا يعلمون من يوم الحديبية أن لهم يوما سيواجه طابورهم فيه خاصف النعل وعلى هذا وذاك لا نستبعد أن يكون الحديث على هذه الصورة وكان عن عمير.

[صفحه ۳۰۹]

ثانيا - دائرة الرأى بعد السقيفة فتحت أولى صفحات دائرة الرأى. وهى دائرة تقوم على الشهادتين وعلى احترام شعائر الدين. لكنها لا تعرف السلطة الدينية ولا تعترف بها ولا تحبذ الالتزام بالمثاليات الدينية والنواحى الإدارية والسياسية وكان همها الأكبر قوة الدولة واستقرارها... وذلك لأن الحكم فى دائرة الرأى أساسه رضا الناس واختيارهم فالأمة عنده هى الأصل. وكما بينا من قبل أن أحداث السقيفة - فى رأينا - جاءت بعد أن تبين كبار الصحابة ما يحيط بالدعوة من مكائد وإن العرب لا تطيع عليا. ومن السقيفة خرج نظام الخلافة. والخلافة ليست نظاما إلهيا نبويا. فهى جاءت على قاعدة اختيار الصحابة. والاختيار ليس دينا بأى حال. ونحن إذا أخذنا خطوة إلى الإمام واستبقنا الأحداث نجد أن الخلافة تحولت فيما بعد إلى ملك وجبرية فإذا بحثنا عن الأسباب وجدنا أن كبار الصحابة الذى خافوا على الإسلام من أعدائه يوم السقيفة. أقاموا حصونهم على حدود من الرمال الناعمة. فلم تتمكن الحصون من التغلب على طبيعة الموروث العشائرى عند العرب ولا عن الموروث الكيدى عند كفار أهل الكتاب وغيرهم. فبعد فترة تعاون الموروث العشائرى مع الموروث الكيدى فى مقاومة نظام الخلافة. قامت دوائر النفاق بالنخر فى الجدار ثم بالإغارة عليه وفى النهاية تركاه صريعا تسفعه الرياح بعد أن انزلقت حصونه المشيدة على حافة الرمال - وفى أعماق الشقوق رفعت أعلام

[صفحه ۳۱۰]

الملك والجبرية وحولها وقف علماؤهم لإرساء قواعد الاستبداد. فقالوا بفصل الدين عن السياسة بحجة أن العمل السياسى ليس عملا دينيا لكنه فعل بشرى يحتمل الخطأ والصواب ويمكن نقضه أو نقده أو العدول عنه. وتحت هذه الحجة ارتكبت أفظع الجرائم فى حق المسلمين ولم يستطع أحد أن ينقض أو ينقد لأن الفعل البشرى تحت قبة الجبروت لا يمكن نقده أو العدول عنه. ونتيجة لهذا برزت مشكلة أساسية ألا وهى اجتراء المسلمين على السلطة وخروجهم عليها باسم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تارة. وطمعا فى الحكم تارة أخرى. لقد كانت البداية حصون على الرمال. وكانت الخاتمة شقوق ودهاليز تحت سطح الأرض. وبين هذا وذاك ترى الأحداث التى أدت إلى الخسف.

[۱] رواه البخاری فی مناقب قریش (الصحیح ۲۶۵ / /).

[۲] فتح الباری ۱۱۸:۱۳.

[۳] الطبری ۳۴:۵.

[۴] الإستبصار فی معرفة الأنصار ص ۲۹۶.

[۵] فتح الباری ۱۱:۱۳ کتاب الفتن.

[۶] مروج الذهب / المسعودی ۲۷۶:۲.

[۷] رواه البخاری ک بدء الخلق ب علامات النبوة (الصحیح ۲۸۰:۲) مسلم ک الفتن (الصحیح ۴۱:۱۸) أحمد (الفتح الربانی ۳۹:۲۳).

[۸] رواه البخاری (الصحیح ۲۸۰:۲) ک بدء الخلق ب علامات النبوة.

[۹] البخاری (۲۸۰:۲) مسلم کتاب الفتن (۴۱:۱۸) أحمد (الفتح ۳۹:۲۳).

[۱۰] رواه أحمد وقال الهیثمی رواه أحمد والطبرانی ورجاله ثقات (الزوائد ۲۴۸:۵).

[۱۱] رواه الطبرانی (الزوائد ۲۳۶:۷).

[۱۲] البخاری لا الأحکام (الصحیح ۲۳۰:۴) وأحمد والنسائی وابن ماجة والطبرانی (الفتح الربانی ۱۸۹:۲۳).

[۱۳] رواه أحمد وقال الهیثمی رواه أحمد والبزار وأحد أسانید أحمد وأحد أسانید البزار رجاله رجال الصحیح (الفتح ۲۴۰:۲۳).

[۱۴] رواه أحمد (الفتاح ۲۴۰:۲۳).

[۱۵] رواه مسلم ک الفضائل (الصحیح ۳۶:۱۵) والترمذی وصححه (الجامع ۵۸۳:۵).

[۱۶] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۵۸۴:۵) وأحمد (الفتح الربانی ۲۶۶:۲۱).

[۱۷] سورة آل عمران: الآیة ۶۱.

[۱۸] تفسیر ابن کثیر ۳۵۱:۱.

[۱۹] رواه الطبرانی عن فاطمة (کنز العمال ۱۱۶:۱۲).

[۲۰] رواه ابن عساکر والحاکم عن جابر (کنز ۹۸:۱۲).

[۲۱] رواه الطبرانی عن معاذ (کنز ۱۰۴:۱۲).

[۲۲] رواه الدیلمی (کنز ۱۰۴:۱۲).

[۲۳] رواه الترمذی (کنز ۴۲۶:۱۱).

[۲۴] رواه البخاری فی التاریخ (کنز ۴۲۶:۱۱).

[۲۵] رواه ابن أبی شیبة والطبرانی (کنز ۵۹:۱۲).

[۲۶] ابن سعد (الطبقات ۵۹:۲).

[۲۷] رواه أحمد وقال فی الفتح، قال الهیثمی رجاله ثقات (الفتح الربانی ۲۲۶:۲۴) ورواه البخاری بلفظ آخر (الصحیح ۲۶۴:۲)، ومسلم (الصحیح ۲:۶ ط کتاب التحریر).

[۲۸] رواه ابن أبی عاصم (کتاب السنة ۶۳۶:۲) وقال فی فتح الباری: أخرجه البیهقی والطبرانی والشافعی (فتح الباری ۱۱۸:۱۳).

[۲۹] رواه مسلم کتاب الإمارة (الصحیح ۳:۶ ط کتاب التحریر).

[۳۰] سورة یونس: الآیة ۳۵.

دائرة الرأی

من معالم الرأى

إذا أردنا أن ننسب الرأى إلى أصوله فسنجد أن أهم أصوله عمر بن الخطاب. فقد كانت شخصيته من أبرز شخصيات الصحابة فى هذا الباب يقول الدكتور عبد الحميدة متولى: لم يقتصر عمر فحسب على الاجتهاد أو استعمال الرأى حيث لا نص من كتاب أو سنة إنما ذهب إلى مدى أبعد من ذلك. إذ كان يعمد إلى الاجتهاد أو بعبارة أخرى. استعمال الرأى ليبحث عن وجهة العدالة أو المصلحة حتى رغم وجود نص من الكتاب أو السنة. فكان لذلك لا يفسر النص طبقا لحرفيته. وإنما يفسره طبقا لحكمته ولو أدى هذا التفسير إلى عدم تطبيق النص [۱] ، فمثلا- قال تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم)، لقد رأى عمر أن الحكمة التى أدت إلى تقريب ذلك الحكم الشرعى قد زالت. والأمثلة فى هذا الباب كثيرة [۲] ، وكثير من الصحابة كما ذكر الإمام محمد عبده " كانوا إذا رأوا المصلحة فى شئ يحكمون به وإن خالف

[صفحه ۳۱۱]

السنة. كأنهم يرون أن الأصل هو الأخذ بما فيه المصلحة لا بجزئيات الأحكام وفروعها [۳] ، ويقول الشيخ عبد الوهاب خلاف: وكانوا إذا لم يجدوا نصا فى القرآن والسنة يدل على حكم ما عرض لهم من الوقائع استنبطوا حكمه. وكانوا فى اجتهادهم يعتمدون على ملكتهم التشريعية التى تكونت لهم من مشافهة الرسول، ووقوفهم على أسرار التشريع ومبادئه العامة. فتارة كانوا يقيسون ما لا نص فيه على ما فيه نص. وتارة كانوا يشرعون ما تقضى به المصلحة أو دفع المفسدة. ولم يتقيدوا بقيود فى المصلحة الواجب مراعاتها. وبهذا كان اجتهادهم فيما لا نص فيه فسيحا مجاله وفيه متسع لحاجات الناس ومصالحهم [۴] .

كانت هذه بداية الرأى. فما هى محطة النهاية؟ يقول الشيخ عبد الوهاب خلاف: فى عهد الصحابة لما تعدد رجال التشريع منهم وقع بينهم اختلاف فى بعض الأحكام وصدرت عنهم فى الواقعة الواحدة فتاوى مختلفة وإن هذا الاختلاف كان لا بد أن يقع بينهم لأن فهم المراد من النصوص يختلف باختلاف العقول ووجهات النظر ولأن السنة لم يكن علمهم بها وحفظهم لها على السواء وربما وقف بعضهم منها على ما لا يقف عليه الآخر لأن المصالح التى تستنبط لأجلها الأحكام يختلف تقديرها باختلاف البيئات التى يعيش فيها رجال التشريع. فلهذه الأسباب اختلفت فتاويهم وأحكامهم فى بعض الوقائع والأقضية... ولما آلت السلطة التشريعية فى القرن الثانى الهجرى إلى طبقة الأئمة المجتهدين اتسعت مسافة الخلاف بين رجال التشريع ولم تقف أسباب اختلافهم عند الأسباب الثلاثة التى بنى عليها اختلاف الصحابة بل جاوزتها إلى أسباب تتصل بمصادر التشريع وبالنزعة التشريعية وبالمبادئ اللغوية التى تطبق فى فهم النصوص. وبهذا لم يكن اختلافهم فى الفتاوى والفروع فقط بل كان اختلاف أيضا فى أسس التشريع وخططه وصار لكل فريق منهم مذهب خاص يتكون من أحكام فرعية استنبطت بخطة تشريعية

[صفحه ۳۱۲]

خاصة [۵] ثم جاء عهد التقليد الذى بدأ من منتصف القرن الرابع الهجرى بالتقريب. حين طرأت على المسلمين عدة عوامل سياسية وعقلية وخلقية واجتماعية أثرت فى كل مظهر من مظاهر نهوضهم وأحالت نشاطهم التشريعى إلى فتور ووقفت حركة الاجتهاد والتقنين وأماتت فى العلماء روح الاستقلال الفكرى فلم يردوا المعين الذى لا ينضب ماؤه وهو القرآن والسنة بل راضوا أنفسهم على التقليد ورضوا أن يكونوا عالة على فقه الأئمة السابقين أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد وأقرانهم. وحصروا عقولهم فى دوائر محدودة من فروع مذاهب هؤلاء الأئمة وأصولها وحرموا على أنفسهم أن يخرجوا عن حدودها وبذلوا جهودهم فى ألفاظ أئمتهم وعباراتهم لا- فى نصوص الشارع ومبادئه العامة. وبلغ من كونهم إلى أقوال أئمتهم أن قال أبو الحسن الكرخى من علماء الحنفية: ككل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ، " ثم يقول الشيخ خلاف عن أسباب وقوف حركة الاجتهاد: أهم العوامل التى أدت إلى هذا الوقوف والتزام تقليد السابقين أربعة: أولا – انقسام

الدولـة الإسـلامية إلى عـدة ممالـك يتناحر ملوكها وولاتها وأفرادها. فهـذا الانقسام شـغل ولاة الأمور بالحروب والفتن واتقاء المكايد وتدابير وسائل القهر والغلبة وشـغل الناس معهم فدب الانحلال العام وكان لهذا الانحلال أثره فى وقوف حركة التشـريع. ثانيا - أنه لما انقسم الأئمـة المجتهدون فى العهد الثالث إلى أحزاب وصار لكل حزب مدرسة تشـريعية بها نزعتها وخطتها. عنى تلاميذ كل مدرسـة أو أعضـاء كل حزب بالانتصار لمـذهبهم وتأييـد أصوله وفروعه بكل الوسائل والإشادة بزعمائهم ورؤسائهم. فانشـغل علماء المـذاهب بهذه الأمور وانصـرفوا عن الأساس التشـريعى الأول وهو القرآن والسـنة. وبهذا فنيت شخصـية العالم فى حزبيته. وصار الخاصة كالعامة أتباعا مقلدين.

[صفحه ۳۱۳]

ثالثا - أنه لمـا أهمـل المسـلمون تنظيم السـلطة التشـريعية ولم يضـعوا نظامـا كفيلا- بـأن لا- يجترئ على الاجتهاد إلا من هو أهل دبت الفوضى فى التشريع والاجتهاد وادعى الاجتهاد من ليس أهلا له وتصدى لإفتاء المسلمين جهال عبثوا بنصوص الشريعة وبحقوق الناس ومصالحهم. وبهذا تعددت الفتاوى وتباينت وتبع هذا تعدد الأحكام فى الأقضية حتى كان القضاء يختلف فى الحادث الواحد فى البلد الواحد فتسـتحل دماء وأموال فى ناحية من نواحى المدينة وتسـتباح فى ناحية أخرى منها وكل ذلك نافذ فى المسلمين وكله يعتبر من أحكـام الشـريعة. فلمـا فزع من هؤلاء العلمـاء حكموا فى أواخر القرن الرابع بسـد باب الاجتهاد وتقيـد المفتين والقضاة بأحكام الأئمة السابقين فعالجوا الفوضـى بالجمود. رابعا - إن العلماء فشت فيهم أمراض خلقية حالت بينهم وبين السـمو إلى مرتبة الاجتهاد فلقد فشـا بينهم التحاسد والأنانية... فماتت روح النبوغ. وضعفت ثقة العلماء بأنفسهم وثقة الناس بهم فولوا وجههم مذاهب الأئمة السابقين [۶] .

لقـد كـانت البدايـة البحث عن المصـلحة. فجـاء الخلاف وانقسام الدولـة الإسـلامية وتناحر ملوكها وولاتها. ثم تجرأ على الفتوى اتباع الـدوائر المختلفة الذين عبثوا بنصوص الشـريعة وبحقوق الناس ومصالحهم وضـرب التحاسد والأنانية وجوه العديد من العلماء. وعندما جف الوقود الـذى يـدفع بأصـحابه نحو المسـتقبل ولوا وجوههم نحو الخلف حيث مـذاهب السابقين. وإذا كان الأوائل قـد اختلفوا فى الفتوى نظرا لاختلاف البيئـة. فإن الاختلاف من بعـدهم أوسع لأن البيئـة الواحـدة تمزقت إلى ألف بيئـة ومعطيات العصـر ألقت بآلاف المسائـل، فبمـاذا يجـدى النظر إلى الخلف لحـل مشـكلات الحاضـر؟ ألا يفتـح ذلك الباب للـدخول فى سـنين الأولين. وخصوصا أن عندهم من المصالح ما لا يخفى على أحد وما يغرى العامة والخاصة على تقليدهم واتباعهم شبرا بشبر وذراعا بذراع.

[صفحه ۳۱۴]

والخلاصة: أن البحث عن المصلحة مطلب فطرى. ولكن كلما كان الباحث عن المصلحة لا مصلحة له فيما يبحث - بمعنى أن يكون لا مطمع له فى مـال أو جـاه أو غير ذلـك نظير فتواه - أصـابت فتواه دائرة الفطرة. وأيضـا كلما كان الباحث عن المصـلحة عالما بالكتاب الذى لا يمسه إلا المطهرون وبالسـنة التى يشهد لها الكتاب. ساقت فتواه الناس إلى صراط الله الذى لا اختلاف فيه. فإذا لم يتوفر الطهر والعلم والعدل فى الباحث عن مصالح الناس. كان الناس من سنن الأولين أقرب.

[۱] أزمة الفكر السياسى الإسلامى / د عبد الحميد متولى، تقديم الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ص ۱۲۱.

[۲] سيأتى ذكر ذلك فى موضعه.

[۳] المنار / محمد رشيد رضا ۴:۳۱۰.

[۴] خلاصة تاريخ التشريع الإسلامى / خلاف ص ۴۰.

[۵] المصدر السابق ۷۲.

[۶] المصدر السابق ص ۹۶ - ۹۹.

نظرات على فدک

فدک قریة تبع عن المدینة مسافة یومین أو ثلاثة. أرضها زراعیة خصبة.

فیها عین فوارة ونخیل کثیرة [۱] یقدر نخیلها بنخیل الکوفة فی القرن السادس الهجری [۲] ، وکان جماعة من الیهود یسکنون فدک ویستثمرونها حتی السنة السابعة للهجرة. فلما حارب النبی صلی الله علیه وآله وسلم یهود خیبر لنقضهم العهد بینهم وبین رسول الله وفتح حصونهم وبقی حصنان أو ثلاثة منها لم تفتح حاصرهم الرسول صلی الله علیه وآله. فلما اشتد بهم الحصار راسل أهلها رسول الله علی أن یؤمنهم علی حیاتهم وینزلوا له عن حصونهم وأرضهم. فقبل النبی صلی الله علیه وآله بعرضهم هذا. وما حدث یوم خیبر أرعب أهل فدک. ولکن اتفاقیة أهل الحصون المحاصرة مع النبی صلی الله علیه وآله فتحت أمام أهل فدک بابا للأمل. فلما جاءهم رسول النبی صلی الله علیه وآله وسلم یدعوهم إلی الإسلام أبوا أن یسلموا ولکنهم استعدوا أن یقدموا نصف أرضهم للنبی مع الاحتفاظ لأنفسهم بالنصف الآخر علی أن یعملوا فی أرضهم وأرض رسول الله. ومتی شاء النبی أن یجلیهم عن أرضهم فعل شریطة أن یعوضهم عن أتعابهم وأرضهم فصارت فدک ملکا لرسول الله بنص القرآن الکریم

[صفحه ۳۱۵]

(وما أفاء الله علی رسوله منهم فما أوجفتم علیه من خیل ولا رکاب ولکن الله یسلط رسله علی من یشاء والله علی کل شئ قدیر) [۳] ، قال المفسرون: کل مال أخذ من الکفار من غیر قتال ولا- إیجاف خیل ولا رکاب کأموال بنی النضیر هذه فإنها مما لم یوجف المسلمون علیه بخیل ولا- رکاب. أی لم یقاتلوا الأعداء فیها بالمبارزة بل نزل أولئک من الرعب الذی ألقی الله فی قلوبهم من هیبة رسول الله صلی الله علیه وآله. فأفاءه الله علی رسوله. أی خصه به وملکه وحده إیاه یتصرف فیه کما یشاء. فلما نزل قوله تعالی: (وآت ذا القربی حقه) [۴] ، أعطی النبی صلی الله علیه وآله فدکا لفاطمة. روی أبو سعید الخدری أنه لما نزلت هذه الآیة علی النبی صلی الله علیه وآله أعطی فاطمة فدکا وسلمه إلیها [۵] وبقی الأمر هکذا حتی توفی النبی صلی الله علیه وسلم. وبعد وفاة النبی صلی الله علیه وسلم وضعت الدولة الید علی فدک وانتزعتها من ید الزهراء، ومن هنا بدأ نزاع فاطمة رضی الله عنها وبین أبی بکر، روی البخاری عن عائشة أن فاطمة سألت أبا بکر بعد وفاة النبی صلی الله علیه وسلم أن یقسم لها میراثها مما ترک رسول الله مما أفاء الله علیه. فقال لها أبو بکر: إن رسول الله صلی الله علیه وآله قال، لا- نورث ما ترکناه صدقة. فغضبت فاطمة فهجرت أبا بکر فلم نزل مهاجرته حتی توفیت. وعاشت بعد رسول الله ستة أشهر. وکانت فاطمة تسأل أبا بکر نصیبها مما ترک رسول الله صلی الله علیه وسلم من خیبر وفدک وصدقته بالمدینة فأبی أبو بکر علیها ذلک.... وروی أن علیا عندما سمع قول أبی بکر بأن الرسول قال: لا نورث وما

[صفحه ۳۱۶]

ترکناه صدقة، قال علی: ورث سلیمان داوود وقال زکریا: (یرثنی ویرث من آل یعقوب...) هذا کتاب الله ینطق. وروی أن فاطمة نازعت فی سهم ذی القربی الذی نص القرآن علیه. وکانت الدولة قد وضعت یدها علیه. روی الإمام أحمد لما قبض رسول الله صلی الله علیه وسلم أرسلت فاطمة إلی أبی بکر: أنت ورثت رسول الله صلی الله علیه وسلم أم أهله؟ فقال: لا- بل أهله، قالت: فأین سهم رسول الله صلی الله علیه وسلم؟، فقال: إنی سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول ": إن الله عز وجل إذا أطعم نبیا طعمة ثم قبضه الله جعله للذی یقوم من بعده فرأیت أن أرده علی المسلمین [" ۶] ، وفی روایة عند ابن سعد قالت: فسهم رسول الله صلی الله علیه وسلم الذی جعله لنا وصافیتنا التی بیدک، فقال: إنی سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم ویقول: إنما هی طعمة أطعمنیها الله فإذا مت کانت بید المسلمین [" ۷] ، وإذا کان من العجیب أن یترک النبی صلی الله علیه وسلم عترته دون أن یبین لهم حقیقة میراثه فإن الأعجب أنه لم یبین لنسائه أیضا. روی البخاری عن عائشة قالت: أرسل أزواج النبی صلی الله علیه وآله عثمان إلی أبی بکر یسألنه ثمنهن مما أفاء الله علی رسوله صلی الله علیه وسلم. قالت عائشة: فکنت أنا أردهن فقلت لهن: ألا تتقین الله. ألم تعلمن أن النبی صلی الله علیه وسلم قال ": لا نورث وما ترکناه صدقة فانتهین أزواج النبی صلی الله علیه وسلم إلی ما أخبرتهن [" ۸] .

مما سبق نری أن الزهراء طالبت بنحلتها وبالإرث وبسهم ذی القربی - ولکن أبا بکر أبی علیها وتوفیت رضی الله عنها بعد وفاة النبی

بستة أشهر. وفى عهد عمر بن الخطاب. ذهب على والعباس ينازعان فى الميراث وكان فى مجلس عمر يومئذ عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد. فقال لهم عمر: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ": لا نورث ما تركناه صدقة، "

[صفحه ۳۱۷]

قالوا: نعم، قال عمر: إن الله جل وعز كان خص رسوله بخاصة لم يخصص بها أحدا غيره قال ": ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول، " فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموال بنى النضير فوالله ما استأثر عليكم ولا أخذها دونكم حتى بقى هذا المال فكان رسول الله يأخذ منه نفقة سنة ثم يجعل ما بقى أسوة المال. أتعلمون ذلك؟ قالوا: نعم. ثم نشد عباسا وعليا بمثل ما نشد به القوم. أتعلمان ذلك؟ قالا: نعم، قال: فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال أبو بكر: أنا ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجئت تطلب ميراثك من ابن أخيك ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها. فقال أبو بكر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نورث ما تركناه صدقة. فرأيتماه كاذبا آثما غادرا خائنا والله يعلم أنه لصادق بار راشد تابع للحق. ثم توفى أبو بكر. وأنا ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وولى أبى بكر فرأيتمانى كاذب آثما غادرا خائنا. والله يعلم أنى لصادق بار راشد تابع للحق فوليتها، ثم جئتنى أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فقلتما ادفعها إلينا [۹] .

ولنا تعليق على هذه الروايات وفى البداية نقول: إن حديث " لا نورث " لم يرويه إلا أبو بكر وحده. ذكر ذلك أعظم المحدثين حتى أن الفقهاء فى أصول الفقه أطبقوا على ذلك فى احتجاجهم فى الخبر برواية الصحابى الواحد. وفى الحديث السابق استشهد عمر وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعدا فقالوا: سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأين كانت هذه الروايات أيام أبى بكر. ما نقل أن أحدا من هؤلاء يوم خصومة الزهراء وأبى بكر روى من هذا شيئا. وفى الحديث السابق أيضا جاء على والعباس إلى عمر يطلبان الميراث. وقد كان أبو بكر قد حسم هذا كله فى عهد وقرر أمام أزواج النبى وأمام على والعباس وفاطمة وعمر حيث كان من المساعدين له. أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يورث. فكيف يعود العباس وعلى بعد وفاة أبى بكر يحاولان أمرا قد

[صفحه ۳۱۸]

فرغ منه. اللهم إلا أن يكونا ظنا أن عمر ينقض قضاء أبو بكر فى هذه المسألة. وهذا بعيد لأن عليا والعباس كانا فى هذه المسألة يتهمان عمر بممالاة أبى بكر على ذلك. ألا تراه يصرح بأنهما نسباه إلى الكذب والغدر والخيانة فكيف يظنان أنه ينقض قضاء أبى بكر؟! ثم إن قول عمر لعلى والعباس عن أبى بكر: فرأيتماه كاذبا آثما غادرا خائنا. ثم قال لما ذكر نفسه: فرأيتمانى كاذبا آثما غادرا خائنا. فإذا كانا يزعمان ذلك. فكيف يزعم هذا الزعم مع كونهما يعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ": لا- أورث " قال ابن أبى الحديد: إن هذا لمن أعجب العجائب ولولا أن هذا الحديث مذكور فى الصحاح المجمع عليها لما أطلت العجب من مضمونه. إذ لو كان غير مذكور فى الصحاح لكان بعض ما ذكرناه يطعن فى صحته. وإنما الحديث فى الصحاح لا ريب فى ذلك. وورد أيضا أن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أرسلوا عثمان إلى أبى بكر يسألنه ثمنهن. ولقد ذكرنا الرواية فى ذلك.. ثم وجدنا عثمان فى مجلس عمر بعد ذلك وعمر يقول: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا نورث ما تركناه صدقة. قالوا: نعم، ومن جملة الذين أجابوا عثمان. فكيف يعلم بذلك فيكون مترسلا لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم يسأله أن يعطيهن الميراث. وروى أيضا أن عمر قال لعلى والعباس: أتعلمون ذلك؟ قالوا: نعم. فإذا كانا يعلمانه فكيف جاء العباس وفاطمة إلى أبى بكر يطلبان الميراث على ما ذكر. وهل يجوز أن يقال: كان العباس يعلم ذلك ثم يطلب الإرث الذى لا يستحقه؟ وهل يجوز أن يقال: أن عليا كان يعلم ذلك ويمكن زوجته أن تطلب ما لا تستحقه. خرجت من دارها إلى المسجد ونازعت أبا بكر وكلمته بما كلمته إلا بقوله وإذنه ورأيه [۱۰] .

وإذا تم التسليم بأن النبى لا يورث. فكيف نسلم بأن النبى صلى الله عليه

[صفحه ۳۱۹]

وسلم وهو الذى أنزل عليه قوله تعالى: (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف

حقا على المتقين) [۱۱] ، وقوله: (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين)، إلى قوله تعالى: (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم - ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين) [۱۲] ، والآيات هنا عامة يدخل فيها النبى صلى الله عليه وسلم وغيره. بدليل أن الآية لم تستثن أحدا. كيف نسلم بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكتب وصيته ويقول فيها ": لا نورث. " وكيف يبين النبى صلى الله عليه وسلم هذا الحكم لغير الأقربين ويكتمه عن الأقربين وهم ورثته. وكيف يظل على والعباس وفاطمة على كلمة واحدة يكذبون رواية نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ويقولون أنها مختلفة. بينما يزعم عمرو وأبو بكر أن عليا والعباس فى قصة الميراث زعما هما كاذبين ظالمين فاجرين. وما رأينا عليا والعباس اعتذرا ولا تنصلا ولا رأينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكروا عليه ما حكاه عمر عنهما ونسبه إليهما [۱۳] إن هذا التضارب فتح الأبواب

للقيل والقال. ومما قيل: قيل لرجل من قرية تسمى الحلة بين الكوفة والبصرة: ما تظن قصد أبى بكر وعمر بمنع فاطمة فدك؟ ما قصدا؟ قال: أرادا ألا يظهرا لعلى - بعد السقيفة - رقة ولينا وخذلانا ولا يرى عندهما خورا. فأتبعاه القرح بالقرح. وقيل لآخر من بلدة تسمى بليدة فى سواد الكوفة: وهل كانت فدك إلا نخيلا يسيرا وعقارا ليس بذلك الخطير؟ فقال: ليس الأمر كذلك بل كانت جليلة جدا وكان فيها من النخل ما بالكوفة الآن من النخل. وما قصد أبو بكر وعمر

[صفحه ۳۲۰]

بمنع فاطمة عنها إلا ألا يتقوى على بن أبى طالب بحاصلها وغلتها على المنازعة فى الخلافة. ولهذا اتبعا ذلك بمنع فاطمة وسائر بنى هاشم وبنى المطلب حقهم فى الخمس. فإن الفقير الذى لا مال له تضعف همته ويتصاغر عند نفسه. ويكون مشغولا بالاحتراف والاكتساب عن طلب الملك والرياسة. وهكذا ضاعت فدك. وضاع سهم ذى القربى الذى نص عليه كتاب الله روى أبو داوود أن نجدة الحرورى حين حج فى أيام ابن الزبير. أرسل إلى ابن عباس يسأله عن سهم ذى القربى ويقول لمن تراه؟ قال ابن عباس: لقربى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضا رأيناه دون حقنا فرددناه عليه وأبينا أن نقلبه [۱۴] .

وترتب على ذلك فيما بعد اختلاف العلماء فى الغنائم وكيف توزع [۱۵] ، واختلفوا فى الفئ والخمس [۱۶] إلى غير ذلك وجميع هذه الاختلافات أصلها مصادرة الدولة لنحلة الرسول وإرثة وسهم ذى القربى، وهذه الاختلافات ولدت فيما بعد الاختلاف الأعظم فى معرفة أهل البيت. وخصوصا عندما أمر عمر بن الخطاب بعدم رواية الحديث. فعندئذ اختلف عامة المسلمين فى أهل البيت. فمن عاكف عليهم هائم بهم ومن معرض عنهم لا يعبأ بأمرهم ومكانتهم من علم القرآن. أو مبغض شانئ لهم. وقد وصاهم النبى صلى الله عليه وسلم بما لا يرتاب فى صحته ودلالته مسلم أن يتعلموا منهم ولا يعلموهم وهم أعلم منهم بكتاب الله. وذكر لهم أنهم لن يغلطوا فى تفسيره ولن يخطئوا فى فهمه - ولكن الوصايا لم تذاع وفقا للمصلحة العامة. حيث كان العديد من الدوائر يتربص بالإسلام والمسلمين. وإن أردت العجب فلك أن تعجب إذا علمت أن مصير فدك بعد سنوات قليلة من منعها عن ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة الزهراء - قد

[صفحه ۳۲۱]

أصبح فى جعبة مروان بن الحكم الذى لعن الرسول أباه وهو فى صلبه. قال فى الفتح الربانى: فلما كان عهد عثمان. تصرف فى فدك بحسب ما رأى فأقطعها لمروان. لأنه تأول أن الذى يختص به النبى صلى الله عليه وسلم يكون للخليفة بعده فوصل بها بعض أقاربه [۱۷] ، إنها التركة التى لغير وارث ومن العجيب أن الحكام فيما بعد كانوا يعتبرون التركة من غير وارث ليستولوا عليها. روى أنه فى القرن الثالث الهجرى أنشئ ديوان خاص يسمى ديوان المواريث وذلك فى عهد الخليفة المعتمد (۲۵۶ - ۲۷۹ ه)، وكان هذا الديوان مجالا واسعا لظلم الناس والإعنات فى مواريثهم وأخذ ما لم تجز به السنة [۱۸] يقول ابن المعتز قرب

أواخر القرن الثالث يشكو ما يجرى على أصحاب المواريث.

وویل لمن مات أبوه موسرا++

أليس هذا محكما شهرا

وطال فی دار البلاء سجنه++

وقيل من يدرى بأنك ابنه

فقال: جيرانی ومن يعرفنی++

فنتفوا سباله حتی فنی

واسرفوا فی لكمه ودفعه++

وانطلقت أكفهم فی صفعه

ولم يزل فی ضيق الحبوس++

حتی رمی لهم بالكيس [۱۹] .

وكان سيف الدولة يأخذ المواريث أخذا رسميا ففی عام (۳۳۳ ه) عين ابن عبد الملك الرقی قاضيا على حلب فكان هذا القاضی يصادر التركات ويقول: التركة لسيف الدولة. وليس لی إلا أخذ الجعالة وكان كثير من الحكام يحاولون أن يعتبروا التركة من غير وارث ليستولوا عليها [۲۰] ، ونعود إلى حيث ابتدأنا فنقول: إن فاطمة الزهراء كانت مصيبة فيما ادعته. ولم تكن فاطمة فی حاجة إلى شهادة وبينة. لأنها بنص الآية: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)، معصومة. والآية تناولت جماعة منهم فاطمة بما تواترت الأخبار فی ذلك. وهی أيضا بنص الحديث " فاطمة بضعة منی من آذاها فقد

[صفحه ۳۲۲]

آذانی ومن آذانی فقد آذی الله عز وجل " معصومة. لأنها لو كانت ممن تقارف الذنوب لم يكن من يؤذيها مؤذيا له على كل حال. بل إن إقامة الحد عليها إن كان صدر منها فعل يقتضی ذلك أيكون سارا له ومطيعا. ولأنها بعيدة عن كل هذا كان من آذاها فقد آذاه ولا خلاف بين المسلمين فی صدقها فيما ادعته. لأن أحدا لا يشك أنها تدعی ما ادعته كاذبة، وليس بعد: لا تكون كاذبة إلا أن تكون صادقة. ولقد قال البعض عن الفعل الأصح الذی كان يجب أن يكون: قد كان الأجمل أن يمنعهم التكرم مما ارتكبا منها فضلا عن الدين وقال ابن أبی الحديد فی تعليقه على هذا القول المفيد: وهذا الكلام لا جواب عنه. ولقد كان التكرم ورعاية حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظ عهده يقتضی أن تعوض ابنته بشئ يرضيها. إن لم يستنزل المسلمون عن فدك وتسلم إليها تطييبا لقلبها. وقد يسوغ للإمام أن يفعل ذلك من غير مشاورة المسلمين إذا رأى المصلحة فيه. وقد بعد العهد الآن بيننا وبينهم ولا نعلم حقيقة ما كان وإلى الله ترجع الأمور.

[۱] معجم البلدان للحموی مادة فدك.

[۲] ابن أبی الحديد ۱۶:۲۳۶ – ط الحلبی.

[۳] سورة الحشر: الآية ۶.

[۴] سورة الإسراء: الآية ۲۶ والآيات ۲۶، ۳۲، ۳۳، ۵۷، ومن الآية ۷۳، إلى الآية ۸۱ مدنية.

[۵] رواه البزار وأبو يعلى وابن أبی حاتم وابن مردويه عن أبی سعيد (الدر المنثور ۴:۱۷۷) (الزوائد ۷:۴۹) (كنز العمال) وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس (الدر المنثور ۴:۱۷۷).

[۶] رواه أحمد وإسناده صحيح (الفتح ۲۳:۶۳).

[۷] الطبقات الكبرى (۲:۳۱۴).

[۸] البخاری ك المغازی ب حديث ابن النضير (۳:۱۷) ومسلم (۵:۱۵۳) ط دار التحرير.

[۹] مسلم (۱۵۲:۵) ط دار التحریر فی البخاری (۱۷:۳).

[۱۰] سورة البقرة: الآیة ۱۸۰.

[۱۱] قال فی تحفة الأحوازی: وحتی الاستشکال أن أصل القصة صریح فی أن العباس وعلیا قد علما بأنه صلی الله علیه وآله قال: لا نورث. فإن کان سمعاه من النبی فکیف یطلبانه من أبی بکر أو فی زمنه فکیف یطلبانه بعد ذلک من عمر (تحفة الأحوازی ۲۳۵:۵).

[۱۲] سورة النساء ۱۱ - ۱۴.

[۱۳] قال السندی فی شرح البخاری: کی یجئ منهما تکذیب أبی بکر فیما روی عن النبی أنه صدیق هذه الأمة (البخاری شرح السندی ۱۶:۳).

[۱۴] سنن أبو داوود، حدیث رقم ۲۹۸۲.

[۱۵] تحفة الأحوازی ۲۲۳:۵.

[۱۶] تحفة الأحوازی ۳۸۳:۵.

[۱۷] الفتح الربانی ۲۶۳:۲۱.

[۱۸] الحضارة الإسلامیة / آدم متز ۲۱۷:۱.

[۱۹] المصدر السابق ۲۱۷:۱.

[۲۰] المصدر السابق ۲۱۸:۱.

تساؤلات علی الطریق

إذا تحدثنا عن الزهراء نجد أنفسنا أمام أسئلة حائرة تبحث لها عن أجوبة.

من هذه الأسئلة: هل بایعت فاطمة الزهراء أبا بکر؟ والإجابة التی نجدها فی البخاری وغیره من حدیث عائشة عندما أبی أبو بکر أن یعطی فاطمة ما سألت: أن فاطمة غضبت وهجرت أبا بکر فلم تول مهاجرته حتی توفیت. وعند البخاری: أن علیا دفنها ولم یخبر أبو بکر بموتها [۱] وعلی هذه الإجابة نقول:

کیف یستقیم موقف الزهراء مع الحدیث الصحیح ": من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات میتة جاهلیة [" ۲] ، وحدیث ": من خرج من السلطان شبرا مات

[صفحه ۳۲۳]

میتة جاهلیة [" ۳] ، هل کانت الزهراء مفارقة للجماعة؟ کیف؟ وبخصوص علی بن أبی طالب. فلقد روی البخاری ومسلم " کان لعلی بن الناس وجهه حیاة فاطمة. فلما توفیت استنکر علی وجوه الناس فالتمس مصالحة أبی بکر ومبایعته ولم یکن بایع تلک الأشهر فأرسل إلی أبی بکر أن ائتنا ولا یأتنا معک أحد کراهیة محضر عمر بن الخطاب. فقال عمر لأبی بکر: والله لا تدخل علیهم وحدک! فقال أبو بکر، وما عساهم أن یفعلوا بی وإنی والله لآتینهم فدخل علیهم أبو بکر [" ۴] ، قال المفسرون: إنه کان لعلی من الناس وجه حیاة فاطمة. أی وجه وإقبال فی مدة حیاتها. وقیل: وجه من الناس حیاة فاطمة أی جاه وعز فقدهما بعدها. وبعد وفاة فاطمة استنکر علی وجوه الناس أی لم یعجبه نظرهم إلیه. فأرسل إلی أبی بکر أن ائتنا ولا یأتنا معک أحد قال المفسرون: أی لئلا یحضر معه من یکره حضوره وهو عمر بن الخطاب لما علم من شدته وصدعه بما یظهر له فخاف هو ومن معه ممن تخلف عن البیعة أن ینتصر عمر لأبی بکر فیصدر عنه ما یوحش صدورهم علی أبی بکر بعد أن طابت وانشرحت له. أما قول عمر: لا تدخل علیهم وحدک فمن خوفه أن یغلظوا علی أبی بکر فی العتاب ویحملهم علی الاکثار من ذلک. لین عریکة أبی بکر وصبره عن الجواب. وبین استنکار وجوه الناس وبین الخوف من غلظة عمر کما قال المفسرون روی البخاری ومسلم ": فقال علی لأبی بکر موعدک العشیة للبیعة [" ۵] ،

ويبقى السؤال: هل يوجد دليل واحد يقول بأن عليا يستمد الجاه والعز من وجوه الناس وهو الذى أطاح برقاب الجبابرة على امتداد حياته. وعاش مظلوما ومات مظلوما. وما هو وزن بيعة مدخلها إرضاء الناس. ثم إذا كان الناس قد انفضوا من حول على فلماذا خاف عمر على أبى بكر أن يدخل عليهم وحده. وأى عتاب

[صفحه ۳۲۴]

هذا الذى كان الفاروق يخشاه على أبى بكر؟ ثم نعود إلى حديث من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية فنقول. ألم يعلم على بهذا الحديث؟ فإذا كان قد بايع بعد وفاة الزهراء. فهل كان على يعلم أنه سيعيش إلى ما بعد أبى بكر فتأخر عن بيعته تلك الشهور الستة، ولقد لعن النبى صلى الله عليه وسلم والمسوفون الذين يقولون سوف أعمل غدا كذا وكذا ثم يأتيهم الموت على شر ولم يعملوا شيئا. إن هذه أسئلة. ولقد بعد العهد الآن بيننا وبينهم ولا نعلم حقيقة ما كان وإلى الله ترجع الأمور.

[صفحه ۳۲۵]

[۱] البخارى (الصحيح ۵۶:۳) ك المغازى.

[۲] صحيح البخارى (الصحيح ۲۲۲:۴) ك الفتن.

[۳] صحيح البخارى (الصحيح ۲۲۲:۴) ك الفتن.

[۴] صحيح مسلم (۱۵۴:۵ باب قول النبى لا نورث)، البخارى (الصحيح ۵۵:۳) ك المغازى.

[۵] صحيح مسلم (۱۵۴:۵ ط دار التحرير)، البخارى (الصحيح ۵۵:۳) ك المغازى.

التعتيم والظهور

لا جدال فى أن الفاروق رضى الله عنه هو الذى وضع الأعمدة الأساسية

للمجتمع المدنى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعمر بن الخطاب هو صاحب أروع منهج لفهم النصوص الدينية فهما يساير الواقع ويحقق مصلحة المسلمين العامة. وما قدمه الفاروق بجميع المقاييس عملا جريئا للغاية لا يقدر عليه سوى رجل من طراز عمر وقليل ما تجد. ونحن هنا سنسلط الأضواء على بعض هذه الأعمال الأساسية. ولكن فى البداية نلقى نظرة على كيفية تولية عمر بن الخطاب الخلافة: روى الطبرى: دعا أبو بكر عثمان خاليا فقال له: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة إلى المسلمين. أما بعد: ثم أغمى عليه. فذهب عنه فكتب عثمان. أما بعد: فإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم ألكم خيرا. ثم أفاق أبو بكر. فقال: إقرأ على فقرأ عليه. فكبر أبو بكر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسى فى عشيتى. قال: نعم، قال: جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله. وأقرها رضى الله عنه من هذا

[صفحه ۳۲۶]

الموضع [۱] .

وفى رواية: إن أبا بكر أخذ رأى عثمان وعبد الرحمن بن عوف فى عمر وكان رأيه من رأيهما أن عمرا خير من يصلح لهذا الأمر. وفى رواية: أن أبا بكر بعد أن استقر على عمر أعلن للناس أن يسمعوا له ويطيعوا. وقبل أن يعلن أبو بكر اسم الخليفة من بعده، روى الطبرى عن قيس قال: رأيت عمر بن الخطاب وهو يجلس والناس معه وبيده جريدة وهو يقول: أيها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال قيس: ومعه مولى لأبى بكر يقال له شديد معه الصحيفة التى فيها استخلاف عمر [۲] ، ويا ليت الفاروق قال ذلك يوم أن أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يأتوه بصحيفة ليكتب لهم كتابا لا يضلوا بعده أبدا. ورحل أبو بكر رضى الله عنه وجاء عمر وكان قبل الخلافة على القضاء أيام خلافة أبى بكر كلها [۳] ، وعلى امتداد هذه المسيرة والشئ الذى يدعو للدهشة أن ظروف المجتمع التى حتمت إلغاء سهم ذى القربى على مراحل. ضيقت فى الوقت نفسه على رواية الحديث ليتم إلغائها أيضا على

مراحل. ومما يدعو للإعجاب بشكل مساو للدهشة أن سهم المؤلفة قلوبهم الذى جعله الله تعالى علامة يتميز بها ضعاف الإيمان والذين فى قلوبهم مرض. ثم تخفيف القبضة عنه ليتم إلغائه أيضا على مراحل. والشئ الذى يدعو للدهشة والإعجاب معا أن هذه الأمور سارت جنبا إلى جنب. الجميع نالوا جرعة واحدة لم يتميز طريق على طريق. وفى النهاية خرجت شجرة كل فرع فيها يداعبه النسيم ليخرج صوتا موسيقيا وفى النهاية تستمع إلى سمفونية يسرى صداها فى عالم الفتن.

[۱] الطبرى ۵۲:۴.

[۲] رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (الزوائد ۱۸۴:۵) ورواه الطبرى (۵۲:۴).

[۳] الطبرى ۳۷۷:۳.

التضيق على روايهٔ الحديث الشريف

لا غنى للكتاب عن السنة. فلولا السنة ما عرفنا مجملات القرآن. والقرآن

[صفحه ۳۲۷]

الكريم يتعرض بمنطقة فى سنته المشروعة لجميع شؤون الحياة الإنسانية من غير أن يتقيد بقيد أو يشترط بشرط، ما يحكم على الإنسان منفردا أو مجتمعا، صغيرا أو كبيرا، ذكرا أو أنثى، على الأبيض والأسود، والعربى والعجمى، والحاضر والبادى، والعالم والجاهل، والشاهد والغائب، فى أى زمان كان وفى أى مكان كان، ويداخل كل شأن من شؤونه من اعتقاد أو خلق أو عمل من غير شك. فللقرآن اصطكاك من جميع العلوم والصناعات المتعلقة بأطراف الحياة الإنسانية، ومن الواضح اللائح من خلال آياته النادبة إلى التدبر والتفكر والتذكر والتعقل أنه يحث حثا بالغا على تعاطى العلم ورفض الجهل فى جميع ما يتعلق بالسماويات والأرضيات والنبات والحيوان والإنسان من أجزاء عالمنا وما وراءه من الملائكة والشياطين واللوح والقلم وغير ذلك ليكون ذريعة إلى معرفة الله سبحانه، وما يتعلق نحوا من التعلق بسعادة الحياة الإنسانية الاجتماعية من الأخلاق والشرائع والحقوق وأحكام الاجتماع. والقرآن اعتبر فى بيان مقاصده السنة النبوية. وعين للمسلمين الأسوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكان المسلمون يحفظون عنه ويقلدون مشيته العلمية تقليد المتعلم معلمه فى السلوك العلمى [۱] .

فلولا السنة ما عرفنا مجملات القرآن ولا اكتشفنا الكثير من أسراره وغوامضه. هذا بالإضافة إلى الكثير من الحوادث التى لم ينص عليها القرآن باسمها ووصفها وتركها للرسول صلى الله عليه وسلم الذى ائتمنه على وحيه وحمله مسؤولية الأداء والتبليغ والتفسير وبيان ما اشتبه حكمه وخفى على المسلمين وجهه فقال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) [۲] ، وقال: (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه) [۳] ، وأوجب القرآن على المسلمين النزول على حكمه صلى الله عليه وسلم

[صفحه ۳۲۸]

فى كل خلاف يحدث بينهم قال تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) [۴] ، وأكد عليهم أن يرجعوا إلى النبى فى أمور دينهم وحثهم على الاستجابة لما يدعوهم فقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم). فمما سبق نعلم أنه لا غنى للكتاب عن السنة ولا وجه للسنة إلا الكتاب. وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحث على تبليغ حديثه ويحذر من الكذب عليه. قال صلى الله عليه وسلم ": ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه [" ۵] ، قال النووى: فيه تصريح بوجوب نقل العلم وإشاعة السنن والأحكام. وقال المهلب: فيه أنه سيأتى فى آخر الزمان من يكون له من الفهم فى العلم ما ليس لمن تقدم، وقال ابن سيرين: وقد كان ذلك. قد كان بعض من بلغه أوعى له من بعض من سمعه [۶] ، والعلم ما بلغ أهله وأصحابه إلا من بعد عصر التدوين. أما قبل ذلك فكان للناس مع الحديث شؤون. ولقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم عن هذه الفترة من الزمان وهو يخبر بالغيب عن ربه فقال ": ألا أنى أوتيت القرآن ومثله

معه ألا یوشک رجل شبعان علی أریکته یقول: علیکم بهذا القرآن. فما وجدتم فیه من حلال فأحلوه وما وجدتم فیه من حرام فحرموه [۷"].

والرجل الشبعان علی أریکته الذی جاء ذکره فی الحدیث هو من استوی قاعدا علی وطاء متمکنا. وقال رسول الله صلی الله علیه وسلم لأصحابه ": لألفین

[صفحه ۳۲۹]

أحدکم متکئا علی أریکته یأتیه الأمر من أمری مما أمرت به أو نهیت عنه فیقول: لا أدری ما وجدناه فی کتاب الله اتبعناه [۸] ، وقال لهم ": یوشک أحدکم أن یکذبنی وهو متکئ علی أریکته. یحدث بحدیث من حدیثی فیقول. بیننا وبینکم کتاب الله. فما وجدنا فیه من حلال استحللناه وما وجدنا فیه من حرام حرمناه ألا وإن ما حرم رسول الله صلی الله علیه وسلم مثل ما حرم الله [۹] .

وفی مرحلهٔ من مراحل الدعوهٔ کان بعض الصحابهٔ یحرصون علی حفظ الحدیث ونقله. وهذا الحرص منعهم عن تمحیصه والتدبر فی معناه وخاصهٔ فی عرضه علی کتاب الله وهو الأصل الذی تبنی علیه بنیهٔ الدین وتستمد منه فروعه. فأمر النبی صلی الله علیه وسلم بعدم الروایهٔ عنه والرجوع إلیه فی أمور دینهم وفی حجهٔ الوداع وبعد أن اکتمل البناء بحمل أهل البیت لسنته صلی الله علیه وسلم. أمر علیه الصلاهٔ والسلام بأن یروی الناس عنه. وأشار إلی أن یتعلم المسلمون من أهل البیت ولا یعلموهم لأنهم أعلم منهم بکتاب الله وذکر أنهم لن یغلطوا فی تفسیره ولن یخطئوا فی فهمه وإنهم والکتاب لن یفترقا حتی یردا علی الحوض. وبعد وفاهٔ النبی صلی الله علیه وسلم وجد أبو بکر رضی الله عنه أن العدید من الصحابهٔ یبالغ فی روایهٔ الحدیث فضیق الحلقهٔ علی الروایهٔ. وعندما تولی عمر رضی الله عنه الخلافهٔ روی مالک: أن عمر أراد أن یکتب الأحادیث. أو کتبها. ثم قال: لا کتاب مع کتاب الله [۱۰] ، ثم ضیق علی الروایهٔ فعن قرظهٔ بن کعب قال، قال عمر: أقلوا الروایهٔ عن رسول الله صلی الله علیه وسلم وأنا

[صفحه ۳۳۰]

شریککم [۱۱] ، وقال ابن کثیر: إن عمر کان یقول اشتغلوا بالقرآن فإن القرآن کلام الله ولهذا لما بعث أبا موسی إلی العراق قال له: إنک تأتی قوما لهم فی مساجدهم دوی بالقرآن کدوی النحل فدعهم علی ما هم علیه ولا تشغلهم بالأحادیث. وأنا شریککک فی ذلک. وقال ابن کثیر: هذا معروف عن عمر رضی الله عنه [۱۲] .

ثم بدأ عمر یضیق الدائرهٔ حتی أنه کان یحبس من یروی. فعن سعد بن إبراهیم عن أبیه أن عمر بن الخطاب قال لابن مسعود ولأبی الدرداء ولأبی ذر ما هذا الحدیث عن رسول الله صلی الله علیه وسلم. وأحسبه حبسهم حتی أصیب [۱۳] ، وعن السائب بن یزید قال: سمعت عمر یقول لأبی هریرهٔ: لتترکن الحدیث عن رسول الله صلی الله علیه وسلم أو لألحقنک بأرض دوس [۱۴] ، وروی عن عبد الرحمن بن عوف قال: والله ما مات عمر حتی بعث إلی أصحاب محمد صلی الله علیه وآله فجمعهم من الآفاق: عبد الله بن حذافهٔ، وأبا الدرداء، وأبا ذر، وعقبهٔ بن عامر، فقال: ما هذه الأحادیث التی أفشیتم عن رسول الله صلی الله علیه وسلم فی الآفاق: قالوا: أتنهانا. قال: لا. أقیموا عندی. لا والله لا تفارقونی ما عشت [۱۵] ، وروی ابن عبد البر: کتب عمر فی الأمصار من کان عنده شئ من ذلک فلیمحه [۱۶] .

[صفحه ۳۳۱]

وترتب علی ما سبق خوف الصحابهٔ من الروایهٔ کان أبو هریرهٔ یقول: إنی لأحدث أحادیث لو تکلمت بها فی زمان عمر أو عند عمر لشج رأسی [۱۷] ، وقال: أفکنت محدثکم بهذه الأحادیث وعمر حی. أما والله إذا لأیقنت أن المحففهٔ ستباشر ظهری [۱۸] ، وقال ": ما کنا نستطیع أن نقول قال رسول الله صلی الله علیه وسلم حتی قبض عمر [۱۹] .

وقیل إن عدم الروایهٔ کان حفظا للقرآن وخوفا من أن یتداخل الحدیث مع القرآن، ولا یخفی ما فی هذا القول من تساهل کبیر. لأن القرآن إعجاز لو اجتمعت الإنس والجن کی یضعوا فیه ما لیس منه ما استطاعوا. ولا یصدق عاقل أن یقرأ إنسان نصف آیهٔ ثم یکملها

بحديث أو نصف حديث. ويقول هذا من كتاب الله. فقول مثل هذا لا يلتفت إليه. لقد وضع عمر مبدأ عدم الرواية. ولكن نشأ عنه آثار جانبية مثل التى تنشأ عن الدواء الذى يستخدم فى علاج داء معين ومن جملة تلك الآثار الجانبية تمسك بعض من الصحابة بمبدأ عمر فى وقت كانت الرواية فيه بمثابة عودة الروح للجسد، ومن الأمثلة على ذلك. عن محمود بن لبيد قال: سمعت عثمان بن عفان على المنبر يقول: لا يحل لأحد يروى حديثا لم يسمع به فى عهد أبى بكر ولا عهد عمر [۲۰] ، ثم جاء معاوية بن أبى سفيان فقال: أيها الناس أقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وإن كنتم تحدثون فحدثوا بما كان يتحدث به فى عهد عمر [۲۱] ، ثم جاء عمر بن العاص ليشهد ويقسم. فقال: أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ما أقرأكم عمر فاقرؤا وما أمركم به فائتمروا [۲۲] ، ولا يخفى أن المسافة من عثمان إلى معاوية كنت فى حاجة إلى أحاديث وأحاديث.

[صفحه ۳۳۲]

ومن الآثار الجانبية لمبدأ عدم الرواية. أن هناك أنماطا بشرية لعنهم رسول الله وحذر منهم وطرد بعضهم فهؤلاء ضاع من عليهم التحذير. ومع مرور الأيام نسى الناس ما روى فيهم. فتقلدوا مراكز الصدارة فى فترة من الفترات. ولقد حاول هؤلاء التعتيم على الرواية فى العهد النبوى ولكن الرسول أمر بالرواية ورد كيدهم فى نحورهم، فعن عبد الله بن عمرو قال: قالت لى قريش تكتب عن رسول الله صلى الله عليه وآله!! وإنما هو بشر يغضب كما يغضب البشر. فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: إن قريشا تقول تكتب عن رسول الله وإنما هو بشر يغضب كما يغضب البشر. قال: فأومأ لى النبى صلى الله عليه وآله وسلم شفتيه. وقال: والذى نفسى بيده ما يخرج ما بينهما إلا حق فاكتب [" ۲۳] ، وقولهم: يغضب كما يغضب البشر فيه أنهم كانوا يعنون أحاديث بعينها. وعلى هذا لا يستغرب أن يصر عثمان ومعاوية وعمرو على رواية أحاديث خضعت لفقه عدم الرواية. ومن الآثار الجانبية أن عدم الرواية أدى إلى نسيان الصحابة وتركهم رواية الحديث، فعن ابن أبى أوفى قال: كنا إذا آتينا زيد بن أرقم فنقول حدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: كبرنا ونسينا [۲۴] ، وروى عن ابن عباس قال: كنا نحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله إذا لم يكذب عليه فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه [۲۵] .

ومن آثاره إفساح المجال للقص فى المساجد ثم دخول الأحاديث الموضوعة بعد ذلك. ومن آثاره التعتيم على أهل البيت فى مرحلة. وقتلهم فى مرحلة وتشويههم فى مرحلة. وفيما نظن أن الفاروق لو كان يعلم أن مبدأه

[صفحه ۳۳۳]

سيترتب عليه آثار جانبية. لعدل عنه وجمع العديد من الصحابة العدول الثقاة وأمرهم بكتابة الأحاديث الصحيحة لتكون منارا لمن يأتى بعدهم ولقطع بذلك الطريق على الوضاعين والذين فرقوا الأمة شيعا وأحزابا. ولسد المنافذ على الذين التمسوا لمبدأه الأعذار وقالوا: إن منع الرواية كان من أجل أن لا يزاحم الحديث القرآن لأن فى هذا القول من التشكيك ما لا يخفى.

[۱] الميزان ۵:۲۷۱.

[۲] سورة النحل: الآية ۴۴.

[۳] سورة النحل: الآية ۶۴.

[۴] سورة النساء: الآية ۶۵.

[۵] رواه البخارى كتاب العلم (الصحيح ۱:۲۳) وأحمد ورجاله ثقات (الفتح الربانى ۲۱:۲۷۶) وقال النبى هذا فى حجة الوداع.

[۶] (الفتح الربانى ۱۱:۲۷۶).

[۷] رواه أحمد وإسناده جيد وقال فى نيل الأوطار حديث صحيح ورواه أبو داود عن المقدام بن معد يكرب (الفتح الربانى ۱:۱۹۱) (كنز العمال ۱:۱۷۴) أبو داود حديث رقم ۴۶۰۴.

[۸] رواه أحمد والترمذى وأبى داود وابن ماجة والحاكم عن أبى رافع وقال الترمذى حديث صحيح (الجامع ۵:۳۷)، (كنز العمال

۱۷۴:۱).

[۹] رواه أحمد والترمذی وحسنه والحاکم (الجامع ۳۸:۵) (الفتح الربانی ۱۹۱:۱).

[۱۰] ابن عبد البر (کنز العمال ۲۹۲:۱۰).

[۱۱] رواه الحاکم وقال حدیث صحیح (المستدرک ۱۰۲:۱) الطبری ۱۹:۵.

[۱۲] ابن کثیر فی البدایة والنهایة ۱۰۷:۸، وقال بن حبان فی المجروحین رواه ابن ماجة والحاکم وله طرق (المجروحین ۳۶:۱).

[۱۳] رواه الحاکم وقال صحیح علی شرط الشیخین وإنکار عمر علی الصحابة کثرة الروایة فیه سنة ولم یخرجاه (المستدرک ۱۱۰:۱) ورواه ابن سعد فی الطبقات (۳۳۶:۲) وابن حبان فی کتابه المجروحین (۳۵:۱).

[۱۴] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۲۹۱:۱۰).

[۱۵] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۲۹۳:۱۰) وابن حبان فی کتابه المجروحین (۳۵:۱).

[۱۶] رواه ابن عبد البر وأبو خیثمة معا فی العلم (کنز العمال ۲۹۲:۱۰).

[۱۷] ابن کثیر فی البدایة (۱۰۷:۸).

[۱۸] ابن کثیر فی البدایة (۱۰۷:۸).

[۱۹] ابن کثیر فی البدایة (۱۰۷:۸).

[۲۰] ابن سعد (الطبقات ۳۳۶:۲) ابن عساکر (کنز العمال ۲۹۵:۱۰).

[۲۱] ابن عساکر (کنز العمال ۲۹۱:۱۰).

[۲۲] ابن عساکر (کنز ۵۹۳:۱۲).

[۲۳] رواه الحاکم وقال حدیث صحیح الإسناد أصل فی نسخ الحدیث عن رسول الله ولم یخرجاه (المستدرک ۱۰۵:۱) ورواه أبو داود حدیث ۳۶۴۶.

[۲۴] ابن عساکر (کنز العمال ۱۹۴:۱۰).

[۲۵] رواه ابن حبان فی کتابه المجروحین (۳۸:۱).

من آثار عدم روایة الحدیث

کان عدد من أهل الکتاب قد دخلوا فی الإسلام وأخذ عنهم المحدثون فیما
بعد شیئا کثیرا من أخبار کتبهم وقصص أنبیائهم وأممهم فخلطوها بما کان عندهم من الأحادیث المحفوظة عن النبی صلی الله علیه وسلم، وأخذ الوضع والدس یدوران فی الأحادیث. ویوجد الیوم فی الأحادیث المقطوعة المنقولة من الصحابة ورواتهم فی الصدر الأول شیئ کثیر من ذلک یدفعه القرآن بظاهر لفظه: وإذا أردنا أن نضع أیدینا علی البدایة. فلا بد من البحث فی مساحة عدم الروایة لنری أین الوتر الذی تعود إلیه وإلی طابوره الأحادیث الموضوعة فی صفات الله وأسمائه وأفعاله والزلات المنسوبة إلی الأنبیاء الکرام والمساوئ المشوهة المنسوبة إلی النبی صلی الله علیه وسلم والخرافات فی الخلق والإیجاد وقصص الأمم الماضیة. والوتد الأساسی الذی نعتقد أنه الأساس فی هذا البلاء هو القص وعلیه نسلط الضوء.

القص فی المساجد

القاص أو القصاص (والجمع قصاص) هو الرجل الذی کان یجمع الناس
حوله فی الطرقات أو فی المساجد. فیعظهم حینا بذکر الأحادیث والأخبار ویسلیهم بالقصص والحکایات حینا آخر. وهؤلاء کانوا

مقربين من الخلفاء وكانوا يقومون مقام الصحف فى أيامنا هذه لذا كان الإمام على بن أبى طالب يقول

[صفحه ۳۳۴]

للقاص: أنت أبو اعرفونى [۱] .

وأقدم خبر للقص فى صدر الإسلام ما رواه البخارى أن سعيد بن جبير قال لابن عباس: بالكوفة رجل قاص يقال له نوف البكالى يزعم أن موسى الذى اجتمع مع العبد الصالح بمجمع البحرين ليس بموسى بنى إسرائيل. فقال ابن عباس: كذب عدو الله [۲] .

وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وتضييق الرواية كانت الساحة مستعدة لاستقبال هؤلاء ليقوموا بالواجب الذى تقوم به صحافة أيامنا هذه. وروى الإمام أحمد: كان أول من قص تميم الدارى استأذن عمر بن الخطاب أن يقص على الناس قائما فأذن له [" ۳] ، وعن السائب بن يزيد قال: إنه لم يكن يقص على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولا أبى بكر وكان أول من قص تميم الدارى استأذن عمر أن يقص فأذن له [" ۴] ، وتميم كان راهبا نصرانيا وأسلم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم. ولم يعترض أحدا على القص أو لم يجتمعوا لترتيب أوراقهم بعد أن حذرهم النبى من أن القص علامة على طريق طويل. وذلك فيما رواه الطبرانى ": إن بنى إسرائيل لما هلكوا قصوا [" ۵] ، ولكن الساحة رضيت بهذه الظاهرة التى يتثقف بها العامة. ثم جاءت نقطة التحول بدخول كعب الأحبار ساحة القص. وكعب كان على دين اليهود فأسلم فى عهد عمر بن الخطاب وكان من المقربين إليه. قال ابن حبان مات كعب سنة أربع وثلاثين وقد بلغ مائة سنة وأربع سنين [۶] .

وكان أستاذ كعب الأحبار قد أسلم فى عهد أبى بكر. وكان يدعى

[صفحه ۳۳۵]

المسؤول فكناه أبو بكر أبا مسلم وروى عن معاوية [۷] وكعب الأحبار نفسه

عمل مستشارا لمعاوية وهو أمير على الشام. وذلك بعد أن ترك المدينة وتوجه إلى الشام وسكن حمص. وكعب هو الذى ألقى حب الخلافة فى قلب معاوية فى أثناء الثورة على عثمان بن عفان [۸] وكان معاوية يقول: إن كعب الأحبار أحد

العلماء [۹] ، وبدخول كعب إلى الساحة ظهر طابور طويل لم يكن قصدهم الدين بل تسلية العامة باختراع الأحاديث ونشرها بينهم. وتشويه القصص الدينية ووضعها فى مربع الخرافات. وكانت الإسرائيليات وما يتصل بها مادة لقصصهم، وقد عملوا على نشرها. وكانوا لا يترددون عن الإجابة عن كل سؤال يوجه إليهم. لأن اعترافهم بالجهل كان من شأنه أن يزعزع ثقة العامة بهم. وبدأ كعب الأحبار يمارس عمل كعمل الصحافة فى أيامنا هذه. وعلى سبيل المثال عن محمد بن سيرين أن كعب الأحبار قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين هل ترى فى منامك شيئا؟! فانتهره. فقال: إنا نجد رجلا يرى أمر الأمة فى منامه [" ۱۰] ، وعن شداد بن أوس قال. قال كعب الأحبار ": كان فى بنى إسرائيل ملك إذا ذكرناه ذكرنا عمر وإذا ذكرنا عمر ذكرناه [" ۱۱] ، وعن سالم بن عبد الله أن كعب الأحبار قال لعمر: إنا لنجد ويل لملك من ملك السماء فقال عمر: إلا من حاسب نفسه فقال كعب: والذى نفسى بيده إنها فى التوراة لتابعتها [۱۲] .

ويبدو أن الساحة فى هذه الآونة كانت على خلاف فى تعريف من هو الخليفة ومن هو الملك. وكان هذا الأمر يشغل الفاروق، فعن سفيان بن أبى العوجاء قال: قال عمر: والله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك؟!، فإن كنت ملكا فهذا أمر عظيم. فقال قائل: يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقا. قال: ما هو؟ قال:

[صفحه ۳۳۶]

الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا فى حق. فأنت بحمد الله كذلك. والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا. فسكت عمر [۱۳] ، ويبدو أن سكون الفاروق يعبر على أن الإجابة ليست كاملة. لهذا سأل سلمان الفارسى: أملك أنا أم خليفة؟ فقال سلمان: إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر. ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة [۱۴] ، ويبدو أن هذه الإجابة

تشير إلى الفئ وتقسيمه من طرف خفى. ثم طرح السؤال بعد ذلك على كعب الأحبار الذى نعتبره الجريدة الرسمية فى هذه الآونة. فسأل عمر كعبا: أنشدك الله أتجدنى خليفة أم ملك؟ قال: بل خليفة. فاستحلفه عمر. فقال: خليفة والله من خير الخلفاء وزمانك خير زمان [۱۵] .

وروى أن بعد فتح بيت المقدس كان كعب يرافق عمر. وعندما أراد عمر الصلاة قال لكعب: أين ترى أن أصلى؟ قال: إن أخذت عنى! صليت خلف الصخرة فكانت القدس كلها بين يدك [۱۶] ، لقد كان كعب يريد من وراء ذلك أن تزاحم قبلة اليهود قبلة المسلمين. ولكن عمر تنبه إلى هذا فيما رواه الهيثم بن عمار قال: قال عمر لكعب حين أراد أن يبنى المسجد: أين ترى أن نجعل المسجد؟ قال: اجعله خلف الصخرة فتجمع بين القبلتين قبلة موسى وقبلة محمد. فقال عمر، ضاهيت اليهودية والله يا أبا إسحاق. خير المساجد مقدمها فبناه فى مقدم المسجد [۱۷] .

وفى ساحة حظرت الرواية لا يستغرب أن يسأل عمر كعب الأحبار: أخبرنا عن فضائل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مولده [" ۱۸] ، وقوله: حدثنى

[صفحه ۳۳۷]

يا كعب عن جنات عدن [۱۹] ، إن فتح الباب أمام كعب ليدخل إلى السيرة النبوية وإلى الغيبيات يترتب عليه أمور وأمور. ومن فضل الله تعالى أنه جعل فى الساحة من يتصدى لكعب. فعن عوف بن مالك أنه دخل المسجد يتوكأ على ذى الكلاع وكعب يقص على الناس فقال عوف لذى الكلاع: ألا تنهى ابن أخيك هذا عما يفعل [۲۰] ، وبلغ حذيفة أن كعبا يقول: إن السماء تدور على قطر كالرحا فقال: كذب كعب [۲۱] .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحب البحث عن نفسه فى كتب أهل الكتاب. فعن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب قال: بعثنى عمر إلى الأسقف فدعوته فقال له: هل تجدنى فى الكتاب؟! قال: نعم، قال: كيف تجدنى؟ قال: أجدك قرنا. فرفع عمر عليه الدرة وقال: قرن مه؟ قال الأسقف: قرن حديد أمين شديد [۲۲] ، وروى أن عبد الله بن سلام - كان يهوديا. أسلم فى عهد النبوة - وكان عمر قد ذهب إليه ليسأله فى معنى قفل جهنم. أن قال: يا أمير المؤمنين أخبرنى أبى عن آبائه عن موسى بن عمران عن جبريل أنه قال: يكون فى أمة محمد رجل يقال له عمر بن الخطاب. أحسن الناس دينا وأحسنهم يقينا ما دام بينهم الدين عال والدين فاش فجهنم مقفلة... إلخ [" ۲۳] .

وإذا أردنا أن تزن ما سبق ونسأل هل أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذه الأحداث التى تعصف بالساحة؟ نقول: ربما تكون هناك إشارة فى حديث رواه ابن عباس، قال: إن عمر بن الخطاب أتى النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ": أمتهوكون [۲۴] فيها يا ابن الخطاب. والذى نفسى بيده لقد جئتكم

[صفحه ۳۳۸]

بها بيضاء نقية. لا تسألوهم عن شئ فيخبرونكم بحق فتكذبونه وبباطل فتصدقونه. والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى [" ۲۵] ، إن دخول معترك أهل الكتاب يكون بمعرفة مادتهم أولا- ثم وزنها بميزان الإسلام ثم طرحها عليهم لتدمغهم الحجة. ولذلك نرى أن النبى صلى الله عليه وسلم. أمر زيد بن ثابت بأن يتعلم له كتب اليهود أولا ليكتب له ويقرأ له إذا كتب إليه. وغضب النبى صلى الله عليه وسلم عندما جاء عمر بكتاب أهل الكتاب. فيه إشارة خاصة ليتذكرها الذهن وتقوم بها الحجة. ولأنه صلى الله عليه وآله وسلم يعلم أن هذا سيقع لا- محالة قال ": لتهوكون كما تهوكت اليهود والنصارى. لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى [" ۲۶] .

ومعالم التهوك يمكن أن يرصدها الباحث بسهولة، فالقصص يعتبر أكبر عقبة فى سبيل التقدم. لأنه يصرف الناس عن الاشتغال بالعلوم الدينية وما يحقق سعادتهم فى الدنيا والآخرة. وذلك لما له من تأثير قوى فى الجماهير. وفى عصر بنى أمية راج القص. فمعاوية أمر

كعب الأحبار بأن يقص بالشام [۲۷] وبعد كعب جاء وهب بن منبه. قال الذهبى عنه: أبو عبد الله اليمانى صاحب القصص... ولد فى آخر خلافة عثمان... كثير النقل من كتب الإسرائيليات. كان يقول: قرأت بضعة وسبعين كتابا من كتب الأنبياء [۲۸] ، ولوهب أيضا تلاميذ. وظل يتجول فى بلاد المسلمين يبث فيها خرافاته وأساطيره إلى السنة التى مات فيها وهى سنة ۱۱۴ ه على أصح الأقوال [۲۹] والحزب الأموى اعتنى بالقص

كى يرفعهم القصاصون فى عيون المسلمين نظرا لعدم وجود فضل لهم يرفعهم

[صفحه ۳۳۹]

على عهد النبى صلى الله عليه وسلم. وفى عهد بنى أمية كان القصاصون يذكرون عليا وولده بما يطفئ نورهم ويكتم فضلهم. وذلك كله لحساب الحزب الحاكم. وروى عن غضيف بن الحرث قال: بعث إلى عبد الملك بن مروان فقال: قد جمعنا الناس على أمرين. قلت: وما هما؟ قال: رفع الأيدى على المنابر يوم الجمعة والقص بعد الصبح والعصر [۳۰] .

وعلى هذا الدرب اخترعت أحاديث. وتم الخلط بين الحقيقة والخيال. روى ابن عساكر عن يزيد بن هارون قال: سمعت شعبة يقول: أبو هريرة كان يدلس. أى يروى ما سمعه من كعب وما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يميز هذا من هذا [۳۱] ، ولم يقف الأمر عند أبى هريرة. بل تعداه إلى من سمع منه، روى الإمام مسلم عن بشر بن سعيد أنه قال: لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة فيحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثنا عن كعب الأحبار ثم يقول. فاسمع بعضه من كان معنا يجعل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كعب وحديث كعب عن رسول الله - وفى رواية - يجعل ما قاله كعب. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كعب [۳۲] وسواء كان التدليس من

أبى هريرة أم من الذين سمعوا منه. فإن كعب الأحبار هو محور الارتكاز. إن طريق التهوك بعد أن فتح الباب أمام النص واضح ولا غبار عليه. ولقد ذم غير واحد من العلماء أثر القص على الحديث. قال ابن الجوزى: إن بعض البلاء يجرى من القصاصين. قيل لواحد منهم: من أين حفظت هذه الأحاديث؟ قال: والله ما حفظتها ولا أعرفها بل فى وقتى قلتها [۳۳] وقال أبو حاتم: كان القصاصون يضعون الحديث فى قصصهم ويرونها عن الثقات [۳۴] ، ولم يقف الأمر

[صفحه ۳۴۰]

عند الحديث والتفسير بل انتهى القص إلى مرحلة أخرى يدمر فيها الأخلاق. فلقد أخذت مواد القصص الغرامية تتكاثر وتتزايد بإطراد فى أواخر العصر الأموى. حتى حمل السرور والإعجاب بها على إنشاء حلقات من القصص الغرامية تعتمد على أغانى الغزل المشهورة من ناحية. كما تشتبك بمختلف البواعث النابعة من آداب الأمم عامة من ناحية أخرى، ورواها العرب دون تحرى مصادرها وإن سموا بعض الأشخاص من أبطال الغرام والعشق الذين لم يكونوا إلا من أبناء الخيال [۳۵] ، وهذا الباب ترتب عليه ثقافة وهذه الثقافة فتحت الطريق لأبواب أخرى تجد على أبوابها دعاة الصوفية والانعزالية. وتجد الذين يستدرون عطف الحكام. وتجد الذين يطبخون علوم الكلام لترى على الموائد أصنافا عديدة. من أقوال مرجئة إلى أقوال قدرية إلى علوم يونانية. وكل هذا أملاه الواقع الجديد الذى بناه القص. قد يتبادر إلى الذهن سؤال: أين كان علماء أهل البيت من هذا؟ نقول: كانوا يعيشون عيش العلماء وقد زهدوا فى الناس وما فى أيدى الناس. كانوا يقيمون الحجة ولا يتدخلوا فى اختيار الناس. فالإمام على، واجه القصاصين ونسبهم إلى النسب الصحيح فقال: أنتم أبو اعرفونى. أما الحسن بن على رضى الله عنه فلقد روى أنه مر يوما. وقاص يقص على باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له الحسن: ما أنت؟ قال: أنا قاص يا ابن رسول الله، قال: كذبت! محمد صلى الله عليه وسلم القاص. قال تعالى: (فاقصص القصص)، قال الرجل: فأنا مذكر، قال: كذبت! محمد صلى الله عليه وآله وسلم المذكر، قال تعالى: (فذكر إنما أنت مذكر)، قال الرجل: فما أنا؟ قال له الحسن: المتكلف من الرجال [۳۶] .

والخلاصة لقد قدمنا هنا أن البداية كانت عندما فتح عمر باب القص، وشهد بذلك حديث صحيح، وإن هذا القص زيف الحقائق

وشهد بذلک حدیث

[صفحه ۳۴۱]

عند البخاری [۳۷] ، کما أحدث القص خلط الأمور وشهد بذلک حدیث عند مسلم [۳۸] ، وانتهی المطاف بالأمة إلی الاختلاف والافتراق علی طریق التهوک وکل حزب من الأحزاب فی جعبته حزمة من الأحادیث وقد شهد بذلک القرآن الکریم والأحادیث الشریفة وحرکة التاریخ.

[۱] رواه الدارمی والبیهقی والعسکری (کنز العمال ۷۷۵:۱۲).

[۲] رواه البخاری ک التفسیر (الصحیح ۱۵۵:۳).

[۳] أحمد (الفتح الربانی ۱۴۵:۲۰).

[۴] العسکری (کنز العمال ۲۸۰:۱۰).

[۵] الفتح الربانی (۱۹۴:۱).

[۶] راجع ترجمته بالإصابة ۳۱۵، ۳۱۶، ۳۱۷:۳، الطبقات الکبری ۴۴۵:۷.

[۷] الجرح والتعدیل / الرازی ۴۳۶:۹.

[۸] راجع البدایة والنهایة ۸۲۷:۸، الکامل ۷۹:۳ وسیأتی ذلک فی حینه.

[۹] الإصابة ۳۱۶:۳.

[۱۰] ابن المبارک وابن عساکر (کنز العمال ۵۶۲:۱۲).

[۱۱] سدد وإسناده صحیح (کنز العمال ۲۸۲:۱).

[۱۲] الدارمی والبیهقی والعسکری (کنز العمال ۷۷۵:۱۲).

[۱۳] ابن سعد (کنز العمال ۵۶۷:۱۲).

[۱۴] ابن سعد (کنز العمال ۵۶۷:۱۲)، الطبری (تاریخ الأمم ۳۴:۵).

[۱۵] نعیم ابن حماد فی الفتن (کنز العمال ۵۷۴:۱۲).

[۱۶] أحمد والضیاء بسند صحیح (کنز العمال ۱۴۳:۱۴).

[۱۷] ابن عساکر (کنز العمال ۱۴۸:۱۴).

[۱۸] ابن عساکر (کنز العمال ۳۶۴:۱۲).

[۱۹] ابن المبارک وأبو ذر الهواری فی الجامع (کنز ۵۶۱:۱۲).

[۲۰] الإصابة / ابن حجر (۳۱۵:۳).

[۲۱] الإصابة (۳۱۶:۳).

[۲۲] أبو داوود حدیث رقم ۴۶۵۶، ابن أبی شیبة ونعیم ابن حماد (کنز العمال ۵۵۹:۳).

[۲۳] ابن عساکر (کنز العمال ۵۸۶:۱۲).

[۲۴] أی: أمتحیرون أنتم فی الإسلام. وقیل: أترددون ساقطون لسان العرب ص ۴۷۲۲.

[۲۵] رواه أحمد وابن ماجة (کنز ۲۰۰:۱) وابن أبی عاصم وحسنه الألبانی وقال له طرق (کتاب السنة ۲۷:۱).

[۲۶] رواه ابن حبان فی صحیحه (کنز العمال ۲۰۱:۱۱).

[۲۷] رواه الطبرانی (الإصابة ۳۱۶:۳).

[۲۸] میزان الاعتدال ۳۵۲:۴.

[۲۹] تاريخ الأدب العربى / بروكلمان ۲۵۱:۱.

[۳۰] رواه أحمد والبزار والطبرانى وقال فى الفتح الربانى إسناده جيد (الفتح ۱۹۴:۱).

[۳۱] ابن عساكر (البداية والنهاية ۴۰۹:۸).

[۳۲] مسلم (البداية والنهاية ۱۰۹:۸).

[۳۳] الموضوعات / ابن الجوزى ۴۴:۱.

[۳۴] المجروحين / ابن حبان (۸۵:۱).

[۳۵] تاريخ الأدب العربى ۱۹۹:۱.

[۳۶] تاريخ اليعقوبى ۲۷۰:۲.

[۳۷] نقض الحديث الذى يخص القاص نوف البكالى.

[۳۸] نقصد حديث النقل عن أبى هريرة.

الاقتحام بالشعر

كان الشعر سلاحا فعالا على ساحة ضاقت فيها دائرة الرواية. ولا نقصد

بذلك عموم الشعر. وإنما نقصد الشعر الذى يصد عن سبيل الله ويضرب الأخلاق فى جذورها. ولأن الطريق إلى المجون يبدأ دائما من دائرة البخس. فلقد حذر تعالى من الاقتراب من هذا الطريق، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) [۱] ، وقال: (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) [۲] ، وقال: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا) [۳] ، وقال: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) [۴] ، إلى غير ذلك من الآيات وقد تكلمنا عنها فيما سبق. وفى الوقت الذى أمر فيه تعالى بهذه الأوامر لحفظ دينه على امتداد الأرض. أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتحصين مركز القيادة وإشعاع الثقافة الإسلامية فى حديث رواه الشيخان وغيرهما. وذلك عند وفاته صلى الله عليه وآله وسلم فقال ": اخرجوا المشركين من جزيرة العرب " وحدد قبائل بعينها وصفهم بأنهم شر القبائل فقال ": شر قبيلتين فى العرب نجران وبنى تغلب [" ۵] ، وكانت هذه القبائل مركزا خصبا للنصرانية. وروى عن ابن عباس أنه قال ": لا

[صفحه ۳۴۲]

تؤكل ذبائح نصارى بنى تغلب ولا- تنكح نساؤهم. ليسوا منا ولا من أهل الكتاب [" ۶] وكان الإمام على بن أبى طالب يقول فى خلافته ": لئن تفرغت لبنى

تغلب ليكونن لى فيهم رأى. لأقتلن مقاتلهم ولأسبين ذريتهم [" ۷] ، ولكنه رضى الله عنه لم يعط الفرصة لالتقاط أنفاسه. فهل خرج المشركون من جزيرة العرب؟ من الثابت أنهم لم يخرجوا إلا قليلا منهم، أما الكثرة فرضيت الدولة منهم بدفع الجزية. روى الطبرى وغيره أن الجزيرة افتتحها عمر بن الخطاب فى السنة السابعة عشرة هجرية [۸] وعندما أراد

عمر أن يأخذ الجزية من نصارى بنى تغلب فروا إلى أرض الروم. فقال النعمان بن زرعة لعمر: أنشدك الله فى بنى تغلب فإنهم قوم من العرب يغضبون من ذكر الجزاء وهم قوم شديدة نكايتهم، فصالح عمر بنى تغلب بعدما قطعوا الفرات وأرادوا اللحاق بأرض الروم. على أن لا ينصروا وليدا ولا يمنعوا أحدا منهم من الإسلام. فأعطى بعضهم ذلك وأخذوا به وأبى بعضهم إلا الجزية [۹] ، ثم نقض بنو تغلب عهدهم مع عمر ونصروا أولادهم. فضاعف عمر عليهم الجزية فقالوا: إنا نرضى ونحفظ ديننا [۱۰] ، واستمر الحال على ذلك. وفى عهد عثمان بن عفان. أراد عثمان أن لا يقبل من بنى تغلب فى الجزية إلا الذهب والفضة. فجاءه الثبت أن عمرا أخذ منهم ضعف الصدقة فرجع عن ذلك [۱۱] .

مما سبق نعلم أن الدولة اجتهدت فی وصیة النبی صلی الله علیه وسلم فبدلا من إخراجهم قبلوا منهم الجزیة لما رأوا أن المصلحة فی ذلک. بل لم تقف الدولة عند هذا الحد بل جاءت بسبی النصاری إلی الجزیرة. ذکر البلاذری: لما ولی عمر بن الخطاب معاویة الشام حاصر قیساریة حتی فتحها فوجد بها من

[صفحه ۳۴۳]

المرتزقة سبعمائة ألف ومن السامرة ثلاثین ألف ومن الیهود مائتی ألف، ووجد بها ثلاثمائة سوق قائمة کلها. وقد بلغ سبی قیساریة أربعة آلاف. فلما بعث به معاویة إلی عمر بن الخطاب. قسمهم علی یتامی الأنصار وجعل بعضهم فی الکتاب والأعمال للمسلمین [۱۲] وکان أبو بکر أخدم بنات أبی أمامة خادمین من

سبی عین التمر فماتا فأعطاهن عمر مکانهما من سبی قیساریة [۱۳] ، ولا یخفی ما یترتب علی عمل کهذا فی ساحة لا روایة فیها. ونحن سنلقی بعض الضوء علی الأرضیة النصرانیة بالجزیرة لنمسک بأول الخیط الذی نقف الیوم فی نهایته. روی أن الولید بن عقبة کان علی رأس القوة التی افتتحت الجزیرة ودخلت إلی دیار بنی تغلب. وفی بنی تغلب التقی الولید بن عقبة بأبی زبید الشاعر. فأما الولید قال فیه صاحب کتاب الإستیعاب: لا خلاف بین أهل العلم أن قوله الله عز وجل: (إن جاءکم فاسق بنبأ فتبینوا) [۱۴] ، نزلت فی الولید بن عقبة [۱۵] وعن ابن عباس فی قوله تعالی:

(أفمن کان مؤمنا کمن کان فاسقا لا یستوون) [۱۶] ، قال: نزلت فی علی بن أبی طالب والولید بن عقبة، وذکر قصة فی ذلک [۱۷] ، أما أبو زبید قال فیه صاحب الإصابة: کان فی الجاهلیة مقیما عند أخواله بنی تغلب بالجزیرة. وکان فی الإسلام منقطعا إلی الولید بن عقبة فی ولایته للجزیرة ثم للکوفة [۱۸] ، وقال ابن قتیبة: لم یسلم أبو زبید ومات علی نصرانیته. وقال المرزبانی: کان نصرانیا وهو أحد المعمرین. یقال عاش مائة وخمسین سنة وأدرک الإسلام فلم یسلم [۱۹] .

[صفحه ۳۴۴]

وبقی أبو زبید إلی أیام معاویة [۲۰] .

وبالرغم من أن الولید بنص الحدیث فاسق بما یوافق القرآن. وبالرغم من أن أبا زبید علی أکثر الآراء نصرانیا. فإن الفاروق رضی الله عنه رأی أن من المصلحة العامة أن یکون الولید والیا علی الجزیرة. أما فیما یتعلق بأبی زبید قال ابن حجر فی الإصابة ": استعمله عمر علی صدقات قومه ولم یستعمل نصرانیا غیره [" ۲۱] ، وفی هذه الفترة أصدر عمر بن الخطاب قرارا. روی ابن شهاب أن عمرا کتب إلی أبی موسی الأشعری ": أن مر من قبلک بتعلم العربیة فإنها تدل علی صواب الکلام ومرهم بروایة الشعر فإنه یدل علی معالم الأخلاق [" ۲۲] ، وروایة الشعر کانت سنة عربیة لم یهتم بأمرها الإسلام. ولم یمدح الکتاب الشعر والشعراء بکلمة ولا السنة بالغت فی أمره. وروی عن النبی صلی الله علیه وآله وسلم أنه قال ": والذی بعثنی بالحق لتکونن بعدی فترة فی أمتی یبتغی فیها المال من غیر حله وتسفک فیها الدماء. ویستبدل فیها الشعر بالقرآن [" ۲۳] ، نحن إذا أمام دعوة لروایة الشعر وأمام إخبار بالغیب یقیم الحجة علی فترة یستبدل فیها الشعر بالقرآن. وتحت ظلال دعوة روایة الشعر. تقف قبیلة تغلب التی ذمها رسول الله صلی الله علیه وآله. ونصاری الحیرة الذین بقوا علی نصرانیتهم حتی العصر العباسی. وقوافل قیساریة التی بعث بهم معاویة إلی عاصمة الخلافة. وباقی دوائر الصد عن سبیل الله. وفی عهد عثمان اتسعت الدائرة عندما أزیلت بعض الحواجز. وذلک عندما تولی الولید بن عقبة ولایة الکوفة. ففی عهده تم الاتصال بنصاری الحیرة وبدأت قوافلهم تجوب المنطقة وراج شعر الأدیرة الذی کان له نصیب من التأثیر الخفی فی الثقافة العقلیة. ثم بدأ شعر الخمر یلقی بظلاله ومنه الذی یدعو لنبذ الإسلام

[صفحه ۳۴۵]

صراحة. ولقد قدمنا بعضه فی کتابنا " الانحرافات الکبری [" ۲۴] ، فمن أراد أن یقف علیه وعلی أصول هذه الفترة فلیراجعه هناک. وتحت ظلال شعر الأدیرة والخمر. کان الأمیر الولید والشاعر أبو زبید یضربان بالأخلاق عرض الحائط. قال صاحب الإستیعاب: أخبار

الولید فی شرب الخمر ومنادمته أبا زبید مشهورهٔ کثیرهٔ [۲۵] ، وخبر صلاته بالمسلمین وهو سکران وقوله لهم: أزیدکم بعد أن صلی الصبح أربعا مشهورهٔ من روایهٔ الثقات من نقل أهل الحدیث وأهل الأخبار [۲۶] ، وترتب علی ذلک حدوث أول انتفاضهٔ ضد حکم عثمان بن عفان. ضحی أمامها بعزل الولید. ولکن الشعر بقی وازداد اتساعا. وتطور إلی شعر الغزل ثم إلی شعر المجون. وفی عهد معاویهٔ راج الأدب العربی غایهٔ رواجه وظهر الشعر الذی یحتضن سیاسهٔ الحزب الحاکم ومنازعات القبائل ومظاهر العصبیهٔ العربیهٔ. وکان الأمویون یبالغون فی ترویج الشعر. وربما کانوا یبذلون بإزاء بیت من الشعر أو نکتهٔ أدبیهٔ المئات والألوف من الدنانیر. وانکب الناس علی الشعر وروایته وأخبار العرب وأیامهم وکانوا یکتسبون بذلک الأموال الکثیرهٔ. وبلغ من نفوذ الشعر والأدب فی المجتمع العلمی أنک تری کثیرا من العلماء یتمثلون بشعر شاعر أو مثل فی مسائل عقلیهٔ. وبدأ شعر الصد یتسلل فی لیل الفتن. وبدأ الشعراء یزحفون نحو مرکز القیادهٔ ومن هؤلاء: الأخطل، الذی ولد بالحیرهٔ وکان من بنی تغلب. دان بالنصرانیهٔ کأکثر قبیلته. ولما ولی یزید بن معاویهٔ الخلافهٔ. دعا الأخطل إلیه وأکرمه. وکذلک أکرمه خلفاء یزید بن بعده وأسبغوا علیه نعمتهم ولا سیما عبد الملک الذی فضله علی سائر الشعراء وأجزل له عطایاه [۲۷] ، ومنهم: أعشی بنی تغلب کان نصرانیا یقدم شعره فی کل مکان ینزل به [۲۸] ، وبدأت ثقافهٔ الفتنهٔ

[صفحه ۳۴۶]

تتسع حتی أصبح النصاری فی عهد بنی أمیهٔ لا یستغنی عنهم فی تدبیر السیاسهٔ کما کان عدد من نصاری الروم قائمین علی تدبیر الخراج. وکان لکثیر منهم جاه عند الخلفاء [۲۹] ، ومن عباءهٔ ثقافهٔ الفتنهٔ التی زحفت بالشعر والخمر والمجون نحو أرضیهٔ اللاروایهٔ. خرجت الآراء التی جاء بها الزنادقهٔ. والنصرانیهٔ هی الأصل التی أتت منه جمیع هذه الآراء [۳۰] ، وخرجت آراء المرجئهٔ علی أیدی یحیی الدمشقی وکان أبوه صاحب عبد الملک بن مروان. وقد صنف یحیی کتابا فی فضائل النصرانیهٔ. ولم یکن عرضا أن ظهرت عند المرجئهٔ والقدریهٔ فی الشام آراء یحیی الدمشقی. وفی هذا الطوفان عادت إلی الظهور الأوضاع القدیمهٔ لعالم قدیم. وأصبحت فیها للمال قوهٔ عظیمهٔ حتی سحقت طاحونه الکبیرهٔ کل قیمهٔ أخری. وکل شئ صار یعرض من أجل المال وبلغت وصمهٔ حب المال والمکر لتحصیله أعلی طبقات رجال الدولهٔ. وفی نهایهٔ المطاف ظهر فریق من الشعراء یحتقرون کل ما هو دینی ویجرءون علی الجهر بذلک علی نحو لم یسبق له نظیرا فی عصر من العصور. فکان أبو العلاء المعری الشاعر بالشام (ولد ۳۶۳ ه) وتوفی عام (۴۴۹ ه) یهاجم کل ما هو دینی مستندا فی ذلک إلی وجههٔ نظر عقلیهٔ ومن شعره:

أفیقوا أفیقوا یا غواهٔ فإنما++

دیانتکم مکر من القدماء

أرادوا بها جمع الحطام فأدرکوا++

وبادوا وماتت سنهٔ اللؤماء

وقال:

قد ترامت إلی الفساد البرایا++

واستوت فی الضلالهٔ الأدیان [۳۱] .

ثم جاء ابن الراوندی (المتوفی ۲۹۳ ه) لیقول: إنا نجد فی کلام أکثم بن صیفی ما هو أحسن من القرآن [۳۲] ، ویروی عن أبی العلاء المعری أنه عارض

[صفحه ۳۴۷]

القرآن بکتاب عنوانه " بالفصول والغایات فی محاذاهٔ السور والآیات، " وقد قیل لأبی العلاء ": ما هذا إلا جید إلا أنه لیس علیه طلاوهٔ القرآن. فقال: حتی تصقله الألسن فی المحاریب أربعمائهٔ سنهٔ وعند ذلک انظروا کیف یکون [" ۳۳] وهکذا

تحقق الإخبار بالغيب. تحقق بركوبه الشعر أولا- حيث فتح الوليد الأسوار ودخل نصارى الحيرة ليعانقوا نصارى تغلب. وشاع شعر الأديرة ثم شعر الخمور ثم شعر المجون. ثم تم التسلل نحو الكرسى الأكبر بركوبة شعر القبائل وأيام العرب وفضائل بنى أمية. وعلى ساحة اللارواية نشأ التصوف تحت ضغط المشاكل السياسية. وفى مواجهة التصوف ظهرت الزندقة وتعاليم المرجئة وغيرهما وخلال هذا التطاحن كان النصارى يشرفون على جمع الخراج. ومن أراد الوزارة كان عليه أن يتقرب إليهم [۳۴] ، وتحت شجرة الشوك تكالب الجميع على المال وأعلن شعراء الانحلال والصد الحرب على الدين والقرآن بصورة لم يسبق لها مثيل. وإذا كان الإمام على بن أبى طالب قد توعد بنى تغلب إن تفرغ لهم فإن له فيهم رأيا وقال: لأقتلن مقاتلهم ولأسبين ذريتهم [۳۵] ، وذلك لتنفيذ وصية النبى صلى الله عليه وسلم والخاصة بإخراج المشركين من جزيرة العرب [۳۶] .

فإنه رضى الله عنه كان له رأى فى الشعر والشعراء، يقول صاحب تاريخ الأدب العربى: اشتهر الفرزدق بالشعر وهو شاب. فعرضه أبوه على على بن أبى طالب بعد يوم الجمل قائلا- إنه شاعر مضر، فأوصاه أمير المؤمنين أن يقرأ القرآن خيرا له من الشعر. ويروى أن الفرزدق وضع رجليه فى القيد وأقسم لا يفكهما إلا بعد أن يحفظ القرآن [۳۷] .

[صفحه ۳۴۸]

وأخيرا لقد أدى عدم الرواية إلى القص ورواية الشعر وكلاهما سنة عربية قديمة وإحياء هذه السنة أدى إلى عودة أوضاع قديمة لعالم قديم وكان ينقص هذا العالم لكى يكتمل خطوة أو خطوتين.

[۱] سورة المائدة: الآية ۵۱.

[۲] سورة آل عمران: الآية ۶۹.

[۳] سورة البقرة: الآية ۱۰۹.

[۴] سورة الممتحنة: الآية ۱.

[۵] رواه أحمد ورجاله ثقات (الزوائد ۷۱:۱۰).

[۶] فتوح البلدان / البلاذرى ص ۱۸۶.

[۷] فتوح البلدان ص ۱۸۷.

[۸] الطبرى ۱۹۸:۴.

[۹] الطبرى ۱۹۸:۴، فتوح البلدان ص ۱۸۶.

[۱۰] فتوح البلدان ص ۱۸۶.

[۱۱] فتوح البلدان ص ۱۸۷.

[۱۲] أول سبى دخل إلى المدينة من أبناء العجم كان فى عهد أبى بكر (تاريخ الطبرى ۲۶:۴).

[۱۳] فتوح البلدان ۴۷.

[۱۴] سورة الحجرات: الآية ۶.

[۱۵] الإستيعاب ۶۳۲:۳.

[۱۶] سورة السجدة: الآية ۱۸.

[۱۷] الإستيعاب ۶۳۳:۳.

[۱۸] الإصابة ۸۰:۴.

[۱۹] الإصابة ۸۰:۴.

[۲۰] الإصابة ۸۰:۴.

[۲۱] الإصابة ۴:۸۰.

[۲۲] ابن الأنباری (کنز العمال ۱۰:۳۰۰).

[۲۳] رواه الدیلمی (کنز العمال ۱۱:۱۸۷).

[۲۴] الانحرافات الکبری / للمؤلف ط دار الهادی بیروت.

[۲۵] الإستیعاب ۳:۶۳۳.

[۲۶] الإستیعاب ۳:۶۳۴.

[۲۷] تاریخ الأدب العربی ۱:۲۰۵.

[۲۸] المصدر السابق ۱:۲۳۸.

[۲۹] المصدر السابق ۱:۲۵۶.

[۳۰] الحضارة الإسلامیة ۲:۶۵.

[۳۱] المصدر السابق ۲:۱۳۷.

[۳۲] المصدر السابق ۲:۱۳۹.

[۳۳] المصدر السابق ۲:۱۴۰.

[۳۴] المصدر السابق ۱:۱۲۷.

[۳۵] فتوح البلدان ص ۱۸۷.

[۳۶] البخاری (الصحیح ۲:۲۰۲).

[۳۷] تاریخ الأدب العربی ۱:۲۰۹، تاریخ الطبری ۲:۹۴ – ۱۰۸.

الغاء سهم المؤلفة قلوبهم

قال تعالی: (إنما الصدقات للفقراء والمساکین والعاملین علیها والمؤلفة قلوبهم وفی الرقاب والغارمین وفی سبیل الله وابن السبیل)، وقد روی زیاد بن الحارث الصدائی قال: أتیت النبی صلی الله علیه وسلم فبایعته. فآتاه رجل فقال: أعطنی من الصدقة. فقال له رسول الله صلی الله علیه وسلم ": إن الله لم یرض بحکم نبی ولا غیره من الصدقات حتی حم فیها فجزأها ثمانیة أجزاء، فإن کنت من تلک الأجزاء أعطیتک حقک، " رواه أبو داود [۱] ، وسهم المؤلفة قلوبهم قیل: کان النبی صلی الله علیه وسلم یعطیه لجماعة منهم الذین یراد تألیف قلوبهم لیسلموا کسادات العرب وزعمائهم ومنهم للذین أسلموا ونیاتهم ضعیفة فتؤلف قلوبهم بإجزال العطاء. ومنهم من یترقب بإعطائهم إسلام نظرائهم من رجالات العرب. ولقد ثبت أن النبی صلی الله علیه وسلم أعطی هذا السهم لأبی سفیان بن حرب وابنه معاویة [۲] ، والأقرع بن حابس وعیینة بن حصین، وعباس بن مرداس. وصفوان بن أمیة، وکان النبی صلی الله علیه وسلم یعطی المؤلفة قلوبهم منذ نزلت الآیة حتی لحق صلی الله علیه وسلم بالرفیق الأعلی ولم یعهد إلی أحد من بعده بإسقاط هذا السهم إجماعا من الأمة المسلمة کافة وقولا واحدا. وبعد وفاة النبی الأعظم صلی الله علیه وسلم. جاء عیینة بن حصین والأقرع بن حابس وعباس بن مرداس. وطلبوا من أبی بکر نصیبهم فکتب لهم

[صفحه ۳۴۹]

به. وجاءوا إلی عمر بن الخطاب، وأعطوه الخط، فأبی ومزقه. وقال: هذا شئ کان النبی صلی الله علیه وسلم یعطیکموه. تألیفا لکم علی الإسلام. وأغنی عنکم. فإن ثبتم علی الإسلام. وإلا فبیننا وبینکم السیف فرجعوا إلی أبی بکر فقالوا: الخلیفة أنت أم عمر؟ بذلت لنا الخط فمزقه عمر، فقال: هو إن شاء. وأمضی ما فعله عمر [۳] .

يقول ابن قدامة: ولنا كتاب الله وسنة رسوله. فإن الله تعالى سمى المؤلفة فى الأصناف الذين سمى الصدقة لهم والنبى صلى الله عليه وسلم قال ": إن الله تعالى حكم فيها فجزأها ثمانية أجزاء، " وكان النبى صلى الله عليه وآله يعطى المؤلفة كثيرا فى أخبار مشهورة. ولم يزل كذلك حتى مات، ولا يجوز ترك كتاب الله وسنة رسوله إلا بنسخ. والنسخ لا يثبت بالاحتمال. ثم إن النسخ إنما يكون فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم لأن النسخ إنما يكون بنص. ولا يكون النص بعد موت النبى صلى الله عليه وآله وانقراض زمن الوحى. ثم إن القرآن لا ينسخ إلا القرآن وليس فى القرآن نسخ كذلك ولا فى السنة. فكيف يترك الكتاب والسنة بمجرد الآراء والتحكم فكيف يتركون به الكتاب والسنة؟ [۴] .

واعتذروا عما فعله عمر وقالوا: إن الله سبحانه فرض فى أول الإسلام عندما كان المسلمون ضعافا عطاءا يعطى لبعض من يخشى شرهم ويرجى خيرهم تألفا لقلوبهم. غير أن الإسلام لما اشتد ساعده وتوطد سلطانه رأى عمر بن الخطاب حرمان المؤلفة قلوبهم من هذا العطاء المفروض لهم بنصوص القرآن!! نقول: لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يعطى المؤلفة يوم إن كان الوحى يدافع عنه أى: كان يعطيهم من موقع القوة. لفتح الطريق بتحطيم الأصنام داخل نفوسهم. ويصل النور إلى عقولهم فتحتضنه الفطرة. وتحطيم الأصنام له وجوه.

[صفحه ۳۵۰]

فمن قبل حطم إبراهيم عليه السلام الأصنام ليصل النور إليهم ويقيم عليهم الحجة. فكيف يقال والوحى مع رسول الله أن النبى كان يعطى نظرا لضعف المسلمين. وأنهم منعوا لأن معهم آراءهم. ولوقوفهم على أرضية العز وتوطيد السلطان. ثم من الذى قطع بأن السلطان دائم؟ ألم يخبر النبى صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والافتراق من بعده وقال ": إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود كما بدأ"... [۵] ، قال النووى: إن الإسلام بدأ فى أحاد من الناس وقلة ثم انتشر وظهر ثم سيلحقه النقص والإخلال حتى لا يبقى إلا فى آحاد وقلة أيضا كما بدأ [۶] .

وهب أننا سلمنا وقلنا بما قالوا بأن السهم كان يعطى لضعف المسلمين. أليس بين أيدينا نص يقول بأن هذا الضعف سيعود. وعلى هذا فلا بد أن يكون إعطاء السهم ممتد. والخلاصة: أن النص فى إعطائهم مطلق وإطلاقه واضح فى كتاب الله، وهذا مما لا خلاف ولا شبهة فيه. وليس لنا أن نعتبر إعطاءهم معللا- بظروف زمنية مؤقتة هى تألفهم حينما كان الإسلام ضعيفا دون غيره من الأزمنة. لقد افترضوا فى المقدمة أن السلطان دائم وقوى. وها نحن عند النتيجة نرتجف خوفا - حتى قال صاحب المنار: إننا نجد دول الاستعمار الطامعة فى استعباد جميع المسلمين وفى ردهم عن دينهم يخصصون من أموال دولهم سهما للمؤلفة قلوبهم من المسلمين، فمنهم من يؤلفونه لأجل تنصيره وإخراجه من حظيرة الإسلام. ومنهم من يؤلفونه لأجل الدخول فى حمايتهم ومشاقة الدول الإسلامية الوحدة الإسلامية. أفليس المسلمون أولى بهذا منهم!؟! [۷] ، إننا عند النتيجة نخاف من عالم المعونات والمنح والقروض الأجنبية، لأن كل هذا يصب فى النهاية فى مربع المؤلفة قلوبهم ولكن لصالح دوائر الصد عن سبيل الله.

[صفحه ۳۵۱]

[۱] المغنى / ابن قدامة ۶۶۵:۲.

[۲] إعطائه أبو سفيان راجع مسلم ۱۵۶:۷ وإعطائه أبو سفيان ومعاوية راجع البداية والنهاية (۳۵۹، ۴:۳۶۰).

[۳] فقه السنة ۴۲۵:۱، تفسير المنار ۱۰:۴۹۶، الدر المنثور ۲:۲۵۲.

[۴] المغنى / ابن قدامة ۶۶۶:۲.

[۵] رواه مسلم وابن ماجة عن أبى هريرة وابن ماجة عن ابن مسعود وأنس والطبرانى فى الكبير عن سلمان وسهل بن سعد وابن عباس. ورواه الترمذى (صحيح مسلم ۱۷۷:۲) (كنز العمال ۲۳۸:۱) (جامع الترمذى ۱۸:۵).

[۶] مسلم بشرح النووى ۱۷۷:۲.

[۷] فقه السنة ۱۷۷:۲.

نظرات علی الطریق

إن سهم المؤلفة قلوبهم دلیل علی إمامة أهل البیت، وبدون قیادتهم لا
یمکن للسهم أن یصرف بما یخدم الدعوة. فمن المعلوم أن الاقتراب فی الدین أو الحیاة الدینیة من الذین ظلموا بنوع من الاعتماد أو الاتکاء یخرج الدین أو الحیاة الدینیة عن الاستقلال فی التأثیر ویغیرهما عن الوجهة الخالصة. ولهذا نهی الله تعالی النبی وأمته من الرکون إلی من اتسم بسمة الظلم بأن یمیلوا إلیهم ویعتمدوا علی ظلمهم فی أمر دینهم أو حیاتهم الدینیة. قال تعالی: - (ولا ترکنوا إلی الذین ظلموا فتمسکم النار) - [۱] ، وتحدید الذین ظلموا یحتاج إلی صاحب فقه عال فإن قیل أن الأمة قادرة علی هذا التحدید. قلنا وعلی رأس هؤلاء یکون من أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهیرا. وفی هذا نصوص. لأن الله ما طهرهم لا للدین والحیاة الدینیة فهم الأولی بتحدید أی عقبة علی طریق الدین. ومن المعلوم أیضا أن الأمة بها العدید من الدوائر التی هدفها الصد عن سبیل الله. ومنهم الذین أرادوا اغتیال الرسول صلی الله علیه وآله عند عودته من تبوک ووصفهم النبی بأنهم حرب لله ولرسوله فی الحیاة الدنیا وذلک فی حدیث صحیح. فالتعامل مع هذه الدوائر تحتاج إلی سیاسة خاصة تتألفهم فی الوقت الذی تجعلهم فیه بعید عن المناصب التی لا یطلعون فیه علی الأسرار المهمة، قال تعالی: - (یا أیها الذین آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونکم لا یألونکم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفی صدورهم أکبر) - [۲] ، أخرج ابن جریر وابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: هم المنافقون [۳] ، وقال ابن کثیر: نهی الله تعالی عباده المؤمنین عن اتخاذ المنافقین بطانة [۴] ، فإن قیل أن الأمة تعرف المنافقین. قلنا: لا نسلم بهذا وإنما نسلم بمن جاء فیه نص.

[صفحه ۳۵۲]

فالذی لا یحبه إلا مؤمن ولا یبغضه إلا منافق هو القادر علی القیادة وتحدید الذین سیتعامل معهم. ومن هو الذی سیکون قریبا من دائرة القرار ومن هو الذی ینبغی أن یکون فی موقع بعید عن الأسرار المهمة للدولة. إن سهم المؤلفة قلوبهم لم یکن یعطی کی یعتنق البعض الإسلام. فهذا المنطق فی دیار التبشیر حیث ینطلق المبشرون بالخبز والدواء فی کل مکان کی یعتنق الناس النصرانیة. أما الإسلام فلا لأن الآیة حددت القلب کدائرة عمل قال تعالی: - (والمؤلفة قلوبهم) -، فالرسول صلی الله علیه وآله یهیئ قلوبهم ویجهزها کی تستقبل منه. ومعنی یهیئ قلوبهم أن یحدد المرض الذی علی الطریق إلی القلب ثم یجهز له الدواء المناسب. فهناک من کان النبی یتألفه بوضعه علی رأس سریة من السرایا. حتی إن عمرو بن العاص عندما قیل له عند موته: قد کان رسول الله یدینک ویستعملک قال: أما والله ما أدری أحبا کان ذلک أم تألفا یتألفنی [۵] ، ومنهم من کان یتألفهم بمشاورتهم فی بعض الأمور. ومنهم من کان یتألفه بالمال عن صفوان بن أمیة قال: أعطانی رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم وإنه لأبغض الخلف إلی فما زال یعطینی حتی أنه لأحب الخلق إلی [۶] .

إن الرسول صلی الله علیه وآله یحدد الداء الذی فی الصدر وعلیه یعطی الدواء لکی یقیم الحجة علی أفراد بعینهم. أنه صلی الله علیه وآله یحطم الأصنام التی تحت الجلود کی یجعل أصحابها أحرارا فی اتخاذ القرار. کما حطم إبراهیم علیه السلام الأصنام من قبل کی یرجع القوم إلی أنفسهم ویکونوا أحرارا فی اختیارهم " قال بل فعله کبیرهم هذا فاسألوهم إن کان ینطقون. - (فرجعوا إلی أنفسهم فقالوا إنکم أنتم

[صفحه ۳۵۳]

الظالمون) - [۷] ، فالإسلام لم یأت بأجولة من الدنانیر والدراهم کی یعتنقه الناس. وإنما جاء بالکلمة والحرکة التی تذکر الإنسان بمخزون الفطرة وتجعله یقرأ الوجود من حوله من منطلق التوحید. وإذا کان الإسلام قد فرض سهما للمؤلفة قلوبهم لحکمة فإنه طالب

أتباعه بأن يجاهدوا فى سبيل الله بالمال والولد. فهو يعطى لهدف ويأخذ لهدف والله غنى عن العالمين. وروى أنه يوم حنين أعطى النبى قريشا ولم يعط الأنصار. فحزن بعض الأنصار لذلك فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إننى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله. فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به. قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا فقال لهم: إنكم سترون بعدى آثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض. قال أنس وهو الراوى للحديث: فلم نصبر [۸] فالذين أخذوا المال كان المال لهم دواء من أجل أن ينتصروا على فى أنفسهم. وهناك من كان يطلب من النبى أن يعطيه. وعندما رأى أنه انتصر داخل نفسه لم يسأل مالا وتركه ليكون سبيلا إلى آخر. فعن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطانى. ثم سألته فأعطانى ثم قال لى: يا حكيم إن هذا المال خضر حلو. فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيم فقلت: يا رسول الله والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحد بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا. وهناك صنف كان النبى صلى الله عليه وسلم يعطيهم وهو يعلم أن الله ختم على قلوبهم فهم لا يؤمنون. وهؤلاء الذين قال فيهم الله تعالى: - (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) - [۹] ، وهناك أيضا الذين قال فيهم

[صفحه ۳۵۴]

تعالى: - (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هو بمؤمنين) - [۱۰] ، والرسول صلى الله عليه وآله كان يعطى هؤلاء يكون سهم المؤلفة عليهم علامة. يكون كالسكك وعلى هذا يكونوا معروفين للأمة فتحذرهم وتتعامل معهم بفقه عال فلا توليهم المناصب العليا فى الدولة حتى لا يصلوا إلى موقع القرار. ولله تعالى على بعض عباده علامات. قال سبحانه فى كفار أهل الكتاب: - (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) - [۱۱] ، ضربت كضرب السكة على المعدن أو كضرب الخيمة على الإنسان، وسهم المؤلفة على الذين يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين كالسكك على المعدن. وليس كل من رآه المسلمين مؤمنا أن يكون بالضرورة مؤمنا فيولونه أمورهم. روى الإمام مسلم أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أعطى قوما كان سعد يجلس فيهم. فترك النبى منهم من لم يعطه. وكان سعد يعجبه بعض الذين لم يعطهم النبى فقال سعد: يا رسول الله مالك عن فلان فوالله إنى لأراه مؤمنا. فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: أو مسلما. ثم تكرار هذا الموقف أكثر من مرة وسعد يقول ما قال والنبى يقول: أو مسلما. ثم قال النبى: إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكب فى النار [۱۲] ، وفى هذا الحديث أن سعدا كان يحكم على طرف بأنه مؤمنا وذلك وفقا لما يراه. أما الرسول صلى الله عليه وآله كان يحكم بما لا يراه سعد. وهذا المقياس له بعد النبوة امتداد. لأن الذين يقولون آمنا وهم لا يؤمنون باقون وأيضا سهم المؤلفة باقى لأنه لم ينسخ بقرآن. وعلى هذه الخلفية يمكن أن نفهم قول النبى صلى الله عليه وآله بن أبى طالب ": ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى [" ۱۳] ، ويضاف قوله لعلى ": لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق [" ۱۴] ، فهذا الامتداد يحفظ الدعوة من

[صفحه ۳۵۵]

الذين ظلموا ويمنع تسلل بطانة السوء إلى المقاعد الأولى. لأن الاقتراب فى الدين أو الحياة الدينية من هذه الدوائر بنوع من الاعتماد والاتكاء يخرج الدين أو الحياة الدينية عن الاستقلال فى التأثير. وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم لم يتحقق الامتداد لمصلحة رآها بعض الصحابة يحفظون بها الحياة الدينية. فأمسكوا سهم المؤلفة الذى كان يعطيه النبى صلى الله عليه وسلم للبعض من قريش وغيرهم فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يبعث بالمال إلى أبى سفيان ليفرقه فى قريش ليتألفهم [۱۵] ، ولكن رأى الصحابة نشأ عنه آثار جانبية مثل التى تنشأ عن الدواء الذى يستخدم فى علاج داء معين ومن جملة هذه الآثار أن أبا سفيان دخل على عثمان بن عفان بعد أن كف بصره فقال: هل علينا من عين؟ قال: لا، فقال: يا عثمان إن الأمر أمر عاليه والملك ملك جاهلية فاجعل أوتاد الأرض بنى أمية [۱۶] ، وفى رواية قال: يا معشر بنى أمية إن الخلافة صارت فى تيم وعدى حتى طمعت فيها. وقد صارت إليكم فتلقفوها بينكم تلقف

الصبی للکرة [۱۷] ، وفی مروج الذهب عنه أنه قال: یا بنی أمیة تلقفوها تلقف الکرة فوالذی یحلف به أبو سفیان ما زلت أرجوها لکم ولتصرن إلی صبیانکم وراثة [۱۸] ، وروی أنه مر بقبر حمزة بن عبد المطلب فضربه برجله وقال: یا أبا عمارة إن الأمر الذی اجتلدنا علیه بالسیف أمس صار فی ید غلماننا الیوم یتلعبون به. ومن جملة ذلک أیضا أن معاویة الذی ضاع من علی یدیه سکة سهم المؤلفة بعد التضییق علی الروایة نازع علی الخلافة. وجلس فی المقعد الأول یقود الحیاة الدینیة للأمة!! ومن جملة هذا ظهور المزید من المنافقین الذین یقرأون القرآن یریدون به ما عند الناس. روی أن الفاروق عمر بن الخطاب خطب الناس فقال: أیها الناس ألا إنما کنا نعرفکم إذ بین ظهرانینا النبی صلی الله علیه

[صفحه ۳۵۶]

وآله وسلم. وإذ ینزل الوحی... وإذ ینبأنا الله من أخبارکم ألا وإن النبی صلی الله علیه وآله قد انطلق وانقطع الوحی وإنما نعرفکم بما نقول لکم من أظهر منکم خیرا ظننا به خیرا وأحببناه علیه. ومن أظهر لنا شرا ظننا به شرا وأبغضناه علیه. سرائرکم بینکم وبین ربکم ألا أنه قد أتی علی حین وأنا أحسب أن من قرأ القرآن یرید الله وما عنده فقد خیل إلی بآخره ألا أن رجالا قد قرأوه یریدون به ما عند الناس فأریدوا الله بقراءتکم وأریدوه بأعمالکم [۱۹] .

فی هذا الخطاب أمضی الفاروق بأن الطریق الذی بدأه بقول ": حسبنا کتاب الله " قد أنتج فی عهده. من یقرأ القرآن یرید به ما عند الناس. وفی الخطاب یأس من معرفة المنافقین. وفیه أن العمود الفقری الذی تدور علیه السیاسة " وإنما نعرفکم بما نقول لکم، " وقد أمر رضی الله عنه بما کان یراه لمصلحة المسلمین. ولکن الإشکال فی قوله ": من أظهر لنا شرا ظننا به شرا، " لأن المنافق لا یظهر شرا!! وعلی هذا تسلل أغیلمة قریش إلی الکراسی الأولی. وأمروا الناس بقتل الحسین واستباحة المدینة. وقتل من بقی من الأنصار وحرق الکعبة وجلد المسلمین. وکانوا یعرفون الناس بما یقولون لهم فمن أظهر لهم شرا أطاحوا برقبته وطافوا برأسه. حتی انتهی الأمر إلی ما أخبر به رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم فی أمراء السور وبطانتهم. وأغلب الظن أن الصحابة فی المجتمع المدنی بعد رحیل النبی صلی الله علیه وآله تبینوا أن وجود سهم المؤلفة یحتم وجود طرف آخر تحت ضوئه یظهر النفاق، ونظرا لأن ظروفا ما حتمت إبعاد هذا الطرف سیصبح سهم المؤلفة إرثا للذین کان النبی صلی الله علیه وآله وسلم یعطیهم أو أن قاعدته ستتسع لتشمل البعض من الذین لم یقطع بنفاقهم أو سیصبح نهیا ویوظف لاتجاهات أخری الصحابة أجل من أن یخوضوا فیها، وعلی هذا فضلوا الإطاحة بالسهم وهذا العمل وفقا لأعمدة المجتمع المدنی عمل لا غبار علیه ویمکن فهمه.

[صفحه ۳۵۷]

[۱] سورة هود ۱۱۳.

[۲] سورة آل عمران: الآیة ۱۱۸.

[۳] الدر المنثور ۶۶:۲.

[۴] تفسیر ابن کثیر ۳۹۸:۱.

[۵] أخرجه الإمام أحمد وقال الهیثمی رواه أحمد والطبرانی ورجاله رجال الصحیح وله طرق أخری (الفتح ۳۱۰:۲۲)، ورواه ابن سعد (الطبقات الکبری ۲۶۳:۱) وابن أبی شیبة (کنز العمال ۵۴۹:۱۱) وراجع مجمع الزوائد (۳۵۳:۹).

[۶] رواه مسلم، ورواه الترمذی (جامع الترمذی ۴۴:۳.

[۷] سورة الأنبیاء: الآیة ۶۴.

[۸] البخاری ک الجهاد (۱۹۹:۲) مسلم (۱۵۱:۷) أحمد (الفتح الربانی ۸۹:۱۴).

[۹] سورة یس: الآیة ۶.

[۱۰] سورة البقرة: الآیة ۸.

[۱۱] سورة البقرة: الآیة ۶۱.

[۱۲] رواه مسلم وغیره (صحیح مسلم ۱۸۲:۲).

[۱۳] رواه البخاری وغیره (الصحیح ۸۶:۳) وسبق تخریجه.

[۱۴] رواه مسلم وغیره وسبق تخریجه.

[۱۵] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۱۷۶:۹).

[۱۶] الأغانی ۶:۳۵۵، تهذیب ابن عساکر ۴۰۷:۶.

[۱۷] الأغانی ۳۵۵:۶، الإستیعاب ۶۹۰:۲.

[۱۸] الأغانی ۳۵۵:۶، الإستیعاب ۶۹۰:۲.

[۱۹] رواه أحمد وقال فی الفتح إسناده حسن وأخرج البخاری الطرف الأول منه (الفتح الربانی ۸۷:۲۳) ورواه ابن خزیمة والبیهقی والحاکم وابن سعود وابن عساکر وسعید بن منصور (کنز العمال ۱۶۳:۱۶).

الامراء والفتن

کانت سیرة النبی صلی الله علیه وآله فی أمرائه الذین یبعثهم لإنجاز مهمة ما أن یحذرهم بأن معصیته هی معصیة لله. وکانوا یعلمون أن الوحی یرصدهم تحت جلودهم. وکان صلی الله علیه وآله یحذرهم من اتخاذ أی قرار لم یمضه حتی لا تسیل قطرة دم بغیر حق. عن معاذ بن جبل قال بعثنی رسول الله صلی الله علیه وآله إلی الیمن فلما سرت أرسل فی أثری. فرددت فقال: أتدری لم بعثت إلیک؟ لا تصیبن شیئا بغیر إذنی فإنه غلول ومن یغلل یأت بما غل یوم القیامة، لهذا دعوتک فامض لعملک [۱] ، وکان صلی الله علیه وآله وسلم یبرأ إلی الله من أی أمیر لا یتقید بأوامره أو یجتهد فی أمر اجتهاد لیس للإسلام فیه نصیب. روی أنه صلی الله علیه وآله بعث خالد بن الولید فی بعث إلی بنی خزیمة فدعاهم إلی الإسلام فلم یحسنوا أن یقولوا أسلمنا " قالوا صبأنا صبأنا. فجعل خالد یقتل منهم ویأسر. وعندما علم النبی صلی الله علیه وآله وسلم بالخبر رفع یده وقال: اللهم إنی أبرأ إلیک مما صنع خالد - مرتین - [۲] ، وکان صلی الله علیه وآله وسلم یأمر الجنود بأن یطیعوا أمراءهم إذا کان الأمر فی حدود المهمة التی أرسلوا إلیها وأن یطیعوه إذا اجتهد اجتهادا لا یتعارض مع الإسلام. روی أن النبی صلی الله علیه وآله بعث سریة و أمر

[صفحه ۳۵۸]

من فیها بأن یطیعوا أمیرهم. وعند تنفیذ المهمة غضب الأمیر. فقال لمن معه: ألیس أمرکم النبی صلی الله علیه وسلم أن تطیعونی. قالوا: بلی، قال: فاجمعوا لی حطبا فجمعوا فقال: أوقدوا نارا. فأوقدوها. فقال: إدخلوها فهموا. وجعل بعضهم یمسک بعضا ویقولون: فررنا إلی النبی من النار [۳] ، فما زالوا حتی خمدت النار. فسکن غضب الأمیر فبلغ النبی صلی الله علیه وسلم فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلی یوم القیامة والطاعة فی المعروف [۴] ، وروی أن عمران بن حصین بعد وفاة النبی کان یذکر بهذا الحدیث الأمراء الذین کانوا یتسعملهم زیاد [۵] .

[۱] ورواه الترمذی. وقال فی تحفة الأحوازی أخرجه أبو داود والبیهقی وابن حمید وابن عدی (التحفة ۵۶۵:۴).

[۲] رواه البخاری کتاب المغازی ب بعث النبی خالد (الصحیح ۷۱:۳).

[۳] أی آمنا خوفا من النار یوم القیامة ونحن الآن نأمر بالدخول فیها.

[۴] رواه البخاری ک المغازی (الصحیح ۷۱:۳) وأحمد بإسناد صحیح (الفتح ۴۲:۲۳).

[۵] رواه أحمد وفیه " لا طاعة لمخلوق فی معصیة الخالق " وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الفتح ۴۲:۲۳).

امراء على الطريق

وكما ذكرنا من قبل أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستعمل البعض

على رأس السرايا تألفا منهم عمرو بن العاص وقد ولاه أميرا على أبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح فى غزوة ذات السلاسل [۱] ، وكان النبى قد وجهه إلى أخوال أبيه العاص يستألفهم بذلك و يدعوهم إلى الإسلام [۲] ، فلما وصل ابن العاص إلى أرض السلاسل بعث إلى النبى صلى الله عليه وسلم يستمده بجيش فأمده بمأتين فيهم شيوخ المهاجرين [۳] ، لقد كانت هذه سيرته صلى الله عليه وسلم فى تحديد الأمراء وتعيين أهداف الدعوة. وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم. كانت هناك مقاييس أخرى لهذه العملية. فعلى سبيل

[صفحه ۳۵۹]

المثال خالد بن الوليد الذى تبرأ من صنعة النبى صلى الله عليه وسلم نجده فى عهد أبو بكر يرتكب مخالفات ليست أقل خطورة مما ارتكب من قبل ولكن فعله توارى وراء تعريف " تأول فأخطأ وله أجر واحد، " وكان الشخص الذى يرتكب مخالفة للكتاب أو السنة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ويراد الاعتذار عنه أو يصحح عمله يقال له ": تأول " وتطور الاعتذار إلى حد صار إلى كل جريمة ترتكب ومن أمثلة ذلك اعتذار ابن حزم عن أبى الغادية قاتل عمار بن ياسر من أنه متأول مجتهد فأخطأ فله أجر واحد هذا مع ما تواتر من قول النبى صلى الله عليه وسلم فى عمار أنه تقتله الفئة الباغية. ومخالفة خالد عندما قتل مالك بن نويرة ثم تزوج امرأته التى وصفها ابن كثير بأنها كانت جميلة [۴] ، قصة معروفة عند من تأمل كتب السير والنقل. فمالك بن نويرة كان على صدقات قومه بنى يربوع واليا من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولما بلغه وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أمسك عن أخذ الصدقة من قومه حتى يقوم قائم بعد النبى صلى الله عليه وسلم. وروى أهل النقل. إن أبا بكر وصى الجيش الذى بعثه ليقاتل مانعى الزكاة. بأن يؤذنوا ويقيموا فإن أذن القوم كأذانهم وإقامتهم كفوا عنهم. وإن لم يفعلوا أغاروا عليهم [۵] وعندما تقدم خالد نحو بنى يربوع وكان معه أبو قتادة

بن سراباه وأمر جنوده أن يدعوا القوم وأن يأتوه بكل من لم يجب. فجاءته الخيل بمالك بن نويرة الذى انتهى الأمر بقتله وتزوج خالد زوجته أم تميم بنت المنهال. وكان أب قتادة الحارث بن ربعى ممن شهد أنهم أذنوا وأقاموا و صلوا. وحلف أبو قتادة ألا يسير تحت لواء خالد فى جيش أبدا [۶] وركب أبو قتادة فرسه

واتجه إلى أبى بكر فأخبره الخبر وقال له: إنى نهيت خالدا عن قتله فلم يقبل قولى. وعندما سمع عمر بن الخطاب الخبر قال: إن القصاص قد وجب على

[صفحه ۳۶۰]

خالد. وعندما جاء خالد قام إليه عمر فنزع الأسهم عن رأسه فحطمها ثم قال له: يا عدو نفسه أعدوت على امرئ مسلم فقتلته ثم نزوت على امرأته والله لنرجمنك بأحجارك. وخالد لا يكلمه. ولا يظن إلا أن رأى أبى بكر مثل رأيه. حتى دخل إلى أبى بكر واعتذر إليه بعذره وتجاوز عنه. فخرج خالد وعمر جالس فى المسجد فقال: هلم إلى يا ابن أم شملة. فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه [۷] وروى أن أبا بكر قال ": ما كنت لأرجمه فإنه تأول فأخطأ " وفى رواية:

"هبه يا عمر تأول فأخطأ " فارفع لسانك عن خالد [۸] .

لقد كانت هذه بداية جاء عليها طوفان من الأمراء فيما بعد. فى البداية قام الأمراء بالقتل على الرغم من أن الخليفة وضع شرطا لهذا القتال، وهو الآذان والإقامة. ونحن لا نناقش هنا الأساس الفقهى الذى استند إليه أبو بكر فى قتال مانعى الزكاة. وقد علمنا أن النبى صلى الله عليه وآله لم يقبل زكاة ثعلبة بن حاطب وقصته مذكورة فى سورة التوبة. ونحن لا نناقش الأساس الفقهى فى ذلك وقد رأينا

عمر نفسه قد اعترض علی قتال مانعی الزکاهٔ منذ البدایهٔ واعترض علی مخالفات خالد. ولا ندری کیف یقتل مالک علی الزکاهٔ وهو یصلی. فهل معنی ذلک أن یقتل الذی لا یصلی حتی إذا أخرج الزکاهٔ. وذلک لأن الصلاهٔ والزکاهٔ حزمهٔ واحدهٔ ومعها الشهادتین وحج البیت. ولکننا نناقش هنا الأرضیهٔ التی جاء علیها الأمراء. لأن منها خرجت فتن وصل دخانها عنان السماء. لقد علمنا أنه فی عهد النبوهٔ کانت هناک دوائر عدیدهٔ هدفها الصد عن سبیل الله. وکان الرسول یدعو علی بعضهم ویطرد بعضهم ویخبر أصحابه بأسماء البعض الآخر. وکان عبد الله بن عمرو یکتب بعض أحادیث النبی صلی الله علیه وآله وسلم فی صحیفهٔ خاصهٔ به. فلما علمت جهات الصد عن السبیل بذلک. حاولوا أن یحولوا بین عبد الله وبین ما یکتب نظرا لاحتمال ذکرهم فیما یکتب.

[صفحه ۳۶۱]

روی عن عبد الله أنه قال: کنت أکتب کل شئ أسمعه من رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم أرید حفظه فنهتنی قریش. وقالوا: أتکتب کل شئ تسمعه ورسول الله صلی الله علیه وآله بشر یتکلم فی الغضب والرضا. فأمسکت عن الکتابهٔ. فذکرت ذلک لرسول الله صلی الله علیه وآله فأومئ لی شفتیه وقال: والذی نفسی بیده ما یخرج مما بینهما إلا حق فاکتب [" ۹] .

لقد کان التدوین عقبهٔ أمامهم. فلما جاء عهد الفاروق وهدد من یروی بالضرب والحبس وذلک لمصلحهٔ للمسلمین لا نستطیع الوقوف علیها. ضاع ذکر القوم. وعندما أقدم الفاروق رضی الله عنه علی إلغاء سهم المؤلفهٔ قلوبهم. تجرد القوم من علامهٔ بارزهٔ تدل علی تألفهم لضعف إیمانهم. ومع نسیان أخبارهم وضیاع علامتهم انخرطوا فی نسیج واحد مع الأمهٔ دون اتخاذ الأمهٔ لأی نوع من أنواع الحذر والحیطهٔ تجاههم. ولکی تکتمل المأساهٔ کذبوا علی رسول الله صلی الله علیه وآله. نظرا لاحتمال تسرب حدیث من الأحادیث التی ذمهم فیها النبی. وعلی سبیل المثال لقد وصفوا النبی لابن عمرو عندما کان یکتب. بأن النبی بشر یتکلم فی الغضب والرضا. ونجدهم یقولون علی لسان الرسول فیما بعد ": اللهم إنما محمد بشر یغضب کما یغضب البشر. وإنی اتخذت عندک عهدا لن تخلفه. فأیما مؤمن آذیته أو سببته أو جلدته فاجعلها کفارهٔ وقربهٔ تقربه بها إلیک یوم القیامهٔ [" ۱۰] ، وهکذا جعلوا النبی مؤذیا سبابا جلادا حتی یفلتوا مما ورد فیهم. ورووا عنه أیضا أنه قال ": اللهم فأیما مؤمن سببته أو لعنته فاجعل ذلک له قربهٔ إلیک یوم القیامهٔ [" ۱۱] ، هکذا جعلوه سبابا ولعانا " هذه الأحادیث یعارضها قوله الله تعالی: - (وإنک لعلی خلق عظیم) - [۱۲] ، وقوله تعالی: - (وما

[صفحه ۳۶۲]

ینطق عن الهوی) - [۱۳] ، وقوله تعالی: - (ولو کنت فظا غلیظ القلب لانفضوا من حولک) - [۱۴] ، إلی غیر ذلک من الآیات. ویعارضه حدیث " لم یکن النبی سبابا ولا فحاشا [" ۱۵] ، وإذا کان النبی قد لعن أحدا فإن هذا اللعن بأمر من الله قال تعالی: - (إن الذین یکتمون ما أنزلنا من البینات والهدی من بعد ما بیناه للناس فی الکتاب أولئک یلعنهم الله ویلعنهم اللاعنون) - [۱۶] ، وقد أمر الله رسوله یوم مباهلهٔ نصاری نجران بأن یأتی بعلی وفاطمهٔ والحسن والحسین وأن یقول للنصاری: - (ثم نبتهل فنجعل لعنهٔ الله علی الکاذبین) - [۱۷] ، فالرسول لا ینطق إلا بوحی ولکن أجهزهٔ ومؤسسات الصد جعلته یغضب کما یغضب البشر لأسباب یفهمها کل باحث عن الحقیقهٔ. وبعد أن انخرطوا مع الأمهٔ فی نسیج واحد ضاع ذکرهم بعد أن أغلقت الأبواب علی الأحادیث التی حذرت منهم. کما ضاع ذکر أهل البیت بعد أن أغلقت نفس الأبواب علی الأحادیث التی رغبت فیهم. ورغم ذلک کان فی الساحهٔ طائفهٔ موالیهٔ لأهل البیت ولکن فی عالم الظلال... وتحت الأضواء کان هناک من یسیر بین الأمهٔ وهدف الأمهٔ. کان یود لو أمسک بقائمهٔ کرسی أمام باب من الأبواب یتسلق علیها إلی کرسی آخر حتی یخرج الحیاهٔ الدینیهٔ عن مسارها وتتحول فیما بعد إلی اتجاه یدفع إلی فتن حذر النبی صلی الله علیه وآله من مقدماتها. ونحن هنا سنلقی بعض الضوء علی بعض الأمراء الذین کانت بدایهٔ ظهورهم فی عهد أبی بکر ثم تدفقت بهم الدولهٔ بعد ذلک علی امتداد تاریخها. أما الذین کانوا علی عهد أبی بکر فمنهم رجل یدعی الفجأهٔ. قدم إلی أبی بکر وزعم أنه مسلم وسأله أن یجهز معه جیشا یقاتل به أهل الردهٔ. فجهز معه جیشا فلما سار جعل لا یمر بمسلم أو مرتد إلا قتله وأخذ ماله. وعندما علم أبو بکر

[صفحه ۳۶۳]

بهذه الأحداث رده ثم أحرقه فى النار [۱۸] ، ومن قبل رأينا خالد بن الوليد الذى وصفته الأحاديث الصحيحة أنه كان من المبغضين لعلى بن أبى طالب كيف ركب على رأس جيش وقتل مالك وأخذ ماله وتزوج زوجته. وتحت شعار حروب الردة برز عمرو بن العاص. وروى أن عمر بن الخطاب قال لأبى بكر حين شيع عمرو بن العاص: أو تزيد الناس نارا. ألا ترى ما يصنع هذا بالناس! فقال: دعه فإنما ولاه علينا رسول الله لعلمه بالحرب [۱۹] ، وغير هؤلاء كثير شربوا لبن الإمارة صغارا ثم قاتلوا من أجلها كبارا ثم جاء عهد عمر بن الخطاب فاتسعت الرقعة. ولقد كانت الرقعة فى عهد أبى بكر على مسرحها تدور الكثير من حروب الردة وبعض الفتوحات، أما فى عهد عمر فعلى مسرحها دارت الفتوحات الكثيرة الواسعة. وبحجم الفتوحات كان حجم الأمراء. ومن هؤلاء الأمراء. معاوية بن أبى سفيان، الذى أسلم هو وأبيه وأمه يوم الفتح [۲۰] ، وقال البعض: إنه أسلم بعد الحديبية وكتم إسلامه وهذا يعارضه ما ثبت فى الصحيح عن سعد بن أبى وقاص أنه قال فى العمرة فى أشهر الحج. فعلناها وهذا يومئذ كافر [۲۱] ، كان الفاروق لا يخفى إعجابه بمعاوية، روى أنه ذكر معاوية عند عمر فقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها أنه لمن يضحك فى الغضب ولا ينال منه إلا على الرضا ومن يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه [۲۲] ، وكان يقول للناس: تذكرون كسرى وعندكم معاوية [۲۳] ، ومعاوية بدأ يحبو فى اتجاه الكرسى بعد وفاة أخيه يزيد بن أبى سفيان الذى كان له كرسى فى عهد أبى بكر وعمر عندما مات يزيد. كتب عمر بولاية معاوية مكان أخيه. وعندما ذهب عمر ليعزى أبى سفيان

[صفحه ۳۶۴]

فى ابنه يزيد قال له أبو سفيان: يا أمير المؤمنين من وليت مكانه؟ قال: أخوه معاوية، فقال أبو سفيان: وصلت رحما يا أمير المؤمنين – وفى رواية – قال أبو سفيان: فمن بعثت على عمله؟ قال عمر: معاوية أخاه! إبنان مصلحان وإنه لا يحل لنا أن ننزع مصلحا [۲۴] .

وبعد أن ركب معاوية على الكرسى جاءته رسالة من أبيه وأخرى من أمه. قال له أبوه: يا بنى إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخيرنا فصاروا قادة وسادة. وصرنا أتباعا وقد ولوك جسيما من أمورهم فلا تخالفهم فإنك تجرى إلى أمد فنافس فإن بلغته أورثته عقلك!! وقالت له أمه فى رسالتها: والله يا بنى إنه قل أن تلد حرة مثلك وإن هذا الرجل قد استنهضك فى هذا الأمر فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت [۲۵] .

ولقد أخذ معاوية بالنصيحة. روى لما قدم عمر إلى الشام تلقاه معاوية فى موكب عظيم. فلما دنا من عمر قال له: أنت صاحب الموكب. قال: نعم، فقال: هذا حالك مع ما بلغنى من طول وقوف ذوى الحاجات ببابك لم تفعل ذلك؟ قال: يا أمير المؤمنين إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة فيجب أن نظهر من عز السلطان ما يكون عز الإسلام وأهله ويرهبون به فإن أمرتنى فعلت وإن نهيتنى انتهيت. فقال عمر: يا معاوية ما سألتك عن شئ إلا تركتنى فى مثل رواجب الفرس لئن كان ما قلت حقا إنه لرأى رأيت ولئن كان باطلا- إنه لخديعة أديت، قال معاوية: فمرنى يا أمير المؤمنين بما شئت، فقال: لا آمرك ولا أنهاك!! [۲۶] وروى ابن المبارك عن أسلم مولى عمر قال: قدم علينا معاوية وهو أبيض الناس وأجملهم فخرج إلى الحج مع عمر فكان عمر ينظر إليه فيعجب منه. ثم يضع إصبعه على متن معاوية ثم يرفعها ويقول: بخ بخ. نحن إذن خير الناس إن جمع لنا خير الدنيا والآخرة فقال معاوية: يا أمير المؤمنين سأحدثك أنا

[صفحه ۳۶۵]

بأرض الحمامات والريف والشهوات. قال عمر: ما بك إلا ألطافك نفسك بأطيب الطعام وذوى الحاجات وراء الباب، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين علمنى أمتثل. فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حلة فلبسها فوجد عمر فيها ريحا كأنه ريح طيب فقال، يعمد أحدكم فيخرج حاجا مقلا حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا فى الطيب فلبسهما. فقال معاوية: إنما لبستهما لأدخل بهما على عشيرتى وقومى... فالله إنى قد عرفت الحياء فيه. ثم نزع معاوية ثوبيه ولبس ثوبيه الذين أحرم فيهما [۲۷] ، لقد كان الفاروق

یسأل فی کل مرهٔ عن ذی الحاجات ولکم ذکراهم کانت تغیب فی ردود معاویهٔ. والخلاصهٔ أن معاویهٔ کانت فی ذاکرته رسائل والدیه ففی کل مرهٔ قال: مرنی أمتثل! علمنی أمتثل. وعلاقهٔ معاویهٔ بالکرسی علاقهٔ وطیدهٔ. قال فی الإصابهٔ: عاش ابن هند عشرین سنهٔ أمیرا وعشرین سنهٔ خلیفهٔ [۲۸] ، وقال صاحب الإستیعاب: هو أول من أقام المهرجان. وأول من قتل مسلما صبرا حجرا وأصحابه. وأول من أقام علی رأسه حرسا. وأول من قیدت بین یدیه النجائب، وأول من اتخذ الخصیان فی الإسلام، وأول من بلغ درجات المنبر خمس عشر مرقاهٔ - لیکون منبره أعلا من منبر رسول الله، وقال: أنا أول الملوک [۲۹] وأقول هو أول من دق وتد الوراثهٔ

فی الحکم. وأول من قال بعدالهٔ الصحابهٔ لیدخل تحت هذه العدالهٔ ولا ینتقده أحد، وأول من رعی القبائلیهٔ حتی أثمرت فی النهایهٔ ثمرهٔ القومیهٔ العربیهٔ. والإسلام ینظر للإنسان کإنسان ولا فرق عنده بین عربی وبین أعجمی إلا بالتقوی. وقال الحسن البصری: أربع خصال کن فی معاویهٔ لو لم تکن فیه إلا واحدهٔ لکانت موبقهٔ: انتزاؤه علی هذه الأمهٔ بالسیف واستخلافه من بعده ابنه یزید السکیر الذی یلبس الحریر وادعاؤه زیادا والنبی قال ": الولد للفراش

[صفحه ۳۶۶]

وللعاهر الحجر، " وقتله حجر بن عدی وأصحابه. فیا ویل له من حجر، یا ویل له من حجر، یا ویل له من حجر وأصحاب حجر [" ۳۰] ، وحجر کان من شیعهٔ علی بن أبی طالب. وهکذا کانت البدایهٔ والنهایهٔ فی مشهد وحرکهٔ. والتفاصیل تأتی فی موضعها.. ومنهم (عمرو بن العاص) ولقد کان الفاروق یلوم أبا بکر فی تولیته عمرو ویقول ": أو تزید الناس نارا؟ " ولکن بعد أن أجاد عمرو التسلق. کان عمر بن الخطاب إذا نظر إلیه یقول ": ما ینبغی لأبی عبد الله أن یمشی علی الأرض إلا أمیرا [۳۱] ، ولاه عمر فلسطین والأردن ثم أمره بفتح مصر فلم یزل والیا علیها حتی مات عمر بن الخطاب. وأقره عثمان علیها ثم عزله عنها، فجعل یطعن علی عثمان، ولما قتل عثمان سار إلی معاویهٔ وخاض معه معارکه ضد الإمام علی بن أبی طالب مقابل أن یعطیه مصر طعمهٔ. وولاه معاویهٔ مصر فلم یزل علیها إلی أن مات بها [۳۲] ، والذی یتأمل فی سیرهٔ ابن العاص یجد أن حرصه علی الإمارهٔ کان محور الارتکاز لحرکته.. ومنهم (الولید بن عقبهٔ) ولاه عمر صدقات بنی تغلب. وکان یتخذ أبا زبید الشاعر ندیما له. وعلی مائدهٔ اللهو شربا الخمر ودقا قواعد شعر الخمریات. وصلاهٔ الولید بالمسلمین وهو سکران رواها أکثر من واحد [۳۳] ، ومنهم (عبد الله بن أبی السرح) الذی أمر النبی صلی الله علیه وسلم بقتله حتی ولو کان متعلقا بأستار الکعبهٔ. ولاه عمر بعض أعماله وکان من المقربین إلیه [۳۴] ، وکان لعبد الله فی عهد عثمان عیونه علی بیت المال ومن أجل المال فرض الضرائب علی أهل مصر وجلد ظهورهم فجاءوا یشکونه إلی عثمان. وکان

[صفحه ۳۶۷]

ما کان حتی قتل عثمان. ومنهم (المغیرهٔ بن شعبهٔ) قال: أنا أول من رشا فی الإسلام. أعطیت حاجب عمر بن الخطاب عمامهٔ فکان یأنس بی ویأذن لی أن أجلس داخل باب عمر. فیمر الناس فیقولون: إن للمغیرهٔ عند عمر منزلهٔ إنه لیدخل علیه فی ساعهٔ لا یدخل فیها أحد [۳۵] ، واستعمله عمر علی البحرین فکرهوه وشکوا منه فعزله ثم ولاه البصرهٔ. فاتهموه بالزنا فعزله، ثم ولاه الکوفهٔ بعد ذلک [۳۶] ، وهکذا من کرسی إلی کرسی. والمغیرهٔ أول من وضع فی حفرهٔ بنی أمیهٔ الحکم بالوراثهٔ. وسبب ذلک أن معاویهٔ عزم علی عزله من منصبه فأشار إلیه بتنصیب ابنه یزید من بعده. وهو یضمن له أصوات الشیوخ فی ولایته. فثبته معاویهٔ وساقوا الشیوخ وتمت الوراثهٔ. وکان جابر یقول: صحبت المغیرهٔ بن شعبهٔ. فلو أن مدینهٔ لها ثمانیهٔ أبواب لا یخرج من بابها إلا بمکر لخرج المغیرهٔ من أبوابها کلها [۳۷] ، وعن الشعبی قال: دهاهٔ العرب أربعهٔ: معاویهٔ وعمرو بن العاص والمغیرهٔ بن شعبهٔ وزیاد. فأما معاویهٔ فللحلم والأناهٔ، وأما عمرو فللمعضلات، وأما المغیرهٔ فللمبادههٔ، وأما زیاد فللکبیر والصغیر [۳۸] .

. ومنهم (أبو الأعور السلمی) أدرک الجاهلیهٔ وشهد حنینا مشرکا [۳۹] ، لعنه النبی صلی الله علیه وسلم [۴۰] وکان أمیر المؤمنین علی یدعو علیه [۴۱] ، وعن محمد ابن حبیب قال: کتب عمر بن الخطاب إلی أمراء الآفاق أن یبعثوا إلیه من کل عمل رجلا من صالحیها فبعثوا إلیه أربعهٔ من البصرهٔ والکوفهٔ والشام ومصر. فاتفق أن الأربعهٔ من بنی سلیم وهو الحجاج بن علاط وزید بن الأخنس ومجاشع

بن مسعود وأبو الأعور. فجعل عمر السلمى على مقدمة

[صفحه ۳۶۸]

جيش [۴۲] ، وظل هكذا حتى عهد معاوية، وكان من أشد المبغضين لعلى بن أبى طالب.. ومنهم (يعلى ابن منبه) استعمله أبو بكر على بلاد حلوان فى الردة وعمل لعمر على بعض بلاد اليمن [۴۳] وكان عظيم الشأن عند عثمان. وهو الذى أعان الزبير بأربعمائة ألف واشترى لعائشة جمل يقال له عسكر وجهز سبعين رجلا من قريش [۴۴] ، وكل هذا لملاقاة أمير المؤمنين على بن أبى طالب يوم الجمل. وكان يقول: من خرج يطلب يوم بدم عثمان فعلى جهازه [۴۵] .

. ومنهم (بسر بن أرطأة) كان أحد الذين بعثهم عمر بن الخطاب مددا لعمرو بن العاص فى فتح مصر. كان الكرسى هدفه، ومن أجله ارتكب أبشع الجرائم فى الإسلام فيما نقله أهل الأخبار وأهل الحديث. منها ذبحه ابنى عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب وهما صغيران بين يدى أمهما. وإغارته على همدان، وسبى نساء المسلمين فكن أول نساء سبين فى السلام، وقتله أحياء من بنى سعد [۴۶] .

لقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم من أمراء ومن طريق تكون الإمارة فيه ندامة يوم القيامة. والأمراء الذين ذكرناهم لم يأتوا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله وسلم بقرن من الزمان. وإنما جاءوا سريعا وشقوا طريقهم لأن السياسة لم تكتشفهم ولأن الاجتهاد مهد لهم – ولم يكن هؤلاء فقط فى بستان الصدر الأول وإنما كان هناك آخرون دخلوا عن عنوان أعلنه عمر بن الخطاب قال فيه: نستعين بقوة المنافق وإثمه عليه [۴۷] ، وقال ابن حجر فى فتح البارى: والذى

[صفحه ۳۶۹]

يظهر من سيرة عمر فى أمرائه الذين كان يؤمرهم فى البلاد أنه كان لا يراعى الأفضل فى الدين فقط بل يضم إليه الذى عنده مزيد من المعرفة بالسياسة فلأجل ذلك استخلف معاوية والمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص مع وجود من هو أفضل منهم فى أمر الدين والعلم [۴۸] .

لقد كان الطريق مفتوحا. فدخل منه رجال بكل هدوء ويسر منهم (إياس بن صبيح) قال صاحب الإصابة: كان من أصحاب مسيلمة الكذاب ثم أسلم وولاه عمر القضاء فى البصرة [۴۹] ، ومنهم (طليحة بن خويلد) الذى ادعى النبوة بعد النبى صلى الله عليه وآله. أعجب عمر لكلامه ورضى عنه وكتب له بالوصاة إلى الأمراء أن يشاور [۵۰] ، وفى رواية: كتب عمر إلى النعمان بن مقرن استشر واستعن فى حربك بطلحة وعمرو بن معد يكرب ولا تولهما [۵۱] ، ومنهم (ابن عدى الكلبى) قال لعمر: أنا امرؤ نصرانى. قال عمر: فما تريد. قال: أريد الإسلام. فعرضه عليه فقبله. ثم دعا له برمح فعقد له على أمن أسلم. قال عوف بن خارجة: ما رأيت رجلا لم يصل صلاة أمر على جماعة من المسلمين قبله [۵۲] ، ومنهم (أبو زبيد الشاعر) كان عند أخواله من بنى تغلب بالجزيرة، وبعد أن فتحها الوليد بن عقبة فى خلافة عمر استعمل عمر أبا زبيد على صدقات قومه ولم يستعمل نصرانيا غيره [۵۳] ، ومنهم (كعب الأحبار) تولى عملية القص فى المساجد ثم انتقل إلى الشام فجعل للقص أوتاد اتخذها القوم سنة فيما بعد [۵۴] .

ولقد كانت هناك اعتراضات على عمر بن الخطاب فى توليته بعض الناس. روى أنه لما ولى معاوية الشام قال الناس: ولى معاوية فقال لهم: لا تذكروا

[صفحه ۳۷۰]

معاوية إلا بخير فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم أهده [۵۵] .

ومن المعروف أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو لأمته كلها بالهداية. ومن العجيب أن حديث " اللهم أهده " حديث ضعيف إلا أن ابن كثير دافع عنه والتمس لا الأعذار. وهذا الموقف لا نجده إذا كان يتعلق بحديث صحيح لمعسكر غير معسكر معاوية. ومن الذين اعترضوا على عملية التوظيف هذه حذيفة رضى الله عنه. قال لعمر: إنك تستعين بالرجل الفاجر. فقال عمر: إنى لأستعمله لأستعين بقوته ثم أكون على قفائه [۵۶] ، وكما ذكرنا من قبل إن الله نهى عن اتخاذ بطانة ينتهى طريقها بخروج الحياة الدينية ودخول

حیاهٔ أخری تحت أی اسم آخر. والنبی صلی الله علیه وسلم کان إذا استعمل أحدا وصاه وکان یتبرأ من أی عمل لا یصیب فی وعاء الدین والحیاهٔ الدینیهٔ، وکان وراء ذلک کله الوحی. وبعد رحیل النبی صلی الله علیه وسلم کانت للحیاهٔ الدینیهٔ سیاسهٔ وهذه السیاسهٔ یمکن للباحث أن یکتشفها بسهولهٔ فی خلافهٔ أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب. فلقد قیل له أن یبقی علی الأمراء فی أول عهده حتی یستتب له الأمر. لکنه أبی إلا أن یعزلهم. لأنه علم من النبی صلی الله علیه وسلم نهایهٔ الطریق الذی یرکبه هؤلاء الأمراء. وما دام الطریق لا یصب فی المصب الصحیح فلا بدیل لخلعهم. ما هی الفائدهٔ التی ستعود علی الدعوهٔ من دهاء معاویهٔ وعمرو والمغیرهٔ؟ وما هی الفائدهٔ التی ستعود علی الدعوهٔ من عضلات أبو الأعور وبسر بن أرطأهٔ؟ وما هی الفائدهٔ التی ستعود علی الدعوهٔ من وراء کعب الأحبار وأبی زبید وتلمیذ مسیلمهٔ الکذاب وطلحهٔ بن خویلد؟ قلت الدعوهٔ ولم أقل ما هی الفائدهٔ التی ستعود علی المسلمین. ثم ما هی النتیجهٔ لیس بعد ألف عام. ولکن فی القرن الأول فقط. ولقد اتسعت الدائرهٔ بعد ذلک فی عهد عثمان بن عفان فمن الذین ذکرناهم

[صفحه ۳۷۱]

ممن اتسع نفوذهم عما کان علیه فی عهد أبی بکر وعمر وزاد عثمان القائمهٔ بآخرین منهم:. (الحکم بن أبی العاص) کان من مسلمهٔ الفتح وأخرجه رسول الله صلی الله علیه وآله من المدینهٔ وطرده منها ولعنه وورد فی لعنه أحادیث صحیحهٔ. أعاد عثمان فی خلافته. وکان من الأسباب التی نقمها الناس علی عثمان. ومنهم (مروان بن الحکم) قیل: کان مع أبیه عندما طرده رسول الله صلی الله علیه وآله. وقیل: أن مروان ولد بالطائف فلم یزل مع أبیه بالطائف إلی أن ولی عثمان. روی أن عائشهٔ قالت لمروان: أما أنت یا مروان فاشهد أن رسول الله صلی الله علیه وآله لعن أباک وأنت فی صلبه [۵۷] ، وکان مروان من أسباب قتل عثمان [۵۸] ، وقال الذهبی وابن عبد البر وغیرهما: مروان أول من شق عصا المسلمین بلا شبههٔ [۵۹] ، وهذا الذی لعنه النبی صلی الله علیه وآله وسلم وشق عصا المسلمین. تولی الخلافهٔ وأخذ لقب " أمیر المؤمنین. " وهکذا وکما تری فلقد کان الکرسی هو مرکز الصراع. هناک من یخاف علیه. وهناک من یعمل کی یمتلکه. وهذا الإشکال لا یذیبه إلا نص. فتحت النص یکون لا خلاف ولا اختلاف ولا افتراق ولا صراع. لأن الله تعالی کتب علی هدایهٔ الناس وفتح الطریق أمامهم. فإن ضلوا الطریق لا تکون لهم علی الله حجهٔ یوم القیامهٔ. وکتب الله تعالی علی نفسه أن من یختار لنفسه معجزهٔ فلا یستطیع أن یتعدی عائق من العوائق حتی یعود إلیه. ومن العوائق من یرتدی الحریر ویتحلی بالذهب والفضهٔ. ولکن حقیقهٔ البریق تری بعد زمان لیس بطویل. فعندئذ تسمی الأشیاء بأسمائها الحقیقیهٔ. ولا یکون هناک ملجأ من الله إلا إلیه. إن عالم الفتن. عالم یضرب بقفاز من حریر الذین نسوا ما ذکروا به

[صفحه ۳۷۲]

ویستدرج هؤلاء وهؤلاء إلی طریق لیس فیه إلا طعام وشراب الیأس وهناک یموتون کما تموت الحیتان.

[۱] رواه الطبرانی ورجاله ثقات (الزوائد ۳۵۲:۹) وسعید بن منصور (کنز العمال ۷۸۲:۵) وابن حجر فی الإصابهٔ (۲:۳) والاستیعاب (۵۱۰:۲).

[۲] الإستیعاب (۵۱۰:۲).

[۳] الإستیعاب (۵۱۰:۲).

[۴] البدایهٔ والنهایهٔ ۳۲۲:۶.

[۵] الطبری ۲۴۲:۳.

[۶] الطبری ۲۴۳:۳.

[۷] الطبری ۲۴۳:۳.

[۸] الطبری ۲۴۲:۳.

[۹] رواه الحاکم وقال صحیح الإسناد أصل فی کتابه الحدیث عن رسول الله ولم یخرجاه (المستدرک ۱۰۵:۱) ورواه أبو داود حدیث

رقم ۳۶۴۶.

[۱۰] رواه مسلم (الصحیح ۱۵۳:۱۶) ک البرب من لعنه النبی.

[۱۱] سورة القلم: الآیة ۴.

[۱۲] سورة النجم: الآیة ۳.

[۱۳] سورة.

[۱۴] سورة آل عمران: الآیة ۱۵۹.

[۱۵] رواه البخاری کتاب الآداب (الصحیح ۵۵:۴).

[۱۶] سورة البقرة: الآیة ۱۵۹.

[۱۷] سورة آل عمران: الآیة ۶۱.

[۱۸] البدایة والنهایة ۳۱۹:۶.

[۱۹] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۳۵۲:۹).

[۲۰] البدایة والنهایة ۲۱:۸، والاستیعاب ۳۹۵:۳.

[۲۱] الإصابة ۱۱۳:۶.

[۲۲] رواه الدیلمی فی سند الفردوس (کنز العمال ۵۸۷:۱۳)، البدایة والنهایة ۱۲۵:۸، الإستیعاب ۳۹۷:۸.

[۲۳] الطبری ۱۸۴:۶، الإستیعاب ۳۹۶:۳.

[۲۴] ابن سعد اللالکائی فی السنة (کنز العمال ۶۰۶:۱۳)، البدایة والنهایة ۱۱۸:۸، الطبری ۶۹:۵، الإستیعاب ۵۹۶:۳.

[۲۵] البدایة والنهایة ۱۱۸:۸.

[۲۶] الطبری ۱۸۴:۶، البدایة والنهایة ۱۲۵:۸.

[۲۷] البدایة والنهایة ۱۲۵:۸.

[۲۸] الإصابة ۱۱۳:۶، الإستیعاب ۳۹۸:۳.

[۲۹] الإستیعاب ۴۰۰:۳.

[۳۰] الطبری ۱۵۷:۶، ابن الأثیر ۱۹۳:۳، ابن أبی الحدید ۴۵۶:۱.

[۳۱] الإصابة ۳:۵.

[۳۲] الإستیعاب ۵۱۱:۲.

[۳۳] الإستیعاب ۶۳۳:۳.

[۳۴] الطبری ۵۹:۵، البدایة والنهایة ۲۱۴:۸.

[۳۵] الإصابة ۴۵۳:۳.

[۳۶] البدایة والنهایة ۴۸:۸.

[۳۷] البدایة والنهایة ۴۹:۸، الإصابة ۴۵۲:۳.

[۳۸] ابن عساکر (تاریخ الخلفاء ص ۱۹۰)، الإستیعاب ۳۸۹:۳.

[۳۹] الإصابة ۵۴۰:۲، أسد الغابة ۱۶:۶.

[۴۰] أبو نعیم (کنز العمال ۸۲:۸).

[۴۱] ابن أبی شعبة (کنز العمال ۸۲:۸).

[۴۲] الإصابة ۵۴۱:۲.

[۴۳] الإستیعاب ۶۶۲:۳.

[۴۴] الإستیعاب ۶۶۴:۳.

[۴۵] الإستیعاب ۶۶۳:۳.

[۴۶] الإستیعاب ۱۵۵، ۱۵۷:۱.

[۴۷] رواه ابن أبی شیبة والبیهقی (کنز العمال ۶۱۴:۴).

[۴۸] فتح الباری کتاب الأحکام ۱۹۸:۱۳.

[۴۹] الإصابة ۱۲۰:۱.

[۵۰] البدایة والنهایة ۱۳۰:۷.

[۵۱] الإستیعاب ۲۳۸:۲.

[۵۲] الإصابة ۱۱۶:۱.

[۵۳] الإستیعاب ۸۰:۴.

[۵۴] الإصابة ۳۱۶:۳.

[۵۵] البدایة والنهایة ۱۲۲:۸.

[۵۶] قفائه: مؤخر العنق والحدیث رواه أبو عبید (کنز العمال ۷۷۱:۵).

[۵۷] الإستیعاب ۳۱۸:۱.

[۵۸] الإصابة ۱۵۷:۲.

[۵۹] شذرات الذهب / ابن العماد ۶۹:۱.

الامراء والفتوحات

إن الجندیة فی الإسلام لها هدف فربما یؤید الله المسلمین بالرجل الفاجر

بمعنی أن یساعدهم بقوته فی القتال أو غیر ذلک من أمور الحرب، أما أن یؤید الله الدین بالرجل الفاجر فلا معنی لذلک، لأن الدین سلوک. وطرقة خاصة فی الحیاة تؤمن صلاح الدنیا بما یوافق بکمال الأخروی. والدین کطریق لا ینجو الإنسان من السلوک فیه إلا باستقامة، وعدم الاستقامة توجب السقوط والهلاک. وهذا لا یتفق مع الفاجر والفاسق والمنافق. کما أن السعادة الحقیقیة یصل إلیها الإنسان، أو یعمل فی الوصول إلیها عندما یکون مؤمنا بالله. وکافرا بالطاغوت. وهذا لا یتفق أیضا مع أصحاب المصالح والأهواء والقتال فی الإسلام به قوانین وربما یقاتل إنسان ما تحت شعار الإسلام ولکن لا ینفعه الشعار إذا قتل: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": من قتل تحت رایة عمیة ینصر العصبیة ویغضب للعصبیة فقتلته جاهلیة [" ۱] وزاد فی روایة ": ومن خرج علی أمتی

یضرب برها وفاجرها لا یتحاشی لمؤمنها ولا یفی لذی عهدها فلیس منی ولست منه [" ۲] وسأل رجل رسول الله صلی الله علیه وسلم: یا رسول الله الرجل

یقاتل للمغنم والرجل یقاتل للذکر والرجل یقاتل لیری مکانه فمن فی سبیل الله؟ فقال: من قاتل لتکون کلمة الله أعلی فهو فی سبیل الله [۳].

ومعارک الإسلام تحددها الدعوة ولا یحددها طلاب المال أو الغنائم. فالله تعالی هو الذی کتب القتال والدعوة التی کتب فیها القتال هی التی تحدد موضع

[صفحه ۳۷۳]

کـل قطرهٔ دم، ومعـارک الإسـلام فی المقام الأول هی معارک لله وفی الله وبالله. قال تعالی: (سـبح لله ما فی السـماوات وما فی الأرض وهو العزیز الحکیم - وهو الـذی أخرج الـذین کفوا من أهل الکتاب من دیارهم لأول الحشـر ما ظننتم أن یخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حیث لم یحتسبوا وقـذف فی قلوبهم الرعب یخربون بیوتهم بأیـدیهم وأیدی المؤمنین فاعتبروا یا أولی الأبصار) [۴] فبقوهٔ الله وسلطانه أجری سبحانه ما أراده بأیدی أعدائه، حیث

خربوا بیوتهم بأیدهم من الرعب وأیدی المؤمنین الذین أمرهم بذلک ووفقهم لامتثال أمره وإنفاذ إرادته. وکما حدد الله تعالی موضع کـل قطرهٔ دم فی معـارک الإسـلام حـدد سـبحانه موضع کـل مال من غنائم الحرب. فقال تعالی: (واعلموا إنما غنمتم من شـئ فإن الله خمسه وللرسول ولـذی القربی والیتـامی والمسـاکین وابن السبیل إن کنتم آمنتم بالله وما أنزلنا علی عبـدنا یوم الفرقان) [۵] ، وقال: (ما أفـاء الله علی رسوله من أهـل القری فلله وللرسول ولـذی القربی والیتامی والمساکین وابن السبیل لا یکون دولـهٔ بین الأغنیاء منکم وما آتـاکم الرسول فخـذوه ومـا نهـاکم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شدیـد العقاب) [۶] ، فـالله تعـالی فی الآیـهٔ الأولی بین موضع الخمس ویفهم من الآیهٔ أن أربعهٔ أخماسها للغانمین [۷] وفی

الآیهٔ الثانیهٔ أفاء سـبحانه الفیٔ وأرجعه إلی النبی صـلی الله علیه وآله ودله علی موارد صرفها التی یتصرف فیها کیف یشاء. وقد ورد أن النبی صـلی الله علیه وآله وسـلم قسم فیٔ بنی النضـیر علی المهاجرین وأعطی بعض الأنصار. وعلی امتـداد العهـد النبوی کانت الـدعوهٔ تسـتعمل أدوات الفطرهٔ وهی تشق طریقهـا إلی الفطرهٔ، ومن الثـابت أن الحکم الإسـلامی عنـد وفاهٔ النبی صـلی الله علیه وآله وسـلم لم یکن یشمل إلا شبه الجزیرهٔ العربیهٔ، وکانت الدعوهٔ حریصهٔ علی إزالهٔ العقبات التی تهدد الفطرهٔ فی هذه المنطقهٔ بعد أن رفض رؤوس الکفر

[صفحه ۳۷۴]

من أهـل الکتـاب الإیمـان الحق. وعنـدما أخبر الله تعـالی رسوله بـأن هـذه الأنمـاط البشـریهٔ لن تؤمن وأنهم یسـعون فی الأـرض فسادا ویسارعون فیه، کانت عملیهٔ إجلائهم عملیهٔ تستقیم تماما مع الفطرهٔ التی فطر الله الناس علیها. وعملیهٔ الإجلاء نسبها الله تعالی إلی نفسه فقال: (هو الـذی أخرج الـذین کفروا من أهل الکتاب...)، فالله سـبحانه هو الـذی أخرج بنی النضـیر من دیارهم فی أول إخراجهم من جزیرهٔ العرب، وأی إخراج لهم فی العهـد النبوی یقف تحت هذا العنوان. إن الدعوهٔ لم تضاعف علیهم الجزیهٔ وإنما أخرجتهم لأن فی الإخراج انتصارا للفطرهٔ، وتأمینا للعاصـمهٔ من مخاطر الاختراق والـدسائس التی یجیـدها الذین یسـعون فی الأرض فسادا. والدعوهٔ التی حصـنت نفسها بالتطهیر من الداخل، عملت من أجل إیجاد المسلم الرسالی الذی إذا وضع قدمیه علی أرض جدیدهٔ فی الجزیرهٔ العربیهٔ أو خارجها. عمل من أجل نشـر مفاهیم الـدعوهٔ، وکلما جـد جدیـد خرجت الطوائف الرسالیـهٔ إلی العاصـمهٔ لیتحققوا الفقه والفهم فی الدین فیعملوا به لأنفسـهم وینشـروه بین الأقوام إذا رجعوا إلیهم. وعلی ذلک کان تقسیم الأراضی علی الغانمین هو فی الحقیقهٔ موطئ قـدم لداعیـهٔ. وبعد وفاهٔ النبی صـلی الله علیه وسـلم کانت الذاکرهٔ عند المسـلمین تحتوی علی وصایا منها إخراج المشـرکین من جزیرهٔ العرب، ولکن الدولـهٔ نظرا لظروف خارجـهٔ عن إرادتها، ونظرا للمصـلحهٔ العامـهٔ ضاعفت الجزیهٔ علی نصاری بنی تغلب، کما سـمحت بـدخول سبی العجم إلی المدینـهٔ، وکـان أول سبی دخلها فی عهـد أبی بکر ثم بعث معاویـهٔ أبی عمر فی عهـده بعـدهٔ ألوف من سبی قیساریـهٔ. وکان عمر نفسه ضـحیهٔ من ضـحایا السبی، حیث إن الذی طعنه کان غلاما مجوسـیا. ومع حرکهٔ الفتوحات هبت ریاح تحمل آثارا وبصمات کان یعتقد أنها ذهبت بلا رجعهٔ.

[۱] رواه مسلم (کنز العمال ۵۰۹:۳).

[۲] رواه أحمد ومسلم (الفتح الربانی ۵۲:۲۳).

[۳] رواه البخاری (الصحیح ۳۶:۱) ومسلم (الصحیح ۴۹:۱۳) وأحمد (الفتح ۲۰:۱۳) والترمذی (الجامع ۱۷۹:۴).

[۴] سورة الحشر: الآية ۱ - ۲.

[۵] سورة الأنفال: الآية ۴۱.

[۶] سورة الحشر: الآية ۷.

[۷] المغنى / ابن قدامة ۷۱۸:۲.

رحلة الخراج

مع الفتوحات جاء حرص الدولة على تدبير المال اللازم لحماية الحدود،

[صفحه ۳۷۵]

فضلا عن تدبير مصدر للإيرادات تستطيع منه سداد رواتب العاملين وغير ذلك من النفقات الملقاة على عاتقها. وإذا كنا قد تحدثنا فيما سبق عن سهم ذى القربى وسهم المؤلفة قلوبهم بأن الدولة تصرفت فيهما وفقا للمصلحة العامة، فإننا سنتحدث هنا عن الأخماس الأربعة التى فرضها الله للغانمين، وقد رأت الدولة التصرف فيها وفقا للمصلحة العامة أيضا. فلقد رأى عمر بن الخطاب أن المصلحة تقتضى عدم تقسيم الأرض على الغانمين وإبقائها فى أيدى أهلها، وفرض شئ عليها يؤدى سنويا إلى بيت المال. وما أن اتخذ عمر قراره حتى انقسم المسلمون إلى فريقين فريق ينادى بقسمة الأرض بين الفاتحين، وفريق آخر يقول بقول عمر. وكان عمر يرد على المعارضين بقوله ": هذا رأيى [" ۱] ، وروى أن بلال بن رباح وذويه قال لعمر فى الأرض التى افتتحوها عنوة: اقسمها بيننا وخذ خمسها، فقال عمر: لا هنا عين المال ولكنى أحبسه فيئا يجرى عليهم وعلى المسلمين. قال بلال وأصحابه: اقسمها بيننا. فقال عمر: اللهم اكفنى بلالا ـ وذويه. قيل: فما حال الحول ومنهم عين تطرف [۲] وعدم تقسيم عمر الأرض على الفاتحين مشهور، يقول ابن قدامة: إن عمر لم يقسم الأرض التى افتتحها. وتركها لتكون مادة لأخبار المسلمين... وقد نقلنا بعض ذلك وهو مشهور تغنى شهرته عن نقله" [۳] ، وما قاله الفقهاء فى إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم قالوه هنا أيضا. قالوا: إن قسمة النبى صلى الله عليه وآله وسلم خيبر كانت فى بدء الإسلام وشدة الحاجة! فكانت المصلحة فيه. وقد تعينت المصلحة فيما بعد ذلك فى وقف الأرض فكان ذلك هو الواجب [۴] .

والذى رآه عمر رضى الله عنه من الامتناع عن قسمة الأرض على من افتتحها من

[صفحه ۳۷۶]

الغزاة عندما عرفه الله ما كان فى كتابه من بيان ذلك!! توفيقا من الله كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة للمسلمين [۵] .

وفتح بيت المال لاستقبال الخراج، وانطلق الأمراء الذين وقع اختيار أبى بكر وعمر عليهم من أجل أن يفتحوا البلاد. ولم تمض سنتان بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله حتى اتسعت الفتوحات بسرعة هائلة، فاستولى المسلمون على أراضى كلدة والحيرة التى سميت فيما بعد بالعراق. ثم جاءت موقعة اليرموك لتفتح أبواب الشام، ويفتح المسلمون دمشق وأنطاكية وبيت المقدس. ثم تحولوا إلى الشرق فقضوا على الدولة الساسانية وحكموا إيران، ثم استولوا على أفغانستان ووصلوا إلى حدود نهر السند. ثم تحولوا إلى المغرب، وفتحوا مصر وعموم شمال إفريقيا، ووصل المسلمون إلى سواحل المحيط الأطلسى. ثم حملوا عن طريق ميناء طنجة على إسبانيا واستولوا على طليطلة. وبالجملة: أصبحت الدولة الإسلامية تمتد من شواطئ المحيط الأطلسى فى الغرب إلى نهر السند فى الشرق، ومن بحر مازندران فى الشمال إلى منابع النيل فى الجنوب. ونشر الدعوة عمل فطرى، ومن الثابت أن المخلصين لم تخل منهم ساحة على امتداد الفتوحات. فكما كان فى الصفوف طلاب المال والجاه كان فيها أيضا دعاة الحق وابتغاء مرضاة الله ولكن التيار العام لم يكن مع هذا الصنف الرسالى فى معظم الأحيان. ولهذا نجد أن النبى صلى الله عليه وآله كان يحذر من التيار العام وذلك لشدته وسرعته فقال: إذا فتحت عليكم فارس والروم أى قوم أنتم؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: نكون كما أمرنا الله، قال النبى: أو غير ذلك تتنافسون ثم تتحاسد ثم تتدابرون ثم تتباغضون [۶] .

والتنافس إلى الشئ المسابقة إليه وكراهة أخذ غيرك إياه. وهو أول درجات الحسد. وأما الحسد فهو تمنى زوال النعمة عن صاحبها. وأما التدابر

[صفحه ۳۷۷]

فهو التقاطع. وأما التباغض فهو بعد التدابر [۷] وهذا الطوفان من الكراهية

مفتاحه إذا فتحت عليهم فارس والروم!!، وقال صلى الله عليه وآله لأصحابه: كيف أنتم بعدى إذا شبعتم من خبز البر والزبيب وأكلتم ألوان الطعام ولبستم ألوان الثياب، فأنتم اليوم خير أم ذاك؟ قالوا: ذاك، فقال: بل أنتم اليوم خير [۸] وقال صلى الله عليه وآله: فوالله ما الفقر أخشى عليكم. ولكن

أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم [۹] .

فهل وقع الذى أخبر به النبى صلى الله عليه وآله وسلم؟ فإذا كان قد وقع فما هى الأسباب وعلى أيدى من جرت؟ إن الذى جرى كان أمراء السوء مفتاحه وفقهاء السوء أقلامه. ولا يستطيع باحث أن ينكر أن معاوية بن أبى سفيان قد استغل الخراج إلى أبعد مدى لشراء الذمم وسفك دماء المسلمين، وإن عمرو بن العاص ساند معاوية لهدف واحد هو كطعمة بعد أن ذاق خراجها فى عهد الفاروق، وأن يعلى بن منية استعمل الخراج فى تقوية عائشة والزبير لخوض معركتهم مع على بن أبى طالب. وغير ذلك وعلى امتداد التاريخ كان الخراج مادة الأمراء فى تثوير الناس، كان الخراج رشوة تحمل شعارا إسلاميا الإسلام منه برئ. والنبى صلى الله عليه وآله حذر من هذه الرشوة التى علم من ربه أنها كائنة على طريق أمراء السوء، فقال فى خطبة الوداع: يا أيها الناس خذوا العطاء ما كان عطاء، فإذا تجاحفت قريش على الملك وكان عن دين أحدكم فدعوه [۱۰] وفى رواية ": خذوا العطاء ما دام

عطاء، فإذا كان إنما هو رشا فاتركوه، ولا أراكم تفعلون يحملكم على ذلك الفقر والحاجة، ألا إن رحى بنى مرج قد دارت وإن رحى الإسلام دائرة وإن

[صفحه ۳۷۸]

الكتاب والسلطان سيفترقان فدوروا مع الكتاب حيث دار، وستكون عليكم أئمة إن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم. قالوا: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال: كونوا كأصحاب عيسى نصبوا على الخشب ونشروا بالمناشير، موت فى طاعة خير من حياة فى معصية .[۱۱]

قال فى عون المعبود: خذوا العطاء ما كان محلة فإذا كان أثمان دينكم فدعوه، فإذا (تجاحفت) أى تنازعت قريش على الملك، أى تخاصموا وتقاتلوا عليه، وقال كل واحد منهم أنا أحق بالملك أو بالخلافة منك وتنازعوا فى ذلك فاتركوا أخذه [۱۲] وفيما سبق علمنا أن النبى صلى الله عليه وسلم حذر من

تيار يدق أوتاد التنافس والتحاسد والتدابر والتباغض، وكان يعلم أن هذا واقع على الأمة لا محالة لسوء اختيارها، وأن نهاية الطريق بعد فتح فارس والروم ستصب فى محطة البغى، فقال صلى الله عليه وسلم ": سيصيب أمتى داء الأمم الأشر والبطر والتكاثر والتشاحن فى الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون البغى [" ۱۳] وتحديد محطة البغى لا ينبغى أن تحددها الأهواء. ولهذا عين النبى

صلى الله عليه وسلم عمار بن ياسر وقال له فى حديث أجمعت الأمة على صحته ": تقتلك الفئة الباغية " فمحطة عمار هى المحطة الأم لمن أراد أن يفهم الحديث السابق. أما تحديد محطات أخرى صغيرة بمعرفة هذا أو ذلك فأمر لا يلتفت إليه. لقد كانت الفتوحات مطلب فطرى، ولكن أمراء السوء حولوها إلى مطلب تجارى. ولقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قيادة تركب أعناق الأمة فقال ": كأنكم براكب قد أتاكم فنزل فقال: الأرض أرضنا والفئ فيؤنا وإنما أنتم عبيدنا فحال بين الأرامل واليتامى وما أفاء الله

[صفحه ۳۷۹]

عليهم [۱۴] ، صلى الله عليك يا رسول الله! فكم من راكب قد جاء. منهم معاوية بن أبى سفيان الذى وضع أميرا فى الحبس لأنه طالب بتوزيع الغنائم على كتاب الله. روى أن الحكم بن عمرو قام بغزو جبل الأشل فغنم شيئا كثيرا فجاءه كتاب على لسان معاوية فيه: أن يصطفى لمعاوية ما فى الغنيمة من الذهب والفضة لبيت ماله فرد الأمير: إن كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، أولم يسمع قول النبى صلى الله عليه وسلم لا طاعة لمخلوق فى معصية الله. ثم قسم الأمير فى الناس غنائمهم. فحبسه معاوية وروى أنه مات فى الحبس [۱۵] ، ومنهم: مروان بن الحكم طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قيل لمروان فى زمن معاوية: الفئ مال الله وقد وضعه عمر بن الخطاب مواضعه. فقال: الفئ مال أمير المؤمنين معاوية يقسمه فيمن شاء [۱۶] وردد مقولة مروان من

بعده عشرات الألوف فى عالم التحاسد والتدابر والتباغض. وكل ذلك من أجل العجل الذى فى بيت المال قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لكل أمة عجل يعبدونه وعجل أمتى الدرهم والدينار [" ۱۷] ، وقال ": إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتى فى المال [" ۱۸] ، وقال": إن هذا الدينار والدرهم أهلكا من قبلكم وهما مهلكاكم [" ۱۹] .

وعن رحلة الخراج يقول الدكتور محمود لاشين: ظلت الدولة تقوم بدورها فى تحصيل الخراج... وذلك حتى منتصف القرن الخامس الهجرى حيث حدث تطور خطير كان له أكبر الأثر فى إضعاف الدولة، وذلك أنها تخلت عن دورها فى جباية وتحصيل الخراج وتلى ذلك تخليها عن تحصيل كثير من الإيرادات العامة، وتركت ذلك للجنود وقادتهم وكل من له حق قبل الدولة كراتب أو غير

[صفحه ۳۸۰]

ذلك ليتولى تحصيل هذه الإرادات مباشرة من الممولين ويستولى عليها سدادا لراتبه أو حقه أو غير ذلك، وظهر على ذلك ما عرف بإقطاع الاستغلال... وقد ترتب على ذلك حدوث اضطرابات داخلية نتيجة للظلم والتعسف فى جمع هذه الأموال [۲۰] ويقول الحافظ أبى بكر بن محمد: آل الحال إلى أن استأثر كثير من

الناس بأموال بيت المال من غير قيام بمصلحة ولا اتصاف بصفة استحقاق [۲۱] .

وقد رأى نظام الملك (عام ۴۸۶ ه) أن يفرق الإقطاعات على الجند ولم يكن هذا من عادة الخلفاء من لدن عمر بن الخطاب، وأراد نظام الملك بذلك أن كل من أقطع قرية يعتنى بعمارتها وتوفير غلتها. ثم تغيرت الأحوال واختل النظام. وصارت الولاة وأتباعهم من الأجناد يجاهدون فى الرعايا من المسلمين وغيرهم بسلب أموالهم وتعذيبهم، ومن وقف أمام ظلمهم رموه بالعصيان أو وسموه بالبغى والعدوان واستباحوا قتاله واغتنام ماله. وأصل هذا الفساد بل كل فساد فى الدين من ولاة الجور وقضاة الرشا وفقهاء السوء وصوفية الرجس، كما قال عبد الله بن المبارك: أو هل أفسد الدين إلا الملوك وأحباء السوء ورهبانها، فإن الولاة لما فسدوا وامتدت أطماعهم إلى أن أخذوا أموال الناس، واستأثروا بأموال الصالح واعتقدوها مملوكة لهم، تعدى الفساد إلى القضاة والفقهاء وأرباب المناصب بل إلى الكافة، وتقلد الأمانات الخونة فباعوا الدين بالدنيا، وعلم الأتباع منهم أنهم قد خانوا الله. وقالوا: ما لنا لا نخون، وقد روى ابن عبد ربه أن مروان بن الحكم أرسل وكيلا إلى قرية له فى الغوطة ثم حضر إليه فى بعض الأيام فقال له مروان: يا هذا أظن أنك تخوننى فى ضيعتى. فقال له: أو تظن ذلك ولم تستيقنه؟ والله إنى أخونك وأنت تخون أمير المؤمنين وأمير المؤمنين يخون الله، فلعن الله أشر الثلاثة [۲۲] ثم زاد الفساد

[صفحه ۳۸۱]

بتصرف الأجناد وغيرهم فى الإقطاعات تصرف الملاك بالبيع والشراء، وأمضى لهم الولاة ذلك، واشترك فى هذا الأمر الخاص والعام، ومن يصلح للجهاد ومن لم يصلح، ومن يستحق فى بيت المال ومن لا يستحق. ثم اشتد حرص الولاة وأركان الدولة على جمع الأموال وأخذ الرشا، ورخصوا فى الأمور فاغتنم الجهال ذلك منهم وأرضوهم بسخط الله، ووثب كل فريق. واستأثر بما تصل إليه قدرته من أموال بيت المال وغيرها، وكثر التنازع والتنافس فى ذلك حتى آل الحال إلى أن حولوا كثيرا من الجهات المختصة ببيت المال إلى الملك والوقف والرزق المؤبد، وجعلوا ذلك وسيلة إلى حوز الدنيا لهم ولذراريهم من بعدهم، واستنبطوا فى ذلك أنواعا

من الحیل یخدعون بها الخلق [۲۳] ، کانت هذه شهادة لمؤرخ یصف فیها ما حدث فی عصره وغیر عصره. ویقول مؤرخ آخر وهو یتحدث عما شاهده فی دولة المالیک بمصر [۲۴] فی زماننا فسد الحال... وصارت الإقطاعات ترد من جهة الملوک علی سائر الأموال من خراج الأرضین والجزیة وزکاة المواشی والمعادن والعشر وغیر ذلک، ثم تفاحش الأمر وزاد حتی أقطعوا المکوس علی اختلاف أصنافها وعمت البلوی والله المستعان فی الأمور کلها [۲۵] .

ویقول مؤرخ آخر یصف حال زمانه [۲۶] إن أرض مصر أربعة وعشرین قیراطا، فیختص السلطان فیها بأربعة قراریط (أی یحصل السلطان علی سدس مساحة الأرض الزراعیة فی مصر)، ویختص الأجناد بعشرة قراریط (ما یعادل ۷، ۴۱. /. من خراج أرض مصر، ویختص الأمراء بعشرة قراریط. وکان الأمراء یأخذون کثیرا من إقطاعات الأجناد فلا یصل إلی الأجناد منها شئ، ویصیر ذلک الاقطاع فی دواوین الأمراء ویحتمی بها قطاع الطرق وتثور بها الفتن، ویمنع منها

[صفحه ۳۸۲]

الحقوق والمقررات الدیوانیة وتصیر مأکلة لأعوان الأمراء ومستخدمیهم ومضرة علی أهل البلاد [۲۷] .

وظل إقطاع الاستغلال الابن البکر لبیت المال یعمل به حتی نهایة دولة الممالک ۹۳۲ ه، حتی دخلت مصر تحت السیطرة العثمانیة، فقاموا بإلغاء قطاع الاستغلال وحل محله نظام الالتزام، کما تم إحلال مصطلح الأموال الأمیریة محل الخراج، ولم یترک العثمانیون أی نشاط سواء کان تجاریا أو صناعیا حتی أصحاب المهن والحرف دون أن یفرض علیهم ضرائب محددة یلتزم بتحصیلها أشخاص معنیون [۲۸] لقد أمروا فی البدایة أن یعطوا الناس کی تشق الدعوة

طریقها برفق. ولکن الأمر سار علی غیر ذلک وفقا لمصلحة زمان، وترتب علی ذلک أنهم أخذوا من الناس وفقا لمصلحة زمان آخر. تری هل کانت قسمة النبی صلی الله علیه وآله وسلم خیبر فی بدء الإسلام من أجل شدة الحاجة؟ أم أن القسمة کانت دعوة لا یقوم العدل إلا بها؟ إن الفتوحات أمر عظیم له شروط یمکن فیها النجاة. قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": إنه سیفتح لکم مشارق الأرض ومغاربها وإن عمالها فی النار إلا من اتقی الله وأدی الأمانة [" ۲۹] ، وروی أن أعرابیا قال: یا رسول الله الرجل یقاتل للمغنم فالرجل یقاتل للذکر والرجل یقاتل لیری مکانه فمن فی سبیل الله؟ فقال: من قاتل لتکون کلمة الله أعلی فهو فی سبیل الله [۳۰] .

[۱] الخراج / أبو یوسف ص ۲۴.

[۲] المغنی / ابن قدامة ۷۱۶:۲.

[۳] المغنی / ۷۲۲:۲.

[۴] المغنی ۷۱۸:۲.

[۵] الخراج / ابن یوسف ص ۲۷.

[۶] رواه مسلم (الصحیح ۹۶:۱۸) ک الزهد.

[۷] النووی شرح مسلم (۹۷:۱۸).

[۸] رواه البیهقی وابن عساکر (کنز العمال ۲۱۶:۳).

[۹] رواه مسلم (الصحیح ۹۵:۱۸) کتاب الزهد.

[۱۰] رواه أبو داود حدیث رقم ۲۹۵۸.

[۱۱] رواه ابن عساکر عن ابن مسعود (کنز العمال ۲۱۶:۱)، الطبرانی عن معاذ (کنز ۲۱۱:۱).

[۱۲] عدن المعبود ۱۷۳:۸.

[۱۳] رواه الحاکم (کنز العمال ۵۲۶:۳).

[۱۴] رواه ابن النجار عن حذیفة (کنز العمال ۱۹۵:۱۱).

[۱۵] البدایة والنهایة ۵۱:۸.

[۱۶] الإصابة ۳۰۲:۱.

[۱۷] رواه الدیلمی عن حذیفة (کنز ۲۲۳:۳).

[۱۸] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۵۶۹:۴).

[۱۹] رواه أبو داود والطبرانی والبیهقی (کنز ۱۹۱:۳).

[۲۰] الفاروق عمر والخراج ص ۳۲، ۴۰.

[۲۱] تحریر المقال فیما یحل ویحرم من بیت المال / الحافظ أبی بکر بن محمد البلاطلسی ص ۸۹.

[۲۲] العقد الفرید / ابن عبد ربة ۳۷:۱.

[۲۳] تحریر المقال / الحافظ أبی بکر البلاطلسی ص ۱۰۵.

[۲۴] هو القلقشندی.

[۲۵] صبح الأعشی / القلقشندی ۱۱۷:۱۳.

[۲۶] هو المقریزی.

[۲۷] الخطط / المقریزی ۸۸:۱.

[۲۸] عمر والخراج ص ۴۲، ۱۵۸.

[۲۹] رواه أحمد وفیه شفیق بن حبان ذکره ابن حبان فی الثقات وقال ابن حجر حسن الإسناد (الفتح الربانی ۲۵:۲۳).

[۳۰] رواه البخاری (الصحیح ۱۱۳۶) ومسلم (الصحیح ۴۹:۱۳).

نهایة الطریق

أن بدایة النهایة من هنا قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": لم یزل

[صفحه ۳۸۳]

أمر بنی إسرائیل معتدلا حتی نشأ فیهم المولدون وأبناء سبایا الأمم التی کانت بنو إسرائیل تسبیها، فقالوا بالرأی فضلوا وأضلوا [" ۱] ولقد علمت متی دخلت السبایا

ومتی قالوا بالرأی. وأول نقص دخل کان من باب التخاذل قال النبی صلی الله علیه وآله وسلم: إن أول ما دخل النقص علی بنی إسرائیل کان الرجل یلقی الرجل فیقول: یا هذا إتق الله ودع ما تصنع فإنه لا عمل لک، ثم یلقاه من الغد فلا یمنعه ذلک أن یکون أکیله وشریبه وقعیده، فلما فعلوا ذلک ضرب الله قلوب بعضهم ببعض. ثم تلی رسول الله قوله تعالی: (لعن الذین کفروا من بنی إسرائیل علی لسان داوود وعیسی بن مریم)، إلی قوله: (فاسقون) ثم قال ": کلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهن من المنکر، ولتأخذون علی ید ی الظالم ولتأطرنه علی الحق أطرا [۲] ولتقصرنه علی الحق قصرا، أو لیضربن الله بقلوب بعضکم علی بعض ثم لیلعنکم کما لعنهم [" ۳] .

فهذا أول النقص. فإذا لم یدفع منذ البدایة. فلا جدوی من فعل أی شئ بعد ذلک لأن الشبل أصبح أسدا. قالوا: یا رسول الله متی ندع الائتمار بالمعروف والنهی عن المنکر؟ قال ": إذا ظهر فیکم ما ظهر فی بنی إسرائیل، إذا کانت الفاحشة فی کبارکم والملک فی صغارکم والعلم فی رذالکم [" ۴] لهذا قال النبی

فی روایات کثیرة وهو یتحدث عن أمراء السوء " لا أن الناس اعتزلوهم " فهذا الدواء خاص بالداء فی أول الطریق. أما استفحال الداء بعد ذلک فله فقه آخر. ومما لا شک فیه أن الفتوحات قذفت علی الأمة بالسبایا وبالرأی وبأمراض أول الطریق التی لم یشعر بها أکثر

الناس نظرا للبريق الذى حولها وحولهم.

[صفحه ۳۸۴]

فالفتوحات أيقظت غريزة العرب الجاهلية من الغرور والنخوة، بعدما كانت فى سكن بالتربية النبوية. فكانت تتسرب فيهم روح الأمم المستعلية وتتمكن منهم رويدا. ويشهد بذلك شيوع تقسيم الأمة المسلمة يومئذ إلى العرب والموالى، وسيرة معاوية وهو والى الشام يومذاك بين المسلمين بسيرة ملوكية قيصرية، حتى قال عمر بن الخطاب: أتذكرون كسرى وعندكم معاوية، وأمور أخرى كثيرة ذكرها التاريخ. وتحت ظل الفتوحات راج الحديث رواجا بينا فى عصر معاوية، وكان عدد من أهل الكتاب قد دخلوا فى الإسلام، وأخذ عنهم المحدثون شيئا كثيرا من أخبار كتبهم وقصص أنبيائهم وأممهم فخلطوها بما كان عندهم من الأحاديث المحفوظة عن النبى صلى الله عليه وسلم، وأخذ الوضع والدس يدوران فى الأحاديث. وتحت ظل الفتوحات اتسع نطاق المباحث الكلامية، لأن الفتوحات الواسعة أفضت بالطبع إلى اختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم وأرباب الملل والنحل وفيهم العلماء والأحبار والأساقفة والبطاركة الباحثون فى الأديان والمذاهب، فارتفع منار الكلام فى عهد عمر، ثم اتسع فى عهد عثمان وعلى امتداد حكم بنى أمية. وتحت ظل الفتوحات نقلت علوم الأوائل من المنطق والرياضيات والطبيعيات والإلهيات والطب والحكمة العملية إلى العربية، نقل شطر منها فى عهد الأمويين، ثم أكمل فى أوائل عهد العباسيين. فقد ترجموا مئات الكتب من اليونانية والرومية والهندية والفارسية والسريانية إلى العربية، وأقبل الناس يتدارسون مختلف العلوم، ولم يلبثوا كثيرا حتى استقلوا بالنظر وصنفوا فيها كتبا ووسائل. وفى ظل الفتوحات ظهرت قوافل التصوف التى ترفض ما وصل إليه الحال. ثم ظهرت قوافل أخرى يتكلمون بأمور تناقض الدين وحكم العقل، وغير ذلك كثير. وما كان هذا ليحدث لو طاب أعلى الوعاء، قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم ": إنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء، إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله [" ۵] .

ولقد سقطت السياسة المالية يوم اتخذ الفيئ دولا، ففى حديث النبى

[صفحه ۳۸۵]

صلى الله عليه وسلم قال ": إذا اتخذ الفئ دولا ـ والأمانة مغنما والزكاة مغرما وتعلم لغير دين الله... فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وزلزلة وخسفا ومسخا وقذفا وآيات تتتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع. " وفى رواية ": إذا فعلت أمتى خمس عشر خصلة حل بها البلاء، " منها ": إذا كان المغنم دولا والأمانة مغنما والزكاة مغرما [" ۶] إن النظام الاقتصادى فى المقدمة، فإذا انحرف ظهر أمراء السوء وفقهاء السوء وعادت نخوة الجاهلية، وراجت الأحاديث التى يكذبون فيها على رسول الله، ودخلت المباحث الكلامية عالم البريق والزخرف. وروى الشعر وراج القصص وكل هذا من أجل المال الذى فى بيت المال ويغترف منه الأمراء والأجناد. وعالم مثل هذا لا بد أن تجرى عليه الزلزلة فتتباعد أركانه، أو تنهدم ويجرى عليه الخسف فيتوارى تحت التراب وتخسف هامته. ومن الثابت أن الدولة الواسعة الأطراف لم تستطع البقاء تحت حكم إدارة مركزية واحدة، فكما توسعت بسرعة نراها تجزأت بسرعة أيضا، وأول من قام بتجزئتها أحد أفراد أسرة الأمويين فى إسبانيا وهو عبد الرحمن الداخل، حيث أسس دولة مستقلة سنة ۱۳۹ ه، ورفع يد الحاكم العباسى عن ذلك الجزء من الدولة الإسلامية. ثم انفصل الأدارسة وأسسوا الدولة العلوية فى مراكش. ثم انفصل الأغالبة واستولوا على بقية مناطق إفريقيا سنة ۱۸۴ ه، وأسسوا دولة الأغالبة، وبعد قرن أى فى سنة ۲۴۶ ه ظهر ابن طولون فى مصر ففصلها عن الدولة الإسلامية. أما فى المشرق فتم تأسيس الدولة الطاهرية بخراسان (۲۰۴ ه)، ثم ظهرت دويلات صغيرة بعد ذلك فى شرق إيران كالصفاريين والسامانيين والغزنويين. وفى منتصف القرن الرابع الهجرى سيطر على جهاز الدولة العباسية القواد والأمراء والحجاب والمماليك والأتراك. وخلال هذه الفترة قامت الدولة البويهية فى الجزء المتبقى لهم فى إيران. ثم انقرضت الدولة العباسية على يد المغول سنة ۶۵۶ ه. ولقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بهذه النهايات قال ": منعت

[صفحه ۳۸۶]

العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مديها ودينارها، ومنعت مصر أرد بها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم وعدتم من حيث بدأتم [" ۷] قال النووى: القفيز مكيال معروف لأهل العراق، والمدى مكيال معروف لأهل الشام، والأردب مكيال معروف لأهل مصر، والأشهر فى معنى الحديث: إن العجم والروم يستولون على البلاد فيمنعون حصول ذلك للمسلمين، وقد روى مسلم عن جابر قال: يوشك أن لا يجئ إليهم قفيز ولا درهم. قلنا: من أين ذلك؟ قال: من قبل العجم يمنعون ذلك. وذكر فى منع الروم ذلك بالشام مثله [۸] لقد ذهب الخراج الذى فتح له بيت المال أبوابه،

لأن فيه الأمن والأمان لحدود الدولة. ولم يأت الخراج بالأمن لأن السبى أصبح لهم موطئ قدم فى الدولة، وتجول نصارى الحيرة وبنى تغلب فى الطرقات. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": يوشك أن يملأ الأرض عز وجل أيديكم من العجم ثم يكونون أسدا لا يفرون فيقتلون مقاتلتكم ويأكلون فيأكم [" ۹] ، وعلى موائد الفئ لا ترى العجم وحدهم وإنما ترى كل وجوه الأمم. قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم ": يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قيل: يا رسول الله فمن قلة بما يومئذ؟ قال: لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن فى قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهتكم الموت [۱۰] .

غثاء السيل: أى كالذى يحمله السيل من زبد ووسخ [۱۱] .

[صفحه ۳۸۷]

[۱] رواه الطبرانى فى الكبير (كنز العمال ۱۸۱:۱۱).

[۲] أى لترد به إلى الحق.

[۳] رواه الطبرانى وقال الهيثمى رجال رجال الصحيح (الزوائد ۲۶۹:۷).

[۴] رواه أحمد وابن ماجة وقال البوصيرى فى الزوائد ابن ماجة إسناده صحيح ورجاله ثقات (الفتح الربانى ۱۷۷:۱۹)، وقال فى فتح البارى أخرجه ابن أبى خيثمة (فتح البارى ۳۰۱:۱۳).

[۵] رواه الرامهرمزى فى الأمثال.

[۶] رواه الترمذى على أبو هريرة وعن على (الجامع ۴۹۴، ۴۹۵:۴).

[۷] رواه مسلم كتاب الفتن (الصحيح ۲۰:۱۸) وأحمد (الفتح الربانى ۳۷:۲۴) وأبو داود حديث ۳۰۳۵.

[۸] النووى شرح مسلم (۲۰:۱۸).

[۹] رواه أحمد وقال الهيثمى رجاله رجال الصحيح (الفتح الربانى ۵۵:۲۴)، ورواه البزار والحاكم (كنز ۱۸۸:۱۱).

[۱۰] رواه أحمد وقال الهيثمى إسناده جيد (الزوائد ۲۸۷:۷) وقال فى الفتح الربانى رواه أبو داود والبخارى فى تاريخه (الفتح ۳۲:۲۴).

[۱۱] عون المعبود ۴۰۵:۱۱.

مشهود فى أول الطريق

توجد معالم فى عهد الفاروق لا يمكن إهمالها ونحن نلقى الضوء على

بدايات فى عصره كانت لها نهايات فى عصرنا، ومن هذه المعالم مدينة البصرة. ويذكر أن العرب لما فتحوا " الحيرة " سنة ۱۴ ه، أمر عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان بتأسيس البصرة سنة ۱۵ ه، فصارت حاضرة العراق. وأوطنت فيها قبائل عربية مختلفة الأصول والأنساب، تشابكت فى علاقات مع سكان البلاد الأصليين من الفرس والنبط والآراميين. ومما لا شك فيه أن القبائل العربية قد نالها بعضا من غبار ثقافة أهل تلك البلاد. ولذا فقد حذر النبى صلى الله عليه وآله من البصرة من قبل أن تنشأ، ومن قبل أن يخرج اسمها إلى الوجود، وبين أن العدل سيموت على أعتابها. قال صلى الله عليه وسلم لأنس: يا أنس أن الناس يمصرون أمصارا وأن مصرا منها

یقال لها: البصرهٔ أو البصرهٔ، فإن أنت مررت بها أو دخلتها فإیاک وسباخها [۱] ، وکلاءها [۲] ، وسوقها [۳] ، وباب أمرائها [۴] ، وعلیک بضواحیها [۵] ، فإنه یکون بها خسف وقذف ورجف وقوم یبیتون فیصبحون قردهٔ وخنازیر [۶] وفی روایهٔ فإن أنت وردتها فإیاک ومقصعها وسوقها

وباب سلطانها، فإنه سیکون بها خسف ومسخ وقذف، آیهٔ ذلک أن یموت العدل ویفشوا فیها الجور، ویکثر فیها الزنا وتفشوا فیها شهادهٔ الزور [۷] ، وروی أن

[صفحه ۳۸۸]

أنسا اتخذ بیتا بعیدا عن البصرهٔ [۸] .

إن الاعتراض لیس علی بناء المدینهٔ، وإنما علی تولیهٔ أمراء المدینهٔ الذین ذابوا مع نصاری الحیرهٔ علی موائد الشراب، وذلک أمر أقره علماء الحدیث والتاریخ. فمن فوق هذه الموائد راج الشعر والقصص وکثر الزنا حتی قال الفاروق: إن الله بعث محمدا بالحق وأنزل علیه الکتاب فکان فیما أنزل آیهٔ الرجم [۹] وزاد فی روایهٔ: فرجم رسول الله ورجم أبو بکر ورجمت، ولولا أنی

أکره أن أزید فی کتاب الله لکتبته فی المصحف، فإنی خشیت أن تجیئ أقوام فلا یجدونه من کتاب الله فیکفرون [۱۰] ، ومما یذکر أن الفاروق نهی عن نکاح المتعهٔ، وهو عند بعض الفقهاء دواء یسد باب الزنا فی مهمهٔ کمهمهٔ الفتوحات وغیرها. فعن جابر أنه قال: کنا نستمتع بالقبضهٔ من التمر والدقیق الأیام علی عهد رسول الله صلی الله علیه وسلم وأبی بکر حتی نهی عنه عمر [۱۱] ، وروی أن علیا کان یقول: لولا نهی عمر عن المتعهٔ ما زنی إلا شقی. وتمصیر الأمصار کان یتم علی قاعدهٔ لا روایهٔ فیها عن رسول الله صلی الله علیه وسلم. وکان عمر لا یهتم إلا بقراءهٔ القرآن فی الأمصار، لکنه علم فی آخر عهده أن القرآن وحده لا یعبر الطریق إلی الفرس والنبط والآرامیین، ولا بد له من مفتاح یمهد له الطریق. وهذا المفتاح هو السنهٔ الشریفهٔ. ففی بدایهٔ الطریق یقول ابن کثیر: فإن عمر کان یقول اشتغلوا بالقرآن فإن القرآن کلام الله، ولهذا لما بعث أبا موسی إلی العراق قال له: إنک تأتی قوما لهم فی مساجدهم دوی بالقرآن کدوی النحل، فدعهم علی ما هم علیه ولا تشغلهم بالأحادیث، وأنا شریکک فی ذلک. هذا معروف عن عمر رضی الله عنه [۱۲] أما فی نهایهٔ الطریق

[صفحه ۳۸۹]

فیروی ابن عساکر أن عمر بن الخطاب قال لابن عباس: أری القرآن قد ظهر فی الناس. فقال له: ما أحب ذاک یا أمیر المؤمنین قال عمر: لم؟ فقال: لأنهم متی یقرأوا ینقروا ومتی ینقروا یختلفوا ومتی یختلفوا یضرب بعضهم رقاب بعض. قال عمر: إن کنت لأکتمها الناس [۱۳] ، ثم روی أن أبا موسی قد بعث إلیه بأن عدد القراء قد ازداد، فقال عمر: إن بنی إسرائیل إنما هلکت حین کثر قراؤهم" [۱۴] وهکذا فطن الفاروق للنهایهٔ التی ما بعدها نهایهٔ. لقد أراد أن تنتج

الساحهٔ قراء وأمراء من أصحاب السواعد القویهٔ، ولکن فی هذا إشکال لقول النبی صلی الله علیه وسلم ": أکثر منافقی أمتی قراؤها" [۱۵] ، وقال ": بکتاب الله یضلون وأول ذلک من قبل قرائهم وأمرائهم [" ۱۶] إن القراءهٔ فقط هی

بذرهٔ الخوارج التی علیها نبتت شجرتهم. والذی یستحق التسجیل هنا أن الفاروق أطلق صیحهٔ مبکرهٔ عندما علم أن أهل العراق قد نقروا واختلفوا. لقد قال ": یا أهل الشام استعدوا لأهل العراق فإن الشیطان قد باض فیهم [" ۱۷] ، ونحن لا ندری لماذا اختار الفاروق أهل الشام فی هذا الوقت المبکر لیتجهزوا لأهل العراق. إننا لا نعلم الأسباب التی وراء هذا القرار لأنه غابت عنا أحداث لا یعلمها إلا من لابسها. إن البصرهٔ بدایهٔ ضربها الذم من قبل أن یمصرها الناس، وذلک لما لها من أثر بالغ علی اللغهٔ والدین بعد أن اختلطت بها الشعوب وتجول علی أرضها أمراء السوء، ولهذا لا نعجب عندما نستمع إلی حذیفهٔ وهو یقول للفاروق ": إنک تستعین بالرجل الفاجر [" ۱۸] ولا نعجب عندما نسمع من یقول لعمر:

الله یا عمر تستعمل من یخون وتقول لیس علیک شئ وعاملک یفعل کذا

[صفحه ۳۹۰]

وكذا [" ۱۹] فأى علم هذا وأى دعوة هذه التى يشرف عليها الفاجر والخائن من

الأمراء؟ والنبى صلى الله عليه وسلم يقول ": لا إيمان لمن لا أمان له ولا دين لمن لا عهد له [" ۲۰] ، والقرآن قد نهى عن اتخاذ بطانة من دون المؤمنين. وإذا كانت البصرة قد أدينت من قبل أن تمصر، فإن أمراء عمر بن الخطاب قد أدينوا من قبل أن يظهروا على مسرح الأحداث. وذلك أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أخبر بأنه سيظهر من بعد وفاته رجلا يقال له أويس، وأن هذا الرجل كريم عند ربه، وإنه خير التابعين [۲۱] ، وأمر أصحابه إن لقوه فليطلبوا منه أن يستغفر لهم، وخص النبى صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب وقال: إن استطعت أن يستغفر لك فافعل [۲۲] وظهر أويس فى عهد عمر بن الخطاب،

ولهذا قصة طويلة، وطلب عمر أن يستغفر له ففعل. وحرص عمل على أن يبقى أويس معه ولا يفارقه ولكنه أملس منه (أى تملس من الأمر. تخلص وأفلت) [۲۳] ، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة! فقال عمر: ألا أكتب لك إلى عاملها فيستوصى بك؟ قال: لا!! أكون فى غبراء الناس أحب إلى [۲۴] لقد

رفض أويس الأمراء، وعندما ذهب إلى الكوفة سأله رجل: كيف الزمان؟ فقال أويس: إن قيام المؤمن بأمر الله لم يبق له صديقا، والله إنا لنأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيتخذوننا أعداء، ويجدون على ذلك من الفاسقين أعوانا، حتى والله لقد يقذفوننا بالعظائم. والله لا يمنعنى ذلك أن أقول الحق [۲۵] .

وقال أويس لهرم بن حبان: إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأحياء، إن

[صفحه ۳۹۱]

المؤمنين يعرف بعضهم بعضا، ويتحدثون بروح الله وإن لم يلتقوا وأن لم يتكلموا، ويتعارفوا وإن نأت بهم الديار وتفرقت بهم المنازل. فقال له هرم: حدثنى عن رسول الله بحديث أحفظه عنك؟ قال: إنى لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن لى معه صحبة، ولقد رأيت رجالا رأوه وقد بلغنى من حديثه كما بلغكم ولست أحب أن أفتح هذا الباب على نفسى [۲۶] ، ولقد قاتل أويس بعد ذلك تحت راية على بن أبى طالب واستشهد بين يديه. وسيأتى ذلك عند حديثنا عن معارك أمير المؤمنين. هذا ما كان من أمر أويس الذى ادخره الله ليأتى فى زمان لله حكمة فيه. وعندما جاء رفضه حتى توصية الأمراء به. وهذا ما كان من أمر البصرة التى أخبر عنها رسول الله من قبل أن يتخذها الناس مصرا من الأمصار، وإخبار فيه إدانة لحياتها الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والسياسية. ثم إن طلب عمر بن الخطاب وهو الخليفة الراشد أن يستغفر له أويس وهو الذى لم ير النبى ولم يسمع منه فيه أن الإسلام دين لا يدعو إلى التعتم أمام الأشخاص. ويدعو أن يكون الشغل فى الله والهمة به والفرار إليه، والشاهد الأخير هنا على أن الناس فى عهد الفاروق كثير منهم تطاولت أعناقهم فى طلب الدنيا. ما رواه مسلم عن عبد الله بن الحارث قال: كنت واقفا مع أبى بن كعب فقال: لا يزال الناس مختلفة أعناقهم فى طلب الدنيا. قلت: أجل "... الحديث [۲۷] ، وأبى بن كعب مات فى خلافة عمر على أصح الروايات [۲۸] ، وطلب الدنيا ينتهى دوما إلى زوال. أخرج ابن جرير عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن البعوضة تحيا ما جاعت فإذا شبعت ماتت. وكذلك ابن آدم إذا امتلأ من الدنيا أخذه الله عند ذلك ثم تلى ": فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ

[صفحه ۳۹۲]

حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. "

[صفحه ۳۹۳]

[۱] موضع يعلوه الملوحة.

[۲] موضع تربط فيه السفن.

[۳] لفساد العقول فيها.

[۴] لکثرة ظلمهم.

[۵] أی الجبال.

[۶] أی تحل بهم صفات لا یتصف بها إنسان سوی فیکونوا مقلدین کالقردة باحثین عن المادة کالخنازیر.

[۷] رواه أبو داوود حدیث ۴۲۸۵ والطبرانی (عون المعبود ۴۲۱:۱۱).

[۸] رواه البخاری ک الأحکام ب ما ذکر النبی وحض علیه (الصحیح ۲۶۵:۴).

[۹] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۳۸:۴).

[۱۰] رواه مسلم (الصحیح ۱۳۱:۴).

[۱۱] البدایة والنهایة ۱۰۷:۸.

[۱۲] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۲۶۷:۱۰).

[۱۳] رواه ستة (کنز العمال ۲۶۸:۱۰).

[۱۴] الإستیعاب ۷۲:۱.

[۱۵] رواه أحمد وقال الهیثمی رواة ثقات (الزوائد ۲۲۹:۶).

[۱۶] رواه ابن أبی عاصم وفی إسناده ضعف (کتاب السنة ۱۳۲:۱).

[۱۷] ابن سعد فی الدلائل (کنز العمال ۳۵۴:۱۲).

[۱۸] (کنز العمال ۷۷۱:۵).

[۱۹] الطبری فی تاریخه ۳۱:۵.

[۲۰] رواه أحمد وأبو یعلی وفیه أبو هلال وثقه ابن معین (الزوائد ۹۶:۱).

[۲۱] مسلم فی فضائل أویس (الصحیح ۹۵:۱۶).

[۲۲] أسد الغابة ۱۸۰:۱ ورواه مسلم.

[۲۳] (کنز العمال ۴:۱۴).

[۲۴] رواه مسلم وابن سعد وأبو نعیم والبیهقی (کنز ۴:۱۴) مسلم فی فضائل أویس (الصحیح ۹۶:۱۶).

[۲۵] الحاکم (المستدرک ۴۰۶:۷).

[۲۶] الحاکم (المستدرک ۴۰۷:۳).

[۲۷] مسلم (الصحیح ۱۹:۱۸) کتاب الفتن.

[۲۸] الإصابة ۱۹:۱، الإستیعاب ۴۹:۱.

و جاء بنو أمیة

فی عالم الفتوحات حل الإسلام فی قلوب البعض حین جاءت الغنائم والأموال وکثرت المکاسب، فهناک من ذاق طعم الحیاة وعرف لذة الدنیا عندما لبسوا الناعم وأکلوا الطیب، وتمتعوا بنساء الروم وملکوا خزائن کسری. بعد أن کانوا یعیشون فی دائرة العیش الخشن، وأکل الضباب والقنافذ والیرابیع ولبس الصوف. فهذا الصنف حلا الإسلام فی قلبه عندما وقع ما أخبر به النبی صلی الله علیه وسلم بأنه سیفتح علیهم کنوز کسری وقیصر. فلما وجدوا الأمر قد وقع بموجب ما قاله وأکلوا الغلوزجات ولبسوا الحریر والدیباج. وأصبحوا أمراء فی الأمصار استدلوا بما فتح الله علیهم علی صحة الدعوة فعظموها بجلوها، وتمسکوا بالدین لأنه زادهم طریقا إلی نیل الدنیا، ومجمل القول: لولا الفتوح والنصر والظفر والخراج لانقرض دین

الإسلام بصورة من الصور، ولولا غلظة عمر التى جبله الله عليها ولا حيلة له فيها، وهى غلظة لا يقصد بها سوءا ولا يريد بها ذما، فعمر أجل قدرا من أن يعتقد فيه أن غلظته هدفها الذم والتخطئة، نقول لولا غلظته فى التعامل مع بعض رؤوس القوم، لوجد أعداء الدولة لهم ثغرات يعملون فيها على انقراض الإسلام بصورة من الصورة. ولكن عمر وهو المشهور بالتصدى لهم، وعلى سبيل المثال فعمر هو القائل فى سعد بن عبادة وهو رئيس الأنصار وسيدها، اقتلوا سعدا قتل الله سعدا، وعمر هو الذى شتم أبو هريرة، وعمر هو الذى خون عمرو بن العاص ونسب إليه سرقة مال الفئ، وعمر شتم خالد بن الوليد وطعن فى دينه وحكم بفسقه وبوجوب قتله. فسرعة

[صفحه ۳۹۴]

عمر إلى محاسبة البعض جعلت البعض الآخر يعيش يومه. وموقف عمر هذا وإن كان فيه خدمة للدولة إلا أنه لم يكن فى صالح عمر، فلقد أبغضه بعض الصحابة وملوه رغم كثرة الفتوح لأنه لم يسمح لهم بالخروج إلى الأمصار. يقول الشعبى: لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد حصرهم بالمدينة، وقال: إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد. فلما ولى عثمان خلى عنهم فاضطربوا فى البلاد وانقطع الناس إليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت فى العامة ليس إلا ذلك [۱] .

فالذى حافظ على التماسك من ضربات الأعداء، أموال الفتوحات وقبضة عمر - الذى كان عصره بحق أفضل بكثير من عصور الملوك والسلاطين الذين ركبوا على أعناق الأمة على امتداد التاريخ. وإذا كان تاريخ المسلمين ملئ بالسلبيات والغيوم، فإن الحق يحتم علينا أن نقول بأن أعظم دولة للمسلمين هى التى كان على رأسها أبو بكر وعمر بن الخطاب، فهذا العصر كان عصر البذور والبذور لا يختلف أحد على أوراقها وثمارها لأنها لم تأت بعد: وهذه الفترة من التاريخ انتهت نهاية أليمة، وذلك عندما طعن غلام مجوسى الفاروق عمر رضى الله عنه. وروى أنه كان يفسر لعمر أحلامه. وقد أخبره عمر بحلم من الأحلام ففسره كعب بأنه سيقتل بسلاح له مواصفات خاصة، وعندما طعن عمر جاء كعب يبكى ويقول: والله لو أن أمير المؤمنين أقسم على الله أن يؤخره لأخره [۲] ، ومن الأعجب أن كعبا اشتغل بعد ذلك مستشارا لمعاوية يوم أن كان أميرا على الشام، وعندما حدثت الانتفاضة على عثمان كان كعب أول من ألقى فى قلب معاوية حب الخلافة! وعلى أى حال بعد عملية طعن الفاروق وهذا الاسم أطلقه عليه أهل الكتاب تعبيرا منهم لعدله ونظرا لأنهم لم يشعروا بغربة فى عهده، وأظلتهم مظلة التسامح الإسلامية فى كل مكان على أرض الدولة. حتى

[صفحه ۳۹۵]

إن عمر كان له مملوكا نصرانيا [۳] ومن قبل عمر أخرج مالك وابن أبى شيبة

وابن جرير والبيهقى عن عمرة بنت عبد الرحمن أن أبا بكر دخل على عائشة وهى تشتكى ويهودية ترقيها فقال أبو بكر ارقيها بكتاب الله عز وجل. فمظلة التسامح كانت تظلهم ولم يشعروا بالكرامة الحقيقية على امتداد تاريخهم إلا تحت هذه المظلة وخير شاهد أنهم أطلقوا على عمر اسم الفاروق، قال ابن شهاب: بلغنا أن أهل الكتاب كانوا أول من قال لعمر الفاروق وكان المسلمون يأثرون ذلك من قومهم، ولم يبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر من ذلك شيئا [" ۴] وبعد أن طعن الغلام المجوسى الفاروق فتحت صفحة جديدة بدأت

بما سمى فى التاريخ بالشورى.

[۱] ابن عساكر (كنز العمال ۷۶:۱۴).

[۲] ابن سعد (كنز العمال ۶۸۷:۱۲).

[۳] أنظر ترجمة ناسق اليهودى.

[۴] الطبرى ۱۵:۵، ابن كثير فى البداية باختصار ۱۳۳:۷.

يوم الشورى

من الثابت أن عمر بن الخطاب قال: لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا

استخلفته. ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا استخلفته [۱] ، وفى رواية عند الإمام أحمد: لو أدركنى أحد الرجلين ثم جعلت الأمر إليه لوثقت به. سالم مولى أبى حذيفة وأبو عبيدة بن الجراح [۲] ثم اختار عمر ستة من الصحابة

وصفهم بأن النبى صلى الله عليه وسلم مات وهو راض عنهم وهم: عثمان بن عفان. عبد الرحمن بن عوف. سعد بن أبى وقاص. الزبير بن العوام. طلحة وعلى بن أبى طالب. وأمر عمر صهيب أن يصلى بالناس ثلاثة أيام، وأن يدخل هؤلاء الرهط بيتا ويقوم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد، على صهيب أن يطيح رأسه بالسيف. وإن اتفق أربعة وأبى اثنان يضرب رؤوسهما وإن رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فعليه أن يكون مع الذين فيهم عبد الرحمن بن

[صفحه ۳۹۶]

عوف ويقتل الباقين [۳] ومن العجيب أن عمر بن الخطاب كان يخاف أن يطلق الصحابة فى الأمصار، ونهاهم عن مخالطة الناس لأنه رأى فى ذلك أسى الفساد فى الأرض. ثم نراه قد أطلقهم على دائرة الإمارة والخلافة، الأمر الذى أدى بعد ذلك إلى التنافس بعد أن رسخت فى نفوس البعض من أهل الشورى حب الخلافة. ومن الصعب أن تأتى بجندى وترشحه للخلافة ثم تقول له بعد ذلك زاحم فى الصفوف الأخيرة للجنود. ومن العجيب أيضا أن يقول عمر لأهل الشورى: إن هذا الأمر لا يصلح للطلقاء ولا لأبناء الطلقاء [۴] ، خوفا منه لئلا يطمع الطلقاء فى الملك، فى الوقت الذى لم يخف حين جعلها فى ستة متساوين فى الشورى مرشحين للخلافة [۵] ومن الأعجب أن يشهد عمر بأنه أهل الشورى مات النبى وهو عنهم

راض، ثم يأمر بضرب أعناقهم إن تأخروا فى البيعة أكثر من ثلاثة أيام، ومعلوم أنهم بذلك لا يستحقون القتل لأنهم كلفوا أن يجتهدوا فى اختيار الإمام، وربما يطول زمن الاجتهاد وربما قصر. وعلى هذا فأى معنى للقتل، إذا تجاوز الأيام الثلاثة؟ ثم إنه أمر بقتل من يخالف العدد الذى فيه عبد الرحمن، وهذا أيضا لا يستحق القتل. ثم أى إجماع وأى شورى وأى اختيار لمن يجلس والسيف على رأسه ويتهدد بالقتل؟ ثم كيف يقتل من ورد فيهم أحاديث بأنهم من أهل الجنة؟ وما هو رأى المسلمين لو سمع النبى صلى الله عليه وسلم عمر يقول اقتلوا أهل الشورى؟ ونحن لا ندرى ما الذى حمل عمر على الوقوع فى هذا الارتباك وقد كان قادرا على أن يستخلف أصلح القوم وهو يعرفهم واحد واحد! وروى أن أمراء الأجناد كانوا مع عمر بن الخطاب عند أدائه مناسك الحج

[صفحه ۳۹۷]

وقدموا معه إلى المدينة وهم: معاوية بن أبى سفيان أمير الشام، وعمير بن سعد أمير حمص، والمغيرة ابن شعبة أمير الكوفة، وأبو موسى الأشعرى أمير البصرة، وعمرو بن العاص أمير مصر [۶] ، فهذه الحزمة الواحدة كانت موجودة يوم الشورى، وروى أن عبد الرحمن بن عوف خرج ليشاور الناس ودار ليالية يلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان [۷] وروى أن عليا عندما علم

بما يفعله عبد الرحمن لقى سعد بن أبى وقاص وقال له: اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام أن الله كان عليكم رقيبا. أسألك برحم ابنى هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرحم عمى حمزة منك أن لا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا على فإنى أولى بما لا يدلى به عثمان [۸] ، وذكر البخارى أن عبد الرحمن بن عوف كان يخشى من على بن أبى طالب شيئا [۹] ولكنه لم يفصح عن هذا الشئ. وكان عمار بن ياسر ميزانا للساحة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فالذى يبغض عليا فعليه بعمار بن ياسر ليرشده إلى طريق الحق الذى لن يجد فيه إلا على بن أبى طالب. روى البخارى أن عمارا أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم [۱۰] وعمار قال فيه النبى: ابن سمية ما

عرض عليه أمران قط إلا اختار الأرشد منهما [۱۱] ، ويوم الشورى قال عبد الرحمن بن عوف: إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم [۱۲] فقام عمار بن ياسر وقال: إن أردت أن لا يختلف

[صفحه ۳۹۸]

المسلمون فبایع علیا [۱۳] وفی روایهٔ قال: یا معشر قریش أما إذا صرفتم هذا

الأمر عن أهل بیت نبیکم ههنا مرهٔ وههنا مرهٔ، فما أنا بآمن من أن ینزعه الله منکم فیضعه فی غیرکم، کما نزعتموه من أهله ووضعتموه فی غیر أهله [۱۴] ، فقال المقداد بن الأسود: صدق عمار إن بایع عبد الرحمن علیا قلنا سمعنا وأطعنا. فقال عبد الله بن أبی السرح - وکان النبی قد أحل دمه واختفی عند عثمان - یا عبد الرحمن إن أردت أن لا تختلف قریش فبایع عثمان. فقال عبد الله بن أبی ربیعهٔ: صدق إن بایعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا. فشتم عمار بن یاسر بن أبی السرح وقال: متی کنت تنصح المسلمین؟ ثم قال: أیها الناس إن الله عز وجل أکرمنا بنبیه وأعزنا بدینه فأنی تصرفون هذا الأمر عن أهل بیت نبیکم. فقال له رجل من بنی مخزوم [۱۵] لقد عدوت طورک یا ابن سمیهٔ وما أنت وتأمیر قریش لأنفسها [۱۶] وکل ذلک کان یجری وأمراء الأمصار فی المدینهٔ یراقبون.

وکان علی بن أبی طالب فی هذا الوقت یقف فی دائرهٔ إقامهٔ الحجهٔ ولیس له أن ینازع فی أمر طریق الاختیار فیه مفتوح، وعلی الاختیار یأتی إما الأمن وإما الخوف والاستدراج. لقد أقام الحجهٔ علی سعد بن أبی وقاص عندما قال له: لا تکن مع عبد الرحمن لعثمان ظهیرا علی. وأقام الحجهٔ علیهم جمعیا فیما رواه أبو الطفیل قال: کنت علی الباب یوم الشوری، فارتفعت الأصوات بینهم فسمعت علیا یقول: بایع الناس لأبی بکر وأنا والله أولی بالأمر منه وأحق به منه فسمعت وأطعت مخافهٔ أن یرجع الناس کفارا یضرب بعضهم رقاب بعض بالسیف، ثم بایع الناس عمر وأنا والله أولی بالأمر منه وأحق به منه فسمعت وأطعت مخافهٔ أن یرجع الناس کفارا یضرب بعضهم رقاب بعض بالسیف، ثم

[صفحه ۳۹۹]

أنتم تریدون أن تبایعوا عثمان إذا أسمع وأطیع. إن عمر جعلنی فی خمسهٔ نفر أنا سادسهم لا یعرف لی فضلا علیهم فی الصلاح ولا یعرفونه لی، کلنا فیه شرع سواء، وأیم الله لو أشاء أن أتکلم ثم لا یستطیع عربیهم ولا عجمیهم ولا المعاهد منهم ولا المشرک رد خصلهٔ منها لفعلت. ثم قال: نشدتکم الله أیها النفر جمیعا أفیکم أحد آخی رسول الله صلی الله علیه وسلم غیری؟ قالوا: اللهم لا [۱۷] .

وفی الصواعق المحرقهٔ روی الدارقطنی أن علیا قال لهم: أنشدکم بالله هل فیکم أحد قال له رسول الله صلی الله علیه وسلم یا علی أنت قسیم الجنهٔ والنار یوم القیامهٔ غیری؟ قالوا: اللهم لا [۱۸] ، وروی ابن أبی الحدید أنه قال لهم: أنشدکم الله هل فیکم أحد قال فیه النبی صلی الله علیه وسلم من کنت مولاه فهذا مولاه غیری؟ قالوا: لا قال: أفیکم أحد قال له رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم أنت منی بمنزلهٔ هارون من موسی إلا أنه لا نبی بعدی غیری؟ قالوا: لا، قال: أفیکم من أؤتمن علی سورهٔ براءهٔ وقال له رسول الله أنه لا یؤدی عنی إلا أنا أو رجل منی غیری؟ قالوا: لا [۱۹] .

کان علی بن أبی طالب یقیم الحجهٔ فقط، وکان یعلم أن طریقه إلی الخلافهٔ غیر ممهد، واختیار عمر بن الخطاب لأصحاب الشوری أول دلیل علی ذلک. فبعد تحدید الأسماء، قال علی للعباس: عدلت عنا. فقال له: وما علمک؟ قال: قرن بی عثمان وقال کونوا مع الأکثر، فإن رضی رجلان رجلا، ورجلان رجلا فکونوا مع الذین فیهم عبد الرحمن بن عوف. فسعد لا یخالف ابن عمه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان. لا یختلفون فیولیها عبد الرحمن عثمان أو یولیها عثمان عبد الرحمن، فلو کان الآخران معی لم ینفعا فی [۲۰] قال له العباس: لا تدخل معهم. قال: أکره

[صفحه ۴۰۰]

الخلاف [۲۱] فالإمام کان یعلم بالنتیجهٔ، وکان یراقب من بالمدینهٔ وکان یکره

الخلاف وکان یقیم الحجهٔ ولا إکراه فی دین الله. وروی أن عبد الرحمن بن عوف قال لعلی بن أبی طالب هل أنت مبایعی علی کتاب الله وسنهٔ نبیه وسنهٔ الماضین من قبل؟ وفی روایهٔ: وسیرهٔ أبی بکر وعمر؟ وفی روایهٔ: وفعل أبی بکر وعمر؟ فقال علی: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمی وطاقتی، فقال عثمان: أنا یا أبا محمد أبایعک علی ذلک [۲۲] فقام

عبد الرحمن ودخل المسجد وأرسل إلى من كان حاضرا من المهاجرين والأنصار وأرسل إلى أمراء الأجناد ثم قال: يا على إنى قد نظرت فى أمر الناس فلم أراهم يعدلون بعثمان [۲۳] فقال على: حبوته حبو دهر. ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه

علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون. ثم خرج وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجله. فقال المقداد: يا عبد الرحمن أما والله لقد تركته وإنه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون. فقال: يا مقداد والله لقد اجتهدت للمسلمين. فقال المقداد: ما رأيت مثل ما أوتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم. إنى لأعجب من قريش إنهم تركوا رجلا ما أقول أن أحدا أعلم ولا أقضى منه بالعدل. أما الله لو أجد عليه أعوانا. قال عبد الرحمن: يا مقداد اتق الله فإنى خائف عليك الفتنة. فقال رجل للمقداد [۲۴] رحمك الله من أهل هذا البيت ومن هذا الرجل [۲۵] فقال المقداد: أهل البيت بنو عبد المطلب والرجل على بن أبى طالب [۲۶] .

لقد وضع عبد الرحمن شرطا يعلم أن عليا لن يقبله. بل يعلم أن عليا لو وجه النقد لهذا الشرط لكان فى هذا كفايهٔ لسيل الدماء فضلا عن ابتعاد الخلافهٔ

[صفحه ۴۰۱]

عن على. وهذا الشرط أن يبايعه على سيرهٔ أو فعل أبى بكر وعمر. وفى المدينهٔ أمراء عمر معاويهٔ وعمرو والمغيرهٔ وغيرهم، كأمثال ابن أبى السرح وأبى سفيان وبنى مخزوم وهؤلاء انتعشوا بالفتوحات والخراج. والإمام ما كان له أن يقبل هذا الشرط وذلك أن أبا بكر وعمر اختلفا فى سيرهٔ كل منهما للآخر. وعلى سبيل المثال أبو بكر نص على خلافهٔ عمر، بينما عمر جعلها شورى فى ستهٔ نفر، وأبو بكر رأى أن يقاتل الذين امتنعوا عن دفع الزكاهٔ، وعمر كان له رأى غير هذا. وأبو بكر كان يرى أن خالد بن الوليد متأول فى قتل مالك بن نويرهٔ، وعمر كان يرى غير ذلك. وأبو بكر كتب لنفر من المؤلفهٔ قلوبهم بحقوقهم، وعمر مزق كتاب أبى بكر لأن له رأيا آخر. فهذا وغيره يستقيم مع قول الإمام " أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى " ولكن التيارات الموجودهٔ بالمدينهٔ حينئذ كانت تعلم أن زهد على لن يدفع بالخراج إلى أيديهم، وكانوا يعلمون أن عمر كان مجتهدا يعمل بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلهٔ، ويرى تخصيص عموميات النص بالآراء وبالاستنباط من أصول تقتضى خلاف ما يقتضيه عموم النصوص، وكانوا يعلمون أن عمر قد عارك السياسهٔ وكاد خصمه وأمراء الأمراء بالكيد والحيلهٔ وكان يؤدب بالدرهٔ والسوط من يتغلب على ظنه أنه يستوجب ذلك، ويصفح عن آخرين قد اقترفوا ما يستحقون به التأديب. كل ذلك بقوهٔ اجتهاده وما يؤديه إليه نظره. أما على بن أبى طالب فهو على خلاف ذلك - كان يقف مع النصوص والظواهر ولا يتعداها إلى الاجتهاد والأقيسهٔ ويطبق أمور الدنيا على أمور الدين، ويسوق الكل سياقا واحدا ولا يضع ولا يرفع إلا بالكتاب والنص. لقد عرفوا هذا من على بن أبى طالب على الرغم من أنه لم يجلس على كرسى يأمرهم به وينهاهم. كانوا يعلمون أن عمر شديد الغلظهٔ والسياسهٔ، ويعلمون أن عليا كثير الحلم والصفح والتجاوز، ولكن المصلحهٔ كانت فى سياسهٔ عمر، والخوف كان من حلم على، لأن دائرهٔ الذهن عند جميع تيارات الصد تخاف من يوم، وهذا اليوم ليس من دائرهٔ الغلظهٔ والشدهٔ، وإنما من دائرهٔ خاصف النعل حيث الحلم والصفح والتجاوز والضرب فى الله. وعلى هذا يمكن

[صفحه ۴۰۲]

أن نفهم قول البخارى: إن عبد الرحمن بن عوف كان يخشى من على بن أبى طالب شيئا.

[۱] الطبرى ۳۴:۵، تارخ الخلفاء ص ۱۲۷.

[۲] الإمام أحمد (الفتح الربانى ۹۱:۲۳).

[۳] هذا الخبر أجمعت عليه الأمهٔ وأرسله علماء الحديث والتاريخ إرسال المسلمات. (راجع الكامل ۳۶:۳)، (كنز العمال ۷۴۳:۵).

[۴] ابن سعد (كنز العمال ۷۳۵:۵).

[۵] فتح البارى كتاب الأحكام (۱۹۷:۱۳).

[۶] الطبرى ۳۶:۵.

[۷] الطبری ۳۶:۵.

[۸] الطبری ۳۶:۵.

[۹] البخاری کتاب الأحکام (الصحیح ۲۴۶:۴).

[۱۰] البخاری فی مناقب عمار (الصحیح ۳۰۵:۲).

[۱۱] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۳۳۰:۲۲) والترمذی وصححه (الجامع ۶۶۸:۵) والحاکم، وقال حدیث صحیح علی شرط الشیخین (المستدرک ۳۸۸:۳).

[۱۲] الطبری ۳۷:۵.

[۱۳] الطبری ۳۷:۵.

[۱۴] مروج الذهب / المسعودی ۳۲۲:۲.

[۱۵] بنی مخزوم ضمن القبائل التی ذمها رسول الله صلی الله علیه وآله وأمر بجهادهم فی الإسلام. رواه ابن جریر وابن المنذر وابن أبی حاتم وابن مردویه (کنز العمال ۴۸۰:۲).

[۱۶] الطبری ۳۷:۵.

[۱۷] (کنز العمال ۷۲۵:۵).

[۱۸] الصواعق المحرفة / ابن حجر الهیثمی ص ۲۴.

[۱۹] ابن أبی الحدید ۶۱:۲.

[۲۰] الطبری ۳۵:۵.

[۲۱] الطبری ۳۴:۵.

[۲۲] فتح الباری ۱۹۸:۱۳.

[۲۳] البخاری (الصحیح ۲۴۶:۴) ک الأحکام ب کیف یبایع الإمام الناس.

[۲۴] فیه إشارة أن عدم روایة الحدیث جعلت الکثیر لا یعرفون شیئا عن أهل البیت.

[۲۵] المقداد بن الأسود ورد فیه حدیث (إن الله أمرنی بحب أربعة وأخبرنی أنه یحبهم: علی وأبو ذر والمقداد وسلمان) رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۳۶:۵).

[۲۶] الطبری ۳۸:۵، الکامل ۳۷:۳.

ریاح بنی أمیة

کانت أشرف خصال قریش فی الجاهلیة: اللواء والندوة والسقایة والرفادة

وزمزم والحجابة، وهذه الخصال مقسومة فی الجاهلیة إلی: بنی هاشم وعبد الدار وعبد العزی دون بنی عبد شمس. علی أن معظم ذلک صار فی الإسلام إلی بنی هاشم، لأن النبی صلی الله علیه وسلم لما فتح مکة صار مفتاح الکعبة بیده، فدفعه إلی عثمان بن طلحة، فالشرف راجع إلی من ملک المفتاح لا إلی من دفع إلیه [۱] وکان بنو عبد شمس فی الجاهلیة من ألد أعداء

بنی هاشم، وازداد هذا العداء حدة بعد بعثة النبی صلی الله علیه وسلم حیث قاد أبو سفیان ابن حرب بن أمیة بن عبد شمس الحرب ضد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلی الله علیه وسلم. وهذه الحرب لها جذور قدیمة لم یقض علیها الإسلام فضلا علی أسباب تتعلق بالإسلام ودعوته، ولهذا یمکن أن نفهم وصیة أبی سفیان وهو یأمر معاویة بأن یطیع عمر فیقول له: فلا تخالفهم فإنک تجری إلی أمد فنافس فإن بلغته أورثته عقبک [۲] وقوله فی عهد عثمان

كما جاء فى مروج الذهب: يا بنى أمية تلقفوها تلقف الكرة فوالذى يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة. ثم وقوفه على قبر حمزة وقوله: يا أبا عمارة إن الأمر الذى اجتدلنا عليه أمس صار فى يد غلماننا اليوم يتلعبون به [۳] وذلك بعد أن تجول أمراء بنى أمية فى الأمصار وراء

الخراج. فأبو سفيان لم يكن يريد لعقة وإنما كان يريد الاستمرارية على مدى الأيام والدهور، وهذا من الكبر وبطر الحق ويظهر شدة الخصومة، ولذا نجد

[صفحه ۴۰۳]

النبى صلى الله عليه وسلم يقول ": إن أشد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم [" ۴] وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم أرى بنى أمية على منبره

فساءه ذلك [" ۵] وقال صلى الله عليه وسلم ": ويل لنبى أمية " ثلاث مرات [۶] ، ومعنى أن يكون عثمان بن عفان على رأس الخلافة، أن الطريق أمام بنى أمية أصبح ممهدا بصورة من الصور. فبنى أمية هدفهم الحكم وهم فى سبيله يركبون الصعب، ولو كان الملك من وراء الجبال ليثبوا عليه حتى يصلوا كما روى عن الإمام على [۷] فإذا كان كرسى الخلافة لا ينجو منهم إذا كان من وراء الجبال

فكيف به إذا كان أمامهم والجالس عليه من وسطهم. ونحن نقول إن عثمان باب لهم لأنه من نسيجهم، والرسول صلى الله عليه وسلم عندما أعطى سهم ذى القربى ترك بنى نوفل وبنى عبد شمس، ولم يعط عثمان على الرغم من أن عثمان كان فى موقف السائل، روى البخارى وأبو داود عن جبير بن مطعم قال: لما كان يوم خيبر وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذى القربى فى بنى هاشم وبنى المطلب وترك بنى نوفل وبنى عبد شمس، فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبى صلى الله عليه وسلم فقلنا: يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذى وضعك الله به منهم. فما بال إخواننا بنى المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم: إنا وبنو المطلب لا نفترق فى جاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شئ واحد، وشبك بين أصابعه [۸] .

فالطريق الفطرى واضح فى الجاهلية والإسلام. وليست المسألة مسألة قرابة، فالنبى عندما أعطى أعطى على النصرة، وبنو عبد شمس يلتقون فى

[صفحه ۴۰۴]

قرابتهم مع بنى هاشم فى عبد مناف، ولكن ما قيمة قرابة لا نصرة فيها لفطرة أو لدعوة، وكما قال ابن قدامة: إن بنى المطلب شاركوا بنى هاشم بالنصرة والقرابة [۹] .

ومن الدليل على أن خلافة عثمان كانت بابا لبنى أمية، أن النبى صلى الله عليه وسلم أدخل مدة حكم عثمان فى المدة الإجمالية لبنى أمية وهى ألف شهر. روى عن الحسن قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى أمية يخطبون على منبره رجلا رجلا فساءه ذلك فنزلت (إنا أعطيناك الكوثر) نهر فى الجنة ونزلت: (إنا أنزلناه فى ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر) تملكها بنو أمية، فحسبنا ذلك فإذا هو لا يزيد ولا ينقص [۱۰] .

وهذا الحديث رواه الحاكم وقال هذا إسناد صحيح، وقال الذهبى: وروى عن يوسف بن نوح بن قيس أيضا، وما علمت أن أحدا تكلم فيه والقاسم وثقوه رواه عنه أبو داوود والتبوكى [۱۱] وقال فى الدر المنثور أخرجه الخطيب عن ابن

المسيب وروى أيضا مثله عن الخطيب فى تاريخه عن ابن عباس. وأيضا ما فى معناه عن الترمذى وابن جرير والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عن الحسن بن على. وقال ابن كثير فى البداية والنهاية رواه الترمذى عن القاسم بن الفضل وقد وثقه يحيى بن سعيد وغيره ورواه ابن جرير والحاكم والبيهقى [۱۲] ورغم أن

الحديث صحيح إلا أن منهم من لم يقبله قلبه. فترتب على ذلك مشكلة حتى أن الذهبى قال: وما أدرى آفته من أين [۱۳] ، ولقد حاول ابن كثير فى التفسير أن يظهر نقطة ضعف واحدة فلم يجد واكتفى بالقول إن الحديث منكر، وظهرت حيرة ابن كثير فى البداية

والنهاية بعد أن أنكر الحديث فى تفسيره، فقال: سألت

[صفحه ۴۰۵]

شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى عن هذا الحديث، فماذا قال الحافظ لابن كثير؟ إن ما قاله كان هو حجر الزاوية الذى عليه أنكروا حديث صحيح. قال الحافظ: إن القول بأنه حسب دولة بنى أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد يوما ولا تنقص فهو غريب جدا. وذلك لأنه لا يمكن إدخال دولة عثمان فى هذه المدة، وذلك أنها ممدوحة ولأنه أحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين الذين قضوا بالحق وبه يعدلون، وهذا الحديث إنما سبق لذم دولتهم [۱۴] .

وتحديد المدة بدقة هو من شأن علماء التواريخ والسير الأقدمين فى بداية العصر العباسى. وما بين أيدينا اليوم من تواريخ يؤيد ما ذهب إليه الحديث ولا يستثنى دولة عثمان. وفى محاولة قديمة أسقط من المدة أيام ابن الزبير فقارب من قام بهذه الصحة فى الحساب. وعلى أى حال فإن التاريخ خير شاهد، فعثمان أقام خيمة وهذه الخيمة دخلها معاوية فلم يشعر فيها بغربة، وبعد أن جعلها معاوية وراثة انطلق الورثة من داخل الخيمة وقتلوا الأنصار والحسين والذين يأمرون بالقسط من الناس، وكل ذلك تحت هتاف واحد يقول ": يوم بيوم قتل عثمان، " وساروا وراء الخراج وجلسوا أمام بيوت المال ومعهم أختام ليست غريبة عن عهد عثمان.

[۱] ابن أبى الحديد ۶۱۱:۴.

[۲] البداية والنهاية ۸۱۸:۸.

[۳] ابن أبى الحديد ۴:۵۱، الإمتاع والمؤانسة ۷۵:۲.

[۴] رواه الحاكم وأبو نعيم (كنز العمال ۱۶۹:۱۱).

[۵] رواه الترمذى وحسنه (الجامع ۴۴۴:۵).

[۶] رواه ابن منده وأبو نعيم عن حمران عن جابر، وابن قانع عن سالم الحضرمى (كنز ۱۶۵:۱۱).

[۷] رواه ابن عساكر (۳۶۴:۱۱ كنز).

[۸] رواه البخارى (الصحيح ۱۹۶:۲) وأبو داود حديث ۲۹۸۰ واللفظ له.

[۹] المغنى ۶۵۷:۲.

[۱۰] الحاكم (المستدرك ۱۷۱:۳).

[۱۱] المستدرك (۱۷۱:۳).

[۱۲] البداية والنهاية (۲۴۳:۶).

[۱۳] المستدرك (۱۷۱:۳).

[۱۴] البداية والنهاية (۲۴۴:۶).

ظهور النفاق

ومن الدليل القاطع على أن دولة عثمان رتع فيها النفاق حتى بلغ الذروة،

تلك الأحاديث التى رويت عن حذيفة صاحب سر رسول الله [۱] فحذيفة كان

يعلم أسماء المنافقين الكبار الذين أرادوا اغتيال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند رجوعه من تبوك كما ذكرنا. والثابت والقاطع أن حذيفة مات بعد

[صفحه ۴۰۶]

مقتل عثمان بأربعين يوما [۲] ، وقبل وفاته بايع عليا وأوصى الناس بطاعة أمير المؤمنين على [۳] ، وأمر أولاده بالقتال تحت رايته فقتلا

بصفين [۴] .

والثابت أيضا أن حذيفة كان مريضا قبل قتل عثمان وكان يلزم بيته [۵] ، وعلى ما سبق فإن رواياته التى سنوردها هنا لا بد وأن تكون قد وقعت فى خلافة أبى بكر وعمر، وأما فى خلافة عثمان. وهى روايات تجسد واقع المجتمع الذى رآه وسمعه حذيفة ومن هذه الروايات: قال ": لا يغرنك ما ترى، فإن هؤلاء يوشكون أن ينفرجوا عن دينهم كما تنفرج المرأة عن قبلها [" ۶] وقال ": والله ما أدرى أنسى أصحابى أم تناسوا؟ [۷] والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قائد فتنة [۸] إلى أن تنقضى الدنيا بلغ من معه ثلاثمائة فصاعدا إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم [۹] قبيلته [" ۱۰] إن حذيفة هنا يشير إلى أن النبى

ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، ولأن الصحابة نسوا ما ذكروا به جرت الفتن. وقال حذيفة فى معالمها ": إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون [" ۱۱] .

ثم قال صاحب السر الذى لا يعلمه أحد غيره ": إنما كان النفاق على عهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم. فأما اليوم فإنما هو الكفر

[صفحه ۴۰۷]

بعد الإيمان [" ۱۲] .

ثم يقول صاحب السر الشاهد على عصر الصحابة بعد وفاة النبى الأعظم صلى الله عليه وسلم ": إن الرجل كان يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير منافقا. وإنى لأسمعها من أحدكم فى المقعد الواحد أربع مرات. وفى رواية: عشر مرات [۱۳] إنها ثقافة وتربية مجتمع الرأى

والمصلحة، وإلا كيف انتشرت هذه الثقافة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم بزمن يسير؟ ثم يفجر حذيفة أكبر حقيقة ترتبت على ذلك كله فيقول: قال صلى الله عليه وسلم: اكتبوا إلى من تلفظ بالإسلام من الناس. فكتبنا له ألف وخمسمائة رجل، فقلنا: تخاف ونحن ألف وخمسمائة. ثم يقول حذيفة: فلقد رأيتنا ابتلينا حتى أن الرجل ليصلى وحده وهو خائف [۱۴] وفى رواية عند مسلم،

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا. قال حذيفة: فابتلينا حتى جعل الرجل لا يصلى إلا سرا [۱۵] .

إن الصلاة سرا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بأقل من ربع قرن انتهت فى زمان بنى أمية إلى ما رواه البخارى عن أنس، دخل عليه الزهرى فوجده يبكى. فقال ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة وهذه الصلاة قد ضيعت [۱۶] إن الأحاديث التى رواها حذيفة والأقوال التى قال

بها حدثت إما فى زمن أبى بكر، و إما فى عهد عمر الذى اعترف صراحة بتعيين المنافقين، وإما فى عهد عثمان، ونحن نرجح العهد الأخير لأنه باب لأسرة ذمها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحاديث صحيحة. والنبى صلى الله عليه وسلم كان قد أخبر بظهور النفاق فقال: لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا، يظهر النفاق، وترفع الأمانة، وتقبض الرحمة، ويتهم الأمين،

[صفحه ۴۰۸]

ويؤتمن غير الأمين [" ۱۷] صلى عليك يا رسول الله فلقد ظهر هذا بعد وفاتك

بزمن قليل ثم بدأ يتسع حتى تاه الجميع فى سنن الأولين إلا من رحم الله. وكان لظهور النفاق علامات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إن للمنافقين علامات يعرفون بها، تحيتهم لعنة وطعامهم نهبة (أى اغتصاب) وغنيمتهم غلول (أى سرقة) [۱۸] وصلى الله عليك يا رسول الله.

[۱] وصف فى الصحيحين أنه صاحب السر الذى لا يعلمه غيره (البخارى ۳۰۵:۲) (الإصابة ۳۳۲:۲).

[۲] الإصابة ۳۳۲:۲، الحاكم (المستدرك ۳۸۰:۳)، (البخارى فى التاريخ الصغير ۸۰:۱).

[۳] الحاكم (المستدرك ۳۸۰:۳) والبزار ورجاله ثقات (الزوائد ۲۳۶:۷) وأبو نعيم (كنز العمال ۶۱۲:۱۱) والطبرانى ورجاله ثقات (الزوائد ۲۴۳:۷) ومروج الذهب ۳۹۴:۲، فتح البارى ۴۰:۱۳.

[۴] الکامل ۱۴۷:۳.

[۵] مروج الذهب ۳۹۴:۲.

[۶] رواه ابن أبی شیبة وأبو نعیم (کنز العمال ۲۱۶:۱۱).

[۷] أم تناسوا: أی أظهروا النسیان لمصلحة من غیر نسیان؟!.

[۸] قائد فتنة: أی داعی ضلالة وباعث بدعة یأمر الناس بها.

[۹] باسمه واسم أبیه: یعنی وصفا واضحا مفصلا لا مبهما.

[۱۰] رواه أبو داود حدیث ۴۲۴۳، فی عون المعبود حدیث ۴۲۲۲.

[۱۱] البخاری (الصحیح ۲۳۰:۴)، ک الفتن باب إذا قال عند قوم شیئا ثم خرج.

[۱۲] البخاری (الصحیح ۲۳۰:۴) ک الفتن باب إذا قال عند قوم شیئا ثم خرجه.

[۱۳] رواه أحمد وإسناده جید (الفتح الربانی ۱۷۳، ۲۳۱:۱۹).

[۱۴] البخاری (الصحیح ۱۸۰:۲) ک الجماد والسیر باب کتابة الإمام الذی.

[۱۵] مسلم (الصحیح ۱۷۹:۲) وأحمد (الفتح الربانی ۴۰:۲۴).

[۱۶] البخاری (الصحیح ۱۳:۱).

[۱۷] رواه الحاکم (کنز العمال ۱۲۷:۱۱) ورواه الطبرانی والبیهقی بلفظ مشابه (کنز ۱۲۸:۱۱).

[۱۸] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۲۳۲:۱۹).

الاحتجاج السلمی

بدأ عثمان خطاه فقال ": لا یحل لأحد یروی حدیثا لم یسمع به فی عهد
أبی بکر ولا عهد عمر [" ۱] وکانت بدایة حکمه لا تختلف عمن سبقه، ولکن ما لبث بعد أن قام بنو أمیة بترتیب أوراقهم أن تحول الحکم لصالح بنی أمیة، وصالح الأرستقراطیة القرشیة. وکما ذکرنا من قبل أن السیاسة التی اتبعها عمر بن الخطاب کانت عدم توزیعه الأرض علی المسلمین المقاتلین، وحولها إلی أرض خراج تملک الدولة رقبتها، وصار بیت المال یدفع للمقاتلة أعطیات من الثابت أن عمر بن الخطاب فضل بعض الناس علی بعض. ففضل السابقین علی غیرهم وفضل المهاجرین من قریش علی غیرهم من المهاجرین، وفضل المهاجرین کافة علی الأنصار کافة، وفضل العرب علی العجم [۲] وکان من نتیجة ذلک ظهور
طبقة من الأرستقراطیة القرشیة، ولکن بحجم محدود ما لبث أن اتسع بعد ذلک. وفی عهد عمر روی الإمام أحمد أن أبا عبیدة بن الجراح بکی وعندما قیل له ما یبکیک قال: إن النبی صلی الله علیه وسلم قال له: یا أبا عبیدة یکفیک من الخدم ثلاث، خادم یخدمک، وخادم یسافر معک، وخادم یخدم أهلک. وحسبک من الدواب ثلاث، دابة لرحلک، ودابة لثقلک، ودابة لغلامک. ثم ها أنذا أنظر
[صفحه ۴۰۹]
إلی بیتی قد امتلأ رقیقا، وانظر إلی مرابطی قد امتلأت دوابا، فکیف ألقی رسول الله صلی الله علیه وسلم بعد هذا وقد أوصانا رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم أن أحبکم إلی وأقربکم منی من لقینی علی مثل الحال الذی فارقنی علیها [۳] وبعد ذلک اتسعت الطبقة فی عهد عثمان بعد أن بسط نبلاء بنی أمیة
وغیرهم أیدیهم علی کثیر من الضیاع. وبعد أن توسع الناس فی أمور الدنیا واستعملوا النفیس من الملبس والمسکن والمطعم واقتنوا الأثاث الفاخر. وبنظرة سریعة علی ثروة بعض الأفراد خلال هذه المدة نجد أنه کان لعثمان عند خازنه یوم قتل ثلاثون ألف ألف

درهم وخمسمائة ألف درهم، وخمسون ومائة ألف دينار، وترك ألف بعير [۴] وكانت قيمة ما ترك عبد الرحمن بن عوف ألف بعير،

وثلاثة آلاف شاة، ومائة فرس، كما ترك ذهبا قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدى الرجال منه [۵] .

وكان لطلحة بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف، وكان يرسل إلى عائشة إذا جاءته غلته كل سنة بعشرة آلاف. وروى أنه ترك ألفى ألف درهم ومائتى ألف درهم، ومائتى ألف دينار، وإن قيمة ما ترك من العقار ثلاثين ألف ألف، وترك مائة بهار، فى كل بهار ثلاثة قناطير ذهب والبهار جلد ثور [۶] ، وكانت قيمة ما ترك الزبير إحدى وخمسين ألف ألف، وكان له بمصر خطط، وبالإسكندرية، وبالكوفة خطط، وبالبصرة دور، وكان له أربع نسوة أصابت كل امرأة ألف ألف ومائة ألف [۷] وفى تاريخ ابن عساكر أن عمرو بن العاص كان

يلقح كروم بستان له بالطائف بألف ألف خشبة كل خشبة بدرهم، وكانت له دور كثيرة بمصر ودمشق وحرون والجابية. وكان لسعد بن أبى وقاص دارا بناها بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضائها وجعل على أعلاها شرفات.

[صفحه ۴۱۰]

فالبذرة التى وضعها عمر تحت عنوان الخراج، جعلت العيون تتطلع إلى أموال الدولة حيث كانت وكل فرد يأخذ منها حجم الخدمة التى يؤديها للنظام. فمنهم من يأخذ دراهم، ومنهم من يأخذ دارا أو خادما، ومنهم من يأخذ أرضا أو ضياعا. ووفقا لثروة الدولة نتيجة للفتوحات، كان الفاروق يختار الأمراء وقادة الجند من قبائل مختلفة، فإذا وجد المال والأمير المخلص ضمنت الدولة عدم حدوث أى تمرد من أى قبيلة، لهذا لا نستغرب تعيين المنافقين فى الدولة العمرية، ولا نستغرب تعيين أبى زبيد النصرانى لأنه مدخل إلى بنى تغلب، ولا إياس بن صبيح الذى كان من أصحاب مسيلمة لأنه مدخل إلى بنى حنيفة رافعة لواء التمرد، ولا طلحة بن خويلد الذى ادعى النبوة لأنه مدخل إلى قبيلته حتى لا تثور، إلى غير ذلك من قبائل العرب، فبيت المال هو فى حقيقة الأمر الحافظ للنظام، ولكنه فى عهد عثمان كان فى حقيقة الأمر المدمر للنظام. وذلك لأن الأغلبية العظمى من الأمراء الذين اختارهم عمر لم يكونوا من الطامعين فى الخلافة، أما الأغلبية العظمى التى استعملها عثمان كانت تطمع فى الخلافة، والغالبية العظمى فى قريش كانت قد ملت عمر لأنه لم يسمح لهم بالخروج. وفى عهد عثمان انطلقوا فخالطوا الناس وجرى فى أيديهم الذهب، وحببوا للناس الإمارة كما أحبوا الملك والرئاسة. واتسعت الطبقة الأرستقراطية القرشية وازدادت قائمة النبلاء، وأمام هذا الاتساع ظهرت الحركات المضادة التى تئن تحت العمامة الأموية. وعندئذ يقف عثمان ويقول: يا أيها الناس إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان فى هذا المال ظلف أنفسهما وذوى أرحامهما، وإنى تأولت فيه صلة رحمى [" ۸] ولكى يضع عثمان على قراره عباءة القداسة نراه يقول لأصحاب

النبى صلى الله عليه وسلم ": نشدتكم الله أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤثر قريشا على سائر الناس ويؤثر بنى هاشم على سائر قريش. فسكت القوم. فقال: لو أن يبدى مفاتيح الجنة لأعطيتها بنى أمية حتى

[صفحه ۴۱۱]

يدخلوا [" ۹] ولا ندرى لماذا لم يسلك عثمان مسلك رسول الله الذى فضل بنى

هاشم على سائر قريش، ورضى أن يفضل بنى أمية فى الدنيا بل وطمع أيضا فى الآخرة. لقد كان لتدفق المال قصص وحكايات، وكان على هذا المال تحذير من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا التحذير حمله أبو ذر الغفارى، وشاء الله أن يحمله أبو ذر دون خلق الله حتى لا يتهم بأنه من بنى هاشم فلا يسمع له. لقد خرج أبو ذر على طائفة النبلاء فى أول طريقهم، حتى لا تحدث كارثة فى نهاية الطريق تتعداهم إلى غيرهم حتى قيام الساعة. وكان أبو ذر يحمل منقبة الصدق التى وضعها النبى صلى الله عليه وسلم على لسانه لتكون المنقبة حجة بذاتها على الصحابة فى هذا الوقت. فعن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما قلت الغبراء ولا أظلت الخضراء عن رجل أصدق من أبى ذر [۱۰] وفى رواية: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذى

لهجة أصدق ولا- أوفى من أبى ذر شبيه عيسى بن مريم. فقال عمر بن الخطاب كالحاسد: يا رسول الله أنعرف ذلك له؟ قال: نعم فاعرفوه [۱۱].

قال أبو جعفر فى مشكل الأثر: والمراد بالحديث التأكيد والمبالغة فى صدقه، وتأملنا هذا الحديث لنقف على المعنى الذى أريد به، ما هو؟ فكان ذلك عندنا والله أعلم على أنه كان رضى الله عنه فى أعلى مراتب الصدق [۱۲]، ونحن نقول: إن لكل شئ توقيتا، فأبو ذر كان فى أعلى مراتب الصدق من يوم أن

[صفحه ۴۱۲]

قال له النبى صلى الله عليه وسلم ذلك. ولكن هذا الصدق لا بد وأن يشع عند هدفه ليكون على الناس حجة، لأن ما من شئ إلا من أجل هدف ومن وراء هذا الهدف حكمة. وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قد أمر أبا ذر فقال له ": ويحك بعدى إذا رأيت البناء قد علا سلعا، فالحق بالمغرب أرض قضاعة، فإنه سيأتى عليكم يوم قاب قوسين، أو رمح أو رمحين من كذا وكذا [۱۳] وذكر لأبى ذر أحداث وأحداث وقال له ": يا أبا ذر كيف أنت عند ولاه - وفى رواية: كيف أنت وأئمة من بعدى!! - يستأثرون عليك بهذا الفئ؟ قال أبو ذر: والذى بعثك بالحق أضع سيفى على عاتقى فأضرب به حتى ألحقك: قال: أفلا أدلك على خير لك من ذلك تصبر حتى تلقانى [۱۴].

وأمر النبى صلى الله عليه وآله بالصبر هو من نسيج أمره لأمير المؤمنين على بأن لا ينازع، لأن المقام مقام إقامة الحجة. وروى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم جعل يقرأ هذه الآية: - (ومن يتق الله يجعل له مخرجا...) - حتى فرغ من الآية ثم قال: يا أبا ذر كيف تصنع إن أخرجت من المدينة؟ قال قلت: إلى السعة والدعة أنطلق حتى أكون من حمام مكة. قال: كيف تصنع إن أخرجت من مكة؟ قال قلت: إلى السعة والدعة إلى الشام والأرض المقدسة. فقال: وكيف تصنع إن أخرجت من الشام؟ قال قلت: إذا والذى بعثك بالحق أضع سيفى على عاتقى. قال: أو خير من ذلك قال قلت: أو خير من ذلك. قال: تسمع وتطيع وإن كان عبدا حبشيا [۱۵] - وفى رواية - ألا- أدلك على خير من ذلك تنقاد لهم حيث قادوك وتنساق لهم حيث ساقوك حتى تلقانى وأنت على ذلك [۱۶] وليس معنى أن يسمع ويطيع أن يجاريهم فى سياستهم، لأن خروجه

لن يكون عندئذ له معنى وستكون علامة الصدق معطلة فى حالة سمعه وطاعته

[صفحه ۴۱۳]

لنبلاء قريش. وإنما المعنى أن يسمع ويطيع لهم عند قرارهم بنفيه وتسييره كى تنتقل الحجة من مكان إلى مكان دون عوائق يضعها أمام نفسه. وعندما بلغ سلعا، وهى العلامة التى سينطلق عندها أبو ذر بدأت المحن. فلقد قام أبو ذر بإنذار الذين يكنزون الذهب والفضة. وبدأت القيادة فى المدينة المنورة تضيق على عثمان. فعن الأحنف بن قيس قال: كنت بالمدينة فإذا برجل يفر الناس منه حين يرونه. قلت: من أنت؟ قال: أنا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: ما يفر الناس؟ قال: إنى أنهاهم عن الكنوز بالذى كان ينهاهم عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم [۱۷].

أبو ذر لمن حضر: أحدثكم إنى سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تتهموننى. ما كنت أظن أنى أعيش حتى أسمع هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم [۱۸] وعندما وجدت الدولة أن أبا ذر بدأ يضرب فى

الاتجاه الآخر، وأنه سيبعث رواية الأحاديث من جديد وستظهر الحقائق، زادت من أعطية الناس حتى تغطى هذه الزيادة على عنوان " مال الله دولا " الذى ورد فى الحديث. ولكن أبا ذر مضى فى طريقه يحذر من نبلاء قريش، فقال له رجل: إن أعطياتنا قد ارتفعت اليوم وبلغت، هل تخاف علينا شيئا؟ قال: أما اليوم فلا. ولكنها توشك أن تكون أثمان دينكم فدعوها وإياكم [۱۹].

وانتهى الأمر بإخراج أبى ذر إلى الربذة واستقبل أبو ذر هذا القرار بالرضا التام، لأنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول: ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين [" ۲۰] وبينما أبو ذر يستعد للخروج قال له

رجل: أنت أبو ذر؟ قال: نعم، قال: لولا أنك رجل سوء ما أخرجت من

[صفحه ۴۱۴]

المدينة، فقال: بين يدى عقبة كؤود إن نجوت منها لا يضرنى ما قلت، وأن أقع فيها فأنا شر مما تقول [۲۱] وعند خروج أبى ذر ودعه الإمام على بن أبى طالب

وقال له: يا أبا ذر إنك غضبت لله فأرج من غضبت له، إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك، فاترك فى أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه، فما أحوجهم إلى ما منعتهم وما أغناك عما منعوك وستعلم من الرابح غدا والأكثر حسدا، ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا، ولا يؤنسك إلا الحق ولا يوحشك إلا الباطل، فلو قبلت دنياهم لأحبوك ولو قرضت منها لأمنوك [۲۲] وتوفى أبو ذر بالربذة، وروى البلاذرى أنه لما بلغ عثمان موت أبى ذر قال: رحمه الله، فقال عمار: نعم فرحمه الله من كل أنفسنا، فقال عثمان: يا عاص أبر أبيه أترانى ندمت على تسييره، وأمر فدفع قفاه وعندما تدخل المهاجرون تركه [۲۳] وهكذا أقيمت الحجة على أصحاب الخواتم الذهبية

والضياع الفاخرة والأراضى الواسعة لعلهم أن يرتبوا أوراقهم من جديد على طريق الدعوة. وإذا كان أبو ذر قد لفت الأنظار إلى أمراء بنى أمية الذين يسلكون طريقا يتخذون فيه دين الله دخلا، فإن عبادة بن الصامت أعلن احتجاجه هو أيضا على أصحاب هذه الدائرة ويعلن لا طاعة لمن عصى الله. وكان عبادة يومئذ بالشام، وروى أن معاوية كتب إلى عثمان أن عبادة بن الصامت قد أفسد على الشام وأهله فإما أم تكفف عنى عبادة، وإما أن أخلى بينه وبين الشام، فكتب إليه عثمان: أن رحل عبادة حتى ترجعه إلى داره بالمدينة، فبعث بعبادة حتى قدم إلى المدينة، فدخل على عثمان فى الدار فالتفت إليه فقال: يا عبادة بن الصامت ما لنا وما لك، فقام عبادة بين ظهرانى الناس فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: سيلى أموركم بعدى رجال يعرفونكم ما تنكرون،

[صفحه ۴۱۵]

وينكرون عليكم ما تعرفون، فلا طاعة لمن عصى الله [۲۴] وعلى عثمان كان أيضا

اعتراض المقداد بن الأسود، روى مسلم أن رجلا جعل يمدح عثمان، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه وكان رجلا ضخما يحثوا فى وجهه الحصباء فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب [۲۵].

وهناك اعتراض آخر لجمع من الصحابة قالوا لأسامة بن زيد: ألا تدخل على عثمان فتكلمه؟. فقال: أترون أنى لا أكلمه إلا أسمعكم، والله لقد كلمته فيما بينى وبينه [۲۶] قال النووى: والمعنى أتظنون أنى لا أكلمه إلا وأنتم

تسمعون.. وفى الحديث وعظ الأمراء سرا وتبليغهم ما يقول الناس فيهم ليكفوا عنه. وهذا كله إذا أمكن ذلك فإن لم يمكن الوعظ سرا والإنكار فليفعله علانية لئلا يضيع أصل الحق [۲۷] ولقد قام زيد بن صوحان بوعظ عثمان أبلغ موعظة

قبل الطوفان فقال له: يا أمير المؤمنين ملت فمالت أمتك اعتدل تعتدل أمتك - ثلاث مرات [۲۸].

[۱] الطبقات الكبرى ۳۳۶:۲، وابن عساكر (كنز العمال ۲۹۵:۱۰).

[۲] ابن أبى الحديد ۴:۳.

[۳] الإمام أحمد (الفتح الربانى ۱۰۷:۱۹).

[۴] الطبقات الكبرى ۷۶:۳.

[۵] الطبقات الكبرى ۱۳۶:۳.

[۶] الطبقات الكبرى ۲۲۲:۳.

[۷] الطبقات الكبرى ۱۱۰:۳.

[۸] الطبقات الکبری ۶۴:۳، کنز العمال ۶۲۷:۵.

[۹] رواه أحمد وقال الهیثمی رواته ثقات (الفتح ۳۳۲:۲۲).

[۱۰] رواه أحمد بسند جید (الفتح الربانی ۳۷۰:۲۲) وابن ماجة والطبرانی بسند جید (کشف الخفاء ۲۳۱:۲) والترمذی وحسنه (الجامع ۶۷۹:۵) وابن سعد (کنز العمال ۲۲۸:۴) وابن عساکر (کنز العمال ۶۶۷:۱۱).

[۱۱] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۷۰:۵).

[۱۲] مشکل الأثر ۲۲۴:۱.

[۱۳] ابن عساکر (کنز العمال ۱۸۸:۱۱) والطبری فی التاریخ (تاریخ الأمم ۶۶:۵).

[۱۴] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۳۷:۲۳)، وابن سعد ولکن بلفظ کیف أنت إذا کان علیک أمراء الطبقات ۲۲۶:۴).

[۱۵] رواه أحمد وإسناده جید (الفتح الربانی ۳۶:۲۳).

[۱۶] رواه أحمد (الفتح الربانی ۱۰۸:۲۳).

[۱۷] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۳۷۱:۲۲).

[۱۸] مروج الذهب ۲۷۶:۲، ابن أبی الحدید ۵۴۱:۵.

[۱۹] الحاکم (المستدرک ۵۲۲:۴).

[۲۰] رواه ابن حبان فی صحیحه والضیاء وأحمد وابن سعد (کنز العمال ۶۶۸:۱۱).

[۲۱] الإمتاع والمؤانسة ۱۲۸:۲.

[۲۲] ابن أبی الحدید ۹۰:۳، مروج الذهب ۳۷۷:۲.

[۲۳] البلاذری ۵:۵۴، الیعقوبی ۲:۱۵۰.

[۲۴] رواه أحمد والطبرانی ورجالهما ثقات (الزوائد ۲۲۷:۵).

[۲۵] رواه مسلم باب النهی عن الافراط فی المدح (الصحیح ۱۲۸:۱۸).

[۲۶] رواه مسلم (الصحیح ۱۱۸:۱۸) ک الزهد باب عقوبة من یأمر بالمعروف.

[۲۷] مسلم شرح النووی ۱۱۸:۱۸.

[۲۸] الطبقات الکبری ۱۲۴:۶.

الرد علی الاحتجاج السلمی

لقد خرج أبو ذر وعبادة والمقداد باعتراضهم عام ۳۰ ه، وفی عام ۳۳ ه

کان الحال کما هو علیه فالولید بن عقبة ونـدیمه النصرانی أبو زبید کانا یشربان الخمر، ویدخل علیهما نصاری بنی تغلب ونصاری الحیرة فی دار الإمارة حیث کان الولید یومئذ أمیر عثمان علی الکوفة. وروی أن الولید عندما ذهب لیجلس علی کرسی الإمارة قال له سعد بن أبی وقاص: والله ما أری أکسبت بعدنا أم

[صفحه ۴۱۶]

حمقنا بعدک، فقال الولید: لا تجزعن أبا إسحاق فإنما هو الملک یتغذاه قوم ویتعشاه آخرون، قال سعد: أراکم والله ستجعلونها ملکا [۱] ، والولید هو أخو عثمان لأمه [۲] ، ولا خلاف بین أهل العلم أن قوله تعالی: - (إن جاءکم فاسق...) - نزلت فی الولید [۳] ، وقصة صلاته بالناس الصبح أربعا وهو سکران مشهورة مخرجة، وقصة عزله بعد أن ثبت علیه شرب الخمر مشهورة أیضا مخرجة، فی الصحیحین [۴] ونتیجة لما فعله الولید احتج وجوه أهل الکوفة

وتوجهوا إلى عثمان وطالبوا بعزل الوليد ولكن عثمان ماطل. وروى البلاذرى: أن عثمان ضرب بعض الشهود أسواطا، فأتوا عليا فشكوا إليه، فأتى عثمان وقال: عطلت الحدود وضربت قوما شهود على أخيك فقلبت الحكم. وأخرج البلاذرى أيضا: وأتى بعض الشهود عائشة فأخبروها بما جرى بينهم وبين عثمان، وأن عثمان زبرهم فنادت عائشة: إن عثمان أبطل الحدود وتوعد الشهود. وأخرج صاحب الأغانى: إن عثمان قال: أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة، فسمعت فرفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: تركت سنة رسول الله صاحب هذا النعل. فتسامع الناس فجاءوا حتى ملأوا المسجد فمن قائل: أحسنت، ومن قائل: ما للنساء ولهذا؟ حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال. ولم يجد عثمان مفرا أمام هذه الانتفاضة سوى أن يجمع بين الوليد وبين خصمائه ورأى أن ينفذ عليه الحد. وروى أن سعيد بن العاص جلس على كرسى الإمارة بعد الوليد، وما صعد منبر الكوفة حتى أمر به أن يغسل: فناشده رجال من قريش كانوا قد خرجوا معه من بنى أمية وقالوا: إن هذا قبيح والله لو أراد هذا غيرك لكان حقا أن تذب عنه يلزمه عار هذا أبدا، ولكن سعيدا أبى إلا أن يفعل فغسله [۵] وإذا كان سعيد قد

[صفحه ۴۱۷]

طهر المنبر نجد أنه عندما اختار من أهل الكوفة من يدخل عليه ويسمر عنده، قد فجر مشكلة فتحت بابا واسعا للاحتجاج. روى أنه تفاخر بالخراج وقال ": إنما هذا السواد بستان لقريش. " فهذه المقولة كانت بداية وقف الأشتر عندها. وقال له: أتزعم أن السواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبا إلا أن يكون كأحدنا. وتكلم القوم مع الأشتر، وعندئذ قال قائد شرطة سعيد: أتردون على الأمير مقالته وأغلظ لهم... فقال سعيد: والله لا يسمر عنهم عندى أحد أبدا. ثم كتب سعيد إلى عثمان: إن رهطا من أهل الكوفة يؤلبون ويجتمعون على عيبك وعيبى والطعن فى ديننا وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا [۶] .

وعلى هذه الرسالة بدأ عثمان ينتهج سياسة جديدة هى سياسة التسيير أى إبعاد الناس عن ديارهم إلى مكان آخر يمتاز بغلظة اليد. وكتب عثمان إلى سعيد أن سيرهم إلى معاوية وكان معاوية يومئذ على الشام فسيرهم وهم تسعة نفر إلى معاوية [۷] منهم: زيد بن صوحان وجندب بن كعب وفيهما ورد حديث يدين عهد عثمان. روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ": جندب وما جندب وزيد الخير وما زيد الخير، أما أحدهما فيضرب ضربة يفرق بين الحق والباطل، وأما الآخر فيسبقه عضو من أعضائه إلى الجنة ثم يتبعه سائر جسده [۸] وقال:

"من سره أن ينظر إلى رجل سبقه بعض أعضائه إلى الجنة فلينظر إلى زيد بن صوحان [" ۹] .

فأما جندب فواجه الوليد بن عقبة [۱۰] وحكم عليه عثمان بالتسيير. وأما زيد

[صفحه ۴۱۸]

فهو الذى قال لعثمان: ملت فمالت أمتك اعتدل تعتدل أمتك [۱۱] ثم بايع بعد

ذلك أمير المؤمنين على بن أبى طالب وقتل تحت رايته. ومنهم: كميل بن زياد قال صاحب الإصابة: أدرك من الحياة النبوية ثمان عشرة سنة، شهد صفين مع على، وكان شريفا مطاعا ثقة [۱۲] ومنهم: جندب بن زهير. قال فى الإصابة:

أتى النبى صلى الله عليه وسلم فى نفر من قومه. قال للنبى صلى الله عليه وسلم: إنى لأرجع من عندك، فلم تقر عينى بمال ولا ولد حتى أرجع فأنظر إليك. وقيل كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق ارتاح لذلك، فنزلت قوله تعالى: - (من كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا- صالحا) -. ومنهم: عمرو بن الحمق، قال فى الإصابة: روى عن ابن إسحاق ما يقتضى أن عمرو بن الحمق شهد بدرا، وشهد مع على حروبه كلها [۱۳] ومنهم: عروة بن الجعد وهو الذى

أرسله النبى صلى الله عليه وسلم ليشترى الشاة بدينار فاشترى به شاتين، والحديث مشهور فى البخارى [۱۴] ومنهم: صعصعة بن صوحان قال فى

الإصابة: كان مسلما فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يره. شهد صفين مع على وكان خطيبا فصيحا. وقال الشعبى: كنت

أتعلم منه الخطب [۱۵] .

ومنهم: مالک بن عامر الأشتر، الذی شهد الصلاة علی أبی ذر حین مات بالربذة، وکان النبی قد أخبر أنه یشهد الصلاة علیه عصابة من المؤمنین. وکان الأشتر قلب هجوم علی بن أبی طالب فی صفین. فهؤلاء الصحابة الأجلاء [۱۶] فیهم من شهد بدرا، وفیهم من کانت رؤیة

النبی أغلی من ماله وولده، وفیهم من أجمع العلماء علی أنه ثقة ومأمون

[صفحه ۴۱۹]

وخطیب، هؤلاء طردهم عثمان لأنهم تصدوا لمن هم من أمثال الولید وسعید ومعاویة إلی غیر ذلک من نبلاء بنی أمیة. لقد سیرهم إلی الشام وهناک بدأ معاویة یعرفهم بتاریخ آبائه بعد أن قطعت المسیرة شوطا کبیرا علی طریق اللاروایة. فقال لهم:... وقد عرفت قریش أن أبا سفیان کان أکرمها إلا ما جعل الله لنبیه صلی الله علیه وآله... وإنی لأظن أن أبا سفیان لو ولد الناس لم یلد إلا حازما [۱۷] وفی سباق الأحداث یبدو أن معاویة کان یمهد الأمر لنفسه بهذه

المقولة وکان یطمع فی نشرها کما سیظهر فیما بعد. ولکن أحد المبعدین وهو صعصعة قال: قد ولدهم خیر من أبی سفیان من خلقه الله بیده ونفخ فیه من روحه [۱۸] وفی اللیلة التالیة جمعهم معاویة وقال لهم: أیها القوم ردوا علی خیرا

أو اسکتوا، وتفکروا وانظروا فیما ینفعکم وینفع أهلیکم وینفع عشائرکم وینفع جماعة المسلمین فاطلبوه تعیشوا ونعش بکم [۱۹] وهنا لوح معاویة بالمال ولکن

صعصعة قال: لست بأهل ذلک ولا کرامة لک إن تطاع فی معصیة الله. فأخبره معاویة بأنه یأمر بتقوی الله وطاعته وطاعة رسوله. فقال صعصعة: فأما نأمرک أن تعتزل عملک فإن فی المسلمین من هو أحق به منک. قال معاویة: من هو؟ فقال: من کان أبوه أحسن قدما من أبیک، وهو بنفسه أحسن قدما منک فی الإسلام، قال معاویة: إن لی فی الإسلام قدما، ولقد رأی عمر بن الخطاب ذلک، فلو کان غیری أقوی منی لم یکن لی عند عمر هوادة، فقالوا: لست لذلک أهلا [۲۰] .

کتب معاویة إلی عثمان: فإنک بعثت إلی أقواما یتکلمون بألسنة الشیاطین، وما یملون علیهم ویأتون الناس زعموا من قبل القرآن فیشبهون علی الناس، ولیس کل الناس یعلم ما یریدون وإنما یریدون فرقة، فقد أفسدوا کثیرا من الناس من أهل الکوفة، ولست آمن إن قاموا وسط أهل الشام أن یغروهم بسحرهم

[صفحه ۴۲۰]

وفجورهم فاردهم إلی مصرهم. فکتب إلیه عثمان یأمره أن یردهم إلی سعید بن العاص بالکوفة، فردهم إلیه [۲۱] وعندما تحدثوا بالقرآن خاف سعید أن یغروا

الناس بسحرهم کما خاف معاویة من قبل فکتب إلی عثمان یضج منهم فکتب عثمان إلیه أن یسیرهم إلی عبد الرحمن بن خالد بن الولید أمیر حمص [۲۲] .

لقد کانت البدایة اعتراض علی مقولة ": السواد بستان لقریش " تلک المقولة الظالمة التی عند نتیجتها أولی خرج أبو ذر الغفاری وغیره. ولکن الدولة تعامت عن حرکة الغلیان فی الجانب الآخر، وعلی کؤوس الولید وشعر أبی زبید والأقیشر وشعراء الأدیرة والخمور خرج جندب لیضرب الشعوذة والدجل والسحر ویقاضی الولید بل والنظام کله. ولکن النظام عاد لیقول ": السواد بستان لقریش " ولم یضع فی حساباته أن الخروج السلمی لأبی ذر وعبادة والمقداد قد طرح ثقافة تحذر من بنی أمیة إذا بلغوا ثلاثین رجلا، ولهذا لم یکن غریبا أن نسمع وفد المبعدین وهم یطالبون باعتزال معاویة.

[۱] الإستیعاب ۳:۶۳۳.

[۲] الإستیعاب ۳:۶۳۱.

[۳] الإستيعاب ۶۳۲:۳، الإصابة ۶۳۷:۳.

[۴] الإصابة ۶۳۸:۳.

[۵] الطبرى ۸۸:۵.

[۶] الطبرى ۸۸:۵.

[۷] الطبرى ۸۸:۵، البداية ۱۶۵:۷.

[۸] رواه ابن عساكر وابن مندة وابن السكن (كنز العمال ۶۶۹:۱۱).

[۹] رواه أبو يعلى وابن عدى والخطيب وابن عساكر (كنز ۶۸۵:۱۱)، وقال ابن كثير رواه البيهقى (البداية ۲۱۴:۶).

[۱۰] هو الذى أخبر ابن مسعود وغيره بشرب الوليد للخمر وقاد المعارضة ضده (الطبرى ۱۷:۲).

[۱۱] الطبقات الكبرى ۱۲۴:۶.

[۱۲] الإصابة ۳۲۵:۵.

[۱۳] الإصابة ۲۹۴:۴.

[۱۴] الإصابة ۲۳۶:۴.

[۱۵] الإصابة ۲۵۹:۳.

[۱۶] راجع أسماءهم فى الطبرى ۹۰:۵.

[۱۷] الطبرى ۸۹:۵، البداية والنهاية ۱۶۵:۷.

[۱۸] الطبرى ۸۹:۵، البداية ۱۶۵:۷.

[۱۹] الطبرى ۸۹:۵.

[۲۰] الطبرى ۸۹:۵.

[۲۱] الطبرى ۹۰:۵.

[۲۲] الطبرى ۹۰:۵.

البطانة السوء

جاءت سياسة التسيير بمزيد من الصعوبات أمام دولة عثمان فبعد أن انقضى

عام ۳۳ ه - ۳۴ ه بدأت الأمصار تضج من ظلم الولاة، فمصر تحت قيادة عبد الله بن أبى السرح أخو عثمان من الرضاعة. وكان عبد الله يكتب الوحى للنبى، ثم ارتد مشركا، ويوم فتح مكة أمر النبى بقتله، ولو وجد تحت أستار الكعبة، ولكن عبد الله اختفى عند عثمان. وبعد أن هدأت الأمور فى مكة جاء به عثمان ليستأمن له، ولكن النبى صمت طويلا، ثم قال: نعم. فلما انصرف عثمان قال النبى صلى الله عليه وسلم لمن حوله: ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه فقال رجل: فهلا أومأت إلى يا رسول الله، فقال: إن النبى لا [صفحه ۴۲۱]

ينبغى أن تكون له خائنة الأعين [۱] وفى عهد عمر بن الخطاب ولاه عمر على

صعيد مصر وفى عهد عثمان ضمت إليه مصر كلها بعد أن عزل عمرو بن العاص عنها. وأمره عثمان أن يغزو بلاد إفريقيا، فإن فتحها فله خمس الخمس من الغنيمة، فسار إليها فى عشرة آلاف فافتتحها وقتل خلقا كثيرا من أهلها [۲] .

وعلى الرغم من أن خمس الخمس قد دخل جيبه إلا أنه فرض الضرائب على مصر حتى اشتكى أهلها. أما فى الكوفة فقد اجتمع الناس وتذاكروا أعمال عثمان وما صنع، واجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلا يكلمه، فأرسلوا إليه عامر بن قيس. فلما دخل عليه قال: إن

ناسا من المسلمين اجتمعوا فنظروا فى أعمالك فوجدوك قد ركبت أمورا عظاما، فاتق الله عز وجل وتب إليه. فقال عثمان: أنظر إلى هذا!! تكلمنى فى المحقرات، فوالله ما تدرى أين الله. فقال عامر: بلى والله إنى لأدرى إن الله بالمرصاد لك [۳] وعقب هذا اللقاء أرسل عثمان إلى

معاوية بن أبى سفيان وإلى عبد الله بن أبى السرح وإلى سعيد بن العباس وإلى عمرو بن العاص وإلى عبد الله بن عامر، فجمعهم ليشاورهم. فلما اجتمعوا عنده قال لهم: إن لكل امرئ وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى، وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إلى أن أعزل عمالى، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم وأشيروا على [۴] .

فماذا قال الذين تطالب الشعوب بعزلهم؟ قال عبد الله بن عامر: رأيى لك أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمرهم فى المغازى حتى يذلوا لك، فلا يكون همة أحدهم إلا نفسه... [۵] فهذا الرأى جعل الجهاد سقفا له، وفى

الميدان إما بقتل. وإما التصفية الجسدية، وأما الابقاء فى ثغور العدو، أو

[صفحه ۴۲۲]

الحبس فى أرض العدو. وهذه أمور نهى عنها الشرع [۶] أما سعيد بن العاص

فقال: إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر. فقال عثمان: إن هذا الرأى! لولا ما فيه [۷] أما معاوية فقال: الرأى أن تأمر أمراء أجنادك فيكفيك كل رجل منهم ما قبله وأكفيك أنا أهل الشام [۸] لقد أراد معاوية أن

تجرى فى الأمصار بحور الدماء، ولم لا وهم فى أيديهم المال والسلاح والجند. أما عبد الله ابن أبى السرح فقال: إن الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم [۹] وهذا الرأى يعنى التلويح بالرغيف والزخرف لشراء

الدين والنفوس. أما عمرو بن العاص فقال: إنك قد ركبت الناس بما يكرهون، فاعتزم أن تعتدل، فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل، فإن أبيت فاعتزم عزما وامضى قدما. فقال عثمان: ما لك قمل فروك. أهذا الجد منك. فسكت عمرو. وعندما تفرق القوم قال: يا أمير المؤمنين قد علمت أنه سيبلغ الناس قول كل رجل منا، فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى فأقود إليك خيرا أو أدفع عنك شرا [۱۰] .

إن هذا الاجتماع الذى رواه غير واحد من أصحاب التاريخ. هو المقدمة الأولى التى قامت على عثمان فقرارات غرفة المشورة هذه أشعلت النيران لحسابها الخاص، وذلك بعد أن تمكن المال من نفوسهم، قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لا تزال أمتى على الفطرة ما لم يتخذوا الأمانة مغنما والزكاة مغرما [" ۱۱] فأصحاب المشورة الذين شاورهم عثمان هم المقدمة الأولى لقيادة

فاسدة الفطرة، لأن المال والجاه والترف هو رأس الزاوية لتحركاتهم. وروى أن عثمان بعد هذا الاجتماع قرر أن يضيق الأمراء على من قبلهم، وأن يجمروا الناس فى البعوث، وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا

[صفحه ۴۲۳]

إليه [۱۲] ولم يمض عام ۳۴ ه حتى كتب أصحاب النبى صلى الله عليه وآله

وسلم بعضهم إلى بعض: أن اقدموا فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد، وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد [۱۳] وأمام هذه التحولات

خطب عثمان فى الناس: فقد والله عبتم على بما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه، فدنتم له ما أحببتم أو كرهتم، ولنت لكم وأوطأت لكم كتفى ولقفت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم على، أما والله لأنا أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا وأمن إن قلت هلم أتى إلى، ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولا- وكشرت لكم عن نابى، فكفوا عليكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم، فإنى قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقى هذا إلا فما تفقدون من حقكم والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى، ومن لم تكونوا تختلفون عليه [۱۴] .

فأمام الزحف الساخط على الأمراء، كشر عثمان عن نابه وأمر بالكف عن الطعن على الولاة، وأخبر أن عمر بن الخطاب كان يطؤهم

برجله ویضربهم بیده ویقرعهم بلسانه، وعثمان لا یختلف عن عمر لأن عثمان یمسک بذیل عمر فی کیفیة تولیة الأمراء وتوزیع المال. وإذا کانت الثورة قد جاءت لأن عثمان قد لان لهم وکف یده عنهم، فلا، لأنه أعز نفرا وأقرب ناصرا وأکثر عددا. فهذا مجمل خطاب عثمان أثناء العاصفة. وترتب علی ذلک أن أهل الکوفة خرجوا علی أمیرهم سعید بن العاص بالسلاح وردوه إلی عثمان وقالوا: لا والله لا یلی علینا حکما ما حملنا سیوفنا [۱۵] ولم تجدی أنیاب الدولة أمام هذا الموقف شیئا،

وبعث عثمان بأبی موسی أمیرا علیهم فأقروه [۱۶] .

[صفحه ۴۲۴]

[۱] راجع أبو داود حدیث ۲۶۶۶، أسد الغابة ۲۵۹:۳، البدایة والنهایة ۱۵۲:۷، الإصابة ۳۱۷:۲، الإستیعاب ۳۷۶:۲.

[۲] البدایة والنهایة ۱۵۲:۷.

[۳] الطبری ۹۴:۵، مروج الذهب ۳۷۲:۲.

[۴] الطبری ۹۴:۵، مروج الذهب ۳۷۲:۲.

[۵] الطبری ۹۴:۵، مروج الذهب ۳۷۲:۲.

[۶] لسان العرب مادة حجر.

[۷] الطبری ۹۴، ۹۵:۵، مروج الذهب ۳۷۲:۲.

[۸] الطبری ۹۴، ۹۵:۵، مروج الذهب ۳۷۲:۲.

[۹] الطبری ۹۴، ۹۵:۵، مروج الذهب ۳۷۲:۲.

[۱۰] الطبری ۹۴، ۹۵:۵، مروج الذهب ۳۷۲:۲.

[۱۱] رواه الضیاء (کنز العمال ۶۲:۳).

[۱۲] الطبری ۹۵:۵.

[۱۳] الطبری ۹۶:۵.

[۱۴] الطبری ۹۷:۵، البدایة والنهایة ۱۶۹:۷.

[۱۵] الطبری ۹۵، ۹۶:۵.

[۱۶] الطبری ۹۵، ۹۶:۵.

العاصفة والبحث عن الذات

وجاء عام ۳۵ ه، وهو العام الذی سقط فی سلته ما ترتب علی قرارات

صدرت خلال ما یقرب من ربع قرن بعد وفاة النبی صلی الله علیه وسلم. وأقصد بذلک قرار إبعاد علی بن أبی طالب عن مرکز القیادة، وقرار التضییق علی روایة الحدیث ثم منعها بعد ذلک، وقرار القص فی المساجد، وقرار إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم، وقرار إنشاء الخراج الذی استفاد منه طبقة علی حساب الذین فتحوا الأرض عنوة، وقرار تعیین المنافقین. وجمیع هذه القرارات وردت فیها أحادیث صحیحة، ورواها أصحاب التاریخ وتقبلها العلماء وأرسلوها إرسال المسلمات، ولا یمکن الطعن فیها بأی حال من الأحوال. وذلک لأن الحدیث وحرکة التاریخ فضلا عن آیات القرآن الکریم، جمیع ذلک لا یلتفت إلی أی اعتراض لأنه سیکون اعتراض قوائمه فی دیار الأهواء، والذی دفعنی لکی أقول ذلک أنه خلال عام ۳۵ ه ظهر عند بعض أصحاب التواریخ شخصیة اعتبروا أنها السبب الرئیسی فی البلاء الذی حط علی رحلة المسلمین، وهذه الشخصیة هی " عبد الله بن سبأ " أو " ابن السوداء، " وأغلب الظن أن الذین اخترعوا هذه الشخصیة أرادوا بها قطع طریق البحث العلمی حتی لا یصل إلی الأسباب الحقیقیة التی دفعت بالأمة إلی عالم الاختلاف والافتراق

واتباع سنن الذین من قبلهم. والذی ساعد علی دق عمود هذه الشخصیهٔ فی تاریخ المسلمین هو القص الذی اتبع سیاسهٔ بث الإسرائیلیات والخرافات، فی وقت کان العدید یتقبل هذه الإذاعات بالتسلیم التام، نظرا لعدم وجود سیاسهٔ لروایهٔ الحدیث عن رسول الله. ومن العجیب أن القاص، وهو یعرض شخصیهٔ عبد الله بن سبأ، أخبر بأنه لم یستطع أن یمزق وحدهٔ المسلمین فی الشام!! ولازم ذلک أن الشام علیها أمیر فقیه فی دین الله مهتم بأمهٔ محمد ووحدتها. ومن الثابت والذی لا خلاف علیه أن القص کان وجبهٔ أساسیهٔ علی امتداد العهد الأموی، وتحت ظلاله سبوا أمیر المؤمنین علی. فی البیوت والحارات والبارات وفی المساجد. وعدم اختراق ابن سبأ للشام جاء عند الطبری علی النحو التالی: کان عبد الله بن سبأ یهودیا من

[صفحه ۴۲۵]

أهل صنعاء أمه سوداء، فأسلم زمان عثمان ثم تنقل فی بلدان المسلمین یحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز ثم الکوفهٔ ثم الشام، فلم یقدر علی ما یرید أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتی أتی مصر فاعتمر فیهم [۱] .

ولا نـدری إذا کان ابن سبأ معروف لأهل الشام حتی أنهم أخرجوه. فلماذا لم یقتله معاویهٔ وهو الذی قتل حجر بن عدی بعد ذلک تحت دعوی أنه خطر علی النظام. أو لماذا لم یسیره إلی عثمان وهو الذی کتب إلیه من قبل أن أهل الکوفهٔ یتحدثون بألسنهٔ الشیاطین وأنه غیر أمن إن قاموا وسط أهل الشام أن یغروهم بسحرهم وفجورهم؟! وإذا فرضنا أنه لم یستطع القبض علیه لهروبه، فلماذا لم یقبض علیه أی أمیر من أمراء الدولهٔ، وهم أصحاب العیون المفتوحهٔ علی کل ما یهدد أمنهم؟ ولماذا لم یظهر ابن سبأ یوم قتل عثمان ضمن المجموعهٔ التی اغتالته. وإذا کان کارها لعثمان لماذا لم نسمع له اسما فی معارک علی بن أبی طالب کلها. ثم لماذا لم یبحث عنه معاویهٔ یوم أن جلس علی رقبهٔ الأمهٔ، وهو الذی کان یبحث عن المعارضین تحت کل حجر، وأتی بعمرو بن الحمق وقطع رأسه وأهداها إلی زوجهٔ عمرو، فکان أول رأس أهدی فی الإسلام؟ ونحن إذا نظرنا فی العمود الفقری للدعوهٔ التی قام بها عبد الله بن سبأ نری العجب، جاء فی تاریخ الطبری: قال ابن سبأ لهم: إنه کان ألف نبی، ولکل نبی وصی، وکان علی وصی محمد. وقال: محمد خاتم النبیین، وعلی خاتم الأوصیاء. وقال: من أظلم ممن لم یجز وصیهٔ رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم، ووثب علی وصی رسول الله صلی الله علیه وسلم، وتناول أمر الأمهٔ. وقال: إن عثمان أخذها بغیر حق وهذا وصی رسول الله، فانهضوا فی هذا الأمر فحرکوه وأبدوا الطعن علی أمرائکم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر [" ۲] هذه دعوهٔ الشخصیهٔ الخرافیهٔ المنبوذهٔ جعلوها علی لسانه لتکون

دعوهٔ خرافیهٔ منبوذهٔ، أو فی عالمهم وعصرهم أوهموا الناس وقفا لسیاسهٔ

[صفحه ۴۲۶]

النص. أن ابن سبأ شخصیهٔ حقیقیهٔ، ثم علی لسانه وضعوا ما یعتبرونه شذوذا کی یرفضه الناس، وفی صلب الدعوهٔ نجد أنهم وضعوا وتدا مهما هو أن الطعن علی الأمراء جریمهٔ من فعلها یکون قد اقتفی أثر ابن سبأ الیهودی، ولیس من الصدقهٔ أن نری هذا الکم من الأحادیث الموضوعهٔ التی تحض علی طاعهٔ الأمراء. ثم نجد وتدا لا یستحق النقاش هو أنهم جعلوا موقع علی بن أبی طالب من الرسول صلی الله علیه وسلم فی دائرهٔ الشذوذ، لیفسحوا الطریق أمام أمرائهم. ویکفی فی هذا المقام أن نقول بأن الله خیب سعیهم، لأن وضع الحقیقهٔ فی دائرهٔ الخرافهٔ علی عهدهم دلیل علی أن لله طائفهٔ لا یضرهم من خالفهم أو ناوأهم أو خذلهم، قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": لا تزال طائفهٔ من أمتی ظاهرین علی الحق لا یضرهم من خذلهم حتی یأتی أمر الله وهم کذلک [" ۳] .

وفی روایهٔ ": لا تزال طائفهٔ من أمتی قائمهٔ بأمر الله لا یضرهم من خذلهم أو خالفهم حتی یأتی أمر الله وهم ظاهرون علی الناس [" ۴]

وفی روایهٔ ": لا تزال

طائفهٔ من أمتی ظاهرین علی من ناوأهم حتی یأتی أمر الله تبارک وتعالی وینزل عیسی ابن مریم [" ۵] وعلی ذلک فإنهم ما وضعوا الحقیقهٔ فی دائرهٔ الخرافهٔ إلا

عنـدما أحسوا بوقع أقـدام هـذه الطائفـة فأرادوا أن يعزلوها عن الناس بفعلهم هـذا. إن طائفـة الحق ظاهرة فى عالم اللارواية، ولن يعتم عليها القص، لأن الله قضـى ذلك، وطائفة الحق ظاهرة مهما كانت قوة من ناوأهم أو خذلهم أو خالفهم. قد تكون الطائفة على الأرض تحت الظلال وقـد يكون من ناوأهم فوق السـحاب وتحت الشـمس، ولكن الظهور لها لأن الله أراد ذلك. وليس معنى أن الطائفة ليس لها مكان على الأرض إنها غير موجودة. فعيسـى بن مريم لم يمتلك شبرا واحـدا من الأرض ولكن وجوده على الأرض أظهر، وهكـذا شاء الله. والخلاصة: أن ابن سـبأ شخصية يسأل عنها القائمين على سياسة القص، فهو شخصية خرافية، جعلوا على لسانه حقائق وخرافات أراد إعلام النبلاء أن يبثها على

[صفحه ۴۲۷]

الأسـماع، رغبـة منه فى إيجاد رأى عام يؤيـد ما تراه السياسة حقيقة أو خرافة. ولقد قال غير واحد من الباحثين إن شخصـية ابن سـبأ لا وجود لها فى التاريخ [۶] ولم يذكر ابن سبأ فى العديد من الكتب التى سبقت تاريخ الطبرى

ومنهـا كتاب مروج الـذهب للمسـعودى. ومما سـبق نعلم أن الساحـة كان بها أكثر من تيار ضـد عثمان. فتيار كان يعمل من أجل تغيير الأمراء فى الأمصار، وتيار كان يرى أن عثمان مسؤول مسؤوليـة مباشـرة عن سـياسة الأمراء، ونقموا منها أشـياء منها: إرجاعه للحكم بن أبى العاص الـذى لعنه رسول الله ونفاه وغير ذلك، وهـذا التيار كان يريد خلع عثمان ليتولى السـلطة أحد غيره. وكان هناك تيار يريد أن يعود إلى الأمر الأول الـذى فى دائرته على بن أبى طالب، وذلك بعـد أن فشـلت أطروحـة الاجتهاد والرأى فى قيادة الأمة، وخلفت وراءها أمراء النفاق والفتن وطبقات من النبلاء، وأخرى من المحرومين، ومـدونات من الشـعر والقص. وهـذا التيار حكمنا بوجوده وفقا لأطروحـة ابن سـبأ فلو لم يكن له وجود مـا اخترعوا له شخصـية ابن سـبأ، وبالأـخص أننا لم نقرأ نصا واحـدا ينادى بعلى بن أبى طالب حول بيت عثمـان يوم حصـاره. والـذى قرأنـاه أن هنـاك من كـان ينادى بطلحـة، وليس معنى عـدم وجود أصوات لعلى ومؤيـدين له يصـرخون ويولولون حول بيت عثمـان أن عليـا كـان وحـده، ويكفى على أن يكون معه عمـار، وأبو أيوب الأنصـارى، وحذيفـة، وأبو قتادة، وبريدة، وزيد بن أرقم، وعمران بن حصين، والبراء بن عازب، وزيد بن صوحان، وغير هؤلاء رضى الله عنهم أجمعين، وروى أن الصـحابة أشاروا على عثمان بأن يرسل من يثور به إلى الأمصار كى يتبين حقيقـة الأمور، فأخـذ عثمان بهذه المشورة وبعث برجال إلى الأمصار كى يقفوا على حقيقـة الإذاعـة ضـده وموقف الأمراء من الرعيـة. وعنـدما عادوا أخبروه بعـدم وجود إذاعة ضده إلا أن الأمراء يظلمون الناس، فبعث عثمان إلى عمال الأمصار، معاوية، وابن عامر، وابن أبى السرح، وأدخل معهم فى المشورة سعيدا،

[صفحه ۴۲۸]

وعمرا، وعنـدما قـدموا عليه قال: ويحكم ما هذه الشـكاية وما هذه الإذاعة، إنى والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم وما يعصب هذا إلا بى [۷] .

ومن العجيب أنهم أصـروا على وجود إذاعـة ضـده، على الرغم من أن الذين بعث بهم عثمان إلى الأمصار نفوا ذلك. وعندما أخبرهم عثمان بما انتهى إليه قالوا: لا والله ما صدقوا ولا بروا، وإن ما نقل إليك لا يحل الأخذ به ولا الانتهاء إليه، ثم أكدوا الإذاعة ضده. فقال سعيـد بن العاص: هـذا أمر مصـنوع يصـنع فى السـر فيلقى به غير ذى معرفـة، فيخبر به فيتحـدث به فى مجالسـهم. قال عثمان: فما دواء ذلك؟ قال: طلب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الـذين يخرجه هـذا من عنـدهم [۸] لقـد أراد أن يلقى بمزيـد من الزيت على النار، وأشار كل واحد

منهم بمشورة لا تستقيم مع كون الأمة أمة واحدة، وقال عثمان: كل ما أشرتم به على قد سمعت ولكل أمر باب يؤتى منه [۹] وبعد هذا اللقاء حدث أمر هام

يلقى بظلاله على المسيرة بعـد ذلك، فلقـد روى أن عثمان بعد هذا اللقاء خرج وكان يسـير خلفه كعب الأحبار، ولا ندرى ما هو دور كعب فى هـذا اللقاء الـذى كان قريبا منه، ولكن الـذى نعلمه أن كعبا كان بعـد فتـح بيت المقدس يقيم بالشام عند معاوية، وكان كثير

الانتقال بين الشام وبين المدينـة، وأن معاويـة أمره بالقص فى المساجد بالشام، ثم اتخذه مستشارا له وكان يعده من العلماء، روى بعد خروج عثمان رجز الحادى:

قد علمت ضوامر المطى++

وضمرات عوج القسى

أن الأمير بعده على++

وفى الزبير خلف رضى

فقال كعب وهو يسير خلف عثمان. الأمير والله بعـده صاحب البلغـة وأشار إلى معاويـة، وروى أن كعبا قال عندما سـمع الشـعر: كذبت صاحب الشهباء بعده - يعنى معاويـة - وعندما أخبر معاويـة بما قاله كعب سأله، فقال كعب: نعم

[صفحه ۴۲۹]

أنت الأمير بعـده، ولكنها لا تصل إليك حتى تكـذب بحـديثى هذا، فوقعت فى نفس معاويـة. وفى روايـة: ما زال معاويـة يطمع فيها بعد مقدمة على عثمان حين جمعهم ثم ارتحل فحدا به الراجز:

أيها الأمير بعده على++

وفى الزبير خلف رضى [۱۰] .

ماذا يستفاد من ذلك؟ لقـد قال كعب لعمر من قبل أن أوصافه مـذكورة فى التوراة، فهل أخبر معاويـة بأن له أوصاف ظاهرة فى كتب الأولين؟ وأن أهم هـذه الأوصاف أنه سيلى أمر هذه الأمة، ولن يلى هذا الأمر حتى يكذب بهذا الخبر، نظرا لتواضعه وحياؤه وملكات نفسه التى شبعت من غذاء الروح، فهى لا تجوع أبدا ولا تطلب شبعا من قيادة أو غيرها! وهل أراد كعب أن يخرج معاويـة بأقصى سرعة من دائرة التكـذيب بحـديثه إلى دائرة الاصـرار إلى نيـل الخلافـة؟ لقـد قـال معاويـة للوفـد الـذى سبره عثمان إليه حين طالبوه باعتزال السـلطة: والله إن لى فى الإسـلام قـدما، ولغيرى كان أحسن قدما منى، ولكنه ليس فى زمانى أحد أقوى على ما أنا فيه منى [۱۱] أليس فى هذا ما أراد كعب؟ ففى فترة ما كان معاويـة أن

يعتقـد أن هناك من أحسن منه، وهـذا الاعتقاد جعله لا يسـرع فى الأمر لأنه لو أسـرع لكـذبته نفسه فى بلوغ الهدف، ثم جاءت مرحلة الاصـرار حيث ليس فى زمامه أحـد أقوى على ما هو فيه منه. ثم يحق للباحث أن يتساءل، لقد كان كعب الأحبار قريبا من عمر. وروى أن عمر قال لأصـحاب الشورى: إن اختلفتم دخل عليكم معاويـة بن أبى سفيان من الشام [۱۲] فهل كان فى هذا إغراء لمعاويـة بالخلافة يكون مدخلا لما قاله

كعب بعـد ذلك؟ ثم لقد روى أن عمر قال ": يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق [" ۱۳] فهل فى هذا إغراء آخر ازداد بريقه فى عهد عثمان حيث كانت

[صفحه ۴۳۰]

المعارضة فى العراق قد بلغت الذروة؟ والباحث يمكن أن يرى بسـهولة أن الاغراء قد تمكن من نفس معاويـة، وذلك من خلال أقواله وأفعاله بعد أن أخبره كعب الأحبار بأن الأمر إليه بعد عثمان، فقبل أن يتوجه معاويـة إلى الشام، خرج من عند عثمان وعليه ثياب السـفر متقلـدا سـيفه متنكبـا قوسه، فإذا هن بنفر من المهاجرين فيهم طلحـة والزبير وعلى، وهم الـذين جاء ذكرهم فى رجز الحادى بخصوص الخلافة بعد عثمان، فقام معاويـة عليهم فتوكأ على قوسه بعدما سـلم عليهم ثم قال: إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان إذا الناس يتغالبون إلى رجـال، فلم يكن منكم أحـد إلاـ وفى فصـيلته من يرأسه ويسـتبد عليه ويقطع الأمر دونه ولا يشـهده ولا يؤامره، حتى بعث الله نبيه، فكانوا يرأسون من جاء من بعـده وأمرهم شورى بينهم يتفاضـلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد. فإن أخذوا بذلك وقاموا عليه كان الأمر أمرهم والناس تبع لهم، وإن أصـغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب سـلبوا ذلك ورده الله إلى ما كان يرأسهم، وإلا فليحذروا الغير فإن الله

علی البدل قادر وله المشیئة فی ملکه وأمره، إنی خلفت فیکم شیخا فاستوصوا به خیرا وکانفوه تکونوا أسعد منه حالا. " ثم ودعهم فقال علی: ما کنت أری فی هذا خیرا [۱۴] .

أهم أعمدة هذا الخطاب أراد معاویة أن یذکرهم بأنه قبل الإسلام کانت القیادة فی قریش إلی رجال [۱۵] ، وأنهم کانوا یرجعون أمورهم إلی هؤلاء الرجال الذین کانوا یستبدون علیهم ویقطعون الأمور، دون أن یشاوروا غیرهم. وعندما جاء الإسلام جعل الأمر شوری والتفاضل بالسابقة والاجتهاد، فإن أخذوا بذلک کان الأمر لهم والناس تبع لهم، وأن أبوا خلاف ذلک رد الله القیادة إلی من کان یرأسهم قبل الإسلام. ثم حذرهم الغیر هذا، لأن الله علی البدل قادر، فالبدل إذا جاء جاء بأمر الله، فسبحانه له المشیئة فی ملکه وأمره. ولم ینس معاویة أن یضع بینه وبینهم شیخا، ثم أوصاهم به، لأن هذا الشیخ ربما یکون طریقا إلی البدل إذا حدث له أی مکروه.

[صفحه ۴۳۱]

هکذا تحدث معاویة بعد إذاعة کعب، ولذا قال الإمام علی: ما کنت أری أن فی هذا خیرا. وروی أن معاویة قال لعثمان: انطلق معی إلی الشام قبل أن یهجم علیک من لا قبل لک به، فإن أهل الشام علی الأمر لم یزالوا [۱۶] ومعنی

هذا أن یکون اسم الخلافة بالشام فتکون من معاویة ومعاویة منها. ولکن عثمان لم یوافق علی ذلک فقال معاویة: والله یا أمیر المؤمنین لتغتالن أو لتغرین [۱۷] .

وانطلق معاویة إلی الشام وهو یبحث عن ذاته وسط العاصفة، مسترجعا وصیة أمه له حین ولاه عمر.

[۱] الطبری ۵:۹۸.

[۲] الطبری ۵:۹۸.

[۳] رواه الإمام مسلم (الصحیح ۱۳:۶۵) ک الجهاد.

[۴] رواه مسلم (الصحیح ۱۳:۶۷) ک الجهاد.

[۵] رواه أحمد والحاکم وأبو داوود (الفتح الربانی ۲۳:۲۱۰).

[۶] راجع کتاب عبد الله ابن سبأ / للعلامة مرتضی العسکری.

[۷] الطبری ۵:۹۹.

[۸] الطبری ۵:۹۹.

[۹] الطبری ۵:۱۰۰.

[۱۰] الطبری ۵:۱۰۰.

[۱۱] الطبری ۵:۱۰۹.

[۱۲] الطبقات الکبری ۵:۷۳۵.

[۱۳] ابن سعد فی الدلائل (کنز العمال ۱۲:۳۵۴).

[۱۴] الطبری ۵:۱۰۱.

[۱۵] ومنهم أبو سفیان وکان معاویة قد قال للوفد الذی سیره إلیه عثمان، وقد عرفت قریش أن أبا سفیان کان أکرمها وابن أکرمها (الطبری ۵:۸۹).

[۱۶] الطبری ۵:۱۰۱، البدایة والنهایة ۵:۱۶۹.

[۱۷] الطبری ۵:۱۰۱، البدایة والنهایة ۵:۱۶۹.

من الذی قتل عثمان

إن عثمان قتل فى نهاية طريق. كانت بدايته ربما بلا عواصف وغالبا لا

يرى الإنسان إلا بدايـة الطريق أو وسـطه أما نهاية الطريق فلا ترى إلا بعد أن يجئ. وفى نهاية الطريق كانت هناك عواصف عاتية. لقد فتحت الدولة أبوابها للمنافقين أصـحاب السواعد القوية. ومن نفس الباب جاء عثمان بعبد الله بن أبى السرح الذى أهدر النبى صلى الله عليه وسـلم دمه. ليجعله واليا على مصـر بعـد أن جعله عمر أميرا على الصـعيد. كما جاء عثمان بالوليد بن عقبة وجعله واليا على الكوفة بعد أن جعله عمر أميرا على بنى تغلب. ثم أحضر الحكم بن أبى العاص طريد رسول الله وأعطاه من غنائم المسلمين. واتخذ مروان ابنه مستشارا له ومروان فى البداية هو مفتاح قتل عثمان وفى النهاية هو الذى شق عصا المسـلمين بلا شـبهة. ولم يكتف عثمان بذلك قبل فتـح أبواب بيت المال لنبلاء بنى أميـة والطبقة المميزة من قريش. وعندما قامت عليه الثورة وجد أمامه وحده كل هذه الأخطاء وطالبوه وحده بالتوبة، وروى الطبرى أن المصـريين عندما قدموا عليه قالوا له: أدع بالمصـحف؟ فدعا بالمصحف فقالوا له: إفتح السورة السابعة وكانوا يسمون سورة يونس السابعة. ثم أمروه أن يقرأ. حتى أتى على

[صفحه ۴۳۲]

قوله تعـالى: (قـل أرأيتم مـا أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حرامـا وحلالا ـ قـل الله أذن لكم أم على الله تفترون) [۱] فقالوا له: قف. أرأيت مـا حميت من الحمى الله أذن لـك أم على الله تفترى؟ قـال: وأمـا الحمى فإن عمر حمى الحمى قبلى لا بل الصدقـة. فلما وليت زادت إبـل الصدقـة فزدت فى الحمى لمـا ناد فى إبل الصدقـة... ثم أخـذوه بأشـياء لم يكن عنـده منها مخرج فعرفها فقال: أسـتغفر الله وأتوب إليه ما تريدون؟ قالوا: نريد ألا يأخذ أهل المدينة عطاء. فإنما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشـيوخ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فرضى عثمان بذلك وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا ولا يفرقوا جماعة ما قام لهم بشروطهم [۲] .

ويا ليت الأمر سار على هـذا. ولكن بنى أميـة مكروا مكرهم روى الطبرى: لما قـدمت إبل الصدقـة على عثمان بعد ذلك وهبها لبعض بنى الحكم بن أبى العاص. فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فأخذها وقسمها فى الناس وعثمان فى الدار [۳] .

والأـكبر من ذلـك أن المصـريين عنـدما تصـالحوا مع عثمان على أن لا يشـقوا عصا ما قام بشـروطهم. فوجئوا فى طريقهم بأبى الأعور السـلمى الـذى لعنه رسول الله يحمـل رسالـة إلى ابن أبى السـرح الـذى أهـدر النبى دمه. وفيهـا يـأمره عثمان بصـلبهم أو قتلهم أو قطع أيـديهم وأرجلهم من خلاف. وعلى الرسالـة خاتم عثمان: ولقد أنكر عثمان ذلك ومن سـير الأحداث تبين أن الذى وراء هذه الرسالة هو مروان بن الحكم بن أبى العاص الذى لعنه النبى صـلى الله عليه وسـلم وهو فى صـلب أبيه. إن الذى قتل عثمان سياسة سهرت عليها بطانة سوء من أمثال معاوية وعمرو مروان وابن أبى السـرح وغيرهم، وما تصدى لعثمان إلا الصحابة وأبناء الصحابة، وليس من الحقيقة فى شئ أن يقال: إن الذين ألبوا وساعدوا وقتلوا

[صفحه ۴۳۳]

عثمان هم مجموعة من أتباع عبد الله بن سبأ أشهر شخصية خرافية فى تاريخ المسلمين، أو إنهم مجموعة من الرعاع والدهماء والعامة، فالـذين قاموا بهـذا مجموعـة من الصـحابة منهم على سبيل المثال:. معاويـة بن أبى سـفيان: لقـد كان له حلمه الخاص. وعندما واجهت عثمان المخاطر. كتب إلى معاويـة: أما بعـد، فإن أهل المدينـة قـد كفروا وأخلفوا الطاعـة ونكثوا البيعة فابعث إلى من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول. وعندما جاء معاوية الكتاب وعلم اجتماع الصحابة على عثمان! تباطئ [۴] ، وعندما علم عثمان إبطاء معاوية. تعداه وكتب إلى أهل الشام يستنفرهم ويعظم حقه عليهم. وقال لهم: فإن كان عندكم غياث فالعجل العجل فإن القوم معاجلى. فلما قرئ كتابه عليهم قام يزيد بن أسد القسـرى وحضهم على نصره وأمرهم بالمسير إليه حتى إذا كانوا بوادى القرى بلغهم قتل عثمان فرجعوا [۵] ولقد جرى كل هذا ومعاوية بعيد كل البعد ولا يشـغله إلا ما أخبره به كعب.. ومنهم السـيدة عائشة أم المؤمنين. لقد كانت رضـى الله عنهـا أول من كفر عثمـان. وذلـك حين علمت أن الوقت ليس فى صالحه وأن الثورات التى تتوالى عليه سـتهلكه لا محالـة.

روی أنها قالت عندما عطل عثمان الحد عن الولید بن عقبهٔ وضرب الشهود الذین شهدوا علیه بأنه ینادم أبا زبید ویشرب معه الخمر قالت ": اقتلوا نعثلا فقد کفر [" ۶] ، قال فی لسان العرب: النعثل الشیخ الأحمق وکان أعداء عثمان یسمونه نعثلا. وفی حدیث عائشهٔ: "اقتلوا نعثلا- قتل الله نعثلا- "... تعنی عثمان وکان هذا منها لما غاضبته وذهبت إلی مکهٔ [۷] أی: قولها الذی ذکره صاحب لسان العرب کان عند الثورهٔ الأخیرهٔ علیه. وما

[صفحه ۴۳۴]

ذکرناه نحن کان فی الثورهٔ الأولی علیه یوم الولید بن عقبهٔ. وروی أن مروان بن الحکم وزید بن ثابت قدما إلی أم المؤمنین وهی ترید الحج وعثمان محصور فقالا لها: یا أم المؤمنین. لو أقمت فإن أمیر المؤمنین علی ما ترین محصور ومقامک مما یدفع الله به عنه. فقالت: قد حلبت ظهری وعریت غرائزی ولست أقدر علی المقام فقال مروان:

وحرق قیس علی البلاد++

حتی إذا استعرت أجذاما

فقالت: أیها المتمثل علی بالأشعار. وددت والله أنک وصاحبک هذا الذی یعنیک أمره. فی رجل کل واحد منکما رحا وإنکما فی البحر. وخرجت أم المؤمنین إلی مکهٔ [۸] .

. ومنهم: طلحهٔ بن عبید الله. روی الإمام أحمد عن زید بن أسلم عن أبیه قال: شهدت عثمان یوم حوصر. فرأیت عثمان أشرق من الخوخهٔ فقال: أیها الناس أفیکم طلحهٔ. فسکتوا - فکررها ثلاثا - فقام طلحهٔ. فقال له عثمان: ألا أراک هنا، ما کنت أری أن تکون فی جماعهٔ تسمع ندائی آخر ثلاث مرات ثم لا تجیبنی [۹] ، وفی روایهٔ: قال طلحهٔ: نعم؟ فقال عثمان: فإنا لله وإنا إلیه راجعون، أسلم علی قوم أنت فیهم فلا تردن. فقال: قد رددت قال: ما هکذا الرد أسمعک ولا تسمعنی یا طلحهٔ [۱۰] وکان عثمان یقول: اللهم اکفنی طلحهٔ فإنه حمل علی هؤلاء [۱۱] وروی ابن أبی الحدیث: أن طلحهٔ کان یوم قتل عثمان

مقنعا بثوب استتر به عن أعین الناس وکان یرمی الدار بالسهام [۱۲] وروی

الطبری: أنهم عندما قتلوا عثمان خرج سودان بن حمران یقول: أین طلحهٔ بن

[صفحه ۴۳۵]

عبید الله قد قتلنا ابن عفان [۱۳] ومن العجب العجاب أن أم المؤمنین عائشهٔ

وطلحهٔ ومن معهما خرجوا علی إمام المتقین علی بن أبی طالب یطالبون بالثأر لعثمان. وروی الحاکم عن علقمهٔ بن وقاص قال: رأیت طلحهٔ وأحب المجالس إلیه أخلاها وهو ضارب بلحیته علی زوره فقلت له: یا أبا محمد إنی أراک وأحب المجالس إلیک أخلاها وأنت ضارب بلحیتک علی زورک إن کنت تکره هذا الأمر فدعه. فلیس یکرهک علیه أحد فقال: یا علقمهٔ بن وقاص. لا تلمنی کنا أمس یدا واحدهٔ علی من سوانا فأصبحنا الیوم جبلین من حدید یزحف أحدنا علی صاحبه ولکنه کان منی فی أمر عثمان ما لا أری کفارته إلا أن یسفک دمی فی طلبه [" ۱۴] ، وکان بنو أمیهٔ یعلمون أن طلحهٔ له نصیب کبیر فی قتل عثمان. لذا نجد مروان یجد فی قتل طلحهٔ یوم الجمل. وعندما ظفر به وقتله قال: والله لا أطلب قاتل عثمان بعدک [۱۵] وکان عبد الملک بن مروان یقول: أخبرنی أمیر المؤمنین مروان أنه هو الذی قتل طلحهٔ. ولولا ذلک ما ترکت من ولد طلحهٔ أحدا إلا قتلته بعثمان [۱۶] .

. ومنهم عمرو بن العاص. کان مستشارا لعثمان وعندما عزله عثمان عن مصر انقلب علی عثمان. وظلت مصر هی شاغلهٔ الأول والأخیر علی امتداد حیاته. قال فی أسد الغابهٔ: لما استعمل عثمان عبد الله بن أبی السرح علی مصر وعزل عنها عمرو بن العاص. جعل عمرو یطعن علی عثمان ویؤلب علیه ویسعی فی إفساد أمره [۱۷] وانتقل عمرو إلی المدینهٔ وفی نفسه من عثمان أمر عظیم وشر کبیر فکلمه فیما کان من أمره. وتقاولا- فی ذلک وافتخر عمرو بأبیه علی عثمان وأنه کان أعز منه، وجعل عمرو یؤلب الناس علی عثمان [۱۸] ، وروی الطبری: لما قدم عمرو المدینهٔ جعل یطعن علی عثمان. فأرسل إلیه عثمان وقال له: یا ابن

[صفحه ۴۳۶]

النابغهٔ ما أسرع ما قمل جربان جبتک إنما عهدک بالعمل عاما أول. أتطعن علی وتأتینی بوجه وتذهب عنی بآخر والله لولا أکلهٔ ما فعلت ذلک... لقد استعملتک علی ظلعک وکثرهٔ القالهٔ فیک. فقال عمرو: قد کنت عاملا لعمر بن الخطاب ففارقنی وهو عنی راض [۱۹] ، وعندما اجتمع الناس علی عثمان ناداه عمرو بن العاص من ناحیهٔ المسجد: اتق الله یا عثمان فإنک قد رکبت نهابیرا ورکبناها معک فتب إلی الله نتب. فناداه عثمان: وإنک هناک یا ابن النابغهٔ تملت جبتک منذ ترکتک من العمل. فناداه الناس من ناحیهٔ أخری: یا عثمان تب إلی الله وأظهر التوبهٔ یکف الناس عنک [۲۰] وروی الطبری: أن عمروا کان یعترض الحاج فیخبرهم بما أحدث عثمان [۲۱] ، وعندما خرج عمرو إلی منزله بفلسطین مر به راکب فناداه عمرو وقال: ما فعل الرجل؟ یعنی عثمان. قال: قتل، فقال عمرو: أنا أبو عبد الله إذا حککت قرحهٔ نکأنها إن کنت لأحرصن علیه حتی أنی لأحرصن علیه الراعی فی غنمه فی رأس الجبل [۲۲] ، ومن العجب العجاب أن ابن النابغهٔ بعد ذلک یهرول فی اتجاه معاویهٔ ویبکی عثمان المظلوم ویشارک معاویهٔ فی قتال إمام المتقین علی بن أبی طالب نظیر أن یعطیه معاویهٔ مصر طعمهٔ.. ومنهم مروان بن الحکم. طرید رسول الله صلی الله علیه وسلم. لقد کانت مهمهٔ مروان تصعید العنف علی عثمان، وعندما قتل عثمان تاجر مروان بدم عثمان شأنه فی ذلک کشأن جمیع أصحاب المصالح من النبلاء وتجار الأدیان. روی أن عثمان عندما تصالح من الثوار أول مرهٔ ورجع الثوار إلی مصرهم. خرج وخطب فی الناس فرق الناس له یومئذ وبکی من بکی. وعندما عاد إلی منزله وجد مروان وسعید بن العاص ونفرا من بنی أمیهٔ فقال مروان: تکلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا وأن ما بلغهم عن إمامهم کان باطلا. فإن خطبتک تسیر فی البلاد قبل أن یتحلب الناس علیک من أمصارهم فیأتیک من

[صفحه ۴۳۷]

لا تستطیع دفعه. ولم یزل به مروان حتی خرج وقال بما أشار به مروان [۲۳] .

فهاج الناس علیه. وعندما تدخل علی بن أبی طالب لتهدئهٔ الناس استمع الناس إلیه. لیتکرر المشهد مرهٔ أخری مع ثوار آخرین. وعندما اجتمع الناس علی باب عثمان قال عثمان لمروان: اخرج إلیهم فکلمهم. فخرج مروان إلی الباب والناس یرکب بعضهم بعضا فقال: ما شأنکم قد اجتمعتم کأنکم قد جئتم لنهب. شاهت الوجوه کل إنسان أخذ بأذن صاحبه إلا من أرید. جئتم تریدون أن تنزعوا ملکنا من أیدینا. أخرجوا عنا. أما والله لئن رمتمونا لیمرن علیکم منا أمر لا یسرکم ولا تحمدوا. غب رأیکم ارجعوا إلی منازکم فإنا والله ما نحن مغلوبین علی ما فی أیدینا، وعندما سمعت نائلهٔ امرأهٔ عثمان ذلک قالت لعثمان: إنک إن أطعت مروان قتلک [۲۴] وعندما توجه وجوه الناس إلی دار عثمان لتهدئهٔ الخواطر خرج

مروان وقال: شاهت الوجوه إلا من أرید. ارجعوا إلی منازلکم فإن یکن لأمیر المؤمنین حاجهٔ بأحد منکم یرسل إلیه. وإلا قر فی بیته [۲۵] وسمع علی بما قاله مروان وعندما جاءه رسول عثمان یبلغه أن یأتی عثمان. قال علی بصوت مرتفع عال مغضب: قل له ما أنا بداخل علیک ولا عائد [۲۶] وکان علی یقول لعثمان

قبل ذلک: إنی قد کنت کلمتک مرة بعد مرة. فکل ذلک نخرج فتکلم ونقول وتقول. وذلک کله فعل مروان بن الحکم وسعید بن العاص وابن عامر ومعاویهٔ. أطعتهم وعصیتنی [۲۷] ، لقد کان الإمام یعلم إلی أین ستنتهی الأحداث وفقا لما أخبره به النبی صلی الله علیه وسلم فکان یحذر ویراقب من بعید لیقیم الحجهٔ علی من شهد أنه ما قتل وما أمر بقتل. وکان صوته بعیدا عن دائرهٔ القاتل. وکان صوته حجهٔ فی دائرهٔ المقتول. کان یفعل ذلک لعلمه بأنهم سیخلطون بین الدائرتین من أجل إنتاج دائرهٔ جدیدهٔ یکونون فیها أصحاب جور.

[صفحه ۴۳۸]

وفی دائرهٔ الإمام کان یقف معه الحسن والحسین. فالحسنان کانا یدفعان العدوان عن عثمان. لکی یفهم أصحاب العقول أن الذی یدافع عن شئ لا یمکن أن یهجم علیه. وکم فی عالم الحجهٔ من حکمهٔ بالغهٔ. فهؤلاء الذین ذکرنا کانوا من المحرضین والمساعدین

علی قتل عثمان ثم تاجروا بدمه بعد ذلک. ویبقی قسم آخر وقفوا فی دائرهٔ الثوار فأغلظوا لعثمان ورفضوا الوقوف بجانبه من هؤلاء:.

عمار بن یاسر: الذی قال عنه النبی صلی الله علیه وسلم ": من عادی عمارا عاداه الله ومن أبغض عمارا أبغضه الله [" ۲۸] وقال عن عمار ": ما

خیر بین أمرین إلا اختار أرشدهما [" ۲۹] ، وقال ": إذا اختلف الناس کان ابن سمیهٔ مع الحق [" ۳۰] ، إلی غیر ذلک من الأحادیث التی تبین مناقبه التی أودعها الله فیه لحکمهٔ بالغهٔ. ولقد ذکر ابن کثیر أن عثمان ضرب عمار بن یاسر [۳۱] ولکن اختلفوا فی سبب ضربه وذکر المسعودی: أن القبائل اعترضت علی ضرب عمار بن یاسر وعبد الله بن مسعود [۳۲] ، وروی ابن کثیر والطبری: أن القوم طلبوا من عمار أن یرد الثوار فقال عمار: والله لا أردهم عنه أبدا [۳۳] ، وقال ابن کثیر: کان عمار یحرض الناس علی عثمان ولم یقلع ولم یرجع ولم ینزع [۳۴] ، وکان عمار له موقف ثابت من بنی أمیهٔ. کما أنه کان یعلم أسماء المنافقین الاثنی عشر الذین أرادوا قتل النبی صلی الله علیه وسلم عند عودته من تبوک.

[صفحه ۴۳۹]

. ومنهم زید بن صوحان. زید وما زید! ولقد تحدثنا عنه من قبل. وهو الذی سیره عثمان من الکوفهٔ إلی الشام، ثم من الکوفهٔ إلی حمص. وقد خرج ثوار الکوفهٔ إلی المدینهٔ فی أربع رایات، کان بینهم زید ومالک الأشتر، وقال فی الإصابهٔ: کان زید فاضلا دینا سیدا فی قومه [۳۵] وقال: کان زید یحب سلمان الفارسی ومن شدهٔ حبه له اکتنی أبا سلمان [۳۶] .

. ومنهم: عبد الرحمن بن عدیس. خرج ثوار مصر إلی المدینهٔ فی أربع رایات کان عبد الرحمن فیهم ومعه کنانهٔ بن بشر اللیثی فأما ابن عدیس فکان ممن بایع تحت الشجرهٔ [۳۷] وأما کنانهٔ فکان من الصحابهٔ الذین أدرکوا النبوهٔ [۳۸] .

. ومنهم: جبلهٔ بن عمر الساعدی. قال فی الإستبصار: کان من فضلاء الصحابهٔ [۳۹] شهد أحدا [۴۰] قال ابن کثیر والطبری: مر عثمان علی قوم فیهم جبلهٔ. فسلم فرد القوم، فقال جبلهٔ: لم تردون علیه. ثم أقبل علی عثمان فقال: والله لأطرحن هذه الجامعهٔ. وکانت فی یده جامعهٔ – أو لتترکن بطانتک هذه. قال عثمان: أی بطانهٔ فوالله لأتخیر الناس. فقال جبلهٔ: مروان تخیرته! ومعاویهٔ تخیرته! وعبد الله بن عامر تخیرته! وابن السرح تخیرته! منهم من نزل القرآن بذمه وأباح رسول الله صلی الله علیه وسلم دمه [۴۱] ، وروی أن عثمان مر بجبلهٔ وهو بفناء داره فقال: یا نعثل والله لأقتلنک ولأحملنک علی قلوص جرباء ولأخرجنک إلی حرهٔ النار. ثم جاء جبلهٔ مرهٔ أخری وعثمان علی المنبر فأنزل عنه [۴۲] .

[صفحه ۴۴۰]

. ومنهم: جهجاه الغفاری قال فی الإصابهٔ: شهد بیعهٔ الرضوان روی له الشیخان [۴۳] وقال الطبری: کان عثمان یخطب علی عصا النبی صلی الله علیه وسلم التی کان یخطب علیها وأبو بکر وعمر. فقال له جهجاه: قم یا نعثل فانزل عن هذا المنبر وأخذ العصا فکسرها [۴۴] .

. ومنهم: أعین بن ضبیعهٔ. روی الإمام أحمد أن عثمان قال: إنا والله قد صحبنا رسول الله. وکان یعود مرضانا ویغدوا معنا ویواسینا بالقلیل والکثیر. وإن ناسا یعلمونی به عسی أن لا یکون أحدهم قد رآه قط، فقال له أعین بن امرأهٔ الفرزدق: یا نعثل إنک قد بدلت [۴۵] .

. ومنهم جرول بن مالک وعمرو بن بدیل وعمرو بن حزم الأنصاری وهؤلاء جمیعا من الصحابهٔ. وکان منهم أبناء الصحابهٔ من أمثال محمد بن أبی بکر ومحمد بن أبی حذیفهٔ، ولقد اعترضنا علی عثمان لمخالفاته الکثیرهٔ وعابا علیه استعماله بدین أبی السرح لأنه ارتد وکفر بالقرآن وأباح الرسول صلی الله علیه وسلم دمه [۴۶] وعندما اقتحم الثوار دار عثمان قال له محمد بن أبی

بکر: ما أغنی عنک معاویهٔ! ما أغنی عنک ابن عامر [۴۷] وبالجملهٔ کانت الثورهٔ

ثورهٔ الصحابهٔ یقول الطبری: لما أری الناس ما صنع عثمان. کتب من بالمدینهٔ من أصحاب النبی صلی الله علیه وسلم إلی من بالآفاق

منهم. وکانوا تفرقوا فی الثغور وإنکم إنما خرجتم أن تجاهدوا فی سبیل الله عز وجل تطلبون دین محمد صلی الله علیه وسلم. فإن دین محمد قد أفسد من خلفکم وترک. فهلموا فأقیموا دین محمد صلی الله علیه وسلم فأقبلوا من کل أفق

[صفحه ۴۴۱]

حتی قتلوه [۴۸] .

فکما تری جمیعهم من الصحابهٔ ولیسوا من الدهماء والرعاع کما قال البعض. ولم یکن بینهم عبد الله بن سبأ کما قال البعض الآخر من الذین أرادوا أن یقطعوا طریق البحث العلمی من قدیم الزمان حتی لا یدینهم التاریخ وحتی لا تضع الأمهٔ أیدیها علی موطن الداء ومرکز الفتن. لم یکن هناک ابن سبأ. وکان هناک کعب الأحبار الذی کان یؤخذ برأیه فی زمن عثمان فی توزیع المال کما روی ابن أبی الحدید. وکان هناک أبو سفیان الذی سمعه عمار بن یاسر وهو یقول ": تلقفوها تلقف الکرهٔ " وانطلق عمار إلی الصحابهٔ ینقل إلیهم الخبر کما ذکر المسعودی [۴۹] ، وکان هناک الفاسق الذی یعرف عند من اشتغل بعلوم السیرهٔ والتاریخ. وبنظرهٔ أخیرهٔ علی أحداث الثورهٔ نقول: إن مشکلهٔ عثمان کانت فی وضع بنی أمیهٔ علی رقبهٔ الناس الأمر الذی جعل من أکلهٔ القنافذ والضباب أصحاب خزائن کبری ملیئهٔ بالذهب والفضهٔ یصدون بها عن سبیل الله. وانتماء عثمان إلی قومه والعمل من أجلهم واضح وضوح الشمس. فالرسول صلی الله علیه وسلم کلما أهدر دم أحد منهم أو نفاه کان عثمان هو الملجأ. وخیر دلیل ما ورد فی معاویهٔ بن المغیرهٔ بن العاص. کان النبی قد أسره بعد غزوهٔ حمراء الأسد عند رجوعه إلی المدینهٔ فلجأ إلی عثمان فأمر النبی صلی الله علیه وسلم بقتله إن وجد بعد ثلاثهٔ أیام. وعندما توارى بعیدا عن أعین الرسول بعث الرسول إلیه بعمار بن یاسر وزید بن حارثهٔ وأخبرهما بمکانه وعندما وجداه قتلاه [۵۰] وأیضا

ما ورد فی عبد الله بن أبی السرح والحکم بن أبی العاص الذی جاء به عثمان من منفاه. وضرب بمشاعر المسلمین عرض الحائط یوم أن أقام علی قبره فسطاطا. وکأنه أراد أن یکون وجود الحکم شاخصا حیا أو میتا علی أرض الدولهٔ بعد نفی

[صفحه ۴۴۲]

الرسول صلی الله علیه وسلم له. وعندما عاتبه الصحابهٔ قال: إن عمر بن الخطاب أقام من قبل فسطاطا علی قبر زینب بنت جحش [۵۱] . فإذا کان هذا حال عثمان مع المطرودین فکیف یکون الحال مع غیرهم. وإذا لم تکن بطانهٔ عثمان التی اعترض علیها الثوار بطانهٔ سوء. فما هی البطانهٔ السوء التی حذر منها النبی وأخبر أنها أوشکت أن ترکب بعد وفاته. هل ما زالت فی بطن الغیب أم أنها جاءت وزالت بعد أن ترکت جذورا وشذوذا وفتنا. لقد کان عثمان منحازا إلی بطانته وکان فی إمکانه أن یتفادی الثورهٔ علیه لو سار مع الناس بسیرهٔ أبی بکر وعمر ولم یقم بتوسیع الدوائر التی خلفوها وراء ظهورهم. فالدوائر کلما کانت ضیقهٔ تکون العواصف أهدأ. ولکن عثمان لم یفعل ذلک بل لقد استعان بخبراء فی توسیع الدوائر وحفرها - لقد کان عمر بن الخطاب یستمع إلی الخصم ویحقق فیما ادعاه. ولکن الأمر اختلف عند عثمان. روی أنه بعد أن تصالح مع أهل مصر عند مجیئهم الأول ذکر له ابن عدیس ما صنع ابن أبی السرح بمصر وذکر تحاملا منه علی المسلمین وأهل الذمهٔ وذکر استئثارا منه فی غنائم المسلمین. وقال ابن عدیس: فإذا قیل له فی ذلک قال: هذا کتاب أمیر المؤمنین إلی [۵۲] ، أی أنه یخبرهم أنه ما یفعل شیئا إلا بإذن عثمان. فماذا فعل عثمان؟ لقد أمر علیهم محمد بن أبی بکر وبینما هم فی طریق العودهٔ شاهدوا رسول عثمان ومعه کتابه وخاتمه إلی عبد الله بن أبی السرح یأمره فیه بجلد ظهورهم وغیر ذلک. وعندما واجهوا عثمان اکتفی بقول: والله ما کتبت ولا أمرت ولا شورت ولا علمت. فقیل له: فمن کتبه؟ قال: لا أدری، فقالوا: أفیجترأ علیک فیبعث غلامک وجمل من صدقات المسلمین وینقش علی خاتمک ویکتب إلی عاملک بهذه الأمور العظام وأنت لا تعلم؟ قال: نعم. قالوا: فالکتاب کتاب کاتبک - أی مروان [۵۳] - قال: أجل ولکنه کتبه بغیر أمری. قالوا:

[صفحه ۴۴۳]

والرسول الذی وجدنا معه الکتاب غلامک؟ قال: أجل ولکنه خرج بغیر إذنی. قالوا: والجمل جملک، قال: أجل ولکنه أخذ بغیر

علمى، قالوا: ما أنت إلا صادق أو كاذب. فإن كنت كاذبا فقد استحققت الخلع لما أمرت به من سفك دمائنا بغير حقها، وإن كنت صادقا فقد استحققت أن تخلع لضعفك وغفلتك وخبث بطانتك. لأنه لا ينبغى لنا أن نترك على رقابنا من يقتطع مثل الأمر دونه. لضعفه وغفلته [۵۴] ، وجميع هذا قد حدث ومروان بن الحكم فى مأمن تام لم يوجه إليه أى اعتراض. وذلك لعلمهم أن فى ظهره ذرية من خلفاء بنى أمية. ومعاوية نفسه كان يتحدث بذلك [۵۵] فمن أجل الحفاظ على فتنة ففتح بنو أمية أبوابا لفتنة أخرى. وحاصر الثوار دار الخلافة. واستمر الحصار أربعين يوما وكان عثمان يصلى بالناس ثلاثين يوما ثم منعوه [۵۶] وكان على بن أبى طالب يقدم الماء إلى عثمان فى هذا الوقت وكان الحسن والحسين يقومان على حراسته. أولا: لأن ما يجرى لا يستقيم مع المحاكمة العادلة. وثانيا: لأن ما يجرى سيتم المتاجرة به وسيتهم على فيه فكان التواجد حجة فى ذاته. وكان على بن أبى طالب يعلم ما ستجرى عليه الأحداث وفقا لإخبار النبى صلى الله عليه وآله وسلم بالغيب عن ربه جل وعلا. وإذا كان عثمان قد دفع بالأحداث كى تصل إلى ما وصلت إليه وذلك لحفاظه على أسرته وأهل شورته. فإن التاريخ قد سجل أيضا أن الدماء التى جرت حول دار عثمان وداخلها. كانت بدايتها حفاظ عثمان أيضا على أهل شورته. فعلى الرغم من الحصار إلا أنه كانت تجرى محاولات لتهدئة الخواطر. ولكن هذه المحاولات انتهت بسفك الدماء. روى الطبرى: لما مضت أيام التشريق أطافوا بدار عثمان. وأبى إلا الإقامة على أمره وأرسل إلى حشمه وخاصته فجمعهم. فقام رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله يقال له: نيار بن عياص. وكان شيخا كبيرا. فنادى: يا

[صفحه ۴۴۴]

عثمان. فأشرف عليه عثمان من أعلى داره. فذكره الشيخ لما اعتزلهم. فبينما هو يراجعه الكلام إذ رماه رجل من أصحاب عثمان فقتله بسهم. وقيل إن الذى رماه كثير بن الصلت الكندى. فقالوا لعثمان عند ذلك: إدفع إلينا قاتل نيار بن عياص فلنقتله به. فقال لهم: لم أكن لأقتل رجلا نصرتى وأنتم تريدون قتلى. فلما رأوا ذلك ثاروا إلى بابه فأحرقوه وخرج عليهم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والمغيرة بن الأخنس كل منهم فى عصابة فاقتتلوا قتالا شديدا. وكان الذى حداهم على القتال أنه بلغهم أنه مددا من أهل البصرة وأن أهل الشام قد توجهوا مقبلين [۵۷] ولم يكن هذا قد حدث لأن معاوية كان فى شغل.

وعلى هذا نقول: إن الخدعة فى البداية كانت من عند بنى أمية يوم أن بعثوا برسالتهم إلى ابن أبى السرح ليقتل المصريين. وإن أول قطرة دم فى الأحداث كانت على أيدى بنى أمية يوم أن قتلوا نيار بن عياص. قال فى الإصابة: كان نيار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ممن كلم عثمان فى حصره وناشده الله. وقتله بعض أتباع عثمان. وقالوا: وهذا أول مقتول فى ذلك الوقت [۵۸] ونحن قد ذكرنا فى بداية حديثنا عند بنى أمية حديث

الألف شهر وهو حديث صحيح ولكن بعض العلماء قد حكم بأنه منكر وذلك لكون مدة حكم عثمان داخلة فى مدة حكم بنى أمية. وسبب إنكارهم أنهم قالوا إن هذا لا يجوز لأن عثمان خليفة راشد كانت الملائكة تستحى منه. وقد سئل الحافظ السخاوى عن المواطن التى استحيت فيها الملائكة من عثمان فقال: لم أقف عليها فى حديث يعتمد [۵۹] ومن الأحداث التى دارت ومن الفتن التى خلفتها من ورائها يمكن القول بارتياح شديد إن الحديث المروى عن النبى حديث صحيح سندا ومتنا ومعنى. وقتل عثمان. وروى الطبرى وغيره: أن عثمان نبذ ثلاثة أيام لا يدفن. وقد

[صفحه ۴۴۵]

كلم الناس عليا فى ذلك فتدخل وأذن لأهله أن يدفنوه. فلما سمع الناس ذلك قعدوا له فى الطريق بالحجارة. وعندما شاهد الناس السرير الذى يحمل عثمان رجموا السرير وهموا بطرحه. فبلغ ذلك عليا فأرسل إليهم يعزم عليهم ليكفن عنه ففعلوا. وانطلق به أهله. وأرادوا أن يصلوا عليه فى موضع الجنازات فأبت الأنصار. وأرادوا أن يدفنوه بالبقيع فمنعوا أيضا من ذلك. وقالوا: لا يدفن فى مقابر المسلمين. فدفنوه فى حش كوكب كانت اليهود تدفن فيه موتاهم. فلما ظهر معاوية بن أبى سفيان. أدخل هذا الحش فى البقيع فهو اليوم مقبرة بنى أمية [۶۰] .

وفی الختام. إن الجیل الأول هو الـذی حکم بفشل تجربـة الرأی التی انطلقت من دائرة المصـلحة العامة. الجیل الأول هو الذی اعترض علی بطانة السوء التی دخلت من باب إلغاء سـهم المؤلفة وتأمیر المنافقین. والجیل الأول هو الذی اعترض علی توزیع الفیء الذی دخل من باب الخراجـة. باختصار اعترض الجیل الأول علی قوائم النظام الاقتصادیـة والإداریة والتربویة. التی عبر عنها الولید بن عقبة. فکیف حدث هذا بعد مضـی ربع قرن تقریبا من وفاة النبی صلی الله علیه وسلم؟ هل خرج الناس علی ما وضعه النبی أم أنهم خرجوا علی شیء حـذر منه النبی؟ ثم إذا کانوا قـد خرجوا علی ما حـذر منه النبی فکیف دخل إلیهم المحظور ولماذا؟ أخشـی أن یقال إن الـذی حدث کـان قصورا فی التطبیق. لأن الـذین قاموا بالتطبیق صـحابة عـدول ثقات ولن یأتی علی مر الزمان خیر منهم. فإذا کان هؤلاء لم یصـیبوا التطبیق الصـحیح فکیف بمن دونهم. إن الذی یمکن أن یقال فی هذا الموضع وإنهم أخطأوا التأویل الصـحیح. لأن التأویل الصحیح له رجال یمکن أن یقاتلوا علی تأویل القرآن کما قاتل النبی صلی الله علیه وسلم علی تنزیله.

[صفحه ۴۴۹]

[۱] سورة یونس: الآیة ۵۹.

[۲] الطبری ۵:۱۰۷.

[۳] الطبری ۵:۱۱۴.

[۴] الطبری ۵:۱۱۵.

[۵] الطبری ۵:۱۱۶.

[۶] النهایة لابن الأثیر ۵:۸۰، تاریخ أعثم ص ۱۵۵، شرح النهج ۴:۷۷.

[۷] لسان العرب مادة نعثل ص ۴۴۷۰.

[۸] الطبقات الکبری ۵:۳۷.

[۹] رواه أحمد وروی النسائی بعضه (الفتح ۲۳:۱۱۲).

[۱۰] رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح ۲۳:۱۱۲).

[۱۱] الطبری ۵:۱۲۲.

[۱۲] ابن أبی الحدید ۲:۴۰۴.

[۱۳] الطبری ۵:۱۲۳.

[۱۴] الحاکم (المستدرک ۱۱۸، ۳:۳۷۲).

[۱۵] الطبقات الکبری ۳:۲۲۳، أسد الغابة ۳:۸۸.

[۱۶] الطبقات الکبری ۳:۲۲۳.

[۱۷] أسد الغابة ۳:۲۶۰.

[۱۸] الطبری ۵:۱۰۸، البدایة والنهایة ۸:۱۷۰.

[۱۹] الطبری ۵:۱۰۸.

[۲۰] الطبری ۵:۱۱۱.

[۲۱] الطبری ۵:۱۰۸.

[۲۲] الطبری ۵:۱۰۹، الکامل ۳:۸۲.

[۲۳] الطبری ۵:۱۱۰.

[۲۴] الطبری ۵:۱۱۲، البدایة والنهایة ۷:۱۷۳.

[۲۵] الطبری ۱۱۲:۵، البدایة والنهایة ۱۷۲:۷.

[۲۶] الطبری ۱۱۳:۵، البدایة والنهایة ۱۷۳:۷.

[۲۷] الطبری ۱۰۹:۵.

[۲۸] رواه أحمد وقال الهیثمی رواه أحمد والطبرانی ورجاله رجال الصحیح (الزوائد ۲۹۳:۹) (الفتح ۳۲۹:۲۲).

[۲۹] رواه الحاکم وأقره الذهبی ورواه أحمد (الفتح الربانی ۳۳۰:۲۲)، (المستدرک ۳۸۸:۳) ورواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۶۸:۵).

[۳۰] رواه الطبرانی (کنز العمال ۷۲۱:۱۱).

[۳۱] البدایة والنهایة ۱۷۱:۷.

[۳۲] مروج الذهب ۳۷۳:۲.

[۳۳] الطبری ۱۱۰:۵، البدایة ۱۷۱:۷.

[۳۴] البدایة ۱۷۱:۷.

[۳۵] الإصابة ۴۵:۳.

[۳۶] الإصابة ۴۶:۳.

[۳۷] الإصابة ۱۷۱:۴.

[۳۸] الإصابة ۳۲۵:۵.

[۳۹] الإستبصار ۱۳۶.

[۴۰] الإصابة ۲۳۳:۱.

[۴۱] البدایة ۱۳۶:۷، الطبری ۱۱۴:۵.

[۴۲] البدایة ۱۷۶:۷، الطبری ۱۱۴:۵.

[۴۳] الإصابة ۲۶۵:۱.

[۴۴] الطبری ۵۱۴:۵.

[۴۵] رواه أحمد ورواته ثقات (الزوائد ۲۲۸:۷).

[۴۶] البدایة والنهایة ۱۵۸:۷.

[۴۷] الطبری ۱۱۸:۵.

[۴۸] الطبری ۱۱۵:۵.

[۴۹] الطبری ۱۱۵:۵.

[۵۰] السیرة الحلبیة ص ۵۹۱، حیاة الحیوان / الجاحظ ۱۶۱:۴.

[۵۱] الإصابة ۲۹:۲.

[۵۲] الطبری ۱۱۹:۵.

[۵۳] کان محمد بن سلمة یقول: هذا من عمل مروان، الطبری ۱۱۹:۵.

[۵۴] الطبری ۱۲۰:۵.

[۵۵] سیأتی فی موضعه.

[۵۶] الطبری ۱۰۷:۵.

[۵۷] الطبری ۱۲۴:۵.

[۵۸] الإصابة ۵:۲۵۹.

[۵۹] التراتيب الإدارية ۲:۳۸۴.

[۶۰] الطبرى ۵:۱۴۴:۱۴۳.

و ظهر القمر

من معالم الحكومة الدينية

بعد ربع قرن من وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ظهر النفاق. ويشهد بذلك حديث حذيفة " إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون [" ۱] ، بل إن النفاق ركب مرحلة أخرى يقول فيها حذيفة ": إنما كان النفاق على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان [" ۲] ، ويشهد بظهور النفاق استعمال عمر بن الخطاب للمنافقين وإلغائه لسهم المؤلفة قلوبهم. وبعد وفاة الرسول بربع قرن قامت السياسة على أعمدة منها عمود عدم الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد من يروى بالضرب أو النفى وهذا أيضا ثابت فى أحاديث صحيحة رويت عن عمر بن الخطاب وبينت سيرته بشأن الرواية. وترتب على ذلك ظهور القص والشعر بإذن من عمر وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بربع قرن رتع بنو أمية فى أموال المسلمين وذلك عندما تربعوا على الخراج الذى أنشأه عمر بن الخطاب. حتى أن مروان بن طريد رسول الله وضع يده على فدك بأمر من عثمان وفدك هذه لم تأخذها ريحانة رسول الله يوم أن نازعت فيها أبا بكر. فالذى لم تأخذه ريحانة الرسول أخذه فى نهاية الطريق ريحانة طريد رسول الله. ولم يقف الأمر عند مروان بل التهم ابن أبى السرح الذى أهدر النبى

[صفحه ۴۵۰]

دمه النصيب الأكبر من غنائم إفريقيا بأمر من عثمان الذى كان يستفتى كعب الأحبار فيما يجوز للخليفة أن يأخذه من بيت المال. وروى أن كعبا عندما أفتاه قال أبو ذر لكعب: يا بن اليهوديين أتعلمنا ديننا. وعندئذ قال له عثمان: يا أبا ذر قد كثر أذاك لى وتولعك بأصحابى [۳] .

ومن نتائج هذا كله بهتت مناقب أهل البيت، وإذا كانت المناقب تشع فى أذهان البعض. فإنها أخذت عند البعض الآخر تأويلا آخر فوضعوهم فى دائرة (البركة والمشايخ) أى الدائرة التى لا علاقة لها بالقيادة. وحتى هذه الدائرة لم تدم لأهل البيت فيوم الشورى الذى جعل عمر الخلافة فيه فى ستة نفر، كانت دائرة الشيوخ لا يوجد فيها بنى هاشم وحدهم فلقد دخلها أبناء عبد شمس وغيرهم. ومن المعروف أن أبناء عبد شمس – وبنو أمية هم أشهر فروعهم – لم يكن لهم نصيب فى أشرف خصال قريش فى الجاهلية وهى: اللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابة. وبعد الشورى استحوذ بنو أمية على كل مال على الرغم من أن النبى صلى الله عليه وسلم قد حذر منهم إذا ركبوا الأمة. ولكن هذا التخدير لم يكن له وجود واسع بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله وسلم. وركب بنو أمية رقبة الأمة يوم الشورى وعملوا من أجل أن يكون الملك فيهم تعويضا لإبعادهم فى الجاهلية والإسلام. وعلى امتداد حكم عثمان كانت هناك ثقافات أموية يشرف عليها أمراء عثمان ومنهم معاوية الذى قال فى الشام وهو يخاطب الذين سيرهم عثمان " قد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها... وأن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازما. " يستفاد من هذا كله أن هناك فتنة فى المقدمة، وهذه الفتنة حذر القرآن منها والنبى صلى الله عليه وسلم لم يفارق الدنيا إلا وبين كل شئ. وهذه الفتنة يشهد كل قارئ للتاريخ أن نتائجها كانت بجميع المقاييس كارثة فالأمة الواحدة اختلفت وافترقت وذهب ريحها. والجميع فى كل دروب الاختلاف والافتراق يقرأون كتاب الله وكل منهم يدعى أن الحق معه وغيره الباطل. ومرجع ذلك فى

[صفحه ۴۵۱]

رأينا أن كل فريق انتقى من على أرضية الصحابة وأبناء الصحابة قدوة له فأخذ منهم دون تمحيص وانطلق فى أثره. وقد تكون القاطرة تسير على قضبان الفتنة فيركب فيها الراكبون وهم لا يعلمون أنهم بركوبهم هذا يكونون قد شاركوا فى الفتنة التى لم يشهدوها. قال النبى صلى الله عليه وسلم ": إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها [" ۴] ، فهو مشارك فى الإثم وإن بعدت المسافة بينهما [۵] ودواء هذا الداء لا يكون بتلجيم العقل والسير على طريق الاحتناك

الذى ترفرف عليه أعلام الزينة والزخرف والإغواء. وإنما يكمن العلاج فى العلم يقول النبى صلى الله عليه وسلم " إن الفتنة تجيئ فتنسف العبادة نسفا وينجو العالم منها بعلمه [" ۶] .

فالفتنة إذا كانت فى المقدمة يقع فيها الذين شاركوا فيها والذين جاءوا من بعدهم. بمعنى أن الفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة وإنما تصيب الذين ركبوا القاطرة التى تسير على قضبان هذه الفتنة، أما العالم فإنها لا تصيبه عند المقدمة لأن عند المقدمة شهود. فشاهد عليه علامة تقول ": تقتله الفئة الباغية " وشاهد عليه علامة " تنبحها كلاب الحوأب " وشاهد عليه علامة " بأنه أصدق لهجة، " وآخر عليه علامة زيد وما زيد... وكثير كثير. والعالم لا تصيبه الفتنة عند النتيجة لأنه ينجو منها بعلمه بأحداثها وموطن الحق فيها. وفتنة المقدمة ما وقعت إلا بعد أن اختار الناس لأنفسهم فى جو من الأحداث لا نعلم عنه إلا القليل. فهناك من أبى أن تكون الخلافة والنبوة فى بيت واحد. لأن هذا يعنى أن بنى عبد شمس من دون خلق الله جميعا لن يكون لهم ركوبة فى جاهلية أو إسلام. لقد كانت الأبواب مغلقة بمفاتيح الدعوة ولكنها فتحت بمفاتيح الفتنة. ومن عدل الله تعالى أنه أقام الحجة على الجيل الأول فى

[صفحه ۴۵۲]

كل حركاته بعد وفاة الرسول، وها نحن قد رأينا أحداث أبى ذر وغيره من الذين وضع عليهم النبى صلى الله عليه وسلم هالات من التبشير والتحذير. لقد حاصرت حجج الله جيل الصحابة لأنهم مقدمة على أرضية دين الله. والشيطان إذا دق وتدا له فى هذا الجيل ضمن ثغرة له فى الجدار يدخل منها بالزينة والإغواء فيضل بذلك كثيرا من الناس. وإذا كانت الحجة قد قامت يوم غدير خم. وأن التحذير قد تم على لسان بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله من بعد وفاته. فإن إقامة الحجة بعد النبى بلغت الذروة فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه. وهذه الحجة لا تنفصل عن حجة غدير خم بأى حال من الأحوال. ولكنها جاءت لتخاطب زماما قد تغير ومكانا أوشك على أن يتبعثر. وعندما جاء على بن أبى طالب لم يأت ليخاطب المتقين بل جاء ليفتح أبواب التوبة أمام المنافقين الذين كثروا فى الساحة كما شهد حديث حذيفة وغيره. جاء ليوقف تدفق الفتنة وليفتح صفحات التاريخ لتدون الأحداث التى يقف عندها أصحاب العقول والأفهام لينجو العالم بعلمه. ولقد علمنا أن التعامل مع النفاق يخضع لفقه خاص لا يلم به كثير من الناس. والفقيه فى هذا المجال لا يقوم بتعيينه سلطان أو أمير لأن هؤلاء لا يعلمون خفايا الأمور وإنما الفقيه هنا لا بد أن يحدده نص. وليس معنى هذا أن الفقيه بهذا التحديد يكون قد علم ما تخفيه الصدور، فالقول بهذا قول سقيم لتفكير غير مستقيم. وإنما الفقيه هنا هو الذى يضع سياسته على قوائم الإسلام. أى يقيم سياسته على القرآن ونصوص الدين بشكل شامل ويتعامل مع المستجدات بالبحث عن الجوهر فيها ثم يطابقه على الجوهر الأزلى فى الإسلام. ولا يقوم بذلك إلا فقيه راسخ فى العلم. ولما كان المنافق فى الأساس كارها للإسلام ونظامه. فإنه يشع بعمله تحت عين الفقيه الراسخ فى العلم والذى عليه نص بأن لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق. لهذا كان التعامل مع النفاق يحتاج إلى فقه خاص. وفى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كان النبى يتعامل مع المنافقين وفقا لحركة الدعوة وكان يجاهدهم وفقا لمطالبها. وكان يفتح لهم أبواب التوبة وفقا لشروط خاصة. وبعد وفاته صلى الله عليه وآله

[صفحه ۴۵۳]

وسلم. كانت حجة الله على المنافقين يرفعها على بن أبى طالب الذى رفضوه فى أول الأمر. ولنتدبر هذه الآيات الكريمة التى أمرت

وحذرت وفتحت الأبواب أمام النفاق فی عهد الرسول ومن بعده فی أیام علی بن أبی طالب لأنه علیه نص بأنه یقاتل علی التأویل وأن علی صفحته یکشف النفاق. قال تعالی: (یا أیها الذین آمنوا لا تتخذوا الکافرین أولیاء من دون المؤمنین أتریدون أن تجعلوا لله علیکم سلطانا مبینا - إن المنافقین فی الدرک الأسفل من النار ولن تجد لهم نصیرا - إلا الذین تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دینهم لله فأولئک مع المؤمنین وسوف یؤت الله المؤمنین أجرا عظیما) [۷] .

قال ابن کثیر: ینهی الله تعالی عباده المؤمنین عن اتخاذ الکافرین أولیاء من دون المؤمنین. یعنی: مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إلیهم وإفشاء أحوال المؤمنین الباطنة إلیهم قال تعالی: (لا یتخذ المؤمنون الکافرین أولیاء من دون المؤمنین ومن یفعل ذلک فلیس من الله فی شئ إلا أن تتقوا منهم تقاة ویحذرکم الله نفسه) [۸] ، أی یحذرکم عقوبته فی ارتکابکم نهیه ولهذا قال ههنا (أتریدون أن تجعلوا لله علیکم سلطانا مبینا) أی حجة علیکم فی عقوبته إیاکم [۹] ، وبعد هذه المقدمة أخبر تعالی عن المنافقین فقال سبحانه: (إن المنافقین فی الدرک الأسفل من النار ولن تجد لهم نصیرا) أی یسکنهم فی أسفل درک من النار ویقطع بینهم وبین کل نصیر ینصرهم وشفیع یشفع لهم. وهذا یتفق مع حدیث الورود علی الحوض. الذی یقال فیه لبعض الصحابة: سحقا سحقا أی مکانا بعیدا لیس فیه ناصر ولا شفیع. ولقد بینا فی هذا البحث أن علی بن أبی طالب سیکون مع النبی عند الحوض وهو الذی سیقول: إنک لا تدری ما أحدثوا بعدک. وبعد أن أخبرت الآیات عن مکان المنافقین یوم القیامة استثنت الذین تابوا منهم وبینت أن طریق التوبة الخاص بهم له علامات وهو قوله تعالی:

[صفحه ۴۵۴]

(إلا الذین تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دینهم فأولئک مع المؤمنین) فالطریق یبدأ من الخروج من جماعة المنافقین واللحوق بصف المؤمنین. وهذا الخروج لا- یتم إلا- بالتوبة وهی الرجوع إلی الله. ولا ینفع الرجوع والتوبة حتی یصلحوا کل ما فسد منهم من نفس وعمل. ولا- ینفع الاصلاح إلا أن یعتصموا بالله أی یتبعوا کتابه وسنة نبیه صلی الله علیه وآله ولا ینفع الاعتصام إلا إذا أخلصوا دینهم لله وطهروا أنفسهم من بصمات الشرک والظلم قال تعالی: (الذین آمنوا ولم یلبسوا إیمانهم بظلم أولئک لهم الأمن وهم مهتدون) [۱۰] .

فإذا سلکوا هذا الطریق حتی نهایته کانوا مع المؤمنین قال تعالی: (فأولئک مع المؤمنین) ولم یقل: فأولئک من المؤمنین. لأنهم یلحقون بالمؤمنین ما داموا علی طریق التوبة ولن یکونوا منهم حتی تستمر فیهم الأوصاف علی استقرارها. وطریق التوبة فی الجیل الأول لا بد له من سیاسة تظهر الاصلاح وعلی هذا یظهر المؤید والمعارض لسیاسة الاصلاح. وتنادی بالاعتصام بالله وعلی هذا یظهر دعاة القبائلیة والحزبیة وتعمل من أجل إخلاص الدین وعلی هذا یظهر النبلاء الذین کان الدین مصدرا لثروتهم. وبالجملة: لا بد من سیاسة تظهر عورات التأویل الذی وضع فی غیر موضعه. ولما کان هذا التأویل یستند إلی کتاب الله ویقوم به جیل الصحابة فإن هذا یعنی أن هذا التأویل سیکون له امتداد نظرا لأن الذین قالوا به من الذین سمعوا وشاهدوا النبی وهنا یکمن الخطر علی المستقبل. وینتهی الأمر بالاختلاف والافتراق إلی أکثر من سبعین شعبة وإلی التسکع فی طرقات أصحاب أعلام الأدیان السابقة واتباعهم شبرا بشیر وذراعا بذراع. وقبل أن یحدث هذا کانت حجة الله علی جیل الصحابة فی بدایته وفی نهایته لیدون التاریخ ویعلم اللاحق أین موضع السابق. وشاء الله أن یکون الفصل بین الحق والباطل فی هذه الأحداث علی صهیل الخیول وضربات السیوف کی تنطبع الأحداث فی ذاکرة کل منتسب إلی الأمة وتشده شدا إلی البحث عن الحقیقة. ومعارک التأویل

[صفحه ۴۵۵]

خاضها الإمام علی بن أبی طالب الذی شاء الله أن یجعله فی المقدمة بعد وفاة الرسول الأعظم لیری الله کیف یعملون وفقا لدائرة اختیارهم. ولعلمه سبحانه بأن الاختلاف واقع لا محالة أحاط سبحانه النبی بالعلم وبین له مواطن الاختلاف والفتن من بعده. وکان فوق کل موطن من المواطن حجة کأبی ذر والمقداد وسلمان وعمار وأویس وجندب وزید وغیرهم. وآخر هؤلاء جاء الفقیه الزاهد العالم

إمام المتقین علی بن أبی طالب لیواجه دائرهٔ النبلاء التی أخذت شرعیتها من تأویل وضع فی غیر موضعه. وکان هذا لطفا من الله کی یشع الماضی أمام الحاضر لینتقل إلی المستقبل. لقد جاء علی فی خاتمهٔ عصر الصحابهٔ القادهٔ. لیفتح أبواب التوبهٔ کی یتنفس المستقبل الأمان ولا یحدث الاختلاف ولا تخرج الفرق التی تستمد وقودها من عهود قبل معارک التأویل أو من عهود ما بعد معارک التأویل. جاء علی لیدخلهم تحت رایهٔ واحدهٔ لتشق الدعوهٔ طریقها وتسوق الناس إلی صراط العزیز الحمید. ولیجد المستقبل أن ماضیه لا خلاف فیه. جاء لیفتح أبواب الشکر والإیمان فی عالم اکتناز الذهب والفضهٔ وکأنه یتلوا قوله تعالی: (ما یفعل الله بعذابکم إن شکرتم وآمنتم وکان الله شاکرا علیما) [۱۱] ولکننا سنری

ماذا ترتب علی فتح هذه الأبواب. وهل المعارک التی دارت کانت من أجل قمیص عثمان. أم أن هذا القمیص کان کقمیص یوسف الذی حمله أبناء یعقوب إلی أبیهم لیخفوا به مقاصدهم التی بدأوها بالحسد وانتهوا بجریمهٔ تغیب یوسف فی أعماق الجب لیخلو لهم مرکز الصدارهٔ عند أبیهم؟ أم أن هذه المعارک خاضها طرف من أجل الدفاع عن تأویل حق بینما خاضها أطراف أخری لوقف التأویل الحق نظرا لأن وجوده سیکشف ما ضاع من روایهٔ وسیطیح بنبالهٔ قریش؟ وعلی أی حال فإن ما بین أیدینا من حدیث یثبت أن المعارک التی دارت کانت من أجل التأویل وهذا یعری حملهٔ القمصان ویثبت أن القمیص ما کان إلا شعارا أجوفا حملته الوصول إلی أهداف أخری، روی الإمام أحمد عن النبی صلی الله علیه

[صفحه ۴۵۶]

وسلم أنه قال: فیکم من یقاتل علی تأویل القرآن کما قاتلت علی تنزیله [" ۱۲] ، قالوا: من؟ قال: خاصف النعل وکان أعطی علیا نعا یخصفها [۱۳] ، وعن علی قال ": عهد إلی رسول الله صلی الله علیه وسلم فی قتال الناکثین والقاسطین والمارقین [" ۱۴] ، قال فی لسان العرب: ومنه حدیث علی ": أمرت بقتال الناکثین والقاسطین والمارقین " الناکثون أهل الجمل والنکث نقض العهد. وأهل الجمل کانوا قد بایعوه ثم نقضوا بیعته وقاتلوه. والقاسطون أهل صفین لأنهم جاروا فی الحکم وبغوا علیه. والمارقون الخوارج لأنهم مرقوا من الدین لغلوهم فیه [۱۵] ، والآن هل رأیت للقمیص مکانا فی نصوص رسول الله؟ أم أنک رأیت نقضا للعهد وجورا فی الحکم وبغیا علی الحجهٔ ومروقا من الدین؟ وجمیع ذلک مرجعه إلی تأویل وضع فی غیر موضعه وأهواء وآراء تصب فی وعاء المطامع ومن أجل هذا کان ظهور الحجهٔ فی نهایهٔ عصر الصحابهٔ القادهٔ له حکمهٔ ومن وراء الحکمهٔ هدف.

[۱] البخاری (الصحیح ۴:۲۳۰).

[۲] البخاری (الصحیح ۴:۲۳۰).

[۳] ابن أبی الحدید ۱:۲۴۰.

[۴] رواه أبو داود حدیث رقم ۴۳۲۳.

[۵] عون المعبود ۱۱:۵۰۱.

[۶] رواه أبو داوود وأبو نعیم والرافعی (کنز العمال ۱۵۰، ۱۰:۱۷۸).

[۷] سورهٔ النساء: الآیهٔ ۱۴۴ – ۱۴۶.

[۸] سورهٔ آل عمران: الآیهٔ ۲۸.

[۹] تفسیر ابن کثیر ۱:۵۷۰.

[۱۰] سورهٔ الأنعام: الآیهٔ ۸۲.

[۱۱] سورهٔ النساء: الآیهٔ ۱۴۷.

[۱۲] رواه أحمد وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۶:۲۴۴) والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۳:۱۲۳).

[۱۳] رواه أبو یعلی ورجاله رجال الصحیح، قال الهیثمی (الزوائد ۵:۱۸۶).

[۱۴] رواه البزار وقال الهيثمى رجاله ثقات (الزوائد ۲۳۸:۷).

[۱۵] لسان العرب مادة نكث ص ۴۵۳۶، ومادة قسط ص ۳۶۲۷، ومادة مرق ۴۱۸۵.

النداء الحق

بعد دفن عثمان تحرك الناس فى اتجاه على بن أبى طالب ليبايعوه [۱] منهم من رأى فيه الزهد فيما بين يدى الناس وسوف يتعامل مع الذهب والفضة تعامل العابد الزاهد العادل. ومنهم من وجد فيه الأمانة فى النصح لعثمان ومعارضيه على امتداد عصر الأزمات. ومنهم من تذكر الأيام الأولى وعلم أنه لا سبيل إلى الاصلاح إلا بالعودة إلى الأمر الأول. ومنهم من كان يعلم حقيقة الأحداث ولم ينسها يوما وعندما جاء أوان الظهور لم يكن فى حاجة إلى بيعة لأنه كان قد بايع

[صفحه ۴۵۷]

بقلبه من قبل. والذى يستحق التسجيل هنا. أنه قبل أن تتم مبايعة أمير المؤمنين على بن أبى طالب هرول الناس إلى أكابر الصحابة يسألونهم بماذا ينصحون؟ وعلى سبيل المثال قال عبد الله بن بديل لأم المؤمنين عائشة عندما خرجت الثورة على عثمان: ما تأمرنى؟ فقالت: الزم عليا!! [۲] ، ولقد ذكرها ابن بديل بهذا الحديث بعد هزيمتها يوم الجمل فسكتت. ولم تكن أم المؤمنين وحدها التى نصحت بذلك. فكثير من الناس كانوا يتدافعون على حذيفة صاحب سر رسول الله ليعرفوا رأيه فى الأحداث لأن حذيفة كان يقول: والله إنى لأعلم الناس بكل فتنة هى كائنة فيما بينى وبين الساعة [۳] ، وقال: قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لأنا لفتنة بعضكم أخوف عندى من فتنة الدجال. ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال [" ۴] ، أى أن البداية لا تصيب إلا فى نهايتها فالشر فى الشر والخير فى الخير. وروى بسند صحيح " لما قتل عثمان قالوا لحذيفة: يا أبا عبد الله قتل هذا الرجل وقد اختلف الناس فما تقول؟ قال: سندونى. فسندوه إلى ظهر رجل فقال حذيفة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أبو اليقظان على الفطرة لا يدعها حتى يموت [۵] وفى رواية: آمركم أن تلزموا عمارا قالوا: إن عمارا لا يفارق عليا!! قال: إن الحسد هو أهلك الجسد وإنما ينفركم من عمار قربه من على فوالله لعلى أفضل من عمار أبعد ما بين التراب والسحاب وإن عمارا لمن الأحباب. وهو يعلم أنهم إن لزموا عمارا كانوا مع على [" ۶] من

الواضح هنا أن سياسة اللاروايه كانت قد بلغت منتهاها. فهؤلاء القوم لم يكن

[صفحه ۴۵۸]

فى ذاكرتهم أى منقبة لأهل البيت وربما كان فى ذاكرتهم تشويش على أهل البيت ويظهر هذا فى قولهم إن عمارا لا يفارق عليا. وحذيفة قد فطن لهذا الأمر برده الجامع الشامل. ولم يكن هؤلاء فقط الذين ذهبوا إلى حذيفة ولكن هناك آخرين ذهبوا إلى حذيفة فقال لهم: انظروا إلى الفرقة التى تدعو إلى أمر على فالزموها فإنها على الهدى [۷] ومما يذكر أن حذيفة كان بالكوفة عند مبايعة الناس لعلى،

وعندما علم بمبايعة الناس قال: أخرجونى وادعوا الصلاة جامعة. فوضع على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى وآله ثم قال: أيها الناس. إن الناس قد بايعوا عليا فعليكم بتقوى الله وانصروا عليا ووازروه فوالله إنه لعلى الحق آخرا وأولا وإنه لخير من مضى بعد نبيكم ومن بقى إلى يوم القيامة – ثم أطبق يمينه على يساره ثم قال: اللهم اشهد أنى قد بايعت عليا. الحمد الله الذى أبقانى إلى هذا اليوم. ثم قال لابنيه صفوان وسعيد احملانى وكونا معه فستكون له حروب كثيرة فيهلك فيها خلق من الناس. فاجتهدوا أن تستشهدا معه فإنه والله على الحق ومن خالفه على باطل. ومات حذيفة بعد هذا اليوم بسبعة أيام [۸] وقال صاحب فتح البارى: بايع حذيفة لعلى وكان حريصا على المبايعة له والقيام فى نصره [۹] وقال ابن الأثير: قتل ابناه صفوان وسعيد مع على بصفين بوصية أبيهما [۱۰] .

ولم يكتف حذيفة رضى الله عنه بندائه وهو مريض. وإنما أطلقه أيضا عند الموت، فعن بلال بن يحيى قال: لما حضر حذيفة الموت

قال لنا: أوصيكم بتقوى الله والطاعة لأمير المؤمنين على بن أبى طالب [۱۱] ، وأغمض حذيفة عينيه فى هدوء وصعدت روحه إلى بارئها. ولقد ترك لنا رواياته فى الفتن وغيرها والتى بدونها ما كان الباحث أن يصل إلى الحقيقة بسهولة ويسر. فجزاه الله عنا خير الجزاء. وبعد رحيل حذيفة لم يقف النداء. فكما سمعه أهل العراق سمعه

[صفحه ۴۵۹]

أيضا أهل المدينة وما حولها. لقد كان أبو سعيد الخدرى يقول. قال النبى صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: الموفون الطيبون إن الله يحب الخفى التقى. ومر على بن أبى طالب فقال النبى: الحق مع ذا الحق مع ذا [" ۱۲] ، وكان أبو ليلى الغفارى يقول قال النبى صلى الله عليه وسلم: سيكون بعدى فتنة فإذا كان فالزموا على بن أبى طالب فإنه الفاروق بين الحق والباطل [۱۳] ، وزاد فى رواية ": وهو يعسوب المؤمنين والمال يعسوب المنافقين [۱۴] ، وكان كعب بن عجرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يكون بين الناس فرقة واختلاف فيكون هذا وأصحابه على الحق - يعنى عليا [۱۵] وهكذا أقيمت الحجة بالنداء.

[۱] رواه الحاكم.

[۲] أخرجه ابن أبى شيبة بسند جيد (فتح البارى ۵۷:۱۳).

[۳] رواه مسلم (الصحيح ۱۵:۱۸) ك الفتن.

[۴] رواه أحمد والبزار ورجال رجال الصحيح (الزوائد ۳۳۵:۷).

[۵] رواه البزار والطبرانى فى الأوسط باختصار ورجالهما ثقات (الزوائد ۲۹۵:۹).

[۶] رواه الطبرانى ورجاله ثقات (الزوائد ۲۴۳:۷).

[۷] رواه البزار ورجاله ثقات (الزوائد ۲۳۶:۷)، وفتح البارى ۵۵:۱۳.

[۸] مروج الذهب / المسعودى ۳۹۴:۲.

[۹] فتح البارى / ابن حجر ۴۰:۱۳.

[۱۰] الكامل ۱۴۷:۳، مروج الذهب ۴۲۵:۲.

[۱۱] رواه الحاكم (المستدرك ۳۸۰:۳).

[۱۲] رواه أبو يعلى ورجاله ثقات (الزوائد ۲۳۵:۷).

[۱۳] رواه أبو نعيم (كنز العمال ۶۱۲:۱۱).

[۱۴] الإصابة ۱۶۷:۷.

[۱۵] رواه الطبرانى (كنز العمال ۶۲۱:۱۱).

الظهور

عندما جاء الناس إلى على بن أبى طالب ليبايعوه. كان على يعلم أن من

أمامه أياما عصيبة. فالنبى عهد إليه بقتال الناكثين أولا. وهذا يعنى أن بين الذين سيبايعونه من سينقض البيعة ويقاتله. ومن جهة أخرى فإنه أكثر الذين سيبايعونه لا يعلمون شيئا عن مكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يخوض بهم المعارك وهو لم يسهر على تربيتهم وتدريبهم فى وقت تطفح فيه خزائن الذهب والفضة عند ألد أعداء الدعوة. لقد كان هذا كله شاخصا أمام الإمام على وهم يعرضون عليه أن يبايعوه. وكان عليه أن يبين لهم حقيقة ما يعلمه ولا يعلمونه. ويخبرهم أنه إن أجابهم لما يريدون فإنه مثله لن يتراجع عما عهد إليه من النبى صلى الله عليه وسلم وفى هذه الحالة لن يلتفت إلى قول القائل منهم، ثم يخبرهم. إما أن يقبلوا بهذا أو أن يتركوه ويبحثوا عن غيره. وهذا المعنى كان فيما روى عنه رضى الله عنه أنه قال لهم ": دعونى والتمسوا غيرى

[صفحه ۴۶۰]

فإنا ستقبلون أمرا له وجوه وألوان. لا تقوم له القلوب ولا ثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت والمحجهٔ قد تنكرت. واعلموا إنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزير خير لكم منى أمير [" ۱] .

لقد أخبرهم بأن الأيام فى بطونها كثير فى وقت بهتت فيه الحقيقهٔ ودثرها الغمام فى عالم اللاروايهٔ ثم خيرهم إما أن يجيبهم ويركب بهم ما يعلم وإما أن يتركوه. وهو ما قال هذا إلا لأمرين: أولهما: أن الناس أعداء ما جهلوا [۲] فأراد أن يبين لهم الخطوط الرئيسيهٔ حتى يكونوا على علم بما جهلوا. وثانيهما: أنه أخبرهم بخطهٔ عمله كما أخبر من قبل فى يوم الشورى على عهد عمر. ليكونوا على بينهٔ من أمرهم ويضعهم فى دائرهٔ الاختيار كما وضع غيرهم من قبل. وهذا شأن الحجهٔ فى كل زمان ومكان فالحجهٔ تفتح الأبواب ولا إكراه فى الدين. وهذا فى حد ذاته أسمى معانى الحريهٔ. وقبلت أعداد غفيرهٔ أن يبايعوه على ذلك فقال فيما رواه الطبرى: ففى المسجد فإن بيعتى لا- تكون خفيا ولا- تكون إلا عن رضا المسلمين. فلما دخل المسجد دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه ثم بايعه الناس [۳] ، ولم يتخلف أحد من الأنصار إلا بايع [۴] ، وروى كان أول من بايعه طلحهٔ ثم الزبير [۵] وروى ابن حجر فى فتح البارى: عن الأشتر قال: رأيت طلحهٔ والزبير بايعا عليا طائعين غير مكرهين [۶] .

[صفحه ۴۶۱]

وروى أن الناس عندما بايعوا عليا تربص سبعهٔ نفر فلم يبايعوه منهم سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وصهيب وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمهٔ وسلمهٔ بن وقش وأسامهٔ بن زيد [۷] ، وروى أن عمار بن ياسر قال: يا أمير المؤمنين قد بايعك الناس كافهٔ إلا هؤلاء النفر فلو دعوتهم إلى البيعهٔ كى لا يتخلفوا فى ذلك عن المهاجرين والأنصار. فقال: يا عمار لا حاجهٔ لنا فى من لا يرغب فينا. وعندما قال الأشتر بمثل قول عمار قال الإمام: يا مالك إنى لأعرف بالناس منك دع هؤلاء يعملون برأيهم. وذكر ابن أبى الحديد أن هؤلاء لم يتخلفوا عن البيعهٔ وإنما تخلفوا عن الحرب [۸] ، وروى أن مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عقبهٔ حضروا عند على. فقال الوليد وكان لسان القوم: يا هذا إنك قد وترتنا جميعا. أما أنا فقد قتلت أبى صبرا يوم بدر. وأما سعيد فقد قتلت أباه يوم بدر وكان أبوه ثور قريش. وأما مروان فقد شتمت أباه وعبت على عثمان حين ضمه إليه. وإنا نبايعك على أن تضع عنا ما أصابنا. وتعفى لنا عما فى أيدينا وتقتل قتلهٔ صاحبنا. فغضب على وقال: أما ما ذكرت من وترى إياكم فالحق وتركم وأما وضعى عنكم عما فى أيديكم مما كان لله وللمسلمين فالعدل يسعكم، وأما قتلى قتلهٔ عثمان فلو لزمنى قتلهم اليوم لزمنى قتالهم غدا. ولكن لكم أن أحملكم على كتاب الله وسنهٔ نبيه صلى الله عليه وسلم. فمن ضاق الحق عليه فالباطل عليه أضيق. وإن شئتم فإلحقوا بملاحقكم [۹] ، وروى الطبرى: هرب سعيد والوليد إلى مكهٔ وتبعهم مروان [۱۰] وهرب قوم إلى الشام [۱۱] .

وهكذا تمت البيعهٔ التى لم يكن فيها إكراه. وروى أن الإمام على اشترط

[صفحه ۴۶۲]

أن يكون مفتاح بيت المال معه وأخبرهم بأنه لن يأخذ منه درهما وليس له أمر دونهم. ثم قال: رضيتم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد عليهم ثم بايعهم على ذلك [۱۲] ، وروى عنه أنه قال: حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدى الأمانهٔ. فإذا فعل فحق على الناس أن يسمعوا له وأن يطيعوا وأن يجيبوا إذا دعوا [۱۳] ، وروى عندما بويع الإمام على بن أبى طالب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خزيمهٔ بن ثابت وهو واقف بين يدى المنبر:

فإذا نحن بايعنا عليا فحسبنا++

أبو حسن مما نخاف من الفتن

ووجدناه أولى الناس بالناس إنه++

أطب قریشا بالکتاب وبالسنن

وإن قریشا ما تشق غباره++

إذا ما جزی یوما علی الضمر البدن

وفیه الذین فیهم من الخیر کله++

وما فیهم کل الذی فیه من حسن [۱۴] .

[۱] ابن أبی الحدید ۵۹۷:۲، الطبری باختصار ۱۵۶:۵.

[۲] هذا القول للإمام علی.

[۳] الطبری ۱۵۲:۵.

[۴] الطبری ۱۵۵:۵، البدایة والنهایة ۲۲۷:۷.

[۵] البدایة والنهایة ۲۲۷:۷.

[۶] فتح الباری ۵۴:۱۳.

[۷] الطبری ۱۵۵:۵.

[۸] ابن أبی الحدید ۷۴۶:۱.

[۹] تاریخ الیعقوبی ۱۲۵:۲.

[۱۰] الطبری ۱۵۶:۵، البدایة والنهایة ۲۲۷:۷.

[۱۱] الطبری ۱۵۴:۵، البدایة والنهایة ۲۲۷:۷.

[۱۲] الطبری ۱۵۲:۵.

[۱۳] رواه ابن جریر وابن المنذر وابن أبی حاتم (کنز العمال ۷۶۴:۵).

[۱۴] الحاکم (المستدرک ۱۱۴:۳).

اصلاحات علویة

بدأ أمیر المؤمنین عملیة الاصلاح عقب مبایعته. ولم تکن عملیة الاصلاح

فی محیط الغصون أو الثمار وإنما بدأت من عند الجذور حیث توجد سیاسة تعیین المنافقین وسیاسة عدم الروایة والتصریح بالقص والشعر وإغماض الطرف عن صناعة الخمور وسیاسة الخراج وتأویل الآیات ووضعها فی غیر موضعها واکتناز الذهب والفضة إلی غیر ذلک من سیاسات، ولم تکن عملیة الاصلاح والتغییر عملیة سهلة فلقد برزت العقبات وجاءت موقعة الجمل بسرعة ومن بعدها هبت ریاح هدفها تحطیم کل شئ. ونحن هنا سنلقی الضوء علی بعض التغییرات والإصلاحات ولیتدبر الباحث فی جوهرها.

قرار عزل أمراء الفتن

عندما قتل عثمان خرج النعمان بن بشیر ومعه قمیص عثمان مضمخ

[صفحه ۴۶۳]

بدمه [۱] فورد به علی معاویة فوضعه معاویة علی المنبر لیراه الناس. وندب

الناس إلی الأخذ بهذا الثأر، فتباکی الناس حول المنبر. وأصدر معاویة قرارا بأنه لا یقرب الرجال النساء حتی یأخذوا بثأر عثمان [۲] وذکر ابن کثیر: أن الناس تباکوا حول القمیص سنة واعتزلوا النساء فی هذا العام [۳] وما فعله معاویة یدل علی أنه قد أصر علی البقاء

ولن یرضخ لأی محاولهٔ لعزله. وکان علی قد بعث علی الشام سهیل بن حنیف بدل معاویهٔ. فسار حتی بلغ تبوک فتلقته خیل معاویهٔ فقالوا: من أنت؟ قال: أمیر، قالوا: علی أی شئ، قال: علی الشام، قالوا: إن کان عثمان بعثک فهلا بک وإن کان غیره فارجع. فقال: أوما سمعتم الذی کان - أی هل وصلکم أخبار ما حدث؟! قالوا: بلی، فرجع إلی علی [۴] ، وعندما جاء ابن عباس وکان یؤدی مناسک الحج دخل علی أمیر المؤمنین وقال له: یا أمیر المؤمنین أنا أشیر علیک بأن تثبت معاویهٔ فإن بایع لک فعلی أن أقلعه من منزله. فقال الإمام: لا والله لا أعطیه إلا السیف. ثم تمثل بهذا البیت:

ما میتهٔ إن متها غیر عاجز++

بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقال ابن عباس: یا أمیر المؤمنین أنت رجل شجاع... أما سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول: الحرب خدعهٔ. قال الإمام: بلی یا ابن عباس لست من هنیآتک وهنیآت معاویهٔ فی شئ. تشیر علی وأری. فإذا عصیتک فأطعنی فقال: أفعل إن أیسر ما لک عند الطاعهٔ [۵] ، وکان المغیرهٔ بن شعبهٔ قد قال له قبل ذلک: إنی لک ناصح وإنی أشیر علیک برد عمال عثمان عامک هذا فاکتب إلیهم بإثباتهم علی أعمالهم. فإذا بایعوا لک واطمأن الأمر لک عزلت من أحببت وأقررت من أحببت فقال الإمام: والله لا أدهن فی دینی ولا أعطی الدنی فی أمری. قال المغیرهٔ: فإن کنت قد أبیت علی فانزع من شئت واترک معاویهٔ

[صفحه ۴۶۴]

فإن لمعاویهٔ جرأهٔ وهو فی أهل الشام یسمع منه. ولک حجهٔ فی إثباته کان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام کلها. فقال أمیر المؤمنین: لا والله لا أستعمل معاویهٔ یومین أبدا [۶] - وفی روایهٔ - إذا کان عمر قد مکن له فأنا لن أمکن له أبدا. ولم تکن عملیهٔ عزل جمیع الولاهٔ عملیهٔ سهلهٔ. فعندما فرق أمیر المؤمنین عماله علی الأمصار علی امتداد عام ۳۶ ه کان منهم من یتسلم عمله بهدوء ولکن علی أرضیهٔ افتراق الناس. فرقهٔ مع تیار بنی أمیهٔ وفرقهٔ مع جماعهٔ المسلمین. حدث هذا فی البصرهٔ وفی مصر [۷] ، أما أهل الکوفهٔ فإن الغالبیهٔ العظمی تمسکوا بأمیرهم وأعلنوا بأنهم لا یریدون بأمیرهم بدلا وکتب أبو موسی إلی أمیر المؤمنین بطاعهٔ أهل الکوفهٔ وبیعتهم وبین الکاره منهم للذی کان والراضی بالذی کان [۸] ، وأبو موسی نفسه کان فی مستقر النفس وهو یکتب هذا لأمیر المؤمنین - وسوف نری بعد ذلک. کیف کان یضع العقبات فی طریق أمیر المؤمنین ورأی أمیر المؤمنین وعمار فیه. وکانت بقیهٔ الأمصار فی طاعهٔ أمیر المؤمنین ولکن هذه الطاعهٔ تقف علی أرضیهٔ الخوف من الماضی وطمعا فیما عنده من کنوز. لأنها لا تعرف الحاضر وما حوله من توبهٔ.

[۱] روی ابن أم حبیبهٔ أرسلت القمیص مع النعمان إلی معاویهٔ (مروج الذهب ۲:۳۷۹).

[۲] مروج الذهب.

[۳] البدایهٔ والنهایهٔ ۷:۲۲۸.

[۴] البدایهٔ والنهایهٔ ۷:۲۳۰، الطبری ۵:۱۶۱.

[۵] الطبری ۵:۱۶۱.

[۶] الطبری ۵:۱۶۰.

[۷] الطبری ۵:۱۶۱.

[۸] الطبری ۵:۱۶۲.

قرار التسویهٔ فی الأموال

عن ابن عباس قال: إن علیا خطب فی الیوم الثانی من بیعته بالمدینهٔ فقال:

ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان. وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود فى بيت المال. فإن الحق القديم لا يبطله شئ. ولو وجدته قد تزوج به النساء. وفرق فى البلدان لرددته إلى حاله فإن فى العدل سعة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق. قال ابن أبى الحديد: وتفسير هذا الكلام أن الوالى إذا ضاقت عليه تدبيرات أموره فى العدل. فهى فى الجور أضيق عليه. لأن الجائر فى مظنة أن

[صفحه ۴۶۵]

يمنع ويصد عن جوره [۱] .

وروى أن عليا أمر بكل سلاح وجد لعثمان فى داره مما تقوى به على المسلمين. فقبض. وأمر بقبض نجائب كانت فى داره من إبل الصدقة. فقبضت. وأمر بقبض سيفه ودرعه. وأمر ألا يعرض لسلاح وجد له لم يقاتل به المسلمين وبالكف عن جميع أمواله التى وجدت فى داره وفى غير داره. وأمر أن ترتجع الأموال التى أجاز عثمان حيث أصيب أو أصيب أصحابها. فلما بلغ عمرو بن العاص ذلك. وكان بأيلة من أرض الشام. كتب إلى معاوية: ما كنت صانعا فاصنع. إذ قشرك ابن أبى طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العصا لجاها. وقال الوليد بن عقبة وهو أخو عثمان لأمه وصاحب أبى زبيد النصرانى وهو يذكر قبض على بن أبى طالب نجائب عثمان وسيفه وسلاحه:

بنى هاشم ردوا سلاح ابن أختكم++

ولا تنهبوه لا تحل مناهبه

بنى هاشم كيف الهوادة بيننا++

وعند على درعه ونجائبه

بنى هاشم كيف التودد منكم++

وبز ابن أروى فيكم وحرائبه

بنى هاشم إلا تردوا فإننا++

سواء علينا قاتلاه وسالبه

بنى هاشم إنا وما كان منكم++

كصدع الصفا لا يشعب الصدع شاعبه

قتلتم أخى كيما تكونوا مكانه++

كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

فأجابه عبد الله بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بأبيات طويلة من جملتها:

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم++

أضيع وألقاه لدى الروع صاحبه

وشبهته كسرى وقد كان مثله++

شبيها بكسرى هديه وضرائبه

وكان المنصور إذا أنشد هذا الشعر يقول: لعن الله الوليد. هو الذى فرق بين عبد مناف بهذا الشعر [۲] ، وهكذا بدأ الإمام على تحركه. وهكذا بدأ عمرو بن العاص والوليد تحركهما الأول يريد إشعال النار والثانى يريد أموال

[صفحه ۴۶۶]

كسرى وكرسى كسرى. ولكن الإمام لم يبال بهذا ولا بذاك وبدأ فى إصلاح السياسة الحالية للخراج. فعندما قدم عليه عبد الله بن زمعة وهو من شيعته وطلب منه مالا فقال له الإمام على: إن هذا المال ليس لى ولا لك وإنما هو فئ المسلمين. وجلب أسيافهم فإن

شركتهم فى حربهم.. كان لك مثل حظهم. وإلا فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم [۳] فهنا عادت الحقوق للمقاتلة ولم يعد.

السواد بستانا لقريش. كما عاد التسوية فى العطاء. وعندما عوتب الإمام على التسوية فى العطاء. وعندما عوتب الإمام على التسوية فى العطاء. وتصييره الناس أسوة فى العطاء من غير تفضيل أولى السابقات والشرف على غيرهم. كما كان يحدث من قبل [۴] قال الإمام على: أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ والله لا أطور به ما سمر سمير [۵] وما أم نجم فى السماء

نجما [۶] ولو كان المال لى لسويت بينهم.. فكيف وإنما المال مال الله. ثم

قال الإمام: ألا وإن إعطاء المال فى غير حقه تبذير وإسراف وهو يرفع صاحبه فى الدنيا ويضعه فى الآخرة. ويكرمه فى الناس. ويهينه عند الله. وكم يضع امرؤ ماله فى غير حقه وعند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم. وكان لغيره ودهم. فإن زلت به الفعل يوما فاحتاج إلى معونتهم فشر خليل. وألام خدين [۷] أى: لو

احتاج إليهم يوما عند عثرة يعثرها لم يجدهم [۸] .

وكان أمير المؤمنين يراقب عماله فى الأمصار من ناحية تصرفهم فى الأموال: روى أنه كتب إلى زياد وكان خليفة عامله عبد الله بن عباس على البصرة وكان عبد الله عامل أمير المؤمنين عليها وعلى كور الأهواز وفارس وكرمان وغيرها: وإنى أقسم بالله قسما صادقا. لئن بلغنى أنك خنت من فئ

[صفحه ۴۶۷]

المسلمين شيئا صغيرا أو كبيرا. لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر [۹] ثقيل

الظهر [۱۰] ، ضئيل الأمر [۱۱] ، والسلام [۱۲] ، وروى أنه رضى الله عنه كتب إلى بعض عماله: أما بعد. فقد بلغنى عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك. وعصيت إمامك. وأخزيت أمانتك [۱۳] بلغنى أنك جردت الأرض [۱۴] وأخذت ما

تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك. فارفع إلى حسابك. واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس. والسلام [۱۵] وكتب إلى عامله على أردشير: بلغنى عنك أمر. إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك وعصيت إمامك.. أنك تقسم فئ المسلمين فيمن أعتامك من أعراب قومك. فوالذى فلق الحبة وبرأ النسمة. لئن كان ذلك حقا. لتجدن لك على هوانا. ولتخفن عندى ميزانا. فلا تستهن بحق ربك. ولا تصلح دنياك بمحق دينك. فتكون من الأخسرين أعمالا. ألا وإن حق من قبلك وقبلنا من المسلمين فى قسمة هذا الفئ سواء. يردون عندى عليه ويصدرون [۱۶] والمعنى: أنه نهى عن أن يقسم الفئ على أعراب قومه الذين اتخذوه سيدا ورئيسا. ويحرم المسلمين الذين حازوه بأنفسهم وسلاحهم. وكتب إلى عامله على آذربيجان: وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه فى عنقك أمانة. وأنت سترعى لمن فوقك. ليس لك أن تقتات فى رعية. ولا تخاطر إلا بوثيقة. وفى يدك مال من مال الله عز وجل. وأنت من خزانه حتى تسلمه إلى [" ۱۷] .

[صفحه ۴۶۸]

كان هذا ضوءا على قرارات الإمام على بخصوص الفئ ومنها علمنا أن الذين شاركوا فى الحروب لا تكون حقوقهم لغيرهم. كما علمنا أن الإمام كان يسوى بين الناس فى العطاء. وكان يتعامل مع المال على أنه مال الله. وبنظرة سريعة أيضا على أموال الصدقة نجد أنه كان يتعامل مع هذا المال بدقة شديدة فعامله على الصدقة يتحرك وفقا لأوامر عمودها الفقرى يقوم على الرحمة وعندما تصل الصدقات إلى الإمام فإنه يعطيها لمن أوجبها الله لهم. ومن وصية كان رضى الله عنه يكتبها لمن يستعمله على الصدقات سترى كيف كان يقيم عماد الحق فى صغير الأمور وكبيرها. يقول الإمام فى وصيته: انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له. ولا تروعن [۱۸] مسلما. ولا تجتازن عليه كارها [۱۹] ولا

تأخذ منه أكثر من حق الله فى ماله. فإذا قدمت على الحى فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم [۲۰] ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم

علیهم. ولا- تخدج بالتحیة لهم ثم تقول: عباد الله. أرسلنی إلیکم ولی الله وخلیفتکم لآخذ منکم حق الله فی أموالکم. فهل لله فی أموالکم من حق فتؤدوه إلی ولیه؟ فإن قال قائل: لا. فلا تراجعه. وإن أنعم لک منعم [۲۱] فانطلق معه من غیر أن تخیفه أو توعده، أو تعسفه (ذ) أو ترهقه [۲۲] فخذ ما أعطاک من ذهب أو

فضة. فإن کان له ماشیة أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه. فإن أکثرها له. فإذا أتیتها فلا تدخل علیها دخول متسلط علیه ولا عنیف به. ولا تنفرن بهمة ولا تفز عنها. ولا تسوءن صاحبها فیها [۲۳] واصدع المال صدعین ثم خیره [۲۴] فإذا اختار فلا

[صفحه ۴۶۹]

تعرضن لما اختاره. ثم اصدع الباقی صدعین. ثم خیره. فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره. فلا تزال کذلک حتی یبقی ما فیه وفاء لحق الله فی ماله. فاقبض حق الله منه. فإن استقالک فأقله. ثم اصنع مثل الذی صنعت أولا حتی تأخذ حق الله فی ماله. ولا تأخذن عودا [۲۵] ولا هرمة [۲۶] ولا مکسورة [۲۷] ولا مهلوسة [۲۸] ولا ذات عوار ولا تأمنن علیها إلا من تثق بدینه. رافقا بمال المسلمین حتی یوصله إلی ولیهم فیقسمه بینهم. ولا توکل بها إلا ناصحا شفیقا وأمینا حفیظا. غیر معنف [۲۹] ولا مجحف [۳۰] ولا ملعب [۳۱] ولا متعب. ثم احدر إلینا ما اجتمع عندک. نصیره حیث أمر الله. فإذا أخذها أمینک فأوعز إلیه ألا یحول بین ناقة وبین فصیلها. ولا یمصر لبنها [۳۲] فیضر ذلک بولدها. ولا یجهدنها رکوبا. ولیعدل بین صواحباتها فی ذلک وبینها ولیرفه علی اللاغب. ولیستان بالنقب والظالع [۳۳] ولیوردها ما تمر به من الغدر [۳۴] ولا یعدل بها

عن نبت الأرض إلی جواد الطرق. ولیروحها فی الساعات. ولیمهلها عند النطاف [۳۵] والأعشاب. حتی تأتینا بإذن الله بدنا [۳۶] منقبات [۳۷] غیر متعبات ولا

مجهودات لنقسمها علی کتاب الله وسنة نبیه صلی الله علیه وآله وسلم. فإن ذلک

[صفحه ۴۷۰]

أعظم لأجرک وأقرب لرشدک إن شاء الله [" ۳۸] .

وتقسیم الصدقات علی کتاب الله وسنة نبیه صلی الله علیه وسلم یعنی أن سهم المؤلفة قلوبهم قد وجد له طریقا فی عهد الإمام. والإمام وحده أدری الناس بطبیعة من حوله.

[۱] ابن أبی الحدید ۱:۲۲۰.

[۲] ابن أبی الحدید ۱:۲۲۰.

[۳] ابن أبی الحدید ۴:۷۲.

[۴] راجع کتاب سیرة عمر لابن الجوزی، ابن أبی الحدید ۳:۴.

[۵] أی ما أقام الدهر وما بقی.

[۶] أی قصد وتقدم لأن النجوم تتبع بعضها بعضا.

[۷] الخدین / الصدیق.

[۸] ابن أبی الحدید ۳:۳.

[۹] أی أفقرک بأخذ ما احتجت من بیت مال المسلمین.

[۱۰] أی مسکین لا تقدر علی مؤونة عیالک.

[۱۱] أی حقیر لأنک إذا افتقرت صغرت عند الناس.

[۱۲] ابن أبی الحدید ۴:۵۶۸.

[۱۳] أی أذللتها وأهنتها.

[۱۴] أى قشرتها.

[۱۵] ابن أبى الحديد ۴:۷۹۲.

[۱۶] ابن أبى الحديد ۴:۸۰۱.

[۱۷] ابن أبى الحديد ۴:۳۰۹.

[۱۸] أى لا تفر عن.

[۱۹] أى لا تمرن ببيوت أحد من المسلمين يكره مرورك.

[۲۰] وذلك لأن الغريب يحمد منه الانقباض.

[۲۱] أى قال لك نعم.

[۲۲] أى لا تكلفه العسر والمشقة.

[۲۳] أى لا تغموه ولا تحزنوه.

[۲۴] أى شقه نصفين ثم خيره.

[۲۵] العود / المسن من الإبل.

[۲۶] المسنة أيضا.

[۲۷] التى إحدى قوائمها مكسورة.

[۲۸] المريضة.

[۲۹] المعنف / ضد الرفق.

[۳۰] الذى يسوق المال سوقا عنيفا فيهلكه.

[۳۱] متعب.

[۳۲] حلب ما فى الضرع جميعا.

[۳۳] أى الذى غمز فى مشيه.

[۳۴] جمع غدير الماء.

[۳۵] الماء الصافى القليل.

[۳۶] أى السمان.

[۳۷] أى ذوات شحم ولحم.

[۳۸] ابن أبى الحديد ۴:۵۷۸.

قرارات قيادية

لم تكن مهمة الإمام محصورة فى بيت المال لأنه حجة والحجة لها دعوة

ونحن سنسلط ضوءا على بعض رسائله إلى عماله لنرتشف رحيق الدعوة من خلالها. كتب إلى عامله صاحب جند حلوان: أما بعد. فإن الوالى إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيرا من العدل. فليكن أمر الناس عندك فى الحق سواء. فإنه ليس فى الجور عوض من العدل. فاجتنب ما تنكر أمثاله. وابتذل نفسك فيما افترض الله عليك. راجيا ثوابه. ومتخوفا عقابه. واعلم أن الدنيا دار بلية لم يفرغ صاحبها فيها قط ساعة إلا كانت فرغته عليه حسرة يوم القيامة وإنه لن يغنيك عن الحق شئ أبدا. ومن الحق عليك حفظ نفسك. والاحتساب على الرعية بجهدك. فإن الذى يصل إليك من ذلك أفضل من الذى يصل بك. والسلام [۱] .

لقد بين له أنه إذا اختلف هوى الوالى منعه كثيرا من الحق. لأنه متى لم يكن الخصمان عند الوالى سواء فى الحق جار وظلم. وفى النهايهٔ ذكره بالآخرهٔ، ومن كتاب له رضى الله عنه إلى الحارث الهمدانى وكان أحد الفقهاء قال: تمسك بحبل القرآن واستنصحه وأحل حلاله. وحرم حرامه. وصدق بما سلف من الحق. واعتبر بما مضى من الدنيا لما بقى منها. فإن بعضها يشبه بعضا. وآخرها لاحق بأولها. وكلها حائل مفارق. وعظم اسم الله أن تذكره إلا على حق. وأكثر ذكر الموت وما بعد الموت ولا تتمن الموت إلا بشرط وثيق. واحذر كل عمل

[صفحه ۴۷۱]

يرضاه صاحبه لنفسه. ويكرهه لعامهٔ المسلمين. واحذر كل عمل يعمل به فى السر. ويستحى منه فى العلانيهٔ. واحذر كل عمل إذا سئل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه. ولا تجعل عرضك غرضا لنبال القوم. ولا تحدث الناس بكل ما سمعت به. فكفى بذلك كذبا. ولا ترد على الناس كل ما حدثوك به. فكفى بذلك جهلا. واكظم الغيظ واحلم عند الغضب. وتجاوز عند المقدرهٔ. واصفح مع الدولهٔ تكن لك العاقبهٔ. واستصلح كل نعمهٔ أنعمها الله عليك. ولا تضيعن نعمهٔ من نعم الله عندك. ولير عليك أثر ما أنعم الله به عليك [۲] ، ومن كتابا له إلى عامله على مكهٔ [۳] قال: أما بعد. فأقم للناس الحج، وذكرهم بأيام الله. واجلس لهم العصرين. فأفت المستفتى وعلم الجاهل. وذكر العالم. ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك ولا حاجب إلا وجهك. ولا تحجبن ذا حاجهٔ عن لقائك بها. فإنها إذا ذيدت عن أبوابك فى أول وردها. لم تحمد فيما بعد على قضائها. وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوى العيال والمجاعهٔ. مصيبا به مواضع المفاقر والخلات. وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا. ومر أهل مكهٔ ألا يأخذوا من ساكن أجرا. فإن الله سبحانه يقول: (سواء العاكف فيه والباد) فالعاكف: المقيم به. والبادى: الذى يحج إليه من غير أهله. وفقنا الله وإياكم لمحابه والسلام [" ۴] .

ولما كنا قد سلطنا الضوء هنا على بعض وصايا الأيام على لعماله فإننا نرى أنه لا ينبغى لنا أن ننهى هذا الضوء إلا بعد أن نسلطه على كتاب الإمام إلى مالك الأشتر لما ولاه مصر. وهذا الكتاب وضع موضع العنايهٔ منذ أقدم العصور إلى يوم الناس هذا عند الكثير من رجال العلم. وأعلام الأدب. وأساتذهٔ القانون. فلقد تناولوه درسا وبحثا. وأوسعوه شرحا وتعليقا. وأفردوا فيه المؤلفات، وترجموه إلى بعض اللغات [۵] وكتاب أمير المؤمنين إلى مالك

[صفحه ۴۷۲]

الأشتر يعتبر عهدا جامعا شاملا وهو أطول عهد. ولطوله سنورد فقرات منه ومن أراد أن يقف على الخطاب بطوله فعليه بالمطولات. قال الإمام بعد أن أمر بتقوى الله وإيثار طاعته واتباع ما أمر به فى كتابه من فرائضه وسننه:... وأشعر قلبك الرحمهٔ [۶] للرعيهٔ. والمحبهٔ لهم. واللطف بهم. ولا تكن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم. فإنهم صنفان: إما أخ لك فى الدين. وإما نظير لك فى الخلق [۷] يفرط منهم الزلل. وتعرض لهم العلل. ويؤتى على أيديهم فى العمد

والخطأ. فاعطهم من عفوك وصفحك. مثل الذى تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه. فإنك فوقهم. ووالى الأمر عليك فوقك. والله فوق من ولاك. وقد استكفاك أمرهم. وابتلاك بهم. ولا تنصبن نفسك لحرب الله [۸] .

فإنه لا يدى لك بنقمته. ولا غنى بك عن عفوه ورحمته. ولا تندمن على عفو. ولا يتبجحن بعقوبهٔ. ولا تسرعن إلى بادرهٔ وجدت عنها مندوحهٔ. ولا تقولن إنى مؤمر آمر فأطاع [۹] فإن ذاك إدغال [۱۰] فى القلب. ومنهكهٔ للدين [۱۱] وتقرب

من الغير. وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبههٔ أو مخيلهٔ. فانظر إلى عظم ملك الله فوقك. وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك. فإن ذلك يطامن إليك طماحك. ويكف عنك من غربك [۱۲] ويفئ إليك بما عزب عنك

من عقلك. إياك ومساماهٔ الله فى عظمته [۱۳] والتشبه به فى جبروته. فإن الله يذل

كل جبار ويهين كل مختال. أنصف الله [۱۴] وأنصف الناس من نفسك. ومن

[صفحه ۴۷۳]

خاصة أهلك. ومن لك هوى فيه من رعيتك. فإنك إلا تفعل تظلم. ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده. ومن خاصمه الله أدحض حجته. وكان لله حربا حتى ينزع أو يتوب. وليس شئ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم. فإن الله يسمع دعوة المضطهدين. وهو للظالمين بالمرصاد. وليكن أحب الأمور إليك أوسطها فى الحق. وأعمها فى العدل. وأجمعها لرضا الرعية. فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة. وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة. قال ابن أبى الحديد: قال له: أنصف الناس من نفسك ومن ولدك وخاصة أهلك ومن تحبه وتميل إليه من رعيتك فحتى لم تفعل ذلك كنت ظالما. ثم قال الإمام: وليكن أبعد رعيتك منك. وأشنأهم عندك أطلبهم لمعايب الناس. فإن فى الناس عيوبا الوالى أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك منها. فإنما عليك تطهير ما ظهر لك. والله يحكم على ما غاب عنك. فاستر العورة ما استطعت. يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك. أطلق عن الناس عقدة كل حقد. واقطع عنك سبب كل وتر. وتغاب عن كل ما لا يضح لك. ولا تعجلن إلى تصديق ساع. فإن الساعى غاش وإن تشبه بالناصحين. ولا تدخلن فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل. ويعدك الفقر. ولا جبانا يضعفك عن الأمور. ولا حريصا يزين لك الشره بالجور. فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله. إن شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيرا. ومن شركهم فى الآثام فلا يكن لك بطانة. فإنهم أعوان الأئمة. وإخوان الظلمة. وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم. وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم وآثامهم. ممن لم يعاون ظالما على ظلمه. ولا- آثما على إثمه. أولئك أخف عليك مؤونة وأحسن لك معونة. وأحنى عليك عطفا. وأقل لغيرك إلفا. فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك. ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك. وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه. واقعا ذلك من هواك

[صفحه ۴۷۴]

حيث وقع. قال ابن أبى الحديد: نهاه رضى الله عنه أن يتخذ بطانة قد كانوا من قبل بطانة للظلمة. وذلك لأن الظلم وتحسينه قد صار ملكة ثابتة فى أنفسهم. فبعيد أن يمكنهم الخلو منها إذ قد صارت كالخلق الغريزى اللازم لتكرارها وصيرورتها عادة. فقد جاءت النصوص فى الكتاب والسنة بتحريم معاونة الظلمة ومساعدتهم وتحريم الاستعانة بهم. فإن من استعان بهم كان معينا لهم قال تعالى: (وما كنت متخذ المضلين عضدا) [۱۵] ، وقال: (لا- تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) [۱۶] ، ثم يقول الإمام فى كتابه ": والصق بأهل الورع والصدق. ثم رضهم على ألا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله. فإن كثرة الاطراء تحدث الزهو. وتدنى من العزة. ولا يكونن المحسن والمسئ عندك بمنزلة سواء. فإن فى ذلك تزهيدا لأهل الاحسان فى الاحسان. وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءة. وألزم كلا- منهم ما ألزم نفسه. واعلم أنه ليس شئ بأدعى إلى حسن ظن وال برعيته من إحسانه إليهم. وتخفيفه المؤونات عليهم. وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم. فليكن منك فى ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك. فإن حسن الظن يقطع عنك نصبا طويلا. وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده... واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا- ببعض. ولا- غنى ببعضها عن بعض. فمنها جنود الله. ومنها كتاب العامة والخاصة. ومنها قضاة العدل. ومنها عمال الإنصاف والرفق. ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس. ومنها التجار وأهل الصناعات. ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجات والمسكنة. وكل قد سمى الله له سهمه. ووضع على حده وفريضته فى كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهدا منه عندنا محفوظا. فالجنود بإذن الله حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمن.

[صفحه ۴۷۵]

وليس تقوم الرعية إلا بهم. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقوون به على جهاد عدوهم. ويعتمدون عليه فيما يصلحهم. ويكون من وراء حاجتهم. ثم لا- قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاء والعمال والكتاب، لما يحكمون من المعاقد. ويجمعون من المنافع. ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها. ولا- قوام لهم جميعا إلا- بالتجار وذوى الصناعات. فيما

یجتمعون علیه من مرافقتهم. ویقیمونه من أسواقهم. ویکفونهم من الترفق بأیدیهم مما لا یبلغه رفق غیرهم. ثم الطبقهٔ السفلی من أهل الحاجهٔ والمسکنهٔ. الذین یحق رفدهم ومعونتهم. وفی الله لکل سعهٔ. ولکل علی الوالی حق بقدر ما یصلحه. ولیس یخرج الوالی من حقیقهٔ ما ألزمه الله تعالی من ذلک. إلا بالاهتمام والاستعانهٔ بالله. وتوطین نفسه علی لزوم الحق والصبر علیه فیما خف علیه أو ثقل. فول من جنودک أنصحهم فی نفسک لله ولرسوله ولإمامک. وأطهرهم جنبا. وأفضلهم حلما. ممن یبطئ عن الغضب. ویستریح إلی العذر. ویرأف بالضعفاء [۱۷].

وینبو علی الأقویاء [۱۸] وممن لا یثیره العنف [۱۹] ولا یقعد به الضعف [۲۰] ثم

الصق بذوی المروءات والأحساب. وأهل البیوتات الصالحهٔ. والسوابق الحسنهٔ. ثم أهل النجدهٔ والشجاعهٔ. والسخاء والسماحهٔ. فإنهم جماع من الکرم. وشعب من العرف. ثم تفقد من أمورهم ما یتفقد الوالدان من ولدهما. ولا یتفاقمن فی نفسک شئ قویتهم به. ولا تحقرن لطفا تعاهدتهم به وإن قل. فإنه داعیهٔ لهم إلی بذل النصیحهٔ لک. وحسن الظن بک. ولا تدع تفقد لطیف أمورهم اتکالا علی جسیمها. فإن للیسیر من لطفک موضعا ینتفعون به. وللجسیم موقعا لا یستغنون عنه. ولیکن أثر رؤوس جندک عندک من واساهم فی معونته. وأفضل علیهم من جدته. بما یسعهم ویسمع من وراءهم من خلوف

[صفحه ۴۷۶]

أهلیهم [۲۱] حتی یکون همهم هما واحدا فی جهاد العدو. فإن عطفک علیهم

یعطف قلوبهم علیک. ولا تصح نصیحتهم إلا بحیطتهم علی ولاهٔ أمورهم. وقلهٔ استثقال دولهم [۲۲] وترک استبطاء انقطاع مدتهم. فافسح فی آمالهم. وواصل من

حسن الثناء علیهم. وتعدید من أبلی ذوی البلاء منهم. فإن کثرهٔ الذکر لحسن فعالهم تهز الشجاع. وتحرض الناکل. إن شاء الله. ثم عرف لکل امرئ منهم ما أبلی. ولا تضمن بلاء امرئ إلی غیره [۲۳] ولا تقصرن به دون غایهٔ بلائه. ولا

یدعونک شرف امرئ إلی أن تعظم من بلائه ما کان صغیرا. ولا ضعهٔ امرئ إلی أن تستصغر من بلائه ما کان عظیما. واردد إلی الله ورسوله ما یضلعک من الخطوب. ویشتبه علیک من الأمور. فقد قال تعالی لقوم أحب إرشادهم: (یا أیها الذین آمنوا أطیعوا الله وأطیعوا الرسول وأولی الأمر منکم فإن تنازعتم فی شئ فردوه إلی الله والرسول)، فالرد إلی الله الأخذ بمحکم کتابه. والرد إلی الرسول الأخذ بسنته الجامعهٔ غیر المفرقهٔ. ثم اختر للحکم بین الناس أفضل رعیتک فی نفسک. ممن لا تضیق به الأمور. ولا تمحکه الخصوم [۲۴] ولا یتمادی فی الزلهٔ [۲۵] ولا یحرص من

الفئ إلی الحق إذا عرفه [۲۶] ولا تشرف نفسه علی طمع [۲۷] ولا یکتفی بأدنی

منهم دون أقصاه [۲۸] وأوقفهم فی الشبهات. وآخذهم بالحجج. وأقلهم تبرما

[صفحه ۴۷۷]

بمراجعهٔ الخصم [۲۹] وأصبرهم علی کشف الأمور. وأصرمهم [۳۰] عند إیضاح

الحکم. ممن لا یزدهیه إطراء. ولا یستمیله إغراء. وأولئک قلیل. ثم أکثر تعاهد قضائه. وأفسح له فی البذل ما یزیح علته. وتقل معه حاجته إلی الناس. وأعطه من المنزلهٔ لدیک ما لا یطمع فیه غیره من خاصتک. لیأمن بذلک اغتیاب الرجال له عندک. فانظر فی ذلک نظرا بلیغا. فإن هذا الدین قد کان أسیرا فی أیدی أشرار [۳۱] یعمل فیه بالهوی وتطلب به الدنیا. ثم انظر فی أمور عمالک.

فاستعملهم اختبارا. ولا تولهم محاباهٔ وأثرهٔ. فإنهما جماع من شعب الجور والخیانهٔ. وتوخ منهم أهل التجربهٔ والحیاء من أهل البیوتات الصالحهٔ. والقدم فی الإسلام المتقدمهٔ. فإنهم أکرم أخلاقا. وأصح أعراضا. وأقل فی المطامع إشرافا. وأبلغ فی عواقب الأمور نظرا. ثم أسبغ علیهم الأرزاق. فإن ذلک قوهٔ لهم علی استصلاح أنفسهم. وغنی لهم عن تناول ما تحت أیدیهم. وحجهٔ علیهم إن خالفوا أمرک. أو ثلموا أمانتک. ثم تفقد أعمالهم. وابعث العیون من أهل الصدق والوفاء علیهم. فإن تعاهدک فی السر لأمورهم حدوهٔ لهم علی

استعمال الأمانة. والرفق بالرعية. وتحفظ من الأعوان. فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتملت بها عليه عندك أخبار عيونك. اكتفيت بذلك شاهدا. فبسطت عليه العقوبة فى بدنه. وأخذته بما أصاب من عمله. ثم نصبته بمقام الذلة. ووسمته بالخيانة. وقلدته عار التهمة. وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله. فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم. ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم. لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج. لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد. وأهلك العباد... ولم يستقم أمره إلا قليلا. فإن شكوا

[صفحه ۴۷۸]

ثقلا [۳۲] أو علة [۳۳] أو انقطاع شرب [۳۴] ، أو بالة [۳۵] أو إحالة أرض اغتمرها

غرق [۳۶] أو أجحف بها عطش [۳۷] خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم.

ولا يثقلن عليك شئ خففت به المؤونة عنهم. فإنه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك. وتزيين ولايتك. مع استجلابك حسن ثنائهم. وتبجحك باستفاضة العدل فيهم. معتمدا فضل قوتهم. بما ذخرت عندهم من إجماعك لهم. والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم. فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه. طيبة أنفسهم به. فإن العمران محتمل ما حملته. وإنما يؤتى خراب الأرض عن أعواز أهلها. وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع. وسوء ظنهم بالبقاء. وقلة انتفاعهم بالعبر، ثم انظر فى حال كتابك. فول على أمورك خيرهم. واخصص رسائلك التى تدخل فيها مكايدك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة. فيجترئ بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملأ. ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك. وإصدار جواباتها على الصواب عنك. وفيما يأخذ لك ويعطى منك. ولا يضعف عقدا اعتقده لك. ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك. ولا يجهل مبلغ قدر نفسه فى الأمور. فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك. فإن الرجال يتعرضون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن حديثهم. وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شئ. ولكن اختبرهم بما ولوا الصالحين قبلك. فأعمد لأحسنهم كان فى العامة أثرا. وأعرفهم بالأمانة وجها. فإن ذلك دليل على نصيحتك الله. ولمن وليت أمره. واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسا منهم، لا

[صفحه ۴۷۹]

يقهره كبيرها. ولا يتشتت عليه كثيرها. ومهما كان فى كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته. ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات. وأوصى بهم خيرا. المقيم منهم والمضطرب بماله. والمترفق ببدنه. فإنهم مواد المنافع. وأسباب المرافق. وجلابها من المباعد والمطارح [۳۸] فى برك وبحرك. وسهلك وجبلك. وحيث

لا يلتئم الناس لمواضعها. ولا يجترئون عليها. فإنهم سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته. وتفقد أمورهم بحضرتك. وفى حواشى بلادك. واعلم - مع ذلك - أن فى كثير منهم ضيقا فاحشا. وشحا قبيحا. واحتكارا للمنافع. وتحكما فى البياعات. وذلك باب مضرة للعامة. وعيب على الولاة. فامنع من الاحتكار. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه. وليكن البيع سمحا بموازين عدل. وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع. فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به. وعاقبه من غير إسراف. ثم الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم. من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى [۳۹] فإن فى هذه الطبقة قانعا [۴۰] ومعترا [۴۱] .

واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم. واجعل لهم قسما من بيت مالك. وقسما من غلات صوافى الإسلام فى كل بلد. فإن للأقصى منهم مثل الذى للأدنى وكل قد استرعيت حقه [۴۲] ولا يشغلنك عنهم بطر. فإنك لا تعذر بتضييع التافه [۴۳] .

لإحكامك الكثير المهم. فلا تشخص همك عنهم، ولا خدك لهم. وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم. ممن تقتحمه العيون [۴۴] وتحقره الرجال. ففرغ

[صفحه ۴۸۰]

لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع. فليرفع إليك أمورهم. ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله [۴۵] سبحانه يوم تلقاه. فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم. وكل فأعذر إلى الله فى تأدية حقه إليه، وتعهد أهل اليتم، وذوى الرقة فى السن. ممن لا حيلة له. ولا ينصب للمسألة نفسه. وذلك على الولاة ثقيل. والحق كله ثقيل. وقد تخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم. ووثقوا بصدق موعود الله لهم. واجعل لذوى الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك. وتجلس لهم مجلسا عاما. فتتواضع فيه لله الذى خلقك. وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع [۴۶] فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى غير موطن: لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متتعتع " ثم احتمل الخرق [۴۷] منهم والعى [۴۸] ونح

عنهم الضيق والأنف. يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته. ويوجب لك ثواب طاعته. وأعط ما أعطيت هنيئا. وامنع فى إجمال واعتذار ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرته. منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كتابك. ومنها إصدار حاجات الناس عند ورودها عليك بما تحرج به صدور أعوانك. وامض لكل يوم عمله. فإن لكل يوم ما فيه. واجعل لنفسك فيها بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت. واجزل تلك الأقسام. وإن كانت كلها لله. إذا صلحت فيها النية. وسلمت فيها الرعية. وليكن فى خاصة ما تخلص لله به إقامة فرائضه التى هى له خاصة. فأعط الله من بدنك فى ليلك ونهارك. ووف ما تقربت به إلى الله سبحانه من ذلك كاملا غير مكلوم ولا منقوص. بالغا من بدنك ما بلغ. وإذا قمت فى صلاتك للناس فلا تكن منفرا ولا مضيفا. فإن فى الناس من به علة. وله الحاجة، وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجهنى إلى اليمن.

[صفحه ۴۸۱]

كيف أصلى بهم؟ فقال ": صل بهم كصلاة أضعفهم. وكن بالمؤمنين رحيما. " وأما بعد هذا. فلا تطولن احتجابك عن رعيتك فإن احتجاب الولاة عن الرعية. شعبة من الضيق. وقلة علم بالأمور. والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه. فيصغر عندهم الكبير. ويعظم الصغير، ويقبح الحسن. ويحسن القبيح. ويشاب الحق بالباطل. وإنما الوالى بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور. وليست على الحق سمات لا تعرف بها ضروب الصدق من الكذب. وإنما أنت أحد رجلين: أما أمرؤ سخت نفسك بالبذل فى الحق. ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه. أو فعل كريم تسديه أو مبتلى بالمنع. فما أسرع كف الناس عن مسألتك. إذا أيسوا من ذلك! مع أن أكثر حاجات الناس إليك ما لا مؤونة فيه عليك. من شكاية مظلمة. أو طلب إنصاف فى معاملة. ثم إن للوالى خاصة وبطانة. فيهم استئثار وتطاول. وقلة إنصاف فى معاملة. فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال. ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة. ولا يطمعن منك فى اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس فى شرب أو عمل مشترك. يحملون مؤونته على غيرهم. فيكون مهنأ ذلك لهم دونك. وعيبه عليك فى الدنيا والآخرة. وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد. وكن فى ذلك صابرا محتسبا. واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع. وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه. فإن مغبة ذلك محمودة. وإن ظننت الرعية بك جيفا. فأصحر لهم بعذرك. وأعدل عنك ظنونهم بإصحارك. فإن فى ذلك رياضة منك لنفسك. ورفقا برعيتك. وإعذارا تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق. قال ابن أبى الحديد: نهاه عن أن يحمل أقاربه وحاشيته وخواصه على رقاب الناس. وأن يمكنهم من الاستئثار عليهم والتطاول والإذلال. ونهاه عن أن يقطع أحدا منهم قطيعة. أو يملكه ضيعة تضر بمن يجاورها فى شرب يتغلبون على الماء منه. أو ضياع يضيفونها إلى ما ملكهم إياه. وإعفاء لهم من مؤنة. أو حفر وغيره. فيعفيهم الولاة منه مراقبة لهم. فتكون مؤنة ذلك الواجب عليهم قد أسقطت عنهم. وحمل ثقلها على غيرهم. ثم قال الإمام: لأن منفعة ذلك فى

[صفحه ۴۸۲]

الدنيا تكون لهم دونك. والوزر فى الآخرة عليك. والعيب والذم فى الدنيا أيضا لا حقان بك. ثم قال له: إن اتهمتك الرعية بحيف عليهم. أو ظنت بك جورا. فاذكر لهم عذرك فى ذلك. وما عندك ظاهر غير مستور. فإنه الأولى والأقرب إلى استقامتهم لك على

الحق. ثم قال الإمام ": وإن عقدت بينك وبين عدو لك عقدة. أو ألبسته منك ذمة. فحط عهدك بالوفاء. وارع ذمتك بالأمانة... إياك والدماء وسفكها بغير حلها. فإنه ليس شئ أدعى لنقمة. ولا أعظم لتبعة. ولا أحرى بزوال نعمة. وانقطاع مدة. من سفك الدماء بغير حقها... ولا عذر لك عند الله ولا عندى فى قتل العمد. لأن فيه قود البدن... وإياك والإعجاب بنفسك. والثقة بما يعجبك منها. وحب الاطراء. فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان فى نفسه. يمحق ما يكون من إحسان المحسنين. وإياك والمن على رعيتك بإحسانك. أو التزيد فيما كان من فعلك. أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك. فإن المن يبطل الاحسان. والتزيد يذهب بنور الحق. والخلف يوجب المقت عند الله والناس... وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها. أو التساقط فيها عند إمكانها. أو اللجاجة فيها إذا تنكرت. أو الوهن عنها إذا استوضحت. فضع كل أمر موضعه. وأوقع كل عمل موقعه. وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة. والتغابى عما تعنى به مما قد وضح للعيون. فإنه مأخوذ منك لغيرك.. وعما قليل تنكشف عن أغطية الأمور. وينتصف منك للمظلوم. أملك حمية أنفك. وسورة حدك. وسطوة يدك. وغرب لسانك. واحترس من كل ذلك بكف البادرة. وتأخير السطوة. حتى يسكن غضبك. فتملك الاختيار. ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك... وأنا أسأل الله بسعة رحمته. وعظيم قدرته على أعطاء كل رغبة. أن يوفقنى وإياك لما فيه رضاه. من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه. ومن حسن الثناء فى العباد. وجميل الأثر فى البلاء. وتمام النعمة. وتضعيف الكرامة. وأن يختم لى ولك بالسعادة والشهادة. إنا إلى الله راغبون. والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين

[صفحه ۴۸۳]

الطاهرين [۴۹] .

ومن هذا العهد نرى أن الإمام كان يختار الولاة وفقا لقاعدة لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق ثم يزوده بالتعليمات التى تسوق الناس إلى صراط الله المستقيم. ويراقبه بعيون ليس لها مصلحة إلا ابتغاء مرضاة الله. فإن أخطأ الوالى شهد عليه من لا شبهة فيه عند الإمام وعند الناس. ومن هذا كله علمنا أن الإمارة لم تكن فى عهد الإمام وجاهة ونبالة وقتلا من أجل مزيد من الخراج. ولكنها كانت مهمة ترفق بالإنسان لتكون فطرته مهيأة لاستقبال النور. ولقد رأينا من قبل كيف كان الإمام يوصى عماله على الصدقة بالرحمة بالحيوان وأن لا يحول بين ناقة وبين فصيلها. ولا يجهدنها ركوبا وليعدل بين صواحباتها فى ذلك وبينها. إلى غير ذلك، فالرحمة كانت عنوانا أصيلا يقف الإنسان تحت ظله شامخا بإنسانيته. وروى عن الإمام أنه قال ": من كانت له إلى فيكم حاجة. فليرفعها فى كتاب. لأصون وجوهكم من المسألة [۵۰] وبهذا تعبر المشاعر

الإنسانية جسورا بزاد الرضى وهى تسلك طريقها إلى ربها.

[۱] ابن أبى الحديد ۱۰۵:۵.

[۲] ابن أبى الحديد ۲۲۶:۵.

[۳] هو قثم ابن العباس.

[۴] ابن أبى الحديد ۲۲۹:۵.

[۵] راجع مصادر نهج البلاغة / السيد الحسينى الخطيب ۴۲۶:۳.

[۶] أى إجعلها كالشعار له.

[۷] فالرعية إما أخوك فى الدين أو إنسان مثلك تقتضى رقة الجنسية وطبع البشرية الرحمة له.

[۸] أى لا تبارزه بالمعاصى.

[۹] أى لا تقل: إنى أمير ووال آمر بالشئ فأطاع.

[۱۰] الإدغال / الإفساد.

[۱۱] ومنهکة للدین: ضعف وسقم.

[۱۲] الغرب: حد السید.

[۱۳] أی مباراته فی السمو، وهو العلو.

[۱۴] أی قم له بما فرض علیک من العبادات.

[۱۵] سورة الکهف: الآیة ۵۱.

[۱۶] سورة المجادلة: الآیة ۲۲.

[۱۷] أی: الذی یقبل أدنی عذر ویستریح له ویسکن عنده. ویرفق بالضعفاء ویرحمهم.

[۱۸] أی یتجافی عنهم ویبعد. أی لا یمکنهم من الظلم والتعدی علی الضعفاء.

[۱۹] أی لا یهیج غضبه عنف وقسوة.

[۲۰] أی لیس عاجزا.

[۲۱] أی ممن یخلفونه من أولادهم وأهلیهم.

[۲۲] أی لا تصح نصیحة الجند لک إلا إذا أحبوا أمراءهم ثم لم یستثقلوا دولهم. ولم یتمنوا زوالها.

[۲۳] أی اذکر کل من أبلی منهم مفردا غیر ضموم ذکر بلائه إلی غیره. کی لا یکون مغمورا فی جنب ذکر غیره.

[۲۴] أی تجعله ماحکا. أی لجوجا.

[۲۵] أی إن زل رجع وأناب.

[۲۶] نفس المعنی السابق.

[۲۷] أی لا تشفق.

[۲۸] أی لا یکون قانعا بما یخطر له بادئ الرأی من أمر الخصوم بل یبحث أشد البحث.

[۲۹] أی تضجرا.

[۳۰] أی: اقطعهم وأمضاهم.

[۳۱] هذه إشارة إلی قضاة عثمان وحکامه وإنهم لم یکونوا یقضون بالحق عنده. بل بالهوی لطلب الدنیا.

[۳۲] أی ثقل الخراج المضروب علیهم.

[۳۳] أو علة / أی نحو ما یصیب الغلة آفة کالجراد والبرد.

[۳۴] أی ینقص الماء.

[۳۵] بالة / یعنی المطر.

[۳۶] أی أن الأرض غمرها الغرق وأفسدها.

[۳۷] أی أتلفها.

[۳۸] الأماکن البعیدة.

[۳۹] أی البؤس وأولو الزمانة.

[۴۰] القانع / السائل.

[۴۱] المعتر، الذی یعرض لک ولا یسألک.

[۴۲] أی کل فقراء المسلمین سواء فی سهامهم لیس فیهم أقصی وأدنی.

[۴۳] التافه / الحقیر.

[۴۴] أی تزدریه وتحتقره.

[۴۵] أی فی تأدیة حقه والقیام بفرائضه.

[۴۶] أی غیر مزعج ولا مقلق.

[۴۷] الخرق / الجهل.

[۴۸] أی / الجهل أیضا.

[۴۹] ابن أبی الحدید ۲۳:۵.

[۵۰] العقد الفرید ۲۷۶:۱.

قرار روایة العلم و منع القص

لم یأت قرار روایة العلم إلا بعد أن وقف الإمام علی علی باب مدینة

العلم. روی أنه فی أول خلافته خطب فأرشد الناس إلی کتاب الله وقال ": إن الله تعالی سبحانه أنزل کتابا هادیا بین فیه الخیر والشر. فخذوا نهج الخیر تهتدوا. واصرفوا عن سمت الشر [۱] تقصدوا [۲] الفرائض الفرائض. أدوها إلی الله

تودکم إلی الجنة. إن الله حرم حراما غیر مجهول. وأحل حلالا غیر مدخول. وفضل حرمة المسلم علی الحرم کلها. وشد بالإخلاص والتوحید حقوق

[صفحه ۴۸۴]

المسلمین فی معاقدها [۳] فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ویده إلا

بالحق. ولا یحل أذی المسلم إلا بما یجب [۴] بادروا أمر العامة وخاصة

أحدکم وهو الموت. فإن الناس أمامکم [۵] وإن الساعة تحدوکم من خلفکم. تخففوا تلحقوا. فإنما ینتظر بأولکم أخرکم [۶] اتقوا الله فی عباده وبلاده. فإنکم

مسؤولون حتی عن البقاع والبهائم. وأطیعوا الله ولا تعصوه. وإذا رأیتم الخیر فخذوا به. وإذا رأیتم الشر فأعرضوا عنه [۷] .

فالإمام فی أول خطاب له أمر بأخذ الخیر وترک الشر. وأمر بأداء الفرائض وبین أن الله حرم حراما وأحل حلالا- وهذه الأمور لها أبواب. وکما علمنا أن سیاسة القص وعدم الروایة ترکت لها بصمات علی أمور وبطانة السوء ترکت لها بصمات علی أمور أخری. ودخل المنافقون فی عصور الفتوحات بأحادیثهم التی تخدم مصالحهم. ونحن فی هذا المقام سنترک تقسیم رواة هذا العصر لأمیر المؤمنین علی. وبعد أن یحددهم لنا سنری ما هو الباب الذی فتحه أمیر المؤمنین فی أول خطاب له لاغتراف العلم. سئل الإمام عن أحادیث البدع. وعما فی أیدی الناس من اختلاف الخبر. فقال: إن فی أیدی الناس حقا وباطلا. وصدقا وکذبا. وناسخا ومنسوخا. وعاما وخاصا. ومحکما ومتشابها. وحفظا ووهما. ولقد کذب علی رسول الله صلی الله علیه وسلم علی عهده حتی قام خطیبا. فقال: من کذب علی متعمدا فلیتبوأ مقعده من النار، وإنما أتاک الحدیث أربعة رجال. لیس لهم خامس:

[صفحه ۴۸۵]

رجل منافق مظهر لإیمان، متصنع بالإسلام، لا یتأثم ولا یتحرج. یکذب علی رسول الله صلی الله علیه وسلم متعمدا. فلو علم الناس أنه منافق کاذب لم یقبلوا منه. ولم یصدقوا قوله. ولکنهم قالوا: صاحب رسول الله رآه وسمع منه، ولقف عنه. فیأخذون بقوله. وقد أخبرک الله عن المنافقین بما أخبرک. ووصفهم بما وصفهم به لک. ثم بقوا بعده. فتقربوا إلی أئمة الضلالة. والدعاة إلی النار بالزور والبهتان. فولوهم الأعمال. وجعلوهم حکاما علی رقاب الناس فأکلوا بهم الدنیا. وإنما الناس مع الملوک والدنیا. إلا من عصم الله. فهذا أحد الأربعة. ویفهم من کلام الإمام رضی الله عنه أن الخلفاء بعد موت النبی صلی الله علیه وسلم لم یعرفوا المنافقین لأن المنافق یسیر بما

فى قلبه ويعامله الناس بظاهره. وعندما فتحت البلاد وكثرت الغنائم اختلط المنافقون بالأمراء فى الأمصار فولوهم الأعمال والخلفاء لو كانوا يعرفون المنافقين بأعيانهم ما استطاع الأمراء وضعهم على رقاب الناس. ثم يقول الإمام رضى الله عنه عن الصنف الثانى: ورجل سمع من رسول الله شيئا لم يحفظه على وجهه، فوهم فيه، ولم يتعمد كذبا. فهو فى يديه. ويرويه ويعمل به. ويقول: أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه. ولو علم هو أنه كذلك لرفضه. ثم يقول الإمام عن الصنف الثالث: ورجل ثالث سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا يأمر به ثم إنه نهى عنه وهو لا يعلم أو سمعه ينهى عن شئ ثم أمر به وهو لا يعلم فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ فلو علم أنه منسوخ لرفضه. ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه. ثم يقول الإمام فى الصنف الأخير: وآخر رابع لم يكذب على الله ولا على رسوله. مبغض للكذب خوفا من الله. وتعظيما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يهم بل حفظ ما سمع على وجهه فجاء به على سمعه لم يزد فيه ولم ينقص منه. فهو حفظ الناسخ فعمل به. وحفظ المنسوخ فجنب عنه

[صفحه ۴۸۶]

وعرف الخاص والعام. والمحكم والمتشابه. فوضع كل شئ موضعه. وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام له وجهان: فكلام خاص، وكلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله سبحانه به ولا ما عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحمله السامع. ويوجهه على غير معرفة بمعناه. وما قصد به وما خرج به أجله. وليس كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يسأله ويستفهمه. حتى إن كانوا يحبون أن يجئ الأعرابى والطارئ فيسأله عليه الصلاة والسلام حتى يسمعوا. وكان لا يمر بى من ذلك شئ إلا سألته عنه وحفظته. فهذه وجوه ما عليه الناس فى اختلافهم وعللهم فى رواياتهم [۸] .

وقول الإمام إنه كان لا يمر به شئ من ذلك إلا سأل النبى عنه وحفظه له شواهد كثيرة. فعلاوة على أنه كان لا يفارق النبى فى مواطن كثيرة. فإنه كان له من رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخلان مدخل بالليل ومدخل بالنهار [۹] يقول له فيهما ما غاب عنه ويفسر له فيهما ما استفسر عنه. وحفظ على رضى الله عنه لجميع ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء فى حديث صحيح وذلك فى قوله تعالى: (وتعيها أذن واعية) فعن على قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: سألت الله أن يجعلها أذنك يا على. فما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسيته [" ۱۰] ، ولذا كان على يقول ": إن ربى وهب لى قلبا عقولا ولسانا ناطقا [" ۱۱] ، وقال": سلونى عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار فى سهل أم فى جبل [" ۱۲] ، وهذا كله كان لحكمة من ورائها هدف. وهذا الهدف يشع فى أحاديث رواها أئمة الحديث عند قوله تعالى: (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد)

[صفحه ۴۸۷]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الهادى هو على بن أبى طالب [" ۱۳] .

وبعد أن بين الإمام مصادر الرواية بين ما ترتب على ذلك من اختلاف: ترد على أحدهم القضية فى حكم من الأحكام. فيحكم فيها برأيه. ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره. فيحكم فيها بخلاف قوله. ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذى استقضاهم. فيصوب آراءهم جميعا وإلههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد. أفأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه. أم نهاهم عنه فعصوا. أم أنزل الله سبحانه دينا تاما فقصر الرسول عن تبليغه وأدائه. والله تعالى يقول: (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) [۱۴] ، وفيه تبيان كل شئ. وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا وأنا لا اختلاف فيه: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) [۱۵] ، وأن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق. لا تفنى عجائبه. ولا تنقضى غرائبه ولا تكشف الظلمات إلا به [" ۱۶] .

وبعد أن بين الإمام اختلاف الرواة وما ترتب عليه من اختلاف الفتوى. فتح أبواب البحث: أيها الناس إنه من استنصح الله وفق. ومن اتخذ قوله دليلا هدى للتى هى أقوم. فإن جار الله آمن. وعدوه خائف. وإنه لا ينبغى لمن عرف عظمة الله أن يتعظم. فإن رفعة الذين يعلمون ما عظمته أن يتواضعوا له. وسلامة الذين يعلمون ما قدرته أن يستسلموا له. فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الأجرب.

والبارى من ذى السقم. واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذى تركه. ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذى نقضه. ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذى نبذه. فالتمسوا ذلك عند أهله. فإنهم عيش العلم. وموت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم. وصمتهم عن منطقهم. وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه. فهو بينهم شاهد

[صفحه ۴۸۸]

صادق. وصامت ناطق [" ۱۷] .

ومما سبق علمنا أن الإمام على أمر بأخذ الخير وترك الشر. ثم بين ما فى أيدى الناس من اختلاف الخبر. وما ترتب على ذلك من الاختلاف فى الفتوى لتعدد الآراء. ثم فتح الإمام طريق البحث للوقوف على أسباب ذلك وقال ": واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذى تركه " ثم ساق الباحث إلى كتاب الله ليقف عند الذى نقضه. ثم اختصر المسافة للتيسير على الباحث فبين أن المعرفة والأخذ بميثاق الكتاب والتمسك به جميع ذلك فى دائرة " أهله " وهو قوله ": فالتمسوا ذلك عند أهله " وروى أنه قال فى أول خطبة خطبها فى خلافته: ألا إن أبرار عترتى وأطايب أرومتى. أحكم الناس صغارا. وأعلم الناس كبارا. ألا وإنا أهل بيت من علم الله علمنا. وبحكم الله حكمنا. ومن قول صادق سمعنا. فإن تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا [" ۱۸] ، وقال ": نحن الشعار والأصحاب. والخزنة والأبواب. لا تؤتى البيوت إلا من أبوابها فمن آتاها من غير أبوابها سمى سارقا [" ۱۹] ، وقال فى أهل البيت ": هم عيش العلم. وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم. وظاهرهم عن باطنهم. وصمتهم عن حكمة منطقهم. لا يخالفون الحق ولا يختلفون عليه. وهم دعائم الإسلام. وولائج الاعتصام [" ۲۰] .

ومن الطبيعى أن النص ورواية شعر المجون لا مجال لهما فى هذه المساحة الزمنية والمكانية. ومن الطبيعى أن توجيه الدعوة للبحث يقتضى عودة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد حث الإمام على تدارس الحديث وقال ": تزاوروا وتدارسوا الحديث ولا تتركوه يدرس (أى اقرأوه

[صفحه ۴۸۹]

وتعهدوه لئلا تنسوه) [۲۱] ، وحذر الإمام من خلط الحديث بما كان يجرى بالساحة من فعل وخلافة. فقال ": تعلموا العلم. فإذا علمتموه فاكظموا عليه. ولا تخالطوه بضحك وباطل فتمحه القلوب [۲۲] وزيادة فى الاحتياط رد كل علم إلى عالمه حتى لا تخترق الرواية فقال: " إذا قرأت العلم على العالم فلا بأس أن ترويه عنه [" ۲۳] ، ثم بشر الذين يروون الحديث فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": اللهم ارحم خلفائى (ثلاث مرات) قيل يا رسول الله: ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدى ويروون أحاديثى ويعلمونها للناس [" ۲۴] .

أما بخصوص انسحاب القص روى عن أبى البحترى: قال: دخل على بن أبى طالب المسجد، فإذا رجل يخوف. فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل يذكر الناس. فقال: ليس برجل يذكر الناس. ولكنه يقول: أنا فلان بن فلان اعرفونى. فأرسل إليه. فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ، قال: لا، فقال أمير المؤمنين: فاخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه [۲۵] .

وروى مسدد بسند صحيح عن سعيد بن هند. أن عليا مر بقاص فقال: ما يقول؟ قالوا: يقص، قال: لا ولكن يقول اعرفونى [۲۶] ، وعن أبى يحيى قال: مر على وأنا أقص فقال: هل عرفت الناسخ من المنسوخ؟ قلت: لا، قال: أنت أبو اعرفونى [" ۲۷] .

والسياسة الإعلامية (إعرفونى) هى التى تقدم الناس إلى العامة بعد أن تنسج حولهم خيوطا براقة كما ساعدت على إيجاد شخصيات خرافية وقصص خرافية تخدم مصالح معينة. وكما انسحب القص انسحب شعر الجاهلية والأديرة

[صفحه ۴۹۰]

والخمور، وروى ابن أبى الحديد. أن عليا كان يأمر بمحاربة شعراء أهل الشام الذين يروجون شعر الأديرة، وروى أن كعب بن جعيل عندما شرب الخمر وأقام على بن أبى طالب عليه الحد. غضب ولحق بمعاوية وهجا عليا [" ۲۸] ، ولما كانت الخمور زادا للشعراء

والقصاصين فإن أمير المؤمنين حرق مركز صناعتها وذلك فيما رواه ربيعة بن زكار قال: نظر على بن أبى طالب إلى قرية. فقال: ما هذه القرية؟ قالوا: قرية تدعى زرارة يلحن فيها ويباع فيها الخمر. فأتاها بالنيران وقال: إضرموها: فإن الخبيث يأكل بعضه بعضا. فاحترقت [۲۹] ، وكان على رضى الله عنه يوصى الشعراء بتعلم القرآن. وإذا كانت الإصلاحات العلوية قد شملت عزل الأمراء والتسوية فى الأموال والرحمة بالإنسان والحيوان والعودة إلى رواية العلم كما كان على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فإن هذه الإصلاحات فتحت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب أبوابا دخلت منها أصناف من الصدود. فنبلاء قريش وطبقتها العليا منهم من وجد أن عليا ساوى بينه وبين الطبقة السفلى فتحركت فيهم مشاعر لا تختلف كثيرا عن مشاعر الذين شعروا بالضجر يوم أن ساوى الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم وبين بلال وخباب وعمار وغيرهم. وهؤلاء إما فروا إلى معاوية فى الشام وإما تفرغوا للكيد داخل القوات الإسلامية العلوية. ومنهم من وجد أن عودة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ستظهر فضل على بن أبى طالب لا محالة وستدين أطرافا أخرى بصورة من الصور فوجدوا أن السبيل لقطع هذا الطريق هو تشكيك الناس فى على بن أبى طالب بأنه ليس وحده من أهل البيت وأن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم من أهل البيت أيضا ولهن ماله وعليهن ما عليه وأن خروجه على إحداهن هو شق لصف أهل البيت. والذين ذهبوا إلى هذا المسلك استندوا على عمق مساحة اللارواية وما ترتب عليها من نسيان أو تناس للرواية فضلا على وجود جيل كامل فى الأمصار

[صفحه ۴۹۱]

لم يسمع من النبى ولم يره وكثير منهم استمد علومه من فقهاء الأمراء وهى علوم لن تنصف على بن أبى طالب فى أكثر الأحوال. ومنهم أيضا من كان يطمع فى الكرسى بعد أن مهد يوم الشورى الطريق له كى يحلم بهذه الأحلام. ومن الأصناف الذين وجدوا فى الاصلاح العلوى عقبة فى طريقهم. صنف عمل على امتداد تاريخه فى الجاهلية والإسلام من أجل الملك وحده. وذلك بعد استحواذ بنى هاشم على مفاخر قريش فى الجاهلية واختيار الله لهم فى الإسلام. فهذه الأمور أصابت أطرافا أخرى بعقدة النقص. ولو ردوا كل شئ إلى الله ما أصابتهم هذه العقد. ونرى قبل تسليط الضوء على هذه الأمور أن نلقى نظرة سريعة على القيادة التى قامت بهذه الإصلاحات لنرى هل القيادة كانت تعمل من أجل الكرسى. أم أن المال مطلبها. أم أنها كانت قيادة الحجة. قيادة الزهد رداؤها وسيفها هو سيف الزهد ابتغاء وجه الله.

[۱] أى أعرضوا عن طريقه.

[۲] تقصدوا: أى تعدلوا. والقصد: العدل.

[۳] لأن الإخلاص والتوحيد داعيان إلى المحافظة على حقوق المسلمين صارفان عن انتهاك محارمهم.

[۴] أى إلا بحق.

[۵] أى سبقوكم.

[۶] أى إنما ينتظر ببعث الموتى المتقدمين أن يموت الأواخر أيضا. فيبعث الكل جميعا فى وقت واحد.

[۷] ابن أبى الحديد ۳۳۷:۳.

[۸] ابن أبى الحديد ۵۹۱:۳.

[۹] رواه النسائى ۲:۱۲.

[۱۰] رواه الضياء بسند صحيح وابن مردويه وأبو نعيم (كنز العمال ۱۷۷:۱۳.

[۱۱] الطبقات الكبرى ۳۳۸:۲.

[۱۲] الطبقات ۳۳۸:۲.

[۱۳] رواه ابن جرير (الفتح الربانى ۱۸۵:۱۸).

[۱۴] سورة الأنعام: الآیة ۳۸.

[۱۵] سورة النساء: الآیة ۸۲.

[۱۶] ابن أبی الحدید ۲۳۳:۱.

[۱۷] ابن أبی الحدید ۲۰۳:۳.

[۱۸] ابن أبی الحدید.

[۱۹] ابن أبی الحدید ۲۴۷:۳.

[۲۰] ابن أبی الحدید ۲۸۷:۴.

[۲۱] الخطیب (کنز العمال ۳۰۴:۱۰).

[۲۲] عبد الله بن الإمام أحمد والخطیب (کنز العمال ۳۰۴:۱۰).

[۲۳] المرهبی (کنز العمال ۲۹۴:۱۰).

[۲۴] الطبرانی والخطیب والدیلمی وابن النجار (کنز العمال ۲۹۵:۱۰).

[۲۵] العسکری والمرزوی (کنز العمال ۲۸۱:۱۰).

[۲۶] مسدد (کنز العمال ۲۸۲:۱۰).

[۲۷] المرزوی (کنز العمال ۲۸۱:۱۰).

[۲۸] ابن أبی الحدید ۷۹۹:۱.

[۲۹] أبو عبید (کنز العمال ۵۰۴:۵).

العالم العامل الزاهد

یقول الإمام الزاهد علی بن أبی طالب رضی الله عنه ": إنی متکلم بعدة الله وحجته. قال الله تعالی: (إن الذین قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل علیهم الملائکة. أن لا تخافوا ولا تحزنوا...)، وقد قلتم ": ربنا الله" فاستقیموا علی کتابه. وعلی منهاج أمره. وعلی الطریقة الصالحة من عبادته. ثم لا تمرقوا منها. ولا تبتدعوا فیها [۱] ولا تخالفوا عنها. فإن أهل المروق منقطع بهم عند الله یوم القیامة [" ۲] ، وقال ": فالله الله معشر العباد. وأنتم سالمون فی الصحة قبل السقم. وفی الفسحة قبل الضیق. فاسعوا فکاک رقابکم. من قبل أن تغلق رهائنها. اسهروا عیونکم. وأضمروا بطونکم. واستعملوا أقدامکم. وأنفقوا أموالکم. وخذوا من أجسادکم فجودوا بها علی أنفسکم. ولا تبخلوا بها عنها. فقال قال

[صفحه ۴۹۲]

الله سبحانه: (إن تنصروا الله ینصرکم ویثبت أقدامکم) [۳] ، وقال تعالی: (من ذا الذی یقرض الله قرضا حسنا فیضاعفه له وله أجر کریم) [۴] ، فلم یستنصرکم من ذل. ولم یستقرضکم من قل. استنصرکم وله جنود السماوات والأرض وهو العزیز الحکیم. واستقرضکم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغنی الحمید. وإنما أراد أن یبلوکم أیکم أحسن عملا. فبادروا بأعمالکم تکونوا مع جیران الله فی داره. رافق بهم رسله. وأزارهم ملائکته. وأکرم أسماعهم أن تسمع حسیس نار أبدا. وصان أجسادهم أن تلقی لغوبا ونصبا ": ذلک فضل الله یؤتیه من یشاء والله ذو الفضل العظیم [" ۵] .

مما سبق یتبین أن المتکلم حجة. همته بالله وشغله فیه وفراره إلیه. وکان الإمام یقول مخاطبا ساحة عریضة اکتنز فیها الذهب والفضة" لطلب المال والثروة أسرع من خراب دین الرجل من ذئبین ضاریین باتا فی حظیرة غنم. ما زالا فیها حتی أصبحا [۶] ، وقال ": الزهد

كله بين كلمتين من القرآن. " قال الله سبحانه: - (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) [۷] ، ومن لم يأس على الماضى ولم يفرح بالآتى فقد أخذ الزهد بطرفيه [" ۸] ، وقال ": فلا تنافسوا فى عز الدنيا وفخرها. ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها. ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها. فإن عزها وفخرها إلى انقطاع. وزينتها ونعيمها إلى زوال. وضراءها وبؤسها إلى نفاد. وكل مدة فيها إلى انتهاء. وكل حى فيها إلى فناء. أوليس لكم فى آثار الأولين مزدجر. وفى آبائكم الأولين تبصرة ومعتبر إن كنتم تعقلون. أولم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون. وإلى الخلف الباقين لا يبقون. أو لستم ترون أهل الدنيا يمسون ويصبحون على أحوال شتى: فميت يبكى. وآخر به يعزى

[صفحه ۴۹۳]

وصريع مبتلى. وعائد يعود وآخر بنفسه يجود. وطالب للدنيا الموت يطلبه. وغافل وليس بمغفول عنه [".. ۹] ، وقال ": أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذى ضرب الأمثال، ووقت لكم الآجال. وألبسكم الرياش [۱۰] وأرفغ لكم

المعاش [۱۱] وأحاط بكم الاحصاء، وأرصد [۱۲] لكم الجزاء. وآثركم بالنعم

السوابغ، والرفد الروافغ [۱۳] وأنذركم بالحجج البوالغ [۱۴] فأحصاكم عددا.

ووظف لكم مددا. وفى قرارة خبرة. ودار عبرة. وأنتم مختبرون فيها. ومحاسبون عليها [" ۱۵] .

فهكذا كان أمير المؤمنين يخاطب رقعة واسعة عليها العديد من النبلاء. وكان أمير المؤمنين خير قدوة لسياسة الدنيا والآخرة. يقول الشعبى: دخلت الكوفة وأنا غلام. فإذا أنا بعلى بن أبى طالب قائما على صبرتين [۱۶] من ذهب وفضة. ومعه محفظة. وهو يطرد الناس بمحفظته. ثم يرجع إلى المال فيقسمه. بين الناس. حتى لم يبق منه شيئا. ثم انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلا ولا كثيرا. فرجعت إلى أبى فقلت له: لقد رأيت اليوم خير الناس أو أحمق الناس. قال: من هو يا بنى؟ قلت: على بن أبى طالب أمير المؤمنين. رأيته يصنع كذا. فقصصت عليه، فبكى أبى وقال: يا بنى بل رأيت خير الناس [۱۷] ، وروى ابن كثير عن ابن عنترة عن أبيه قال: دخلت على على بن أبى طالب وعليه قطيفة وهو يرعد من البرد. فقلت: يا أمير المؤمنين. إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيبا فى هذا المال وأنت ترعد من البرد. فقال: إنى والله لا أرزأ من مالكم شيئا. وهذه

[صفحه ۴۹۴]

القطيفة هى التى خرجت بها من بيتى - أو قال - من المدينة [۱۸] ، وروى أن عليا قال: أيها الناس والله الذى لا إله إلا هو ما رزأت من مالكم قليلا ولا كثيرا إلا هذه. وأخرج قارورة من كم قميصه فيها طيب وقال: أهداها إلى داهقان [۱۹] وروى أنه كان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير الذى يأكل منه. ويقول: لا أحب أن يدخل بطنى إلا ما أعلم [۲۰] ، وروى أنه لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وكان يأتى بحبوبة من المدينة فى جراب ليأكل منها [۲۱] وروى أنه كان يكنس بيت المال كل جمعة ويصلى فيه ركعتين ويقول: ليشهد لى يوم القيامة [۲۲] .

والإمام على بن أبى طالب لم يطالب بفدك وهى حقه. ليس لأن الزمان كان زمان ثورة على المال والذهب والفضة ومطالبته بها سيفتح عليه أبوابا. وإنما لأن فدك كانت ابتلاء لعصر. وإذا كان الإمام لم يأخذ حقه ومفتاح بيت المال فى يده. فهو أيضا لم يطالب بفدك وهو على رأس السلطة. وذلك لأنه كان يتعامل مع الأحداث من باب إقامة الحجة ووفقا لمتطلبات الدعوة أما عن أمواله روى أنه قال ": بلى كانت فى أيدينا فدك. من كل ما أظلته السماء. فشحت عليها نفوس قوم. وسخت عنها نفوس أخرين. ونعم الحكم الله. وما أصنع بفدك وغير فدك [" ۲۳] ، وشرح ابن أبى الحديد كلام الإمام فقال: أبى لا مال لى. ولا اقتنيت فيما مضى مالا. وإنما كانت فى أيدينا فدك. فشحت عليها نفوس قوم (أى نحلت) وسخت عنها نفوس آخرين. (أى سامحت واغضت)، ثم بين الإمام بعد ذلك. أن تقلله واقتصاره من المطعم والملبس على الجشب والخشن رياضة لنفسه. وأنه يعمل ذلك خوفا من الله. فالرياضة هنا هى رياضة فى الحقيقة

[صفحه ۴۹۵]

بالتقوی لا بنفس التقلل والتقشف. لتأتی نفسه آمنة یوم الفزع الأکبر وتثبت فی مداحض الزلق [۲۴] .

وهکذا ترک الإمام الذی له. وعلی مقربة منه جاء قوم لیأخذوا ما لیس لهم. لیکون الذی للإمام حجة علیهم ولقد رأینا مما سبق بعض معالم الحکومة الدینیة التی تفتح أبواب التوبة فترسی قواعد حریة الإنسان مما یتوافق مع فطرته التی فطره الله علیها. ولقد رأینا أن الإمام لم یفرض نفسه ولم یهدد معارضیه. ونشر العلم ولم یتصد للقصاصین وغیرهم بقوة السلاح وإنما بقوة الحجة. ولم یبعث العمال علی الأمصار لهدف جمع الأموال وإنما لیکونوا دعاة رحمة یستظل بها الإنسان والحیوان. وکان الإمام أمام هذه المساحة الطویلة والعریضة قدوة ومثل أعلی للعامة والخاصة.

[صفحه ۴۹۷]

[۱] أی لا تحدثوا ما لم یأت به الکتاب والسنة.

[۲] ابن أبی الحدید ۳۸۵:۳.

[۳] سورة محمد: الآیة ۷.

[۴] سورة الحدید: الآیة ۱۱.

[۵] ابن أبی الحدید ۴۵۴:۳.

[۶] رواه العسکری فی المواعظ (کنز العمال ۷۱۸:۳).

[۷] سورة الحدید: الآیة ۲۳.

[۸] ابن أبی الحدید ۷۹۵:۳.

[۹] ابن أبی الحدید ۶۳۲:۲.

[۱۰] الریاش / اللباس.

[۱۱] أرفغ / أی واسعا خصبا.

[۱۲] أرصد / أی أعد.

[۱۳] الرفد الروافغ / الواسعة.

[۱۴] أی الظاهرة المبنیة.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۴۲۹:۲.

[۱۶] أی ما جمع بلا کیل ولا وزن.

[۱۷] ابن أبی الحدید ۴۱۴ / ۱.

[۱۸] البدایة والنهایة ۳:۸.

[۱۹] رواه مسدد والحاکم (کنز العمال ۱۶۸:۱۳).

[۲۰] الکامل ۲۰۱:۳.

[۲۱] الکامل ۲۰۱:۳.

[۲۲] الإمام أحمد فی الزهد (کنز العمال ۱۸۲:۱۳).

[۲۳] ابن أبی الحدید ۸۲۳:۴.

[۲۴] ابن أبی الحدید ۸۲۴:۴.

البغاة والقمر

بعد مقتل عثمان انطلق النعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية. وفى الشام بدأ إعلام معاوية يعبأ الناس حول القميص. وعندما اطمئن معاوية لنتيجة سياسته الإعلامية. روى ابن كثير أنه بعث رجلا فدخل على على بن أبى طالب. وعندما قال له على: ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القود. كلهم موتور. تركت سبعين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو على منبر دمشق. فقال على: اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان [۱] .

لقد كانت هذه رسالة مبكرة من معاوية بعد أن أراد أمير المؤمنين عزله من على الشام. وبدأ إعلام بنى أمية يبث فى الأمصار أن عثمان قتل مظلوما وأن عليا اشترك فى دمه. وعندما علم أمير المؤمنين بهذا قال ": أولم ينه بنى أمية علمها عن قرفى؟ أو ما وزع الجهال سابقتى عن تهمتى؟ ولما وعظمهم الله به أبلغ من لسانى. أنا حجيج المارقين. وخصيم الناكثين المرتابين. وعلى كتاب الله تعرض الأمثال. وبما فى الصدور نجازى العباد قال ابن أبى الحديد ومعناه: أما كان فى علم بنى أمية بحالى ما ينهاها عن قرفى بدم عثمان. وذكر أن علمهم بها يقتضى ألا يقرفوه بذلك. وحاله التى يعلمها بنو أمية. هى منزلته فى الدين التى لا منزلة

[صفحه ۴۹۸]

أعلى منها. وما نطق به الكتاب الصادق من طهارته وطهارة بنيه وزوجته فى قوله ": إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " وأيضا قول النبى صلى الله عليه وسلم ": أنت منى بمنزلة هارون من موسى " وذلك يقتضى عصمته عن الدم الحرام كما أن هارون معصوم عن مثل ذلك... فكيف ساغ لأعداء أمير المؤمنين. مع علمهم بمنزلته العالية فى الدين التى لم يصل إليها أحد من المسلمين. أن يطلقوا ألسنتهم فيه وينسبوه إلى قتل عثمان أو الممالأة عليه. لا سيما وقد ثبت عندهم أنه كان من أنصاره لا من المجلبين عليه. ثم قال: إن الذى وعظهم الله تعالى به فى القرآن. من تحريم الغيبة والقذف وتشبيه ذلك بأكل لحم الميت أبلغ من وعظى لهم. لأنه لا عظة أبلغ من عظة القرآن. ثم قال: أنا حجيج المارقين وخصيم المرتابين يوم القيامة وروى عنه أنه قال: أنا أول من يجثوا للحكومة بين يدى الله تعالى، " ثم أشار إلى ذلك بقوله: على كتاب الله تعرض الأمثال. يريد بذلك قوله تعالى: (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) [۲] ، ثم قال: إن كنت قتلت عثمان أو مالأت عليه. فإن الله سبحانه سيجازينى بذلك. وإلا فسوف يجازى بالعقوبة والعذاب من اتهمنى به ونسبنى إليه [۳] .

لقد أرادوا باتهام أمير المؤمنين فى دم عثمان أمورا منها: إخراجه من دائرة التطهير التى ستظهرها رواية الحديث فى عهده، وهم يريدون إخراجه من هذه الدائرة ليسهل عليهم مواجهته وتعبئة العامة من حولهم على اعتبار أنهم أولياء عثمان والأحق به. أى يجردونه من الرداء الذى وضعه عليه الله ورسوله. بينما يكون على أبدان بنى أمية رداء تأويل قوله تعالى: (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل) [۴] ، فيكونون هم فى دائرة الدين. ويكون أمير المؤمنين واحدا من الناس حرص على الحكم ليجعله فى أعقابه.

[صفحه ۴۹۹]

ولقد بلغ الإعلام الأموى مداه حتى أن الأمر قد التبس عند العديد من الصحابة فهذا زيد من أرقم يقول لأمير المؤمنين على، أنشدك الله، أنت قتلت عثمان؟ فأطرق الإمام ساعة ثم قال: والذى فلق الحبة. وبرأ النسمة ما قتلت ولا أمرت بقتله [۵] وأمام طوفان الإعلام الأموى خطب الإمام على فى الناس فقال:

لو أمرت به لكنت قاتلا. أو نهيت عنه لكنت ناصرا. غير أن من نصره لا يستطيع أن يقول: خذله من أنا خير منه. ومن خذله لا يستطيع أن يقول: نصره من هو خير منى. وأنا جامع لكم أمره. استأثر فأساء الأثرة. وجزعتم فأسأتم الجزع. ولله حكم واقع فى المستأثر والجازع [۶] وخلاصة هذا الكلام: أنه فعل ما لا

يجوز وفعلتم ما لا يجوز. أما هو فاستأثر فأساء الأثرة. أى استبد بالأمور فأساء فى الاستبداد. وأما أنتم فجزعتم مما فعل. أى حزنتم

فأسأتم الجزع. لأنكم قتلتموه. وقد كان الواجب عليه أن يرجع عن استئثاره. وكان الواجب عليكم ألا تجعلوا جراءه عما أذنب القتل. بل الخلع والحبس وترتيب غيره فى الإمامة. ثم قال: ولله حكم سيحكم به فيه وفيكم [۷] .

وأما هذه الأحداث طلب منه قوم من أصحابه أن يعاقب من أجلب على عثمان. ولكن من هؤلاء الذين سيعاقبهم الإمام؟ وهناك من مهد ومن أفتى ومن ناصر القتلة ومن خذل المقتول ومن قتل. ولهذا قال الإمام لأصحابه: يا إخوتاه، إنى لست أجهل ما تعلمون. ولكن كيف لى بقوة والقوم المجلبون على حد شوكتهم يملكوننا ولا نملكهم!! دهاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم والتفت إليهم أعرابكم [۸] (لاحظ أن المجلبين هنا ليسوا فى جيش الإمام) وهم خلالكم [۹] يسومونكم [۱۰] ما شاؤوا. وهل ترون موضعا لقدرة على شئ تريدونه؟

[صفحه ۵۰۰]

إن هذا الأمر أمر جاهلية. وإن لهؤلاء القوم مادة. إن الناس من هذا الأمر إذا حرك على أمور: فرقة ترى ما ترون. وفرقة ترى ما لا ترون. وفرقة لا ترى هذا ولا هذا. فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها. وتؤخذ الحقوق مسمحة. فأهدأوا عنى [۱۱] ، وانظروا ماذا يأتيكم به أمرى. ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة [۱۲] وتسقط منه [۱۳] وتورث وهنا [۱۴] وذلة. وسأمسك الأمر ما استمسك وإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكى [۱۵] قال ابن أبى الحديد: واعلم أن

هذا الكلام يدل على أنه كان فى نفسه عقاب الذين حصروا عثمان والاقتصاص ممن قتله. ولهذا قال: إنى لست أجهل ما تعلمون. فاعترف بأنه عالم بوجوب ذلك. واعتذر بعدم التمكن كما ينبغى. وصدق فى ذلك. فإن أكثر أهل المدينة أجلبوا عليه... ولا يأمن لو شرع فى عقوبة الناس والقبض عليهم. من تجدد فتنة أخرى كالأولى وأعظم. فكان الأصوب فى التدبير. والذى يوجبه الشرع والعقل. الامساك إلى حين سكون الفتنة... وكان يأمل أن يطيعه معاوية وغيره وأن يحضر بنو عثمان عنده يطالبون بدم أبيهم. ويعينون قوما بأعيانهم. بعضهم للقتل. وبعضهم للحصار. وبعضهم للتشور. كما جرت عادة المتظلمين إلى الإمام والقاضى. فحينئذ يتمكن من العمل بحكم الله تعالى. ولكن الأمر لم يقع على هذا النحو. وعصى معاوية وأهل الشام. والتجأ ورثة عثمان إليه. وفارقوا أمير المؤمنين. ولم يطلبوا القصاص طلبا شرعيا. وإنما طلبوه مغالبة. وجعلها معاوية عصبية جاهلية. ولم يأت أحد منهم الأمر من بابه. وقد قال أمير المؤمنين لمعاوية فيما بعد: (فأما طلبك قتلة عثمان فادخل فى الطاعة. وحاكم القوم إلى أحملك وإياهم على كتاب الله وسنة رسوله... وهذا عين الحق. ومحض الصواب لأنه يجب دخول الناس فى طاعة الإمام ثم تقع المحاكمة

[صفحه ۵۰۱]

إليه [۱۶] ولكن بنى أمية ما كانوا يريدون حقا لأن الحق وضعهم ورفع غيرهم.

وجوهر الأمر لم يكن قتلة عثمان وإنما الملك وكان الإمام على يعلم هذا ولهذا قال ": وسأمسك الأمر ما استمسك. فإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكى " أى: أمسك نفسى عن محاربة هؤلاء الناكثين للبيعة ما أمكننى وأدفع الأيام بمراسلتهم وتخويفهم وإنذارهم. واجتهد فى ردهم إلى الطاعة بالترغيب والترهيب. فإذا لم أجد بدا من الحرب. فآخر الدواء الكى. أى الحرب. لأنها الغاية التى ينتهى أمر العصاة إليها. لقد كان الإمام يعلم أن هؤلاء هدفهم الحكم وليس قميص عثمان إلا رمزا وشعارا، ولهذا قال: لو أعلم أن بنى أمية يذهب ما فى نفوسها. لحلفت لهم خمسين يمينا مردودة بين الركن والمقام. أنى لم أقتل عثمان. ولم أمال على قتله [۱۷] وقال ": أما بنو أمية هيهات هيهات أما والذى فلق الحبة وبرأ النسمة لو كان الملك من وراء الجبال. ليثبوا عليه حتى يصلوا [" ۱۸] ، والإمام قال ذلك لأنه سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا. فعن ثروان قال: كنا جلوسا فى المسجد. فمر علينا عمار بن ياسر. فقلنا له: حدثنا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفتنة. فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يكون بعدى قوم يأخذون الملك. يقتل عليه بعضهم بعضا. قلنا له: لو حدثنا غيرك ما صدقناه قال: فإنه سيكون [۱۹] فالملك لو كان من وراء الجبال لوثب عليه بنو أمية. ولا يقتلون عليه من خالفهم إن كان من غيرهم فقط. وإنما يقتلون أيضا بعضهم بعضا عليه.

وفى نص سابق علمنا أن الإمام عليا أخذ على نفسه أن يراسل القوم

[صفحه ۵۰۲]

وينـذرهم ويجتهـد فى ردهم إلى الطاعـة. وقد فعل رضـى الله عنه ذلك ليقيم على الظالمين الحجة أمام الله جل وعلا. وروى أنه كتب إلى معاويـة ": أما بعد. فقد علمت إعذارى فيكم. وإعراضـى عنكم. حتى كان ما لا بد منه ولا دفع له. والحديث طويل. والكلام كثير. وقـد أدبر ما أدبر. وأقبل ما أقبل. فبايع من قبلك. وأقبل إلى فى وفـد من أصـحابك [" ۲۰] ، لقـد أقام الحجـة وهو يعلم أن معاوية له يبايع. وكيف يبايع وعينه طامحة إلى الملك والرئاسة منذ أمره عمر على الشام. ومن خلفه وصية أمه وأبيه. وكيف يطيع عليا وبين على بن أبى طالب وبين النبى صـلى الله عليه وسـلم مساحـة واسـعة من اللارواية ومساحة أوسع من القص وعليها من المحرضـين على على أكثر من عدد الحصى ويكفى الوليد بن عقبة الذى بعث إلى معاوية يقول:

فوالله ما هند بأمك إن مضى++

النهار ولم يثأر بعثمان ثائر

أيقتل عبد القوم سيد أهله++

ولم تقتلوه ليت أمك عاقر

يقول ابن أبى الحديد: وتالله لو سـمع هذا التحريض أجبن الناس وأضعفهم نفسا وأنقصهم همه لحركه وشحذ من عزمه فكيف معاوية. وقد أيقظ الوليد بشـعره من لا ينام [۲۱] ولم يكتف أمير المؤمنين برسالـة واحـدة إلى معاوية. وإنما بعث إليه بأكثر من رسالة بعد بيعته بخصوص دم عثمان. وفى رسالة قال له: ولعمرى يا معاوية. لئن نظرت بعقلك دون هواك. لتجدنى أبرأ الناس من دم عثمان. ولتعلمن أنى كنت فى عزله عنه. إلا أن تتجنى. فتجن ما بدا لك. والسلام [۲۲] .

ولم يكف الإعلام الأموى عن الباطل بل بعث إلى مكـة وبقيـة الأمصار بمن يحملون إذاعته ويعملون من أجل شق صف الأمـة. وفى هذا الوقت استأذن طلحة والزبير عليا فى العمرة فأذن لهما فلحقا

[صفحه ۵۰۳]

بمكة [۲۳] وبدأ أهل المدينة يحومون حول أمير المؤمنين، ليعرفوا رأيه فى معاوية، وقتال أهل القبلة. أيجسـر عليه أم ينكل عنه. ووجد أهل المدينـة فى زياد بن حنظلـة التميمى ضالتهم المنشودة. فـدسوا زيادا إلى على وكان من الـذين يـدخلون عليه. وذات يوم قال أمير المؤمنين لزياد: يا زياد تيسـر. فقال: لأى شـئ. فقال الإمام: تغزو الشام فخرج زياد على الناس والناس ينتظرونه. فقالوا: ما وراءك؟ قال: السـيف يا قوم [۲۴] وبـدأ الإمـام على يجهز قواته ليضـرب الفرقـة وطلاـب الملـك عنـد المهـد وقبل أن يسـتفحل الأمر. وخطب أهل المدينـة. فـدعاهم إلى النهوض فى قتال أهل الفرقـة. وقال: إن الله عز وجل بعث رسولا هاديا مهـديا بكتاب ناطق. وأمر قائم واضح. لا يهلك عنه إلا هالك. وإن المبتدعات والشـبهات هن المهلكات. إلا من حفظ الله. وإن فى سـلطان الله عصـمة أمركم. فاعطوه طاعتكم غير ملتويـة. ولا مسـتكره بها. والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سـلطان الإسـلام. ثم لا ينقله إليكم أبدا حتى يأرز الأمر إليها. إنهضوا إلى هؤلاء القوم الـذين يريـدون يفرقون جماعتكم لعل الله يصـلح بكم ما أفسـد أهل الآفاق وتقضون الذى عليكم [۲۵] ، وبينمـا كان أمير المؤمنين يحشـد القوة لمواجهة أهل الشام [۲۶] جاءه الخبر أن مكـة قـد هاجت وأن أم المؤمنين عائشـة وطلحة والزبير لهم رأى آخر، واشتد على أهل المدينة الأمر!!

[۱] البداية والنهاية ۷:۲۳۰.

[۲] سورة الحج: الآية ۱۹.

[۳] ابن أبى الحديد ۲:۳۷۹.

[۴] سورة الإسراء: الآية ۳۳.

[۵] رواه الحاکم (المستدرک ۱۰۶:۳).

[۶] ابن أبی الحدید ۳۶۳:۱.

[۷] ابن أبی الحدید ۳۶۵:۱.

[۸] أی انضمت واختلطت بهم.

[۹] أی بینکم.

[۱۰] أی یکلفونکم.

[۱۱] أی فاسکتوا.

[۱۲] أی تضعف وتهد.

[۱۳] منهٔ / القوهٔ.

[۱۴] وهن / ضعف.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۳۳۹:۱، الطبری حوادث عام ۳۵.

[۱۶] ابن أبی الحدید ۳۴۰:۳.

[۱۷] اللالکائی (کنز العمال ۹۱:۱۳).

[۱۸] ابن عساکر (کنز العمال ۳۶۴:۱۱).

[۱۹] رواه أحمد (الفتح الربانی ۲۴:۲۳) وقال الهیثمی رواه أحمد والطبرانی وأبو یعلی ورجاله ثقات (الزوائد ۲۹۲:۷).

[۲۰] ابن أبی الحدید ۲۴۷:۵.

[۲۱] ابن أبی الحدید ۲۴۸:۵.

[۲۲] ابن أبی الحدید ۳۱۱:۴.

[۲۳] ابن أبی الحدید ۱۶۳.

[۲۴] الطبری ۱۶۳:۵.

[۲۵] الطبری ۱۶۴:۵.

[۲۶] الطبری ۱۶۹:۵.

ضجیج فی أعماق الحجهٔ

کانت مکهٔ منطلقا للأحداث بین أم المؤمنین عائشهٔ وبین أمیر المؤمنین

علی، وبالنظر فی خطب أمیر المؤمنین بعد نکث طلحهٔ والزبیر وخروج أم المؤمنین عائشهٔ. ترى أن جمیع الخطب تدور على محور واحد هو... ": فإنه لما قبض الله نبیه صلى الله علیه وسلم. قلنا: نحن أهله وورثته وعترته.

[صفحه ۵۰۴]

وأولیاؤه من دون الناس. لا ینازعنا سلطانه أحد ولا یطمع فی حقنا طامع. إذ انبرى لنا قومنا فغصبونا سلطان نبینا. فصارت الإمرهٔ لغیرنا. وصرنا سوقهٔ. یطمع فینا الضعیف. ویتعزز علینا الذلیل ["..... ۱] ، وفی جمیع هذه الخطب یبین الإمام مبایعهٔ الناس له بعد مقتل عثمان وأن من بین الذین بایعوه طلحهٔ والزبیر. وقد نکثا وغدرا ونهضا إلى البصرهٔ بعائشهٔ لیفرقا الجماعهٔ. والباحث لا یعلم حقیقهٔ الأحداث التی دعت أمیر المؤمنین أن یطرح قضیهٔ الخلافهٔ فی ساحهٔ تواجهه فیها السیدهٔ عائشهٔ. وقبل هذه الأحداث کانت خطب أمیر المؤمنین تدور حول الاصلاح وفی قلیل منها کان یشید بأهل البیت. والذی یمکن أن یؤکده البحث العلمی هو أن علاقهٔ السیدهٔ عائشهٔ بأمیر

المؤمنين لم تكن على المستوى المطلوب وهذه العلاقة كان النبى صلى الله عليه وسلم يقيم عليها الحجة فى عهده لما سيترتب عليها. من ذلك ما رواه ابن حجر عن معاذة الغفارية قالت: كنت أخرج مع رسول الله فى الأسفار. أقوم على المرضى، وأداوى الجرحى. فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت عائشة وعلى خارج من عندها. فسمعته يقول لعائشة: إن هذا أحب الرجال إلى وأكرمهم على فاعرفى له حقه وأكرمى مثواه [" ۲] ، وعن رافع مولى عائشة قالت: كنت غلاما أخدمها إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها. وإنه قال ": عادى الله من عادى عليا [" ۳] وكانت السيدة عائشة تعلم علم اليقين موضع

على وفاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فعن النعمان قال: استأذن أبو بكر صلى الله عليه وسلم. فسمع صوت عائشة عاليا وهى تقول: والله لقد عرفت أن عليا وفاطمة أحب إليك منى ومن أبى - مرتين أو ثلاثا - فاستأذن أبو بكر فأهوى إليها فقال ": يا بنت فلانة لا أسمعك ترفعين صوتك على رسول الله صلى الله عليه وسلم [" ۴] .

[صفحه ۵۰۵]

فالنبى صلى الله عليه وسلم أقام الحجة فى هذا الأمر. والسيدة عائشة عرفت بهذه الحجة وأقرت. والملاحظ أن العلاقة بين السيدة عائشة وبين أمير المؤمنين على لم تتقدم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فعندما ذكر عندها: هل أوصى النبى صلى الله عليه وسلم إلى على؟ قالت: ما قاله؟ [۵] ، ثم أخبرت بأن الرسول توفى بين سحرها ونحرها وقال: فمتى أوصى؟ ولقد بينا من قبل أن هناك طائفة من الأحاديث الصحيحة أيضا تقول بأن النبى صلى الله عليه وسلم توفى وهو مستند إلى صدر على وهو الذى غسله. وبعيدا عندما يتعلق بقضية الخلافة. نرى أن السيدة عائشة وهى تصف ذهاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى بيتها عند مرضه تقول: فخرج وهو بين رجلين تخط رجلاه فى الأرض. بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر. الأمر الذى جعل ابن عباس يقول: هل تدرى من الرجل الآخر الذى لم تسم عائشة: هو على [" ۶] ، ومن الدليل على أن العلاقة لم يحدث فيها تقدم على المستوى المطلوب قول النبى صلى الله عليه وسلم لعلى: إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر. قال: أنا يا رسول الله! قال: نعم [۷] .

ولما كانت الدعوة لا تجامل أحدا. فإن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بأن الفتن الكبرى ستكون على أيديهم. وقال ": إنى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم [" ۸] ، ولم يستثن أزواجه من هذا وإنما قال ": لا إله إلا الله ما فتح الليلة من الخزائن. لا إله إلا الله ما أنزل من الفتن. من يوقظ صواحب الحجرات رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة " قال البخارى ": يريد به

[صفحه ۵۰۶]

أزواجه [" ۹] ، لقد أقام النبى صلى الله عليه وسلم الحجة على منطقة الاختيار فى الإنسان. وفى علم الله المطلق أن كثيرا من الصحابة لن يلتفتوا إلى هذه الحجة وهذا التحذير، ولكن العلم المطلق يقابله تحذير مطلق. وهذه سنة إلهية جارية منذ أن بعث الله تعالى رسله حتى لا يكون للناس على الله حجة. والنبى صلى الله عليه وسلم عندما قال لعلى ": سيكون بينك وبين عائشة أمر. بين صلى الله عليه وسلم طريق هذا الأمر لتأخذ السيدة عائشة حذرها إذا سلكت هذا الطريق فقال لنسائه: ليت شعرى. أيتكن صاحبة الجمل الأدبب. تخرج فتنبحها كلاب الحوأب. يقتل عن يمينها ويسارها قتلى كثير [" ۱۰] .

وفى رواية قال لعائشة: إياك يا حميراء [۱۱] وكان عند حذيفة خبر هذه الرحلة. لأنها فى علم الله المطلق واقعة لا محالة ووقوعها لا ينفى ولا يقلل من وجود الحجة على بداية الطريق. قال حذيفة لرجل: ما فعلت أمك؟ قال: قد ماتت. فقال: أما إنك ستقاتلها. فعجب الرجل من ذلك حتى خرجت عائشة [۱۲] ونظرا لاتساع وعمق مساحة اللارواية وما نتج عنها. كان حذيفة

يقول: لو حدثتكم أن أمكم تغزوكم أتصدقونى؟ قالوا: أو حق ذلك! قال: حق [۱۳] وكان حذيفة يقول فى مساحة اللارواية: لو حدثتكم ما أعلم لافترقتم

على ثلاث فرق. فرقة تقاتلنى، وفرقة لا تنصرنى، وفرقة تكذبنى [۱۴] ولهذا

اختصر حذيفة الطريق وأوصى الناس بأن يلزموا عمارا لأنه علم أن عمارا لا يفارق عليا. فإن لزموا عمارا لزموا عليا.

[صفحه ۵۰۷]

وعلی الرغم من أن مساحهٔ اللاروایهٔ قد عتمت علی تحذیرات کثیرهٔ وتبشیرات أکثر، إلا أن الحجهٔ کانت قائمهٔ حتی فی هذه العتمهٔ. وکان العدید من الصحابهٔ یعلمون أن لهم یوما یبتلون فیه وأن الجمل سیکون علامهٔ ناصعهٔ فی هذا الیوم. فعن عمیر بن سعید قال: کنا جلوسا مع ابن مسعود وأبو موسی عنده. فأخذ الوالی رجلا فضربه وحمله علی جمل، فجعل الناس یقولون: الجمل الجمل. فقال رجل: یا أبا عبد الرحمن هذا الجمل الذی کنا نسمع؟ قال: فأین البارقهٔ [۱۵] .

فمن هذا کله نستطیع القول بأن الحجهٔ علی الأحداث قد قامت علی الجیل الأول وذلک فی إخبار النبی صلی الله علیه وسلم بالغیب عن ربه جل وعلا. ویمکن أن نقول. إن الضجیج الذی حدث فی مکهٔ وإن کان مظهره یحمل قمیص عثمان. إلا أن جوهره بخلاف ذلک. فالذین نکثوا البیعهٔ أرادوا شق الأمهٔ بوضع السیدهٔ عائشهٔ فی أعلی مربع أهل البیت لیقطعوا الطریق علی علی بن أبی طالب. والدلیل علی ذلک ما حدث أثناء الهیاج عندما هب الناس للبحث عن الحقیقهٔ. فلقد ذهبوا إلی أکابر الصحابهٔ وقتئذ لیعرفوا من هم أهل البیت. روی الإمام مسلم أن یزید بن حبان وحصین بن سبرهٔ وعمر بن مسلم. ذهبوا إلی زید بن أرقم فقال له حصین: من أهل بیته یا زید. ألیس نساؤه من أهل بیته. فقال زید: لا – وفی روایهٔ – نساؤه من أهل بیته ولکن أهل بیته من حرم الصدقهٔ بعده [" ۱۶] ، قال النووی: نساؤه لا یدخلن فیمن حرم الصدقهٔ [۱۷] وسیأتی متابعهٔ حرمهٔ الناس فی

هذا الوقت فی حینه. ومن الدلیل أیضا علی أن المقصود من حرکهٔ الناکثین الإطاحهٔ بعلی من دائرهٔ أهل البیت. أن النبی صلی الله علیه وسلم أخبر بأن هذا الالتباس سیحدث. وأوصی بعلی. وذلک فیما رواه حذیفهٔ قال: کیف أنتم وقد خرج أهل بیت نبیکم صلی الله علیه وسلم فرقتین. یضرب بعضهم وجوه بعض. قالوا:

[صفحه ۵۰۸]

یا أبا عبد الله. وإن هذا لکائن! وقال بعض أصحابه: فکیف نصنع إن أدرکنا ذلک الزمان؟ قال: انظروا الفرقهٔ التی تدعوا إلی أمر علی فإلزموها فإنها علی الهدی [۱۸] .

وعلی هذا وذاک یمکن القول بأن الناکثین خلطوا الأمور أمام السیدهٔ عائشهٔ. فخرجت للإصلاح ولکنهم ساروا بها فی طریق شق الصف. وعندما نبحت علیها کلاب الحوأب. أرادت الرجوع ولکنهم قالوا لها: تقدمی ویراک الناس ویصلح الله عزو جل ذات بینهم [۱۹] وتقدمت السیدهٔ عائشهٔ. ومن ورائها

تحذیر یخوفها من الشیطان. روی البخاری عن عبد الله قال قال النبی صلی الله علیه وسلم خطیبا فأشار نحو مسکن عائشهٔ فقال ": ها هنا الفتنهٔ – ثلاث مرات – من حیث یطلع قرن الشیطان [" ۲۰] ، لقد کانت الأهواء تحیط بمسکن أم المؤمنین. ویرید أصحابها شق الصف أولا- لیبحث کل صاحب هوی عن کرسی له ثانیا: یرکب به علی أعناق الأمهٔ. ولم تتبین أم المؤمنین هذه الأهواء فی وقتها. ولکنها علمت حقیقتها بعد ذلک. فلم تجد رضی الله عنها إلا الدمع تعبر به عن ندم طویل [۲۱] وسنذکر ذلک بتفاصیله فی حینه.

[۱] راجع هذه الخطب فی ابن أبی الحدید ۱:۲۴۸ وما بعدها.

[۲] الإصابهٔ ۸:۱۸۳.

[۳] أخرجه ابن منده بسند صحیح (الإصابهٔ ۲:۱۹۱).

[۴] رواه الإمام أحمد وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الفتح الربانی ۴:۲۷۵) (الزوائد ۹:۲۰۱).

[۵] رواه البخاری (الصحیح ۳:۹۵) ک المغازی باب مرض النبی.

[۶] البخاری ک المغازی، ب مرض النبی (الصحیح ۳:۹۳) ومسلم (الصحیح ۴:۱۳۹).

[۷] رواه الإمام أحمد (المسند ۶:۳۹۳) والبزار (کشف الأستار ۴:۹۴) وقال الهیثمی ورجاله ثقات (الزوائد ۷:۲۳۴).

[۸] رواه البخاری (الصحیح ۱:۳۲۲)، ومسلم (الصحیح ۷:۱۸).

[۹] رواه أحمد والبخاری والترمذی (الفتح الربانی ۳۴:۲۳) (صحیح البخاری ک اللباس ۳۳، ۸۴:۴)، (جامع الترمذی ۴۸۸:۴).

[۱۰] رواه البزار (کشف الأستار ۴:۹۴) وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۷:۲۳۴).

[۱۱] رواه أبو نعیم بسند صحیح (کنز العمال ۳۳۴:۱۱).

[۱۲] رواه ابن أبی شیبة (کنز العمال ۳۳۳:۱۱).

[۱۳] رواه أبو نعیم وابن عساکر (کنز العمال ۲۱۸، ۳۳۳:۱۱).

[۱۴] رواه ابن أبی شیبة (کنز العمال ۲۲۷:۱۱).

[۱۵] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۲۳۷:۷).

[۱۶] رواه مسلم (الصحیح ۱۷۹:۱۵) فی فضل علی ما.

[۱۷] النووی شرح مسلم (۱۸۰:۱۵).

[۱۸] رواه البزار وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۲۳۶:۷).

[۱۹] رواه الحاکم (المستدرک ۱۲۰:۳).

[۲۰] رواه البخاری (فتح الباری حدیث رقم ۳۱۰۴، ص ۲۴۳:۶ ط الربان)، ومسلم (الصحیح ۳۱:۱۸)، والإمام أحمد والترمذی (الفتح الربانی ۱۸:۲۴).

[۲۱] ندم السیدة عائشة رواه الطبرانی (الزوائد ۲۳۸:۷) وابن سعد (الطبقات ۷۴:۸) والحاکم (المستدرک ۶:۴).

الناکثون فی أعماق الحجة

کان الإمام علی یعلم إلی أین ستنتهی الأحداث. أولا: لأن هناک نصا أنه

سیقاتل الناکثین والقاسطین والمارقین. ومن کان هذا شأنه فلا بد أن یعرف البدایات التی ستنتهی إلی میدان القتال. وثانیا: لأنه کان قد تعلم رؤوس الفتن ورؤوس النفاق، روی أنه قال ": ما من ثلاثمائة تخرج إلا ولو شئت سمیت

[صفحه ۵۰۹]

سائقها وناعقها إلی یوم القیامة [" ۱] ، وعن حذیفة قال... ": والله ما ترک رسول الله صلی الله علیه وسلم من قائد فتنة إلی أن تنقضی الدنیا یبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدا إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبیه واسم قبیلته [" ۲] ولأن الإمام

یعلم الرجال ومقاصدهم. کانت حرکته کلها حجة علیهم. روی أنه بعد قتل عثمان جاء علی بن أبی طالب فقال لطلحة: أبسط یدک یا طلحة لأبایعک. فقال طلحة: أنت أحق وأنت أمیر المؤمنین فابسط یدک فبسط علی یده فبایعه [۳] .

وطلحة کان یطمع فی الخلافة. وکان لا یشک أن الأمر بعد عثمان سیکون له لوجوه منها: سابقته. ومنها أنه ابن عم لأبی بکر. وکان لأبی بکر فی نفوس أهل ذلک العصر منزلة عظیمة، ومنها أنه کان سمحا جوادا. وقد کان نازع عمر فی حیاة أبی بکر. وأحب أن یفوض أبو بکر الأمر إلیه من بعده [۴] وقال لأبی

بکر: ما تقول لربک وقد ولیت علینا فظا غلیظا. وکان له فی أیام عمر قوم یجلسون إلیه. ویحادثونه سرا فی معنی الخلافة. ویقولون له: لو مات لبایعناک بغتة. وعندما بلغ ذلک عمر. خطب الناس بالکلام المشهور: إن قوما یقولون: إن بیعة أبی بکر کانت فلتة. وإنه لو مات عمر لفعلنا وفعلنا ["... ۵] وعندما جعلها عمر شوری لم یجد طلحة لنفسه مخرجا للفوز بالخلافة. حیث إن الشوری ما کانت لتصب إلا فی إناء بنی أمیة لأن عثمان و عبد الرحمن وسعدا حزمة واحدة. بالإضافة إلی أن وجود عبد الرحمن فی فریق یرجح هذا الفریق علی الفریق الآخر کما نصت لائحة الشوری. ورضی طلحة بالأمر الواقع حتی جاءت الأحداث التی أطاحت بعثمان. وکما رأینا أنه کان من المؤلبین علیه واستولی علی مفتاح بیت المال أثناء هذه الثورة. لأنه کان لا یشک فی أن الأمر سیصب فی سلته. ومن

العجيب أن أم المؤمنين عائشة كانت على علم بهذه

[صفحه ۵۱۰]

الأحداث وهى فى مكة. روى أن ابن عباس مر بها فى الصلصل. فقالت: يا ابن عباس أنشدك الله. فإنك قد أعطيت لسانا إزعيلا [۶] أن تخذل عن هذا الرجل -

يعنى عثمان - وأن تشكك فيه الناس. فقد بانت لهم بصائرهم. وأنهجت ورفعت لهم المنار. وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم وقد رأيت طلحة بن عبيد الله. قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح. فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه. فقال ابن عباس: يا أمه لو حدث بالرجل حدث. ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا - يعنى عليا - فقالت: إيها عنك. إنى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك [" ۷] وعندما بلغها قتل عثمان قالت: أحق الناس بهذا الأمر لذى

الإصبع - تعنى طلحة - فلما جاءت الأخبار ببيعة على قالت: تعسوا تعسوا لا يردون الأمر فى تيم أبدا [" ۸] فهذا الطريق الطويل أقام الإمام على عليه الحجة

فى أوله عندما قال لطلحة: أبسط يدك يا طلحة لأبايعك. وذلك ليقطع طريق الهوى [۹] وهو يعلم أن طريق الهوى سيصب فى ميدان القتال حيث يكون قتاله

مع الناكثين. وليس معنى قتال الناكثين أن الحجة لم تقم عليهم فى أول الطريق. وإنما قامت لأن الطريق سيكون عليه دماء. وهذه الدماء لها قانون. وهذا القانون تنيره حجة ظاهرة ناصعة. وروى أن طلحة والزبير سألا على بن أبى طالب أن يؤمرهما على الكوفة والبصرة. وكانا لهما أتباع فيهما. فقال على ": تكونان عندى. فأتحمل بكما، فإنى وحش لفراقكما [" ۱۰] وروى ابن قتيبة. أنهما قالا: ولكنا بايعناك على أنا

شريكان فى الأمر. فقال على لا. ولكنكما شريكان فى القوة والاستقامة والعون

[صفحه ۵۱۱]

على العجز والأود [" ۱۱] ، وبقى طلحة والزبير فى المدينة أربعة أشهر يراقبان عليا من قريب [۱۲] .

لقد كان طلحة يعلم أنه لن يكون له فى ظل عهد أمير المؤمنين إلا ما يستحقه. ولذلك قال بعد أن بايع الناس عليا " ما لنا من هذا الأمر إلا كلحسة أنف الكلب [" ۱۳] ، وفى هذا اليأس جاءته رسالة من معاوية وفيها: أما بعد. فإنك أقل قريش وترا. مع صباحة وجهك. وسماحة كفك. وفصاحة لسانك. فأنت بإزاء من تقدمك فى السابقة. وخامس المبشرين بالجنة. ولك يوم أحد وشرفه وفضله. فسارع رحمك الله إلى ما تقلدك الرعية من أمرها مما لا يسعك التخلف عنه. ولا يرضى الله منك إلا بالقيام به. فقد أحكمت لك الأمر قبلى. والزبير متقدم عليك بفضل. وأيكما قدم صاحبه فالمقدم الإمام. والأمر من بعده للمقدم له. سلك الله بك قصد المهتدين. ووهب لك رشد الموفقين. والسلام [" ۱۴] .

ولم يكن طلحة وحده الذى أرسل إليه معاوية الرسالة الفخ. وإنما أرسل إلى الزبير أيضا. وفيها:... واعلم يا أبا عبد الله. أن الرعية أصبحت كالغنم المتفرقة لغيبة الراعى. فسارع رحمك الله إلى حقن الدماء ولم الشعث. وجمع الكلمة. وصلاح ذات البين. قبل تفاقم الأمر وانتشار الأمة. فقد أصبح الناس على شفا جرف هار وعما قليل ينهار إن لم يرأب. فشمر لتأليف الأمة. وابتغ إلى ربك سبيلا. فقد أحكمت الأمر على من قبلى لك ولصاحبك. على أن الأمر للمقدم. ثم لصاحبه من بعده. جعلك الله من أئمة الهدى. وبغاة الخير والتقوى والسلام [" ۱۵] .

وبينما لوح لطلحة والزبير بالخلافة. نجده فى رسائله إلى مروان بن الحكم وسعيد بن العاص و عبد الله بن عامر والوليد بن عقبة ويعلى بن منبه. يطالب

[صفحه ۵۱۲]

بالحذر والسهر حتى لا يفلت الأمر من أيدى بنى أميهٔ. فهو يقول لمروان: فإذا قرأت كتابى هذا فكن كالفهد لا يصطاد إلا غيلهٔ. ولا يتشازر إلا عن حيلهٔ. وكالثعلب لا يفلت إلا روغانا. واخف نفسك منهم إخفاء القنفذ رأسه عند لمس الأكف. وامتهن نفسك إمتهان من ييأس القوم من نصره وانتصاره وابحث عن أمورهم بحث الدجاجهٔ عن حب الدخن عند فقسها. وأنغل [۱۶] الحجاز فإنى منغل الشام والسلام [" ۱۷] .

وكتب إلى يعلى بن منبه،... فأما الشام فقد كفيتك أهلها. وأحكمت أمرها. وقد كتبت إلى طلحهٔ بن عبيد الله. أن يلقاك بمكهٔ. حتى يجتمع رأيكما على إظهار الدعوهٔ والطلب بدم عثمان أمير المؤمنين المظلوم. وكتبت إلى عبد الله بن عامر يمهد لكم العراق. ويسهل لكم حزونهٔ عقابها [۱۸] واعلم يا ابن

أميهٔ أن القوم قاصدوك بادئ بدء لاستنطاف ما حوته يداك من المال فاعلم ذلك واعمل على حسبه إن شاء الله [" ۱۹] .

وكتب إلى سعيد بن العاص:... إن أمير المؤمنين عتب عليه فيكم. وقتل فى سبيلكم. ففيم القعود عن نصرته والطلب بدمه. وأنتم بنو أبيه. ذوو رحمه وأقربوه. وطلاب ثأره... فإذا قرأت كتابى هذا فدب دبيب البرء فى الجسد النحيف. وسر سير النجوم تحت الغمام... فقد أيدتكم بأسد وتيم [" ۲۰] .

وكتب إلى عبد الله بن عامر: ساور الأمر مساورهٔ الذئب الأطلس كسيرهٔ القطيع. ونازل الرأى. وانصب الشرك. وارم عن تمكن. وضع الهناء [۲۱] مواضع النقب [۲۲] واجعل أكبر عدتك الحذر. وأحد سلاحك التحريض... وقم قبل أن

[صفحه ۵۱۳]

يقام لك. واعلم أنك غير متروك ولا مهمل. فإنى لكم ناصح أمين ["... ۲۳] ، ودخل طلحهٔ والزبير فى فخاخ بنى أميهٔ بعد أن علم معاويهٔ موطن الداء فيهما، وبدأ كل من طلحهٔ والزبير يعد العدهٔ للذهاب إل مكهٔ حيث توجد السيدهٔ عائشهٔ وأذرع بنى أميهٔ التى ترتدى قفازات من حرير غمست فى السم أياما طويلهٔ. وعن أم راشد قالت: سمعت طلحهٔ والزبير يقول أحدهما لصاحبه: بايعته أيدينا ولم تبايعه قلوبنا. فقلت لعلى بن أبى طالب فقال ": من نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد الله عليه فسيؤتيه أجرا عظيما" [۲۴] ، وجاء طلحهٔ والزبير. فاستأذناه فى الخروج إلى مكهٔ للعمرهٔ. فأذن لهما. بعد أن أحلفهما ألا ينقضا بيعته. ولا يغدرا به. ولا يشقا عصا المسلمين ولا يوقعا الفرقهٔ بينهم وأن يعودا بعد العمرهٔ إلى بيوتهما بالمدينهٔ. فحلفا على ذلك كله ثم خرجا [" ۲۵] .

وروى أنه لما خرج طلحهٔ والزبير إلى مكهٔ وأوهما الناس أنهما خرجا للعمرهٔ.. قال على لأصحابه: والله ما يريدان العمرهٔ وإنما يريدان الغدرهٔ " ومن نكث فإنما ينكث على نفسه [" ۲۶] ، وهكذا قامت الحجهٔ فى البدايهٔ وفى النهايهٔ.

[۱] رواه نعيم بن حماد بإسناد صحيح (كنز العمال ۱۱:۲۷۱).

[۲] رواه أبو داوود حديث ۴۲۲۲.

[۳] الطبرى ۵:۱۵۶.

[۴] ابن أبى الحديد ۳:۱۴۶.

[۵] الطبرى ۳:۲۰۰.

[۶] ابن أبى الحديد.

[۷] الطبرى ۵:۱۴۰، البلاذرى ۲:۲۱۷.

[۸] ابن أبى الحديد ۲:۴۰۹.

[۹] روى أن طلحهٔ والزبير قالا بعد أن قال لهما على ذلك: عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا (الطبرى ۵:۱۵۳).

[۱۰] الطبرى ۵:۱۵۳.

[۱۱] الإمامهٔ والسياسهٔ ۱:۵۱.

[۱۲] تاریخ الیعقوبی ۱۲۷:۲، ابن أبی الحدید ۵۷۷:۳، الطبری ۱۵۳:۵.

[۱۳] الطبری ۱۵۳:۵.

[۱۴] ابن أبی الحدید ۵۳۳:۳.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۵۳۳:۳.

[۱۶] أنغلهم / أجملهم علی الضعن.

[۱۷] ابن أبی الحدید ۵۳۳:۳.

[۱۸] العقاب / المرقی الصعب من الجبال.

[۱۹] ابن أبی الحدید ۵۳۶:۳.

[۲۰] ابن أبی الحدید ۵۳۴:۳.

[۲۱] هنأ البعیر / طلاء بالقطران.

[۲۲] النقب / هو أول ما یبدو من الجرب.

[۲۳] ابن أبی الحدید ۵۳۴:۳.

[۲۴] رواه ابن أبی شیبة (کنز العمال ۲۳۵:۱۱).

[۲۵] ابن أبی الحدید ۵۷۶:۳، الطبری ۱۶۳:۵.

[۲۶] ابن أبی الحدید ۵۷۶:۳.

لقاء فی مکة

لما قتل عثمان کانت عائشة بمکة. وبینما هی فی طریقها من مکة إلی

المدینة لقیها رجل یقال له عبد الله بن أبی سلمة. یعرف بأمه أم کلاب. فقال لها: لا تدری. قتل عثمان. قالت: ثم صنعوا ماذا؟ قال: اجتمعوا علی بیعة علی. فقالت: لیت هذه انطبقت علی هذه إن تم الأمر لصاحبک، ردونی ردونی. فانصرفت إلی مکة وهی تقول: قتل والله عثمان مظلوما والله لأطلبن بدمه. فقیل

[صفحه ۵۱۴]

لها: ولم والله إن من أول من أمال حرفه لأنت. ولقد کنت تقولین: اقتلوا نعثلا فقد کفر. قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه. وقد قلت وقالوا. وقولی الأخیر خیر من قولی الأول فقال لها ابن أم کلاب:

فمنک البداء ومنک الغیر++

ومنک الریاح ومنک المطر

وأنت أمرت بقتل الإمام++

وقلت لنا أنه قد کفر

فهبنا أطعناک فی قتله++

وقاتله عندنا من أمر [۱] .

وروی من طرق مختلفة أن عائشة کانت من أشد الناس علی عثمان. وهی أول من سمی عثمان نعثلا. وکانت لا تشک فی أن طلحة هو صاحب الأمر بعد عثمان. وروی أن عائشة نزلت علی باب المسجد. وقصدت للحجر فسترت فیه. واجتمع الناس إلیها فقالت: یا أیها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المیاه وعبید أهل المدینة. اجتمعوا إن عاب الغوغاء علی هذا المقتول بالأمس الأرب.

واستعمال من حدثت سنه، وقد استعمل أسنانهم قبله. ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم. وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها. فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم. فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا. خلجوا وبادءوا بالعدوان. ونبا فعلهم عن قولهم. فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام. والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم. فنجاة من اجتماعكم عليهم. حتى ينكل بهم غيرهم. ويشرد من بعدهم. ووالله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا. لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه [" ۲] وروى ابن أبى الحديد أن طلحة والزبير كتبا إلى عائشة

وهى بمكة كتابا: أن خذلى الناس عن بيعة على. وأظهرى الطلب بدم عثمان. وحملا الكتاب مع ابن أختها عبد الله بن الزبير [" ۳] .

وبدأت إذاعة المعارضين تعمل من أجل إيجاد رأى عام. واجتمع القوم فى

[صفحه ۵۱۵]

بيت أم المؤمنين عائشة، وقالوا: نسير إلى على بن أبى طالب فنقاتله. فقال البعض: ليس لكم طاقة بأهل المدينة. ولكنا نسير حتى ندخل البصرة والكوفة ولطلحة بالكوفة شيعة وهوى. وللزبير بالبصرة هوى ومعونة. فاجتمع رأيهم على أن يسيروا إلى البصرة [۴] وأعلنت عائشة الاتفاق فقالت: أيها الناس إن هذا

حدث عظيم وأمر منكر. فانهضوا فيه إلى إخوانكم. من أهل البصرة وأنكروه. فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم - يعنى معاوية - لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم [" ۵] ، ورفع بنو أمية رؤوسهم. وقام سعيد بن العاص والوليد بن عقبة وسائر بنى أمية. وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة ويعلى بن أمية - وينسب إلى أمه منبه - من اليمن [۶] وجاء طلحة والزبير من

المدينة. وكان أمير المؤمنين على بن أبى طالب قد استحلفهما أن لا يوقعا الفرقة بين المسلمين. فحلفا على ذلك وغيره. وعندما التقت بهما عائشة قالت لهما: ما وراءكما؟ قالا: فارقنا قوما حيارى لا يعرفون حقا ولا ينكرون باطلا [" ۷] .

وبدأ الإعداد للغزو وقال يعلى بن أمية: معى ستمائة ألف وستمائة بعير فاركبوها. وقال عبد الله بن عامر معى كذا وكذا فتجهزوا به [۸] ونادى المنادى:

إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة. فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين. والطلب بثأر عثمان. ولم يكن عنده مركب ولم يكن له جهاز فهذه جهازه وهذه نفقته [" ۹] ، وكان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة وقتئذ. وانطلق القوم إلى أم المؤمنين حفصة يسألونها رأيها فى الأحداث فقالت: رأيى يتبع لرأى عائشة، وأرادت حفصة الخروج. فأتاها عبد الله بن عمر وطلب منها أن تقعد. فبعثت إلى عائشة أن عبد الله حال بينى وبين الخروج

[صفحه ۵۱۶]

فقالت عائشة: يغفر الله لعبد الله [" ۱۰] .

وبدأ التحرك. وذكر الطبرى: أن مروان بن الحكم أذن للصلاة حين خرجوا من مكة. ثم جاء إلى طلحة والزبير وقال: على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة؟ فقال عبد الله بن الزبير: على أبى عبد الله. وقال محمد بن طلحة: على أبى محمد. فأرسلت عائشة إلى مروان وقالت: ما لك أتريد أن تفرق أمرنا. ليصل ابن أختى!! فكان يصلى بهم عبد الله بن الزبير حتى قدم إلى البصرة [۱۱] .

وبينما الركب فى الطريق. شاهدوا رجلا معه جمل. فقالوا: يا صاحب الجمل تبيع جملك؟ قال: نعم. قيل له: بكم؟ قال: بألف درهم.. قيل: لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعنا. قال: ولمن تريده، فقيل له: لأمك. قال: تركت أمى فى بيتها قاعدة. قيل: إنما نريده لأم المؤمنين عائشة، قال: فهو لك فخذه بغير ثمن. قيل له: لا ولكن ارجع معنا إلى الرحل فلنعطك ناقة مهرية ونزيدك دراهم. وبعد أن أعطوه، قالوا له: يا أخا عرينة هل لك دلالة بالطريق. قال: نعم: أنا من أدرك الناس. قالوا: فسر معنا. فسار معهم وكان لا يمر على واد ولا ماء إلا سألوه عنه. حتى طرقوا ماء الحوأب فنبحتهم كلابها. قالوا: أى ماء هذا. قال: ماء الحوأب. فصرخت عائشة. ثم قالت: أنا والله صاحبة كلاب الحوأب. طروقا ردونى [۱۲] فقالوا لها: بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله

عزو جل ذات بينهم، قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لها ذات يوم: كيف بإحداكن تنبح عليه كلاب الحوأب وانطلقت أم المؤمنين نحو البصرة، فى الركب الذى أقيمت عليه الحجة.

[صفحه ۵۱۷]

[۱] الكامل / ابن الأثير ۳:۱۰۶، الطبرى ۵:۱۷۲.

[۲] الطبرى ۳:۱۶۵، الكامل ۳:۱۰۶.

[۳] ابن أبى الحديد ۲:۴۰۹.

[۴] الطبرى ۵:۱۶۸.

[۵] الطبرى ۵:۱۶۷.

[۶] الطبرى ۵:۱۶۶.

[۷] الطبرى ۵:۱۶۶.

[۸] الطبرى ۵:۱۶۶.

[۹] الطبرى ۵:۱۶۷، البداية والنهاية ۷:۲۳۱.

[۱۰] الطبرى ۵:۱۶۷.

[۱۱] الطبرى ۵:۱۶۹، الكامل ۳:۱۰۷.

[۱۲] رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ونعيم بن حماد وقال ابن كثير إسناده صحيح، وقال الهيثمى رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح، ورواه الحاكم وذكر أن القائل: تقدمى هو الزبير (الفتح الربانى ۲۳:۱۳۷) (البداية والنهاية ۶:۲۱۱)، (المستدرك ۳:۱۲۰)، الطبرى ۵:۱۷۸.

نظرات على طريق البغى

عندما بلغ أمير المؤمنين عليا ما استقر عليه طلحة والزبير. قال: والله ما

أنكروا منكرا. ولا جعلوا بينى وبينهم نصفا [۱] وإنهم ليطلبون حقا هم تركوه. ودماهم سفكوه. فإن كنت شريكهم فيه. فإن لهم نصيبهم منه. وإن كانوا ولوه دونى فما المطالبة إلا قبلهم. وإن أول عدلهم للحكم على أنفسهم. وإن معى لبصيرتى. ما لبست ولا لبس على. وإنها للفئة الباغية فيها الحمأ والحمة [۲] والشبهة المغدقة [۳] وإن الأمر

لواضح. وقد زاح الباطل عن نصابه [۴] وانقطع لسانه عن شغبه [۵] وأيم الله

لأفرطن لهم حوضا أنا ماتحه [۶] لا يصدرون عنه برى، ولا يعبون [۷] بعده

من حسى [" ۸] .

قال ابن أبى الحديد: والمعنى: والله ما أنكروا على أمرا هو منكر فى الحقيقة. وإنما أنكروا ما الحجة عليهم فيه لا لهم. وحملهم على ذلك الحسد وحب الاستئثار بالدنيا. وقال: ولا جعلوا بينى وبينهم نصعا أى وسيطا يحكم وينصف. بل خرجوا عن الطاعة بغتة. وإنهم ليطلبون حقا تركوه. أى يظهرون أنهم يطلبون حقا بخروجهم إلى البصرة. وقد تركوا الحق بالمدينة. وقال: إن هؤلاء خرجوا ونقضوا البيعة. وقالوا: إنما خرجنا للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وإظهار العدل وإحياء الحق. وإماتة الباطل. وأول العدل أن يحكموا على أنفسهم. فإنه يجب على الإنسان أن يقضى على نفسه ثم على غيره. وإذا

[صفحه ۵۱۸]

كان دم عثمان قبلهم. فالواجب أن ينكروا على أنفسهم قبل إنكارهم على غيرهم. وقال: إن معى لبصيرتى. أى عقلى أى أوضح النبى

صلى الله عليه وآله وسلم لى كل شئ وعرفنيه. وإنها للفئة الباغية. أى الفئة التى وعدت بخروجها على ثم ذكر بعض العلامات. وقال: إن الأمر لواضح. وقوله هذا يؤكد به عند نفسه وعند غيره. أن هذه الجماعة هى تلك الفئة الموعود بخروجها. ثم أخبر: وقد ذهب الباطل وزاح. وخرس لسانه. ثم أقسم: ليملأن لهم حوضا هو ماتحه - يسقيهم من فوقه - وهذه كناية عن الحرب والهجاء وما يتعقبهما من القتل والهلاك [۹] .

وبعد أن كشف الإمام النقاب عن بداية حرب البغاة التى تحمل أسماء مختلفة وتدور رحاها فى ميادين مختلفة. بين أن البغاة يسيرون نحو هدف واحد يقتلون عليه بعضهم بعضا ويبذلون فى سبيله كل نفيس. وهذا الهدف هو الحكم. قال الإمام بعد نكث طلحة والزبير: "كل واحد منهم يرجو الإمام له. ويعطفه عليه دون صاحبه ولا يمتان [۱۰] إلى الله بحبل ولا يمدان إليه بسبب. كل واحد منهما حامل ضب [۱۱] لصاحبه. وعما قليل يكشف قناعه به. والله لئن أصابوا الذى يريدون لينتزعن هذا نفس هذا. وليأتين هذا على هذا. قد قامت الفئة الباغية فأين المحتسبون [۱۲] قد سنت لهم السنن. وقدم لهم الخير. ولكل

ضال علة. ولكل ناكث شبهة. والله لا أكون كمستمع اللدم [۱۳] يسمع الناعى

ويحضر الباكى. ثم لا يعتبر [" ۱۴] .

فطريق البغى لا يتمسك بحبل الله وأصحاب الرؤوس الكبيرة من صفاتهم أن كل واحد منهم يريد الأمر لنفسه. ولأن هذه هى الحقيقة فإن تحت راياتهم لا

[صفحه ۵۱۹]

يدرى المقتول فى أى شئ قتل. ولا يرى القاتل إلا طعاما له بريق. والقاتل والمقتول لا يدريان شيئا عن الحقيقة. لأن الراية عمية ومرفوعة فى ساحات العصبية. وقد يكون قتال الرجل فى هذه الساحات لينصر عصبته. ولكن الحقيقة أن هذا الغضب والقتال والنصر سيصب فى نهاية المطاف داخل سلة رؤوس البغاة. ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول ": لو أن الناس اعتزلوهم " لأن فى الاعتزال نجاة من الموتة الجاهلية يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات فميتته جاهلية [" ۱۵] ، وقال ": من قتل تحت راية عمية ينصر العصبية ويغضب للعصبية فقتلته جاهلية [" ۱۶] وفى عصر

الإمام على قال الإمام: قد قامت الفئة الباغية. فأين المحتسبون. أى أين طلاب الأجر؟ ثم قال: لكل ضال علة. ولكل ناكث شبهة. كأنه يقول: إذا كانوا قد خرجوا فلا بد أن يكون لهم تأويل فى خروجهم. وكل ناكث لا بد له من شبهة يستند إليها. ولأن الإمام خبير فى معرفة الرجال. ولأنه يقاتل على التأويل كما قاتل النبى صلى الله عليه وسلم على التنزيل. قال: والله لا أكون كمستمع اللدم. أى: لن يكون كالضبع. تسمع وقع الحجر بباب حجرها من يد الصائد. فتنخذل وتكف جوارحها إليها حتى يدخل عليه فيربطها. ولن يكون مقرا بالضيم راعنا، يسمع المخبر عن القتلى فلا يكون عنده شئ من التغيير والإنكار. ومن رحمة الله تعالى أنه سبحانه جعل فى عصر الصحابة من يرشدهم إلى طريق الصواب. على الرغم من سياسة اللاروايه. فأبو ذر كان رواية متحركة فى عهد ما وهذه الرواية ينطق بها صمت أبو ذر ويسمعها من أراد الله أن يقيم الحجة عليه. فالرواية المتحركة لها إيقاع خاص ومذاق خاص عند نمط خاص. وكان أبو ذر يبشر الذين يكنزون الذهب والفضة بمكاو من نار. وفى عصر الإمام على كان عمار رواية متحركة، حجة بذاتها على نوع خاص يدعوهم إلى الجنة

[صفحه ۵۲۰]

ويدعونه إلى النار. باختصار كان عمار حجة على البغاة. حجة على أول طريقهم وحجة على نهاية طريقهم. وليس معنى أنه قتل فى آخر الطريق أنه لم يكن له وجود فى أول الطريق. لأن عمارا بمثابة مشعل على طريق طويل. وهذا المشعل وقوده عند على بن أبى طالب. قال النبى صلى الله عليه وسلم لعمار ": يا عمار إن رأيت عليا قد سلك واديا. وسلك الناس واديا غيره. فاسلك مع على ودع الناس. إنه لن يدلك على ردى ولن يخرجك من الهدى [" ۱۷] ، لهذا كان حذيفة يقول بعد مقتل عثمان ": آمركم أن تلزموا عمارا.

قالوا: إن عمارا لا يفارق عليا. قال: إن الحسد هو أهلك الجسد. وإنما ينفركم من عمار قربه من على. فوالله لعلى أفضل من عمار أبعد ما بين التراب والسحاب. وإن عمارا لمن الأحباب [" ۱۸] ، وإذا كان طريق على بن أبى طالب واضحا وضوح الشمس فى كبد السماء فإن طريق عمار واضح أيضا فهو ما عرض عليه أمران قط إلا اختار الأرشد منهما [۱۹] وهو على الفطرة [۲۰] ، وأجاره الله من الشيطان على لسان نبيه [۲۱] ، ومن عاداه عاداه الله ومن أبغضه أبغضه الله [۲۲] باختصار كان عمار يحمل

مؤهلات طريق على بن أبى طالب. وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد قال لعلى ": يا على ستقاتلك الفئة الباغية وأنت على الحق فمن لم ينصرك يومئذ فليس منى [" ۲۳] ، فإنه قال لعمار الذى يحمل معالم الجندية على طريق على ": ستقتلك الفئة الباغية وأنت على الحق. فمن لم ينصرك يومئذ فليس منى [" ۲۴] .

وطريق على بن أبى طالب يبدأ من أول خطوة رفع فيها على سيفه.

[صفحه ۵۲۱]

ولخطورة ضربات سيف على وما سيترتب عليها حمل عمار أقوى تحذير على الاطلاق ": تقتله الفئة الباغية. يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار " وهذا فى حد ذاته دعوة للتفكير. فأى قوات ستجابه جيشا فيه عمار. لا يمكن أن تقطع بأن عمارا سيخرج من المعركة سالما وأنه لن يصيبه ما يؤدى إلى قتله. وعلى هذا فمن الواجب أن تعيد هذه القوات ترتيب أوراقها فى اتجاه التوبة. وإذا كان هذا التحذير يحيط بعمار. فإن هناك تحذيرا آخر حملته الصحابة منهم أبو رافع. قال النبى صلى الله عليه وسلم ": يا أبا رافع سيكون بعدى قوم يقاتلون عليا. حق على الله جهادهم. فمن لم يستطع جهادهم بيده فبلسانه. ومن لم يستطع بلسانه فبقلبه. ليس وراء ذلك شئ ["۲۵] ، وذلك حتى لا يدق فى أرضية الصحابة أوتاد يأتى عليها الشارد والوارد والسابق واللاحق. وما هى إلا أوتاد فتن لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل تتعداهم إلى غيرهم. ولقد فطن عبد الله بن عباس للتحذير الذى حول عمار. فأراد أن يسمعه الناس بعد بيعة على بن أبى طالب. حتى يكونوا على بينة من أمرهم قبل أن يفتح طريق البغى. فعن عكرمة أن ابن عباس قال له ولابنه على: انطلقا إلى أبى سعيد الخدرى فاسمعا من حديثه. قال: فانطلقنا فإذا هو فى حائط له. فلما رآنا أخذ رداءه فجاءنا. فقعد. فأنشأ يحدثنا. حتى أتى على ذكر بناء المسجد قال: كنا نحمل لبنة وعمار بن ياسر يحمل لبنتين. فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل ينفض التراب عنه ويقول: يا عمار ألا تحمل لبنة كما يحمل أصحابك. قال: إنى أريد الأجر من الله. فجعل ينفض التراب عنه ويقول: ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار [" ۲۶] ، والدعوة إلى النار لها أصول تحدث عنها حذيفة من قبل وذلك عندما قال للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ": فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة إلى أبواب جهنم من

[صفحه ۵۲۲]

أجابهم قذفوه فيها. قال: يا رسول الله صفهم لنا، فقال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا [" ۲۷] ، فاختيار ابن عباس لأبى سعيد الخدرى من أجل أن يسمع منه عكرمة وابنه على. هذا الحديث فى عمار كان لحكمة ومن وراء الحكمة هدف.

[۱] النصف / الأنصاف.

[۲] الحمأ / الطين الأسود، حمة العقرب / سمها.

[۳] الشبهة المغدقة / أى الخفية.

[۴] أى بعد وذهب عن مركزه ومقره.

[۵] الشغب / تهييج الشر.

[۶] لأفرطن لهم حوضا / أى لأملأن، الماتح / المستفى من فوق.

[۷] العب / الشرب بلا مص كما تشرب الدابة.

[۸] الحس / ماء كامن فى رمل يحفر عنه.

[۹] ابن أبی الحدید ۱۵۱:۳.

[۱۰] یمتان / یتوسلان.

[۱۱] انصب / الحقد.

[۱۲] المحتسبون / طالبو الأجر.

[۱۳] مستمع اللدم / کنایة عن الضبع حین تسمع وقع الحجر فتستسلم للصائد.

[۱۴] ابن أبی الحدید ۲۰۶:۳.

[۱۵] رواه أحمد ومسلم (الفتح الربانی ۵۲:۲۳).

[۱۶] رواه مسلم وابن ماجة (کنز العمال ۵۰۹:۳).

[۱۷] رواه الدیلمی (کنز العمال ۶۱۴:۱۱).

[۱۸] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۲۴۳:۷).

[۱۹] رواه أحمد (الفتح ۳۳۰:۲۲) والحاکم وصححه (المستدرک ۳۸۸:۳)، والترمذی وصححه (الجامع ۶۶۸:۵).

[۲۰] رواه البزار والطبرانی ورجالهما ثقات (الزوائد ۲۹۵:۹).

[۲۱] رواه البخاری فی مناقب عمار (الصحیح ۳۰۵:۲).

[۲۲] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۲۹۳:۹).

[۲۳] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۶۱۳:۱۱).

[۲۴] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۳۵۱:۱۱).

[۲۵] رواه الطبرانی وقال الهیثمی فیه یحیی ابن الحسین لم أعرفه وبقیة رجاله ثقات (الزوائد ۱۳۴:۹).

[۲۶] رواه أحمد والبخاری (الفتح الربانی ۳۳۱:۲۲).

[۲۷] رواه أحمد (الفتح الربانی ۳۱:۲۳) والبخاری (الصحیح ۲۸۰:۲).

اصداء یوم غدیر خم

کان لتحرک أم المؤمنین عائشة أثر عظیم علی العدید من الأمصار. وذلک
لأن العامة یعلمون أن السیدة عائشة عندما تتکلم فإنها تقف علی أرضیة لیست بعیدة عن النبی کما أنها قریبة من أرضیة الخلافة بعد النبی، والخلفاء یعرف الناس عنهم الکثیر، بینما لا یعرفون شیئا عن علی بن أبی طالب. الذی تتحرک مناقبه تحرک النجوم وراء السحب بعد عودة الروایة. وکان لإذاعة أم المؤمنین الأثر الأعظم. وذلک لوفرة المال الذی حمله یعلی بن أمیة وعبد الله بن عامر من الیمن والبصرة فضلا عن الدعم القوی من الشام. وکما قال الإمام علی: الناس أعداء ما جهلوا.... فلأن الناس کانوا یجهلون حقیقة الأمور فإن الأرضیة التی وقفت علیها أم المؤمنین کانت تکسب کل یوم جدیدا. فمکة لم یخرج منها احتجاج واحد. وفی الکوفة یقف فی موسی فی مربع السیدة عائشة فضلا علی أن الکوفة فیها شیعة لطلحة والبصرة لها هوی فی الزبیر. ومعاویة یراقب من الشام وعمرو بن العاص یتابع من فلسطین... فکل ذلک کان له تأثیر علی من فی المدینة وأصبحت عملیة حشد القوات عملیة تواجهها صعوبات. والحشد بالمال لیس من سیاسة أمیر المؤمنین. فهو حجة ویعرف أنه مقتول فی نهایة الطریق والحجة المقتول لا وقود له یحرکه إلا الدین فالإمام کان یرید الجندی الرسالی الذی ینطلق من الدین وینتهی إلی الدین. لذا سنراه یبکی فی آخر الرحلة وهو یتذکر أصحابه الذین قتلوا فی المعارک. والجندی الرسالی لا بد له من نصوص لتأتی به إلی دائرة أمیر المؤمنین. وبما أن الإمام إذا تحدث عن نفسه

هذا الوقت ربما شككك أعداؤه فيما تفاخر به. وبالذات بعد خروج السيدة عائشة. فهذا الخروج أوجد التباسا شديدا فى تحديد من هم أهل البيت. وهذا التحديد وإن كان عتم عليه فى عالم اللارواية. إلا أنه بعد خروج السيدة عائشة زاد التعتم وأضيف إليه الالتباس. فإذا ادعى على أنه من أهل البيت. جاءه صوت من دائرة الجمل يقول إنه ليس وحده من أهل البيت. بل إنه إذا كان من أهل البيت فإن يده ملطخة بدم عثمان ومن كان كذلك سقطت عنه دعوى أن الله أذهب عنه الرجس وطهره تطهيرا. ومن دخل فى هذه الدائرة فليس له حق فى قيادة المسلمين. وللمسلمين أن يختاروا وأصحاب السوابق كثير. منهم طلحة والزبير ومعاوية الذى يراقب وغير هؤلاء كثير.. لهذا كله كان الحديث عن المناقب على لسان أمير المؤمنين تواجهه عقبات ستدخل المسلمين فى جدل طويل. وهناك من يضع البصرة كهدف هجوم لعملياته الحربية. وكان لا بد أن تأتى المناقب من روايات الساحة ليشهد الإمام لها ويشهد الناس عليها. ولقد رأينا فيما سبق كيف أن ابن عباس جاء بالتحذير الذى حول عمار من داخل الساحة ولم يتحدث هو به. ربما لقربه من الإمام. وشاء الله تعالى أن تكون البداية من داخل الساحة كى تقام الحجة بلا شبهة. لقد جاءت الرواية ليقف أمير المؤمنين منها موقف الذى يستفسر أولا ثم يقيم الحجة ثانيا. عن رياح بن الحرث قال: جاء رهط إلى على بالرحبة [۱] .

فقالوا: السلام عليك يا مولانا. قال: كيف أكون مولاكم وأنتم قوم عرب، فقالوا: سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم ": من كنت مولاه فإن هذا مولاه " قال رياح: فلما مضوا تبعتهم فسألت من هؤلاء، قالوا: نفر من الأنصار فيهم أبو أيوب الأنصارى [۲"] .

[صفحه ۵۲۴]

ومن عالم الغربة الذى استفسر فيه الإمام على عن شئ يعرفه انتقل الحديث عن هذا إلى مكان أوسع. فعن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: شهدت عليا فى الرحبة ينشد الناس: أنشد الله من سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول يوم غدير خم: من كنت مولاه لما قام فشهد. قال عبد الرحمن: فقام اثنا عشر بدريا كأنى أنظر إلى أحدهم عليه سراويل. فقالوا: نشهد أنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم. وأزواجى أمهاتهم [۳] فقلنا: بلى يا رسول الله. قال: فمن كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه [" ۴] ، وفى رواية عن زيد بن يثيع قال: أليس الله أولى بالمؤمنين. قالوا: بلى، قال: اللهم من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه [۵] ، وعن أبى الطفيل قال: جمع على الناس فى الرحبة، ثم قال لهم: أنشد الله كل امرئ مسلم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم ما قال لما قام [۶] ، فقام إليه ثلاثون من الناس. وقال أبو نعيم: فقام إليه ناس كثير فشهدوا حين أخذ بيده وقال: أتعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم. قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فهذا مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. قال أبو نعيم: فخرجت كأن فى نفسى شيئا. فلقيت زيد بن أرقم فقلت له: إنى سمعت عليا يقول كذا وكذا. قال زيد: فما تنكر؟ قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ذلك [" ۷] .

[صفحه ۵۲۵]

وعن عمرو ذى مر وسعيد بن وهب وزيد بن يثيع قالوا: سمعنا عليا يقول: نشدت الله رجلا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم ما قال لما قام. فقام ثلاثة عشر رجلا. فشهدوا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. فأخذ بيد على وقال: من كنت مولاه فعلى مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه وانصر من نصره وأخذل من خذله [" ۸] وفى رواية عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: فقام بضعة عشر رجلا فشهدوا. وكتم قوم فما فنوا من الدنيا إلا عموا وبرصوا [" ۹] ، وأحاديث الرحبة رواها غير واحد [۱۰] ، وبعد أن أخذ على من الناس شهادتهم قال: إن النبى صلى الله عليه وآله وسلم حضر الشجرة بخم ثم خرج آخذا بيدى فقال ": أيها الناس ألستم تشهدون أن الله ربكم؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تشهدون أن الله ورسوله أولى بكم من أنفسكم وأن الله ورسوله مولاكم، قالوا: بلى، قال: فمن كان الله ورسوله مولاه فإن هذا مولاه. وقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده، كتاب الله سببه بيده وسببه بأيديكم أهل بيتى [" ۱۱] .

وكان تعريف أهل البيت فيه التباس شديد فمن هم أهل البيت؟ وهل أزواج النبى منهم أم أنهم يساكنونه ويعولهم ولهم احترامهم وإكرامهم؟ وهذا

[صفحه ۵۲۶]

الالتباس كان سببا فى ذهاب بعض الناس إلى زيد بن أرقم للوقوف على حقيقة هذا الأمر. وقد يكون ذهابهم إلى زيد قبل خروج أم المؤمنين عائشة وقد يكون بعد ذلك، ولكن الأمر المؤكد أن خروج أم المؤمنين هو الذى أوجد السؤال. روى الإمام مسلم عن زيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا. رأيت رسول الله وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه. لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال زيد: يا ابن أخى والله لقد كبر سنى وقدم عهدى ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فما حدثتكم فأقبلوا. وما لا- فلا- تكلفونيه. ثم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة. فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر. ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس. فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول فأجيب. وأنا تارك فيكم الثقلين. أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور. فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: وأهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد. أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته!! ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم [" ۱۲] ، نقول: وهذه الرواية توسعت فى تحديد من هم أهل البيت. وقد روى أن" لكل شئ ذروة، " وآل على فى حديث مسلم فى المقدمة. وفى رواية عند مسلم أيضا عندما سألوا زيدا: أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: لا. وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر. ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده [" ۱۳] ، فإذا كان أهل بيته أصله فإنه فى حديث

[صفحه ۵۲۷]

صحيح يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": على أصلى ["... ۱۴] ، ويقول النووى فى شرحه لحديث مسلم: والمعروف فى معظم الروايات فى غير مسلم أنه قال: نساؤه لسن من أهل بيته [" ۱۵] .

كانت هذه رواية مسلم وظهر فيها سؤال يبدو أنه شغل الجميع فى وقته. ولقد رأينا إجابات زيد بن أرقم. وفى روايات أخرى لم ينقطع العديد من الناس عن سؤال زيد. ولقد سئل أن يحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع فنزل غدير خم أمر بدوحات فقممن، ثم قام فقال: كأنى قد دعيت فأجبت. إنى قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء والأرض. وعترتى أهل بيتى. فانظروا كيف تخلفونى فيهما. فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض. ثم قال: إن الله مولاى وأنا مولى كل مؤمن. ثم أخذ بيد على فقال: من كنت مولاه فعلى وليه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. فقيل لزيد: أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم!! فقال: ما كان فى الدوحات أحد إلا قد رآه بعينه وسمعه بأذنه" [۱۶] .

لقد شهد زيد على عهد عاد رجاله مع النبى صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع. وكما شهد زيد شهد أبو هريرة. روى أنه دخل المسجد فاجتمع إليه الناس فقام إليه شاب فقال: أنشدك بالله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كنت مولاه فعلى مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، فقال: إنى أشهد أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه [" ۱۷] وإذا كان الصحابة قد

[صفحه ۵۲۸]

شهدوا أمام الأجيال بحديث الولاية. فإنهم أيضا شهدوا بحديث المنزلة. روى الإمام مسلم عن سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد بن

أبی وقاص عن أبیه قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم لعلی: أنت منی بمنزلة هارون من موسی إلا أنه لا نبی بعدی. قال سعید بن المسیب: فأحببت أن أشافه بها سعدا. فلقیت سعدا فحدثته بما حدثنی عامر. فقال سعد: أنا سمعته فقلت: أنت سمعته! فوضع أصبعیه علی أذنه وقال: نعم وإلا فأسکتا (أی صمتا ["] ۱۸] ، وإذا کان الصحابة قد شهدوا علی حدیث المنزلة. فإن أم المساور کانت لها شهادة أخری. فعن المساور الحمیری عن أمه قالت: دخلت علی أم المؤمنین أم سلمة فسمعتها تقول: کان النبی صلی الله علیه وسلم یقول: لا یحب علیا منافق ولا یبغضه مؤمن [" ۱۹] ، وهکذا اکتملت الدائرة وجاءت المناقب کالنجوم عندما تظهر من وراء السحاب لیلتقی ضوؤها مع ضوء القمر. وکفی بالمناقب الثلاث لتقوم الحجة علی أجیال الجمل وصفین والنهروان. وأجیال أخری عاشت عصورا حق لها أن تبکی بلا احتجاز.

[۱] الرحبة / فضاء وفسحة ورحبة المسجد ساحته.

[۲] أخرجه أحمد وقال الهیثمی رواه أحمد والطبرانی ورجال أحمد ثقات (الفتح الربانی ۱۲۶:۲۳)، (مجمع الزوائد ۱۰۴:۹) وقال الألبانی فی سلسلة الأحادیث الصحیحة رجاله ثقات وأورده ابن کثیر فی البدایة (البدایة ۵۱۲:۵).

[۳] تحریم زوجات النبی فی هذا المقام یعادل تحریم الولایة علی غیر أصحابها.

[۴] رواه أحمد وقال فی الفتح أورده الهیثمی وقال: رواه أبو یعلی ورجاله وثقوا (الفتح الربانی ۱۲۶:۲۳).

[۵] رواه عبد الله بن أحمد والبزار وقال الهیثمی إسنادهما حسن (الفتح الربانی ۱۲۷:۲۳) وأورده ابن کثیر فی البدایة (۲۱۱:۵)، ورواه البزار (کشف الأستار ۳:۱۹۰) والطبرانی (المعجم الکبیر ۵:۱۷۵).

[۶] یلاحظ أن الإمام لم یقل متن الحدیث وإنما استشهدهم أن یقولوا بما سمعوا. إمعانا فی الحجة.

[۷] قال الهیثمی رواه أحمد ورجاله رجال الصحیح غیر فطر بن خلیفة وهو ثقة (الزوائد ۱۰۴:۹) وقال ابن کثیر رواه النسائی إسناده جید (البدایة ۲۱۰:۵).

[۸] رواه البرار وابن جریر وقال الهیثمی رجال إسناده ثقات (کنز العمال ۱۵۸:۱۳) وقال الألبانی إسناده جید (الصحیحة ۳۴۳:۵).

[۹] رواه الخطیب فی الأفراد (کنز العمال ۱۳۱:۱۳) وابن کثیر فی البدایة (البدایة ۲۱۱:۵).

[۱۰] رماه البزار ورجاله رجال الصحیح وأبو یعلی ورجاله وثقوا و عبد الله بن أحمد (الزوائد ۱۰۵:۹)، وقال ابن کثیر فی أحادیث الرحبة، روی من طرف متعددة عن علی بن أبی طالب وله طرق متعددة عن زید بن أرقم وقال سعید بن جبیر: وأنا سمعته من ابن عباس (البدایة ۳۴۹:۷).

[۱۱] رواه ابن جریر وابن أبی عاصم وابن راهویه والمحاملی بسند صحیح (کنز العمال ۱۴۰:۱۳).

[۱۲] رواه مسلم فی فضائل علی (الصحیح ۱۷۹:۱۵) وأحمد والحاکم (الفتح الربانی ۱۰۴:۲۲).

[۱۳] رواه مسلم (الصحیح ۱۸۱:۱۵) فی فضائل علی.

[۱۴] رواه الطبرانی فی الکبیر والضیاء بسند صحیح (کنز العمال ۶۰۲:۱۳).

[۱۵] مسلم شرح النووی ۱۸۱:۱۵.

[۱۶] رواه ابن جریر عن زید وعن أبی سعید (کنز العمال ۱۰۴:۱۳۱).

[۱۷] رواه أبو یعلی والبزار والطبرانی ورجال أبی یعلی والطبرانی ثقات (الزوائد ۱۰۶:۹). وذکر ابن کثیر فی البدایة (۲۱۳:۵).

[۱۸] رواه مسلم (الصحیح ۱۷۴:۱۵) فی فضائل علی.

[۱۹] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۳۵:۵) ورواه أحمد (الفتح الربانی ۱۲۱:۲۳).

علی هامش أصداء یوم خم

لقد ذكرنا فيما سبق بعض الأحاديث الواردة فى حق أمير المؤمنين. ولقد

وجدت أن ذكر بعضها هنا مرة أخرى يلقى الضوء على الأحداث فيمكن فهمها بسهولة. فأمير المؤمنين بعد أن ضجت الساحة بالأحداث. وبعد أن واجه الصحابة بيوم خم. لم تقف المعارضة له موقف المستسلم. ولقد واجهت المعارضة جميع رسل الله عليهم السلام فى وقت كانت الحجج الدامغة فوق رؤوسهم. وأمام صد المعارضة بدأ الإمام على يكشف عن نفسه وفقا لما يقتضيه الموقف.

ومن المعلوم أن أمير المؤمنين كان مخصوصا من دون الصحابة رضوان الله عليهم بخلوات كان يخلو بها مع رسول الله صلى الله عليه

[صفحه ۵۲۹]

وآله وسلم. لا يطلع أحد من الناس على ما يدور بينهما، وكان كثير السؤال للنبى صلى الله عليه وآله عن معانى القرآن وعن معانى كلامه صلى الله عليه وسلم. وإذا لم يسأل ابتدأه النبى صلى الله عليه وسلم بالتعليم والتثقيف. ولم يكن أحد من الصحابة كذلك. بل كانوا أقساما: فمنهم من يهابه أن يسأل، وهم الذين يحبون أن يجئ الأعرابى أو الطارق فيسأله وهم يسمعون. ومنهم من كان بعيد الفهم قليل الهمة فى النظر والبحث. ومنهم من كان مشغولا عن طلب العلم وفهم المعانى. إما بعبادة أو دنيا. ومنهم المقلد الذى يرى أن فرضه هو السكوت وترك السؤال. ومنهم المبغض الشانئ الذى ليس للدين عنده من الموقع ما يضيع وقته وزمانه بالسؤال عن دقائقه وغوامضه. أما على رضى الله عنه يضاف إلى الأمر الخاص به ذكاؤه وفطنته. وطهارة طينته. وإشراق نفسه وضوؤها... فلذلك كان على كما قال الحسن البصرى ربانى هذه الأمة وذا فضلها [" ۱] ، وقيل للحسن البصرى: ما تقول فى على بن أبى طالب؟ فاحمرت وجنتا الحسن وقال: رحم الله عليا. إن عليا كان سهما صائبا فى أعدائه. وكان فى محلة العلم أشرقها وأقربها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله. وكان رهبانى هذه الأمة. لم يكن لمال الله بالسروقة. ولا فى أمر الله بالنومة. أعطى القرآن عزائمه وعمله وعلمه. فكان منه فى رياض مونقة وأعلام بينة) [۲] .

وعندما بدأ أمير المؤمنين يكشف عن نفسه فى عالم الرواية بعد اندثار عالم اللارواية روى عنه أنه قال ": اللهم لا أعرف أن عبدا لك من هذه الأمة عبدك قبلى غير نبيك - قالها ثلاث مرات - لقد صليت قبل أن يصلى الناس سبعا [" ۳] ، وقال ": أنا أول من صلى مع رسول الله [" ۴] ، وقال ": كنت إذا سألت الله

[صفحه ۵۳۰]

صلى الله عليه وسلم أعطانى وإذا سكت ابتدأنى [" ۵] ، وقال ": كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخلان. مدخل بالليل ومدخل بالنهار [" ۶] ، وقال: لما نزلت هذه الآية (" وأنذر عشيرتك الأقربين) جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل بيته وقال: من يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ووليكم من بعدى، فمددت. وقلت: أنا أبايعك وأنا يومئذ أصغر القوم فبايعنى على ذلك [" ۷] ، وقال ": إنه دخل على النبى صلى الله عليه وسلم وقد بسط شملة (كساء يتغطى ويتلفف به) فجلس عليها هو وعلى وفاطمة والحسن والحسين. ثم أخذ النبى صلى الله عليه وسلم بمجامعه فعقد عليهم ثم قال: اللهم ارض عنهم كما أنا عنهم راض [۸] - وفى رواية - ثم تلا هذه الآية: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)، وقال: إن النبى صلى الله عليه وسلم قال له ": إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك [" ۹] ، وقال ": والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبى الأمى صلى الله عليه وآله إلى، أن لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق [" ۱۰] ، وقال ": جاء النبى صلى الله عليه وسلم أناس من قريش. فقالوا: يا محمد. إنا جيرانك وحلفاؤك. وإن ناسا من عبيدنا قد أتوك. ليس بهم رغبة فى الدين ولا رغبة فى الفقه. إنما فروا من ضياعنا وأموالنا. فأردهم إلينا. فقال لأبى بكر: ما تقول. قال: صدقوا إنهم لجيرانك وأحلافك. فتغير وجه

[صفحه ۵۳۱]

رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لعمر: ما تقول، قال: صدقوا إنهم لجيرانك وحلفاؤك. فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا معشر قريش والله ليبعثن الله عليكم رجلا قد امتحن الله قلبه بالإيمان، فيضربكم على الدين!! أو يضرب بعضكم!! فقال أبو بكر:

أنا يا رسول الله، قال: لا، قال عمر: أنا يا رسول الله. قال: لا. ولكنه الـذى يخصف النعل - وكان أعطى عليا نعلا يخصـفها [" ۱۱] ، وفى روايـة قـال راوى الحـديث عن على: ثم التفت إلينـا على فقال: إن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم قال: من كـذب على متعمـدا فليتبوأ مقعده من النار [" ۱۲] .

وقال على: والله ما قوتل أهل هـذه الآيـة منـذ نزلت: (وإن نكثوا إيمانهم من بعـد عهـدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمـة الكفر إنهم لا إيمان لهم) [۱۳] ، وقال ": عهد إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فى قتال الناكثين والقاسـطين والمارقين [" ۱۴] ، وقال: ولقد علم المسـتحفظون من أصـحاب محمد صـلى الله عليه وسلم أنى لم أرد على الله ولا على رسوله ساعة قط. ولقد واسيته بنفسى من المواطن التى تنكص فيها الأبطال وتتأخر الأقـدام. نجـدة أكرمنى الله بها. ولقـد قبض رسول الله صـلى الله عليه وسـلم. وإن رأسه لعلى صـدرى. ولقد سألت نفسه فى كفى. فأمررتها على وجهى، ولقد وليت غسله صلى الله

[صفحه ۵۳۲]

عليه وسـلم والملائكة أعوانى. فضـجت الدار والأفنية: ملا يهبط، وملأ يعرج. وما فارقت سـمعى هينمة منهم. يصلون عليه، حتى وارياه فى ضـريحه. فمن ذا أحق به منى حيا وميتا. فانفـذوا على بصائركم. ولتصـدق نياتكم فى جهاد عدوكم. فوالذى لا إله إلا هو إنى لعلى جادة الحق. وإنهم لعلى مزلة الباطل. أقول ما تسمعون وأستغفر الله لى ولكم [" ۱۵] .

لقـد أخبرهم أن العلماء والأمناء من الصـحابة يعلمون أنه لم يرد على الله ورسوله ساعـة قط. ويعلمون أنه ثبت معه يوم أحد وفر الناس. وثبت معه يوم حنين وفر النـاس. وثبت تحت رايته يوم خيبر حتى فتحهـا. وكـل ذلك نجـدة من الله أكرمه بها. وأخبرهم بحقيقـة الأمر يوم وفاة النبى صـلى الله عليه وسـلم. والحقيقة أن النبى صـلى الله عليه وسـلم قبض و إن رأسه لعلى صدر على وليست على صدر أحد غيره. وأخبرهم أن الملائكة النازلين فى الدار ارتفع ضـجيجهم. وأنه سمع ذلك ولم يسمعه غيره من أهل الدار، وقال ابن أبى الحديد: حـديث سـماع الصوت رواه خلق كثير عن على. وروى أن عليـا عصب عينى الفضـل بن العبـاس حين صب عليه المـاء. وأن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أوصاه بذلك. وقال: إنه لا يبصر عورتى أحد غيرك إلا عمى [" ۱۶] ، ثم قال الإمام بعد ذلك: أى شخص أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم حال حياته وحال وفاته منى. قال ابن أبى الحديد: ومراده من هذا الكلام. أنه أحق بالخلافة بعده. وأحق الناس بالمنزلـة منه. حيث كان بتلك المنزلـة منه فى الدنيا [۱۷] ، ثم أمرهم فقال: فانفـذوا إلى بصائركم. أى أسـرعوا إلى الجهاد على عقائـدكم التى أنتم عليها. ولا يدخلن الشك والريب فى قلوبكم. ثم بشـرهم فقال: إنى لعلى جادة الحق. وإنهم لعلى منزلة الباطل، قال ابن أبى الحديد: كلام عجيب على قاعدة الصناعة المعنوية لأنه لا يحسن أن يقول: وإنهم لعلى

[صفحه ۵۳۳]

جادة الباطل. لأن الباطل لا يوصف بالجادة [" ۱۸] .

وهكـذا دارت الأحـداث بعد مقتل عثمان. فلقد بايع الناس الإمام عليا وعقب المبايعة بدأت الإصـلاحات العلوية التى بدأت بقرار عزل الأمراء ثم بدأت حركة الاصلاح تتسع فقام الإمام بالتسوية بين الناس فى الأموال وتعديل نظام الخراج فأعاد الحقوق للمقاتلة ثم بدأت الرواية عن النبى صـلى الله عليه وسـلم تتسع وبدأ القص والقصاصون فى ركوب دوابهم للاتجاه نحو عالم النسيان، وبينما كانت حركة الاصـطلاح تسير قطع الناكثون الفارون من بنى أميـة والمرتزقة عليها الطريق. وكانت حركة المعارضة عليها تحذير من النبى صـلى الله عليه وسـلم لعلهم يرجعون ولكن الكلاب نبحت وما رجعوا. وكانت حركة الاصـلاح عليها تبشـير من النبى صـلى الله عليه وسـلم وفيها علامـات واضـحة. وكان حتما أن يواجه الناكثون خاصف النعل فى ميـدان القتال. وكانت المعارك أيضا عليها علامات من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[۱] ابن أبى الحديد ۵۹۸:۳.

[۲] البداية والنهاية ۵:۸.

[۳] رواه أحمد وقال فى الفتح: وقال الهيثمى: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبرانى وإسناده حسن (الفتح الربانى ۳۶:۲۳)، (كنز العمال ۱۲۶:۱۳)، (تحفة الأحوازى ۲۳۴:۱۰).

[۴] رواه أحمد وقال الهيثمى رجاله ثقات (الزوائد ۱۰۳:۹) ورواه الطبرانى وابن أبى شيبة وابن سعد (كنز العمال ۱۲۴:۱۳).

[۵] رواه الترمذى وحسنه (الجامع ۶۳۷:۵)، (تحفة الأحوازى ۲۲۵:۱۰) رواه النسائى وابن خزيمة فى صحيحه، والحاكم وأبو نعيم وسعيد بن منصور (كنز العمال ۱۲۰:۱۳).

[۶] رواه النسائى ۲:۱۲.

[۷] رواه أحمد وابن حرير والضياء بسند صحيح (كنز العمال ۱۲۹، ۱۳۳، ۱۷۵:۱۳)، (الفتح الربانى ۱۲۲:۲۳).

[۸] رواه الطبرانى فى الأوسط وقال الهيثمى رجاله ثقات (الزوائد ۱۶۹:۹) وحديث الكساء روى عن عدد من الصحابة وقد خرجناه من قبل.

[۹] رواه الطبرانى وقال الهيثمى إسناده حسن (الزوائد ۲۰۳:۹).

[۱۰] رواه مسلم (الصحيح ۲۱۶۴)،، حب على من الإيمان.

[۱۱] رواه أحمد وابن جرير وصححه وسعيد بن منصور والضياء بسند صحيح (كنز العمال ۱۲۷، ۱۷۳:۱۳).

[۱۲] رواه الترمذى وحسنه (الجامع ۶۳۴:۵) والخطيب وابن جرير والضياء بسند صحيح (كنز العمال ۱۱۵، ۱۹۳:۱۳).

[۱۳] رواه ابن مردويه (كنز العمال ۴۲۵:۲)، (الدر المنثور ۲۱۵:۳)، وروى أيضا عن ابن عباس وحذيفة وأخرجه ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن ابن عمر (كنز العمال ۴۱۷، ۴۲۶ : ۱)، وروى أن حذيفة قال: ما بقى من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة ولا من المنافقين إلا أربعة. وأخرجه ابن أبى شيبة والبخارى فى تاريخه وابن مردويه (الدر المنثور ۲۱۴:۳).

[۱۴] رواه ابن عساكر وابن عدى والطبرانى (كنز العمال ۲۹۲:۱۱)، وقال ابن كثير روى من طرق عديدة (البداية ۳۳۴:۷).

[۱۵] ابن أبى الحديد ۴۹۳:۳.

[۱۶] المصدر السابق، ۴۹۷:۳.

[۱۷] المصدر السابق، ۴۹۸:۳.

[۱۸] المصدر السابق ۴۹۸:۳.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة)

تحتَ عنايـة سـماحة آيـة الله الحـاجّ السيّد حسن الإمـاميّ – دامَ عِزّهُ – و مـع مساعَـدَةِ جمـعٍ من خِرّيجى الحـوزات العلميّـة و طلاـب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّـباب و عموم النـاس إلى التّحَرّى الأـدَقّ للمسائـل الدّينيّـة، تخليف المطـالب النّافعـة – مكـانَ البَلاـتيثِ المبتذلـة أو الرّديئـة – فى المحـاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسـيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّـلام – بباعث نشـر المعارف، خـدمات للمحققين و الطّلّاب، توسـعة ثقافـة القراءة و إغناء أوقات فراغـة هُواةِ برامِـج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّـُبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشـرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّـه يُمكِن تسـريعُ إبراز المَرافِق و التسـهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جـهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّـُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخـَرَ

ه) إنتاج المُنتـَجات العرضيّة، الخـَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/"بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹